

ريبيكا إف. كوانج



رواية

ترجمة: داليا لويس



Lane7writings

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... إلى طائر في كنفه ...

بابل

بابل

لا مفر من العنف

ريبيكا إف. كوانج



ترجمة: داليا لويس

القيود تحديد مسؤولية / إخلاء مسؤولية من أي ضمان

هذه ترجمة عربية لطبعة اللغة الإنجليزية. لقد بذلنا قصارى جهدنا في ترجمة هذا الكتاب، ولكن بسبب المتأصلة في طبيعة الترجمة والنتيجة عن تعقيدات اللغة، واحتمال وجود عدد من الترجمات والتفسيرات المختلفة لكلمات وعبارات معينة، فإننا نعلن وبكل وضوح أننا لا نتحمل أي مسؤولية ونخلي مسؤوليتنا بخاصة عن أي ضمانات ضمنية متعلقة بملاءمة الكتاب لأغراض شرائه العادية أو ملاءمته لغرض معين. كما أننا لن نتحمل أي مسؤولية عن أي خسائر في الأرباح أو أي خسائر تجارية أخرى، بما في ذلك على سبيل المثال لا الحصر الخسائر العرضية أو المترتبة، أو غيرها من الخسائر.

حقوق النشر

- لا يجوز إعادة إنتاج أو تخزين هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي نظام لتخزين المعلومات أو استرجاعها أو نقله بأية وسيلة إلكترونية أو آلية أو من خلال التصوير أو التسجيل أو أية وسيلة أخرى.
- إن المسح الضوئي أو التحميل أو التوزيع لهذا الكتاب من خلال الإنترنت أو أية وسيلة أخرى بدون موافقة صريحة من الناشر هو عمل غير قانوني. رجاء شراء النسخ الإلكترونية المعتمدة فقط لهذا العمل، وعدم المشاركة في قرصنة المواد المحمية بموجب حقوق النشر والتأليف سواء بوسيلة إلكترونية أو بأية وسيلة أخرى أو التشجيع على ذلك. ونسحق نقدر دعمك لحقوق المؤلفين والناشرين.
- رجاء عدم المشاركة في سرقة المواد المحمية بموجب حقوق النشر والتأليف أو التشجيع على ذلك. نقدر دعمك لحقوق المؤلفين والناشرين.
- هذا الكتاب عمل خيالي، وإذا وردت فيه أي إشارات إلى أحداث تاريخية أو أشخاص حقيقيين أو أماكن حقيقية، فهي مستخدمة بشكل تخيلي. أما الأسماء والشخصيات والأماكن والأحداث الأخرى فهي من وحي خيال المؤلف، وأي تشابه مع أحداث أو أماكن أو أشخاص حقيقيين، سواء كانوا أحياء أو أمواتاً، فهو محض مصادفة بحتة.

الطبعة الأولى 2025

حقوق الترجمة العربية والنشر والتوزيع محفوظة المكتبة جرير

ARABIC edition published by JARIR BOOKSTORE. Copyright 2025.

.All rights reserved

Copyright © Rebecca Kuang 2022

Maps of Oxford and Babel copyright © Nicolette Caven 2022

Crest illustration copyright © HarperCollins Publishers 2022

R.F. Kuang asserts the moral right to be identified as the author of this work In agreement with Harper Collins Publishers, through Bears Factor .FZC. All Rights Reserved

للتعرف على فروغنا نرجو زيارة www.jarir.com

إذا كانت لديكم أي ملاحظات حول الترجمة أو الكتاب، أو اقتراحات لترجمة كتب أخرى، فالرجاء مراسلتنا على: jbpublishments@jarirbookstore.com

BABEL

OR

THE NECESSITY OF VIOLENCE

*An Arcane History of the Oxford
Translators' Revolution*



R.F. KUANG



تم تجهيز هذه النسخة بواسطة:

• ميساء طه •

جميع الحقوق محفوظة ©



مكتبة ضاد الإلكترونية
t.me/twinkling4



أمسح الكود وانضم لأسرة ضاد
<https://t.me/twinkling4>

روایات آخری من تالیف رییکا افا. کوانج

The Poppy War
The Dragon Republic
The Burning God

إلى بينيت

الذي يملأ العالم بهجة وإشراقاً.



مدينة أكسفورد

حقول ميرتون

ضاد مكتبة

كيج سترين

هاي

سترين

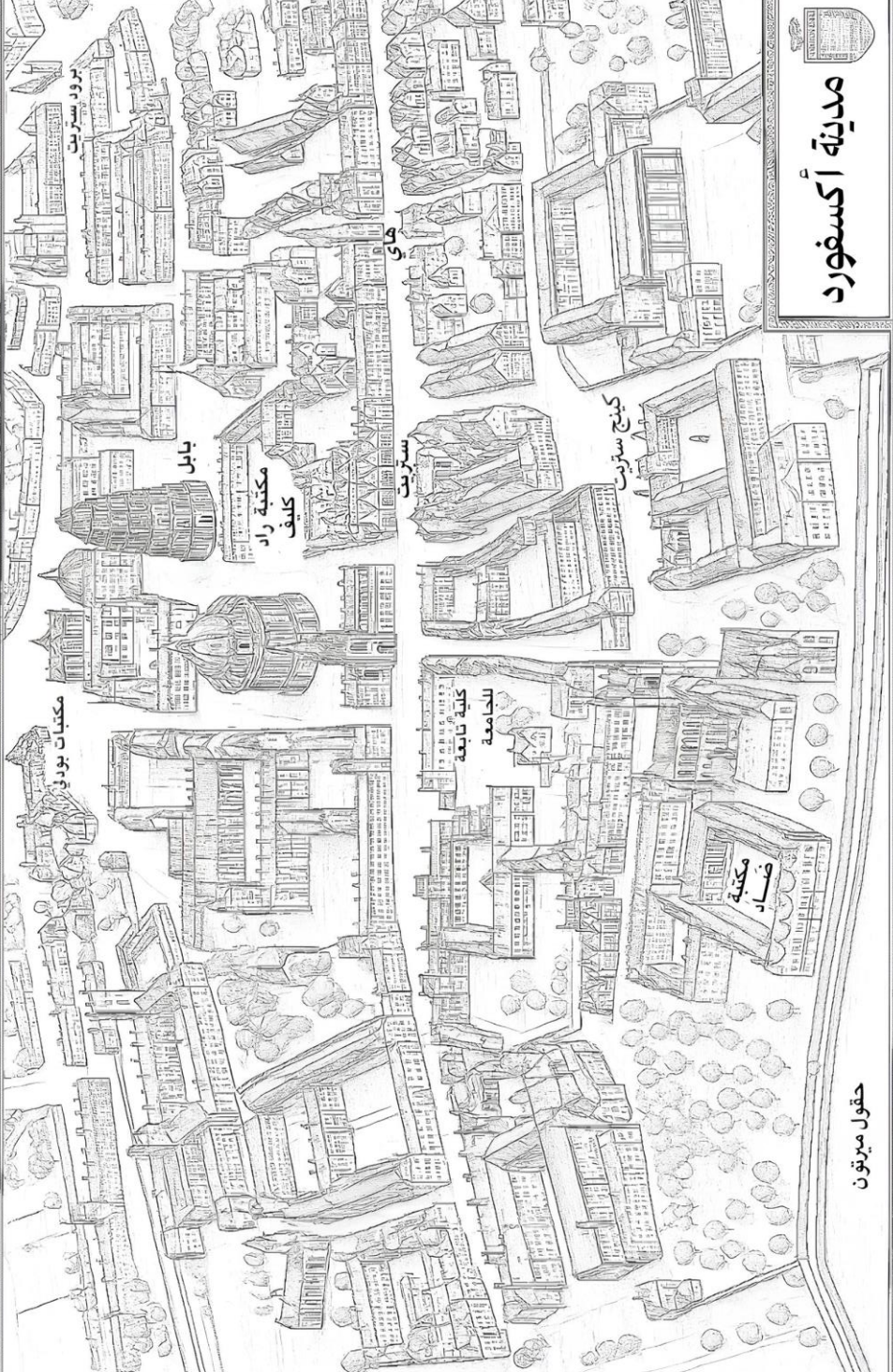
الجامعة
كتبة تابعة

مكتبة راد
كليف

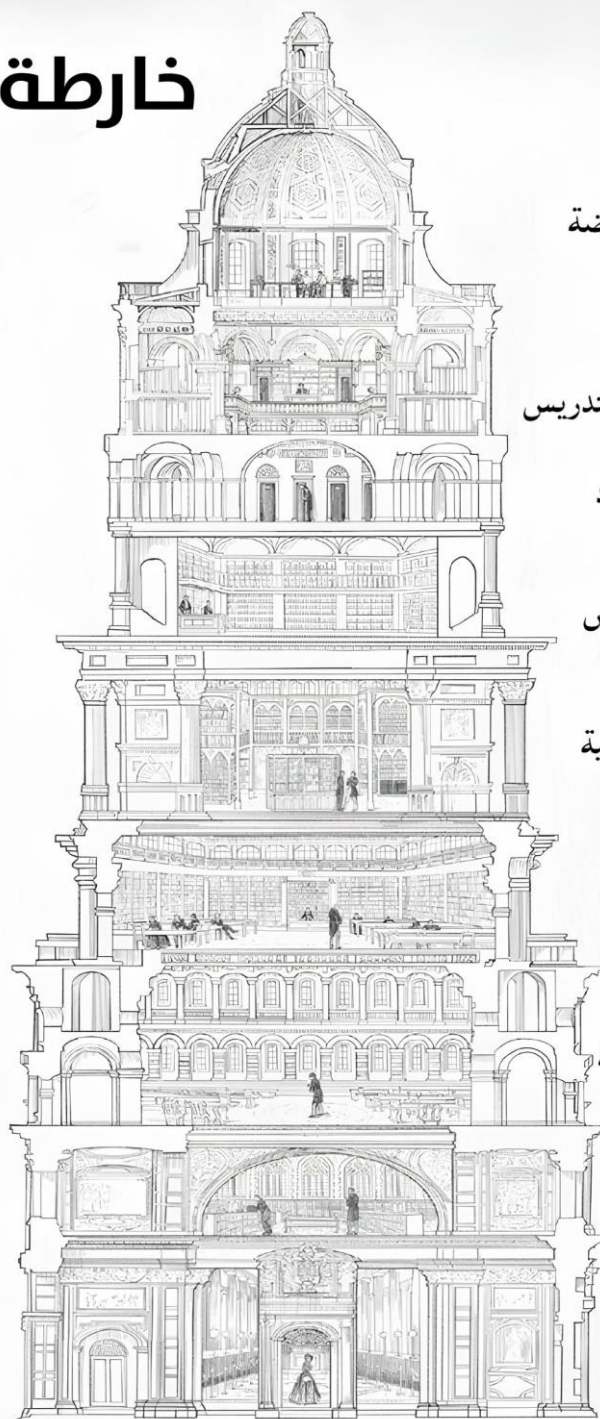
بابل

برود سترين

مكتبات بودلي



خارطة بابل



العمل بالفضة

مكاتب هيئة التدريس

مكتبة ضاد

حجرات الدرس

و

المواد المرجعية

قسم الأدب

الترجمة الفورية

القسم القانوني

الردهة

تعليق المؤلفة

على تصويرها إنجلترا القديمة، لا سيما
جامعة أوكسفورد

تتمثل المشكلة في تأليف رواية عن أوكسفورد في أن أي شخص قضى وقتًا في تلك المدينة سيدقق في النص كي يعرف ما إذا كان تصويرك أوكسفورد متفقًا مع ذكرياته عن المكان. الأسوأ هو أن تكون أمريكيًا تكتب عن أوكسفورد! فماذا يعرف الأمريكيون عن أي شيء؟ ها هو ذا ردي:

تعد (بابل) عملاً خياليًا تأمليًا، ومن ثم، تقع أحداثها في نسخة خيالية من مدينة أوكسفورد في ثلاثينيات القرن التاسع عشر التي تغير تاريخها تمامًا بسبب العمل بالفضة (سنسوق المزيد خلال وقت قصير). مع ذلك، حاولت الالتزام، قدر المستطاع، بدقة السجل التاريخي في وصف حياة أوكسفورد في العصر الفيكتوري، وبالاكتفاء بتقديم قدر من المغالطات فقط حين يخدم ذلك الرواية. وفيما يتعلق بالمراجع الخاصة بأوكسفورد في بدايات القرن التاسع عشر، اعتمدت على الدليل والمرجع التاريخي لمدينة أوكسفورد (1878) الذي كتبه «جيمس جيه مور»، علاوة على تاريخ جامعة أوكسفورد في مجلديه السادس والسابع الذي أعده «إم جي بروك» و«إم سي كورثوايز» (في عامي 1997 و2000 على الترتيب) وغيرها.

ومن ناحية الخطاب والنسيج العام للحياة (مثل اللغة الدارجة في أوكسفورد عند بداية القرن التاسع عشر والتي تختلف كثيرًا عن لغتها الدارجة الحالية)*، فقد استخدمت المصادر الأولية مثل تاريخ الكليات، والقاعات،

* على سبيل المثال، حين كنت في أوكسفورد، لم أسمع أحدًا يشير إلى هاي ستريت قائلًا: «ذا هاي»، لكن «جي في كوكس» يخبرنا بشيء غير ذلك.

والأبنية العامة الملحقة بجامعة أوكسفورد، بما في ذلك حياة المؤسسين (1810) تأليف «أليكس تشالمرز»، وخواطر عن أوكسفورد لـ«جي في كوكس» (1868)، والذكريات، وعلى رأسها ذكريات كلية أوريل وحركة أوكسفورد (1882) تأليف «توماس موزلي»، وذكريات أوكسفورد (1908) لـ«دبليو تاكويل». ولأن القصص الخيالية قد تروي لنا الكثير عن الواقع المعيش أو، على الأقل، طريقة تصويره، فقد أضفت تفاصيل مستوحاة من روايات، مثل مغامرات السيد «فيردانت جرين» (1875) تأليف «كوثربرت إم بيد» وتوم براون في أوكسفورد (1861) تأليف «توماس هيوز»، وتاريخ بيندينيس لـ«ويليام ميكيبس ثاكيري» (1850). لكنني اعتمدت على خيالي وذكرياتي في باقي الأمور.

ولمن يعرف أوكسفورد، ومن ثم، يتوق للصراخ: «كلا، ليست الأمور هكذا!»، سوف أشرح بعض السمات الخاصة. حتى عام 1856، لم يكن اتحاد أوكسفورد قد تأسس بعد، ومن ثم، يُشار إليه في هذه الرواية باسم سابقه وهو جمعية المناظرات المتحدة (التي تأسست عام 1823). كذلك، فلم يكن هناك وجود لـ«فولتس» ولا «جاردن كافيه» اللذين عشقتهما حتى عام 2003، لكن بحكم قضائي وقتاً طويلاً هناك (وتناولي الكثير من الكعك) لم أستطع حرمان «روبين» وأصدقائه من تلك المتعة عيناها. كذلك فإن «ذا تويستد روت» كما هو موضح لم يكن موجوداً؛ وعلى حد علمي، لا يوجد ملهى في أوكسفورد يحمل هذا الاسم. كما لا يوجد مكان يُدعى «تايلورز» في «وينشستر رود» رغم أنني مغرمة بـ«تايلورز» في «هاي ستريت». يوجد نصب تذكاري لشهداء أوكسفورد، لكنه لم يكتمل حتى عام 1843، أي بعد مرور ثلاث سنوات على النهاية المكتوبة في هذه الرواية. لقد أجريت تعديلاً طفيفاً على تاريخ إنشائه لتحقيق إحالة أدبية دقيقة. كما توجت الملكة «فيكتوريا» في يونيو عام 1838، لا 1839. ولم يؤسس خط السكة الحديدية الذي يربط بين أوكسفورد وبادينجتون حتى عام 1844، لكنه أنشئ في روايتي قبلها بأعوام لسببين. أولاً: هذا منطقي بالنسبة لما أضفيه على التاريخ من تغيير، ثانياً: كنت بحاجة لجعل شخصياتي تصل أسرع إلى لندن!



تعاملت بحرية فنية مع الحفل التذكاري، وهو ما يجعله أكثر تشابهًا مع الحفل التذكاري المقام بجامعة أوكسفورد في شهر مايو من أي نوع من الفعاليات الاجتماعية في بداية العصر الفيكتوري. فعلى سبيل المثال، أعرف أن المحار كان طعامًا أساسيًا للفقراء في بداية العصر الفيكتوري، لكنني قررت أن أجعله من المأكولات الفاخرة، ذلك أن هذا كان أول انطباعاتي عن حفل شهر مايو 2019 الذي أقيم في كلية ماجدلين بكامبريدج، إذ وضعوا أكوامًا من المحار على الثلج (لم أكن قد أحضرت حقيبة، ورحت أنقل هاتفي، وكأس الشراب، والمحار بين يديّ، ما أدّى إلى سكبي الشراب فوق حذاء أنيق خاص برجل كبير السن!).

قد يندهش البعض من الموضع الدقيق للمعهد الملكي للترجمة، والمعروف باسم بابل، ذلك أنني حرّفت الجغرافيا كي أخصص له موضعًا. تخيلوا مرجًا بين مكتبات بودلي، ومسرح شيلدون، وقمرة رادكليف. لقد جعلتها أكبر ووضعت بابل في المنتصف.

إذا وجدتم أي تناقضات، فلا تترددوا في تذكير أنفسكم أن هذه الرواية في النهاية هي عمل خيالي.



الكتاب "الأول"



الفصل الأول



إن اللغة رفيق أي إمبراطورية؛ إذ تبدآن معًا، وتنموان وتزدهران معًا،
كذلك تسقطان معًا في النهاية.

أنطونيو دي نبريخا
قواعد النحو القشتالي

اهتدى الأستاذ ريتشارد لوفيل إلى طريقه في أزقة كانتون الضيقة وعثر
على عنوان قديم في مفكرته. حينئذٍ، كان هناك صبي واحد باقٍ على قيد
الحياة في المنزل.

كان الهواء كريه الرائحة والأرضيات زلقة. لم يمض أحد الجرة المملوءة
بالماء بجوار السرير. في البداية، كان الصبي مرعوبًا من الشعور بالغثيان،
فامتنع عن تناول الشراب، لكنه صار أشدّ ضعفًا من أن يرفع الجرة. ورغم
دخوله في غفوة ثم غيبوبة خفيفة شبيهة بالحلم، فإنه كان واعيًا إلى حدٍّ ما.
وسرعان ما عرف أنه راح في سبات عميق ولم يستيقظ. كان هذا ما حدث
لأجداده منذ أسبوع، ثم خالاته بعد مرور يوم، ثم تلك السيدة الإنجليزية التي
كانت تُدعى الأنسة بيتي بعد هذا بيوم.

كانت أمه قد قضت نحبها صباح ذلك اليوم، فتمدّد بجوار جثتها مراقبًا
اللونين الأزرق والقرمزي وهما يتغلغلان في جلدها، كان آخر شيء نطقت
به هو اسمه، مُجرّد مقطعين خرجا من فمها دون أنفاس، ثم صار وجهها
مُرتخيًا بلا تعبير، بينما تدلّى لسانها من فمها. حاول الصبي إغلاق عينيها
الغائمتين، لكن جفنيها واصلتا الارتداد إلى الخلف!

لم يردّ أحد حين طرق الأستاذ لوفيل الباب، ولم يهتف أحد ذعرًا حين ركل
الباب الأمامي الذي كان موصدًا؛ لأنّ اللصوص كانوا يسرقون محتويات



بيوت الحي كاملة أثناء انتشار الوباء. وعلى الرغم من قلة قيمة محتويات منزلهم، كان الصبي وأمه يُريدان أن ينعما ببضع ساعات من السكينة قبل أن يقضي المرض عليهما. كان الصبي قد سمع الضجيج الصادر من الطابق العلوي، لكنه لم يلتفت إليه.

ففي ذلك الوقت، كان يُريد أن يموت بهدوء فحسب.

صعد الأستاذ لوفيل الدّرج، واجتاز الغرفة، ثم وقف بجوار الصبي يتأمله لفترة طويلة. لم يلاحظ تلك المرأة الممددة على السرير وقد خلا وجهها من أثر الحياة أو لعلّه قرّر عدم ملاحظتها. كان الصبي راقداً بلا جراك يتساءل ما إذا كان هذا الشخص الطويل الشاحب قد أتى لحصد روحه.

سأل الأستاذ الصبي: «كيف حالك؟».

كان الصبي يتنفس بصعوبة شديدة، ما جعله يعجز عن الرد.

جنّا لوفيل بجوار السرير ثم أخرج لوحاً فضياً من جيبه الأمامي ووضعهُ على صدر الصبي العاري، فجفل الصبي، إذ قرصه ملمس المعدن كالتلج. «ترياكل». نطقها الأستاذ أولاً بالفرنسية ثم بالإنجليزية: «شراب حلو».

لمع اللّوح بلون أبيض باهت، ثم صدر صوت مُخيف بشكل مفاجئ. لعلّه كان رنيناً أو غناءً. انتحب الصبي وتكوّر على جانبه ولسانه يتحرك بارتباك حول فمه.

همهم الأستاذ: «تحمّله، وابتلع ما تتنوقه».

مرّت الثواني ببطء، بدأ الصبي يتنفس بانتظام، ثم فتح عينيه ليرى الأستاذ لوفيل على نحو أوضح ويتبين عينيه ذواتي اللّون الرمادي الداكن وأنفه المعقوف والتي كانوا يطلقون عليها اسم ينجوبي، أي الأنف شبيه بمنقار الصقر والذي لا يمكن أن يكون إلا على وجه أجنبي.

سأله الأستاذ لوفيل: «كيف حالك الآن؟».

تنفس الصبي بعمق ثم قال بلغة إنجليزية سليمة أذهلت الرجل: «إنه



حلو. طعمه حلو جدًا...».

«جيد. يعني هذا أن الدواء ناجع»، ثم أعاد الأستاذ اللّوح إلى جيبه مردفًا:
«أهناك مَنْ لا يزال على قيد الحياة هنا؟».

همس الصبي: «كلا، لا يوجد سواي».

«أوجد شيء لا يسعك تركه؟».

صمت الصبي للحظة. وهُنا هبطت ذبابة فوق وجنة أمه وراحت تزحف نحو أنفها. أراد إبعادها، لكنّه لم يقوَ على رفع يده.

قال الأستاذ لوفيل: «لا أستطيع اصطحاب جثة إلى حيث نذهب».

حدّق الصبي إلى أمه لمدة طويلة.

ثم قال في النهاية: «كتّبي. إنّها تحت السرير».

انحنى الأستاذ لوفيل أسفل السرير وسحب أربعة مجلدات سميكة. كانت كتّبا باللغة الإنجليزية ذات كعوب متآكلة بفعل الاستخدام. وكان بعض الصفحات رقيقًا على نحو جعل الكتابة لا تكاد تُقرأ. راح الأستاذ يقلّبها ويتسم على الرغم عنه، ثم وضعها في حقيبته، ولَفّ ذراعيه حول جسد الصبي النحيل وحمله إلى خارج المنزل.

في عام 1829، شق الوباء، الذي عُرف لاحقًا باسم الكوليرا الآسيوية، طريقه من كالكوئا عابرًا خليج البنغال نحو الشرق الأقصى، ليحط أولاً في سيام، ثم مانيلّا، وأخيرًا على شواطئ الصين على متن السفن التجاريّة التي كان بحّارتها المُصابون بالجفاف والهزال يلقون بمخلفاتهم في نهر اللؤلؤ، ما لَوّث مياهه التي كان الآلاف يشربونها، ويغسلون فيها ملابسهم، ويسبحون، ويستحمون. ثم ضرب كانتون كموجة عارمة وسرعان ما شقّ طريقه من أرصفة الميناء إلى المناطق الداخليّة المأهولة بالسكان. كان الحي الذي يقطن فيه الصبي قد اجتاحه الوباء في غضون أسابيع، وهلكت أسر



بأكملها داخل منازلها عجزاً. حين حمل الأستاذ لوفيل إلى خارج أزقة كانتون، كان جميع من في الشوارع قد غادرتهم الحياة.

علم الصبي بكل تلك الأمور حين فتح عينيه ليرى نفسه في غرفة نظيفة، جيدة الإضاءة في المصنع الإنجليزي، ملفوفاً في بطاطين أكثر نعومة وبياضاً من أي شيء سبق له لمسه. قللت تلك الأشياء شيئاً من شعوره بعدم الارتياح. كان مصاباً بحمى شديدة، وكان لسانه شديد الجفاف كالحجر الرملي السميك. كان يشعر كأنه يطفو فوق جسده. وكلما كان الأستاذ يتحدث، كان يشعر بالآلام حادة تضرب صدغيه مصحوبة بومضات حمراء.

قال الأستاذ لوفيل: «أنت محظوظ للغاية، إذ إن هذا المرض يحصد كل ما في طريقه».

راح الصبي يحدّق مذهولاً من استطالة وجه الرجل الأجنبي وعينه الرماديتين الباهتتين. لو شرد بتركيزه، لتحول ذلك الغريب إلى طائر عملاق، بل إلى غراب، أو طائر جارح، أو كيان قوي ومُخيف.

«هل يمكنك فهم ما أقوله؟».

بلّ الصبي شفثيه الجافتين ونطق بإجابة.

هزّ الأستاذ لوفيل رأسه قائلاً: «الإنجليزية. استخدم لغتك الإنجليزية».

كان الصبي يشعر بحرقه في حلقه، فراح يسعل.

قال الأستاذ لوفيل بنبرة تحذيرية: «أعرف أنّك تجيد الإنجليزية.

استخدمها».

تنفس الصبي قائلاً: «أمي. لقد نسيت أمي».

لم يحر الأستاذ لوفيل جواباً، بل وقف بسرعة ومسح ركبتيه ثم غادر. بيد أنّ الصبي لم يعرف كيف تراكم أي تراب خلال بضع دقائق جلسها الرجل!

* * *



في صباح اليوم التالي، استطاع الصبي أن يتناول وعاءً كاملاً من المرق دون أن يتقيأ. ثم في الصباح الذي تلاه، استطاع الوقوف دون أن يشعر بالدوار. غير أن ركبتيه كانتا ترتعشان بقوة بسبب عدم الحركة، ما أجبره على التثبّت بإطار السرير اتقاءً للسقوط. انحسرت عنه الحمى، وشيئاً فشيئاً تحسّنت شهيته. وحين استيقظ مجدداً ذات ظهيرة، وجد الإناء وقد استُبدل به طبق يحتوي على شريحتين كبيرتين من الخبز وقطعة كبيرة من اللحم. التهم كل هذا بيديه العاريتين، إذ كان يتضور جوعاً.

قضى معظم ذلك اليوم في غفوة قاطعها دخول السيدة بايبر على نحو منتظم. كانت امرأة بدنية مرحة تأتي لنفخ وسانده، ومسح جبينه بقماش ناعم مبلّل منعش، وكانت تتحدّث الإنجليزية بلكنة غريبة جعلت الصبي يطلب منها تكرار ما قالته عدة مرات.

ضحكت حين فعل ذلك أول مرة وقالت: «إنني مذهولة. لا بد أنك لم تقابل أُسكتلندياً».

«أ... أُسكتلندي؟ ما هو الأُسكتلندي؟».

رَبَّتت وجنته وأجابت: «لا عليك. ستدرس خارطة بريطانيا العظمى عمّا قريب».

في ذلك المساء، أحضرت له السيدة بايبر العشاء -خبز ولحم مجدداً- علاوة على أخبار الأستاذ الذي أراد أن يقابله في مكتبه، قائلة له: «إنه في الطابق العلوي، الباب الثاني من الجهة اليمنى. أنه طعامك أولاً، فلن يبرح من مكتبه».

التهم الصبي طعامه بسرعة وارتدى ملابسه بمساعدة السيدة بايبر. لم يكن يعرف من أين أتت الملابس -إذ كانت غريبة الطراز ولكنها كانت متناسبة مع جسده القصير والنحيل بشكل مذهل، لكنه كان أكثر تعباً من أن يطرح مزيداً من الأسئلة.



لم يكن يدري ما إذا كانت الرَّجفة التي شعر بها أثناء صعوده الدرج من جراء الإرهاق أم الذعر. كان باب مكتب الأستاذ مغلقاً، فانتظر لحظة ليلتقط أنفاسه ثم طرقه.

هتف الأستاذ: «ادخل!».

كان الباب ثقيلًا للغاية، فاضطر الصبي للاستناد إلى الخشب كي يفتحه. وحين دخل، غمرته رائحة الكتب العتيقة التي كانت مزيجًا من المسك والحبر. كانت هناك أكوام عديدة من الكتب. كان بعضها مرتبًا بنظام فوق الأرفف، في حين كان البعض الآخر مكسًا بشكل فوضوي على هيئة أهرامات متقلقلة في جميع أرجاء الغرفة، وكان بعضها منثورًا على الأرضية، وغيرها يتأرجح على المكاتب التي بدت وكأنها رُتبت بعشوائية في تلك المتاهة المعتمة.

وهنا جاءه صوت الأستاذ والذي كان شبه مُخْتَفٍ وراء خزانة الكتب قائلاً: «تعال هنا». شق الصبي طريقه بارتباك عبر الغرفة خوفًا من أن تؤدي أي حركة خاطئة إلى انهيار تلك الأهرامات! «تقدم دون خجل».

أمره الأستاذ وهو جالس وراء مكتب مغطى بالكتب، والأوراق المتناثرة، والمظاريف، ثم أشار للصبي كي يجلس قبلته ثم بادره: «هل سمحوا لك بقراءة الكثير هنا؟ ألم تمثل لك اللغة الإنجليزية مشكلة؟».

أجاب الصبي وهو جالس بحذر شديد حرصًا على ألا يطأ المجلدات: «قرأت بعض الكتب». ثم لاحظ سجلّ رحلات ريتشارد هاكليوت مكسًا عند قدميه، فأردف: «لم يكن لدينا الكثير من الكتب، فانتهى بي الأمر لإعادة قراءة ما كنا نمتلكه».

كان نطق الصبي باللغة الإنجليزية جيدًا بشكل ملحوظ، مع الأخذ بعين الاعتبار أنه لم يبرح كانتون طوال عمره. بيد أنه كان للغته الأم أثر طفيف في نطقه. كان هذا بفضل سيدة إنجليزية تُدعى الأنسة إليزابيث سليت، والتي



كان الصبي يدعوها باسم آنسة بيتي. كانت تقطن مع أسرته منذ عهد بعيد. لم يفهم تمامًا ما كانت تعمله هناك، إذ لم تكن الأسرة بالغنى الكافي لتعيين خدم، وبخاصة من الأجانب، ولا بد أن أحدهم كان يدفع لها أجرها لأنها لم تغادر أبدًا، ولا حتى حين تقشى الوباء.

كانت تتحدث لغة كانتونية لا بأس بها تسمح لها بالتجول في المدينة دون مُقابلة مشاكل. لكنها كانت تتحدث مع الصبي باللغة الإنجليزية فحسب. تمحورت مهمتها الوحيدة حول الاعتناء به، وكانت طلاقة الصبي في اللغة تُعزى له لتداوله معه، ثم مع البحارة البريطانيين في أرصفة الموانئ لاحقًا.

كان يقرأ اللغة على نحو أفضل من تحدثه بها. ومنذ بلوغه الرابعة من عمره، لم ينفك يتسلّم طردًا كبيرًا مملوءًا بالكتب الإنجليزية مرتين في السنة. كانت تلك الطرود ترد من مقر سكني بضاحية هامبستيد المتاخمة للندن، وهو مكان لم تألفه الأنسة بيتي ولم يعلم عنه الصبي أي شيء بطبيعة الحال. وبغض النظر، اعتاد الجلوس مع الأنسة بيتي في ضوء الشموع الشموع لقراءة الكلمات بصوت مرتفع وتتبعها بأصابعهم بدقة. وحين تقدم في العمر، كان ليقضي فترات ظهيرة بأكملها مدققًا بمفرده في الصفحات البالية. لكن عشرات الكتب كانت تغطي بصعوبة ستة أشهر، إذ دأب على قراءة كل كتاب عدة مرّات حتى كاد يحفظها بحلول وقت وصول الشحنة التالية.

وقد أدرك الآن، دون أن يفهم الصورة الكبرى بدقة، أنّ الأستاذ هو من كان يُرسل تلك الطرود.

رد بوهن قائلاً: «لطالما استمتعت بالقراءة»، ثم أردف ظنًا منه أنه يجب أن يضيف المزيد: «ولم تكن اللغة الإنجليزية تمثل مشكلة».

«هذا جيد جدًا». وهنا التقط الأستاذ لوفيل مجلدًا من الرف الموجود خلفه ومرره فوق الطاولة قائلاً: «أظنك لم تر هذا من قبل».

نظر الصبي إلى العنوان «ثروة الأمم» من تأليف آدم سميث، وهزّ رأسه قائلاً: «عزّأ، لم أفعل».



«حسنًا»، ثم فتح الأستاذ الكتاب على صفحة في المنتصف وأشار قائلاً:
«اقرأ عليّ بصوت مرتفع. ابدأ من هنا».

ازدرد الصبي ريقه وسعل كي يصفّي حنجرته، ثم بدأ يقرأ. كان الكتاب شديد السُمك، وكان الخطّ بالغ الصغر، وكانت اللغة النثرية أكثر صعوبة من لغة روايات المغامرات المرححة التي كان يقرأها مع الأنسة بيتي. كان يتعثر في نطق الكلمات التي لم يعرفها والتي راح يخمنها ويتلوها.

«كانت الم... الميزات... إلخ... الخاصة التي تحصل عليها كل دولة مس-تع-مِرة من المُست... المستعمرات التي كانت تنتمي إليها بشكل خ... خاص تنقسم إلى نوعين اثنين. أولاً، تلك المميزات العامة التي تح... تحصل عليها كل إمبراطورية»، ثم تتحنح وواصل: «تحصل... عليها من الأقاليم الواقعة تحت سي.. سي*».

«يكفي هذا».

لم يفهم الصبي ما كان يقرأه، فقال: «سيدي، ما هو...».

قاطعهُ الأستاذ: «لا بأس. لم أتوقّع أن تفهم الاقتصاد العالمي. لقد أبلّيت بلاءً حسنًا». ثم وضع الكتاب جانباً وفتح درج مكتبه وأخرج قالباً من الفضة وسأله: «هل تتذكّر هذا؟».

حدّق الصبي، وكان أشد خوفاً حتى من أن يلمسه.

لقد رأى قوالب مثله من قبل. كانت نادرة الوجود في كانتون، لكن الجميع كانوا يعرفون بينفاولو أو التماثم الفضية. لقد رآها مثبتّة في مقدمات السفن، ومنحوتة في جوانب المحفات، ومعلقة فوق أبواب المخازن في الحيّ الأجنبي. لم يتوصّل إلى ماهيّتها على وجه التحديد، ولم يستطع أي من أفراد

* في الفصل الرابع من المجلد الرابع لكتاب ثروة الأمم، راح آدم سميث يحتجّ على الاستعمار على أساس أن الدفاع عن المستعمرات يُعد استنزافاً للموارد، وأن المكاسب الاقتصادية التي تحققها التجارة الاحتكارية الاستعمارية مجرّد أوهام. يقول سميث: «لا يعود على بريطانيا العظمى شيء سوى الخسارة من سيطرتها على المستعمرات» وهو رأي لم يكن شائعاً في ذلك الوقت.



العائلة تفسير الأمر. كانت جدته تُطلق عليها اسم تعاويذ الأغنياء والتمائم المعدنية التي تحمل بركات الآلهة. أمّا والدته، فكانت تظن أنها تحتوي على شياطين مسجونة يمكن استدعاؤها لتنفيذ أوامر أسيادها، بل وحتى الأنسة بيتي التي لم تتفكّ تعلن عن احتقارها للخرافات الصينية المتجذرة، ودرجت على انتقاد احترام والدته للأشباح الجائعة، وكانت تجدها مُخيفة. وحين كان يسألها، كانت تجيبه قائلة: «إنها سحر. ما هي إلا من عمل الشيطان».

لهذا، لم يرَ الصبي في تلك الـ بينفاولو سوى ألواح كتاك التي أنقذت حياته منذ عدّة أيام.

ثم قدّم الأستاذ اللّوح إليه وقال: «هلم. ألق نظرة، لن يؤذيك».

تردد الصبي، ثم لم يلبث أن أمسكه بيديه. كان اللوح بارداً أملس، بيد أنه بدا عادياً جداً. فلو كان هناك شيطان مَحْبوس بداخله، فلا بد أنه كان يُحسن الاختباء.

«هل تستطيع قراءة المكتوب عليه؟».

أمعن الصبي النّظر ولاحظ وجود كتابة بالفعل، كانت الكلمات شديدة الصغر ومنحوتة بعناية على جانبيّ اللوح، بينما كانت ثمة كلمات إنجليزية على أحد الجوانب وحروف صينيّة على الجانب الآخر، ثم قال: «نعم».

«اقرأها بصوت مرتفع، بالصينية ثم بالإنجليزية. انطق بوضوح».

تعرّف الصبي على الحروف الصينية رغم غرابة الخط الذي بدا كأن شخصاً رسمه بعد أن رآه ونسخه حرفاً تلو الآخر دون أن يعرف معناه.

日文翻譯: فراح يقرأ:

قرأ ببطء وحرص على توضيح كل مقطع: «هولون تون زاو» ثم تحول إلى الإنجليزية وقال: «قبول دون تفكير».

وهنا بدأ القالب يطن.



وسرعان ما تمدد لسانه وحجب مسار الهواء، فراح الصبي يمسك بحلقه وهو يكاد يختنق. سقط اللوح في حجره وراح يهتز بشدة ويرقص كأنه في قبضة شيطان، ثم امتلأ فمه بطعم شديد الحلاوة كطعم البلح. راح الصبي يفكر دون تركيز حتى كاد يفقد وعيه. كان طعم بلح شديد الحلاوة والنضوج، بل كان حلواً على نحو مثير للغثيان. كان يغرق فيه. انسد حلقه تماماً، ما جعله لم يستطع التنفّس...

وهنا مال الأستاذ وجذب الحجر من فوق حجره وقال: «مهلاً». فتبدد إحساسه بالاختناق، وانهار الصبي فوق المكتب وهو يشطف الهواء. قال الأستاذ لوفيل: «هذا مثير للاهتمام. لم أعرف أبداً أن له هذا التأثير القوي. ما طعم فمك؟».

انهمرت الدموع على وجه الصبي وقال بالصينية: «هونجراو» لكنه سرعان ما تحول إلى الإنجليزية قائلاً: «بلح».

«جيد، بل جيد جداً». راح الأستاذ لوفيل يُراقبه للحظة طويلة ثم أعاد اللوح إلى الدرج، مردفاً: «إنه ممتاز في واقع الأمر».

كفكف الصبي دموعه وهو يشهق، في حين أراح الأستاذ ظهره وانتظر ريثما يتعافى الصبي قليلاً، ثم واصل حديثه قائلاً: «سأغادر هذا المكان إلى مدينة تُدعى لندن في بلاد تُدعى إنجلترا برفقة السيدة بايير في غضون يومين. أنا متأكد أنك سمعت عن كليهما».

أوماً الصبي في ارتباك، كانت لندن بالنسبة له مثل بلاد الأقزام ليليوت؛ وهو مكان بعيد خيالي، حيث لم يُشبهه أحد ولا حتى يرتدي ثياباً شبيهة بثيابه، أو يتحدث لغته.

«أقترح أن تأتي معنا. سوف تعيش في ضيعتي، وسأوفر لك غرفة وسكناً حتى تُصبح في سن مناسبة لكسب عيشك. وفي المقابل، ستتلقي دروساً في مناهج أقوم بتصميمها. ستعمل على اللغات اللاتينية واليونانية، والماندرين بطبيعة الحال. سوف تعيش حياة سهلة مريحة وتحصل على



أفضل تعليم يمكن تقديمه. كل ما أتوقعه في المقابل هو أن تجتهد في دراستك».

ضمَّ الأستاذ يديه كمن يصلي. وجد الصبي نبرته مربكة، إذ كانت مفتقرة إلى العاطفة. لم يستطع أن يتبين ما إذا كان الأستاذ يريد في لندن أم لا. لقد بدا هذا حقًا كعرض عمل أكثر من كونه كفالة.

واصل الأستاذ حديثه قائلاً: «فكر في عرضي. لقد ماتت أمك وأجدادك، كما أن أباك مجهول، وليست لديك عائلة ممتدة. لو بقيت هنا، فلن تجد مالا، بل إن كل ما ستجده هو الفقر، والمرض، والجوع. ولو حالفك الحظ، لوجدت عملاً في أرصفة الموانئ، لكنك ما زلت صغيراً، ومن ثم، ستقضي بضعة سنوات في التسوُّل أو السرقة. وإذا افترضنا أن عمرك سيمتد حتى البلوغ، فأقصى ما ستطمح إليه هو العمل الشاق على السفن».

وجد الصبي نفسه يحرق بذهول إلى وجه الأستاذ لوفيل وهو يتحدث. لم يبدُ الأمر وكأنه لم يقابل رجلاً إنجليزياً من قبل. لقد سبقت له مقابلة الكثير من البحارة في الموانئ، ورأى جميع وجوه الرجال ذوي البشرة البيضاء بجميع نوعياتها، بدءاً من الوجوه المسطحة الحمراء، ومروراً بوجوه مرضى الكبد المبقعة، انتهاءً إلى الوجوه الطويلة، والشاحبة والجادة. لكن وجه الأستاذ كان يمثل لغزاً مختلفاً. كان وجهه يتمنَّع بجميع مكونات الوجه القياسي. كانت به عيان، وشفقتان، وأنف، وأسنان. كان رجلاً مُعافى طبيعياً. وكان صوته هادئاً محايداً، بيد أنه كان آدمياً. لكن، متى تحدث، كانت نبرته وتعبيراته خالية من العاطفة. كان كالصفحة البيضاء. لم يستطع الصبي التكهّن بمشاعره على الإطلاق، فأثناء وصف الأستاذ موت الصبي المبكر والحتمي، بدا كأنه يتلو مكوّنات اليخنة!

فسأله الصبي: «لماذا؟».

«ماذا تعني بـ لماذا؟».

«لماذا تُريدني؟».



أشار الأستاذ إلى الدرج الذي يحوي لوح الفضة وقال: «لأنك تستطيع عمل ذلك».

وفي تلك اللحظة فقط، أدرك الصبي أن هذا كان اختباراً.

ثم مرّر الأستاذ مستنداً من صفحتين على المكتب وقال: «هذه هي شروط كفالتني لك». نظر الصبي إلى أسفل، ثم تخلى عن محاولة قراءتها بسرعة، إذ بدا خط اليد الضيق المتشابك غير قابل للقراءة. «إنها في غاية البساطة، لكن احرص على قراءة كل شيء قبل أن توقع عليه. هلاً قمت بهذا الليلة قبل أن تخلد إلى النوم؟».

كان الصبي في غاية التوتر، ما جعله لا يفعل أي شيء سوى الإيمان. قال الأستاذ لوفيل: «جيد جداً. أود إضافة شيء. يجب أن يكون لك اسم».

رد الصبي: «لي اسم، إنه...».

«كلا. لن ينفع هذا. لن يستطيع أي رجل إنجليزي النطق به. هل أعطتك الأنسة سليت اسماً؟».

كانت قد أعطته اسمًا بالفعل، فحين بلغ الصبي الرابعة من عمره، أصرت أن يطلق عليه اسم يأخذه به الإنجليز على محمل الجد، لكنها لم توضح أي إنجليز يكونون! لقد اختارت شيئاً بطريقة عشوائية من كتاب أناشيد الأطفال، وكان الصبي مستمتعاً بدقة وثبات المقاطع على لسانه، فلم يبذل أي تبرم. غير أن أحداً من أفراد الأسرة لم يستخدمه وسرعان ما استبعدته الأنسة بيتي كذلك. اضطر الصبي للتفكير ملياً قبل أن يتذكر.

ثم قال: «روبين».*

* من قتل الديك المدعو (روبين)؟
من رآه يموت؟



صمت الأستاذ لوفيل للحظة، فتحير الصبي من تعبير وجهه، إذ كان حاجباه مقطبين، وكأنه غاضب. بيد أن أحد جوانب فمه تجعد، وكأنه سعيد! ثم بادره: «ماذا عن لقبك؟».

أجاب الصبي: «لدي لقب».

«لقب يناسب مدينة لندن. اختر ما تحب».

حدّق الصبي إليه ثم سأله: «هل أختار... لقباً؟».

كان يرى أن الألقاب أشياء لا تُترك وتستبدل بفعل النزوات، إذ كانت تدل على النسب والانتماء.

رد الأستاذ لوفيل: «يُعيد الإنجليز اختراع أسمائهم طوال الوقت. ولا تحتفظ بالأسماء سوى العائلات ذات الألقاب، وأنت ليست لديك عائلة، ومن ثم، يجب أن يكون لك اسم تقدم به نفسك. سيؤدي أي اسم الغرض».

«هل يمكنني أخذ اسمك، لوفيل؟».

أجاب الأستاذ: «أوه! كلا، سيظنون أنني والدك».

«أوه، صدقت». ثم راح الصبي ينقل بصره ببؤس في أرجاء الغرفة باحثاً عن كلمة أو صوت يمسك به، لتقع عيناه على مجلد مألوف على رف فوق رأس الأستاذ ألا وهو: «رحلات جاليفر»، كان البطل غريباً في أرض غريبة واضطر لتعلم اللغات المحلية حتى لا يموت. وهنا ظن أنه تفهم مشاعر جاليفر.

فقال بجرأة: «سوفيت؟ ما لم...».

ففوجئ بالأستاذ يضحك. بدا الضحك الخارج من ذاك الفم الصارم غريباً، وكان ذا صوت حادّ، بل يكاد يكون قاسياً، ولم يستطع الصبي إلا أن يجفل. قال لوفيل: «جيد جداً. ستصبح روبين سوفيت. سررت بلقائك سيد سوفيت».



فقام ومد يده فوق المكتب. كان الصبي قد رأى البحارة الأجانب يحيون بعضهم بعضًا فوق المرافئ، ومن ثم، كان يعرف ماذا يفعل. فمد يده في المُقابل لتلك اليد الكبيرة الباردة الجافة على نحو مُزعج وتصافحًا.

وبعد مرور يومين اثنين، أبحر الأستاذ لوفيل، والسيدة بايبر، وروبين سويفت إلى لندن. في تلك الأثناء، وبفضل ساعات كثيرة من النوم والراحة، علاوة على النظام الغذائي المتوازن المكون من اللبن الساخن والطعام الوفير الذي كانت السيدة بايبر تطهوه، تحسنت صحة روبين وصار يمشي دون مساعدة. لقد حمل صندوقًا مملوءًا بالكتب إلى معبر السفينة محاولًا مواكبة خطوات الأستاذ.

كان ميناء كانتون، والذي اعتُبر نقطة التقاء الصين بالعالم، عالمًا يعجّ باللغات التي كان أصحابها يتحدثونها بسرعة وصوت مرتفع، كالبرتغالية، والفرنسية، والهولندية، والسويدية، والدانماركية، والإنجليزية، في حين كانت اللغة الصينية تطفو في الهواء المحمل برذاذ البحر المالح، وتختلط بباقي اللغات منتجةً لغة هجينة مفهومة على نحو مشترك بصورة غير معقولة بحيث كان الجميع يفهمونها، لكن قليلين هم من كانوا يتحدثونها بسهولة. كان روبين يعرفها جيدًا، إذ حصل على أول دروسه في اللغات الأجنبية من الركض عبر أرصفة الموانئ، وقد اعتاد الترجمة للبحارة مقابل إلقاء بنس وابتسامة. لم يكن يتخيل أنه سيتتبع المكونات اللغوية الصغيرة لهذه اللغة الهجينة كي يصل إلى مصدرها.

راحوا يسيرون على الشاطئ كي ينضموا لخط الصعود إلى الباخرة كاونتيس أوف هاركورت، إحدى بواخر شركة الهند الشرقية التي كانت تُقل عددًا صغيرًا من الركاب في كل رحلة. في ذلك اليوم، كان البحر هائجًا متلاطم الأمواج. ارتجف روبين حين اقتحمت هَبّات الهواء البحري الباردة سترته. كان في أمس الحاجة لركوب السفينة ودخول قمرة أو أي مكان محاط بالجدران. لكن شيئًا كان يُعطل خط الصعود. فخطا الأستاذ لوفيل إلى الجانب ليلقي بنظرة. كان أحد رجال الطاقم يوبّخ راكبًا فوق معبر السفينة، فراحت الحروف المتحركة للغة الإنجليزية اللاذعة تخرق هواء الصباح البارد.



«ألا تفهم ما أقوله؟ ألا تعرف أي شيء؟ ني هاو؟ لاي هو؟».

كان عامل صيني يحمل مخلة فوق كتفه هو المستهدف من هذا الشجار. ولم يكن روبين ليسمع أي رد ينطق به العامل.

فراح عضو الطاقم يقول متبرماً: «لا يفهم أي كلمة مما أقوله. هلاً أخبر أحد هذا الشخص بأنه غير مسموح له بركوب السفينة؟».

وكزت السيدة بايبر ذراع الأستاذ لوفيل وقالت: «يا للرجل المسكين! هلاً ترجمت؟».

أجاب لوفيل: «لا أجيد اللهجة الكانتونية. اذهب يا روبين».

تردد روبين للحظة، إذ كان يشعر بالذعر.

دفعه الأستاذ فوق السقالة قائلاً: «اذهب!».

تعثر روبين وهو يتقدم نحو منطقة الاشتباك، فالتفت كل من عضو الطاقم والعامل نحوه، وبدا الضيق على الأول، في حين بدا الأخير مستريحاً، إذ سرعان ما أيقن من وجه روبين أنه صديق، إذ كان الصيني الوحيد في مرمى البصر.

فسأله روبين باللهجة الكانتونية: «ما الأمر؟».

قال العامل بسرعة: «لا يسمح لي باستقلال السفينة. لكنني متعاقد مع هذه السفينة حتى لندن. انظر، فالعقد ينص على هذا».

ثم دفع ورقة مطوية إلى روبين.

ففتحها روبين. كانت الورقة مكتوبة باللغة الإنجليزية، كما بدت بالفعل كعقد مع بحار آسيوي. كانت شهادة دفع مستمرة لرحلة من كانتون إلى لندن على وجه خاص. كان روبين قد رأى مثل هذه العقود من قبل، وقد شاعت على مدى عدة سنوات بسبب تزايد الطلب على عمال السخرة الصينيين بالتزامن مع الصعوبات التي باتت تواجه تجارة العبيد عبر البحار. ولم يكن



هذا أول عقد يترجمه، فقد رأى أوامر عمل للعمال الصينيين بالإبحار إلى وجهات بعيدة، مثل الهند، والبرتغال، وجزر الهند الغربية.

بدا الأمر طبيعياً بالنسبة لروبين، فسأل: «أين المشكلة إذا؟».

فسأله عضو الطاقم: «ماذا يقول لك؟ أخبره بأن العقد لن يُجدي نفعاً. لا يمكنني اصطحاب رجل صيني على متن هذه السفينة. كانت آخر سفينة أبحرت بها وأقلت صينياً قد تلوّثت بالقمل. لن أتحمّل مخاطر اصطحاب أناس لا يستحمون. حتى حين صرخت بكلمة الاستحمام، لم يفهمها. مرحباً؟ أيها الصبي؟ هل تفهم ما أقوله؟».

فتحول روبين بسرعة إلى الإنجليزية وقال: «نعم، نعم. أنا فحسب. أعطني لحظة، فأنا أحاول فحسب...».

ولكن ماذا كان ليقول؟

لم يفهم العامل، لكنه ألقى نظرة توسل على روبين. كان وجهه مجعداً ومسمراً بسبب الشمس، ومرهقاً على نحو جعله يبدو كرجل في الستين رغم كونه في الثلاثينيات. كان جميع عمال السخرة يهرمون بسرعة، إذ كان العمل ينهك أجسادهم. كان روبين قد رأى ذلك الوجه آلاف المرات على المرافئ. كان بعضهم يلقي إليه بالحلوى، وكان البعض الآخر يعرفه جيداً ويحييه بالاسم. لقد رأى في هذا الوجه انعكاساً لنفسه. لكنه أبداً لم ير رجلاً يكبره في السن يلجأ إليه بمثل هذا العجز.

مزّق الشعور بالذنب أحشائه، وتجمعت الكلمات القاسية والبشعة في فمه، لكنه لم يستطع تحويلها إلى جملة.

قال الأستاذ لوفيل وهو واقف بجانبه وممسك بكتفه بقوة أوجعته: «ترجم يا روبين لو سمحت».

وهنا أدرك روبين أن كل شيء صار معلقاً عليه، وكان الخيار له. كان هو الوحيد الذي يستطيع تحديد الحقيقة، إذ كان يستطيع توصيلها لجميع الأطراف.



ولكن، ماذا كان ليقول؟ لقد رأى غضب القبطان العارم، كما رأى الغضب يتصاعد من باقي الركاب الواقفين في الصف. كانوا متعبين، ويشعرون بالبرودة، ولم يفهموا سبب تأخرهم في الركوب. شعر بإبهام الأستاذ لوفيل وكأنه يثقب ترقوته، فخطرت له فكرة. كانت فكرة مخيفة على نحو جعل ركبتيه ترتعشان، فلو تسبب في متاعب وأثار فتنًا، فسوف تغادر كاونتيس أوف هاركورت تاركة إياه على الميناء أيضًا.

فهمس للعامل: «لم يعد عقدك ساريًا على هذه الباخرة. استقلّ الباخرة التالية».

فغر العامل فاه في ذهول وقال: «هل قرأته؟ يقول لندن، ويقول شركة الهند الشرقية، ويقول هذه الباخرة، كاونتيس...».

هزّ روبين رأسه وقال: «لا فائدة»، ثم كرر هذا السطر وكأنه يفعل ذلك لإثبات أنه حقيقي: «لا فائدة، يجب أن تحاول ركوب الباخرة التالية».

فسأل العامل: «ما خطب العقد؟».

خرجت الكلمات بصعوبة من فم روبين: «لا فائدة منه فحسب».

فقر العامل فاه له، إذ كانت آلاف المشاعر تعتمل فوق الوجه المرهق كالغضب، والإحباط، وأخيرًا الاستسلام. كان روبين يخشى من أن يحتجّ العامل أو يقاوم، لكن سرعان ما اتضح أن هذه المعاملة لم تكن جديدة بالنسبة لهذا الرجل، فقد حدث هذا من قبل، فاستدار العامل مجتازًا إلى معبر السفينة ودافعًا الركاب جانبًا، ليختفي في بضع لحظات!

شعر روبين بدوار شديد، فالتجأ إلى جوار السيدة بايبر أسفل المعبر، وقال: «أشعر بالبرد».

«أوه! يا للمسكين! أنت ترتجف». وسرعان ما احتوته كالدجاجة الأم ولقّته في شالها، ثم وجهت كلمة عتاب للأستاذ لوفيل، فتنهد وأومأ. ثم اندفعوا جميعًا بسرعة إلى مقدمة الصف، ومن هناك انطلقا على الفور إلى قمراتهم، في حين راح أحد الحمالين يجمع أمتعتهم ويحملها وراءهم.



وبعد مرور ساعة، غادرت سفينة كاونتيس أوف هاركورت الميناء.

استقر روبين في مهجعه ببطانية ثقيلة ملفوفة حول كتفيه. كان ليملك هناك بسعادة، لكن السيدة بايبر حثته على الصعود إلى السطح لمشاهدة ابتعاد الخط الساحلي. حينئذٍ شعر بألم حادٍّ في صدره، إذ راحت كانتون تخفي في الأفق، ثم شعر بخواء نفسي وكأن خطأً قد سحب قلبه خارج جسده.

لم يكن قد تبين أنه قد لا تطأ له قدم شاطئ الوطن لعدة سنوات هذا إن كان ليعود أصلاً. لم يكن يعرف كيف يصف هذه الحقيقة. كانت كلمة فقد غير كافية، إذ كان الفقد يعني النقص، وأن ثمة شيئاً غير موجود، لكنها لم تحوِ المعنى الكلي للانسلاخ؛ ذاك الابتعاد المٌخيف عن كل ما كان يألفه.

راح يراقب المحيط لوقت طويل دون أن يكثرث بالرياح ويحدق ريثما تلاشى كل شيء بما فيه تخيله أنه يرى الشاطئ.

قضى روبين الأيام القليلة الأولى من الرحلة نائمًا، إذ كان في طور النقاهة. كانت السيدة بايبر تصرّ على أن يتمشى يوميًا فوق السطح كي يتعافى، لكنه لم يستطع سوى أن يقضي بضع دقائق في البداية ثم يعود للرقاد. كان محظوظاً لأنه أعفي من غثيان دوار البحر؛ إذ كان قضاؤه طفولته بين المرافئ والأنهار قد أكسب حواسه اعتياداً على اضطراب التلاطم. وحين شعر بأنه قد تعافى على نحو كافٍ لقضاء فترات بعد الظهر بأكملها فوق السطح، كان يهوى الجلوس بجوار الحواجز لمشاهدة الأمواج المتلاحقة وهي تغير لونها مع السماء واستشعار رذاذ المحيط على وجهه.

وبين الحين والآخر، كان الأستاذ لوفيل يردش معه أثناء التنزه على السطح معًا. سرعان ما عرف روبين أن الأستاذ رجل دقيق ومتحفظ، ولم يكن يقدم المعلومات إلا حين كان يعتقد أن روبين يحتاج إليها. ولكن في غير حالات، كان يستريح لعدم الإجابة عن الأسئلة.

كان قد أخبر روبين بأنهم سوف يمكثون في ضيعته في هامبستيد حين يصلون إلى إنجلترا. لم يقل ما إذا كانت لديه عائلة في تلك الضيعة، لكنه أكد



أنه كان يدفع أجر الأنسة بيتي كل تلك السنوات، لكنه لم يوضح السبب. وألمح إلى معرفته بوالدة روبين، ولهذا كان يعرف عنوانه. بيد أنه لم يفسر طبيعة العلاقة بينهما أو كيف تقابلا. وكانت المرة الوحيدة التي أقر فيها بأسبقية معرفتهما هي حينما سأل روبين كيف انتهى الأمر بأسرته للسكن في ذلك الكشك المجاور للنهر.

قال: «كانت عائلة تجار ميسورة الحال حين تعرفت إليهم، وكانوا يمتلكون ضيعة في بكين قبل أن ينتقلوا إلى الجنوب. أكان هذا بسبب المقامرة؟ أظنه كان بسبب الأخ، أليس كذلك؟».

ومنذ شهر، كان روبين ليبصق في وجه أي شخص يتحدث بالسوء عن عائلته. لكن، إذ كان وحده في وسط المحيط بلا أقارب ولا شخص يحمل اسمه، لم يستطع أن يغضب. لم يتبق بداخله ثورة. كان مذعورًا فحسب، كما كان في غاية التعب.

على أية حال، كان كل ذلك متوافقًا مع كل ما أخبر روبين عن ثروة عائلته السابقة والتي بُددت بالكامل بعد مولده بسنوات. كانت أمه تشكو ذلك بمرارة كثيرًا. لم تكن التفاصيل واضحة في ذهن روبين، لكن القصة انطوت على كثير من حكايات الاضمحلال التي احتوت عليها قصة سقوط أسرة تشينج في الصين: كالأب الذي شاخ، والابن العاق، والأصدقاء الأشرار المستغلين، والابنة العاجزة التي لم يكن أحد ليتزوجها لسبب غامض. لقد أخبروه بأنه كان ينام في فراش مزخرف بطلاء لامع ذات يوم. وذات يوم أيضًا، كان لديهم عشرات الخدم وطاهٍ يطبخ أطايب الطعام النادرة الواردة من أسواق الشمال. وذات يوم، كانوا يعيشون في ضيعة كانت لتتسع لخمس أسر تقتني طواويس تصول وتجول في الفناء. لكن روبين لم يعرف سوى منزل صغير بجوار النهر.

قال له روبين: «كانت أمي تقول إن خالي أضاع كل أمواله على بيوت الأفيون، فوضع الدائنون أيديهم على ضيعتهم، واضطرونا للرحيل. ثم فقد خالي حين بلغت الثالثة، ولم يتبق سوانا وخالاتي وأجدادي والأنسة بيتي».



أظهر الأستاذ لوفيل تعاطفًا محدودًا بهمسة خافتة وقال: «هذا أمر بالغ السوء».

وبخلاف تلك الحوارات، كان الأستاذ يقضي معظم اليوم متوقعًا في قمرته. وكان يروونه بشكل شبه منتظم في صالة العشاء. وكانت السيدة بايبر في كثير من الأحيان هي من تملأ له طبقًا بالخبز الجاف واللحم وتأخذه له في غرفته.

قالت السيدة بايبر لروبين: «إنه يعكف على ترجماته، إذ لا ينفك يجمع مخطوطات وكتبًا قديمة حول هذه الرحلات، ويروق له أن يبدأ بترجمتها إلى الإنجليزية قبل أن يصل إلى لندن، وهي تشغله كثيرًا، فهو من الشخصيات البارزة، باعتباره زميلًا للجمعية الملكية الآسيوية. كما يقول إن الرحلات البحرية هي الوقت الوحيد الذي يحصل فيه على الهدوء والسكينة. أليس هذا غريبًا؟ فقد اشترى بعض قواميس التراجع الشعرية في ماكاو. إنها جميلة. بيد أنه لا يسمح لي بلمسها، فالصفحات شديدة الضعف».

فوجئ روبين بمعرفة أنهما ذهبا يومًا إلى ماكاو، فلم يكن يعلم عنها شيئًا، وقد ظن بسذاجة أنه كان السبب الوحيد في قدوم الأستاذ لوفيل إلى الصين، فسألها: «كم من الوقت مكثتما هناك؟ أعني في ماكاو».

«أسبوعان وبضعة أيام. كان من المزمع أن يكونا أسبوعين، لكن الجمارك استوقفتنا، إذ لا يسمحون للأجنيبيات بدخول أراضيهم، فاضطرت للنتكر في زي الرجال والتظاهر بأنني عم الأستاذ! هل تتخيل هذا؟».

أسبوعان.

قبل أسبوعين، كانت والدة روبين على قيد الحياة.

راحت السيدة بايبر تعبت في شعره وتقول: «هل أنت بخير يا عزيزي؟ تبدو شاحبًا».

أومأ روبين وكتّم الكلمات التي كان يعرف أنه لن يستطيع التفوه بها.



فلم يكن من حقه الاستياء، إذ وعده الأستاذ لوفيل بكل شيء، ولم يكن مدينًا له بأي شيء. لم يكن روبين قد فهم بعد تمامًا قواعد العالم الذي كان بصدد الدخول إليه، لكنه فهم أهمية الامتحان والتوقيع. لم يكن المرء ليحقد على منقذيه.

قال روبين: «أتريديني أن آخذ هذا الطبق إلى الأستاذ؟».

«هذا لطف منك يا عزيزي، شكرًا. قابلني على السطح بعد برهة كي نشاهد غروب الشمس».

اختلط الزمن، وراحت الشمس تتعاقب ما بين شروق وغروب، لكن دون انتظام ولا رتابة - فلم يكن لديه مهام، ولم يكن ليحضر الماء أو يقضي مشاوير - فتشابهت الأيام أيًا كان الوقت. كان روبين ينام، ويعيد قراءة كتبه القديمة، ويتنزه فوق أسطح السفينة. كان بين الحين والآخر ينخرط في حديث مع ركاب آخرين والذين كانوا يُسرون دائمًا لسماع لكنة لندنية شبه مثالية تصدر عن فم ذاك الفتى الشرقي الصغير. وإذا راح يتذكر كلمات الأستاذ لوفيل، حاول جاهدًا أن يعيش حياة إنجليزية بشكل حصري. فحين كانت الأفكار تطرأ بباله باللغة الصينية، كان ينفذها!

كما كان ينفذ الذكريات لتبدو حياته في كانتون -أمه، وأجداده، وعقد من الركض بين الموانئ- كأنها سهلة الإسقاط على نحو غريب، أو لعل هذه النقلة كانت صادمة للغاية، فكان الانفصال كاملاً. لقد خُف وراءه كل شيء عرفه، فلم يكن هناك ما يتشبَّث به ولا شيء يهرب عائدًا إليه. اقتصر عالمه الحالي على الأستاذ لوفيل، والسيدة بايبر، والوعد ببلاد على الجانب الآخر من المحيط؛ فدفن حياته الماضية، لا لكونها مريعة، بل لأن التخلي عنها كان السبيل الوحيد للبقاء.

راح روبين يتحدث لهجته الإنجليزية الجديدة كمن يرتدي سترة جديدة، وضبط كل شيء في نفسه كي يجعله متناسبًا، وفي غضون أسابيع، راح



يتحدثها بسلاسة، فعلى مدى أسابيع، لم يكن أحد يطلب منه التفوه ببضع كلمات باللغة الصينية على سبيل الترفيه. وعلى مدى أسابيع، بدا الأمر وكأن أحدًا لم يتذكر أنه كان صينيًا في يوم ما!

وذات صباح، أيقظته السيدة بايبر في وقت مبكر جدًا، فصدرت عنه بعض الأصوات المعترضة، لكنها ألحت قائلة: «هلم يا عزيزي، لا يجب أن تفوت هذا». فقام متثائبًا وسحب سترة. كان يفرك عينيه أثناء صعودهما السطح وخروجهما إلى برد الصباح الملتحف بالضباب شديد الكثافة والذي جعل روبين بمشقة يرى مقدمة السفينة. ولكن الضباب انقشع، وبرز ظل رمادي أسود في الأفق. كانت تلك هي أول لقطة رآها روبين للندن؛ المدينة الفضية، وقلب الإمبراطورية البريطانية، وأكبر وأغنى مدينة في العالم في ذلك الوقت.



الفصل الثاني



تلك المدينة الشاسعة والتي تعد منشأ مصير البلاد، بل ومصير الأرض نفسها.

وليم ووردزورث

مقدمة

كانت لندن مدينة باهتة رمادية، مفعمة بالألوان، أشبه بوكر للصخب مفعم بالحياة. كما كانت هادئة بشكل مُخيف ومسكونة بالأشباح وأحواش المقابر. وإذ راحت كاونتيس أوف هاركورت تُبحر نحو الأرض عبر نهر التايمز ودخلت ترسانات بناء السفن في قلب المدينة النابض، وجد روبين أنّ لندن مثل كانتون، مدينة متناقضات وحشود، تمامًا كأى مدينة تعد من مداخل العالم.

ولكن، بعكس كانتون، كانت لندن تعجّ بحياة صناعية مُتسارعة. وكانت أضواء الفضة المنعكسة تتراقص في المدينة، وتلمع من عجلات السيارات الأجرة والعربات ومن حوافر الخيول، وتتألق من الأبنية تحت النوافذ وفوق الممرات، وترقد أسفل الشوارع وفي عقارب أبراج الساعات التي تدق، كما كانت تُعرض في واجهات المتاجر ذات اللافتات التي تُفاخر بتضخيمها السحري للمخبوزات، والأحذية، والزينة. كانت الحياة النابضة في لندن تشع ألقًا وطنيًّا حادًّا بعكس صوت البامبو الرخو الذي كان يميّز كانتون. كانت اصطناعية معدنية-صوت حادّ ومزعج لسكين تُشحذ على حديد. كانت المتاهة المُرعبة التي تحدّث عنها وليم بليك قائلًا: «أفعال مخيفة لعجلات



كُثُر أراها، عجلة بلا عجلة، بأجزاء آلية مستتبدة، تدفع بعضها بعضًا بحركة قسرية».*

لقد انفردت لندن بِنَصِيبِ الأسد لكل من خام الفضة في العالم ولغاته، ومن ثم، كانت المدينة أكبر، وأثقل، وأسرع، وأكثر لمعانًا ممَّا سمحت به الطبيعة. وكانت لندن شَرَهةً، تسمَنَ بغنائمها. بيد أنها كانت في حالة جوع! كانت لندن ما بين نقيضين؛ ثرية ثراءً فاحشًا، وفقيرة فقيرًا مُدَقَّعًا. كانت لندن- الجميلة والقيحة، الضيقة والمترامية الأطراف، التي تتنَفَّس وتَتَجَشَّأ، والفاضلة والمنافقة، والمُعْشاة بالفضة شديدة القرب من يوم الحساب؛ إذ كان لا بد من يوم سيأتي إما تُلْتَنَمُ فيه نفسها من الداخل وإما تستغل الخارج للحصول على أطايب الطعام، والعمالة، ورأس المال، والثقافة التي تُقَنَّنُ عليها!

لكن هذا اليوم لم يأت بعد، لذا كانت الاحتفالات لتستمرَّ في الوقت الحالي. حين وطئت أقدام روبين، والأستاذ لوفيل، والسيدة بايير شاطئ ميناء لندن، كانت أرصفة الموانئ زاخرة بالتجارة الاستعمارية المزدهرة، والبواخر عامرة بصناديق الشاي، والقطن، والتبغ؛ وكانت صَوَارِيهَا وعوارضها مرصعة بالفضة التي جعلتها تَمُخَّرُ عباب البحر على نحو أسرع وأكثر أمانًا تنتظر التفريغ استعدادًا للرحلة التالية إلى الهند، وجزر الهند الغربية، وأفريقيا، والشرق الأقصى. كانت ترسل بضائع بريطانية إلى جميع أنحاء العالم، وتعود حاملة صناديق الفضة.

كانت قوالب الفضة تُسْتَخْدَمُ في لندن - بل وفي العالم بأسره - على مدى ألف عام، لكن لم يسبق لأي بقعة في العالم أن كانت غنية هذا الغنى بالفضة ومُعْتَمِدَةً عليها هذا الاعتماد منذ صعود الإمبراطورية الإسبانية. كان تبطين الترع بالفضة يجعل الماء أكثر نظافة وعذوبة من أي نهر - كنهر التايمز. وكانت الفضة التي تبطن المزاريب تخفي عفن الأمطار، والرواسب، ومياة المجاري ذات رائحة الأزهار الخَفِيفَة. وكانت الفضة في أبراج الساعات

* وليم بليك، «أورشليم» 1804.



تجعل صدى صوت أجراسها يصل إلى أميال وأميال، بل أبعد مما يجب حتى راحت نغماتها تتصادم بلا تناغم في جميع أرجاء المدينة وفي الريف.

كذلك، كانت الفضة على مقاعد عربية الهنّسوميّات ذات العجلتين التي هتف لها الأستاذ لوفيل بعد التخليص الجمركي- بحيث تقل واحدة ثلاثتهم، وتقل الأخرى حقائبهم. وحين استقروا متلاصقين بعضهم ببعض في العربة الضيقة، مال الأستاذ لوفيل على ركبتيه وأشار إلى قالب من الفضة مطمور في أرضية العربة.

سأل: «هل يمكنك قراءة المكتوب عليها؟».

فمال روبين وراح يحدق: «السرعة و... سبيس؟».

قال الأستاذ لوفيل: «سبيس. إنها كلمة لاتينية، وهي أصل كلمة سبيد الإنجليزية. وتعني حلقة الوصل بين أشياء، مثل الأمل، والثروة، والنجاح، وتحقيق الأهداف، وهي تجعل العربة تسير على نحو أسرع وأكثر أماناً».

تجّه روبين وراح يمرر أصبعه فوق القالب، إذ بدا أصغر وأخف من ينتج مثل هذا التأثير العميق، ثم سأل: «لكن كيف؟» وتبعه بسؤال أكثر إلحاحاً: «هل سوف...».

رَبَّت الأستاذ لوفيل كتفه قائلاً: «في الوقت المناسب. لكن، صحيح يا روبين سويفت، ستصبح من الباحثين القلائل في العالم الذين يعرفون أسرار العمل بالفضة، فهذا ما جلبتك هنا لعمله».

سارت العربة لمدة ساعتين حتى وصلت بهم إلى قرية تُدعى هامبستيد والتي كانت تبعد عدة أميال عن العاصمة لندن، وكان الأستاذ لوفيل يمتلك منزلاً مكوناً من أربعة طوابق من الطوب الأحمر الباهت والجص الأبيض ومحاطاً بمساحة شاسعة من الشجيرات الخضراء المُنسقة.

قال الأستاذ لوفيل لروبين وهو يفتح الباب: «غرفتك بأعلى، في الطابق العلوي إلى اليمين».



كان المنزل شديد العتمة والبرودة من الداخل، وراحت السيدة بايير تسحب الستائر، في حين جر روبين صندوقه إلى أعلى الدرج الحلزوني وعبر الردهة حسب التعليمات. كانت غرفته تحتوي على أثاث قليل؛ مكتب، وسرير، ومقعد، وكانت مجردة من أي زينة أو مقتنيات باستثناء رف الكتب في الركن والذي كان يزخر بالعديد من العناوين، ما جعل مجموعته الثمينة تافهة بالمقارنة.

اقترب روبين بفصول. هل جُهِّزت هذه الكتب له خصيصًا؟ لم يكن هذا محتملاً، رغم أن العديد من العناوين بدت لكتب ممتعة له، بل كان الرف الأعلى وحده به عدد من كتب لسويفت، وديفو، تلك الروايات التي كتبها مؤلفوه المفضلون والتي لم يعلم بوجودها. آه! ها هي رواية رحلات جاليفر، فجذب الكتاب من على الرف. بدا باليًا، وكانت بعض صفحاته مجمّدة ومثنية الزوايا، وكانت أخرى تحمل بقع شاي أو قهوة.

أعاد الكتاب إلى موضعه بارتباك. لا بد أن شخصًا كان يعيش في هذه الغرفة قبله. لعله كان ولدًا آخر في مثل سنه ومن هواة جوناثان سويفت، ولعله قرأ هذه النسخة من رحلات جاليفر عدة مرات، ما جعل الحبر أعلى الجهة اليمنى التي يقلب منها الشخص الصفحة بأصبعه يوشك أن يتلاشى.

ولكن من عساه يكون؟ كان يظن أن الأستاذ لوفيل لم ينجب أبناء.

هتفت السيدة بايير من الدور السفلي: «يا روبين! نريدك بالخارج».

أسرع روبين بالهبوط، وكان الأستاذ لوفيل منتظرًا بجوار الباب ينظر في ساعة الجيب بتوتر.

وهنا سأله: «هل غرفتك جيدة؟ هل تحتوي على كل ما تحتاج إليه؟».

أوماً روبين بفرح: «أوه! نعم».

«جيد»، ثم أشار الأستاذ لوفيل للعربة الأجرة المنتظرة وقال: «ادخل، يجب أن نحولك إلى رجل إنجليزي».



كان يعني ما يقوله بالحرف. وطوال فترة ما بعد الظهيرة، اصطحب روبين في عدة مشاوير تساعد على دمجها في المجتمع البريطاني، فقد ذهب إلى طبيب وزنه وفحصه، وقرر على مضض أنه يصلح للعيش في الجزيرة، إذ قال: «حمدًا لله، فهو لا يعاني أمراضًا استوائية، ولا براغيث؛ لكنه أصغر حجمًا بالنظر إلى سنه. أطعمه لحمًا وهريسا كي يصح. والآن، يجب أن يحصل على تطعيم ضد الجدري. ارفع كمك لو سمحت. شكرًا. لن تشعر بألم. عد إلى ثلاثة». ثم ذهب إلى حلاق راح يقص شعر روبين الطويل الفوضوي حتى صار قصيرًا مهندمًا فوق أذنيه. وبعدها، اتجها إلى بائع قبعات، ثم إسكافي، وأخيرًا خياط راح يقيس كل شبر من جسد روبين ويعرض عليه العديد من لفائف القماش والتي اختار منها روبين بشكل عشوائي وهو في غمرة الارتباك.

وعند نهاية فترة بعد الظهيرة، اتجها إلى المحكمة لمقابلة المحامي الذي كان قد أعد مجموعة من الأوراق التي، وفقًا لما نمت إلى علم روبين، كانت لتجعله مواطنًا شرعيًا للمملكة المتحدة وقاصرًا تحت وصاية الأستاذ ريتشارد لينتون لوفيل.

وقّع الأستاذ لوفيل اسمه بسرور، ثم ذهب روبين إلى مكتب المحامي الذي كان أعلى من قامته، فسحب الكاتب مقعدًا ليقف فوقه.

نظر روبين لأسفل وقال: «ظننت أنني وقعت هذا بالفعل»، إذ بدت اللغة شديدة الشبه باتفاقية الوصاية التي أعطاه الأستاذ لوفيل إياها في كانتون.

أجاب الأستاذ لوفيل: «كانت تلك هي الشروط بيني وبينك. لكن هذه هي التي تجعلك رجلًا إنجليزيًا».

قرأ روبين الكلمات المكررة - وصي، ويتيم، وقاصر، وحراسة، وبادره: «أتدعونني ابنًا؟».

«بل أنكفل بك. الأمر مختلف».



كاد يسأله لماذا؟ فثمة أمر مهم ارتبط بالسؤال، رغم كونه أصغر من أن يعرفه بدقة. مرت بينهما لحظة طويلة زاخرة بفرص شرح الأمر. حَكَّ المحامي أنفه وتتنحج الأستاذ لوفيل. لكنها مرت دون كلام. لم يكن الأستاذ لوفيل مستعداً لتقديم المعلومات، وكان روبين يعرف مقدماً أنه من الأفضل ألا يلح، فوَقَّع.

حين عادا إلى هامبستيد، كانت الشمس قد غربت، فسأل روبين ما إذا كان يستطيع النوم على الفور، لكن الأستاذ لوفيل حثه على تناول العشاء.

«لا يمكنك أن تخذل السيدة بايير، فلم تنفك تعمل في المطبخ طوال فترة بعد الظهر. على الأقل، تناول بعض الطعام».

كانت السيدة بايير ترتبط بمطبخها ارتباطاً وثيقاً. وكانت طاولة غرفة الطعام، والتي بدت أكبر من أن يجلس إليها شخصان، تزخر بأباريق اللبن، ولفائف الخبز الببيضاء، والجزر والبطاطس المشوية، وحساء اللحم، وشيء لم يزل يغلي في طاجن فضي، وآخر كان شبيهاً بدجاجة كاملة مشوية. لم يكن روبين قد أكل من الصباح. كان يجب أن يتضور جوعاً، لكنه كان في غاية الإرهاق، ما جعل شكل كل هذا الطعام يشعره بالغثيان.

ومن ثم، وجه عينيه نحو لوحة كانت معلقة وراء الطاولة. كان من الصعب تجاهلها، إذ هيمنت على الغرفة كلها. كانت تصور مدينة جميلة وقت الغسق، لكنها لم تكن لندن. لم يظن ذلك. بدت أكثر روعة وقدمًا.

كان الأستاذ يتبع نظرة عينيه، فقال: «آه، تلك هي مدينة أوكسفورد».

أوكسفورد. كان قد سمع تلك الكلمة من قبل، لكنه لم يكن متأكدًا أين سمعها. حاول تقسيم الكلمة إلى مقاطع بالطريقة نفسها التي كان يطبقها على جميع الكلمات الإنجليزية، فقال: «أهي... مركز لبيع الأبقار، أم سوق؟».

أجاب الأستاذ قائلاً: «بل جامعة. إنه مكان تستطيع جميع نوابغ الأمة الالتقاء فيه للبحث، والدراسة، والتعلم. إنه مكان رائع يا روبين».



ثم أشار إلى مبنى به قبة كبيرة في منتصف اللوحة وقال: «هذه مكتبة رادكليف، وهذا هو المعهد الملكي للترجمة». قال هذا مشيرًا إلى أعلى مبنى في الصورة، ثم أردف: «أعمل بالتدريس هناك وأقضي معظم السنة حين لا أكون في لندن».

قال روبين: «إنها جميلة».

وهنا رد الأستاذ لوفيل بحماس غير معتاد: «أوه نعم، فهي أجمل مكان على وجه الأرض».

قال هذا فاردًا يديه في الهواء كمن يتخيل أو كسفورد أمامه: «تخيل مدينة خاصة بالباحثين الذين يدرسون كلهم أشياء رائعة ومذهلة كالعلوم، والرياضيات، واللغات، والأدب. تخيل مبنى تلو الآخر مملوءًا بكتب أكثر مما رأيت في حياتك كلها؛ وتخيل الوحدة، والسكون، ومكانًا هادئًا تستطيع التفكير فيه». ثم تنهد قائلاً: «لندن مزدحمة. يستحيل أن تنجز أي مهمة هنا، فالمدينة شديدة الصخب، وتضع عليك ضغطًا كبيرًا. قد تهرب إلى أماكن مثل هامبستيد، لكن قلب المدينة الذي يعج بالضوضاء يجذبك نحوه سواء شئت أم أبيت. أما أو كسفورد فتمنحك كل الأدوات المطلوبة لعملك، من طعام، وملابس، وشاي، ثم تدعك وشأنك. إنها مركز المعرفة والتجديد في العالم المتحضر. وإذا أحرزت تقدمًا كافيًا في الدراسة هناك، فقد يسعدك الحظ لتدعوها وطنًا».

كانت الإجابة المثلى هي الصمت الوقور. راح الأستاذ لوفيل يتأمل الصورة بنظرة ملؤها الحنين. فحاول روبين التمثل بحماسة، لكنه لم يستطع منع نفسه من النظر جانبًا إلى الأستاذ، إذ أدهشه ما بعينيه من رقة وحنين. فلم يحدث خلال المدة البسيطة التي عرفه فيها أن رأى الأستاذ يبيدي أي ولع بأي شيء!

وبدأت دروس روبين في اليوم التالي.



بعد الانتهاء من الإفطار، وجَّه الأستاذ لوفيل روبين بالاغتسال والعودة إلى الصالون خلال عشر دقائق. كان هناك رجل بدين باسم الوجه ينتظره. كان يُدعى السيد فلتون - وكان من أوائل خريجي أوكسفورد وعضوا بكلية أورييل - وكان ليُعد روبين لمواكبة مستوى اللغة اللاتينية المتقدم في أوكسفورد. كان الصبي قد بدأ متأخراً بعض الشيء مقارنة بأقرانه، لكن إذا اجتهد في المذاكرة، لارتقى بسهولة.

وهكذا بدأ صباحاً في حفظ المفردات الأساسية: أجريكولا (الزراعة)، وتيرا (الأرض)، وأكو (الماء) - والتي كانت تتسم بالصعوبة، لكنها بدت سهلة مقارنة بالشروحات المحيرة للإعراب والتصريف التي تلتها. لم يكن روبين قد تعلم أصول قواعد النحو- كان يعرف ما ينجم في اللغة الإنجليزية؛ لأنه كان يبدو صحيحاً - ومن ثم، حين أقدم على تعلم اللغة اللاتينية، تعلم المكونات الأساسية للغة نفسها: كالاسم، والفعل، والمبتدأ، والخبر، وأدوات الربط، ثم الحالات الإعرابية مثل الرفع، والنصب، والجر... لقد استوعب كمّاً مذهلاً من المواد خلال الساعات الثلاث التالية، ونسي نصفه بحلول موعد انتهاء الدرس. لكنه بات يقدر اللغة وجميع الكلمات التي يمكن استخدامها أيما تقدير.

«حسناً أيها الصبي». لحسن حظه، كان السيد فلتون رجلاً صبوراً، وبدا متعاطفاً معه بالنظر لما أخضعه له من استنزاف ذهني. «سوف تشعر بمزيد من المتعة بعد أن نضع اللبنة الأساسية. تمهل حتى نصل إلى شيشرون فحسب». ثم نظر إلى ما دونه روبين من ملاحظات وأردف: «لكن يجب أن تتوخى مزيداً من الحذر في الإملاء».

لم يستطع روبين أن يعرف موضع الخطأ، فسأله: «ماذا تقصد؟».

«لقد أغفلت تقريباً جميع علامات التشكيل اللاتينية».

كبح روبين صرخة استياء، فقال: «أوه!». كان يتضور جوعاً، وأراد أن ينتهي كي يتناول الغداء، فاستطرد: «تلك...»



طرق السيد فلتون الطاولة بمفاصله قائلاً: «حتى طول الحرف الواحد المتحرك له أهمية يا روبين سويقت. لو تأملت كتب الأثر، لوجدت أن اللغة السامية التي كُتِب بها النص لم تحدد نوع الثمرة المحرمة التي اغتوى البشر بأكلها. لكن الكلمة اللاتينية الموجودة هي مالوم وتعني «سيئ». ثم كتب الكلمة لروبين مشدداً على قوة علامة التشكيل وقال: «مالوم تعني تفاحة. وسرعان ما اتُهمت التفاحة بالخطيئة الجدية. بيد أن الجميع يعلمون أن المتهم الحقيقي كان فاكهة الكاكي».

غادر السيد فلتون عند وقت الغداء بعد أن كَلَّف روبين بقائمة تحتوي على مائة كلمة للحفظ قبل صباح اليوم التالي. أكل روبين بمفرده في الصالون واضعاً اللحم والبطاطس بشكل آلي في فمه وهو ينظر في حيرة لقواعد النحو.

سألته السيدة بايير: «هل أضع لك مزيداً من البطاطس يا عزيزي؟».

أجاب: «كلا، شكرًا». كان الطعام الثقيل وخط المادة المقروءة الضئيل يجعله نعساً. راح رأسه يخفق، إذ كان يرغب في غفوة طويلة فحسب.

لكن لم تكن هناك مهلة، ففي تمام الساعة الثانية بالضبط، وصل رجل نحيل ذو شارب أشيب تعرف إليه قائلاً إن اسمه السيد تشيستتر. وعلى مدى الساعات الثلاث التالية، بدأ روبين يتعلم اللغة اليونانية القديمة.

كانت اللغة اليونانية تدريباً في كيفية جعل الأشياء المألوفة غريبة! كانت أبجديتها مطابقة جزئياً للأبجدية الرومانية، وكثيراً لم يكن نطق الحروف كشكلها، فكانت رو التي تُنطق (بي) هي الراء، لا حرف بي، و(اي) تُنطق إيتا لا هاء. ومثل اللاتينية، كانت تقوم على التصريفات والإعراب، لكن كان هناك مزيد من الحالات، والأزمنة، والأصوات الواجب مواكبتها. كان مخزونها من الأصوات أبعد عن الإنجليزية من اللاتينية، وكان روبين يجد صعوبة في عدم جعل النبرات اليونانية تتشابه مع النبرات الصينية. كان السيد تشيستتر أكثر تشدداً من السيد فلتون، وكان يصاب بالتوتر ويصبح فظاً حين كان روبين يخطئ في نطق نهايات الأفعال. وحين انتهت فترة بعد



الظهيرة، شعر روبين بحيرة شديدة، فما كان منه إلا أن راح يكرر الأصوات التي أمطره بها السيد تشيستر!

غادر السيد تشيستر الساعة الخامسة بعد أن كلف روبين أيضًا بفيض من القراءة تألم الأخير لمجرد التفكير فيها! فحمل النصوص إلى غرفته، ثم تعرّث وهو في طريقه إلى غرفة الطعام، إذ كان رأسه يدور.

سأله الأستاذ لوفيل: «كيف سارت دروسك؟».

أجاب روبين بتردد: «لا بأس بها».

فتنى الأستاذ فمه بابتسامة وقال: «أليست كثيرة؟».

تنهد روبين وأجاب: «بعض الشيء يا سيدي».

رد الأستاذ: «لكن تلك هي متعة التعلم. يُفترض أن تشعر بأنها مسعى عظيم، ويجب أن تتعبك، إذ تجعلك تقدر التعقيد الذي يتسم ما تعرفه من أشياء بالفعل».

قال روبين بفترة مفاجئة: «لكني لا أجد سببًا يجعلها بهذا القدر من التعقيد» إذ لم يستطع منع نفسه. كان مفعماً بالإحباط منذ الظهيرة، لكنه استطرد: «أعني، فيم كل هذه القواعد؟ وفيم كل تلك النهايات الإعرابية؟ لا وجود لأي منهما في اللغة الصينية، ولا توجد لدينا أزمنة ولا إعراب ولا تصريفات، فاللغة الصينية أكثر بساطة...».

قال الأستاذ لوفيل: «لقد أخطأت في هذا، فكل لغة نمطها الخاص من التعقيد. تنسج اللاتينية تعقيدها في شكل الكلمات، ويعد ثراؤها الصرفي ميزة، لا عتبة. فكر في جملة: سوف يتعلم. تا هيوبي زوي. تتكون الجملة من ثلاث كلمات في الإنجليزية والصينية، أما في اللاتينية، فتتكون من كلمة واحدة: ديسكي. ألا ترى أنها أكثر رقيًا؟».

لم يكن روبين مقتنعًا تمامًا بوجهة النظر تلك.



صار هذا الروتين المتمثل في تعلم اللاتينية في الصباح، واليونانية بعد الظهر حياة روبين على المدى المنظور. ورغم العناء، كان يشعر بالامتنان، إذ انتهى الأمر لوجود بعض النظام في حياته. ما جعله أقل تيهاً وحيرة، إذ صارت له غاية ومكان. ورغم عدم استطاعته فهم لماذا قدرت عليه تلك الحياة دون جميع الصبية في كانتون، فقد التزم بواجباته بإصرار، ومثابرة، ودون تبرم.

كان الأستاذ لوفيل يعقد له تدريباً على لغة الماندرين* مرتين في الأسبوع. لم يفهم الهدف في البداية، إذ بدت تلك الحوارات مصطنعة، ومتكلفة، بل وفوق كل هذا، غير ضرورية. كان طليقاً بالفعل، ولم يكن يتعثر في تذكر المفردات ولا النطق على النحو نفسه الذي كان ينشأ عند تحدثه مع السيد فلتون باللغة اللاتينية. فلماذا كان عساه يجيب عن أسئلة أساسية مثل: «ما رأيك في العشاء؟» أو «حال الطقس؟».

لكن الأستاذ لوفيل كان عنيداً، وراح يقول: «اللغات أسهل نسياناً مما تتخيل. حين تبتعد عن العالم الصيني، فستتوقف عن التفكير باللغة الصينية». قال روبين بارتباك: «لكنني ظننت أنك تريدني أن أبدأ التفكير باللغة الإنجليزية».

رد الأستاذ لوفيل قائلاً: «بل أردتك أن تعيش اللغة الإنجليزية. هذا صحيح. لكنني ما زلت أريدك أن تمارس اللغة الصينية. فالكلمات والعبارات التي تظنها منقوشة في عقلك قد تتبدد في وقت قصير».

* لأن عائلة روبين كانت قد هاجرت إلى الجنوب مؤخراً، فقد نشأ يتحدث كلاً من الماندرين واللغة الكانتونية. لكن الأستاذ لوفيل أخبره بأن لغته الكانتونية كانت للثنى. وكانت لغة الماندرين لغة بلاط تشينج الحاكم في بكين، ولغة المسؤولين والباحثين، ومن ثم كانت اللهجة الوحيدة المهمة. كان هذا الرأي من الآثار الجانبية لاعتماد الأكاديمية البريطانية على قدر ضئيل من الأبحاث الغربية السابقة. كان قاموس ماتيو ريتشي البرتغالي-الصيني مختصاً باللهجة الماندرين التي تعلمها في بلاط مينج، وكانت قواميس كل من فرانكيسكو فارو، وجوزيف بريمار، وروبرت موريسون الصينية متخصصة في الماندرين. كان علماء الصينيات البريطانيون في تلك الحقبة أكثر تركيزاً على الماندرين من غيره من اللهجات. ومن ثم، طلب من روبين نسيان لغته الأصلية المفضلة.

كان يتحدث وكان هذا قد حدث سابقًا.

«لديك أسس قوية في لغة الماندرين، والكانتونية، والإنجليزية، وهذا من حسن حظك، فثمة كثير من الكبار الذين يقضون حياتهم محاولين الوصول إلى ما بلغته. بل وحتى لو فعلوا، لبلغوا طلاقة متوسطة الجودة لا تكفي سوى لتدبير أمورهم، هذا إذا أمعنوا التفكير وتذكروا المفردات قبل الكلام، لكن لا شيء أقرب إلى طلاقة أهل البلاد إذ تأتيهم الكلمات بسلاسة، ودون لعثمة ولا صعوبة. أما أنت، فقد أجدت أصعب أجزاء النظامين اللغويين، وهما النطق والإيقاع، تلك الخصائص الفريدة غير المحسوسة التي تتطلب عمرًا بأسره كي يتعلمها الكبار، وحتى في ذلك الوقت، لا يجيدونها تمامًا. أما أنت، فيجب عليك الحفاظ عليها. يجب ألا تهدر مواهبك الفطرية».

قال روبين: «لكنني لا أفهم. لو كانت مواهبي تكمن في اللغة الصينية، فما حاجتي لتعلم اللاتينية واليونانية؟».

فضحك الأستاذ لوفيل وأجاب: «كي تفهم الإنجليزية».

«لكنني أعرف الإنجليزية!».

«ليس بالجودة التي تخالك تعرفها. يتحدثها الكثيرون، لكن قليلين هم من يعرفونها ويعرفون جذورها وأعمدها. كما تحتاج لمعرفة تاريخ أي لغة، وأعماقها، وشكلها، لا سيما إذا كنت تخطط لاستغلالها كما ستتعلم أن تفعل في يوم من الأيام. كما ستحتاج لإتقان الصينية. يبدأ هذا بالتدرب على ما لديك».

كان الأستاذ لوفيل محققًا، إذ اكتشف روبين أن نسيان اللغة كان شديد السهولة رغم إلمام الشخص التام بها. وفي لندن، ودون وجود شخص صيني آخر في دائرة المقربين، على الأقل لم يكن هناك صينيون في الحدود التي يعيش فيها في لندن، بدت لغته الأم كغمغمة. وحين كان ينطقها في الصالون ذي الطابع الإنجليزي الأصيل، بدت بعيدة كل البعد، بل بالأحرى مصطنعة.



كان من المُربع، في بعض الأحيان، أن تخونه ذاكرته وتبدو الكلمات التي نشأ على نطقها غير مألوفة كلياً.

كان يبذل في التدريب على الصينية ضعف الجهد الذي يبذله في تعلم اليونانية واللاتينية، كما كان يقضي عدة ساعات كل يوم في التدريب على كتابة الحروف، باذلاً جهداً في كل جرة قلم حتى وصل إلى نسخة مثالية للحروف المطبوعة، ثم راح ينقب في ذاكرته كي يتذكر كيف كانت الحوارات الصينية، وكيف كانت تبدو لغة الماندرين حين كان يتحدثها بسلاسة دون أن يضطر للتوقف كي يتذكر نبرات كلماته التالية.

بيد أنه كان ينسى، وهو ما كان يزعجه. وفي بعض الأحيان، أثناء المحادثات التدريبية، كان يجد نفسه غير قادر على تذكر كلمة كان يستخدمها باستمرار، بل إنه كان يبدو لنفسه، في بعض الأحيان، كبشار أوروبي يحاكي الصينيين دون أن يعرف ما يقوله!

غير أنه كان بإمكانه إصلاح الأمر؛ فبالترتيب والحفظ من خلال كتابة قطع الإنشاء يومياً - رغم أن ذلك لم يكن مساوياً للعيش والتنفس كأهل الماندرين- كان قريباً إلى إجادتها نوعاً ما. كان في سنّ تسمح للغة بترك أثر دائم على عقله. لكن، كان يجب أن يحاول بجد وأن يحرص على عدم التوقف عن الحلم بأن يجيد لغته الأصلية.

كان الأستاذ لوفيل يستقبل على الأقل ثلاث مرات في الأسبوع، ضيوفاً متنوعين في صالونه. كان روبين يظنهم باحثين، إذ كانوا يأتون حاملين أكواماً من الكتب أو المخطوطات المربوطة والتي كانوا ينكبون عليها ويناقشونها حتى ساعة متأخرة من الليل. واتّضح أن الكثير من هؤلاء الرجال يستطيعون التحدث بالصينية، وفي بعض الأحيان، كان روبين يختبئ عند سور الدرج ويسترق السمع لصوت الرجال الإنجليز الغريب وهم يناقشون أدق تفاصيل النحو الصيني التقليدي أثناء تناول شاي العصر. كان أحدهم



يكابر قائلاً: «ما هو إلا حرف نهائي»، في حين كان آخر يهتف: «حسنًا، لا يُفترض أن تكون كلها حروفًا نهائية».

كان الأستاذ لوفيل يفضل أن يُبقي روبين بعيدًا عن مرمى البصر حين كانت المجموعة تأتي. لم يكن ليحظر وجود روبين تصرّيحًا، لكنه كان يعطي ملاحظة أن السيد وودبريدج والسيد راتكليف سيحضران الساعة الثامنة، وهو ما كان يفهم منه روبين أنه يجب أن يتجنّب الظهور.

لم يكن لدى روبين مشكلة في هذا الترتيب. صحيح أنه كان يجد مناقشاتهم رائعة، إذ كانوا دائمي التحدث عن الأمور النادرة، مثل الرحلات الاستكشافية إلى جزر الهند الغربية، والتفاوض على طباعة الأقمشة القطنية في الهند، والتوتر الشديد الذي يسود الشرق الأدنى.

ولكن المجموعة كانت مخيفة، إذ كانت كوكبة من الرجال الجادين واسعي الاطلاع، وكان الجميع يرتدون أزياء سوداء كسرب من الغربان التي كان كل واحد منها أكثر هولًا من الآخر.

جاء الوقت الوحيد الذي اقتنصه في أحد تلك اللقاءات مصادفة، فأثناء قضائه وقتًا في الحديقة للتنزه وفقًا لتعليمات الطبيب، سمع الأستاذ وضيوفه يتحدثون عن كانتون بصوت مرتفع.

كان الأستاذ يقول: «نابيير أحمق، إذ يستغل نفوذه مبكرًا، بلا ذكاء. ليس البرلمان مستعدًا، علاوة على إزعاجه الوسطاء».

ثم سأله رجل ذو نبرة صوت شديدة العمق: «أتظن أن حزب المحافظين سيرغب في التقدم عند حد معين؟».

«ربما. لكن عليهم أن يشددوا قبضتهم في كانتون لو كانوا مزعمين إدخال السفن».

عندئذٍ، لم يستطع روبين منع نفسه من الدخول إلى الصالون والسؤال: «ماذا عن كانتون؟».



فاستدار الرجال ونظروا إليه. كانوا أربعة، جميعهم فارغ الطول، وكانوا يرتدون إما نظارات وإما عدسة عين واحدة.

أعاد روبين سؤاله بغضب: «ماذا عن كانتون؟».

قال الأستاذ لوفيل: «صه! حذاؤك متسخ يا روبين. إنك تجلب الطين معك إلى كل مكان. اخلعه واستحم».

لكن روبين ألح وقال: «هل سيعلن الملك جورج الحرب على كانتون؟».

«لا يجوز أن يعلن الحرب على كانتون يا روبين. فلا أحد يعلن الحرب على المدن».

فواصل: «إذًا، هل سيعزو الملك جورج الصين؟».

جعل هذا السؤال الرجال يضحكون لسبب ما.

قال الرجل ذو الصوت العميق: «لبيتنا نستطيع. كان هذا ليُجعل هذا المشروع أسهل كثيرًا، أليس كذلك؟».

ثم حدّق رجل بلحية بيضاء إلى روبين وقال: «إلام تدين بالولاء؟ هنا أم وطنك؟».

قال الرجل الرابع: «يا إلهي!». كان قد انحنى ليدقق النظر في روبين، إذ رأى بعينه الزرقاوين الباهتتين أن روبين مُثير للأعصاب. كان يحدّق إليه كما لو كان عبر عدسة مكبرة ضخمة، ثم أردف: «أهذا هو الفتى الجديد؟ إنه نسخة طبق الأصل منك أكثر من الآخر..».

وهنا اخترق صوت الأستاذ لوفيل زجاج الغرفة كالسكين: «هيوارد!».

«هذا مدهش. حقًا. أقصد، انظروا إلى عينيه، لا إلى اللون، بل الشكل...».

«هيوارد!».

راح روبين ينقل عينيه بذهول بينهم.

قال الأستاذ لوفيل: «يكفي هذا يا روبين. اذهب».



تمتم روبين باعتذار وأسرع بصعود الدرج ناسياً حذاءه الملطّح بالطين. وكان يسمع عن بعد رد الأستاذ لوفيل: «كلا يا هيوارد. لا يعرف. لا أريد إعطائه أي أفكار، ولن أفعل...» وعند وصوله إلى بر أمانه، حيث كان يستطيع الانكاء على سور الدرج والاستماع دون أن يُلاحظوه، كانوا قد غيروا الموضوع وراحوا يتحدثون عن أفغانستان.

في تلك الليلة، وقف روبين أمام المرأة محدقاً إلى وجهه بتركيز ولوقت طويل، ما جعله يبدو في النهاية غريباً.

كانت خالاته يحبن أن يقلن إنه وجهه من النوع الذي يتأقلم مع أي مكان، وكان لشعره وعينييه درجة لون بني أخف من الأسود الداكن الذي ميّز باقي عائلته. كان ليحمله بوضوح ابناً لبحار برتغالي أو وريث الإمبراطور تشينج. لكن لطالما عزا روبين هذا لترتيب عشوائي للطبيعة التي حبته بلامح يمكنها الانتماء لأي جزء من الطيف العرقي، سواء أكان أبيض أو أصفر.

لم يشكك في أصله الصيني الصّرف.

لكن ماذا كان البديل؟ أكان أبوه رجلاً أبيض البشرة؟ أكان أبوه...

انظروا إلى عينيّه.

ألم يكن هذا دليلاً لا يدع مجالاً للشك؟

لماذا، إذًا، لم يعترف أبوه به؟ لماذا كان طفلاً مكفولاً، لا ابناً له؟

ولكن في ذلك الوقت، كان روبين أصغر من أن يفهم أن بعض الحقائق لا يمكن التفوه بها وأن الحياة لن تصبح طبيعية ما لم تبقى بعض الحقائق في طي الكتمان. كان هناك سقف يحميه، وثلاث وجبات يقتات بها، علاوة على وصوله لكتب أكثر مما كان ليقرأه طوال حياته. وكان يعرف أنه لم يكن من حقه طلب المزيد.



ومن ثم، اتخذ قرارًا. لم يكن ليشكك في الأستاذ لوفيل، ولم يكن ليسبر غور الفراغ الذي كانت الحقيقة لتشغله. فلطالما لم يقبله الأستاذ لوفيل كابن، لم يسعَ روبين للمطالبة بأبوته. لو لم تُنطق الكذبة، ما صارت كذبة، وكل سؤال لم يُطرح لا يحتاج لإجابات. كان الاثنان ليقنعا تمامًا بأن يقبعا عند عتبة الفراغ اللا نهائي بين الحقيقة والإنكار.

جفف نفسه، وارتدى ملابسه، وجلس على مكتبه لينهى تدريب الترجمة لهذا المساء. كان هو والسيد فلتون قد انتقلا إلى كتاب حياة أجريكولا الذي كتبه تاسيئس.

أوفير تروسيدياري رابيري فالسيس نوميبيوس إمبيريوم أتكي أبي سوليتدينيم فسيانت باسيم آبيلانت.

راح روبين يقسم الجملة ويراجع قاموسه ليتحقق من كلمة أوفير ويتأكد أنه المعنى الذي خطر بباله، ثم كتب ترجمته*.

حين بدأ موسم احتفال ميكلماس في بداية أكتوبر، غادر الأستاذ لوفيل قاصدًا أوكسفورد حيث كان ليكنث لمدة ثمانية أسابيع. كان يفعل هذا في كل فصل من فصول أوكسفورد الدراسية الثلاثة، ولم يكن ليعود إلا أثناء العطلات. كان روبين يتوق لتلك الفترات، رغم استمرار فصوله الدراسية، إذ كان من الممكن أن يجد متنفسًا ويسترخي دون أن يخشى إغضاب كافله في كل خطوة.

كما كان هذا يعني أنه من دون مراقبة الأستاذ لوفيل له، كان يجد الحرية لاستكشاف المدينة.

لم يعطه الأستاذ لوفيل أي مصروف، لكن السيدة بايير كانت تعطيه بعض الفكة بين الحين والآخر على سبيل الأجر، وكان يدخرها ليذهب إلى حديقة كوفنت بالعربة. وحين أخبره أحد باعة الجرائد عن خدمة الحافلات التي

* كانوا يدعون النهب، والمذابح، والسرقة إمبراطورية، وكانوا يدعون الخراب سلامًا.



تجرها الخيول، راح يركبها تقريباً كل عطلة نهاية أسبوع عابراً وسط مدينة لندن ذهاباً وإياباً من بادينجتون جرين إلى ضفة النهر. كانت أولى رحلاته مخيفة، إذ كان بمفرده، وقد اعتقد عدة مرات أنه لن يستطيع العودة مجدداً إلى هامبستيد وسيُحكم عليه بالعيش شريداً في الشوارع. لكنه ثابر ورفض الخضوع لتعقيدات لندن. ألم تكن كانتون متاهة كذلك؟ كان قد عقد العزم على جعل هذا المكان وطناً له بالسير في كل شبر فيه. وبالتدريج، صارت لندن أقل إزعاجاً، وأقل شبهاً بجب الوحوش المتعرج النافث للدخان والذي كان ليبتلعه من أي زاوية، بل بالأحرى متاهة قابلة للاستكشاف يستطيع توقع حيلها ومكرها.

لقد قرأ ملامح المدينة وفهمها. كانت لندن في ثلاثينيات القرن التاسع عشر تعجّ بالمطبوعات، إذ كانت الجرائد، والمجلات، والنشرات، والفصليات، والشهريات، والكتب من كل نوع تنفذ من الأرفف، وتلقى على عتبات الأبواب، وتُباع في زوايا كل الشوارع تقريباً. كان يدقق في مسند بيع الصحف ليجد نسخاً من التايمز، والستاندرد، والمورنينج بوست. كان يقرأ مقالات في النشرات الأكاديمية مثل إدنبره ريفيو وكوارتلي ريفيو، لكنه لم يفهمها بشكل كامل، كما قرأ الصحف الساخرة مثل فيجارو في لندن، وأخباراً زائفة مبالغاً فيها، مثل تقارير الجرائم المتنوعة وسلسلة عن اعترافات السجناء المحكوم عليهم بالإعدام. وتوفيراً للمال، كان يرفه عن نفسه بالاستماع لموسيقى الإرب مقابل ستة بنسات أسكتلندية. ثم عثر مصادفة على سلسلة تُدعى أوراق بكويك خطّها كاتب يُدعى تشارلز ديكنز كان مرحاً للغاية لكن بدا كمن يمقت أي شخص غير أبيض البشرة. كما اكتشف فليت ستريت، مركز النشر في لندن، حيث كانت الجرائد تخرج من المطابع ساخنة! راح يرتاد الشارع مراراً وتكراراً جالباً أكواماً من جرائد الأمس مجاناً من بين الأكوام التي كانت تلقى على الناصية.

لم يكن يفهم نصف ما كان يقرأه، حتى ولو استطاع فك رموز الكلمات المفردة. كانت النصوص ملغمة بالإشارات السياسية، والنكات المتضمنة، واللغة الدارجة، والتقاليد التي لم يتعلمها قط. وبدلاً من قضاء طفولته في تعلم



كل شيء عن لندن، حاول أن يقرأ كل ما استطاع وينقب المراجع باحثاً عن أشياء مثل المحافظين، والليبراليين، وأنصار الإصلاح السياسي الشامل، والمصلحين وحفظها. كما عرف ما قوانين الحبوب وعلاقتها برجل فرنسي يُدعى نابليون. وعرف مَنْ هم الكاثوليك والبروتستانت وكيف كانت الفروق العقيدية الصغيرة بين الاثنين (أو ما ظنه هكذا على الأقل) ذات أهمية كبيرة. وتعلم أن هناك فرقاً بين كونك رجلاً إنجليزياً ورجلاً بريطانياً، رغم إيجاد صعوبة في تحديد الفارق بين الاثنين.

لقد قرأ ملامح المدينة جيداً وتعلم لغتها. كان تعلم الكلمات الإنجليزية الجديدة لعبة بالنسبة له، إذ كان فهم الكلمة يجعله يفهم شيئاً عن التاريخ أو الثقافة الإنجليزية. كان يطيع له أن يعرف أن الكلمات الشائعة تتكون، على عكس توقعه، من كلمات معروفة لديه. فمثلاً، كانت كلمة هاسي مؤلفة من كلمة هاوس ووايف وكلمة هوليداي مؤلفة من هولي وداي، وبيدلام مشتقة، ولو على نحو غير واضح، من بيت لحم. وكانت كلمة جود باي اختصاراً لعبارة جود بي وذ يو. وفي شرق لندن، تعرف على العامية اللندنية والتي كانت تمثل لغزاً بالنسبة له، إذ لم يكن يعرف كيف يمكن أن تعني كلمة هامبستيد «أسنان». لكن، حين تعلم العنصر المفقود، كان يستمتع بابتكار كلماته الخاصة. (لم تكن السيدة بايبر سعيدة حين بدأ يشير إلى العشاء باعتباره «وليمة الأتقياء»)*.

وبعد أن تعلم المعاني الصحيحة للكلمات والعبارات التي كانت تحيره بوقت طويل، لم ينفك عقله يصنع روابط مرحة حولها. كان دائماً يتخيل أن الوزارة هي سلسلة من الأرفف الضخمة التي يصطف فيها رجال مرتدين أزياء تنكرية مثل الدُمى! كما ظن أن الليبراليين يحملون اسم «ويجز» لارتدائهم الشعر المستعار، في حين يُدعى المحافظون «توريز» نسبة إلى

* كانت كلمتا هامبستيد هيئت تتناغمان مع كلمة تيث (أسنان). على سبيل المثال: «ما زالت أسنانها سليمة تماماً».

هناك تناغم بين دينر (عشاء) وسيفر (خاطئ).



الأميرة الشابة فيكتوريا. وخُيل إليه أن حي ماريلبون يتألف من «ماربل» أي الرخام، و«بون» أي العظام، وأن حي بلجرافيا أرض تحوي أجراساً «بل» ومقابر «جريف»، وأن منطقة شيلسي سميت بهذا الاسم لامتلائها بالأصداف «شل» وقربها من البحر «سي». كان الأستاذ لوفيل قد خصص رقاً في مكتبته لأعمال الشاعر ألكسندر بوب، وعلى مدى عام كامل، ظن روبين أن قصيدة The Rape of A Lock كانت تتحدث عن اغتصاب قفل حديدي، لا سرقة خصلة شعر**.

عرف كذلك أن الجنيه يساوي عشرين شلناً، وأن الشلن يساوي اثني عشر بنساً، وكانت معاني عملات مثل الفلورين، والغروت، والفارتنج لتتضح في وقتها. علم روبين أن هناك عدة أعراق من البريطانيين، تماماً كتعدد أعراق الصينيين، وأن كون الشخص أيرلندياً أو ويلزياً كان مميزاً على نحو أهم من كونه إنجليزياً. عرف أن السيدة بايبر مثلاً تنتمي إلى مكان يُدعى أسكتلندا، وهو ما جعلها أسكتلندية وأوضح سبب كون لهجتها الناعمة ومرتفعة النبرة ونطقها حرف الراء بوضوح هو ما جعلها شديدة الاختلاف عن نبرة الأستاذ لوفيل الواضحة والمميزة.

عرف روبين أن لندن في ثلاثينيات القرن التاسع عشر كانت مدينة متحيرة بشأن ما تريد أن تكون عليه. كانت مدينة الفضة أكبر مركز مالي في العالم، بل وتصدرت طليعة الصناعة والتكنولوجيا. لكن أرباحها لم تكن تقسّم بالتساوي. كانت لندن مدينة المسرحيات التي تقام في حديقة كوفنت، والحفلات في ماي فير، كما كانت مدينة تعجّ بالأحياء الفقيرة العشوائية حول سانت جايلز. كانت لندن مدينة المصلحين حيث كان أشباه وليم ولبرفورس وروبرت ويديربورن ينادون بإنهاء الرق، وحيث كانت أحداث الشغب التي وقعت في منطقة سبا فيلدز انتهت باتهام من تزعمونها بالخيانة العظمى، وحيث حاول أتباع روبرت أوين جعل الجميع ينضمون إلى مجتمعاتهم

** يعد هذا خطأ معقولاً، إذ كان بوب يعني بكلمة Rape «الأخذ بقوة» وهو معنى قديم مشتق من المصطلح اللاتيني rapere.



الاشتراكية الفاضلة (لم يكن قد فهم معنى الاشتراكية بعد)، وحيث نُشر كتاب دفاع عن حقوق المرأة لماري وولستونكرافت منذ أربعين عامًا فحسب ليلهم أطيافًا من النسويات والمؤيدات الأبيات وعاليات الأصوات في صحوته. كما اكتشف أنه في البرلمان، وفي قاعات المدينة، والشوارع، راح المصلحون يناضلون من أجل إنقاذ روح لندن، في حين كانت الطبقة الحاكمة المحافظة وشديدة البأس تقاوم جميع محاولات التغيير.

في ذلك الوقت، لم يفهم تلك النزاعات السياسية، فكل ما كان يشعر به هو أن لندن، وإنجلترا ككل، كانت منقسمة حول ماهيتها وما أرادت أن تكون عليه. بيد أنه فهم أن الفضة سبب كل شيء، فحين كتب الراديكاليون عن مخاطر التصنيع وحين دحض المحافظون هذا بالأدلة حول الاقتصاد المزدهر، وحين كان أي حزب سياسي يناقش أمور العشوائيات، والإسكان، والطرق، والمواصلات، والزراعة، والتصنيع، وحين كان أي شخص يتحدث عن مستقبل بريطانيا والإمبراطورية على الإطلاق، كانت كلمة الفضة ترد دائمًا في الجرائد، والمنشورات، والمجلات، بل وحتى في كتب الصلاة!

وعلم من السيدة بايير أكثر ممّا كان يتوقع عن إنجلترا والطعام الإنجليزي. بيد أن التكيف مع الطعام الجديد استغرق بعض الوقت. لم يكن يفكر كثيرًا في الطعام حين كان في كانتون، إذ بدت العصيدة، والخبز المطهو على البخار، والزلابية، وأطباق الخضراوات التي تتكون منها وجباته اليومية عادية بالنسبة له. كانت أساسية في طعام الأسر الفقيرة وبعيدة كل البعد عن المطبخ الصيني رفيع المستوى، غير أنه ذهل لافتقاده لها. كان الإنجليزي يستخدمون نكهتين اثنتين فحسب - المالح والعذب - ولم يعترفوا بأي نكهات أخرى. ورغم ما كانت تحققة البلاد من أرباح من تجارة التوابل، كان أهلها شديدي الكراهية لاستخدامها بالفعل. فطوال الوقت الذي قضاه في هامبستيد، لم يَدُقْ طبقًا «مُتبّلًا»، ناهيك بكونه «حارًا».

كان يستمتع بتلقي معلومات عن الطعام أكثر من تناوله. جاء هذا التعلم تلقائيًا، إذ كانت السيدة بايير ثرثرة بطبيعتها، وكانت لتسعد بإلقاء محاضرة



أثناء تقديم الغداء لو أبدى روبين أدنى اهتمام بمحتويات الطبق. لقد أخبرته بأن البطاطس، التي كان تطيب له مذاقاً في أي شكل، لم تكن لتُقدم للضيوف المهمين، إذ كانوا يعتبرون من طبقي أدنى. واكتشف أن الأطباق الجديدة المطلية بالفضة كانت تُستخدم في المحافظة على حرارة الطعام طوال فترة تناوله، ولكنه كان من الواحة أن تُكشف هذه الحيلة أمام الضيوف، ومن ثم، كانت قوالب الفضة توضع في قاع الأواني. ونمى إلى علمه أن هناك فروقاً دقيقة بين الغداء، والغداء الرسمي، ووجبة العشاء المبكرة، غير أنه لم يفهمها جيداً. وعرف أن الفضل يرجع لطائفة دينية رومانية في ابتكار كعكة الجبن بلبن اللوز التي كان يفضلها، ذلك أن الامتناع عن منتجات الألبان في بعض الأوقات من العام وفقاً لمعتقداتهم قد أجبر الطهاة الإنجليز على الابتكار واستخدام لبن اللوز.

وذات ليلة، أحضرت السيدة بايبر شيئاً دائرياً مسطحاً. كان نوعاً من العجين المخبوز الذي يقطع إلى أقسام مثلثة. أخذ روبين قطعة وقضم طرفها بتردد. كانت شديدة السمك لكنها هشة، بل وأكثر كثافة من اللفائف البيضاء الهشة التي اعتادت أمه وضعها على البخار كل أسبوع. لم تكن سيئة الطعم، لكنها كانت ثقيلة البلع على نحو مدهش. وهنا أخذ جرعة كبيرة من الماء ليسهل مرور اللقمة، ثم سألها: «ما هذا؟».

أجابت السيدة بايبر: «هذا هو خبز البانوك يا عزيزي».

فقال الأستاذ لوفيل مُصححاً: «بل هي قريصة».

«هي بالفعل بنوكة...».

قاطعها الأستاذ لوفيل مُصححاً: «القريصة هي القطعة الواحدة، أما البنوكة فهي الكعكة الكاملة».

«انتبه، هذه بنوكة، وجميع القطع متناهية الصغر هي بنوكة كذلك، أما القريصات فهي الحواف الجافة المقرمشة التي تحبون أيها الإنجليز أن تحشوا بها أفواهكم...».



«أظن قريصاتك استثناء يا سيدة بايبر، فما من شخص عاقل يجد هذه القريصات جافة».

لم ترضخ السيدة بايبر لهذه المجاملة، فقالت: «هذه بنوكة، وتلك بنوكات. كانت جدتي تدعوها بنوكة، وأمي تدعوها بنوكات، وهي بالفعل بنوكات».

فسأل روبين: «لماذا تدعى هذه - ولماذا تدعى تلك - بنوكات؟». جعله صوت الكلمة يتخيل وحش التلال؛ ذاك الشيء الخشن ذو المخالب الذي لا يشبع إلا إذا قُدم له قربان من الخبز.

قال الأستاذ لوفيل: «بسبب اللغة اللاتينية، اشتُقَّت كلمة بنوكة من بانيسيوم، إذ تعني «الرغيف المخبوز»».

بدا هذا منطقيًا، وإن كان عاديًا على نحو مخيب للتوقعات. أخذ روبين قضمه أخرى من البنوكة أو القريصة، وفي هذه المرة، راق له شعوره بكتافتها، إذ كانت تشبعه حين كانت تستقر في معدته.

وسرعان ما جمع بينه وبين السيدة بايبر الحب العميق للقريصات. كانت تصنعها بكل الطرق، فإما كانت عادية مُقدمة ببعض القشدة ومربى التوت، وإما مالحة ومحشوة بالجبن والكزبرة، وإما مرصعة ببعض قطع الفواكه المجففة.

كان روبين يفضلها عادية. فلماذا يفسد ما كان، بحسب رأيه، مثاليًا منذ البداية؟

كان قد تعلم المُثل الأفلاطونية مؤخرًا، وكان مقتنعًا بأن القريصات هي الشكل الأفلاطوني المثالي للخبز. كانت القشدة التي كانت تصنعها السيدة بايبر رائعة، وخفيفة، وشبيهة بالمسكرات، ومنعشة في ذات الوقت. وكانت بعض البيوت تغلي اللبن فوق الموقد لما يقرب من اليوم الكامل كي تحصل على طبقة القشدة فوقه، لكن في العيد الماضي، كان الأستاذ لوفيل قد أحضر لها عازلاً من الفضة يفصل القشدة في ثوانٍ.



كان الأستاذ لوفيل أقل تفضيلاً للقريصات العادية، ومن ثم، كانت قريصات الزبيب أساسية مع شاي العصر.

سأل روبين: «لماذا تُدعى سلطنة؟ فما هي سوى زبيب، أليس كذلك؟».

أجابت السيدة بايبر: «لست متأكدة يا عزيزي. ربما يُعزى هذا لمنشئها. تبدو كلمة سلطان شرقية، أليس كذلك. أين تُزرع هذه يا ريتشارد؟ هل تُزرع في الهند؟».

قال الأستاذ لوفيل: «بل في آسيا الصغرى، وتُدعى سلطانات، لا سلطان، إذ تحتوي على بذور».

غمزت السيدة بايبر لروبين وقالت: «حسنًا، ها هي الإجابة. يتعلق الأمر كله بالبذور».

لم يفهم روبين هذه المزحة، لكنه كان يعرف أنه لم يكن يحب القريصات بالزبيب. وحين كان الأستاذ لوفيل ينظر في الاتجاه الآخر، كان ينتزع الزبيب ويغطي القريصة بالقشدة، ثم يضعها في فمه.

وبالإضافة للقريصات، كانت الروايات هي ثمانية مُتَع روبين الكبرى. كانت الكتب الاثنان والعشرون التي كان يتسلمها كل عام في كانتون نقطة في بحر. أما الآن، فقد صار يستطيع الوصول إلى غذائه الحقيقي. لم يكن يفارق الكتب، لكن كان عليه أن يبتكر طرقًا ليدمج القراءة في جدوله، إذ كان يقرأ على المائدة وهو يلتهم ما تعده السيدة بايبر من وجبات دون أن يعير ما يضعه في فمه اهتمامًا. وكان يقرأ وهو ينتزه في الحديقة، رغم أن هذا كان يسبب له دوارًا، بل وشرع في القراءة أثناء الاستحمام، لكن أصابعه المبللة المجددة التي تركت آثارًا على الطبعة الجديدة من رواية الكولونيل جاك لدانييل ديفو كانت مخجلة على نحو جعله يتخلى عن هذه العادة.

كان يستمتع بالروايات أكثر من أي شيء آخر. وكانت سلاسل روايات ديكنز جيدة وممتعة، لكن يا لها من متعة أن يحمل رواية كاملة بين يديه ويشعر بوزنها! كان يقرأ أي نوع أدبي تصل إليه يداه، فاستمتع بجميع روائع



جين أوستن، رغم أن الأمر اضطره لاستشارة السيدة باير كي يفهم التقاليد الاجتماعية التي وصفتها جين أوستن. (أين كانت أنتيجوا؟ ولماذا كان السير توماس بيرترام دائم الذهاب إلى هناك؟*). كان يلتهم أدب الرحلات لتوماس هوب وجيمس مورير والتى قابل من خلالها الإغريق والفرس أو النسخة الخيالية منهم على الأقل. كان يستمتع أيما متعة برواية فرانكنشتاين لماري شيلي، مع ذلك لم يحمل الرأي نفسه عن أشعار زوجها الأقل موهبة والذي كان يجده مغاليًا.

وعند عودته من أوكسفورد في الفصل الدراسي الأول، اصطحب الأستاذ لوفيل روبين إلى متجر الكتب-هاتشاردز في بيكاديلي المقابل لفورتنوم آند ميسون.

توقف روبين خارج المدخل المطلي باللون الأخضر فاغراً فاه. كان قد مر عدة مرات بمتاجر الكتب أثناء نزهاته القصيرة في المدينة، لكنه لم يتخيل أنه قد يسمح له بالدخول إليها. كان يظن أن متاجر الكتب مخصصة للبالغين الأغنياء فحسب، وأنه سوف يُسحب من أذنيه إلى الخارج لو تجرأ ودخل. ابتسم الأستاذ لوفيل حين رأى روبين مترددًا في الدخول.

قال: «ما هذا إلا متجر عام. انتظر حتى ترى مكتبة إحدى الكليات».

وفي الداخل، غمرت رائحة غبار الخشب القوية للكتب المطبوعة المكان. وهنا خطر ببال روبين أنه لو كانت رائحة التبغ تشبه هذه الرائحة، لدخنه يوميًا. سار نحو أقرب رف، ورفع يده بتردد نحو الكتب المعروضة وهو في غاية الخوف من لمسها، إذ بدت جديدة ومهندمة. كانت أغلفتها سليمة غير مشققة، وصفحاتها ملساء ولامعة. كان روبين قد تعود على المجلدات البالية المتجعدة من الماء، بل وكانت كتب النحو التقليدية شديدة القدم، إذ مرت عليها عقود من الزمان. بدت هذه الأشياء اللامعة الحديثة التجليد كنوع

* إذ كان يمتلك عبيدًا.



جديد من الأغراض، أشياء يُعجب بها المرء عن بُعد، لكنه لا يمسكها ويقرأها.

قال الأستاذ لوفيل: «اختر واحدًا. يجب أن تعرف ما يشعر به المرء حين يقتني أول كتبه».

أختار واحدًا؟ هل كان لينتقي واحدًا فحسب من بين كل هذه الكنوز؟ لم يميز روبين العنوان الأول من الثاني، وكان في شدة الذهول بسبب كم النصوص التي يقلبها ويختار منها. ثم وقعت عيناه على عنوان الملك نفسه، من تأليف فريدريك ماريات الذي لم يكن يعرفه حتى ذلك الوقت. لكنه كان جديدًا، ومن ثم، كان جيدًا حسب ظنه.

«لم أقرأ أي شيء لماريات، لكنني عرفت أنه يستهوي أمثالك في السن». ثم راح الأستاذ لوفيل يقلب الكتاب بين يديه وقال: «هل اخترت هذا الكتاب؟ هل أنت متأكد؟».

أوماً روبين. فلو لم يقرر، لم يكن ليبرح المكان. كان كرجل يتضور جوعاً في متجر مخبوزات وهو مذهول من الخيارات، لكنه لم يكن يريد أن يستنفد صبر الأستاذ.

وفي الخارج، أعطاه الأستاذ طردًا ملفوفًا في ورق بني اللون. احتضنه روبين رافضًا أن يفتحه ريثما يصلان إلى البيت. شكر الأستاذ شكرًا جزيلاً وتوقف حين رأى نظرة عدم ارتياح في عينيه. لكن الأستاذ سأله ما إذا كان يشعر بالسعادة لحمل كتاب جديد بين يديه. فوافق روبين بحماس وتبادلا الابتسامات لأول مرة.

كان روبين قد خطط لتأجيل قراءة رواية الملك نفسه حتى عطلة نهاية الأسبوع عندما يكون لديه فترة ما بعد الظهرية كاملة من دون دروس كي يتلذذ بصفحاتها بتمهل. ولكن ظهيرة الخميس حلت، ووجد أنه لا يستطيع الانتظار. وبعد مغادرة السيد فلتون، التهم طبق الخبز والجبن الذي أعدته



السيدة بايبر وأسرع بالصعود إلى المكتبة حيث تكور في أريكته الأثيرة وبدأ القراءة.

وسرعان ما افتتن بالكتاب. كانت رواية الملك نفسه تدور حول المآثر البحرية، وعن الانتقام، والجرأة، والكفاح، وعن معارك السفن، والرحلات إلى الأصقاع النائية. وهنا شرد بذهنه لرحلته من كانتون، وراح يعيد تأطير تلك الذكريات في سياق الرواية، ويتخيل نفسه وهو يحارب القراصنة، ويبني القوارب، ويفوز بالميداليات لشجاعته وإقدامه... ثم انفتح الباب عنوة.

قال الأستاذ لوفيل: «ماذا تفعل يا روبين؟».

نظر روبين إلى أعلى. كانت الصورة الذهنية التي كَوَّنَهَا عن البحرية الملكية وهي تبحر في المياه الهائجة شديدة الوضوح، ما استغرق منه لحظة ليتذكر مكانه.

فسأله الأستاذ لوفيل مجددًا: «ماذا تفعل يا روبين؟».

وفجأة ازدادت المكتبة برودة، واستحال ضوء بعد الظهيرة الذهبي إلى عتمة. تتبع روبين نظرة الأستاذ لوفيل نحو الساعة التي كانت تدق فوق الباب. كان قد نسي الوقت تمامًا. لكن عقارب الساعة لم تنس! فقد مرت نحو ثلاث ساعات منذ جلس ليقراً.

فأجاب في ذهول قائلًا: «إني آسف». شعر كأنه رحالة من بلاد بعيدة وقد النُقط من المحيط الهندي ثم طُرح في هذه المكتبة الباردة المعتمدة، ثم أردف: «لم... لم أشعر بمرور الوقت».

لم يستطع فهم تعبير وجه الأستاذ لوفيل على الإطلاق، ما جعله يشعر بالذعر. كان ذلك الجدار الغامض، ذاك الفراغ اللا إنساني، كان مخيفًا بشكل لا نهائي من أن يكون غضبًا.



قال الأستاذ لوفيل: «ينتظر ك السيد تشيستر في الطابق السفلي منذ أكثر من ساعة. لم أكن لأدعه ينتظر ولو حتى لعشر دقائق، لكنني عدت للتو».

انقبضت معدة روبين بسبب شعوره بالذنب وقال: «أعذر بشدة يا سيدي...».

قاطعه الأستاذ لوفيل قائلاً: «ماذا تقرأ؟».

تردد روبين للحظة، ثم أبرز رواية الملك نفسه* وقال: «إنه الكتاب الذي اشتريته لي يا سيدي. هناك معركة كبيرة مستعرة، وأردت أن أرى ما...».

قاطعه قائلاً: «أتظن أن موضوع هذا الكتاب اللعين يهمني؟».

وعلى مدى السنوات التالية، وحين كان روبين يعود بالذاكرة إلى الوراء، كان يُصاب بالذهول لتصرفه الوقح. لا بد أنه كان مذعوراً على نحو جعله يفقد صوابه، إذ كان من دواعي الحماسة أن يغلق الكتاب ويتجه نحو الباب وكأنه لم يستطع سوى الإسراع إلى الدرس، وكأن خطأ بهذا الحجم سهل النسيان.

فإذ اقترب من الباب سحب الأستاذ لوفيل يده ولكم وجنة روبين اليسرى بمفاصل قبضته.

قذفته قوة الضربة إلى الأرضية، لكنه لم يشعر بالألم بقدر ما شعر بالصدمة. لم يؤلمه ما شعر به من ارتجاج في صدغيه، فقد حدث ذلك فيما بعد. فبعد عدة ثوانٍ، بدأ الدم يتدفق من رأسه.

* كان هذا آخر كتاب يقرأه روبين لماريات. كان من حسن حظه، فرغم امتلاء روايات ماريات بالمغامرات في أعالي البحار والإقدام المحبب للصبيّة الإنجليزي، فإنها كانت تصور ذوي البشرة السوداء كعبيد سعداء راضين. والهنود الحمر إما كمتوحشين نبلاء وإما كسكارى منحلين. وكانت الروايات تصف الصينيين بأنهم «عرق متدني المكانة وأشخاص ضعفاء».



لم يكن الأستاذ لوفيل قد انتهى. فحين نهض روبين على ركبتيه وهو مذهول، جذب الأستاذ مسعار المدفأة ورماه بانحراف نحو الجانب الأيمن من جذع روبين، ثم راح ينزله مرارًا وتكرارًا.

لم يكن روبين ليشعر بمثل هذا الفزع لو كان قد اشتبه ذات يوم أن الأستاذ لوفيل ميل للعنف، لكن هذا الضرب لم يكن متوقعًا، وكان غير متوافق مع شخصيته، ف شعر بأنه في عالم آخر تمامًا. لم يخطر بباله أن يتوسل، أو يبيكي، أو حتى يصرخ. فحتى حين اصطدم المسعار بأضلعه للمرة الثامنة، والتاسعة، والعاشرة، بل وحتى حين شعر بطعم الدم على أسنانه، كان كل ما شعر به هو الذهول من حدوث هذا. كان الأمر عبيثًا. بدا كأنه في حلم.

كما لم يبدُ الأستاذ لوفيل كرجل في خضم ثورة الغضب. لم يكن يصيح، ولم تكن عيناه هائجتين، ولم تحمرّ وجنتاه، بل بدا كمن يحاول إنزال أكبر ألم بأقل خطر مع كل ضربة. فلم يضرب روبين على رأسه، ولم يضرب أضلع روبين بقوة تجعلها تنكسر، بل أحدث به كدمات يمكن إخفاؤها، وبمرور الوقت، كانت لتشفى تمامًا!

كان يعرف ما يفعله جيدًا، بل وبدا كمن فعلها من قبل.

وبعد اثنتي عشرة ضربة، توقف كل شيء. وبكل هدوء ودقة، أعاد الأستاذ لوفيل المسعار إلى الطاولة، ورجع إلى الخلف، ثم جلس على الطاولة وراح يتأمل روبين في صمت أثناء نهوض الصبي ومسحه الدم، قدر استطاعته، من على وجهه.

وبعد صمت طويل، تحدث قائلاً: «حين أحضرتك من كانتون، أوضحت توقعاتي».

كانت شهقة قد تكوّنت أخيرًا في حنجرة روبين. كانت استجابة عاطفية مخنوقة متأخرة. لكنه كبها، إذ خشي ممّا قد يفعله الأستاذ لوفيل لو أحدث جلبة.

قال الأستاذ لوفيل ببرود: «قم واجلس».



فأطاعه روبين تلقائياً. كان يشعر بأن أحد أضراره تخلص، فراح يفحصه ليجفل حين شعر بدفقة دم مالحة تغطي لسانه.

قال الأستاذ لوفيل: «انظر إليّ».

فرفع روبين عينيه.

قال الأستاذ لوفيل: «حسناً، لا يبيك الضرب، وهي صفة جيدة فيك».

كان روبين يشعر بوخز في أنفه، وكادت دموعه تفر من عينيه، فضغط على نفسه كي يكبحها. كان يشعر كأن شوكة تُدفع داخل صدغيه. لقد استبدَّ به الألم على نحو جعله يعجز عن التنفس، لكن بدا أن أهم شيء هو عدم إبداء أي أماراة للمعاناة على الإطلاق. فلم يشعر بمثل هذه التعاسة في حياته، بل وتمنى أن يموت.

وهنا قال الأستاذ لوفيل: «لن أسمح بالكسل في بيتي. ليست الترجمة مهنة سهلة يا روبين، بل تتطلب تركيزاً وانضباطاً. أنت بالفعل في موقف سيئ بسبب عدم تعلمك اليونانية واللاتينية مبكراً، ولديك ست سنوات لتعويض هذا النقص قبل أن تبدأ في أوكسفورد. ليس مسموحاً لك بالكسل، ولا بإهدار الوقت في أحلام اليقظة».

ثم تنهد وأردف: «كنت آمل، بناءً على تقارير الأنسة سليت، أن تكون قد نشأت على المثابرة والاجتهاد. لكن يبدو أنني كنت مخطئاً، فالكسل والكذب سمات مشتركة في بني جنسك. لهذا لم تزل الصين دولة متخلفة خاملة، في حين يمضي جيرانها بخطى سريعة نحو التقدم. وأنت، بطبيعتك، أحمق، وقاصر التفكير، وغير ميال للعمل الجاد. يجب أن تقاوم هذه السمات يا روبين. يجب أن تتعلم كيف تتغلب على تلوث دمك. لقد راهنت على قدرتك على عمل هذا. اثبت لي أن الأمر كان يستحق هذا أو اشتر تذكرة رحلة عودتك إلى كانتون». وهنا مد رأسه وأردف: «أتريد العودة إلى كانتون؟».

ازدرد روبين لعبابه وأجاب: «كلا».



كان يعني ما يقول. فحتى بعد ما حدث، وبعد ما كان يلاقيه من شقاء في دروسه، لم يكن يتخيل لنفسه مستقبلاً بديلاً. كانت كانتون تعني الفقر، والجهل، والتفاهة. كانت كانتون تعني الوباء، وكانت تعني غياب الكتب. وكانت لندن مرادفة لجميع وسائل الراحة المادية التي يتمناها، بل كانت لتعني الذهاب لأوكسفورد ذات يوم.

«قرر الآن، إذًا، يا روبين. كرس نفسك للتفوق في دراستك، وقدم ما يستتبع ذلك من تضحيات، وعِدني أنك لن تخرجني هكذا أبدًا، أو احزم أمتعتك وعد إلى بلدك. ستعود إلى الشوارع بلا عائلة، وبلا مهارات، وبلا مال. لن تحصل على نوعية الفرص التي أقدمها لك مجددًا، وستقتصر رؤيتك للندن على أحلامك فحسب، ناهيك بأوكسفورد. لن تلمس قالب فضة أبدًا». مال الأستاذ لوفيل إلى الورا وراح يرقب روبين بعينين باردتين ثاقبتين وأردف: «اختر إذًا».

همس روبين ردًا.

«ارفع صوتك، وتحدث الإنجليزية».

قال روبين بصوت أجش: «إنني آسف. أريد البقاء».

فوقف الأستاذ لوفيل وقال: «جيد. ينتظرك السيد تشيستر بالطابق السفلي. ملم شتات نفسك واذهب إلى الدرس».

استطاع روبين استكمال درسه بشكل ما متنهذًا. كان مشوشًا ولم يستطع التركيز، وكانت كدمة كبيرة تغلو وجهه، في حين كان جذعه يخفق بعشرات الألام الخفية. وشفقة منه، لم يقل السيد تشيستر أي شيء عن الواقعة. راجع روبين قائمة تصريفات وأخطأ في الجميع! كان السيد تشيستر يصلح الأخطاء بصبر متظاهراً باللطف غير المعهود. لم يقلل تأخر روبين وقت الدرس الذي امتد إلى ما بعد وقت العشاء بكثير. كانت تلك أطول ثلاث ساعات في حياة روبين.



وفي صباح اليوم التالي، تصرف الأستاذ لوفيل كأن شيئاً لم يكن. وحين نزل روبين لتناول الفطور، سأله الأستاذ ما إذا كان قد انتهى من ترجماته، فقال روبين إنه فعل. أعدت السيدة بايير بيضاً ولحماً للفطور، وراحوا يأكلون في صمت يشوبه التوتر. كان مضغ الطعام وبلعه مؤلمين على حد سواء. وكان وجه روبين قد ازداد تورماً خلال الليل، لكن السيدة بايير اقترحت أن يقطع اللحم قطعاً أصغر حين كان يسعل. انتهى الجميع من تناول الشاي، ورفعت السيدة بايير الأطباق، وذهب روبين لإحضار كتب اللغة اللاتينية قبل حضور السيد فلتون.

لم يخطر ببال روبين أن يهرب، لا في ذلك الوقت ولا حتى مرة في الأسابيع التالية؛ إذ كان أي طفل آخر ليصاب بالذعر، وكان ليغتنم أول فرصة ليلوذ بالفرار إلى شوارع لندن. لعل طفلاً آخر أكثر أهلية للتعامل بلطف كان ليلحظ أن عدم الاكتراث من جانب البالغين على شاكلة السيدة بايير، والسيد فلتون، والسيد تشيستر بطفل في عمر الحادية عشرة مصاب بكدمات شديدة لخطأ فادح. بيد أن روبين كان شديد الامتنان لاستعادته توازنه على نحو جعله لا يشعر بأي استياء مما حدث.

وعلى أية حال، لم يحدث هذا بعدها؛ في الحقيقة لقد حرص روبين على عدم حدوثه، ففضى السنوات الست الأولى في الدراسة حتى الإرهاق. كان التهديد بالطرد عالقاً في عقله، ما جعله يكرس حياته لأن يصبح الطالب الذي أراد الأستاذ لوفيل أن يراه.

صارت اليونانية واللاتينية أكثر متعة مقارنة بالسنة الأولى، هذا بعد أن استجمع ما يكفي من العناصر الأساسية في كلتا اللغتين وراح يربط أجزاء المعنى بنفسه. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، بدا الأمر أقل صعوبة من تحسس الطريق في الظلام حين كان يقابل نصاً جديداً، بل بالأحرى صار أقرب لملء الفراغات. كان البحث عن التكوين النحوي للجمل محبباً، لكنه صار يعطيه بعض الإشباع الشبيه بما كان يحصل عليه من إعادة كتاب إلى مكانه على الرف أو العثور على جورب مفقود، إذ كانت جميع القطع تتناسب معاً ليصير كل شيء تاماً كاملاً.



وفي اللاتينية، قرأ لشيثرون، وليفي، وفيرجيل، وهوراس، وقيصر، ويوفينال؛ أما في اليونانية، فتطرق إلى أعمال زينوفون، وهوميروس، وليسياس، وأفلاطون. وفي النهاية، أدرك أنه صار يتقن اللغتين. كان ذا ذاكرة قوية، وكان موهوباً في التعامل مع النغم والإيقاع. وسرعان ما بلغ مبلغاً من الطلاقة في كل من اليونانية واللاتينية تجعل أي طالب في أوكسفورد يغار منه. وفي النهاية، توقف الأستاذ لوفيل عن التعليق على كسله الوراثي، بل راح يُبدي الاستحسان لكل تحديث حول تقدم روبين السريع في دراسته.

في الوقت عينه، لم ينفك التاريخ يسير بخطواته المتوثبة حولهما. ففي عام 1830، توفي الملك جورج الرابع، وخلفه أخوه الأصغر وليم الرابع الذي لم ينفك يقدم تنازلات، ومن ثم، لم يُرض أحدًا. في عام 1831، ضرب وباء كوليرا آخر لندن، مُخلفاً ثلاثين ألف قتيل في بدايته. وقد تحمّل الفقراء والمعدّمون العبء الأكبر لآثاره، ولم ينجُ سكان الأحياء المزدهمة من الهواء السام الذي يتنفسه بعضهم بعضاً*. لكن أدى لم يمسه حي هامبستيد، فبالنسبة للأستاذ لوفيل وأصدقائه من سكان الضياع المحصنة بجدرانها، كان الوباء مجرد شيء يُذكر على نحو عابر، وكانوا ليحفلوا تعاطفاً، ثم سرعان ما ينسون!

وفي عام 1833، حدث أمر جلل، إذ ألغي الرق في إنجلترا ومستعمراتها وحل محله شرط الخضوع لتدريب مدته ست سنوات كفترة انتقالية إلى الحرية. وكان بعض محوري الأستاذ لوفيل يتعاملون مع هذا الخبر ببعض خيبة الأمل التي يُصاب بها لاعب خسر مباراة.

قال السيد هالوز بتزمز: «حسناً، لقد أضاع دعاة إلغاء الرق فرصتنا في جزر الهند الغربية بمواظمتهم اللعينة! ما زلت أؤمن بأن الهوس بإلغاء الرق

* سجلت الصحف الأسبوعية تزايد عدد الوفيات، وإذ ذاك، سأل روبين السيدة باير لماذا لم يعالج الأطباء المرضى بالفضة كما فعل الأستاذ لوفيل معه، فأجابت قائلة: «إن الفضة باهظة الثمن». كانت هذه آخر مرة تحدثنا فيها عن هذا الأمر.



لهو نتيجة لاحتياج البريطانيين للشعور بأنهم أرفع ثقافة بعد أن فقدوا أمريكا. وعلى أي أساس؟ ليس الأمر كأن أولئك الفقراء ليسوا مستعبدين في أفريقيا لأولئك الطغاة الذين يدعونهم ملوكًا»**.

قال الأستاذ لوفيل: «لن أياس من جزر الهند الغربية بعد، فما زالوا يسمحون بشكل مقنن من السخرة...».

«لكن من دون ملكية، ستضعف بشكل كبير».

«لعل هذا في المصلحة، إذ يعمل الأحرار أفضل من العبيد على كل حال، وتعد العبودية أعلى تكلفة من سوق العمالة المجانية...».

«لم تنفك تقرأ كثيرًا في كتاب سميث. كان لهوبارت وماكوين أفكار سليمة، متمثلة في تهريب سفينة مملوءة بالصينيين*** وسينفذ هذه الخدعة، فهم في غاية الاجتهاد والنظام. لا بد أن ريتشارد يعلم...».

«كلا، يعتقد ريتشارد أنهم كسالى، أليس كذلك؟».

فقاطع السيد راتكليف: «والآن أتمنى لو توقفت كل هؤلاء النسوة عن المشاركة في المناقشات المناوئة للعبودية، إذ يرين في ذلك الموقف انعكاسًا واضحًا لأنفسهن، بل ويستلهمن منه الأفكار».

فسأل الأستاذ لوفيل: «ماذا؟ هل السيدة راتكليف غير راضية عن وضعها الأسري؟».

** هنا نسي السيد هالوز أن العبودية المطلقة التي كان السادة يعاملون فيها عبيدهم كممتلكات لا أشخاص لم تكن سوى بدعة أوروبية.

*** بالطبع في أعتاب تحرير جزر هايتي، بدأ البريطانيون يتلاعبون بفكرة استيراد العمالة من أعراق أخرى، مثل الصينيين (شعب يقظ وصبور ومجتهد) باعتبارها حلًا بديلًا لعمالة العبيد الأفارقة. كانت تجربة السفينة فورتيتود عام 1806 تستهدف إنشاء مستعمرة من مائتي عامل صيني في ترينيداد لخلق حاجز بيننا وبين ذوي البشرة السوداء. وفشلت المستعمرة وسرعان ما عاد معظم العاملين إلى وطنهم في الصين، لكن فكرة أن تستبدل بالعمالة الأفريقية أخرى صينية ظلت جاذبة لرواد الأعمال البريطانيين وكانت لتطرح باستمرار خلال القرن التاسع عشر.



«إنها تميل للاعتقاد في سهولة الانتقال من إلغاء العبودية إلى حق المرأة في التصويت». وهنا أطلق السيد راتكليف ضحكة كريهة، ثم أردف: «وهذا مستبعد جداً».

وهكذا تحول مسار المناقشة إلى عبثية مسألة حقوق المرأة.

لم يخطر ببال روبين أنه سيفهم هؤلاء الرجال الذين كانوا يتحدثون عن العالم وما يجري فيه كأنهم يتحدثون عن لعبة شطرنج حيث الناس والدول قطع يمكن تحريكها واستغلالها كما يشاءون.

ولكن، لو كان العالم شيئاً مجرداً بالنسبة لهم، فإنه أكثر تجريداً بالنسبة له، إذ لم يكن روبين معنياً بتلك الأمور. كان روبين يفهم تلك الحقبة من منظور ضيق ممثل في عالم منزل لوفيل. لم تكن الإصلاحات، ولا الانتفاضات الاستعمارية، ولا ثورات العبيد، ولا حق المرأة في التصويت، ولا أحدث مناقشات البرلمان تعني شيئاً بالنسبة له. كانت تلك اللغات الميتة هي كل ما يعنيه، وأنه ذات يوم، وهو يوم بات أقرب بمرور السنين، سيلتحق بتلك الجامعة التي لم يعرفها سوى من خلال اللوحة المعلقة على الحائط - مدينة المعرفة والأبراج الحاملة.

انتهى كل شيء دون سابق إنذار ودون احتفال. فذات يوم قال السيد تشيستر لروبين وهو يعبئ كتبه أنه استمتع بإعطائه الدروس وأنه يتمنى له التوفيق في الجامعة. وهكذا اكتشف روبين أنه سيُرسل إلى أوكسفورد في الأسبوع التالي.

حين سأل الأستاذ لوفيل، أجاب الأخير: «نعم. هل نسيت أن أخبرك؟ لقد راسلت الكلية وهم في انتظارك».

يفترض أنه كان هناك عملية لتقديم الطلب، وتبادل لبعض الخطابات لتقديم ضمانات التمويل التي تؤمّن وضعه. لم يخطر روبين في أي من تلك الأمور، بل أخبره الأستاذ لوفيل ببساطة بأنه كان لينتقل لمحل إقامته الجديد



يوم 29 سبتمبر، ومن ثم، كان من الأفضل أن يحزم حقائبه ليلة 28. قال الأستاذ: «ستصل قبل بدء الفصل الدراسي ببضعة أيام، وسوف أصطحبك».

وفي ليلة الرحيل، خبزت السيدة بايبر طبقًا من البسكويت الصغير الصلب المستدير. كان دسمًا وهشًا على نحو جعله يكاد يذوب في فمه.

قالت موضحة: «إنه بسكويت هش، وهو دسم جدًا، فلا تأكله كله دفعة واحدة. لا أصنعه كثيرًا، إذ يرى ريتشارد أن السكر يفسد الأولاد، لكنك تستحقه».

كرر روبين: «بسكويت هش. هل يعزى هذا لسرعة ذوبانه؟».

لم ينفكا يلعبان هذه اللعبة منذ ليلة مناقشة البنوكة.

فأجابت ضاحكة: «كلا يا عزيزي، بل بسبب فئات الدهن التي تجعل العجين هشًا، ومن ثم يُدعى بسكويت هش».

ابتلع روبين القطعة الحلوة الدسمة وراح يسهل بلعها بجرعة لبن وقال: «سأفتقد دروسك في علم أصول الكلمات يا سيدة بايبر».

وهنا فوجئ باحمرار أطراف عينيها وتهدُّج صوتها حين قالت: «راسلني متى احتجت كيسًا من المون. لا أعرف كثيرًا عمَّا يجري في تلك الكليات، لكنني أعلم أنهم يقدمون طعامًا سيئًا».



الفصل الثالث



لكن هذا لن يتحقق: فستبقى لنا مدينة واحدة،
لا أثر بها للوحش،
ولم تُبنَ من أجل تلك المكاسب المادية البشعة،
ولا لأنياب الذئاب الحادة أو وليمة الإمبراطورية الشرهة.

سي إس لويس «أوكسفورد»

في صباح اليوم التالي، استقل روبين والأستاذ لوفيل عربة أجرة إلى المحطة في وسط لندن، حيث تنقلا إلى عربة البريد المتجهة إلى أوكسفورد. أثناء انتظارهم للركوب، راح روبين يسلي نفسه بتخمين أصل كلمة عربة البريد والتي كانت تُكتب «ستيدج كوتش». كانت كلمة «كوتش» واضحة، لكن لماذا استخدمت كلمة «ستيدج»؟ أكان هذا يُعزى لكونها عربة واسعة مسطحة تبدو كالمرسح؟ أكان هذا لأن فِرَقًا من الممثلين بأكملها كانت تسافر بها أو تؤدي عروضها فوقها؟ لكن كانت هذه مبالغة، إذ كانت العربة تُشبه أشياء كثيرة، لكن لم يخطر بباله كيف يكون المرسح، وهو منصة عامة عالية، هو الرابط الواضح. لم لا تكون «باسكيت كوتش» أو «أومني كوتش»؟

حين استسلم روبين، راح الأستاذ لوفيل يشرح له قائلاً: «تتخذ الرحلة عدة مراحل، إذ لا تستطيع الخيول الركض من لندن إلى أوكسفورد دون توقف، ولا نستطيع نحن الركاب كذلك. لكنني أكره استراحات المسافرين، ومن ثم، سنقوم برحلة تستغرق يومًا واحدًا، والتي تستغرق عشر ساعات دون توقف، ولذا يجب أن نستخدم الحمام قبل أن نغادر».



ركبا عربة البريد مع تسعة أشخاص آخرين، كانت أسرة صغيرة أنيقة مؤلفة من أربعة أفراد ومجموعة من الرجال الكسالى المرتدين بدلات قاتمة برقعة عند المرفق. وقد ظن روبين أن هؤلاء جميعاً أساتذة. وجد روبين نفسه محشوراً بين الأستاذ لوفيل وأحد السادة ذوي البدلات. كان الوقت مبكراً للدرشة. وأثناء انطلاق العربة فوق الشوارع المرصوفة، كان الركاب إما يغفون وإما يحدقون بأبصارهم بلا هدف في مختلف الاتجاهات.

استغرق الأمر وقتاً كي يلحظ روبين أن المرأة الجالسة قبالة كانت تحقق إلى نموذج الحياكة. وحين تقابلت أعينهما، التفتت بسرعة إلى الأستاذ لوفيل وسألته: «أهو شرقي؟».

رفع الأستاذ لوفيل رأسه بفزع، إذ استيقظ من غفوة، وقال: «أستمحك عزراً؟».

قالت المرأة: «كنت أستفهم عن الصبي. هل هو من بكين؟».

نظر روبين للأستاذ لوفيل وقد باغته الفضول حيال ما قد يقوله الأستاذ.

لكن الأستاذ لوفيل اكتفى بهز رأسه وقال باقتضاب وقح: «كانتون، أقصى الجنوب».

ردت المرأة قائلة: «أه!». كانت تشعر بخيبة الأمل لعدم التوضيح.

عاد الأستاذ لوفيل للنوم، في حين راحت المرأة تتفحص روبين من قمة رأسه حتى أخص قدميه بفضول شديد، ثم حولت انتباهها إلى أطفالها. ظل روبين صامتاً، لكن فجأة شعر بضيق شديد في صدره، لكنه لم يستطع فهم سبب هذا الشعور.

لم يتوقف الأطفال عن التحديق إليه بعيون واسعة وأفواه فاغرة على نحو كان ليبدو لطيفاً لو لم يجعلوا روبين يشعر بأن رأساً آخر قد نبت له! وبعد لحظة، جذب الولد كُمّ أمه وجعلها تنحني كي يهمس في أذنها.



فقال ضاحكة: «أوه!» ثم نظرت إلى روبين وأردفت: «يود أن يعرف ما إذا كنت مبصرًا».

«أنا... ماذا؟».

رفعت المرأة صوتها وراحت تنطق كل مقطع ببطء ووضوح شديد، وكأن روبين يُعاني صعوبات في السمع: «ما إذا كنت مبصرًا؟». (كان هذا قد حدث لروبين في كاونتيس أوف هاركورت. لم يستطع فهم سبب معاملة الناس لمن لا يفهم الإنجليزية وكأنه أحمق). «هل ترى كل شيء بمثل هذه العينين، أم لعلها مجرد شقوق صغيرة لا جدوى لها؟».

أجاب روبين بهدوء: «عفوًا، إنني أرى بشكل مثالي».

حول الولد انتباهه بإحباط وراح يقرص أخته، أما المرأة فواصلت الحياة وكأن شيئاً لم يكن.

نزلت الأسرة الصغيرة في ريدنج، ليجد روبين نفسه يتنفس الصعداء. كم استطاع مد ساقيه على الطريقة كي يريح ركبتيه المتيبستين دون أن تحدجه الأم بنظرة ملؤها الشك والذعر وكأنها ضبطته أثناء محاولته نسلها.

* * *

كانت الأميال العشرة الأخيرة قبيل أوكسفورد امتدادًا ريفيًا من الأرض الرعوية الخضراء تتخلله قطعان متباعدة من الأبقار. حاول روبين قراءة كتاب إرشادي بعنوان «جامعة أوكسفورد وكنياتها»، لكن صدادًا انتابه، ومن ثم، بدأ يغفو. كانت بعض عربات البريد مكسوة بقطعة فضة كي تسير الرحلة بسلاسة كما تسير الزلاجات فوق الثلج، لكن هذه العربة كانت من طراز قديم، وكان التدافع المستمر مرهقًا. أفاق روبين على صوت احتكاك



العجلات بالحصى ونظر حوله، ليكتشف أنه في منتصف هاي ستريت أمام بوابات بيته الجديد مباشرة.

كانت جامعة أوكسفورد مكونة من اثنتي وعشرين كلية، ولكل منها مجمعها السكني، وأعلام النبالة، وقاعات الطعام، والعادات والتقاليد. اختصت أربع دور عبادة بأكبر الأوقاف، ومن ثم، أفضل الأبنية. قال الأستاذ لوفيل: «لو أردت إلقاء نظرة على الحقائق، لتحتم عليك عقد صداقات. يمكنك تجاهل أي شخص من ورشستر أو هارتفورد دون ندم، فهم فقراء وقبيحون». لم يكن روبين متأكدًا ما إذا كان يشير إلى الناس أم الحقائق، واستطرد قائلاً: «كما أن طعامهم سيئ». وهنا رمقه أحد السادة بنظرة عابسة أثناء نزولهم من العربة.

كان روبين ليقم في الكلية الجامعية. وبين له الدليل أنه كان يُشار إليها بكلمة «يونيف»، وأن جميع الطلاب المقيدون بالمعهد الملكي للترجمة يعيشون فيها، ومن الناحية الجمالية، كانت كنيبة وعتيقة، وهو منظر يليق بأقدم كليات الجامعة. بدت بالفعل كمحمية غوطية، جدارها الأمامي مزدان بأبراج متناسقة ونوافذ موحدة محاطًا بحجر أبيض أملس.

وقف الأستاذ ويدها محشورتان في جيبه وقال: «حسنًا، ها نحن ذا». كان يبدو عليه شيء من عدم الارتياح. بعد أن اتجهوا إلى سكن الحارس، وأخذوا مفاتيح روبين وجرًا حقائب روبين بعيدًا عن هاي ستريت نحو الرصيف الممهّد، بدا واضحًا أن الفراق موشك. لم يعرف الأستاذ لوفيل كيف يسوق الأمر، فقال مجددًا: «حسنًا، تفصلك بضعة أيام عن بدء الدروس، فعليك أن تقضيها في التعرف على المدينة. لديك خارطة، ها هي ذي. مع ذلك، فالمكان صغير على نحو يجعلك تتعرفه بعد بضع نزاهات قليلة. ابحث عن أعضاء دفعتك، لعلهم وصلوا. يقع مسكني في منطقة جيريكو. أوضحت لك الاتجاهات في ذلك المظروف. ستلحق بي السيدة بايرر الأسبوع المقبل، وسوف ننتظرك على العشاء السبت بعد المقبل. ستسعد برويتك». تدفق الحديث من شفثيه كأنه يقرأ قائمة مسبقة الإعداد. بدا عليه الانزعاج حين نظر في عيني روبين وقال: «هل أنت مستعد؟».



أجاب روبين: «أوه! نعم، سأكون في غاية السعادة لرؤية السيدة باير كذلك».

راحا يتبادلان نظرات الدهشة. شعر روبين بوجود كلمات يجب أن تُقال تخليداً لهذه المناسبة البالغة الأهمية، فقد كبر، وها هو يترك البيت ويستعد لدخول الجامعة. لكن لم يخطر بباله ما عساها تكون، ويبدو أن الأمر تعذر على الأستاذ لوفيل كذلك.

أوماً الأستاذ لوفيل إيماءة قصيرة وقال وهو يستدير جزئياً نحو هاي ستريت: «حسنًا، هل يمكنك التعامل مع حقائبك؟».

«نعم يا سيدي».

فقال الأستاذ لوفيل مجددًا: «إذًا، حسنًا» ثم اتجه عائداً إلى هاي ستريت.

بالطبع، كانت عبارة غير ملائمة للختام، إذ كانت مؤلفة من كلمتين توحيان بوجود المزيد. راح روبين يراقبه للحظة وهو شبه متوقع أن يستدير، لكن الأستاذ لوفيل بدا مركزاً على التلويح لعربة أجرة فحسب. كان الأمر غريباً، لكن روبين لم يشعر بالضيق. فلم تنفك الأمور تسير هكذا بينهما: حوارات لم تنته وكلمات يُفضل ألا تُنطق.

استقر روبين في 4 ماجباي لين*، ليسكن مبنى مطلياً باللون الأخضر في منتصف الطريق المؤدي للدرب الضيق الوعر الذي يصل بين هاي ستريت ومرتون ستريت. كان ثمة شخص آخر يقف عند الباب الأمامي وهو يعبث بقلبه. لا بد أنه كان طالباً جديداً، إذ كانت الحقائب والجراجات متناثرة حوله فوق الحصى.

* عُرفت سابقاً باسم جروبيكانت لين، كانت ماجباي لين في الأصل، كما يشير اسمها، شارعاً للحنات. لم يرد هذا في دليل روبين الإرشادي.



وإذ اقترب روبين، اتضح له أن الفتى لم يكن إنجليزيًا، بل على الأرجح من جنوب آسيا. كان روبين قد رأى بحارة بلون البشرة نفسه في كانتون، كان جميعهم قد أتى من سفن واصله من الهند. كان للغريب بشرة داكنة ملساء، وبنية طويلة رشيقة، وأكثر الرموش التي رآها روبين طولًا وسوادًا. راحت عيناه تتطلعان إلى روبين من أعلى إلى أسفل قبل أن تستقرا على وجهه بارتياح لتحدها، حسبما ظن روبين، ما إذا كان الأخير أجنبيًا.

فانطلق روبين: «اسمي روبين روبين سوفيت».

فقال الصبي الآخر بفخر وهو يمد يده: «وأنا راميز رافي ميرزا». كان يتحدث لغة إنجليزية سليمة بدت متقاربة مع لغة الأستاذ لوفيل، وأردف: «أو نادني رامي لو شئت. أتيت هنا للالتحاق بمعهد الترجمة، أليس كذلك؟».

قال روبين: «بلى» ثم أضاف بتردد: «أنا من كانتون».

فاسترخى وجه رامي وقال: «وأنا من كالكوتا».

«هل وصلت للتو؟».

«وصلت إلى أوكسفورد للتو، لكنني وصلت إلى إنجلترا قبل ذلك، فقد وصلت من ليفربول على متن باخرة قبل أربعة أعوام، لكنني ظلمت محبوسًا في عقار كبير ممل في يوركشير حتى الآن. أريد كفيلي أن أتأقلم مع المجتمع الإنجليزي قبل التحاق بالجامعة».

رد روبين بحماس: «وهو ما أراده كفيلي أيضًا. ما رأيك؟».

أجاب رامي باستهجان: «طقس سيئ، خاصة أن السمك هو كل ما كنت أستطيع تناوله».

ثم ابتسم كل منهما للآخر.

شعر روبين بإحساس غريب يتفجر في صدره. لم يسبق له مقابلة شخص آخر في وضعه نفسه أو ما شابهه، وكان يظن أنه لو واصل الاستقصاء، لاكتشف العشرات من أوجه التشابه. كانت لديه آلاف الأسئلة، لكنه لم يعرف



من أين يبدأ. هل كان رامي يتيمًا أيضًا؟ من كان كفيله؟ كيف كانت كالكوتا تبدو؟ هل عاد منذ ذلك الوقت؟ ما الذي أتى به إلى أوكسفورد؟ شعر فجأة بالتوتر، وأحس بأن لسانه تيبس ولم يستطع انتقاء الكلمات، إضافة إلى مسألة المفاتيح وحقائبهما المتناثرة، ما جعل الدرب يبدو كأن إعصارًا قد أفرغ محتويات سفينة في الشارع.

أخيرًا قال روبين ورامي في الوقت نفسه: «هلا... هلا فتحنا الباب؟».

ضحك الاثنان، ثم ابتسم رامي وقال: «لنسحب هذه الحقائب إلى الداخل» وهنا لكز حقيبة بقدمه وقال: «لدي صندوق به حلوى جميلة جدًا يجب أن نفتحه معًا، اتفقنا؟».

كان مقرا إقامتهما مقابلين لبعضهما بعضًا وبينهما قاعة، كانا يقيمان في الحجرتين ستة وسبعة. كانت كل وحدة تحتوي على غرفة نوم كبيرة، وصالون مزود بطاولة منخفضة، وأرفف خالية، وأريكة. كان كل من الطاولة والأريكة ذا طابع رسمي للغاية، فجلسا عاكدي ساقيهما على أرضية غرفة رامي، وراحا يتبادلان النظرات كطفلين خجولين لا يعرفان ما يفعلان بأيديهما.

سحب رامي طردًا ملفوفًا بورق ملون من إحدى حقائبه ووضعها على الأرضية بينهما وقال: «هذه هدية توديع من كفيلي السير هوراس ولسن. كما أعطاني زجاجة شراب، لكنني تخلصت منها. ماذا تفضل؟». فتح رامي الطرد وقال: «ها هي تشكيلة من التوفي، والكراميل، وبرتزل الفول السوداني، والشيكولاتة، وجميع أنواع الفواكه المعلبة...».

«رباه! سأخذ بعض التوفي. شكرًا لك». لم يكن روبين قد تحدث مع أي تربٍ له منذ عهد بعيد*. كان مدرِّكًا حاجته الماسة لصديق، لكنه لم يعرف

* ذات مرة حضر صبي يُدعى هنري ليتل لزيارة هامبستيد مع والده؛ أحد زملاء الأستاذ لوفيل في الجمعية الملكية الأسيوية. حاول روبين الانخراط في الحديث معه عن القريصات، ورأى أنها بداية جيدة لفتح موضوع. فما كان من هنري ليتل إلا أن مد يده وفرد جفني روبين بعنف أفزع روبين وجعله يركله في ساقه. فطرد



كيف يكوّن صداقات. وكانت فكرة محاولة عمل ذلك والفشل فيها ترعبه. فماذا لو وجده رامي مملاً، أو مزعجاً، أو متطفلاً؟

أخذ قطعة من التوفي وأكلها ثم وضع يديه في حجره.

ثم قال: «أحكي لي عن كالكوتا إذًا».

ابتسم رامي.

وعلى مدى السنوات التالية، كان روبين ليتذكر تلك الليلة عدة مرات، بل ظل في حالة دهشة شديدة من ذلك التوافق الغامض والسهولة التي تحول بها ولدان غريبان غير مؤهلين اجتماعيًا وخاضعان لتربية صارمة إلى روحين متوافقتين في غضون دقائق. بدا رامي خجولاً شغوفاً تمامًا مثل روبين. راحا يتحدثان مليًا. لم تكن هناك موضوعات محظورة، بل كان كل ما يخطر ببالهما إما موضع اتفاق فوري؛ كـ «القريصات أفضل من دون زبيب»، وإما موضع نقاش مذهل، مثل: «كلا، فلندن مدينة جميلة، فأنتم معشر أهل الأرياف متحيزون لأنكم تغارون. لا تسبحوا في نهر التايمز فحسب».

وفي وقت ما، بدأ الاثنان يقرضان الشعر ممثلًا في سلاسل من الأبيات الأردنية التي أخبره رامي بأنها تُدعى «غزلًا»، وشعر «تانج» الذي لم يرق لروبين، بيد أنه بدا مهيبًا. كما أراد بقوة أن ينال إعجاب رامي. كان مثقفًا، ومرحًا، وحاضر البديهة، كما كان ذا آراء لاذعة في كل شيء: بدءًا من المطبخ البريطاني، ومرورًا بالأخلاق البريطانية، ووصولًا إلى تنافسية أوكسفورد. (ذلك أن أوكسفورد أكبر من كامبريدج، لكن كامبريدج أجمل، وعلى أية حال، أظنهم أسسوا كامبريدج لتصبح ملاذًا للطلاب متوسطي الموهبة). كان قد جاب نصف العالم. لقد زار لوكناو، ومدراس، ولشبونة، وباريس، ومدريد. وكان يصف مسقط رأسه، الهند، كفردوس قائلًا: «المانجو يا بيردي». (كان قد بدأ يدعو روبين بيردي). «إنها مشبعة بعصير

روبين إلى غرفته، وهنري ليتل إلى الحديقة. ومنذ ذلك الوقت، لم يدع الأستاذ لوفيل زملاءه لاصطحاب أطفالهم.



لذيذ. لن تجد شيئاً مشابهاً في هذه الجزيرة الصغيرة البائسة. لم أتناول ولا ثمرة منذ سنوات. سأدفع أي شيء لأرى ثمرة مانجو بنغالية جيدة».

رد روبين وقد أسره الشغف محاولاً أن يبدو خبيراً كذلك: «لقد قرأت ألف ليلة وليلة».

«لا تقع كالكوتا ضمن حدود العالم العربي يا بيردي».

قال روبين بخجل: «أعلم، فكل ما قصدته هو...».

لكن رامي كان قد استرسل قائلاً: «لم تخبرني بأنك تجيد اللغة العربية».

«لا أجيدها، لكنني قرأتها مترجمة».

تنهد رامي وسأله: «من ترجمها؟».

حاول روبين جاهداً أن يتذكر وأجاب: «لعله جوناثان سكوت».

فلوح رامي بذراعه وقال: «ترجمة بشعة. تخلص منها لسبب واحد، فليست حتى ترجمة مباشرة - إذ تُرجم العمل إلى الفرنسية ثم إلى الإنجليزية - أما السبب الآخر، فيتمثل في بعدها الكبير عن الأصل. الأهم هو أن المترجم الفرنسي أنطوان جالان بذل قصارى جهده لفرنسة الحوار ومحو جميع التفاصيل الثقافية التي ظنّها ستحير القارئ. لقد ترجم جوارى هارون الرشيد على أنهن مفضلاته. كيف تُفرّق «الجواري» عن «السيدات المفضلات»؟ كما حذف بعض الفقرات الإباحية وراح يبيث الشروحات الثقافية أينما راق له. أخبرني، هل ستستمع بقراءة ملحمة بينما ثمة رجل فرنسي يحرق إليك؟».

كان رامي يتحدث بحماس، ومن الواضح أنه لم يكن غاضباً، بل بالأحرى فتى شغوف وذكي، علاوة على التزامه بنشر الحقيقة التي كان يريد أن يعرفها العالم كله. اتكأ روبين وراح يشاهد وجه رامي الجميل المنفعل بذهول وسرور في ذات الوقت.



كان ليبيكي وقتها. كان يعيش في وحدة شديدة أدركها للتو، لكنه لم يعد كذلك، وكان يشعر بسعادة بالغة، ما جعله لا يدري ما يفعله بنفسه.

وحين أصابتهما شدة النعاس على نحو جعلهما لا يستطيعان إنهاء جملهما؛ كانت الحلوى شبه اختفت وكانت أغلفة الحلوى متناثرة على أرضية غرفة رامي، لوح كل منهما للآخر أن طابت ليلتك وهما يتشاءمان. ذهب روبين إلى غرفته مترنخًا، وأغلق الباب، ثم استدار مواجهًا الغرفة الخالية. كان هذا هو بيته للسنوات الأربع التالية، وكان سرير أسفل السقف المنخفض المائل هو الذي سيشهد استيقاظه كل صباح، والصنبور المُسرب فوق الحوض هو الذي سيشهد غسله وجهه، والمكتب الركني هو الذي سيشهد انحناءه كل مساء وهو يكتب على ضوء الشموع حتى يتساقط الشمع الذائب فوق ألواح الأرضية.

ولأول مرة منذ وصوله إلى أوكسفورد، ذُهل لأنه كان ليبيني حياته هناك، وراح يتخيلها تمتد أمامه على هيئة تراكم تدريجي للكتب والتذكارات فوق الأرفف، وأثار الزمن على تلك الأقمصة الكتانية الجديدة التي لم تزل حبيسة الحقائق، وتعاقب الفصول الذي يُرى ويُسمع من تردد الرياح عبر النافذة بأعلى سريريه والتي لم تُغلق جيدًا، ورامي على الجانب المقابل للصالون. لم يكن الأمر بهذا السوء.

كان السرير غير مرتب، لكنه كان مُتعبًا على نحو جعله لا يعبت بالملاءات أو يبحث عن الأغطية، ومن ثم تكور على جانبه وجذب معطفه فوقه. وخلال وقت قصير، نام وهو مبتسم.

لم تكن الدروس لتبدأ حتى الثالث من أكتوبر، ما خَلَف ثلاثة أيام كاملة يستمتع فيها روبين ورامي باستكشاف المدينة.

كانت تلك أسعد ثلاثة أيام في حياة روبين. فلم تكن لديه قراءة ولا دروس، ولا تسميع ولا قطع إنشاء تجهزها. ولأول مرة في حياته استطاع إحكام السيطرة على حافظة ماله وجدوله، فانطلق بجنون نحو عالم الحرية.



قضايا اليوم الأول في التسوق، فذهبا إلى إيد أند رافينزكروزفت لقياس الملابس، ثم إلى مكتبة ثورنتون لشراء كل الكتب التي تحويها قائمة الدورات، وصولاً إلى الأغراض المنزلية في كورن ماركت حيث اشترى برادات الشاي، والملاعق، وأغطية الأسرة، ومصابيح الأرغان. بعد الحصول على كل ما هو ضروري لحياة الطلاب، وجد الاثنان نسبة ضئيلة متبقية من رواتبهما، ولم يكن هناك خطر من نفاد المال، إذ كانت منحتهما الدراسية تسمح لهما بسحب المبلغ نفسه من صندوق المنح كل شهر.

فصارا مبذرين، وراحا يشتريان أكياساً من المكسرات المسكرة والكراميل، كما أجرا قوارب الكلية وكانا يقضيان فترة بعد الظهر في التنزه معاً بين ضفاف نهر تشيرويل. ذهبا كذلك إلى مقهى كوينز لين حيث كانا ينفقان مبالغ طائلة على مخبوزات متنوعة لم يكن أي منهما قد ذاقها. كان رامي مولعاً بفطائر الشوفان. وكان يقول: «يجعلون الشوفان لذيق الطعم. أنفهم متعة الخيول»، في حين كان روبين يفضل الفطائر شديدة الحلاوة المغرقة بالسكر التي كانت تجعل أسنانه تؤلمه لساعات.

كانا لافتين للنظر بوضوح في أوكسفورد، أصاب هذا روبين بالارتباك في البداية. ففي لندن، التي كانت مدينة متعددة الثقافات على نحو أكبر، لم يتعرض الأجانب لمثل هذا التحديق الطويل. لكن يبدو أن أهل أوكسفورد كانوا مندهشين دائماً من وجودهما. كان رامي أكثر لفتاً للنظر أكثر من روبين. بدا روبين غريباً عند تدقيق النظر فيه وتحت أضواء معينة، أما رامي فكان بادي الاختلاف.

قال: «أوه، نعم» حين سأله الخباز عما إذا كان من هندوستان، إذ كان يتحدث بلكنة مبالغ فيها لم يسبق لروبين سماعها. «لدي عائلة كبيرة هناك. لا تخبر أحداً، لكنني من العائلة المالكة، بل ترتيبي الرابع في خلافة العرش. أي عرش؟ أوه، عرش إقليمي فحسب، فنظامنا السياسي بالغ التعقيد. لكنني أردت خوض الحياة الطبيعية والحصول على تعليم بريطاني لائق، ومن ثم، تركت قصرى وأتيت هنا».



حين ابتعدا عن مرمى السمع، سأله روبين: «لماذا تحدثت هكذا؟ وماذا تقصد؟ هل أنت من أسرة مالكة فعلاً؟».

أجاب رامى: «كلما رأني الإنجليز، حاولوا أن يقروني بشخصية أدبية، فإما أن أكون بحاراً هندياً سارقاً قذراً وإما أن أكون خادماً في أحد القصور الفخمة. وقد أدركت في يوركشير أنه من الأسهل أن يعتقدوا أنني أمير مغولي».

قال روبين: «لقد حاولت كثيراً أن أندمج مع الناس».

رد رامى: «لكن هذا مستحيل بالنسبة لي. يجب أن ألعب دوراً، ففي كالكوتا، نروي قصة رجل دين من البنغال، أصبح ثرياً في لندن، فهو متزوج بامرأة أيرلندية ذات بشرة بيضاء ولديه أملاك في لندن. أتعلم كيف فعل ذلك؟ لقد افتتح مطعمًا، لكنه فشل، ثم حاول أن يعمل خادماً، لكنه فشل كذلك. ثم وافته فكرة ذكية وهي فتح حمام شامبو في برايتون».

وهنا ضحك رامى وأردف: «هيا احصل على بخار علاجي! احصل على تدليك بالزيوت الهندية، فهو يعالج الربو والتهاب المفاصل، ويشفي الشلل، وهو ما لا نصدقه في بلادنا بالطبع. لكن كل ما فعله رجل الدين هذا هو إعطاء نفسه سمعة طبية وإقناع العالم بهذا العلاج الشرقي السحري، ثم جعلهم طوع بنانه. فماذا تفهم من هذا يا بيردي؟ لو كانوا ليحكوا قصصاً عنك، فاستخدم الأمر لمصلحتك. لن يعتقد الإنجليز أنني من الطبقة الراقية، لكن لو انسجمت مع خيالهم، فسيظنون على الأقل أنني من أسرة مالكة».

كان هذا هو الفارق بينهما. فمنذ وصوله إلى لندن، لم ينفك روبين يحاول تجنب المشاكل كي يندمج، وأن يقلل من أهمية اختلافه. كان يعتقد أنه كلما بدا غير مهم، قلل جذب الانتباه إليه. لكن رامى الذي لم يكن لديه خيار سوى التميز، قد قرر أن يكون مبهراً. كان شديد الجراءة، وقد وجده روبين غير معقول، بل مخيف إلى حدٍّ ما.



بعد أن سمعه روبين يعلن هذا لأحد أصحاب المتاجر للمرة الثالثة، سأله: «هل تعني كلمة ميرزا أمير؟».

أجاب رامي قائلاً: «بالطبع، حسنًا، إنه لقب بالفعل، والكلمة مشتقة من الكلمة الفارسية أميرزاده، لكن «أمير» قريبة بما يكفي».

«أنت إذا...؟».

قال رامي بسخرية: «لا. حسنًا، لعل كنت هكذا ذات يوم. فهذه قصة الأسرة على أية حال: يقول أبي إننا كنا من نبلاء البلاط المغولي أو شيء من هذا القبيل، لكننا لم نعد هكذا».

«ماذا حدث؟».

فرمقه رامي بنظرة طويلة: «إنهم البريطانيون يا بيردي. استمر».

في تلك الليلة، أنفقا مبلغًا كبيرًا جدًا لشراء سلة خبز، وجبن، وعنب حلو، ثم حملاها إلى تل في ساوث بارك في الجانب الشرقي من الحرم الجامعي بغرض القيام بنزهة. وجدا مكانًا هادئًا بالقرب من شجيرات كثيفة منعزلة على نحو يسمح لرامي بأداء الصلاة. جلس الاثنان عاكدين ساقيهما فوق الحشائش ومقطعين الخبز بأيديهما العارية ومناقشين بعضهما حول حياتهما بشغف وذهول صبيين. كانا يظنان، لعدة سنوات، أنهما الوحيدان اللذان يعيشان في هذا الوضع.

استنتج رامي بسرعة أن الأستاذ لوفيل هو والد روبين وقال: «لا بد أنه كذلك، وإلا لماذا هو شديد التحفظ في هذا الصدد؟ وإلا كيف تعرف إلى والدتك؟ هل يعرف أنك تعرف أم تراه ما زال يحاول إخفاء الأمر؟».

وجد روبين صراحته مزعجة، إذ قد اعتاد تجاهل الأمر، ما جعله يشعر بأنه شديد الغرابة حين وصف بذلك الوضع. «لا أعرف أي شيء عن الأمر».

«هل يشبهك؟».



«قليلاً على ما أظن. يدرس اللغات الآسيوية هنا. سوف تقابله وترى».

«ألم تسأله عن الأمر قط؟».

أجاب روبين: «لم أحاول على الإطلاق. أنا... أنا لا أعرف ما سيقوله». كلا، لم يكن هذا حقيقياً. «أعني، لا أظنه سيحب فحسب».

في تلك اللحظة، لم يكن قد مر يوم على تعارفهما. بيد أن رامي كان يستطيع فهم تعبيرات وجه روبين جيداً، ما جعله يتوقف عن التحدث في الأمر.

كان رامي أكثر انفتاحاً حيال خلفيته. لقد قضى الأعوام الثلاثة عشر الأولى من حياته في كالكوئا، وكان الأخ الأكبر لثلاث أخوات أصغر في أسرة تعمل عند أحد الأثرياء المدعو السير هوراس ولسن، وعاش السنوات الأربع التالية في عقار ريفي في يوركشير نظراً لإبهاره ولسن بقراءة اليونانية واللاتينية ومحاولة تجنب الشعور بالملل الشديد.

قال رامي: «من حسن حظك أنك تلقيت تعليمك في لندن، فعلى الأقل كنت تجد مكاناً تقضي فيه عطلات نهاية الأسبوع. لقد قضيت سنوات مراهقتي كلها في التلال والأراضي المستنقعية، ولم أجد شخصاً دون الأربعين من عمره. هل رأيت الملك؟».

كانت هذه إحدى مواهب رامي، إذ كان بارعاً في التنقل بين الموضوعات بذكاء، ما جعل روبين يجد صعوبة في مواكبته.

«وليم؟ كلا، ليس تحديداً، فهو لا يخرج كثيراً، وبخاصة مؤخراً بعد صدور قانون المصانع وقانون الفقراء، إذ راح المصلحون يثيرون الشغب في الشوارع ولم يكن هذا آمناً».

كرر رامي بغيرة: «المصلحون. أنت محظوظ. كانت أحداث يوركشير تقتصر على مظاهرة أو اثنتين، وكان المتظاهرون يخرجون في بعض الأحيان لو سنحت الظروف».



قال روبين: «لم أشارك، وكانت أيامي مملة بعض الشيء بصراحة، كنت أذكر لوقت طويل بهدف الاستعداد للالتحاق بهذه الكلية». «لكن ها نحن ذا».

اتكا روبين تنهّدًا وقال: «نخب ذلك». وهنا قدمه له رامي كوبًا به مزيج من عصير زهور اليلسان والعسل والماء، ثم قرعا الكوبين وشربا.

من موقعهما المطل على ساوث بارك، كانا يريان الجامعة كلها وهي ملتحفة بغطاء ذهبي أثناء غروب الشمس. جعل الضوء عيني رامي تلمعان وبشرته تتألق كالناحاس الأصفر. شعر روبين بدافع غريب لوضع يده على وجنة رامي، بل إنه رفع ذراعه جزئيًا قبل أن يدرك عقله ما يفعله جسده.

نظر رامي إليه وقد سقطت خصلة من الشعر الأسود في عينيه، وهو ما وجده روبين ساحرًا على نحو غير مفهوم. قال رامي: «هل أنت بخير؟».

عاد روبين ليتكى على مرفقيه وحول نظره نحو المدينة. كان الأستاذ لوفيل محققًا. كان هذا أجمل مكان على الأرض.

أجاب قائلاً: «أنا بخير، بل في أفضل حال».

راح باقي سكان 4 ماجباي لين يتوافدون خلال الأسبوع. لم يكن أحد منهم ليدرّس الترجمة. كانوا يقدمون أنفسهم بعد الوصول: وصل كولين ثورنهيل، وهو محام متدرب واسع العينين لا يتحدث عن نفسه إلا بجمل طويلة. وكان هناك بيل جيمسون الودود ذو الشعر الأحمر الذي كان يدرس الجراحة ويبدو دائم القلق على أسعار الأشياء. وكان سكان نهاية الردهة أخوان توأم هما إدجار وإدوارد شارب. كانا مسجلين في السنة الثانية ويسعيان للحصول على درجة في الكلاسيكيات. بيد أنهما كانا يعلنان على الملأ أنهما كانا «أكثر اهتمامًا بالجانب الاجتماعي لحين الحصول على ميراثهم».

وفي ليلة السبت، اجتمعوا لتناول المشروبات في الغرفة المشتركة المتاخمة للمطبخ المشترك. وحين دخل روبين ورامي، كان بيل، وكولين، والأخوان شارب جالسين حول الطاولة المنخفضة. أبلغوا بالحضور الساعة



التاسعة، لكن يبدو أن الشراب كان يقدم منذ فترة، إذ كانت الزجاجات الفارغة متناثرة على الأرض حولهم، وكان الأخوان شارب منحنيين كل منهما على الآخر من شدة الثمالة.

كان كولين يشرح بالتفصيل الفروق بين ثياب الطلبة ويقول بجدية: «يمكن معرفة كل شيء عن الشخص من ثيابه». كان يتحدث بنبرة غريبة، مبالغ فيها ومثيرة للشك لم يستطع روبين تحديدها، لكنها لم تعجبه. «يحتوي رداء طالب البكالوريوس على ثنيات عند المرفق وينتهي بطرف مدبب. أما رداء الطلاب النبلاء فمصنوعة من الحرير ومضفرة عند الأكمام، في حين أن ثياب الطلاب العاديين بلا أكمام ومضفرة عند الأكتاف، ويمكن التفريق بين الخدم والطلاب العاديين؛ لأن ثيابهم بلا ثنيات، وليس لقبعاتهم هُذب». قال رامي وهو يجلس: «رباه! هل ظل يتحدث هكذا طول الوقت؟».

أجاب بيل: «لعشر دقائق على الأقل».

أصر كولين: «أوه، لكن الزي الأكاديمي المناسب لشديد الأهمية، فهكذا نُظهر مكانتنا كدارسين في أوكسفورد، ويعد ارتداء قبعة تويد بسيطة وجلباب أو استخدام عصا مشي خطأ جسيمًا. وقد سمعت ذات مرة عن زميل أخبر خياطًا بأنه باحث، إذ لم يكن يعرف أنواع الثياب. ومن ثم، كان بحاجة لزي باحث، ليسخر منه ويطرد من القاعة في اليوم التالي حين اتضح أنه ليس باحثًا، إذ لم يكن قد حصل على أي منحة دراسية، لكنه كان مجرد من العامة الممولين...».

فقاطعه رامي قائلاً: «أي ثياب نرتدي؟ أريد أن أعرف ما إذا كنا طلبنا الشيء الصحيح من الخياط».

قال كولين: «الأمر يختلف. هل أنت طالب حر أم خادم؟ أدفع للدراسة، وهو ما لا يفعله الجميع. ما خطتك مع الصراف؟».

أجاب رامي: «لا أعرف. أتظن أن الثياب السوداء ستفعل؟ كل ما أعرفه أن لدينا ثيابًا سوداء».



ضحك روبين بسخرية، فحفظت عينا كولين قليلاً: «نعم، ولكن الأكمام...».

قال بيل بابتسامة: «لا تبالِ به، إذ ينصب اهتمام كولين على المكانة».

قال كولين بجدية: «يأخذون الثياب مأخذ الجد هنا. قرأت هذا في دليلي. لن يسمحوا لك بحضور المحاضرات لو لم ترتدِ الزي المناسب. فهل أنتما طالبان نيبيلان أم خادمان إذًا؟».

التفت إدوارد لروبين وقال: «ليسا هذا ولا ذاك. أنتما بابليان، أليس كذلك؟ سمعت أن البابليين ضمن من حصلوا على منحتنا الدراسية».

ردد روبين: «بابليان؟». كانت أول مرة يسمع فيها المصطلح.

قال إدوارد بعصبية: «معهد الترجمة، لا بد أنكما ستدرسان فيه، إذ لا يُسمح عادة لأمثالكما بالدخول».

قال رامي بغضب: «أمثالنا؟».

فسأل إدجار شارب فجأة: «ماذا تكونان على أية حال؟». بدا كأنه يوشك على النوم، لكنه راح يبذل جهداً كبيراً ليعتدل في جلسته ويحدق إلى رامي كمن ينظر من الضباب. «أأنت من الأفارقة أم من الأتراك؟».

رد رامي بعنف: «بل من كالكوتا، فأنا هندي شنت هذا أم أبيت».

قال إدوارد: «همم».

قال إدجار بنبرة ساخرة: «شوارع لندن، حيث يختلط المعمون، والملتحون، والأفارقة البرابرة يلتقون بالهنود ذوي البشرة البنية». وكان أخوه التوأم بجواره يسخر بدوره وهو يتناول رشفة أخرى من الشراب.

ولأول مرة، لم يجد رامي ردًا، فاكتفى بالتحديق إلى إدجار بذهول.

قال بيل وهو يعبث بأذنه: «جيد، حسنًا».



سأل كولين: «هل هذه أنا باريولد؟ إنها شاعرة ممتازة. ليست في مثل براعة الشعراء في اللعب بالألفاظ بالطبع، لكن أبي يهوى شعرها، فهي شديدة الرومانسية».

حرق إدجار إلى روبين بإصرار وقال: «أنت صيني، أليس كذلك؟ هل صحيح أن الصينيين يقيدن أقدام النساء كي لا يمشين؟».

سأل كولين بسخرية: «ماذا؟ هذا سخيف».

قال إدجار بإصرار: «قرأت عن هذا. أخبرني، هل يستهدف هذا جعلهن أكثر جاذبية أم كي لا يهرين فحسب؟».

«أقصد...» لم يكن روبين يعلم أين يبدأ. «لا يحدث هذا في أي مكان، إذ لم تقيد قدما أمي، وهناك اعتراض كثير في بلادي...».

قال إدجار بتباهٍ: «هذا حقيقي إذًا. رباه! قومك متوحشون».

سأل إدوارد: «أحقًا تشربون بول الأطفال للتداوي؟ كيف تجمعونه؟».

فقال رامي بحدة: «اصمت وواصل تناول شرابك».

سرعان ما تبددت أي آمال في تحقيق الأخوة بعد ذلك. اقترحوا لعب دورة من الويست، لكن الأخوين شارب كانا ثملين على نحو أعجزهما عن التعلم. تظاهر بيل بأنه يعاني صداغًا وخذد للنوم مبكرًا. بدأ كولين خطبة أخرى عصماء حول تعقيدات آداب السلوك في القاعة والتي تتضمن الصلاة اللاتينية الطويلة التي اقترح على الجميع حفظها عن ظهر قلب في تلك الليلة، لكن أحدًا لم يستمع إليه. أما الأخوان شارب، فقد أبدوا أسفًا عميقًا غريبًا ثم سألوا روبين ورامي بعض الأسئلة المهذبة، إن لم تكن سقيمة، عن الترجمة، لكن كان من الواضح أنهما لم يكونا مهتمين بالإجابات. فأيًا كانت الصحبة التي كان الأخوان شارب يسعيان إليها في أوكسفورد، فإنهما لم يجداها هنا. وفي ظرف نصف ساعة، انفض الجمع، وعاد جميعهم إلى غرفهم.



حدث بعض الضجيج ليلاً حول فطور منزلي، ولكن حين دخل رامي وروبين المطبخ في صباح اليوم التالي، وجدا على الطاولة رسالة موجهة إليهما.

لقد ذهبنا إلى مقهى يعرفه الأخوان شارب في إيفلي. لم نظن أنه سيروق لكما. نراكما لاحقاً.

كولين ثورنهيل.

قال رامي بجفاف: «أظننا سننقسم إلى فريقين: نحن وهم».
لم يعبأ روبين بهذا الأمر، فقال: «يروق لي هذا فحسب».
فابتسم رامي.

قضيا يومهما الثالث برفقة بعضهما في جولة حول معالم جامعة أوكسفورد. في عام 1836، كانت أوكسفورد تنمو باطراد، وكانت كائناً نهماً يقات على ما يصنعه من ثروة. كانت الكليات في حالة تجديد مستمر وشراء مزيد من أراضي المدينة مستبدلة بذلك الأبنية القروسطية بقاعات أكثر حداثة وجمالاً ومشيدة مكتبات جديدة لاحتواء ما يُكتسب من مجموعات جديدة. كان لكل مبنى في أوكسفورد اسم جديد مشتق، لا من وظيفته ولا موقعه، بل من اسم الشخص الثري الذي أوحى ببنائه. وكان هناك متحف أشموليان الضخم الذي ضم مجموعة من الأشياء الغريبة التي تبرع بها إلياس أشمول، بما في ذلك رأس طائر الدودو، وجماجم أفراس النهر، وقرن خروف طوله ثلاث بوصات قيل إنه نما من رأس امرأة عجوز في تشيرشير شير تدعى ماري ديفز. وكانت مكتبة رادكليف عبارة عن مبنى مقبب بدا أكبر وأفخم في الداخل من الخارج؛ أما مسرح شلدونيان فكان محاطاً بتمائيل حجرية ضخمة تُعرف باسم «رعوس الإمبراطور» وكانت كلها تبدو كرجال عادييين تعثروا في ميدوزا.



وكانت هناك مكتبة بودلي، ويا لها من مكتبة! فهي في حد ذاتها كنز قومي، إذ كانت تحوي أكبر مجموعة من المخطوطات في إنجلترا (قال الموظف الذي أدخلهما: «لا تحوي كامبريدج سوى على مائة ألف كتاب، أما أدنبرة فلا تحوي سوى عدد تافه وهو ثلاثة وستين كتاباً»). ولم تنفك هذه المجموعة تتزايد تحت قيادة رجل الدين الدكتور بالكلي باندنيل الذي خُصصت له ميزانية شراء كتب تقدر بنحو 2000 جنيه إسترليني سنوياً.

كان الدكتور باندنيل نفسه هو من حضر لاستقبالهما في أولى جولتهما في المكتبة وأرشدهما إلى صالون المترجمين. تنهد قائلاً: «لا يجوز أن يفعل الموظف هذا، فنحن نترك الحمقى وحدهم. فلو ضلوا الطريق، لسألوا عن الاتجاهات. لكنكم معشر المترجمين تقدرون الأمور ها هنا».

كان رجلاً ممتلئ الجسم بعينين متدليتين وأسلوب رتيب في التعامل، وأعطى فمه الشديد الارتخاء إحياء بالعبوس. مع ذلك، إذ راح يتحرك في المبنى، كانت عيناه تلمعان بسرور حقيقي. قال: «سوف نبدأ جولتنا بالأجنحة الرئيسية، ثم نتجول ببطء إلى مكتبة دوك همفري. اتبعاني ولا تترددا في إلقاء نظرة، فقد صُممت لثُقرأ، وإلا فقدت قيمتها، فلا تقلقا. نشعر بفخر كبير بأحدث مكتسباتنا الكبرى. توجد مجموعة خرائط ريتشارد جوف التي تبرع بها عام 1809. أتصدقان أن المتحف البريطاني رفضها؟ ثم تلقينا تبرعاً من مالون قبل عشر سنوات أو نيف، ما زاد رصيدنا من أعمال شكسبير. أوه! وقبل عامين اثنين، تسلمنا مجموعة فرانسيس دوس التي تحوي ثلاثة عشر ألف مجلد بالفرنسية والإنجليزية، رغم أنني لا أظن أن أيّاً منكما سيتخصص في الفرنسية... أو العربية؟ أوه، نعم، من هنا. يمتلك المعهد المجموعة الكاملة من المواد العربية في أوكسفورد، لكن توجد بعض مجلدات شعر من مصر وسوريا قد تنثير اهتمامكما...».

تركها مكتبة بودلي في حالة ذهول وشيء من الرهبة بسبب كم المواد المتاحة لهما فحسب. راح رامي يحاكي شكل وجنتي الدكتور باندنيل المتدليتين، لكن دون ازدراء، إذ كان من الصعب أن يُحتقر رجل يعشق جمع المعرفة من أجل المعرفة.



أنهيا اليوم بجولة في الكلية الجامعية، بقيادة بيلنجز، أحد رؤساء الحرس الجامعي. اتضح أن هذا الجزء لم يكن سوى ركن صغير من بيتهما الجديد. كانت الكلية، الواقعة شرق مقر ماجباي لين، مزدانة بساحتين خضراوين على شكل مربع، ومجموعة من الأبنية الحجرية الشبيهة بأبراج القلاع. وأثناء الجولة، راح بيلنجز يسرد قائمة أسماء وسيرها الذاتية، بمن فيها المتبرعون، والمعماريون، وشخصيات أخرى مرموقة. «... التماثيل فوق المداخل للملكة آن والملكة ماري، وفي الداخل للملك جيمس الثاني والدكتور رادكليف... وصنع إبراهيم فان لنج نوافذ دار العبادة زاهية الألوان عام 1640، وقد صمدت بالفعل، وصنع رسام الزجاج هنري جايلز أوف يورك النافذة الشرقية... ليس هناك صلوات في الوقت الحالي، ومن ثم، يمكننا عمل جولة في الداخل. اتبعاني».

وداخل دار العبادة، وقف بيلينجز أمام نصب تذكاري منخفض وقال: «أظنكما تعرفان من هذا، باعتباركما من دارسي الترجمة».

كان روبين ورامي يعرفان قطعاً، إذ لم ينفكا يسمعان الاسم منذ وصولهما إلى أوكسفورد. كان النصب التذكاري تكريماً لأحد خريجي الكلية الجامعية وعبقري ذائع الصيت نشر عام 1786 نصّاً تعريفياً للإندو أوروبية البدائية باعتبارها اللغة السابقة والتي تربط اللاتينية والسنسكريتية واليونانية. لعله كان أشهر مترجم في القارة لا يضاهيه سوى ابن أخيه حديث التخرج سترلينج جونز.

«إنه السير وليم جونز». وجد روبين المشهد المصور على النحت البارز مزعجاً بعض الشيء. كان جونز جالساً على مكتب، وإحدى ساقيه معقودة بصفافة فوق الأخرى، في حين كانت هناك ثلاثة أشكال مصورة على هيئة هنود يجلسون بخضوع على الأرض أمامه وكأنهم أطفال يتلقون درساً.

بدا بيلينجز فخوراً وهو يقول: «صحيح. إنه عاكف على ترجمة نبذة عن القوانين الهندوسية، وهناك بعض البراهمة الجالسين على الأرض لمساعدته. على ما أعتقد، نحن الكلية الوحيدة المزدانة جدرانها بالهنود. لكن



لطالما ارتبطت الجامعة ارتباطًا خاصًا بالمستعمرات*. أما عن رءوس النمر، فهي ترمز، كما تعرفان، للبنغال».

فسأل رامي: «لماذا هو الوحيد الجالس؟ ولماذا وُضع البراهمة على الأرضية؟».

أجاب بيلينجز: «حسنًا، أظن الهندوس يفضلون الجلوس بهذه الطريقة، إذ يحبون أن يجلسوا عاقدين سيقانهم ويجدون هذا أكثر راحة».

قال رامي: «هذا مفيد للغاية، فلم أكن أعرف».

قضى الاثنان ليلة الأحد بين أرفف الكتب في بودلي، إذ كُلفا بقائمة مطالعة عند التسجيل، لكن الاثنين واجها فيضًا مفاجئًا من الحرية، فتركا الأمر حتى آخر لحظة. كانت مكتبة بودلي تُغلق أبوابها الساعة 8 مساءً في عطلات نهاية الأسبوع، وقد وصلا إلى أبوابها الساعة 7:45 مساءً، لكن كان لكلمة معهد الترجمة قوة هائلة، فحين أوضح رامي ما كانا يحتاجان إليه، أخبرهما الموظفون بأنهما يستطيعان البقاء لأي مدة يشاءان. كانت الأبواب تُفتح من أجل موظفي الفترة الليلية. وكان بإمكانهما المغادرة متى كان ذلك مناسبًا لهما.

وحين خرجا من بين الأكوام بحقائب محملة بالكتب وأعين مشوشة بسبب التحديق إلى الخطوط شديدة الصغر، كانت الشمس قد غابت منذ وقت طويل. وفي الليل، بدا القمر وكأنه تآمر مع مصابيح الشارع ليغمر المدينة بضوء أخروي خافت. بدا الحصى تحت أقدامهما كطرق تؤدي إلى قرون أخرى وخارجها. قد تكون هذه أكسفورد من عصر الإصلاح أو أكسفورد

* كان هذا حقيقًا. لقد خرّجت الكلية الجامعية، ضمن آخرين، أحد رؤساء قضاة البنغال (السير روبرت تشامبرز). وأحد رؤساء قضاة بومباي (السير إدوارد ويست)، وأحد رؤساء قضاة كالكوتا (السير وليم جونز). كانوا جميعًا من ذوي البشرة البيضاء.



القروسطية. كانا يسيران داخل مكان خارج الزمن تتقاسمه أشباح الباحثين السابقين.

استغرقت رحلة العودة إلى الكلية أقل من خمس دقائق، لكنهما انحرفا إلى أعلى ودارا حول برود ستريت كي يطيلا التنزه. كانت هذه هي المرة الأولى التي يتأخران فيها. كانا يريدان الاستمتاع بأجواء المدينة ليلاً. راحا يتحركان في صمت، كمن لا يجرؤ على كسر هذه الأجواء السحرية.

وهنا فوجئاً بضحكة تصدر عن الجدران الحجرية حين مرا بنيو كولاج. وأثناء دورانهما حول هولي ويل لين، رأيا مجموعة من ستة أو سبعة طلاب ملتحفين بتياب سوداء. مع ذلك، دل ترنحهم في السير على خروجهم من ملهى لا من قاعة محاضرات!

تمتم رامى: «أظنهم من طلاب كلية باليول؟».

فغبر روبين عن سخريته.

لم تمر عليهم سوى ثلاثة أيام في الكلية الجامعية، لكنهم اطلعوا على التصنيفات الطلابية في الجامعة وما يصاحبها من أنماط. كانت إكستر كلية رفيعة المستوى، بيد أنها كانت تفتقر للثقافة، وكانت كلية بريسنوز صاحبة. أما كليتا كوين ومرتون المجاورتان، فقد تم تجاهلهما عمداً. وكان طلاب كلية باليول، الذين يدفعون ثاني أعلى رسوم دراسية في الجامعة بعد طلاب أوريل، يُعرفون بتراكم الديون أكثر من حضور الدروس.

ألقي الطلاب نظرات خاطفة وهم يقتربون، فأوما رامى وروبين نحوهم، على سبيل التقدير المتبادل بين طلاب الجامعة المحترمين.

كان الشارع عريضاً، وكانت المجموعتان تسيران على جانبيين متقابلين. كانا ليمرا بجوار بعضهما بعضاً دون جلبة لو لم يُشر أحد الفتية إلى رامى ويصيح: «ما هذا؟ أُرأيتم هذا؟».

فشده أصدقاؤه وهم يضحكون.



قال أحدهم: «لا بأس يا مارك، دعهما يمرا...».

فقال المدعو مارك: «توقفا». ثم أبعد أصدقاءه ووقف في الشارع محدقًا إلى رامي بتركيز ثمل، في حين ظلّت يده معلقة في الهواء ومشيرة: «انظروا إلى وجهه! هل رأيتموه؟».

فقال صبي في نهاية الشارع: «لا تكن أحمق يا مارك لو سمحت».

توقف الباقون عن الضحك.

قال مارك: «إنه هندوسي. ماذا يفعل الهندوس هنا؟».

أجاب أحد الفتية: «أحيانًا يأتون في زيارة. أتتذكر الأجنيبين اللذين أتيا الأسبوع الماضي؟ كانا أميرين فارسيين أو ما شابه».

«أظنني أتذكر، هذان المعلمان...».

صاح مارك في وجه رامي: «لكنه يرتدي زيًا. فيم حصلت على الزي يا هذا؟».

صارت نبرته مخيفة، وفقدت الأجواء صفاءها، وتبددت الأخوة في الدراسة، هذا إن كان لها وجود من الأساس.

فقال مارك بإصرار: «لا يجوز أن ترتدي زيًا. اخلعه!».

خطا رامي خطوة إلى الأمام.

وهنا أمسك روبين بذراعه وقال: «إياك».

فشرع مارك في عبور الشارع نحوهما وقال: «مرحبًا، أنا أخطبك. ما الأمر؟ ألا تتحدث الإنجليزية؟ اخلع هذا الزي. هل سمعتني؟ اخلعه».

كان رامي يريد الشجار، إذ ثنى قبضتيه وانحنى على ركبتيه استعدادًا للانقضاض. فلو كان مارك قد اقترب، لصارت ليلة دموية.

بدأ روبين يركض.



كره أن يهرب، إذ كان يشعر بأنه جبان، لكنه كان التصرف الوحيد الذي كان يراه لن ينتهي بكارثة. كان يعرف أن رامي سيتبعه بسبب الصدمة، وبالفعل، ما إن مرت ثواني حتى سمع صوت أقدام رامي وراءه، وأنفاسه المتقطعة، والسباب الذي كان يهمهم به أثناء ركضهما نحو هولي ويل.

أما الضحك، إذ كان ثمة ضحك مجددًا رغم أنه لم ينبع من سرور، فبدأ يرتفع وراءهما. راح طلاب باليول يصيحون كالقروود. وراحت قهقهتهم تمتد بمحاذاة ظلالهم المنعكسة على الجدران الحجرية. وللحظة، شعر روبين بالذعر خشية المطاردة، إذ كان الفتية مسرعين، وكان صوت الأقدام يقرع حولهما. لكن لم يكن هذا سوى الدماء تهدر في أذنيه. لم يكن الفتية يتبعونهما، إذ كانوا في غاية الثمالة ويضحكون على أي شيء. وكانوا في ذلك الوقت مشغولين في السعي وراء المتعة التالية.

ومع ذلك، لم يتوقف روبين حتى بلغا هاي ستريت. كان الطريق خاليًا وصاروا وحدهما يلهثان في الظلام.

تمتم رامي: «تَبًّا! تَبًّا!».

قال روبين: «إني آسف».

رد رامي، ولكن دون أن ينظر إلى عيني روبين: «لا عليك، فقد فعلت الصواب».

لم يكن روبين واثقًا من تصديق أي من هذا.

رغم ابتعادهما عن البيت، فقد صارا تحت مصابيح الشارع على الأقل حيث تمكنا من رؤية المتاعب عن بعد.

سارا في صمت لفترة. لم يكن روبين يفكر في شيء يصلح للقول، فكلما خطرت كلمة بباله، كانت تتهاوى على لسانه فورًا.

قال رامي مجددًا: «تَبًّا»، ثم توقف فجأة ويده على حقيبته. «أظن... انتظر».



راح ينبش بين كتبه ثم سب مجدداً وقال: «لقد نسيت مفكرتي».

فتلّوت معدة روبين وسأله: «أنسيته في هولي ويل؟».

«بل في بودلي». ضغط رامي بأطراف أصابعه على قصبة أنفه وأنّ قائلاً: «أعلم مكانها، فهي في الركن الأيمن من المكتب. كنت لأضعها بأعلى خشية تجمّد الصفحات، لكن التعب اشتدّ عليّ. لا بد أنني نسيت».

«ألا يمكنك تركها إلى الغد؟ لا أظن الموظفين سينقلونها، ولو فعلوا، يمكننا أن نطلب فحسب...».

«كلا، إذ تحتوي على ملاحظاتي الخاصة بالمراجعة، وأخشى أن يطلبوا منا التلاوة غداً. سأعود فحسب...».

قال روبين بسرعة: «سأحضرها لك». بدا هذا كأنه الصواب، بل بالأحرى تكفير عن ذنبه.

فسأله رامي بتجهم: «هل أنت متأكد؟».

خلا صوته من التحدي. كان كلاهما يعرف ما لن ينطق به روبين، وأن روبين كان، على الأقل، كان ليبدو أبيض البشرة في الظلام. ولو مر روبين بطلاب بالبول بمفرده، ما اكرثوا بالنظر إليه.

تعهد روبين: «لن يستغرق الأمر عشرين دقيقة، وسأضعها خارج غرفتك حين أعود».

صارت أوكسفورد ذات طابع مُخيف وهو بمفرده. لم تعد الأضواء مريحة، بل مزعجة، وكانت تمدد ظله وتشوّه فوق الحصى. كانت مكتبة بودلي مغلقة، لكن أحد الموظفين لاحظته وهو يلوح عند النافذة، فسمح له بالدخول، إذ كان، لحسن الحظ، أحد موظفي المناوبة السابقة، وقد سمح لروبين بدخول الجناح الغربي دون نقاش. كان الصالون بارداً حالك الظلمة. كانت جميع



المصابيح مطفأة، فلم يستطع روبين الرؤية إلا في ضوء القمر الذي انساب في أبعد أركان الغرفة.

أمسك بمفكرة رامي وهو يرتجف، وحشرها في حقيبته، ثم أسرع بالخروج.

لكنه ما إن تجاوز الفناء حتى سمع همساً.

كان يجب أن يسرع، لكن شيئاً، بنبرات الصوت وتركيبات كلماته، أجبره على التوقف. وبعد أن توقف وأرهف السمع، أدرك أنه يستمع إلى لغة صينية.

كانت عبارة صينية تُنطق مراراً وتكراراً بإلحاح متزايد.

«ووكسنج».

تسلل روبين بحذر ومشى حول الناصية.

كان هناك ثلاثة أشخاص في شارع هولي ويل، كانوا شباباً نحفاء متشحين بالسواد، رجلان وامرأة. كانوا يواجهون صعوبة في حمل حقيبة. لا بد أن القاع قد سقط، إذ كانت قوالب الفضة مبعثرة على الحصى.

اقترب روبين، فنظر الثلاثة إليه. كان ظهر الرجل الذي يهمس بغضب باللغة الصينية ناحية روبين، وقد كان آخر من يستدير، وذلك بعد أن تجمّد صاحبه في مكانهما. التفت عيناه بعيني روبين، فشعر روبين بالذعر.

كان كمن ينظر في مرآة!

كانت له العينان البنيتان نفساهما، وأنفه المستقيم، وشعره الكستنائي المتدلي فوق عينيه بالطريقة نفسها والذي يتأرجح في فوضى من اليمين إلى اليسار.

كان الرجل ممسكاً بقالب فضة في يده.



فأدرك روبين على الفور ما كان يحاول الرجل عمله، إذ كانت كلمة ووكسنج الصينية تعني «بلا هيئة، وبلا شكل، وغير مادي»*. وكانت أقرب ترجمة إنجليزية هي «غير مرئي». فهؤلاء الناس، أيًا كانوا، كانوا يحاولون الاختباء. لكن خطبًا ما حدث، إذ كان قالب الفضة بالكاد يعمل. راحت وجوه الشباب الثلاثة ترتعش في ضوء مصباح الشارع، وبدت بين الحين والآخر قليلة الشفافية، لكنهم لم يكونوا مختبئين تحديدًا.

فألقي شبيه روبين نظرة متوسلة.

قال متوسلاً: «ساعدي» ثم كررها بالصينية قائلاً: «بانج مانج»**. لم يعرف روبين ما أجبره على التصرف، فلعله كان الذعر الذي سببه له فتية باليول، والغرابة الشديدة للمشهد، أو وجه شبيهه المربك. لكنه تقدم إلى الأمام ووضع يده على القالب. فتركه شبيهه دون أن ينطق بكلمة.

فقال روبين: «ووكسنج» مفكرًا في الأساطير التي كانت والدته تقصها عليه، وفي الأرواح، والأشباح المختبئة في الظلام، وفي انعدام الشكل والعدمية، ثم ردد: «خفي».

راح القالب يهتز في يده. وفجأة سمع صوتًا. كانت تنهيدة مبجوحة.

لقد اختفى الأربعة.

كلا، إذ لم تعبر كلمة اختفاء عن الموقف. فلم يكن روبين ليجد كلمة مناسبة كي تعبر عما حدث، إذ اختلف المعنى في الترجمة، ولم يكن المفهوم سهل الشرح لا بالصينية ولا بالإنجليزية. كان هؤلاء الأشخاص موجودين، لكن

* كان المقطع الأول للكلمة 無 (وو) يعني «النفى، بلا، بدون»، أما المقطع الثاني 形 (كسنج) فيعني: «شكل، هيئة»، ومن ثم، لا تعني 無形 غير مرئي فحسب، بل غير ملموس. وعلى سبيل المثال، كتب الشاعر زانج تشومون من سلالة سونغ الحاكمة 差恰呢相同和方面有材、技法等方面 أن «الشعر رسم غير مادي. والرسومات أشعار ذات جسد (ووكسنج)».

** تعني كلمة (بانجمانج) 幫忙 المساعدة أو تقديم العون.



في هيئة غير بشرية. لم يصبحوا مجرد كائنات غير مرئية، بل لم يصيروا موجودات على الإطلاق. كانوا بلا هيئة، فراحوا ينجرفون، ويتمددون، بل صاروا هم الهواء، والجدران الحجرية، والحصى. فقد روبين الإحساس بجسده، وبالمكان الذي بدأ منه وانتهى إليه القلب، وصار هو الفضة، والأحجار، والليل.

تسلَّل الرعب إلى قلبه. ماذا لو لم أستطع العودة؟

بعد مرور ثوانٍ، هرع شرطي إلى نهاية الشارع. وهنا التقط روبين أنفاسه وهو يقبض بقوة على القلب، ما جعله يشعر بألم في ذراعه.

حدَّق الشرطي إليه ولم ير سوى ظلام.

فهتف الرجل: «ليسوا ها هنا. حاول مطاردتهم في باركس...».

ثم تلاشى صوته إذ أسرع بالمغادرة.

أسقط روبين القلب، إذ لم يستطع إبقاءه في يده، بل كان يكاد لا يعي وجوده. لم يكن قد استخدم يده وفتح أصابعه بقدر ما قذف القلب بعنف كي يحاول إبعاد جوهره عن الفضة.

وقد نجح، إذ ظهر اللصوص في الظلام.

فقال الرجل الآخر، وهو شاب ذو شعر أشقر باهت، بحماس: «أسرع. ضعه في قميصك ولنترك الحقيبة وراءنا».

ردت المرأة: «لا يمكننا تركها، فسوف يتتبعونها».

«هلموا نجمع القطع، هيا».

ثم بدأ الثلاثة يجمعون قوالب الفضة من على الأرضية. تردد روبين للحظة وذراعه معلقان بارتباك على جانبيه، فانحنى ليساعدهم.

لم يكن قد استوعب بعد مدى عبثية الأمر، فبصعوبة تبين أن ما كان يجري أمر غير قانوني، وكان من المستحيل أن ينتمي هؤلاء الشباب إلى



أوكسفورد، أو مكتبة بودلي، أو معهد الترجمة، وإلا ما كانوا ليتسكعوا في الشوارع في منتصف الليل متشحين بالسواد ومختبئين من الشرطة.

كان التصرف السليم والصائب هو إطلاق الإنذار.

لكن بدت مساعدتهم الخيار الوحيد. لم يشكك في هذا المنطق، بل تصرف. بدا كأنه يحلم أو يشارك في مسرحية يعرف نصها بالفعل. غير أن كل شيء بدا محيرًا. كان هذا وهماً ذا بنية منطقية، ولسبب ما لم يستطع تحديده، لم يشأ تحطيم تلك البنية.

وأخيراً، أخفيت جميع قوالب الفضة في مقدمات القمصان وجيوبها. أعطى روبين ما جمعه من قوالب لشبيهه. وهنا تلامست أصابعهم، فشرع روبين برجفة معه.

قال الرجل الأشقر: «لنذهب».

لكن أحداً منهم لم يتحرك. كانوا ينظرون إلى روبين غير عارفين ما يفعلون معه.

فبدأت المرأة: «ماذا لو أنه...».

فقال شبيهه روبين بحزم: «لن يفعل. هل ستفعل؟».

همس روبين: «بالطبع لا».

بدا الرجل الأشقر غير مقتنع: «سيكون من السهل أن...».

«كلا، ليس هذه المرة». راح شبيهه روبين ينظر إليه من أعلى إلى أسفل للحظة. ثم بدا كأنه وصل إلى قرار فبادره: «ألست مترجماً؟».

تنهد روبين وقال: «بلى، بلى. وقد وصلت هنا للتو».

قال الشبيه: «ذا تويستد روت. قابلني هناك».

تبادلت المرأة والرجل الأشقر نظرة. فتحت المرأة فاهها وكأنها تريد الاعتراض، ثم توقفت، وأغلقتة.



قال الرجل الأشقر: «حسنًا، لنذهب».

قال روبين متوسلاً: «انتظروا... من... متى يجب...».

لكن اللصوص كانوا قد لاذوا بالفرار.

كانوا يركضون بسرعة شديدة. وبعد مرور ثوانٍ، صار الشارع خاليًا. لم يتركوا أي أثر، إذ جمعوا القوالب كلها غير مخلفين شيئًا، بل كانوا قد أخذوا بقايا الحقيبة الممزقة. لعلمهم كانوا أشباحًا. لو كان روبين قد تخيل هذا اللقاء، ما بدا العالم مختلفًا على الإطلاق.

* * *

عاد روبين ليجد رامي مستيقظًا، ففتح له الباب بعد أول طريقة.

قال رامي وهو يأخذ المفكرة: «شكرًا».

«عفوًا».

وقف الاثنان ينظر كل منهما نحو الآخر في صمت.

لم يطرح أي سؤال عمّا حدث. كان الاثنان منزعجين، إذ أدركا على نحو مفاجئ أنهما لا ينتميان لهذا المكان، وأنه على الرغم من انتسابهما لمعهد الترجمة، ورغم زيهما وطموحاتهما، لم تكن الشوارع آمنة بالنسبة لهما. كانا شابين في أوكسفورد، لا من أهل أوكسفورد. لكن هالهما ما أدركاه، إذ تناقض بشدة مع الأيام الثلاثة التي استمتعا بها دون وعي، ما جعل كليهما لا يستطيع أن يجاهر بما يدور بخلده.

لم يكونا ليجاهرا بهذا، إذ كان التفكير في الحقيقة شديد الإيلام. كان من الأسهل أن يتظاهرا وأن يستمرا في الحفاظ على الوهم لأطول فترة ممكنة.

قال روبين بتلعثم: «حسنًا، طابت ليلتك».



أوماً رامي وأغلق الباب دون أن يتكلم.



الفصل الرابع



يقول التاريخ إن مدينة بابل سُميت بهذا الاسم؛ لأن الله بلبل ألسنة الناس فيها، ثم فرقهم في الأرض.

نص ديني

استعصى النوم عليه، فلم ينفك روبين يرى وجه شبيهه يسبح في الظلام. هل تخيل الأمر كله بسبب إرهاقه وانزعاجه؟ لكن مصابيح الشارع كانت تشع بضوء مبهر، وكانت ملامح توأمه - بما تحمله من خوف وذعر - قد نُقِشت بقوة في ذاكرته. كان يعرف أن هذا لم يكن وهمًا، بل ولم يبدُ كمن ينظر في مرآة تعكس ملامحه كلها ولا كأنه تمثيل مزيف لما كان العالم يراه، بل إقرار داخلي بالتشابه. فكل ما كان في وجه الرجل كان في وجهه أيضًا.

فهل ساعده لهذا السبب؟ هل كان شكلاً من أشكال التعاطف الفطري؟

بدأ يقيّم حجم أفعاله. لقد سرق الجامعة. هل كان هذا اختبارًا؟ كانت ثمة طقوس شديدة الغرابة تُمارَس في أوكسفورد. هل نجح أم رسب، أم هل سيفاجأ بقرع رجال الشرطة بابه في صباح اليوم التالي وطلب المغادرة؟

فكر: «لكن لا يمكن أن أطرده، لم يتبقَّ لي سوى هذا المكان». وفجأة تذكر مباحج أوكسفورد الممتلئة في دفء سريره، ورائحة الكتب والملابس الجديدة، فتشنج بانزعاج، إذ كان كل ما يفكر فيه هو أنه سيخسر هذا كله قريبًا. فراح يتقلب في فراشه المتعرق مستحضرًا المزيد من الرؤى المفصلة للصباح التالي: كيف سيجذبه رجال الشرطة من فراشه، وكيف سيقيدون



معصميه ويسحبونه إلى السجن، وكيف سيطلب منه الأستاذ لوفيل بحزم ألا يتصل به ولا بالسيدة بايير مجدداً.

وفي النهاية، نام من الإنهاك، ليستيقظ على قرع متواصل على بابه.

سأله رامي: «ماذا تفعل؟ ألم تستحم؟».

فنظر إليه روبين بدهشة: «ماذا يحدث؟».

«إنه صباح الاثنين أيها الأبله». كان رامي مرتدياً زيه الأسود وحاملاً قبعته في يده. «يجب أن نكون في البرج في غضون عشرين دقيقة».

وصل الاثنين في الوقت المحدد بصعوبة، إذ وصلا شبه راكضين عبر بساتين المربع والأجراس تقرع دقات التاسعة.

كان ثمة شابان نحيفان في انتظارهما في الحديقة - ظن روبين أنهما النصف الآخر من دفعتهما. أحدهما أبيض البشرة والآخر أسودها.

وإذ اقتربا، تبين أنهما في الحقيقة فتاتان. قالت إحداهما: «مرحباً، لقد تأخرتما».

فغر روبين فاه وقال لاهناً: «أنت فتاة!».

كانت هذه صدمة، إذ نشأ روبين ورامي في بيئات باردة منعزلة، أبعدا فيها عن الفتيات المثيلات لهما في السن. كانت فكرة الأنوثة موجودة نظرياً، فصارت مادة الروايات ظاهرة نادرة لا تُرى إلا بنظرة خاطفة عبر الشارع. وكان أدق وصف عرفه روبين عن النساء قد ورد في ورقة بحثية قلب فيها ذات مرة، وقد وصفت كاتببتها السيدة سارة إيليس* الفتيات بأنهن «كائنات لطيفة ورقيقة وودودة، لا تهش ولا تنش». ومن وجهة نظر روبين، كانت

* سارة ستينكي إيليس مؤلفة مشهورة نشرت عدة كتب (تتضمن زوجات إنجلترا، وأمها إنجلترا، وبنات إنجلترا) احتجت فيها أن للنسوة واجباً أخلاقياً يحتم عليهن الارتقاء بالمجتمع باللباقة المنزلية والسلوك القويم. لم يكن لروبين رأي واضح في المسألة، إذ قرأ بحثها مصادفة.



الفتيات أشبه بموضوعات غامضة بلا حياة داخلية غنية، بيد أنهن يتحلين بصفات تغلفهن بالغموض وتجعلن ينتمين إلى عالم آخر، ولعلن غير بشريات على الإطلاق!

وأخيراً قال: «عذراً، أعني مرحباً. لم أقصد، على أية حال».

كان رامي أقل رقة، فقال: «لماذا أنتن فتيات؟».

حدجته الفتاة البيضاء بنظرة احتقار جعلت روبين ينكمش بالنيابة عن رامي.

فقال بتشدد: «حسناً، أظننا صرنا فتيات؛ لأن كون الشخص فتى يتطلب أن يتخلى عن نصف خلايا مخه».

فأوضحت الفتاة السوداء: «طلبت منا الجامعة ارتداء هذا الزي كي لا نضايق السادة الشبان أو نشنت انتباههم». كانت تتحدث الإنجليزية بلكنة ضعيفة، وهو ما جعل روبين يعتقد أنها تشبه الفرنسية. بيد أنه لم يكن متأكداً. وهنا هزت ساقها مبينة بنطالاً بدا جديداً ومفروداً بقوة وكأنه اشترى بالأمس. «أؤكد لك أنه ليست كل كلية متحررة كمعهد الترجمة».

قال روبين محاولاً بجرأة إثبات عدم تحيزه: «هل ارتداء البنطال مريح؟». «ليس هكذا في الواقع، فلدينا ساقان، لا ذيول سمك». ثم مدت يدها إليه وقالت: «فيكتوار ديجراف».

فصافحها وقال: «روبين سوفيت».

فقال بدهشة: «سوفيت؟ لكن مؤكـد...».

فقاطعت الفتاة البيضاء: «وأنا ليتيتيا برايس، أو ليتي لو أردتما. وأنت؟».

قال رامي وقد مد يده بتردد، وكأنه غير متأكد من رغبته في مصافحة الفتيات: «راميز». فاتخذت ليتيتيا القرار بدلاً منه وصافحته، فجفل رامي في انزعاج، ثم أردف: «راميز ميرزا، وينادينى الأصدقاء رامي».



فنفطرت ليتي حولها وقالت: «مرحباً يا راميز، إذًا، نحن الدفعة كلها».

تنهدت فيكتوار وقالت لليتي: «إنهم حمقى».

فهمست ليتي: «أتفق معكِ بشدة».

ثم راحت الفتاتان تضحكان. لم يكن روبين يفهم الفرنسية؛ لكنه شعر بقوة بأنه قد اختُبر ورسب!

«ها أنتما ذا».

وهنا أنقذهما رجل أسود البشرة، طويل نحيل، صافح الجميع وعرفهم بنفسه باعتباره أنطوني ريبيّن أحد الخريجين المتخصصين في الفرنسية، والإسبانية، والألمانية. قال موضحاً: «تخيل كفيّلي نفسه هو شاعر رومانسي. وكان يأمل أن أتبع شغفه بالشعر، ولكن حين اتضح أنني أتمتع بموهبة متميزة في اللغات، أرسلني إلى هنا».

انتظر بلهفة، وهو ما حثهم على الإفادة بلغات تخصصهم.

قال رامي: «الأردية، والعربية، والفارسية».

قالت فيكتوار: «الفرنسية والكريول، أقصد كريول هايتي، هذا إن اعتبرته مهمّاً».

قال أنطوني بابتهاج: «هذا مهم».

قالت ليتي: «الفرنسية والألمانية».

وقال روبين وهو يشعر ببعض النقص: «الصينية واللاتينية، واليونانية».

فردت ليتي: «حسناً، جميعنا لديه اليونانية واللاتينية، فهي من شروط الالتحاق، أليس كذلك؟».

احمرّت وجنتا روبين خجلاً، فلم يكن يعرف ذلك.

بدا أنطوني مسروراً وقال: «يا لها من مجموعة عالمية لطيفة، أليس كذلك؟ مرحباً بكم في أوكسفورد! ما رأيكم فيها؟».



أجابت فيكتوار: «جميلة. ومع ذلك... لا أعرف، فهي غريبة بعض الشيء. لا أشعر بأنها حقيقية، أشعر كأنني في مسرح وأنتظر نزول الستائر».

«لا يزول هذا الشعور». وهنا اتجه أنطوني نحو البرج وأشار للباقيين كي يتبعوه، ثم أردف: «لا سيما بعد أن تعبروا هذه الأبواب. طلبوا مني أن أأخذكم في جولة في المعهد حتى الساعة الحادية عشرة ثم أترككم للأستاذ بلاي فير. هل ستكون هذه أول مرة تدخلون فيها؟».

راحوا ينظرون إلى البرج. كان مبنى رائعاً ممثلاً في صرح أبيض مبهر شُيّد على الطراز النيو كلاسيكي مكوّن من ثمانية طوابق ومُحاط بالأعمدة الزخرفية والنوافذ المرتفعة ذات الزجاج الملون. كان الصرح مهيمناً على خط أفق هاي ستريت، ما جعل مكتبة رادكليف ودار العبادة بالجامعة تبدوان باهتتين بالمقارنة. كان رامي وروبين قد مرا بجواره عدة مرات خلال عطلة نهاية الأسبوع وراحا يبديا تعجبهما منه ولكن عن بعد، إذ لم يجروا على الاقتراب في ذلك الوقت.

تنهد أنطوني برضا وقال: «أليس رائعاً؟ سيظل هذا المنظر جديداً دائماً. مرحباً بكم في بيتكم لسنوات مقبلة. صدقوا أو لا تصدقوا، نطلق عليه اسم بابل».

فردد روبين: «بابل. ألهذا السبب...».

أوماً أنطوني: «يدعوننا بابليين؟ إنها مزحة قديمة كالمعهد. لكن أحد طلاب السنة الأولى في باليول يعتقد أنه ابتكرها لأول مرة في سبتمبر من كل عام، ومن ثم، حُكم علينا بهذا الاسم غير الملائم لعقود».

ثم سار بخطوات سريعة وصعد الدرجات الأمامية. كان ختم جامعة أوكسفورد، بلونيه الأزرق والذهبي، منحوتاً في الحجر قبالة الباب، يعلوه شعار الجامعة مكتوباً باللغة اللاتينية: الله ينير طريقي. وفي اللحظة التي خطا أنطوني بقدميه فوق الختم، انفتح باب خشبي ثقيل من تلقاء نفسه كاشفاً



عن درجات داخلية مضاءة بالمصابيح وطلاب صاخبين مرتدين أزياء داكنة، وكتبًا تتراص بعضها فوق بعض.

توقف روبين، إذ كان أكثر ذهولاً من أن يدخل. فمن بين كل معالم أوكسفورد المذهلة، بدا ما يطلقون عليه بابل الأكثر إثارة للدهشة، إذ كان برجاً خارج الزمن ومشهداً من أحد الأحلام! وبدأت النوافذ بزجاجها المعشق والقبة العالية المهيبة كأنها قد انتزعت من غرفة طعام الأستاذ لوفيل ووضعت في هذا الشارع الرمادي الكئيب. كان كمنارة تضيء مخطوطة قروسطية وبوابة إلى عالم الخيال. بدا من المستحيل أن يحضروا يومياً إلى هنا بغرض الدراسة وأن من حقهم جميعاً أن يدخلوا.

لكنه كان قابلاً أمامهم وكأنه ينتظرهم.

أشار أنطوني بابتهاج: «حسناً، ادخلوا».

«لم تزل هيئات الترجمة أدوات لا غنى عنها - بل تعد مراكز - للحضارات العظيمة. في عام 1527، أسس ملك إسبانيا تشارلز الخامس أمانة الترجمة اللغوية والتي كان موظفوها يتنقلون بين عشرات اللغات لصالح حكم أراضي إمبراطوريته. وتأسس المعهد الملكي للترجمة في لندن في بداية القرن السابع عشر. لكنه لم يُنقل إلى مقره الجديد بأوكسفورد حتى عام 1715 ونهاية حرب الخلافة الإسبانية التي قرر البريطانيون بعدها أنه من الحكمة أن يُدرب الأولاد الصغار على التحدث بلغات المستعمرات التي كان الإسبان قد فقدوها للتو. لم أكتب هذا، بل حفظته كله. لكنني لم أنفك أقود هذه الجولة منذ السنة الأولى بسبب حضوري الشخصي الطاعي، ولهذا تجدونني أتقن الأمر. اعبروا الردهة من هنا».

كان أنطوني يتمتع بمهارة التحدث بسلسلة نادرة أثناء المشي ذهاباً وإياباً.

«يتكون بابل من ثمانية طوابق. يقول كتاب اليوبيلات إن برج بابل القديم بلغ ارتفاعاً أكثر من خمسة آلاف ذراع - وهو ما يوازي ميلين - وهذا أمر



مستحيل، رغم أن برج بابل الخاص بنا يعد أعلى مبنى في أوكسفورد، وربما في إنجلترا، باستثناء برج دار العبادة. ويعني هذا أن إجمالي ارتفاعه يساوي ضعف ارتفاع مكتبة رادكليف...».

فرفعت فيكتوار يدها وقالت: «هل البرج...».

سأل أنطوني: «أكبر من الداخل مما يبدو في الخارج؟». «بالطبع». لم يكن روبين قد لاحظ هذا في البداية، لكنه صار يشعر بالتشتت بسبب التناقض. كان مبنى بابل ضخماً من الخارج، لكنه لم يبدو طويلاً على نحو يسمح بالأسقف العالية والأرصف الشاهقة داخل كل طابق. وهنا أردف أنطوني: «إنها حيلة جيدة لأعمال الفضة. مع ذلك، لست متأكداً من التطابق المتضمن، فلم تزل هكذا منذ جئت، ونحن نأخذ الأمر على علاته».

قادم أنطوني مجتازاً مجموعة من أهل البلدة الواقفين في طوابير مزدحمة أمام نوافذ الخزانة. «نحن الآن في الردهة حيث تجري جميع الأعمال هنا، إذ يطلب التجار المحليون قوالب لأدواتهم، فيما يطلب مسئولو المدينة صيانة المنشآت العامة وأشياء من هذا القبيل. وهذه هي المنطقة الوحيدة من البرج المسموح للمدنيين بدخولها. غير أنهم لا يتعاملون مع الطلاب. فلدينا موظفون يلبون طلباتهم»، ثم لَوَحَ لهم أنطوني باتباعه لصعود الدرج الأوسط وقال: «من هنا».

كان الطابق الثاني هو قسم القانون والذي كان مملوءاً بالطلاب ذوي الوجوه العابسة الذين يراجعون الأوراق ويقلبون مجلدات المراجع السميكة العتيقة.

قال أنطوني: «يجمع هذا المكان بالمعاهدات الدولية، والتجارة عبر البحار وما شابه. إنها تروس الإمبراطورية والأشياء التي تجعل العالم يدور. ينتهي معظم طلاب بابل هنا بعد التخرج، فالأجور مجزية والتعيينات لا تتوقف، كما يؤدون الكثير من الأعمال المجانية هنا، فالمربع الجنوبي الغربي به



فريق عاكف على ترجمة قانون نابليون إلى باقي اللغات الأوروبية*. لكننا نعطي الباقيين مآلاً وفيراً، فهذا هو الطابق الذي يدر أكبر دخل، باستثناء أعمال الفضة بطبيعة الحال».

فسألت فيكتور: «أين أعمال الفضة؟».

«في الطابق الثامن، وهو أعلى الطوابق».

فسألت ليتي: «أهو للمشاهدة؟».

أجاب أنطوني: «بل للحرائق، فحين تشب الحرائق، من الأفضل أن يكونوا في أعلى طابق كي يتمكن الجميع من الخروج».

لم يستطع أحد أن يميز ما إذا كان يمزح*.

قادهم أنطوني إلى درج آخر وقال: «يعد الطابق الثالث قاعدة المترجمين الفوريين» ثم أشار حول الغرفة الكبيرة الخالية، وهو ما كشف عن بضع علامات للاستخدام باستثناء بعض أكواب الشاي الملطخة المائلة وأكوام الورق المتباعدة على زوايا المكاتب. أردف أنطوني: «لا يأتون إلى هنا تقريباً، لكنهم يحتاجون إلى مكان لإعداد ملفات المعلومات الموجزة باطمئنان، ومن ثم، فإنهم يحتلون كل هذه المساحة. يرافق هؤلاء الشخصيات المهمة وموظفي السلك الدبلوماسي في رحلاتهم إلى الخارج حاضرين الحفلات في روسيا ومتناولين للشاي مع المشايخ في الجزيرة العربية بل وأكثر من ذلك. نمى إلى علمي أن السفر يصبح مرهقاً للغاية، ومن ثم، لا يوجد الكثير من المترجمين الفوريين المحترفين الذين يتخرجون في بابل، فهم متعدّدو اللغات بطبيعة الحال الذين تعلموا لغاتهم في مكان آخر، فإما

* يعد هذا وصفاً مستفيضاً لقسم القانون. وقد نحتج بأن عمل المترجمين على الترجمة القانونية كان يطوّع اللغة لا ابتكار مصطلحات ملائمة للأطراف الأوروبية. وهناك مثال ممثل في زعم بيع الملك بأسبهي الأرض للإنجليز في فرجينيا «مقابل النحاس» رغم الصعوبة الواضحة في ترجمة مفاهيم النظام الملكي الأوروبي أو الأرض باعتبارها ملكية إلى لغات قبائل الألجونكوين. وتمثل الحل القانوني لهذه المشكلات في إعلان كون هذه القبائل أكثر بدائية من أن تتبكر مثل هذه المفاهيم وأنه كان من الجيد أن يوجد الإنجليز هناك لتعليمهم.

* لم يكن يمزح، أعيد بناء الطابق الثامن في معهد الترجمة سبع مرات منذ بداية تشييد المبنى.



كان لهم أهل من الإرساليات وإما قضوا الصيف مع أقارب أجنب على سبيل المثال. ينزع خريجو بابل لتجنب الأمر».

فسأل رامي: «لماذا؟ يبدو ممتعاً».

أجاب أنطوني: «تصبح وظيفة مريحة لمن يرغب في السفر على حساب شخص آخر. لكن الأكاديميين بطبيعتهم مجموعة من الشخصيات الميالة للعزلة وعدم الحركة. يبدو السفر ممتعاً حتى تدرك أن ما تريده فعلاً هو البقاء في البيت بصحبة كوب من الشاي وكومة من الكتب بجوار المدفأة».

قالت فيكتوار: «نظرتك للأكاديميين سلبية».

«بل تتبع نظرتي من الخبرة وستفهمين بمرور الوقت، فالخريجون الذين يتقدمون لوظائف الترجمة الفورية يتكونها في غضون أول عامين، بل إن حتى ستيرلنج جونز - ابن أخي السير وليم جونز، لعلمك - لم يتحملها لأكثر من ثمانية أشهر، رغم كونه يسافر على الدرجة الأولى أينما ذهب. على أية حال، لا تعد الترجمة الفورية مهنة جذابة على الإطلاق، ذلك أن كل ما يهم هو توضيح النقاط الأساسية دون أن تسيء إلى أي شخص، إذ لا يستطيع أحد التلاعب بدقائق اللغة وهو بالطبع ما يمثل المتعة الحقيقية».

كان الطابق الرابع أكثر ازدحاماً من الثالث، كما بدا الطلاب أصغر سناً، إذ كانوا غير مهندمي الشعر ولا الملبس مقارنة بالفئة الأرقى والأكثر أناقة في القسم القانوني.

أوضح أنطوني: «الأدب، أي أعمال ترجمة الروايات والقصص والأشعار الأجنبية إلى اللغة الإنجليزية والعكس وهو أقل شيوعاً. تعد أدنى قليلاً على سلم الهيبة بصراحة. بيد أنها مرغوبة أكثر من الترجمة الفورية. يفكر الشخص في الحصول على وظيفة في الأدب بعد التخرج باعتبارها الخطوة الطبيعية نحو الترقى إلى الأستاذية في بابل».

«لعلمك، يعجب هذا القسم بعض الناس». وهنا، دلف شاب يرتدي زي الخريجين ووقف بجوار أنطوني وسأله: «هل هؤلاء طلاب السنة الأولى؟».



«هؤلاء هم كلهم».

فلوّح الرجل لهم بابتهاج: «لستم فصلاً كبيراً، أليس كذلك؟ مرحباً. أنا فيمال شرينيفاسان. تخرجت في الفصل الدراسي السابق، تخصصت في السنسكريتية، والتاميل، والتيلوغوية، والألمانية».*

فسأل رامي: «هل يقدم الجميع أنفسهم هنا بلغاتهم؟».

أجاب فيمال: «بالطبع، إذ تبين لغتك مدى تمتعك بالقبول، فدارسو اللغات الشرقية رائعون، أما دارسو اللغات الكلاسيكية فمملّون. على أية حال، مرحباً بكم في أفضل طوابق البرج».

كانت فيكتوار تختلس النظر حولها باهتمام شديد وقالت: «هل تصلون إلى كل كتاب يُطبع في الخارج؟».

أجاب فيمال: «نعم، معظمها».

«وجميع المطبوعات الفرنسية بمجرد طباعتها؟».

فقال دون خبث: «نعم بشغف. ستجدين ميزانية شراء الكتب المخصصة لنا غير محدودة، ويهوى أمناء مكتباتنا الحصول على المجموعة بأكملها. مع ذلك، لا نستطيع ترجمة كل ما يرد إلينا، فليس لدينا قوة عمل، وما زالت ترجمة النصوص القديمة تحتلّ الجزء الأكبر من وقتنا».

قال أنطوني: «لهذا السبب يعد هذا هو القسم الوحيد الذي يواجه عجزاً كل عام».

هتف فيمال: «لا يتعلق الارتقاء بفهم الإنسان لأحوال البشر بتحقيق الربح، فلا ننفك نحدّث الكلاسيكيات، فبين القرن الماضي والعصر الحالي صرنا أكثر إجادة للغات معينة، ولا يوجد سبب لإعاقة الوصول إلى الكلاسيكيات

* أجرى الشعراء الرومانسيون الألمان، مثل هيردر، وشليجل، وبوب الكثير من الأبحاث الغربية التأسيسية في اللغة السنسكريتية. ليست كل الدراسات الأحادية الموضوع مترجمة إلى الإنجليزية - على الأقل ليس على نحو جيد - ومن ثم طلب من معظم دارسي اللغة السنسكريتية في بابل أن يتعلموا الألمانية.



بهذا الشكل، فأنا أعمل حاليًا على تحسين النسخة اللاتينية من البهاغافاد غيتا...».

فقال أنطوني بسخرية: «لا نبالي بأن شليجل قد أنتج واحدة».

رد فيمال مستبعدًا: «قبل عشر سنوات. إن ترجمة غيتا لشليجل مريضة، فقد قال هو نفسه إنه لم يفهم الفلسفة الأساسية التي يركز عليه الكتاب بأسره. وهذا واضح، إذ استخدم سبع كلمات مختلفة لترجمة يوجا...».

قال أنطوني وهو يوجههم للخروج: «هذا هو الأدب على أية حال، وأرى أنه يُعد أحد أسوأ تطبيقات التعليم في بابل».

سأل روبين: «ألا توافق؟». كان يشارك فيكتوار استمتاعها، إذ رأى أن قضاء العمر في الدور الرابع شيء رائع.

ضحك أنطوني وقال: «نعم، لقد أتيت هنا من أجل أعمال الفضة. وكما يعلم فيمال، أرى أن قسم الأدب ما هو إلا مجموعة من المدللين. ومن المحزن أن يكونوا أكثر الطلاب خطورة، فهم من يفهمون اللغات بالفعل، كما يعرفون كيف تعيش وتنفس وكيف تجعل دماغنا تتدفق أو تخز جلودنا بمجرد لفظة سائغة. لكنهم مهووسون بالتلاعب بصورهم البديعة، ما يجعلهم لا يكثرثون بكيفية توجيه كل تلك الطاقة الحية إلى شيء أكثر قوة. أعني الفضة بالطبع».

احتضن الدوران الخامس والسادس حجرات تدريس ومواد مرجعية شملت الكتب الأولية، وكتب النحو، والكتب المقررة، والقواميس، وعلى الأقل أربعة إصدارات من كل قاموس نُشر بكل اللغات التي زعم أنطوني أنها تُتحدث في العالم.

قال أنطوني موضحًا: «حسنًا، القواميس مبعثرة في جميع أرجاء البرج، لكن لو اجتمع للقيام ببعض أعمال الأرشفة الشاقة، فاقصدوا هذا المكان. وكما ترون فإنه يقع في وسط المبنى حتى لا يُضطر أحد الصعود أكثر من أربعة طوابق للحصول على ما يحتاج إليه».



وفي منتصف الطابق السادس، كانت مجموعة من الكتب المغلفة بالأحمر معروضة على قماش مخمليّ تحت علبة عرض زجاجية. وكان الضوء الناعم يضيء على أغلفتها الجلدية بريقاً سحرياً، ما جعلها تبدو أشبه بكتب السحر منها بالمواد المرجعية العادية.

قال أنطوني: «هذه هي كتب قواعد النحو، تبدو رائعة. يجوز أن تلمسها، فمن المفترض أن تكون مراجعاً. امسحوا أصابعكم في القماش المخملي أولاً».

كانت كتب قواعد النحو عبارة عن مجلدات متنوعة السُمك. لكنها كانت متطابقة التغليف ومرتبطة أبجدياً وفقاً للاسم اللاتيني للغة وكذا تاريخ الطباعة في تلك اللغات. احتلت بعض مجموعات كتب النحو، وبخاصة اللغات الأوروبية، وحدات عرض خاصة بها، بينما كانت أخرى، لا سيما اللغات الشرقية، تحتوي على بضعة مجلدات.

اقتصر النحو الصيني على ثلاثة مجلدات فحسب، في حين كان لكل من النحو الياباني والكوري مجلد واحد. أما النحو التاغالوجي فقد اشتمل على خمسة مجلدات، وهو ما أثار الاهتمام.

قال أنطوني: «لكن الفضل لا يرجع لنا في هذا، إذ قام الإسبان بكل تلك الترجمة، ولهذا ستجدون أيضاً إشارات بالترجمة من الإسبانية إلى الإنجليزية وراء صفحات الغلاف. وهناك كم كبير من كتب النحو الكاريبية والجنوب آسيوية قيد الترجمة. ها هي ذي، لم تكن تلك اللغات موضع اهتمام في بابل حتى معاهدة باريس والتي نقلت العديد من الأراضي إلى عصمة الإمبراطورية البريطانية، كما ستجدون أن معظم النحو الأفريقي مترجم من الألمانية إلى الإنجليزية، ذلك أن الإرساليات وعلماء اللغة الألمان هم الذين يؤدون معظم المهام هنا. فلم يكن لدينا من يترجم اللغات الأفريقية لعدة أعوام».

لم يستطع روبين منع نفسه، فمد يده بشغف إلى كتب نحو اللغات الشرقية وبدأ يقلب الكتب الموضوعة في المقدمة، وعلى الصفحة الأولى لكل مجلد،



سُطرت أسماء الباحثين الذين أتمّوا العمل على كل إصدار من تلك الكتب بخط دقيق منمّق. كان ناثانيل هالهد هو من كتب النحو البنغالي، في حين كتب السير وليم جونز النحو السنسكريتي. لقد لاحظ روبين هذا النمط، إذ كان المؤلفون الأصليون من البريطانيين ذوي البشرة البيضاء، لا أهل اللغة الأصليين.

أضاف أنطوني: «لم نوّد الكثير من أعمال الترجمة في اللغات الشرقية إلا مؤخراً. لقد تأخرنا طويلاً عن الفرنسيين. حقق السير وليم جونز بعض التقدم في تقديم السنسكريتية، والعربية، والفارسية إلى قوائم المناهج حين كان زميلاً في هذا القسم، فقد شرع في ترجمة النحو الفارسي عام 1771، لكنه كان الوحيد الذي يعمل بجدية في تلك اللغات حتى عام 1803».

فسأل روبين: «ماذا حدث وقتئذٍ؟».

أجاب أنطوني: «ثم التحق ريتشارد لوفيل بالكلية. سمعت أنه عبقرى في لغات الشرق الأقصى وقد أسهم بمجلدين في النحو الصيني وحده».

فتقدم روبين بوقار وسحب المجلد الأول من النحو الصيني نحوه، كان المجلد شديد الثقل، وكانت كل صفحة مُحملة بالحبر. استطاع تمييز خط لوفيل الصغير الدقيق في كل صفحة. شمل الكتاب نطاقاً بحثيّاً واسعاً. ثم أعاد المجلد إلى مكانه مصدوماً من معرفة الأستاذ لوفيل بلغته الأم أكثر منه رغم كونه أجنبيّاً.

سألت فيكتوار: «لماذا وُضعت هذه الكتب تحت وحدات العرض؟ فهكذا يتعذر إخراجها».

أجاب أنطوني: «لأنها الإصدارات الوحيدة في أوكسفورد. هناك إصدارات احتياطية في كامبريدج، وإدنبرة، ومكاتب وزارة الخارجية بلندن. لقد حُبّنت يدويّاً للدلالة على الاستنتاجات الجديدة. لكن هذه هي المجموعات الوحيدة الشاملة والرسمية لمعارف جميع اللغات الموجودة. وقد أضيفت نيويورك يدويّاً كما تلاحظين، ذلك أن إعادة الطبع تكلف باهظة في كل



مرة توضع الإضافات، وكذلك فإنه ليس بإمكان مطابعتنا التعامل مع الخطوط الأجنبية».

فسأله رامي: «ماذا لو نشب حريق في بابل؟ هل سنهدر وقتها عامًا كاملاً من الأبحاث؟».

«أنهدر عامًا واحدًا؟ بل قل عقودًا. لكن هذا لن يحدث». وهنا قرع أنطوني الطاولة التي لاحظ روبين أنها محشوة بعشرات من قوالب الفضة. أردف أنطوني: «تحتل كتب النحو بحماية أكبر من الأميرة فيكتوريا، وهذه الكتب محصنة ضد الحرائق، والفيضانات، ومحاولة أي شخص خارج سجل المعهد إزالتها. لو حاول أي شخص سرقة أو تدمير أحد تلك الكتب، فسوف تدمره قوة خفية عظيمة وسيفقد وعيه بنفسه وهدفه حتى وصول الشرطة».

فسأله روبين بذعر: «هل تفعل القوالب هذا كله؟».

أجاب أنطوني: «حسنًا، تقريبًا. أنا أحمّن فحسب. يضع الأستاذ بلاي فير الفخاخ الواقية متحريًا الغموض في هذا. لكن، نعم، سيذهلك أمن هذا البرج. يبدو كأحد مباني أوكسفورد التقليدية. ولكن لو حاول أحدهم اقتحامه، لوجد نفسه ينزف في الشارع، وقد رأيت هذا».

قال روبين: «هذه مبالغة في الحماية لمبنى بحثي». وفجأة شعر بببل في كفيه، فمسحها في رداءه.

رد أنطوني: «نعم، بالطبع، إذ تحتوي الجدران على فضة أكثر من التي تحويها أقبية بنك إنجلترا».

سألت ليتي: «أحقًا؟».

أجاب أنطوني: «بالطبع. تعد بابل من أكثر أماكن البلاد ثراءً. أتريدون معرفة السبب؟».

أومأ الجميع، ففرق أنطوني أصابعه وأشار لهم ليتبعوه إلى الطابق العلوي.



كان الطابق الثامن في بابل هو الجزء الوحيد من بابل الذي يخفى خلف الأبواب والجدران. وكانت الطوابق السبعة الأخرى مصممة وفقاً لخطّة الطابق المفتوح بدلاً من وضع حواجز حول الدرج. لكن درج الطابق الثامن كان يؤدي إلى ممر حجري، ومن ثم، إلى باب خشبي ثقيل.

قال أنطوني موضعاً: «هذا حاجز ضد النيران. في حالة وقوع حوادث، يعزل باقي المبنى كي لا تحترق كتب النحو لو انفجر شيء بأعلى». ثم اتكأ بثقله على الباب ودفعه.

بدا الطابق الثامن أشبه بورشة منه بمكتبة بحثية. كان الباحثون منحنين حول طاولات العمل، مثل الميكانيكيين وهم يمسون بمجموعة من أدوات النحت على قوالب الفضة بكل أشكالها وأحجامها. وكان الهواء ممتلئاً بالأزيز، والهمهمة، وأصوات الثقوب. ثم انفجر شيء على مقربة من النافذة، ما أدى لتطاير الشرر متبوعاً بفورة من السباب، لكن أحداً لم يرفع عينه.

وقف رجل أبيض البشرة بدين ذو شعر أبيض ينتظرهم أمام محطات العمل. كان ذا وجه عريض جعده الابتسام وعينين لامعتين نوعاً ما جعلتاه في عمر بين الأربعين والستين! كان زي المدرس الأسود مغطى بالكثير من رماد الفضة على نحو جعله يلمع أينما ذهب. كان حاجباه سميكين داكنين ومعبرين بشكل استثنائي، وبدوا كأنهما ليقفزان من وجهه بسبب ما أبداه من حماس في التحدث.

قال الرجل: «طاب صباحكم. أنا الأستاذ جيروم بلاي فير، رئيس الكلية. أمارس الإيطالية والفرنسية، لكن الألمانية هي حبي الأول. شكرًا يا أنطوني. يمكنك الانصراف. هل استعدت وودهاوس لرحلة جامايكا؟».

أجاب أنطوني: «ليس بعد. ما زلنا بحاجة لتتبع كتب العامية، أشك أن جيدييون أخذه مجدداً دون أن يسجله».

«فلنتطلق إذًا».

أوما أنطوني ورفع قبعة وهمية لروبين وزملائه ثم تراجع من الباب الثقيل.



ابتسم الأستاذ بلاي فير لهم وقال: «كيف وجدتم الأمور بعد مشاهدتكم بابل؟».

لم يجب أحد للحظة. بدت ليتي ورامي وفيكتوار جميعًا مذهولين مثل روبين. لقد تلقوا معلومات كثيرة دفعة واحدة، ما جعل روبين غير متأكد من حقيقة الأرض التي يقف عليها.

ضحك الأستاذ وقال: «أعرف. كان هذا انطباعي نفسه في يومي الأول هنا. يُشبه الأمر التعرف على عالم خفي، أليس كذلك؟ يبدو كأخذ الطعام من فم الأسد. فحين تعرفون ما يحدث في البرج، يبدو كل ما يتعلق بالدنيا أقل إثارة للاهتمام».

قالت ليتي: «إنه مذهل يا سيدي، بل غير معقول».

فغمز الأستاذ بلاي فير لها ورد: «بل إنه أكثر الأماكن روعة على وجه الأرض».

ثم تتحنح وقال: «أود الآن أن أروي لكم حكاية. معذرة لأنني أبدو ممثلًا مسرحيًا، لكنني أريد تخليد المناسبة، فهو يومكم الأول على أية حال في مكان أظنه أهم المراكز البحثية في العالم. ألا تتفقون معي؟».

لم يكن بحاجة لموافقتهم. لكنهم أومأوا.

«شكرًا. عرفنا القصة التالية من هيرودوت». وهنا مشى بضع خطوات أمامهم كأنه ممثل يضبط مكانه على المسرح، وأردف: «يحكي لنا عن الملك المصري بسماتيك الذي عقد اتفاقًا مع القراصنة الآيونيين ليهزم الملوك الأحد عشر الذين خانوه. وبعد أن أطاح بأعدائه، أعطى حلفاءه الآيونيين مساحات شاسعة من الأراضي. لكن بسماتيك أراد ضمانًا أفضل لعدم خيانة الآيونيين له كما فعل حلفاؤه السابقون، كما أراد أن يمنع الحروب القائمة على سوء الفهم. ولذا أرسل صبية مصريين للعيش مع الآيونيين وتعلم اللغة اليونانية، ومن ثم، يشبون ك مترجمين فوريين بين الشعوب».



«ونحن نستلهم ما فعله بسماتيك في بابل»، ثم نظر حوله لتقع نظراته اللامعة على كل منهم وهو يتحدث. «فمنذ القدم، لم تنفك الترجمة تسهل إقرار السلام وتجعل التواصل ممكناً، وهو ما يؤدي لتفعيل العلاقات الدبلوماسية، والتجارة، والتعاون بين الشعوب الأجنبية الذي يجلب للجميع الثراء والرخاء».

«وقد لاحظتم بالطبع أن بابل تنفرد عن باقي كليات أوكسفورد بقبول طلاب من أصول غير أوروبية. فلا يوجد مكان آخر في هذه البلاد تجدون فيه جميع الأعراق من هندوس، ومسلمين، وصينيين يدرسون تحت السقف نفسه. نحن نقبلكم لا بالرغم من خلفياتكم الأجنبية، بل بالأحرى بسببها». لقد شدد الأستاذ بلاي فير على هذه الجزئية الأخيرة كما لو كانت مدعاة للفخر: «تتمتعون بسبب أصولكم، بهبات لغوية لا يستطيع مواليد إنجلترا تقليدها. ومثل صبية بسماتيك، ستصبحون الألسنة التي ستدع روية التناغم العالمي».

وهنا ضم يديه أمامه كمن يصلي وقال: «على أية حال، يسخر الخريجون مني كل عام بسبب هذا الكلام المُسهَّب، إذ يعتقدون أنه سخي. لكنني أعتقد أن الموقف يدعو لهذا الإجلال، أليس كذلك؟ على كل حال، فنحن هنا لجعل المجهول معلوماً وجعل الآخر مألوفاً. لقد جئنا لنصنع أموراً سحرية بالكلمات».

رأى روبين أن هذا هو أكثر الأشياء لطفاً يُقال عن شخص أجنبي. ورغم أن القصة أصابت معدته بالانقباض، ذلك أنه قرأ الفقرة ذات الصلة لدى هيرودوت وتذكر أن الصبية المصريين كانوا عبيداً رغم كل شيء، فإنه شعر بغفورة من الإثارة لكون عدم انتمائه لم يحكم عليه بالتهميش إلى الأبد، بل ولعله جعله متميزاً.

وبعدھا، جمعهم الأستاذ بلاي فير حول طاولة عمل خالية لعمل عرض، وقال: «يعتقد العوام أن العمل بالفضة يساوي الشعوذة». ثم رفع أكامه حتى مرفقيه وهو يهتف كي يسمعه في الصخب: «يعتقدون أن قوة القوالب تكمن



في الفضة نفسها وأن الفضة مادة سحرية بطبيعتها تحوي قوة يمكنها تغيير العالم».

ثم فتح الدرج الأيسر وجذب قالب فضة مُصمَّمًا وقال: «ليسوا مخطئين بالكلية، فهناك شيء متميز في الفضة يجعلها الوسيلة المثلى لما نصنعه. أريد أن أعتقد أن الآلهة باركتها، فهي منقّاة بالزئبق (ميركوري). أليس ميركوري هو رسول الآلهة؟ ميركوري هرمس. ألا تحمل الفضة صلة وثيقة بالهرمينوطيقا؟ لكن، يجب ألا نكون خياليين لهذه الدرجة، فقوة القالب تكمن في الكلمات. بعبارة أدق، هناك أشياء في اللغة لا طاقة للكلمات بالتعبير عنها. تضيع هذه الأشياء حين ننقل من لغة إلى الأخرى. تلتقط الفضة ما يضيع وتظهره».

ثم نظر إلى أعلى واستوعب ما على وجههم من دهشة وقال: «لديكم أسئلة. لا تقلقوا. لن تبدأوا العمل بالفضة حتى نهاية السنة الثالثة. لديكم فسحة من الوقت للحاق بالنظرية ذات الصلة قبلها. المهم الآن هو أن تستوعبوا مقدار ما نفعله هنا»، ثم مد يده والنقط قلم نحت وأردف: «وهو إلقاء التعاويذ بالطبع».

وهنا بدأ ينحت كلمة على أحد أطراف القالب وقال: «أشرح لكم شيئاً بسيطاً فحسب. وسيكون التأثير طفيفاً للغاية، فلاحظوا ما إذا كنتم ستشعرون به».

ما إن انتهى من الكتابة حتى رفعها لأعلى كي يريهم. «كانت كلمة هايمليش هي الكلمة الألمانية التي تعني سري ومُضمّر. وهكذا نترجمها إلى الإنجليزية. لكن هايمليش لا تعني سري فحسب، فهي مشتقة من كلمة جرمانية بدائية تعني «البيت». لو وضعنا هذه المجموعة من المعاني بجانب بعضها بعضاً، فعلام سنحصل؟ سنحصل على شيء مثل الشعور السري الخاص الذي تشعرون به عند وجودكم في مكان تنتمون إليه بمعزل عن العالم الخارجي».

وفيما كان يتحدث، كتب كلمة مُضمّر على الطرف الآخر من القالب. وحين انتهى، بدأت الفضة تهتز.



ثم قال: «هايمليش أي مُضمر».

فسمع روبين مجددًا صوت غناء صادر عن صوت غير آدمي من اللا مكان، ولم يكن له مصدر.

لقد تحوّل العالم، وصار شيء يربطهم، وكأنّ حاجزًا غير ملموس قد شوّش الهواء المحيط بهم، وكنتم الضوضاء المحيطة، وجعلهم يشعرون كأنهم موجودون وحدهم في الطابق الذي كان مزدحمًا بالباحثين. كانوا آمنين هنا، وكانوا وحدهم، وصار هذا برجمهم وملاذهم*.

لم يستغربوا هذا السحر، فقد رأوا تأثير أعمال الفضة من قبل. وفي إنجلترا كان من المستحيل تجنبه. غير أن الأمر كان مختلفًا عن معرفة كيفية عمل القوالب، ذلك أن أعمال الفضة كانت أساس المجتمعات المتقدمة النشطة. كما كان لرؤيتهم تشويش الواقع بأعينهم، وطريقة استحواذ الكلمات على ما تعجز أي كلمات عن وصفه - وكذلك استدعاؤها تأثير مادي لم يكن له وجود - طابع مختلف.

وضعت فيكتوار يدها على فمها وراحت ليتي تننّفس بصعوبة، وراح رامي يرمش بسرعة وكأنه يُحاول كبّح دموعه.

أما روبين فراح يراقب القلب الذي لم يتوقف عن الاهتزاز وقد تبين أنه كان يستحق كل شيء: الوحدة، والضرب، وساعات الدرس الطويلة المتعبة، واستيعاب اللغات الذي كان يُشبه المشروب المر، كي يصل يومًا إلى هذا - كان الأمر كله يستحق هذا.

قال الأستاذ بلاي فير وهو يصطحبهم إلى أسفل الدرج: «آخر شيء. نحن بحاجة إلى سحب عينة من دماءكم».

فاستفسرت ليتي: «أستمّحك عذرًا؟».

* في المراجع، نجد كلمة ألمانية ذات صلة وهي أونهايمليش.



«دماؤكم، لن يستغرق الأمر مدة طويلة». قادهم الأستاذ بلاي فير عبر ردهة إلى غرفة صغيرة بلا نوافذ مخبأة وراء الأرفف. خلت الغرفة إلا من طاولة عادية وأربعة مقاعد. ثم أشار إليهم بالجلوس وسار نحو الحائط الخلفي حيث كانت سلسلة من الأدراج مخبأة داخل الأحجار، ففتح الدرج العلوي كاشفًا عن أكوام وأكوام من القوارير الزجاجية الصغيرة بداخله. كانت كل قارورة تحمل وسمًا عليه اسم الباحث صاحب الدم.

قال الأستاذ بلاي فير موضحًا: «إنه مخصص للفاخ. تشهد بابل محاولات سرقة أكثر من بنوك إنجلترا مجتمعة. تمنع الأبواب معظم العناصر غير المرغوب فيها من الدخول، لكن الأقسام تحتاج لطريقة لتمييز الباحثين عن المتطفلين، وقد جربنا الشعر والأظافر، لكنها سهلة السرقة». فقال رامي: «يستطيع اللصوص سرقة الدماء».

رد الأستاذ بلاي فير: «نعم يستطيعون، لكن عليهم أن يتحلوا بالكثير من المثابرة لتنفيذ العملية برمتها، أليس كذلك؟».

ثم سحب مجموعة من السرنجات من الدرج السفلي وقال: «لو سمحتم ارفعوا أكمامكم».

فرفعوا ثيابهم بتردد.

سأله فيكتوار: «ألا يجب أن تكون هناك ممرضة؟».

أجاب الأستاذ بلاي فير وهو يركب الإبرة: «لا تقلقي، فأنا أجيد هذا. لن يستغرق عثوري على الوريد وقتًا. بمن أبدأ؟».

تطوع روبين، إذ لم يكن يريد أن يعاني الانتظار ومراقبة الآخرين، وتبعه رامي، ثم فيكتوار، وبعدها ليتي. استغرقت العملية كلها أقل من ربع الساعة، ولم يتضرر أحد. غير أن وجه ليتي تحول إلى لون أخضر مُقلق بعد خروج الإبرة من ذراعها.



فقال لها الأستاذ بلاي فير: «تناولي غذاءً مغذيًا، سيفيدك سحج الدم إذا كان موجودًا».

وهكذا أضيفت أربع قوارير زجاجية إلى الدرج كلها موسومة بخط صغير مُنمق.

وقال لهم الأستاذ بلاي فير وهو يغلق الأدراج: «صرتم الآن جزءًا من البرج وصار البرج يعرفكم».

قال رامي بعبوس: «أليس هذا مخيفًا؟».

رد الأستاذ بلاي فير: «على الإطلاق، فأنتم في المكان الذي يُصنع فيه السحر. يمتلك بابل جميع ملامح الجامعات الحديثة، ولكنه لا يختلف في جوهره عن مخابئ الخيميائيين القدماء. ولكن بعكس هؤلاء الخيميائيين، فقد توصلنا بالفعل إلى سر تحويل الشيء والذي لا يكمن في المادة الملموسة، بل في الاسم».

كان معهد بابل يشارك العديد من كليات الدراسات الإنسانية مقصفاً بمربع رادكليف، وكان الطعام جيدًا جدًا، لكنه ظل مغلقاً حتى بداية الدروس في اليوم التالي. ولهذا، اتجهوا إلى الكلية للحاق بنهاية وقت الغداء. كان كل الطعام الساخن قد نفذ، لكن شاي العصر بكل مشتملاته كان يُقدم حتى وقت العشاء. فحملوا صوانيهم بفناجين الشاي، وأوعية السكر، ودوارق اللبن، والفُرِيسات، وراحوا يدورون حول الطاولات الخشبية في القاعة حتى وجدوا طاولة فارغة في أحد الأركان.

سألت ليتي: «إذًا، فأنت من كانتون؟». لاحظ روبين أنها كانت تتمتع بشخصية قوية جدًا، كانت تطرح جميع أسئلتها، بما فيها الأسئلة البريئة، بنبرة محققي الشرطة!



وهنا قضم إحدى الفُرِصَات ليكتشف أنها جافة وغير طازجة، فاضطر لرشف جرعة من الشاي قبل أن يجيب. لكنها أدارت عينيها نحو رامي قبل أن يفعل وقالت: «وأنت... من مدراس أم من بومباي؟».

أجاب رامي بلطف: «بل من كالكوتا».

فردت: «استقر والدي في كالكوتا لمدة ثلاثة أعوام من 1825 إلى 1828. لعلك رأيته هناك».

قال رامي وهو يدهن قريصته بالمربي: «رائع، لعله صوّب بندقية نحو أخواتي ذات مرة!».

«حسنًا، أقول فحسب...».

لقد بدأ الاثنان بداية سيئة. لم يكن مزاج رامي ليتوافق مع المعارف الجدد. كان من المهم تجاهل كلامه السطحي، بيد أن ليتيتيا برايس بدت قادرة على كل شيء عدا هذا.

فقاطعه روبين قبل أن يقول أي شيء آخر: «إذًا، فبابل مبنى جميل».

حدجته ليتي بنظرة ذهول وقالت: «جدًا».

نظر رامي بسخرية، ثم سعل ووضع قريصته.

راحوا يشربون الشاي في صمت. أما فيكتوار فراحت تقلب الشاي بتوتر، وكان روبين ينظر من النافذة ورامي يقرع الطاولة بأصبعه، لكنه توقف حين رمقته ليتي بنظرة غاضبة.

حاولت فيكتوار أن تستأنف المحادثة بجرأة: «ما رأيكم في المكان؟ أعني أوكسفوردشير. أشعر كأننا لم نر سوى جزء صغير منها، فهي كبيرة للغاية. لا أعني أنها مثل لندن أو باريس، لكن هناك الكثير من الأماكن التي لم نرها، أليس كذلك؟».



أجاب روبين بحماس مبالغ فيه: «إنها مذهلة، بل كل مبانيها مذهلة، فقد قضينا الأيام الثلاثة الأولى في التنزه والتحديق! شاهدنا جميع المعالم السياحية: متحف أوكسفورد، والحدائق...».

فسألت فيكتوار بدهشة: «وهل يسمحون لكم بالدخول إلى كل مكان تذهبون إليه؟».

وضع رامي فنجانه وأجاب: «لا في واقع الأمر، أتتذكر أشموليان يا بيردي».

قال روبين: «صحيح، بدوا كأنهم متأكدون أننا سنسرق شيئاً، فجعلونا نقالب جيوبنا أثناء الدخول والخروج، وكأنهم مقتنعون بأننا سرقنا جوهرة ألفريد العظيم».

قالت فيكتوار: «لم يسمحوا لنا بالدخول على الإطلاق وقالوا إنهم لا يسمحون بدخول السيدات من دون مرافق».

فسأل رامي بسخرية: «لمماذا؟».

أجابت ليتي: «بسبب طبيعة أعصابنا، فلن يتحملوا إغماءنا أمام اللوحات».

قالت فيكتوار: «لكن الألوان شديدة الإثارة».

وهنا وضعت ليتي يدها على جبينها وقالت: «ميادين قتال وصور عارية. هذا كثير على أعصابي».

فسأل رامي: «فماذا فعلتما؟».

أجابت فيكتوار بصوت أجش: «لقد عدنا أثناء مناوبة مختلفة من المرشدين وتذكرنا في زي رجالي، وقلنا: «عذراً، فنحن صبية من الريف في زيارة لأبناء أعمامنا وليس لدينا ما نفعله حين يكونون في قاعة الدرس...».

فضحك روبين وقال: «مُحال!».

فقالت فيكتوار بإصرار: «لقد أفلحنا».



«لا أصدقك».

ابتسمت فيكتور ورددت: «بل حدث فعلاً». كان روبين قد لاحظ عينيها الواسعتين شديديتي الشبه بأعين الغزلان. كان يحب الاستماع إلى حديثها، إذ كان يشعر بأن كل جملة تنفوه بها تجذب الضحكات من داخله، ثم أردفت فيكتور: «لا بد أنهم ظنوا أننا في الثانية عشرة من العمر، لكن الخطة نجحت نجاحاً مبهرًا...».

فقاطعتها ليّتي وقالت: «حتى شعرت بالإثارة».

«حسنًا، لقد نجحت الخطة حتى مررنا بالمرشدين فحسب...».

«ولكن، بعدها رأيت لوحة لـرمبرانت أعجبتها، فأطلقت صريراً...». وهنا أصدرت ليّتي صوت زقزقة، فوكزتها فيكتور في كتفها، لكنها كانت تضحك أيضاً.

فخففت فيكتور ذقنها مقلدة المرشد المستنكر: «عذراً يا أنسة. لا يجوز أن تكوني هنا. أظنك ضللت الطريق».

«كانت المشكلة تكمن في الأعصاب على كل حال...».

كان هذا ما اقتضاه الأمر، فقد ذاب الجليد بينهم، وفي لحظة راح الجميع يضحكون، ربما على نحو أشد مما استدعته الطرفة، لكنهم كانوا يضحكون وكان هذا هو المهم.

فسأل رامي: «هل كشفكما شخص آخر؟».

أجابت ليّتي: «كلا، ظن الجميع أننا طالبة جدد نحاف، رغم أن أحدهم صاح في فيكتور وطلب منها خلع الزي».

قالت فيكتور بخجل: «حاول نزعه عني، ولم يكن من ليّتي سوى أن ضربته بمظلتها».

قال رامي: «حدث الشيء نفسه معنا، إذ راح بعض سكارى باليول يصيحون فينا ذات ليلة».



فردت فيكتوار: «لا يحبون أن يرتدي أصحاب البشرة الداكنة أزياءهم».
قال رامي: «كلا، لا يحبون ذلك».

فردت فيكتوار: «أسفة جدًا. هل قاموا... أقصد، هل نفدتم بجلدكم؟».

رمق روبين رامي بنظرة قلقة، لكن عيني رامي كانتا تلمعان بالمرح.

أجاب رامي واضعًا ذراعه فوق كتف روبين: «نعم، كنت على استعداد لكسر بعض الأنوف، لكن هذا الفتى تصرف برزانة، إذ بدأ يركض كما لو كانت كلاب الصيد تجري وراءه، ومن ثم لم يسعني سوى الركض أيضًا».
قال روبين بخجل: «لا أحب الصراعات».

رد رامي: «أوه! كلا، كنت لتختبئ بين الأحجار لو استطعت».

فقال روبين بتهكم: «كان بإمكانك البقاء ومقاومتهم بمفردك».

فرد رامي باسمًا: «ماذا؟ هل كنت لأتركك في الظلام المرعب؟ لقد بدوت سخيًا على أية حال. كنت تقفز وكأنك تريد الدخول إلى الحمام ولا تجد مكانًا خاصًا».

ثم راحوا يضحكون مجددًا.

وسرعان ما بدا أن جميع الموضوعات متاحة. كان باستطاعتهم التطرق إلى أي موضوع، ومشاركة جميع ما تحملوه من إهانات لا تُوصف لوجودهم في مكان لا يجوز لهم الوجود فيه على الإطلاق، وكل ما كانوا يخفونه من عدم ارتياح. كانوا يبوحون بكل شيء عن شخصياتهم، ذلك أنهم وجدوا، أخيرًا، المجموعة الوحيدة من الناس التي لم تجد تجاربهم غريبة ولا مُربكة.

تلا ذلك أن راحوا يتبادلون القصص عن تعليمهم قبل أوكسفورد. يبدو أن بابل كانت تنتقي مختاريها في سن صغيرة. كانت ليتي، القادمة من أقصى الجنوب في برايتون، قد أذهلت أصدقاء أسرتها بذاكرتها الجبارة منذ بدأت الكلام. وقد آمن لها أحد أولئك الأصدقاء، الذي كان يعرف بعض أكابر أوكسفورد، مجموعة من المعلمين الخصوصيين ودرّبها على الفرنسية،



والألمانية، واللاتينية، واليونانية حتى بلغت سنًا يصلح لجعلها تلتحق بالجامعة.

راحت ليتي ترمش بعنف وقالت: «رغم أنني كدت أفضل. قال أبي إنه لن ينفق على تعليم امرأة، ومن ثم، فأنا ممتنة للمنحة الدراسية. كان علي بيع مجموعة من الأساور لدفع ثمن تذكرة الحافلة».

ومثل روبين ورامي، أنت فيكتور إلى أوروبا بصحبة كفيل. قالت موضحة: «أتيت إلى باريس. كان رجلًا فرنسيًا، لكن كان له معارف في المعهد وكان ليكتب لهم حين أبلغ سنًا مناسبة، لكنه مات، ومكثت فترة دون أن أعرف ما إذا كنت سأتمكن من المجيء». وهنا ارتجف صوتها قليلًا، ثم أخذت رشفة شاي وأردفت: «لكنني نجحت في الاتصال بهم، ورتبوا لإحضاري». وهكذا أنهت كلامها بغموض.

كان روبين يشك في أن قصتها ليست كاملة، لكن، إذ كان أيضًا مُتمرسًا في فن إخفاء الألم، لم يتطفل.

لقد جمعهم شيء واحد: فدون بابل، لم يكن هناك مكان آخر يذهبون إليه في هذه البلاد. لقد اختيروا للحصول على امتيازات لم يحلموا بها يمولها رجال أقوياء أثرياء لم يفهموا دوافعهم جيدًا، وكانوا على أتم وعي أنهم قد يخسرون كل هذا في أي لحظة. صارت تلك الأخطار المحدقة تثبت فيهم جراحة وذعرًا على نحو متزامن. كانت مفاتيح المملكة في أيديهم، ولم يكونوا يرغبون في إعادتها.

وقبل أن ينتهوا من تناول الشاي، كانوا قد أحبوا بعضهم بعضًا. لم يكن حبًا شديدًا بعد؛ لأن الحب الحقيقي يستغرق وقتًا ويتطلب ذكريات، لكنه كان شعورًا قريبًا من الحب الذي تصنعه الانطباعات الأولى. لم تأت الأيام التي كان رامي ليرتدي بفخر فيها أوشحة فيكتور المُمَاكَة بإهمال، وروبين ليعرف بدقة المدة التي يفضل رامي أن يترك شايه ينفق فيها كي يعده له حين كان يتأخر في الحضور إلى المقصف بعد درس اللغة العربية، أو ليعرف الجميع أن ليتي موشكة على الحضور إلى قاعة درس بكيس ورقي مملوء



ببسكويت الليمون لأنه كان صباح الأربعاء وكان مخبز تايلورز يصنع بسكويت الليمون أيام الأربعاء. ولكن في عصر ذلك اليوم، صاروا متأكدين من نوعية الصداقة التي ستنشأ بينهم، وكان حب تلك الصورة كافياً.

وفي وقت لاحق، حين انتهى اليوم وتفرقوا إلى مجموعتين، كان روبين ليتذكر اليوم وصولاً إلى الساعة التي قضوها على هذه الطاولة ويتساءل عن سبب ثقتهم بعضهم ببعض على نحو سريع وغير متأني. لماذا رفضوا التفكير في الطرق المتنوعة التي سيسئون بها بعضهم لبعض؟ لماذا لم ينتظروا ريثما يتحرون الاختلافات في المولد والتربية والتي تشير إلى استحالة اتفاقهم على أي شيء؟

لكن الإجابة كانت واضحة، إذ كانوا جميعاً مُغرقين في غير المألوف، وكانوا يرون في بعضهم بعضاً طوق نجاة، وكان التشبث ببعضهم بعضاً هو السبيل الوحيد لعدم الغرق.

لقاء في الظلام

لم يكن مسموحاً للفتيات بالسكنى في الكلية، ولهذا لم يقابلا روبين ورامي إلا في أول يوم للدراسة. كانت فيكتوار وليتي تُقيمان في ملحق الخدم الواقع على بعد ميلين من إحدى مدارس أوكسفورد النهارية، وهو ما كان ترتيباً شائعاً لطالبات بابل. كان روبين ورامي يصطحبانهما إلى مقر إقامتهما، إذ كان هذا تصرفاً يليق بالرجال المهذبين، لكن روبين كان يرجو أن يصبح روتيناً ليلياً، إذ كان الطريق شديد البعد ولم يكن هناك حافلة في تلك الساعة. فسأل رامي: «ألم يكن بإمكانهم تسكينكما في مكان أقرب؟».

هزت فيكتوار رأسها وأجابت: «أفادت جميع الكليات أن وجودنا قد يُفسد السادة المهذبين».

قال رامي: «حسناً، ليس هذا عدلاً».

فحدجته ليتي بنظرة ساخرة وقالت: «بل أكثر».



قالت فيكتوار: «لكنه ليس سيئاً. هناك بعض الأماكن اللطيفة في هذا الشارع. يروق لنا ملهى فور هورسمن، وتويستد روت، وهناك مكان يُدعى روكس أند بونز حيث يمكن لعب الشطرنج...».

قال روبين: «عفوًا، هل قلتِ تويستد روت؟».

أجابت فيكتوار: «ستجده أمامك في هارولين بالقرب من الجسر، لكنه لن يروق لك. لقد ألقينا نظرة وعدنا على الفور، فهو شديد القذارة من الداخل. لو مررت أصابعك فوق الزجاج، لوجدت كتلة من الشحم والتراب سمكها ربع بوصة».

«ألا يرتادها الطلاب إذًا؟».

«كلا، لا يجوز لطلاب أوكسفورد الوجود هناك، فهو للعامة، لا للباحثين».

وهنا أشارت ليتي لقطيع من الأبقار التي تتسكع أمامهم، فاندمج روبين في الحديث. وفي وقت لاحق، بعد أن أوصلا الفتاتين إلى البيت بسلام، طلب من رامي العودة إلى ماجباي لين بمفرده.

قال روبين: «نسيت أنني يجب أن أذهب لرؤية الأستاذ لوفيل». كانت جيريكو أقرب لهذا الجزء من المدينة منها إلى الجامعة. وأردف: «سأقطع مسافة طويلة ولا أريد أن أتعبك معي».

رد رامي: «ظننت أن موعد عشائك في الأسبوع المقبل».

تنحرج روبين وقال: «هو كذلك، لكنني تذكرت للتو أنه يجب أن أراه في وقت أقرب، فقد أعدت السيدة بايبر لي بعض الكعك». شعر بأسف شديد لكذبه على رامي.

من المدهش أن رامي لم يشك فيه، بل قال: «حمدًا لله، فلم يكن الغداء قابلاً للأكل. هل أنت واثق أنك لا تريد من يرافقك؟».

«لا عليك، فقد كان يومًا مرهقًا وأنا متعب، وأظنه من الجيد أن أمشي برهة في صمت».



قال رامي بلطف: «لا بأس».

افترق الاثنان في وودستوك رود، فاتجه رامي جنوبًا عائذًا مباشرة إلى الكلية، أما روبين فاتجه يمينًا بحثًا عن الجسر الذي أشارت إليه فيكتور دون أن يتأكد مما كان يبحث عنه باستثناء ذكرى عبارة نُطق بها همسًا.

لكن الإجابة عثرت عليه، ففي منتصف الطريق إلى هارو لين، سمع صوت قدمين أخريين وراءه، فنظر خلف كتفه، ليرى ظلًا داكنًا يتبعه في الطريق الضيق.

قال شبيهه: «استغرقت وقتًا طويلًا. قضيت اليوم كله مختبئًا هنا».

فسأله روبين: «مَن أنت؟ ماذا تكون... ولماذا لك وجهي نفسه؟».

فقال شبيهه: «ليس هنا. هناك مقهى عند الناصية، لندلف إليه...».

فألح روبين: «أجبنني». كان شعورًا متأخرًا بالخطر قد باغته للتو، فجف حلقه وراح قلبه يخفق بعنف.

قال الرجل: «أنت روبين سوفيت، وقد تربيت دون أب مع مربية إنجليزية غامضة ومَدَد لا ينتهي من الكتب باللغة الإنجليزية، وحين أتى الأستاذ لوفيل ليأخذك إلى إنجلترا، ودَّعت وطنك إلى الأبد. تظن أن الأستاذ أبوك؛ لكنه يأبى أن يعترف بك، بل وأنت واثق أنه لن يفعل. فهل هذا منطقي؟».

لم يستطع روبين الكلام، ففغر فاه وراح يحرك فكه دون جدوى، لكنه لم يجد ما يقوله.

فقال شبيهه: «تعال معي ولنتناول مشروبًا».



الكتاب "الثاني"



الفصل الخامس



... فقاطع مونكس بضحكة استهزاء قائلاً: «لا أكثر ث بالأسماء الصعبة.
يكفيني أن تعرف الحقيقة».

تشارلز ديكنز، أوليفر تويست

وجدا طاولة في الركن الخلفي لمقهى تويستد روت. طلب شبيه روبين
كأسين من الشراب. تناول روبين نصف الكوب على ثلاث جرعات بئسة
وشعر ببعض الثبات، بيد أنه كان مرتبًا.

قال الشبيه: «اسمي جريفيين لوفيل».

وبتدقيق النظر، لم يكن هو وروبين متشابهين على أية حال. كان يكبره
بعدة سنوات، وكانت أمارات نضج شديد لم يكن روبين قد اكتسبها بعد تلوح
على وجهه. وكان صوته أعمق، وأقل تسامحًا، وأكثر حزمًا. كما كان أطول
من روبين بعدة بوصات، بيد أنه كان أكثر نحافة، بل بدا في الواقع وكأنه
مكون من حواف وزوايا شديدة الحدة. كان شعره أغمق وبشرته أكثر شحوبًا.
بدا كأنه صورة مطبوعة من روبين، مع تضخيم التباينات الضوئية وتقليل
تشبع الألوان.

إنه نسخة طبق الأصل منك.

فكر روبين محاولًا استيعاب الموقف: «لوفيل. أنت إذا...؟».

قال جريفيين: «لن يعترف بهذا مطلقًا، لكنه لن يفعل معك أيضًا، أليس
كذلك؟ أتعلم أن لديه زوجة وأولادًا؟».

فسأل روبين بصوت مخنوق: «ماذا؟».



«هذا حقيقي. لديه ابنة وابن، عمرهما سبع وثلاث سنوات على التوالي. الحبيبة فيليبيا وديك الصغير، أما الزوجة فتُدعى جوانا. لقد أخفاهما في ضيعة جميلة في يوركشاير. فهكذا يحصل جزئيًا على تمويل للرحلات إلى الخارج، فقد سعد من الحضيض، أما هي ففاحشة الثراء. علمت أن دخلها خمسمائة جنيه في العام».

«لكن هل...؟»

«هل تعرف شيئًا عنا؟ بالطبع لا. مع ذلك لا أظنها ستبالي لو عرفت، ناهيك بالمشكلات التي ستلحق بسمعتها. لا توجد روابط عاطفية في تلك الزيجة، إذ كان يسعى لامتلاك ضيعة، وكانت هي تريد حقوق التفاجر. لا يريان بعضهما بعضًا إلا مرتين في السنة، ويقضي هو باقي العام هنا أو في هامبستيد. ومن الغريب أن نكون نحن من يقضي معهما معظم وقته سواء هنا أو في هامبستيد». ثم مد جريفين رأسه وأردف: «أنت على الأقل طفله».

فتمتم روبين: «هل أحلم؟».

«بل تتمنى، تبدو شاحبًا. اشرب».

مد روبين يده بشكل آلي ليتناول كأسه. لم يعد يرتجف، لكن رأسه كان مشوشًا. لم ينفعه الشراب، لكنه أعطاه شيئًا يفعله بيديه على الأقل.

قال جريفين: «أنا متأكد أنك تريد طرح الكثير من الأسئلة، وسأحاول الإجابة عنها. لكن عليك التذرع بالصبر. لديّ أسئلة كذلك. ماذا أسميت نفسك؟».

قال روبين بذهول: «روبين سويفت، تعلم ذلك».

«لكن، هل هذا الاسم المفضل لديك؟».

لم يفهم روبين ما كان يقصد بهذا، فقال: «أقصد، في البدء كان هناك... أعني، اسمي الصيني، لكن لا أحد... لست...».

قال جريفين: «حسنًا. اسم سويفت لطيف. كيف خطر ذلك ببالك؟».



أجاب روبين: «من رحلات جاليفر». بدا الأمر شديد السخف حين قاله بصراحة. كان كل شيء يتعلق بجريفين يجعله يشعر كأنه طفل في المقابل؛ ثم استطرد: «إنه أحد كتبي المفضلة. طلب مني الأستاذ لوفيل أن أختار ما يعجبني، وكان هذا أول اسم خطر ببالي».

قال جريفين باستهجان: «إدًا، فقد لان قليلاً. أما عني، فقد أخذني إلى ناصية شارع قبل أن نوقّع الأوراق وأخبرني بأن اللقطاء كانوا يحملون أسماء الأماكن التي تُركوا فيها. قال إنني قد أجوب المدينة حتّى أجد كلمة لا تبدو شديدة السخافة».

«هل فعلت؟».

«بالطبع. اسمي هارلي. لا يوجد مكان مميز. فقد رأيته فوق متجر وأعجبنتي طريقة نطقه والشكل الذي يتخذه الفم كي ينطق به، وخروج المقطع الثاني، لكني لست هارلي، بل لوفيل، تمامًا كما أنك لست سوفيت».

«إدًا نحن...».

قال جريفين: «أخوان غير شقيقتين. مرحبًا يا أخي. سُررت بلقائك».

وضع روبين كأسه وقال: «أريد سماع القصة الكاملة الآن».

«لا بأس». مال جريفين إلى الأمام، وفي وقت العشاء، صار ذا تويستد روت شديد الازدحام، ما جعل الصخب يضع غطاءً من الضجيج فوق أي محادثة فردية. لكن جريفين راح يخفض صوته حتى صار همسًا، فاضطر روبين لبذل جهد كي يسمع.

قال جريفين: «هذه القصة باختصار. أنا مجرم. أسرق وزملاني الفضة، والمخطوطات، ومواد النحت من بابل ونهر بها من إنجلترا إلى شركائنا في جميع أنحاء العالم. كان ما فعلته الليلة الماضية خيانة، ولو اكتشفها أي شخص، لأودعت سجن نيوجيت لعشرين عامًا على الأقل، ولكن بعد أن يعذبوك محاولين الوصول إلينا». قال كل هذا بسرعة شديدة دون تغيير في نبرة صوته ولا مستواه. وحين انتهى مال للخلف وقد بدا عليه الرضا.



فعل روبين الشيء الوحيد الذي ظن أنه يستطيع أن يفعله، ألا وهو تناول جرعة كبيرة من الشراب. وحين وضع كأسه، راح صدغاه ينبضان، وكانت الكلمة الوحيدة التي نجح في النطق بها هي: «لماذا؟».

أجاب جريفين قائلاً: «الأمر سهل، فهناك أناس يحتاجون للفضة أكثر من أهل لندن الأغنياء».

«لكن... أعني، من؟».

لم يُجب جريفين على الفور، بل راح ينظر إلى روبين من أعلى إلى أسفل لعدة ثوانٍ، ويتفحص وجهه كمن يبحث عن شيء، لعلّه المزيد من الشبه أو سِمة فطرية أساسية، ثم سأله: «لماذا ماتت أمك؟».

أجاب روبين بعد هنيهة: «بسبب الكوليرا، لقد انتشر الوباء...».

قال جريفين: «لم أسأل كيف، بل سألت لماذا».

أراد روبين أن يقول لا أعرف لماذا، لكنه كان يعرف. كان يعرف من البداية، لكنه أجبر نفسه على عدم التفكير في الأمر فحسب. وطوال كل هذا الوقت، لم يسمح لنفسه بأن يطرح هذا النوع من الأسئلة تحديداً.

قالت السيدة بايبر أوه، مر أسبوعان وهناك بعض التغيير. لقد مكثوا في الصين لأكثر من أسبوعين.

كان يشعر بحرقه في عينيه، ثم سأل بدهشة: «كيف علمت بأمر أمي؟».

مال جريفين للخلف وعقد ذراعيه وراء رأسه وقال: «لَمْ لا تُكمل مشروبك؟».

وفي الخارج، بدأ جريفين يمشي بسرعة في طريق هارولين ممطرًا إياه بوابل من الأسئلة التي كان أولها: «أين موطنك؟».

«كانتون».



«لقد ولدت في ماكاو، ولا أتذكر ما إذا كنت قد ذهبت إلى كانتون على الإطلاق. فمتى أحضرك إلى هنا إذًا؟».

«إلى لندن؟».

«بل إلى مانيلّا، أيها الأبله! إلى لندن طبعًا».

رأى روبين أن أخاه شديد الوقاحة، فأجاب: «قبل ست... لا، قبل سبع سنوات».

دار جريفين إلى بانبوري رود فجأة وقال: «غير معقول». فأسرع روبين وتبعه، فأرشف الأول: «لا عجب لم يبحث عني. كان لديه شيء يركز عليه، أليس كذلك؟».

اندفع روبين إلى الأمام متعثراً فوق الحصى، ثم استقام وأسرع وراء جريفين. لم يكن قد جرب تجرّع الشراب من قبل، بل أنواع من المشروبات الخفيفة التي كانت تقدمها السيدة بايبر، فترك المشروب لسانه مُخدراً. كان يشعر برغبة شديدة في التقيؤ. لماذا تجرع الشراب كثيراً؟ كان يشعر بالدوار، وصار تجميع أفكاره أكثر بطنًا، لكن كان هذا هو الهدف. كان من الواضح أن جريفين يريد ضيقاً فاقد الاتزان، وكان روبين يشك أن جريفين يستمتع بسلب الناس توازنهم.

فسأله: «إلى أين تذهب؟».

«جنوبًا ثم غربًا، لا يهم، فأفضل طريقة لتجنب التنصت هي الحركة الدائمة». اتجه جريفين إلى كانتربوري رود وقال: «حين تقف ثابتًا، قد يختبئ من يتبعك ويسترق السمع، لكن الأشياء تتعذر عليهم حين تتحرك باستمرار».

«يتبعني؟».

«هذا ما يجب أن يفترضه المرء».

«أيمكننا الذهاب إلى مخبز إذًا؟».



«مخبز؟».

«أخبرت صديقي بأنني سأذهب لزيارة السيدة بايير». كان رأس روبين يدور، لكنه كان يتذكر كذبه بوضوح. «لا أستطيع العودة للبيت صفر اليدين».

قال جريفين: «حسنًا». ثم قادهما إلى ونشستر رود وسأله: «هل يصلح مخبز تايلورز؟ لا توجد مخابز أخرى مفتوحة».

أسرع روبين بشراء مجموعة من المعجنات البسيطة، إذ لم يرغب أن يشعر رامي بالشك في المرة التالية التي يمرون بها بنافذة العرض الزجاجية. وكان لديه كيس من الخيش في غرفته، ومن ثم كان ليتخلص من صناديق المخبز حين يعود إلى البيت ويضع الكعكات بداخله.

لقد أصابته عدوى جنون الشك من جريفين، بل شعر بأنه صار موصومًا وملطخًا بطلاء قرمزي وواثقًا أن أحدهم سينعته باللص حتى وهو يدفع. لم يستطع النظر إلى عيني الخباز وهو يأخذ الفكة.

حين خرج روبين، قال جريفين: «على أية حال، كيف تحب أن تسرق لنا؟».

«أسرق؟». راحا يمشيان بخطى غريبة مجددًا. استطرد روبين: «أتعني أن أسرق من بابل؟».

«نعم بوضوح. واصل السير».

«لكن لم تحتاج إلي؟».

«لأنك جزء من المؤسسة، أما نحن فلا، ودمك في البرج، ما يعني أنك تستطيع فتح الأبواب، بينما لا نستطيع نحن».

«لكن لماذا...». راح روبين يتلعثم وهو يحاول طرح فيض من الأسئلة. «لأي غرض؟ ماذا تفعلون بما تسرقونه؟».



«كما قلت لك تحديداً، نعيد توزيعه، فنحن لصوص أبطال نعيد توزيع الثروات، مثل روبين هود! هاها! ألسنت روبين؟ حسناً. نرسل القوالب ومواد العمل على الفضة إلى مَنْ يحتاجون إليها في جميع أنحاء العالم، أي أولئك الذين لا يملكون رفاهية الثراء أو الهوية البريطانية. إنهم أناس مثل أمك. يُعد بابل مكاناً مدهشاً، لكنه ليس مدهشاً لأنه يبيع أزواج الكلمات المتطابقة لقاعدة زبائن حصرية». وهنا التفت جريفين حوله، فلم يجد سوى غسالة تجر سلة في الطرف الآخر من الشارع، لكنه أسرع الخطى وقال: «هل ستنتضم إلينا؟».

قال روبين بارتباك: «أنا... أنا لا أعلم. لا يمكنني أن... أقصد، ما زال لدي الكثير من الأسئلة».

هز جريفين كتفيه وقال: «هلم، اطرح ما شئت من أسئلة».

حاول روبين لملمة نفسه وقال: «أنا... حسناً. من أنت؟».

«أنا جريفين لوفيل».

«بل، من تكونون؟».

أجاب جريفين فوراً: «جمعية هرمس، أو هرمس فحسب إن شئت».

راح روبين يعيد الكلمة ويقول: «جمعية هرمس. لماذا...».

«إنها مزحة، الفضة والزئبق، ميركوري وهرمس، وهرمس والهرمينوطيقا. لا أدري بأي بال خطر كل هذا».

«هل أنتم جمعية سرية؟ ألا يعرف أحد شيئاً عنكم؟».

«بابل تعرف بالتأكيد. كان لدينا... حسناً. كان الأمر مجرد تبادل، ماذا نقول؟ لكنهم لا يعرفون الكثير، وبالتأكيد لا يعرفون كل ما يريدون من معلومات، فنحن نجيد الاختباء».

خطر ببال روبين أن هذا ليس جيداً، إذ كان يفكر في السبب الذي انطلق في الظلام، والفضة المبعثرة على الحصى، فقال: «كم عددكم؟».



«لا يمكنني إخبارك».

«هل لديكم مقر رئيسي؟».

«نعم».

«هل سترشدني إلى مكانه؟».

ضحك جريفيين وقال: «بالطبع لا».

فألح روبين في السؤال: «لكن هناك المزيد منكم بالطبع؟ يمكنك أن تقدمني على الأقل...».

قال جريفيين: «لا أستطيع، ولن أفعل. لقد تقابلنا للتو يا أخي. وعلى حد علمي، فقد تسرع إلى بلاي فير لحظة افتراقنا».

فرفع روبين ذراعيه لأعلى في إحباط وقال: «لكن كيف... أقصد، لا تعطيني أي شيء وتطلب مني كل شيء؟».

«نعم يا أخي، فهكذا تعمل الجمعيات السرية ذات الكفاءة كلها، ولا أعلم أي نوع من البشر أنت، وسأكون أحمق لو أعطيتك مزيداً من المعلومات».

«أرأيت سبب صعوبة الأمور بالنسبة لي؟». ظن روبين أن جريفيين يحاول التقليل من شأن بعض المخاوف المعقولة، فأردف: «ولا أعرف أي شيء عنك أيضاً، قد تكون كاذباً أو قد تحاول إيقاعي في فخ...».

«لو كان هذا صحيحاً، لقبض عليك. ومن ثم، هذا مُستبعد. فيمَ تظننا نكذب؟».

أجاب روبين: «لعلكم لا تستخدمون الفضة لمساعدة الناس على الإطلاق، أو قد تكون جمعية هرمس خدعة كبرى، أو قد تكونون تعيدون بيع ما تسرقونه كي تصبحوا أثرياء...».

«هل أبدو كشخص ثري؟».



نظر روبين إلى جسد جريفين النحيل الذي يعاني سوء التغذية، وسترته السوداء البالية، وشعره الأشعث، ومن ثم كان يجب أن يعترف بأن جمعية هرمس لا تبدو كمشروع هادف للربح الشخصي. ربما كان جريفين يستخدم الفضة المسروقة لأغراض أخرى غير معلومة، لكن لم يبدو أن الربح الشخصي أحدها.

قال جريفين: «أعلم أن تلقيك هذا دفعة واحدة كان كثيرًا عليك. لكن، عليك ببساطة أن تثق بي، فلا يوجد سبيل آخر».

هز روبين رأسه وقال: «أريد هذا. أعني... أنا فقط... هذا كثير جدًا. لم تمر مدة طويلة على وصولي هنا، وقد رأيت بابل للمرة الأولى، ولا أعرف المكان ولا حتى أنت على نحو يجعل لدي أدنى فكرة عما يحدث...».

سأل جريفين: «لماذا ستفعلها إذن؟».

«أنا... ماذا؟».

فحدجه جريفين بنظرة ارتياب وقال: «لقد ساعدتنا الليلة الماضية دون أن تسأل، بل إنك لم تتردد، فلماذا؟».

قال روبين بصدق: «لا أدري».

كان قد طرح هذا السؤال على نفسه آلاف المرات. لماذا نشط القالب؟ لم يعز ذلك فحسب إلى كون الموقف بأكمله شديد الشبه بالأحلام إذ كان الليل قد انتصف، علاوة على ضوء القمر، ما أنساه القواعد والعواقب، أو لرؤية شبيهه التي جعلته يشك في الواقع ذاته، بل لعله شعر بشيء قسري داخلي لم يستطع تفسيره، فقال: «لقد بدا التصرف الصواب فحسب».

«ماذا؟ ألم تلاحظ أننا عصابة لصوص؟».

أجاب روبين: «بلى، عرفت أنكم لصوص. كنت فحسب... لم أظنكم تفعلون شيئًا سيئًا».

قال جريفين: «أنت بفطرتك في ذلك. ثق بي. ثق بأننا نفعل الصواب».



فسأله روبين: «وما الصواب في رأيك؟ فيم كل هذا؟».

ابتسم جريفين. كانت ابتسامة غريبة متعطرة أشبه بقناع المتعة غير المنعكسة في عينيه. «صرت تطرح الأسئلة الصحيحة».

كانا قد دارا عاندين إلى بانبوري رود. لاحت حدائق الجامعة الغناء أمامهم، وكان روبين يأمل أن يتجها جنوباً نحو باركس رود، إذ كان الوقت قد تأخر وقد اشتدت برودة الليل. لكن جريفين اتجه بهما شمالاً متوغلاً إلى وسط المدينة.

«هل تعرف فيم تُستخدم معظم القوالب في هذا البلد؟».

ألقي روبين تخميناً عشوائياً وقال: «ممارسات طبية؟».

«ها! لطيفاً! كلا، بل تُستعمل في تزيين حجرات الصالون. هذا صحيح، فالمنبهات التي يُشبه صوتها الديوك الحقيقية، والمصابيح التي تعتم وتضيء بالنداء الصوتي، والستائر التي يتغير لونها على مدار اليوم، وما شابه ذلك، فهي ممتعة ولأن الطبقة العليا في بريطانيا يمكنها تحمل نفقات هذه الأغراض، يحصل أغنياء بريطانيا على ما يريدون».

قال روبين: «حسنًا، لكن بابل تبيع القوالب لتلبية مطالب الجماهير...».

فقاطعه جريفين: «أتريد أن تعرف ثاني وثالث أكبر مصادر للدخل في بابل؟».

«أهو القسم القانوني؟».

«بل العسكري، على مستوى الدولة والمستوى الخاص. وكذلك تجارة الرقيق. أما القسم القانوني فلا يُدر إلا بنسب بالمقارنة».

«هذا... هذا مستحيل».



«كلا، فهذه هي الطريقة التي يسير بها العمل. دعني أرسم لك الصورة يا أخي. لعلك لاحظت أن لندن تقع في قلب إمبراطورية مترامية الأطراف لا تنفك تنمو، وتعد بابل أهم مقومات هذا النمو. تجمع بابل اللغات الأجنبية والمواهب الأجنبية بالطريقة نفسها التي تكتنز بها الفضة وتستخدمها في إنتاج سحر الترجمة الذي يفيد إنجلترا فحسب. وتركز الغالبية العظمى من قوالب الفضة المستخدمة في العالم في لندن.

ويعتمد أحدث وأقوى القوالب المستخدمة على اللغات الصينية، والسنسكريتية، والعربية في عملها، لكنك ستجد أقل من ألف قالب في الدول التي يُحدث فيها بتلك اللغات على نطاق واسع، وبلي ذلك في بيوت الأثرياء وأصحاب النفوذ فحسب، وهذا خطأ، بل هو استغلال وظلم بَيِّن».

كان جريفيين يختم كل جملة بيده المفتوحة، وكأنه قائد أوركسترا يشدد مرارًا وتكرارًا على النعمة عينها، ما كان يجعله يبدو كأنه يصر على وجهة نظره، فتابع: «لكن كيف يحدث هذا؟ كيف تستفيد إنجلترا من كل القوة المأخوذة من اللغات الأجنبية؟ ليست هذه مصادفة، بل استغلال متعمد للثقافة الأجنبية والموارد الأجنبية. يحب الأساتذة التظاهر بأن البرج ملاذ للمعرفة الصرفة، وأنه مُترفع عن مشاغل المشروعات والتجارة، لكن الأمر ليس هكذا، فهو مرتبط ارتباطًا وثيقًا بمشروعات الاستعمار، بل هو مشروع الاستعمار. سل نفسك لماذا لا يترجم قسم الأدب الأعمال إلى الإنجليزية فحسب، وليس العكس، أو فيم يُرسل المترجمون الفوريون إلى الخارج. كل ما يتم بداخل بابل مسخر لخدمة الإمبراطورية. فكر في السير هوراس ولسن، الذي يُعد أول شخص يحصل على منصب أكاديمي ممول في اللغة السنسكريتية في تاريخ جامعة أوكسفورد، ويقضي نصف وقته في عقد دروس خصوصية لأعضاء البعثات الدينية.

يهدف كل هذا لجمع الفضة. نحن نمتلك كل هذه الفضة لأننا نتملق الدول الأخرى، ونستغلها، ونهددها كي تعقد اتفاقيات تجارية تجعل المال في حالة تدفق مستمر إلى الداخل، كما ننفذ هذه الاتفاقيات التجارية بقوالب الفضة نفسها، المنقوش عليها عمل بابل، والتي تجعل سفننا أسرع، وجنودنا أقوى،



ومدافعنا أشد فتكًا. إنها حلقة مفرغة من الربح، وما لم تكسرها قوة خارجية، فستستحوذ بريطانيا على ثروة العالم كلها عاجلاً أو آجلاً.

نمثل نحن هرمس؛ هذه القوة الخارجية، إذ نهزّب الفضة للناس، والمجتمعات، والحركات التي تستحقها. كما ندعم ثورات العبيد، وحركات المقاومة، ونذيب قوالب الفضة المصنوعة لمناشف الدانتيل ونستخدمها في علاج الأمراض». وهنا أبطأ جريفيين واستدار للنظر إلى عيني روبين وقال: «هذا هو الهدف النهائي».

كان يجب على روبين أن يعترف بأن هذه نظرية شديدة القوة عن العالم. لكنها بدت تدين كل شيء يعتز به، فقال: «أن... أنا أفهم».

«فيم التردد، إذًا؟».

فيم التردد بالفعل؟ حاول روبين تهدئة ارتبائه والعثور على سبب للرزانة التي لم تصل إلى حد الخوف، لكن هذا ما كان: إنه الخوف من النتائج، والخوف من تلاشي الوهم الرائع لأوكسفورد التي استطاع الالتحاق بها؛ تلك التي شوّها روبين قبل أن يستطيع الاستمتاع بها على نحو ملائم.

فقال: «كان الأمر مفاجئاً فحسب، وقد قابلتك للتو، وهناك أمور كثيرة لا أعرفها».

رد جريفيين: «هذه هي سمات الجمعيات السرية، إذ يسهل إضفاء الطابع الخيالي عليها. تعتقد أن الأمر عملية تودد طويلة، وأنه سيتم تعريفك وإطلاعك على عالم جديد بكل ما فيه من آليات وشخصيات مؤثرة. لو كوّنت انطباعاتك الوحيد على الجمعيات السرية من خلال الروايات وقصص الرعب الشعبية الرخيصة، فلعلك تتوقع شعائر، وكلمات مرور، واجتماعات سرية في مخازن مهجورة.

لكن الأمور لا تعمل بهذا الأسلوب يا أخي. ليست هذه قصة رعب شعبية رخيصة، فالحياة الواقعية فوضوية، ومخيفة، ومربكة». وهنا لانث نبرة جريفيين وأردف: «يجب أن تفهم أن ما أطلب منك عمله لشديد الخطورة، إذ



يموت الناس في سبيل هذه القوالب. لقد رأيت أصدقاء يموتون في سبيل هذه القوالب. تريد بابل أن تسحقنا، ولا تسأل عما يحدث لأعضاء هرمس الذين يُلقى القبض عليهم. لقد نجونا لأننا لا نرتكز في مكان، كما لا نحفظ كل معلوماتنا في مكان واحد؛ لذا، لا يسعني أن أطلب منك التمثل في جمع المعلومات، بل سأطلب منك أن تخاطر بمبادئك».

ولأول مرة، تبين روبين أن جريفين لم يكن لا بالثقة ولا بالقوة اللتين أوحى بهما حديثه السريع. فقد وقف ويداه محشورتان في جيبه، وكتفاه مثنيتان ومرتجان بفعل رياح الخريف الباردة. كان من الواضح أنه عصبي. كان يرتجف ويتململ. وكلما أنهى جملة، كان ينظر حوله. صحيح أن روبين كان مرتبكا، ومُكدرا، لكن جريفين كان مدعورا.

قال جريفين بالحاح: «يجب أن يكون الأمر هكذا، أقل كم من المعلومات وقرارات سريعة وحاسمة. أود أن أريك عالمي الخاص. أؤكد لك أن الشعور بالوحدة مؤلم، لكن الحقيقة هي أنك أحد طلاب بابل الذي عرفته من أقل من يوم. وقد يأتي وقت أثق بك لتعريفك بكل شيء، لكن هذا لن يتحقق ما لم تثبت جدارتك، وحين لا يكون أمامي أي خيارات أخرى. لقد أخبرتك بما نفعله وما نحتاج إليه منك، فهلا انضممت إلينا؟».

أدرك روبين أن اللقاء يوشك على الانتهاء. كان يُطلب منه أن يتخذ قرارا حاسما، ولو قال لا، لاختفى جريفين من أوكسفورد التي عرفها، ولتلاشى في الظلال على نحو يجعل روبين يتساءل ما إذا كان قد تخيل اللقاء برمته. «أريد ذلك، بل أريده حقاً، لكنني ما زلت غير... أرجوك، أحتاج إلى وقت فحسب».

كان يعرف أن هذا سيصيب جريفين بالإحباط. لكن روبين كان مدعورا، إذ شعر بأنه اقتيد إلى حافة الهاوية ثم طلب منه القفز دون ضمانات، خالجه شعوره نفسه منذ سبع سنوات حين وضع الأستاذ لوفيل عقداً أمامه وطلب منه التوقيع على هلاكه. ففي تلك الأثناء، لم يكن لديه شيء، ومن ثم، لم يكن



لديه ما يفقده. أما الآن، فقد صار لديه كل شيء؛ الطعام، والملبس، والمأوى، ولم يكن هناك ضمان للبقاء على قيد الحياة على الجانب الآخر.

قال جريفيين: «سأعطيك مهلة خمسة أيام». بدا غاضبًا، لكنه لم يلق عليه اللوم، بل قال: «لديك خمسة أيام. هناك شجرة بتولا منعزلة في حدائق كلية مرتون، ستعرفها حين تراها. انقش علامة مميزة في جذعها يوم السبت لو قبلت ولا تكثرث لو رفضت».

«خمسـة أيام فحسب؟».

«إذا لم تكن مُلَمًّا بتفاصيل هذا المكان بحلول ذلك الموعد، أيها الفتى، فسيكون من المستحيل التواصل معك بشكل فعال». وهنا ربت جريفيين كتفه وقال: «هل تعرف الطريق إلى البيت؟».

أجاب روبين: «أنا... كلا في الواقع». لم يكن روبين منتبهاً، ولم يكن يعلم أين كانا. كانت الأبنية قد اختفت في الخلفية، وكانا محاطين بالخضرة في تلك الأثناء.

قال جريفيين: «نحن في سامرتاون. إنها جميلة، لكنها مملة بعض الشيء. تقع وودستوك في نهاية هذا المـرج. الزم يسارك واتجه مباشرة إلى الجنوب حتى تبدأ الأشياء تبدو مألوفة. سنفترق هنا. خمسـة أيام». ثم استدار جريفيين ليمضي.

سأل روبين: «انتظر. كيف يمكنني الوصول إليك؟». وإذ أوشك جريفيين على المغادرة، كان متردداً في الفراق، إذ باغته الخوف من أنه لو ترك جريفيين يبتعد عن مرمى بصره، لاختفى الأخير إلى الأبد، ولاتضح أن هذا كله مجرد حلم.

قال جريفيين: «قلت لك لن تفعل. لو وجدت علامة مميزة على الشجرة، سأتي إليك، فسيعطيني هذا ضماناً أنك لم تُبلغ عني، أليس كذلك؟».

«فماذا يُفترض أن أفعل في الوقت الحالي؟».



«ماذا تعني؟ ما زلت طالبًا في بابل، فتصرف كطالب. اذهب إلى قاعة
الدرس، واذهب لاحتساء الشراب، وادخل في مشاحنات. لكنك أرق من أن
تفعل! لا تدخل في مشاحنات».

«أنا... حسنًا، لا بأس».

«هل لديك أي سؤال آخر؟».

أي سؤال آخر؟ أراد روبين أن يضحك، إذ كانت لديه آلاف الأسئلة والتي
لم يكن جريفيين ليجيب عن أي منها. فاعتنم فرصة طرح سؤال واحد: «هل
يعلم بأمرك؟».

«من؟».

«أ... الأستاذ لوفيل».

«آه». في تلك اللحظة لم يجب روبين بسرعة. في تلك اللحظة توقف قبل
أن يجيب ثم قال: «لست متأكدًا».

فوجئ روبين بهذا وقال: «ألا تعرف؟».

قال جريفيين بهدوء: «لقد تركت بابل بعد السنة الثالثة. لقد كنت عضوًا في
هرمس منذ بداية الدراسة، لكنني كنت بالداخل مثلك. لكن شيئًا حدث، ولم
يعد الأمر آمنًا بعدها، فلذت بالفرار. ومنذ ذلك الوقت، لم أنفك...». وهنا
تراجع، ثم تنحنح وأردف: «لكن هذا خارج الموضوع. كل ما عليك معرفته
هو عدم النطق باسمي في أي مناسبة».

«حسنًا، هذا أمر مفروغ منه».

استدار جريفيين ليمضي وانتظر، ثم تلفت حوله وقال: «شيء آخر. أين
تسكن؟».

«هم؟ يونيف... جميعنا في الكلية الجامعية».

«أعلم ذلك، في أي غرفة؟».



احمرّ وجه روبين خجلاً وقال: «أوه! رقم أربع، ماجباي لين، غرفة رقم سبعة، في المنزل ذي السقف الأخضر. أنا في الركن ذي النوافذ المائلة المقابلة لدار عبادة أوربيل».

«أعرفها». كانت الشمس قد غربت منذ وقت طويل، ولم يعد روبين يرى وجه جريفين، إذ كان شبه مخبأ بالظل. أردف جريفين: «لقد كانت غرفتي».



الفصل السادس



قالت أليس: «السؤال هو ما إذا كنت تستطيع جعل الكلمات تعني أشياء مختلفة».

فقال همبتي دامبتي: «السؤال هو من سيكسب».

لويس كارول، عبر المرأة.

كان الأستاذ بلاي فير يُلقى محاضراته التقديمية عن نظرية الترجمة في صباح كل يوم ثلاثاء في الدور الخامس من البرج، ويستهلها حتى قبل أن يجلس الطلاب ويملاً قاعة الدرس الضيقة بصوته المرتفع المملوء بالحماس.

«لقد وصلتم إلى مرحلة تتمتعون فيها بدراية جيدة بثلاث لغات على الأقل، ما يُعد إنجازاً في حد ذاته. لكنني سوف أؤكد عليكم الصعوبة الفريدة للترجمة. فكروا في مدى صعوبة مجرد إلقاء كلمة التحية هاللو. تبدو الكلمة شديدة السهولة! نقول بونجور، وتشاو، وهالو، وما إلى ذلك. ولكن حين نقول إننا نترجم من الإيطالية إلى الإنجليزية، نجد أن تشاو تُقال إما لتحية الشخص وإما لتوديعه، فهي ليست مخصصة لموقف ما، إذ تشير إلى آداب السلوك أثناء اللقاء. اشتُقت الكلمة من الكلمة الفينيسية إستشاو فوسترو وهي مقاربة في المعنى إلى «عبدك المطيع».

لكنني خرجت عن الموضوع، فالمسألة هي أنه حين نترجم تشاو إلى الإنجليزية، ذلك إن كنا نترجم مشهداً يفترق فيه الناس، يجب أن نفترض أن تشاو تعني وداعاً. قد يتضح هذا من السياق في بعض الأحيان، لكنه لا يتضح في أحيان أخرى؛ لذا، يجب أن نضيف كلمات أخرى على ترجمتنا، ومن ثم، فالأمور معقدة بالفعل دون أن نبتعد عن هاللو.



ويتمثل أول درس يجب على المترجم الأريب استيعابه في عدم وجود توافق مباشر بين الكلمات أو حتى المفاهيم من لغة إلى أخرى. وقد ارتكب عالم اللغة السويسري يوهان براينتجر خطأ جسيماً حين ادعى أن اللغات ليست إلا «مجموعات من الكلمات المتساوية والألفاظ القابلة للتبادل والتي تتوافق كلياً بعضها مع بعض في المعنى»، فليست اللغات كالرياضيات، بل إن الرياضيات تختلف وفقاً للغات*. سنناقش هذا الأمر مرة أخرى».

وجد روبين نفسه يتفرس وجه بلاي فير وهو يتكلم. لم يكن متأكداً مما كان يبحث عنه. لعله كان يبحث عن بعض أمارات الشر التي رسمها جريفين بقسوته، وأنانيته، ووحشيته. لكن الأستاذ بلاي فير بدا باحثاً بشوشاً مشرقاً ومغرمًا بجمال الكلمات، بل إن بزوغ ضوء النهار في قاعة الدرس جعل مؤامرات أخيه الكبيرة أموراً تافهة.

وتابع الأستاذ بلاي فير: «لا تُعد اللغات مسميات لمجموعة من المفاهيم الكونية. فلو كان الأمر هكذا، ما كانت الترجمة مهنة تتطلب مهارة عالية، ولجلسنا في قاعة درس مملوءة بالطلاب الجدد المتفانين الممسكين بالقواميس، ولأكملنا أعمال بوذا المرصوفة على الأرفف في وقت وجيز. لكن، يجب أن نتعلم كيف نراوح بين الثنائية القديمة التي أوضحها شيشرون وهيرونيوموس: فيربوم إي فيربو وكذلك سينسوم إي سينسو. هل يستطيع أحد...».

فأجابت ليتي فوراً: «كلمة بكلمة ومعنى مقابل معنى».

* هذا صحيح، فليست الرياضيات بمنأى عن الثقافة. فعلى سبيل المثال: نجد أنه ليس كل اللغات تستخدم رقم عشرة في الأنظمة الحسابية. وفي الهندسة، افترض إقليدس في نظريته الهندسية مفهوماً للفراغ لا يشاركه فيه الجميع. ويتضمن أعظم التحولات الفكرية في التاريخ التحويل من الأعداد الرومانية إلى الأعداد العربية الأكثر رقياً ذات التدوين العشري ومفهوم الصفر يساوي لا شيء التي قد أتاحت أشكالاً جديدة من العمليات الحسابية العقلية. وقد تلاشت العادات القديمة بصعوبة. ففي عام 1299، حظر صرّافو فلورنسا على التجار استخدام الصفر والأعداد العربية على أنه: «يجب أن يكتبوا بوضوح وباستخدام الحروف».



قال الأستاذ بلاي فير: «جيد. هذه هي الأزمة. هل نعتبر الكلمات وحدات الترجمة أم نُؤلي روح النص الكلية أولوية على دقة الكلمات الفردية؟».

ردت ليتي: «لا أفهم. أوجب ألا تُقدم الترجمة الدقيقة للكلمات الفردية نصًا مساويًا في الدقة؟».

أجاب الأستاذ بلاي فير: «ذلك ممكن، حال تساوي علاقة الكلمات بعضها مع بعض في جميع اللغات. لكن الأمر ليس هكذا. ففي اللغة الألمانية، تعني كلا من شليخت وشليم «سيئ»، ولكن كيف نعرف متى نستخدم هذه أو تلك؟ متى نستخدم فلوف أو ريفيير في اللغة الفرنسية؟ كيف نترجم كلمة إسبري الفرنسية إلى الإنجليزية؟ يجب ألا نترجم كل كلمة بمفردها، بل علينا بالأحرى أن نستحضر المعنى المتوافق مع سياق النص ككل؛ لكن كيف يتحقق هذا مع اختلاف اللغات؟ اعلمي أن هذه الاختلافات ليست أمورًا تافهة، فقد كتب إيرازموس بحثًا كاملاً عن سبب ترجمته كلمة لوغوس اليونانية إلى سيرمو اللاتينية. إن ترجمة كل كلمة على حدة لهي غير كُفء».

راح رامي يُنشد: «فلتفرض بنبل وكبرياء الطريقات المُذلات الممثلة في تتبع السطور والكلمات».

فأكمل الأستاذ بلاي فير: «فما هي إلا نتائج مُجهدة لعقول مستعبدة، فلم يلدها الشعر، بل العذابات. جون دنهام. أحسنت يا سيد ميرزا، كما ترون إذًا، فال مترجمون لا يبعثون برسالة بقدر ما يعيدون كتابة الأصل، ومن هنا تنبع المشقة، ذلك أن إعادة الكتابة في حد ذاتها كتابة، وتُعكس الكتابة أفكار صاحبها وتحيزاته دائمًا. وعلى أية حال، تعني كلمة ترانسلايتيو اللاتينية «الاجتياز». تتضمن الترجمة بعدًا مكانيًا، أي الانتقال الحرفي للنصوص عبر الأرض التي أخضعت، تمامًا كنقل التوابل من أرض غريبة. تتخذ الكلمات معنى مختلفًا حين ترتحل من قصور روما إلى صالونات بريطانيا الحديثة.

لم نجتز المرحلة اللغوية بعد، فلو كانت الترجمة هي العثور على الأفكار الصحيحة، أي الأفكار العامة الصحيحة، لتمكنا من الناحية النظرية أن



نوضح المعنى المُراد، أليس كذلك؟ لكن يوجد ما يعوقنا، ألا وهو البنية اللغوية، والقواعد النحوية، وعلم الصرف، والتهجئة وكلها تُكوّن هيكل اللغة. فكروا في قصيدة «آين فيشتينباوم» لـ هنريش هاين، فهي قصيرة ورسالتها سهلة الفهم، إذ تتحدث عن اشتياق شجرة أرز إلى نخلة، ويرمز هذا لرغبة الرجل في المرأة. لكن ترجمتها إلى الإنجليزية كانت مُجبرة للغاية، فلا وجود للنوع في الإنجليزية مثل الألمانية. ومن ثم، لم نجد طريقة لتوصيل التناقض الثنائي بين آين فيشتينباوم المذكورة وآينر بالمي المؤنثة. أُرأيتم؟ لذا يجب أن ننتقل من افتراض حتمية التشوه. السؤال هو كيف نشوه بتدبير؟».

وهنا نقر الكتاب الموضوع على مكتبه وقال: «ألم تنتهوا من تايتلر؟».

فأومأوا، إذ كانوا قد كُلّفوا بقراءة الفصل التمهيدي من «بحث حول مبادئ الترجمة» لـ اللورد ألكسندر فريزر تايتلر وودهاوسلي في الليلة الماضية. «لعلكم إذًا قرأتم أن تايتلر يوصي بثلاثة مبادئ أساسية، ألا وهي – نعم يا أنسة ديجراف؟».

أجابت فيكتوار: «أولاً، تُنقل الترجمة فكرة كاملة ودقيقة عن الأصل، وثانيًا، تعكس الترجمة أسلوب وطريقة كتابة النص الأصلي، وثالثًا، يجب أن تتمتع الترجمة بسلسلة النص الأصلي نفسه».

كانت تتحدث بدقة وثقة جعلتا روبين يظنها تقرأ من النص، بل ازداد إعجابًا حين نظر وراءه ولم يجدها تنتظر في شيء عدا الفراغ، كما كان رامي يتمتع بمهارة التذكر عينها، فبدأ روبين يشعر ببعض الرهبة من زميله.

قال الأستاذ بلاي فير: «جيد جدًا. يبدو هذا في غاية البساطة، لكن ماذا نعني بعبارة «أسلوب وطريقة» الأصل؟ ما معنى أن نقرأ النص بسلسلة؟ ما الجمهور المتلقي الذي نفكر فيه حين نطرح هذه الأفكار؟ سنتناول هذه الأسئلة في الفصل الدراسي الحالي، ويا لها من أسئلة رائعة!». وهنا ضم يديه وقال: «اسمحوا لي بالانخراط في الدراما مجددًا بمناقشة الاسم الذي



نحمله، بابل. نعم، يا أعزائي الطلبة، لا أستطيع أن أبتعد عن رومانسية هذه المؤسسة. اسمحو لي بالاستمرار».

لم تتم نبرته عن أي ندم، إذ كان الأستاذ بلاي فير مغرمًا بالروحانية الدرامية، فلا بد أنه تدرب على مثل هذه المونولوجات وأتقنها عبر سنوات التدريس. لكن أحدًا لم يتبرم، إذ كانوا يحبونها أيضًا.

«لطالما طُرحت الحجة أن طرد الإنسان الأول من الجنة لم يكن أعظم المآسي المذكورة في التاريخ، بل بالأحرى سقوط برج بابل، ذلك أن سقوط آدم وحواء في الخطيئة لم يمنعهما من التحدث وفهم لغة كل منهما الآخر. لكن، اغتر الإنسان وقرر بناء برج يصله بالسماء، فبلبل الله الألسنة، وشتت البشر في جميع بقاع الأرض.

فلم تكن وحدة البشر هي ما ضاع في بابل فحسب، بل ضاعت اللغة الأصلية كذلك، ذلك الشيء الفطري البدائي المفهوم على نحو مثالي وغير المنتقص شكلاً ولا موضوعاً. يدعو الباحثون تلك اللغة لغة آدم، ويعتقد البعض أنها عبرية، ويظن البعض الآخر أنها لغة قديمة حقيقية ضاعت بمرور الزمن، وترى فئة ثالثة أنها لغة جديدة اصطناعية يجب أن نخترعها. يظن البعض أن الفرنسية تؤدي الغرض، ويرى آخرون أن الإنجليزية هي التي تؤديه أو قد تؤديه حال انتهائها من السطو والتحول».

قال رامى: «أوه! كلا، هذا سهل. إنها السريانية».

«هذا مضحك جدًّا يا سيد ميرزا». لم يعرف روبين ما إذا كان رامى يمزح أم لا، لكن لم يعلق أي شخص آخر. فتابع الأستاذ بلاي فير: «بالنسبة لي، فأنا لا أعبأ بما كانت لغة آدم، فمن الواضح أننا لن نستطيع الوصول إليها. لن نتحدث لغة الإنسان الأول، لكن لو جمعنا لغات العالم كافة تحت هذا السقف، وذلك بتجميع التعبيرات البشرية كافة أو ما يقرب من ذلك قدر المستطاع، لتمكّنًا من المحاولة. لن نلمس السماء من بشرتنا المحدودة، لكن يمكننا وضع حد لحيرتنا. فمن خلال صقل فنون الترجمة، نستطيع استعادة



ما فقدته البشرية في بابل». ثم تنهَّد الأستاذ بلاي فير، إذ كان متأثراً بأدائه! بل ظن روبين أنه رأى دموغاً حقيقية تنهمر من أطراف عينيه!

فضغط الأستاذ بيده على صدره وقال: «إنه سحر! فما نفعله هنا سحر! لن يبدو هكذا دائماً، لكن حين نؤدي تدريب هذه الليلة، سيبدو الأمر أشبه بعمل روتيني منه بمطاردة شيء زائل. لكن إياكم ونسيان جرأة ما ستقدمون على عمله. لا تنسوا أنكم تحاولون تحدي لعنة نزلت من السماء».

فرفع روبين يده وسأل: «هل تقصد أن هدفنا هو المقاربة بين البشر كذلك؟».

فمد الأستاذ بلاي فير رأسه وقال: «ماذا تعني بهذا؟».

«أنا فحسب...». وهنا تراجع روبين، إذ بدا ما يقوله سخيلاً، بل أشبه بخيال الأطفال منه بسؤال باحث جاد. تجهمت ليتي وفيكتوار في وجهه، بل إن رامي نفسه تجهم. حاول روبين مجدداً، إذ كان يعرف السؤال الذي يقصده. بيد أنه لم يستطع التفكير في أسلوب أرقى أو أكثر ذكاءً في صياغته، فقال: «حسناً، بما أن التاريخ يقول إن الناس قد تفرقوا بأمر إلهي، فسؤالي هو ما إذا كانت الترجمة تستهدف تقريب البشر بعضهم من بعض مجدداً. فلو ترجمنا كي... لا أدري، هل سنستعيد هذا التوافق بين أمم الأرض؟».

بدا الأستاذ بلاي فير متحيراً من هذا، لكن سرعان ما استجمع إشراقة ملامحه، فأجاب: «حسناً، بالطبع، فهذا هو مشروع الإمبراطورية، ولهذا السبب نترجم حسب رغبة الملك».

كانوا يقضون أيام الاثنين والخميس والجمعة في دروس اللغة والتي بدت، عقب محاضرة الأستاذ بلاي فير، كأرضية صلبة مطمئنة.

كانوا مُطالِبين بتلقي دروس اللاتينية ثلاث مرات في الأسبوع، بغض النظر عن أصولهم الإقليمية. (في هذه المرحلة، كان بإمكان أي شخص غير متخصص في الآداب الكلاسيكية ألا يدرس اليونانية). وكانت سيدة تُدعى



الأستاذة مارجرين كرافت تُدرس اللاتينية. نادرًا ما كانت تبتسم، وكانت تلقي محاضراتها المحفوظة عن ظهر قلب من دون أحاسيس. ورغم أنها كانت تقلب ملاحظتها أثناء الكلام، لم تكن تنظر فيها، وكأنها قد حفظت مكانها الصفحة. لم تسألهم عن أسمائهم، بل كانت تشير إليهم بأصبعها وتقول ببرود: «يا هذا». بدت في البداية كمن يفتقر لروح الدعابة، لكن حين قرأ رامي إحدى فقرات أوفيد الشديدة الصرامة: فوجييات إنيم، «إذ كانت تهرب» بعد توسل يوف إلى إيو ألا تهرب- انفجرت في نوبة من الضحك البريء جعلتها تبدو أصغر بعقدين من الزمان، بل مثل طالبة تجلس بينهم. ثم مرت تلك اللحظة وعاد قناعها إلى مأواه.

لم ترق لروبين؛ كان لصوتها أثناء إلقاء المحاضرات نبرة غريبة وغير طبيعية بوقفات غير متوقعة، ما جعل متابعة حجتها أمرًا صعبًا وحول محاضرتها التي تستغرق ساعتين إلى أبدية. غير أن ليتي بدت منسجمة. كانت تحق إلى الأستاذة كرافت بإعجاب بالغ. وحين خرج الجميع بعد انتهاء الدرس، وقف روبين بجوار الباب منتظرًا إياها وهي تجمع أغراضها كي يذهبوا إلى المقصف معًا، لكنها اتجهت إلى مكتب الأستاذة كرافت.

«يا أستاذة، كنت أود التحدث معكِ حول...».

فنهضت الأستاذة كرافت وقالت: «انتهى الدرس يا آنسة برايس».

«أعلم. لكنني أردت أن أسأل، إذ كان لديك فائض من الوقت، أعني باعتبارك امرأة في أوكسفورد، وليست هناك سيدات كثيرات، كنت أرجو أن أسمع نصيحتك فيما يتعلق بـ...».

حينئذٍ، شعر روبين بأنه يجب أن يكف عن الاستماع بسبب شعور غامض بالشهامة، بيد أن نبرة الأستاذة كرافت الباردة ملأت الهواء قبل أن يصل إلى السلم.

«ليس في بابل أي تفرقة في حق النساء، لكن الأمر يتمثل ببساطة باهتمام القليلات منًا باللغات».



«لكنك الأستاذة الوحيدة في بابل، وجميعنا - أعني، جميع الفتيات هنا بمن فيهن أنا - نرى أنكِ جديرة بالإعجاب، ولذا أردت...».

«أن تعرفي كيف وصلت إلى هذا؟ إنه العمل الجاد والذكاء الفطري، تعرفين هذا بالفعل».

«مع ذلك، يختلف الأمر بالنسبة للنساء، ولعلكِ اختبرتِ طبعاً...».

«حين تحضرني موضوعات ذات صلة، سأثيرها في قاعة الدرس يا أنسة برايس. لكن المحاضرة انتهت، وها أنتِ تتعدين على وقتي».

أسرع روبين نحو الركن وهبط الدرج الحلزوني قبل أن تراه ليتي. وحين جلست لتناول الطعام في المقصف، رأى احمراراً بسيطاً عند أطراف عينيها. لكنه تظاهر بعدم الملاحظة، ولو كان رامي وفيكتوار قد لاحظا، فلم يقولوا شيئاً.

وفي ظهيرة يوم الأربعاء، تلقى روبين درس اللغة الصينية بمفرده. كان شبه متوقع أن يجد الأستاذ لوفيل في قاعة الدرس، لكن اتضح أن الأستاذ آناند شاكرافارتي هو معلمه، وقد كان رجلاً ودوداً متواضعاً يتحدث الإنجليزية بلكنة لندنية مثالية جعلته أشبه بمن نشأ في كنزنجتون.

* * *

كان درس اللغة الصينية ممارسة مختلفة عن درس اللاتينية. لم يُحاضر الأستاذ شاكرافارتي روبين ولم يجعله يتلو أي شيء، بل حول الدرس إلى محادثة. كان يطرح الأسئلة، وكان روبين يبذل قصارى جهده ليجيب، بل وراح الاثنان يحاولان شرح ما كان يقوله.

بدأ الأستاذ شاكرافارتي بأسئلة شديدة البساطة، ما جعل روبين لا يقدر أهمية الإجابة عنها، حتى قام بتحليل آثارها وأدرك أنها أبعد ما تكون عن



فهمه. ما الكلمة؟ ما أصغر مكونات المعنى، وهل تختلف الكلمة عن الحرف؟ كيف يختلف التحدث بالصينية عن الكتابة باللغة عيناها؟

كان تدريباً غريباً في تحليل وتفكيك لغة ظن أنه يعرفها ككف يده، وكذلك أن يتعلم كيف يصنف الكلمات بالرموز الفكرية أو الصور التوضيحية، وحفظ قاموس لغوي يحتوي على كلمات جديدة، بأكمله، كان معظمه يتعلق بعلوم الصرف أو الإملاء. كان يشبه التحليل العميق للأفكار وتحليل الأشياء لمعرفة طريقة عملها، وكان هذا وذاك يحيره ويربكه.

ثم أن أوان الأسئلة الأصعب: أي الكلمات الصينية يمكن إرجاعها لصور معروفة وأيها لا؟ ولماذا يشير الحرف 女 لكلمة «امراة» ويُعد في الوقت عينه جذراً للكلمة «عبودية» وفي حرف كلمة «صالح»؟

قال روبين معترفاً: «لا أدري، لماذا؟ هل العبودية والصالح صفتان أنثويتان بحكم الفطرة؟».

هز الأستاذ شاكرافارتي كتفيه وأجاب: «ولا أنا أعرف، فما زلت أحاول الإجابة عن هذه الأسئلة مع ريتشارد، فنحن أبعد ما نكون عن إعداد نسخة مرضية من النحو الصيني. حين كنت أدرس اللغة الصينية، لم يكن لديّ مصادر صينية - إنجليزية جيدة، وكان عليّ أن أكتفي بما هو متاح من قاموس أبيل - ريموسو بعنوان «عناصر النحو الصيني» وكتاب «النحو الصيني» لـ فورمونت. أتخيل ذلك؟ ما زلت أربط بين الصينية والفرنسية بصعوبة شديدة. لكنني أظننا أحرزنا تقدماً اليوم».

ثم أدرك روبين حقيقة وضعه في المكان. لم يكن طالباً، بل زميل، يتحدث أصلي نادر لديه القدرة على توسيع نطاق بابل من المعرفة الحالية الضئيلة، أو لعله حقل فضة يُغنم بصوت جريفيين، لكنه راح يُبعد تلك الفكرة عن رأسه.

لكن الحقيقة هي أنه شعر بالحماس لإسهامه في علم النحو. مع ذلك، شعر بأنه لم يزل بحاجة للتعلم. كانوا يقضون النصف الثاني من الدرس في قراءة الأعمال الكلاسيكية الصينية التي كان روبين يُلهم نفسه بها في منزل لوفيل،



بيد أنه لم يتناولها بشكل منظم. كانت الأعمال الكلاسيكية الصينية بالنسبة لعامة الماندرين شبيهة باللاتينية بالنسبة للإنجليزية. كان الشخص يستطيع تخمين المعنى العام للجملة، لكن القواعد النحوية كانت صعبة الفهم ومستحيلة الاستيعاب دون ممارسة القراءة الجادة. أما وضع علامات الترقيم، فكان لعبة تخمينات. كانت الأسماء تصبح أفعالاً متى راق لها الأمر! وكان للحروف معانٍ كثيرة متناقضة، إذ كان لأي منها تفسير صحيح وممكن، فكان الحرف 篤، يعني «يُحد» وكذلك «كبير»!

وبعد ظهر ذلك اليوم، تطرق إلى «تشينج» - كتاب الأناشيد - والمكتوب في سياق خطابي شديد البعد عن الصين المعاصرة حتى إن قراء عهد هان كانوا ليعتبروه مكتوباً بلغة أجنبية.

وبعد مرور عشرين دقيقة على مناقشة حرف 不 بالصينية والذي كان يعني «لا» أو «ليس» في معظم السياقات، لكنه كان يعني في سياق معين كلمة مديح، وهو ما كان غير مواكب لأي شيء عرفه عن الكلمة، قال الأستاذ شاكرافارتي: «أقترح أن نتوقف هنا. أظننا يجب أن نترك هذا سؤالاً مفتوحاً».

فأجاب روبين بإحباط: «لكنني لا أفهم. كيف ندع أنفسنا بلا معرفة؟ ألا يمكننا طرح هذه الأسئلة على أي شخص؟ ألا يمكن أن نذهب في رحلة بحثية إلى بكين؟».

قال الأستاذ شاكرافارتي: «بلى، لكن هذا يجعل الأمور أصعب بعد أن سنّت أسرة تشنج قانوناً يقضي بمعاينة تدريس الأجانب اللغة الصينية بالإعدام». ثم ربت كتف روبين مردفاً: «سنكتفي بما لدينا، فأنت أفضل الحلول البديلة».

فسأله روبين: «ألا يوجد شخص آخر يتحدث الصينية هنا؟ هل أنا الطالب الوحيد؟».



فحده الأستاذ بنظرة غريبة. لم يكن مفترضاً أن يعرف روبين شيئاً عن جريفين. ولعل الأستاذ لوفيل قد جعل باقي أعضاء هيئة التدريس يقسمون على التكتّم، بل ومن المحتمل ألا يكون لجريفين وجود في السجلات الرسمية.

لكنه لم يستطع منع نفسه من الإلحاح، فقال: «سمعت بوجود طالب آخر، قد سبقني بعدة سنوات. كان من الساحل أيضاً».

رد الأستاذ شاكرافارتي وهو ينقر المكتب بتوتر: «أوه! نعم، أظن ذلك. كان فتى لطيفاً، لكنه لم يكن مجتهداً مثلك. اسمه جريفين هارلي».

«كان؟ ماذا حدث له؟»

أجاب الأستاذ: «حسناً، إنها قصة محزنة. لقد توفي قبل أن يصل للسنة الرابعة». وهنا حك الأستاذ شاكرافارتي صدغه وأردف: «لقد أصابه المرض في إحدى الرحلات البحثية عبر البحار ولم يعد إلى الوطن. هذا أمر دائم الحدوث».

«هل يحدث؟»

«نعم، فهناك دائماً... خطر ما متضمن في إطار المهنة. فكما تعلم هناك سفر كثير، ومن ثم، يُتوقع حدوث استنزاف للقوة العاملة».

فقال روبين: «لكني ما زلت غير مستوعب، فبالطبع يوجد عدد من الطلبة الصينيين الذين يودون الدراسة في إنجلترا».

راحت أصابع الأستاذ شاكرافارتي تدق الخشب على نحو أسرع، ورد: «حسناً، نعم. لكن، يجب أخذ مسألة الولاء القومي بعين الاعتبار، فليس من الجيد أن نعين باحثين قد يعودون لوطنهم الذي تحكمه أسرة تشنج في أي لحظة كما تعلم. كما أن ريتشارد يرى أن... حسناً. يتطلب هذا تربية معينة».

«مثل تربيتي؟»



«مثل تربيتك، وإلا، فإن ريتشارد يرى...» لاحظ روبين أن الأستاذ شاكرا فارتي كان يكثر من استخدام هذه الجملة، فتابع الأستاذ: «أن للصينيين ميولاً طبيعية، ما يعني أنه لا يرى أن الطلبة الصينيين سيتكيفون مع الحياة هنا».

من أصل حقير غير متحضر. «فهمت».

فقال الأستاذ شاكرا فارتي بسرعة: «لكن لست المقصود بهذا. لقد أحسنت تربيتك، فأنت شديد الاجتهاد، ولا أتوقع أن يمثل هذا مشكلة».

فابتلع روبين ريقه وقال وهو يشعر بغصة في حلقه: «نعم، لقد كنت محظوظاً للغاية».

في السبت الثاني لوصوله إلى أكسفورد، اتجه روبين شمالاً لحضور العشاء مع كفيه.

لم يكن مسكن الأستاذ لوفيل سوى مكان متواضع مقارنة بضيافته في هامبستيد. كان أصغر، ولم يكن به سوى واجهة وحديقة خلفية بدلاً من البستان الشاسع، لكنه كان أكثر مما يستطيع الأستاذ شراءه براتبه. كانت أشجار الكرز الأحمر الناضج تصطف بجوار محيط الباب الأمامي. مع ذلك، لم تكن نهاية فصل الخريف أوأنا لنضج الكرز. وكان روبين يشك أنه لو انحنى لفحص الحشائش، لوجد قوالب فضة في التربة.

وما إن دق الجرس حتى لاحت السيدة بايبر وقالت: «أيها الصبي العزيز! رباه! لقد صرت نحيفاً جداً...» ثم راحت تنفض أوراق الأشجار من فوق سترته وتلفه فاحصة بدقة هيكله النحيف.

فقال: «الطعام بشع». وهنا ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، إذ لم يكن يدري أنه يفنقدها بشدة، ثم أردف: «تماماً كما قلت، فقد تناولنا رنجة ملححة على العشاء أمس...»



فتنهدت وقالت: «لا».

«ولحم بارد...».

«كلا!».

«...وخبز بانئت».

«هذا غير إنساني. لا تقلق، فقد طبخت اليوم ما يعوضك عن هذا». فربت وجنتيه. «كيف تسيّر الأمور في الكلية؟ هل يروق ارتداء هذه الثياب السوداء الطويلة؟ هل عقدت أي صداقات؟».

كان روبين على وشك الإجابة، لكن الأستاذ لوفيل راح يهبط الدرج.

قال الأستاذ: «مرحباً يا روبين، تفضل بالدخول، خذي سترته يا سيدة بايبر...» فخلع روبين سترته وأعطاهما للسيدة بايبر التي راحت تفحص بقع الحبر على الأكمام باستياء، فسأله الأستاذ: «كيف يسير الفصل الدراسي؟».

أجاب روبين: «صعب كما حذرتني تماماً». شعر روبين بأنه صار أكبر سنًا وهو يتحدث بصوت أعمق. لقد ترك البيت قبل أسبوع فحسب، لكنه شعر بأنه كبير سنوات وأنه يستطيع التحدث كشاب، لا كصبي، فأردف: «إنه صعب لكن على نحو ممتع، فأنا أتعلم الكثير».

قال الأستاذ شاكرافارتي: «إنك قدمت إسهامات جيدة للنحو».

رد روبين: «لم تكن بالقدر الذي وددته، إذ توجد حروف في اللغة الصينية الكلاسيكية لا يمكنني تحديد وظيفتها. ونقضي نصف الوقت في التخمين كي نترجم».

«لم ينفك هذا الشعور ينتابني لعقود». وهنا أشار الأستاذ لوفيل لغرفة الطعام وقال: «هلا دخلنا؟».

أعاد الأمر لذاكرته جلساتهم في هامبستيد. كانت المنضدة الطويلة مرتبة على النحو نفسه الذي اعتاده روبين، وكان ليجلس في الطرف المقابل للأستاذ لوفيل، وكانت هناك لوحة على يمين روبين، لكنها كانت تصور نهر



التايمز، لا برود ستريت في أكسفورد. صَبَّت السيدة بايبر الشراب، وغمزت لروبين ثم عادت بسرعة إلى المطبخ.

رفع الأستاذ كأسه لروبين ثم شرب وقال: «هل يدْرَس جبروم لك النظرية وتدرّس مارجریت لك اللغة اللاتينية؟».

فأخذ روبين رشفة من الشراب وأجاب: «صحيح، تسير الأمور بشكل جيد إلى حدٍّ ما، رغم أن الأستاذة كرافت تلقي محاضراتها وكأنها لا تلاحظ ما إذا كانت في غرفة خالية، بينما يبدو الأستاذ بلاي فير كمن فاتته نداء للتمثيل على المسرح».

ضحك الأستاذ لوفيل، فابتسم روبين رغما عنه، إذ لم يكن باستطاعته إضحاك كفيله من قبل.

«هل ألقى عليكم خطبة الملك بسماتيك؟».

أجاب روبين: «نعم، هل حدث ذلك كله بالفعل؟».

قال الأستاذ لوفيل: «من يدري، لكن هيرودوت أخبرنا بهذا. ثمة قصة جيدة لهيرودوت عن بسماتيك أيضاً. أراد بسماتيك أن يحدد أي اللغات أساساً لجميع لغات الأرض، فأعطى أحد الرعاة طفلين رضيعيين وأمره ألا يجعلهم يسمعان أي حديث بشري. فلم يصدر عنهما سوى أصوات الرُضع لفترة من الزمن، وذات يوم، مد أحدهما يده الصغيرة للراعي وهتف: «بيكوس»، وهي تعني "خبز" أهل فريجيا. ومن ثم، انتهى بسماتيك إلى أن أهل فريجيا هم أقدم أهل الأرض، ولغتهم هي أول لغة. أليست قصة لطيفة؟».

قال روبين: «لا أظن أحداً يقبل بهذه الحجة».

«لا بحق السماء».

فسأل روبين: «لكن، أيمن أن ينجع هذا الأمر؟ أيمكننا أن نتعلم أي شيء ينطق به الرضع؟».



أجاب الأستاذ لوفيل: «ليس على حد علمي. المسألة هي أنه من المستحيل عزل الرضع عن بيئة ذات لغة لو أردنا أن ينشأوا كما ينبغي. قد يكون شراء طفل أمرًا مثيرًا للاهتمام، لكن، حسنًا، لا يمكن». وهنا أمال الأستاذ رأسه وقال: «مع ذلك، يعد التفكير في إمكانية وجود لغة أصلية أمرًا ممتعًا».

قال روبين: «ذكر الأستاذ بلاي فير شيئًا مشابهًا عن لغة فطرية، ومثالية، وغير معيبة. إنها لغة آدم».

كان يشعر بمزيد من الثقة وهو يكلم الأستاذ بعد أن قضى بعض الوقت في بابل، إذ صارا أكثر مساواة وكان يمكنهما التحدث كزميلين. بدا العشاء أشبه بدردشة بين باحثين في نفس المجال المذهل أكثر منه استجوابًا.

فعبس الأستاذ وقال: «لغة آدم. لا أدري لماذا يملأ عقولكم بهذه الأمور. إنها صورة بلاغية لطيفة بالطبع، لكن، لا تمر بضع سنوات دون أن يأتينا طالب قرر أن يكتشف لغة آدم في الهندو أوروبية الأصلية، أو اخترعها بنفسه، وكثيرًا ما يتطلب الأمر إما محاضرة صارمة وإما أسابيع من الفشل حتى يعود إلى صوابه».

فسأله روبين: «ألا تعتقد في وجود لغة أصلية؟».

«بالطبع لا. يعتقد المتدينون هذا، لكن، لو كانت العبارات الروحية فطرية وغير قابلة للالتباس، ما ثار كل هذا الجدل حول محتواها». ثم هز رأسه وأردف: «وهناك من يعتقدون أن لغة آدم ربما كانت الإنجليزية - أو قد تصبح الإنجليزية - لتمتعها بالقوة العسكرية الكافية لجعلها تُقضى منافسيها، لكن يجب أن نتذكر أنه لم يمر قرن على إعلان فولتير اللغة الفرنسية لغة عالمية. كان هذا بالطبع قبل ووترلو. وقد شك فب ولايبنتز أن الصينية قد تكون كذلك، إذ كانت مفهومة عالميًا بسبب طبيعتها المتعلقة بالرموز، لكن بيرسي يدحض هذا محتجًا أن اللغة الصينية مشتقة من الهيروغليفية المصرية. وأرى أن هذه الأشياء عرضية. قد تحتفظ اللغات المهيمنة بقوة بقاء صغيرة بعد زوال جيوشها - فقد تجاوزت اللغة البرتغالية، على سبيل المثال، مدة قبولها، لكن أهميتها تتلاشى في النهاية. لكنني أعتقد فعلاً أن



هناك عالمًا خالصًا من المعنى ممثلًا في لغة بينية يُعبر فيها عن المفاهيم كافة بشكل مثالي، وهو ما لم نستطع الوصول إليه؛ لكننا سنشعر بذلك حين نقارب الصواب».

قال روبين وقد أكسبه المشروب جرأة: «مثل فولتير». وهنا شعر بحماس جعله يتذكر المقولة ذات الصلة، فتابع: «كما كتب في مقدمة ترجمته لشكسبير: «حاولت التحليق مع المؤلف حين يخلق»».

فقال الأستاذ لوفيل: «صحيح تمامًا. لكن كيف يعبر عنها فرير؟ يجب أن تكون لغة الترجمة، على حد اعتقادنا، عنصرًا صافيًا، وغير محسوس، بل وغير مرئي قدر المستطاع، مجرد واسطة للفكر والشعور لا أكثر. لكن ماذا نعرف عن الفكر والشعور سوى ما يُعبر عنه بواسطة اللغة؟».

فبادره روبين بسؤال: «أهذا ما يُشغل قلوب الفضة؟». شعر بأن المحادثة بدأت تحيد عن مسارها، كما شعر بعمق في تنظير الأستاذ لوفيل لم يكن مستعدًا لمتابعته، كما كان بحاجة لإعادة الأمور إلى المادة قبل أن يضيع، فقال: «هل تعمل القوالب بالنقاط ذلك المعنى الخالص، أيًا كان ما يضيع حين نستدعيه بمقاربات بسيطة؟».

أوماً الأستاذ لوفيل وأجاب: «هذا قريب من الشرح النظري، لكني أرى كذلك أنه كلما تطورت اللغات وأصبح متحدثوها أكثر رقيًا وخبرة، ذلك أن اللغات تغترف من المفاهيم الأخرى، وتتضخم وتتحور بمرور الوقت، صرنا بمحاذاة قريبة من تلك اللغة، وضاق مجال سوء الفهم. وقد بدأنا للتو في استكشاف ما يعنيه هذا بالنسبة لعمل الفضة».

فرد روبين: «أظن أن ذلك يعني أن الشعراء الرومانسيين قد لا يجدون ما يقولونه في النهاية».

كان يمزح فحسب، لكن الأستاذ لوفيل أوماً بحماس لهذا قائلًا: «أنت مُحق للغاية. يهيمن الفرنسيون، والإيطاليون، والإسبان على هيئة التدريس، لكن إسهاماتهم الجديدة في سجلات أعمال الفضة تتضاءل بمرور السنوات،



فهناك اتصال مبالغ فيه في قارة أوروبا، والكثير من الكلمات المستعارة، وتتغير دلالات الكلمات وتتقارب باقتراب الفرنسية والإسبانية من الإنجليزية والعكس صحيح. وبعد مرور عقود، قد تسلب قوالب الفضة التي نستخدمها من اللغات الرومانسية تأثيرها. فإذا أردنا التجديد، يجب أن نتجه إلى الشرق، فنحن نحتاج للغات غير المتحدثة في أوروبا».

فقال روبين: «لهذا تخصصت في اللغة الصينية».

فأوما الأستاذ لوفيل وقال: «بالضبط. أنا واثق تمامًا أن الصين هي المستقبل».

«ألهذا السبب تحاول والأستاذ شاكرافارتي تنويع دفعات الطلاب؟».

فضحك الأستاذ لوفيل وسأله: «من الذي يثرثر لك عن سياسات القسم؟ نعم، هناك من جُرحت مشاعرهم لأننا أخذنا مدرس لغات كلاسيكية واحد، بل هي امرأة. لكن يجب أن تكون الحال هكذا. سيواجه زملاؤك الأعلى في السلم الوظيفي صعوبات في الحصول على وظائف».

وهنا تتنح روبين وسأل: «لو كنا نتحدث عن انتشار اللغات، أريد أن أسأل... إلى أين تذهب كل هذه القوالب؟ أعني، من يشتريها؟».

حدجه الأستاذ لوفيل بنظرة ريبة وقال: «لمن يستطيعون تحمّل تكلفتها بالطبع».

فقال روبين: «لكن بريطانيا هي المكان الوحيد الذي رأيت فيه قوالب الفضة تُستخدم به على نطاق واسع، فهي ليست بهذا الانتشار في كانتون ولا حتى في كالكوها على ما سمعت. يذهلني هذا. ويبدو غريبًا أن البريطانيين هم وحدهم الذين يستطيعون استخدامها، في حين يسهم الصينيون والهنود بالمكونات الأساسية لعملها».

فقال الأستاذ لوفيل: «لكن هذه مسألة اقتصادية بسيطة. نحتاج إلى كم كبير من النقود لشراء ما نبتكره. وتصادف أن البريطانيين هم من يستطيعون



تحمل التكلفة. لدينا اتفاقيات مع التجار الصينيين والهنود كذلك، لكنهم أقل قدرة على دفع نفقات التصدير».

قال روبين: «لكن لدينا قوالب فضة في الجمعيات الخيرية، والمستشفيات، ودور الأيتام هنا. لدينا قوالب يمكنها مساعدة الأكثر احتياجًا لها، فلا يوجد لهذا مثيل في أي مكان في العالم».

كان يعلم أنه يمارس لعبة خطيرة، لكن كان عليه البحث عن توضيح. ولم يضع في ذهنه أن الأستاذ لوفيل وزملاءه أعداء له، ولم يستطع الاقتناع كليًا بتقييم جريفيين المدمر لبابل دون بعض الأدلة.

فقال الأستاذ لوفيل بسخرية: «حسنًا، لا يمكننا أن نستنفد طاقة في بحث أي تطبيق تافه».

فجرب روبين شكلًا آخر من أشكال النقاش وقال: «إنه فحسب، حسنًا، يبدو من العدل أن يكون هناك نوع من التبادل». صار نادمًا على تجرعه الكثير من الشراب، إذ كان يشعر بالضعف وعدم القدرة على التحكم في نفسه، بل وفي حالة نفسية لا تتناسب مع نقاش ثقافي. «نأخذ لغاتهم وطرقهم في رؤية العالم ووصفه، ومن ثم، يجب أن نعطيهم شيئًا في المقابل».

فقال الأستاذ لوفيل: «لكن اللغة ليست سلعة تجارية، مثل الشاي أو الحرير، فهي لا تُباع ولا تُشترى. اللغة مَعِين لا يَنْصَب، فإذا تعلمناها واستخدمناها، فممن نسرق؟».

كان هذا منطقيًا بعض الشيء، لكن الاستنتاج جعل روبين يشعر بشيء من عدم الارتياح. لم تكن الأمور بهذه البساطة، فبالطبع كان هذا يخفي بعض القمع أو الاستغلال المجحف، لكنه لم يستطع صياغة اعتراض، ولم يتوصل إلى خطأ الحجة.

قال الأستاذ لوفيل: «يمتلك إمبراطور تشنج أحد أكبر مخازن الفضة في العالم، ولديه علماء كثيرون، بل لديه علماء لغة يفهمون الإنجليزية. فلم لا



يملاً بلاطه بقوالب الفضة؟ ولماذا لا يمتلك الصينيون قواعد نحو خاصة بهم رغم ثراء لغتهم؟».

أجاب روبين: «لعلهم لا يمتلكون الموارد التي يبدأون بها».

«فلماذا نسلمها إليهم؟».

«ليست هذه الفكرة، فالفكرة تتمثل في احتياجهم إليها. فلماذا لا ترسل بابل علماء إلى الخارج في برامج تبادلية؟ لم لا نعلمهم كيف يعملون هذا؟».

«قد يكون ذلك صحيحاً لجميع الأمم التي تخزن مواردها الأكثر قيمة».

فقال: «أو أنكم تخزنون معرفة يجب مشاركتها دون مقابل، فإذا كانت اللغة مجانية، ولو كانت المعرفة مجانية، فلماذا وُضعت كتب النحو في أماكن مغلقة في البرج؟ لِمَ لا نستضيف علماء أجانب أو نرسل علماء ليساعدوا على فتح مراكز ترجمة في أماكن أخرى في العالم؟».

«لأنه باعتبارنا المعهد الملكي للترجمة، فإننا نخدم مصلحة التاج البريطاني».

«يبدو هذا ظلماً مبيئاً».

وهنا سأله الأستاذ لوفيل بنبرة شبه باردة: «أهذا ما تعتقده؟ أتظن أن ما نفعله هنا ظلم مبین يا روبين سوفيت؟».

أجاب روبين: «كل ما أريد أن أعرفه هو لماذا عجزت الفضة عن إنقاذ حياة أمي؟».

وهنا ساد صمت مؤقت.

قال الأستاذ لوفيل بعد هنيهة وهو يلتقط سكينه ويشرع في تقطيع اللحم: «حسنًا، أنا أسف بشأن والدتك». بدا متحيرًا ومحبطًا، ثم أردف: «لكن الكوليرا الآسيوية كانت أحد أسباب تردي الوضع الصحي في كانتون، لا التوزيع غير العادل للقوالب. وعلى أية حال، لا يوجد قالب فضة مشابه يُعيد الموتى إلى الحياة...».



وضع روبين كأسه وقال: «أي عذر هذا؟». كان ثملاً، ما جعله عدوانياً، فأردف: «كنت تمتلك القوالب -وهي سهلة الصنع، وقد أخبرتني هذا بنفسك، فلماذا إذا...»

فرد الأستاذ لوفيل بحدة: «بالله عليك، كانت مجرد امرأة».

وهنا دق جرس الباب، فجفل روبين، فارتطمت شوكته بطبقه وسقطت على الأرضية. رفعها وهو في شدة الإحراج. رن صوت السيدة باير في الردهة وهي تقول: «يا لها من مفاجأة! إنهما يتناولان العشاء الآن، سأدخلك...» ثم دخل رجل أشقر، وسيم، وأنيق إلى غرفة الطعام حاملاً في يده أكوامًا من الكتب.

فوضع الأستاذ لوفيل سكينه ووقف ليحيي الرجل الغريب قائلاً: «ستيرلنج! ظننتك ستأخر».

«انتهيت في لندن قبل الوقت المتوقع...» وهنا وقعت عينا ستيرلنج على روبين، ففسّر في مكانه وقال: «أوه! مرحباً».

فقال روبين في توتر وخجل: «مرحباً». لقد أدرك أن هذا هو ستيرلنج جونز الشهير. كان ابن أخ وليم جونز ونجم الكلية. أردف روبين: «لقد... سررت بلفانك».

لم يحر ستيرلنج جواباً، لكنه راح يتفرس فيه لبرهة طويلة، ثم انثنى فمه بطريقة غريبة. لكن روبين لم يستطع قراءة التعبير المصاحب لهذا. «رباه!».

تتحنح الأستاذ لوفيل وقال: «ستيرلنج».

استقرّت عينا ستيرلنج على روبين لبرهة أخرى، ثم أدارهما.

«مرحباً بك على أية حال». قال ذلك كأنه فكرة ثانوية، إذ كان قد أعطى روبين ظهره بالفعل، فبدت الكلمات قسرية ومخرجة. فوضع الكتب على المنضدة وقال: «كنت محقاً يا ديك، فقواميس ريتشي هي الأهم. كنا نفوت



ما يحدث حين نقرأ البرتغالية. يمكنني المساعدة في ذلك. أعتقد أنه لو ربطنا الحروف التي وُضعت عليها علامات، وهنا...»

كان الأستاذ لوفيل يقلب الصفحات، وقال: «هذا مغموور بالماء، أرجو ألا تكون دفعت له المبلغ كاملاً...».

«لم أدفع أي شيء يا ديك، أظنني غيباً؟».

«حسناً، بعد ماكاو...»

ثم دخلا في نقاش حاد ونسيا روبين تماماً.

فراح ينظر وشعر بأنه ثمل وفي غير مكانه. كانت وجنتاه ملتهبتيْن. لم ينتهِ من تناول طعامه بعد، لكن صار استكمال الطعام أمراً محرّجاً، علاوة على فقدّه شهيتّه. لقد تبددت ثقته السابقة وشعر مجدداً بأنه طفل صغير غبي سُخر منه وطُرد بواسطة زوّار صالون لوفيل الأشبه بالغربان.

كان متحيراً من التناقض، إذ كان يحتقرهم، ويعلم أنهم يشاركون في أفعال شريرة، لكنه كان يريد أن يحترمهم على نحو يجعله ينضم إلى مصافهم. كان مزيحاً غريباً من المشاعر. لم يكن لديه أدنى فكرة كيف يرتبها.

كان يريد أن يقول لوالده: «لكننا لم ننتهِ من حديثنا، كنا نتحدث بشأن أمي».

شعر بضيق في صدره وكأن قلبه تحول إلى وحش محبوس يحاول جاهداً الخروج من قفصه. كان هذا غريباً، فلم يكن طرده شيئاً لم يختبره من قبل. لم يكن الأستاذ لوفيل يراعي مشاعر روبين على الإطلاق، ولم يكن يقدم له أي رعاية أو مواساة، بل كان يغير الموضوع فجأة ليلقي به بعيداً ببرود ولا مبالاة، وبقليل من شأن آلام روبين حتى بدا من التقاهة أن يبوح بها من الأساس. لقد كان روبين قد اعتاد هذا الأمر.

والآن فحسب، أو لعله بسبب تجرعه الشراب، أو لعلها كانت تراكمات بلغت أقصى درجاتها، أراد الصراخ. أراد أن يبكي ويركل الحائط أو يفعل أي شيء يجعل أباه ينظر إليه.



وهنا رفع الأستاذ لوفيل عينيه وقال: «أوه! يا روبين، أخبر السيدة بايبر بأننا نريد تناول القهوة قبل أن تغادر».

* * *

فأخذ روبين سترته وترك الغرفة. لم يترك هاي ستريت متجهًا إلى ماجباي لين، لكنه ابتعد واجتاز إلى ميرتون كوليدج. وحين حلَّ الليل، أصبحت الحقائق غريبة ومُخيفة. كانت الأفرع السوداء تتدلى كالأصابع من وراء بوابة حديدية مغلقة. عبثًا حاول روبين أن يفتح القفل، ثم رفع نفسه لاهنًا فوق ثغرة صغيرة بين أشواك البوابة، وراح يتجول في الحديقة لبضعة أمتار كي يعرف شكل شجرة البتولا.

ثم تراجع وراح ينظر حوله وهو يشعر بالغباء. في تلك الأثناء، وقع نظره على بقعة بيضاء. كانت شجرة شاحبة مُحاطة بمجموعة من شجيرات التوت المشدبة والملتفة إلى أعلى وكأنها في حالة إجلال. كان هناك مقبض ناتئ عن جذع الشجرة البيضاء. لقد بدت كراس أصلع في ضوء القمر، أو كبلورة. فكر روبين أن تخمينه قد صح.

وراح يفكر في أخيه بمعطفه الشبيه بأجنحة الغراب وهو يحك أصابعه في الخشب الباهت في ضوء القمر. كان جريفيين يحب هذه الحركات المسرحية فعلاً.

كان متحيرًا من نار الغضب المضطربة في صدره، فلم تكن النزهة الطويلة الباعثة على التأمل قد هدأت ثورته. كان يشعر أنه مستعد للصراخ. هل أغضبه تناول العشاء مع أبيه إلى هذا الحد؟ هل كان هذا هو الغضب المقدس الذي تحدث عنه جريفيين؟ لكن ما شعر به لم يكن مجرد جذوة ثورة، ولم يكن اقتناعًا بقدر ما كان شكًا، وسخطًا، وحيرة شديدة.



كان يكره هذا المكان، وكان يحبه. وكان ساخطاً على معاملته له، كما كان يريد أن يصبح جزءاً منه، ذلك أن الانتماء إليه بدا شيئاً جيداً جداً، وكذا التحدث مع أساتذته كندٍ فكري، والتحول إلى جزء من اللعبة الكبرى.

وهنا زحفت فكرة شريرة إلى عقله: «لأنك صبي صغير جريح وتتمنى لو كانوا قد أعاروك انتباهاً» لكنه نفذها سريعاً. بالطبع لم يكن بهذه الحقارة، وبالطبع لم يطلق العنان لغضبه على والده؛ لأنه شعر بالإهمال.

لقد رأى وسمع ما يكفي. كان يعرف أصل بابل وكان يعرف ما يكفي ليثق بحدسه.

فراح يمرر إصبعه على الخشب. لم ينفع ظفره. كانت السكين لتؤدي الغرض بشكل مثالي، لكنه أبداً لم يحمل واحدة. وفي النهاية، سحب قلم حبر من جيبه وضغط بسننه على القفل، لكن الخشب كان صلباً. فراح يخربش عدة مرات كي يجعل العلامة واضحة. شعر بألم في إصبعه، وذُومر سن القلم على نحو غير قابل للإصلاح، مع ذلك، لكنه تمكن من ترك علامته.



الفصل السابع



كلما زاد عدد اللغات التي تتحدثها، ارتفعت قيمتك.

تشارلز الخامس

في يوم الاثنين التالي، عاد روبين إلى غرفته بعد الدرس ليجد قصاصة ورق محشورة تحت حافة نافذته. فجذبها وقلبه يخفق بشدة، ثم أغلق بابه وجلس على الأرضية وراح يحرق في خط جريفيين شديد الضالة.

كانت رسالة مكتوبة باللغة الصينية. قرأها روبين مرتين، ثم إلى الخلف، ثم إلى الأمام وهو متحير. بدا جريفيين وكأنه غَصَرَ الحروف بعضها مع بعض بعشوائية شديدة، ما جعل العبارات تفقد معناها، بل لم يكن من الممكن وصفها كجمل، فرغم وجود علامات ترقيم، كانت الحروف مرتبة دون عناية بالنحو ولا بالصياغة. كانت هذه شفرة بالتأكيد، لكن جريفيين لم يكن قد أعطى روبين مفتاحها، ولم يخطر ببال روبين التفكير في إشارات أدبية ولا تلميحات خفية. كان على جريفيين أن يأتي لمساعدته في فك شفرة هذه الترهات!

وفي النهاية، أدرك أنه فهم الأمر بشكل خاطئ. لم تكن اللغة صينية، بل استخدم جريفيين الحروف الصينية لتوصيل كلمات بلغة شك روبين أنها إنجليزية. فنزع روبين ورقة من دفتره، ووضعها بجانب رسالة جريفيين وكتب ما يقابل كل حرف من الحروف اللاتينية. تطلبت بعض الكلمات تخمينًا، ذلك أن الكلمات الصينية المكتوبة بحروف لاتينية كانت ذات أنماط تهجئة مختلفة عن الكلمات الإنجليزية، لكن في النهاية، ومن خلال استنباط عدة أنماط تغيير شائعة، وجد أن "تيه" تعني "ال"، وكانت "وو" هي "أو"، واستطاع روبين فك الشفرة.



«في الليلة الممطرة التالية، افتح الباب حين ينتصف الليل تحديدًا، وانتظر في الردهة. لا تتحدث مع أحد، ثم اخرج بعد خمس دقائق دون أن تتحدث مع أحد. اذهب إلى البيت التالي.

لا تحد عن تعليماتي. احفظها ثم أحرق الورقة».

كانت الرسالة قصيرة ومباشرة، وتقتصر على المعلومات الأساسية، تمامًا مثل جريفيين. كانت تمطر دائمًا في أكسفورد، ولعل الليلة الممطرة التالية كانت في الغد.

قرأ روبين الرسالة مرارًا وتكرارًا حتى أودع التفاصيل ذاكرته، ثم ألقى بكل من الأصل وفك الشفرة في نيران المدفأة وراح يراقبهما بصبر ريثما تحولت كل قصاصة إلى رماد.

وفي يوم الأربعاء، انهمرت الأمطار وساد الضباب فترة بعد الظهر كلها، وراح روبين يراقب إظلام السماء بذعر متزايد. فحين ترك مكتب الأستاذ شاكرافارتي الساعة السادسة، كان رذاذ خفيف يتساقط محوّلًا ببطء الرصيف إلى اللون الرمادي. وقبيل وصوله إلى ماجباي لين، كان المطر قد تزايد كثافة وصار يسقط بانتظام. فأغلق على نفسه باب غرفته، ووضع ما كُلف به من قراءات لاتينية على مكتبه، وحاول، على الأقل، أن يحدّق إليها حتى يحين الوقت.

وحين دقت الساعة الحادية عشرة والنصف، اشتد هطول المطر. كان مطرًا باردًا، فحتى في غياب الرياح العاتية والبرد، كان مجرد ارتطامه بالحصى يجعل المرء يشعر بأنه كرات جليد تصفع جلده. فهم روبين السبب وراء تعليمات جريفيين، ففي ليلة كهذه، لم يكن المرء ليرى أبعد من بضع أقدام أمام أنفه، بل وحتى لو استطاع، فلن يهتم أين ينظر. كان مثل هذا المطر يجعل الشخص يمشي منحني الرأس، ومقوس الكتفين، وغير عابئ بالعالم حتى يصل إلى مكان دافئ.

وقبل منتصف الليل بربع ساعة، ارتدى روبين سترته وسار نحو الردهة.



«إلى أين تذهب؟».

فتجمد في مكانه. كان يظن أن رامي قد خلد للنوم.

روبين: «لقد نسيت شيئاً في رفوف المكتبة».

فمد رامي رأسه وقال: «مجددًا؟».

فهمس روبين محاولاً الحفاظ على حياد تعبير وجهه: «أظنها لعنتنا».

قال رامي متجهماً: «المطر شديد. ماذا نسيت؟».

كاد روبين يقول «مطالعاتي»، لكن هذا لم يكن صحيحاً، إذ كان ظاهرياً يعمل عليها طوال الليل، فقال: «إنه دفترتي فحسب، سأقلق لو تركته، فأنا أخشى أن يرى أحد ملاحظاتي...».

«ماذا بداخله؟ أهو خطاب حب؟».

«كلا، فالأمر يصيبني بالتوتر فحسب».

إما أنه كان كاذباً محترفاً وإما أن رامي كان ناعساً على نحو يجعله لا يهتم، فقال وهو يتثائب: «أحرص على أن توقظني غداً. سأقضي الليل كله مع درايدن، وهو ما لا يروق لي».

فقال روبين واعدًا: «سأفعل»، ثم أسرع بالخروج من الباب.

جعل الهطول العنيف للمطر المشي لعشر دقائق في هاي ستريت كالأبدية. لاح برج بابل من بعيد كأنه شمعة دافئة. كان كل طابق مضاء بالكامل وكأنه في وسط فترة بعد الظهيرة، لكن لم تظهر أي خيالات من النوافذ. كان باحثو بابل يعملون على مدار الساعة، لكن الغالبية كانت تأخذ كتبها معها الساعة التاسعة أو العاشرة، وأي شخص موجود هناك في منتصف الليل لم يكن ليترك البرج حتى الصباح.



وحين بلغ البستان، انتظر وراح ينظر حوله، فلم يرَ أحدًا. كان خطاب جريفيين شديد الغموض، فلم يعرف ما إذا كان يجب عليه الانتظار حتى يلمح أحد عملاء هرمس أو يكمل السير متبعاً أو امره بدقة.

لا تحد عن تعليماتي.

دقت الأجراس معلنة انتصاف الليل، فأسرع إلى المدخل وهو يلهث وحلقه جاف. وحين وصل إلى السلم الحجري، ظهر شخصان من الظلام. كانا لشابين متشحين بالسواد لم يستطع تبين ملامحهما في المطر.

فهمس أحدهما: «هيا، أسرع».

تقدم روبين نحو الباب وقال بهدوء ووضوح في الوقت نفسه: «روبين سوفيت».

تعرف الحراس على دمه، فانفتح القفل.

جذب روبين الباب وانتظر لحظة على العتبة، لكنها كانت من الطول ما يكفي للشخصين خلفه كي يتسللا إلى البرج. لم ير وجهيهما على الإطلاق، إذ انطلقا إلى أعلى الدرج كالأشباح بسرعة وصمت. وقف روبين في البهو وهو يرتعش إذ كان المطر يقطر فوق جبهته ويراقب الساعة وعقرب الثواني يقترب من الرقم خمسة.

كان الأمر كله في غاية السهولة. فحين أتى الوقت، استدار روبين ومشى بسرعة نحو الباب. وهنا شعر بارتطام شيء عند خصره، لكنه لم يلحظ أي شيء، فلم تكن هناك همسات ولا قرقرة قوالب فضة. لقد ابتلع الظلام عميلي هرمس. وفي غضون ثوان، صارا كأنهما لم يكونا هناك على الإطلاق.

استدار روبين وسار نحو ماجباي لين وهو يرتجف بشدة، شاعراً بالدوار لمجرد جرأة ما فعله للتو.



جافاه النوم، فراح يتقلب في سريره في حالة من الهلوسة المروعة غامراً ملاءات السرير بعرقه ومعذباً بأنصاف الأحلام والتوقعات المشؤومة لفتح الشرطة بابه وجره إلى الحبس معلنة أنها رأت كل شيء وسمعت كل شيء! لم يذق النوم حتى الصباح الباكر، لكنه وقتئذٍ كان في غاية الإرهاق حتى إنه لم يشعر بأجراس الصباح، بل لم يستيقظ ريثما طرق أحد المستطلعين سائلاً ما إذا كان يريد تنظيف أراضياته في ذلك اليوم.

«أوه! نعم، آسف، أعطني لحظة وسأخرج». فغسل وجهه، وارتدى ملابسه، وأسرع بالخروج. كان زملاؤه قد اتفقوا على اللقاء في مكتبة الدور الخامس لمقارنة ترجماتهم قبل الدرس، وكان قد تأخر جداً.

فقال رامي حين رآه: «هأنذا». كان جالساً برفقة ليتي وفيكتر حول طاولة مربعة. أردف رامي: «آسف لمغادرتي من دونك، لكنني ظننتك غادرت بالفعل، فقد طرقت بابك مرتين، لكنك لم ترد».

جلس روبين ورد قائلاً: «لا بأس. لم أُنم جيداً، لا بد أن ذلك كان بسبب الرعد».

فسألته فيكتوار بقلق: «هل أنت بخير؟ أنت نوعاً ما...» ثم هزت يدها أمام وجهها وأردفت: «شاحب؟».

قال روبين: «مجرد كوابيس. هذا وارد في بعض الأحيان».

بدا العذر غيباً حين تفوه به، لكن فيكتوار ربّت يده برقة وقالت: «طبعاً».

فقالت ليتي بحدة: «هلا بدأنا؟ بتنا متحيرين في المفردات اللغوية؛ لأن رامي لم يسمح لنا بالاستمرار من دونك».

فراح روبين يقلب صفحاته بسرعة حتى وجد الواجب الذي كُلف بها الليلة الماضية من أوفيد وقال: «آسف، نعم بالطبع».

كان يخشى أن تفوته المقابلة إلى الأبد، لكن، على نحو ما، جذب ضوء الشمس الدافئ الساطع فوق الغرفة الباردة، واحتكاك الحبر بالرقاقات،



وإملاء ليتي الواضح، عقله المرهق نحو التركيز، وجعل اللغة اللاتينية، لا طرده المتوقع، يبدو الأولوية القصوى لهذا اليوم.

تحول اجتماع المكتبة إلى شيء أكثر حيوية مما توقعه. لم يتوقع روبين والذي كان قد اعتاد قراءة ترجماته بصوت مرتفع للسيد تشيستر - الذي كان يصح له بطريقة هزلية - مثل هذا النقاش الحماسي حول نهايات الجمل، أو علامات الترقيم، أو متى يكون التكرار زائداً عن الحد. وسرعان ما اتضح أنهم كانوا ذوي أساليب شديدة الاختلاف في الترجمة. بدت ليتي، والتي كانت تدقق في التراكم النحوية شديدة القرب من اللغة اللاتينية قدر الإمكان، على استعداد للتجاوز عن أكثر استخدامات النثر غرابة، في حين كان رامي نقيضاً لها، إذ كان يصر دائماً على توصيل المعنى، ولو حتى أدى ذلك لإدخال عبارات جديدة تماماً. أما فيكتوار، فكانت محبطة دائماً من محدودية اللغة الإنجليزية. كانت تقول: «هذا شديد الغرابة، كانت الفرنسية لتتناسب تماماً مع هذا». وكانت ليتي توافق بشدة، وهو ما كان يجعل رامي يسخر منهما، وفي تلك اللحظة كانوا يتركون أوفيد ويعادون التحدث عن الحروب النابليونية.

وبعد أن انتهوا، بادر رامي روبين بسؤاله: «هل تشعر بتحسن؟».

كان يشعر بتحسن بالفعل. كان من الجيد أن يلوذ بلغة ممتة ويخوض حرباً خطابية لم تكن مخاطرها لتمسه حقاً. كان مذهولاً من شعوره بأن باقي اليوم صار عادياً، وكيف استطاع الجلوس بهدوء وسط زملائه أثناء محاضرة الأستاذ بلاي فير والتظاهر بأن المؤرخ تايتر كان شغله الشاغل. ففي ضوء النهار، بدت بطولات الليلة الماضية مثل حلم بعيد. بينما طافت بعقله كل الأشياء الحقيقية الملموسة ممثلة في أكسفورد، والمقررات والأساتذة، والفتائر الطازجة، والقشدة المتخثرة.

مع ذلك، لم يستطع محو الخوف الكامن من أن كل هذا كان مزحة قاسية وأن الستائر كانت لتسدل في أي لحظة على هذه المسرحية الهزلية. فكيف



خلا ذلك من العواقب؟ فكانت مثل هذه الفعلة الخائنة المتمثلة في سرقة بابل الذي كان يمثل المؤسسة التي أعطاها دمه لتجعل هذه الحياة مستحيلة.

ساده التوتر في منتصف فترة بعد الظهر. فما بدا ليلة أمس كمهمة مثيرة ومشروعة بدا الآن شيئاً شديداً الغباء. لم يستطع التركيز على اللغة اللاتينية. اضطرت الأستاذة كرافت لقرقرة أصابعها أمام عينيها كي يدرك أنها طلبت منه ثلاث مرات أن يقرأ سطرًا. لم ينفك يتخيل سيناريوهات مخيفة بتفاصيل شديدة الوضوح: كيف سيقتم رجال الشرطة المكان، ويشيرون إليه ويصرخون: ها هو ذا، ها هو اللص!، وكيف سيحملق زملاؤه بذهول، وكيف سيحكم عليه الأستاذ لوفيل بالموت شنفًا، إذ كان لسبب ما المدعي والقاضي. كما تخيل عصا المدفأة تهبط مرارًا وتكرارًا ببرود وانتظام على كل عظمة من عظامه.

لكن رؤاه لم تتخط مرحلة كونها مجرد رؤى، إذ لم يأت أحد للقبض عليه، ومر الدرس ببطء، وملل، ودون مقاطعة، فانحسر خوفه. وحين عاد روبين للاجتماع بزملائه في الردهة لتناول العشاء، وجد التظاهر لنفسه أن ليلة الأمس لم تحدث أبدًا سهلًا على نحو مذل. لقد جلس الجميع لتناول الطعام الممثل في البطاطس الباردة واللحم صعب المضغ على نحو جعله يستنفد كل قوتهم في تقطيعه إربًا سهلة المضغ، وراحوا يضحكون على تصويبات الأستاذة كرافت بعصبية لترجمات رامي المزخرفة، ما جعل تلك الليلة تبدو كذكرى بعيدة.

حين عاد للبيت ذلك المساء، وجد رسالة أخرى تنتظره تحت حافة النافذة. فتحها بيدين مرتعشتين، كانت الرسالة المتضمنة مكتوبة بخط غير واضح ومختصرة للغاية، وفي هذه المرة نجح روبين في فك شفرتها في عقله.

«انتظر مزيدًا من الاتصال».

أربكه شعوره بخيبة الأمل. ألم يقض اليوم وهو يتمنى لو لم يتورط في هذا الكابوس؟ لم تخيل سوى صوت جريفيين الساخر وهو يقول: «ماذا؟ هل أردت أن أربت ظهرك وأعطيك بسكويًا لأنك أبليت بلاءً حسنًا؟» وجد نفسه



يرجو المزيد الآن، لكنه لم يجد سبيلاً لمعرفة متى ستأتيه أخبار من جريفيين مجدداً. لقد نبهه جريفيين أن تواصلهما سيكون متقطعاً، وأن فصولاً دراسية بأكملها قد تمر قبل أن يتوصلا مجدداً. كان روبين لئسندعى متى دعت الحاجة، لا قبل ذلك. في الليلة التالية، لم يجد رسالة على حافة النافذة ولا حتى في الليلة التي بعدها.

مرت أيام ثم أسابيع.

كان جريفيين قد قال له: «ما زلت من طلاب بابل، فتصرف كواحد منهم». اتضح أن هذا كان أمراً شديداً السهولة. فإذا تلاشت ذكريات جريفيين وهرمس في عقله الباطن، وفي الكوابيس والظلمة، صعدت حياته في أكسفورد وبابل إلى الواجهة بألوان مبهرة.

كان مذهولاً من سرعة وقوعه في حب المكان والناس. لم يكن حتى قد لاحظ أن هذا قد حدث. كان الفصل الدراسي الأول قد جعله يدور في مكانه وهو في حالة من الذهول والإرهاق؛ ومثلت دروسه ومقرراته نمطاً روتينياً من القراءات المحمومة والليالي المتأخرة المملوءة بالنعاس، وكان زملاؤه فيها مصدر سعادته وعزائه الوحيد. وقد سامحت الفتيات - بطيبة - رامي وروبين على انطباعاتهما الأولى عنهما، فاكتشف روبين أنه وفيكتور مشتركان في الحب الصريح نفسه للأدب بكل أنواعه، بدءاً بالربع القوطي وصولاً إلى الأدب الرومانسي، وكانا يجدان متعة كبيرة في تبادل ومناقشة أحدث دفعة من روايات الربع الرخيصة الواردة من لندن. وبعد أن اقتنعت ليتي بأن الأولاد لم يكونوا أغبياء على النحو الذي يمنعها من الالتحاق بأكسفورد، صارت أكثر تسامحاً. لقد اتضح أنها تتمتع بحضور بديهة لاذع وفهم عميق لبنية الطبقات في بريطانيا بفضل تربيته، وهو ما جعلها تعلق تعليقات لا حصر لها حين لم تكن تستهدف أيًا منهما.

كانت لتقول بعد زيارة لماجاباي لين: «يُعد كولين شخصاً نموذجياً للطبقة الوسطى يحب التظاهر بتمتعته بعلاقات فقط؛ لأن عائلته تعرف مدرس رياضيات في كامبريدج. لو أراد أن يصبح محامياً، لأمكنه الحصول على



تدريب في مجمعات الحمامة، لكنه أتى هنا لرغبته في الحصول على الهبة والعلاقات، فقط لأنه ليس جذابًا على نحو يجعله يحصل عليها. إنه شخصية مملة ومقرزة، تمامًا كالمنشفة المبللة، فهو رطب ويلتصق بالمرء». وهنا، كانت لتقلد كولین بعينيه الواسعتين ومبالغته في التحية في حين كان الآخرون ينفجرون في الضحك.

صار رامي، وفيكتور، وليتي يصفون البهجة على حياة روبين، كما كانوا همزة الوصل الوحيدة بينه وبين العالم خارج إطار المقررات الدراسية. كانوا بحاجة بعضهم إلى بعض، إذ لم يكن لهم شخص آخر. كان طلاب بابل القدامى منعزلين وعدوانيين، وكانوا في غاية الانشغال، بل وفي غاية الذكاء والإبهار. وبعد مرور أسبوعين على الفصل الدراسي، طلبت ليتي بجرأة من إحدى الخريجات، وكانت تُدعى جابرييل، أن تنضم إلى مجموعة قراء اللغة الفرنسية، لكنها رُفضت على الفور باحتقار لا يستطيع سوى الفرنسيين إظهاره. حاول روبين عقد صداقة مع طالبة يابانية في السنة الثالثة تُدعى إلزي ديجيما*، كانت تتحدث بلهجة هولندية ضعيفة. كان الاثنان يتقابلان في طريقهما إلى ومن مكتب الأستاذ شاكرا فارتي، لكن في المرات القليلة التي حاول فيها تحيتها، كانت ترسم على وجهها تعبيرًا كتيبيريًا من وجد وحلًا على حذائه.

حاولوا عقد صداقة مع زملاء في السنة الثانية؛ دفعة مكونة من خمسة أولاد ذوي بشرة بيضاء يعيشون على الجانب الآخر من ميرتون ستريت، لكن باء ذلك بالفشل الذريع؛ لأن فيليب رايت قال لروبين في عشاء لهيئة التدريس إن دفعة السنة الأولى كانت من جميع أنحاء العالم بسبب سياسات القسم فحسب: «يسعى مجلس دراسات المرحلة الجامعية بجد لإيلاء الأولوية للغات الأوروبية أو غيرها... من اللغات الغريبة. لم ينفك شاكرا فارتي ولوفيل يثيران ضجة حول تنويع القاعدة الطلابية لسنوات. لم يعجبهما أن

* كانت إلزي مثل روبين، إذ عرفها الإنجليز لا باسمها الحقيقي، بل باسمها بالكفالة. وكان مزيجًا من اسم مختار معدل بالإنجليزية (الزي) واسم الجزيرة التي أتت منها (ديجيما).



تكون دفعتي من دارسي اللغات الكلاسيكية. أظنهما كانا يفرطان في تفويمكم».

حاول روبين التزام الأدب، فقال: «لكنني لا أظنه كان أمراً سيئاً».

«حسناً، لم يكن سيئاً في حد ذاته، لكنه يعني أماكن تؤخذ من متقدمين مساوين في الأهلية نجحوا في امتحانات القبول».

قال روبين: «لم أجتز أي امتحان قبول».

فتنهذ فيليب وقال: «بالضبط»، ولم يقل لروبين أي شيء طوال الأمسية.

ومن ثم، كان رامي، وليتي، وفيكتور هم المحاورين الدائمين الذين كان روبين يرى أكسفورد في أعينهم. كان رامي ليعجب أشد الإعجاب بالشال البنفسجي المعلق في نافذة إيد أند ريفينسكروفت، وكانت ليتي لتضحك حتى تبدو سخيفة على الفتى ذي العينين البرينتين الجالس خارج مقهى كوينز لين بكتاب قصائد، وكانت فيكتور لتتسعر بإثارة كبيرة لوضع دفعة جديدة من القريصات في فولتس أند جاردن. ولكن بسبب انشغالها بدرس اللغة الفرنسية حتى الظهر، كان روبين ليشترى واحدة، ويلفها في جيبه، ويحفظها لها ريثما ينتهي الدرس. بل إن مطالعات مقررة صارت أكثر إثارة حين بدأ يراها كمواد خام للملاحظات اللاذعة، سواء الشكاوى أو النكات التي كان ليشاركها لاحقاً مع المجموعة.

ولكن العلاقة لم تخلُ من خلافات، فلم ينفكوا يتجادلون، ولكن على النحو الذي يتجادل به الشباب الأذكياء المعتدّون بذواتهم وأصحاب الآراء الكثيرة. جرى بين روبين وفيكتور جدل طويل حول رفعة الأدب الفرنسي والإنجليزي، وكان كل منهما في هذا جريئاً وشديد الإخلاص للبلاد التي تبنته. أصرت فيكتور على أن أفضل أصحاب النظريات في إنجلترا لم يكونوا أهلاً ولو لحمل شمعة لفولتير أو ديدرو! وكان روبين ليطبق مبدأ الشك لصالح المتهم لو توقفت عن التهكم على الترجمات التي أخذها من مكتبة بودلي باعتبارها «لا شيء إذا قورنت بالأصل، بل إن المرء قد لا



يقرأها من الأساس». ورغم تقارب فيكتور و ليتي، فإنهما كانتا تتوتران حين يتحدثان عن المال، وسواء كانت لثُعد فقيرة كما كانت تدعي فقط لأن والدها قطع عنها المساعدة المالية*. وكانت ليتي ورامي أكثر المتجادلين، لا سيما على ادعاء رامي أنه لا يحق لليتي الإدلاء برأيها حول الفوائد المزعومة للوجود البريطاني في الهند في حين لم تطأ قدمها أي مستعمرة على الإطلاق.

كانت ليتي لتصر: «أعرف شيئاً أو اثنين عن الهند، فقد قرأت كل أنواع الأبحاث؛ قرأت بحث هاميلتون بعنوان «ترجمة خطابات راجا هندي...»». وكان رامي ليسأل: «أحقاً؟ تلك الترجمات التي تبرز الهند كأمة جميلة غزاها قوم مستبدون؟ أهي تلك الترجمات؟».

وفي تلك اللحظة، كانت ليتي تتحول إلى موقف دفاعي كئيب متوتر حتى اليوم التالي. لكن هذا لم يكن خطأها بالكامل، إذ بدا رامي مصراً على استقرازها وتجريدها من أي حجة. وكانت ليتي بهدونها وانضباطها والاعتداد بالنفس المرسوم على وجهها تمثل كل ما يحتقره رامي في الإنجليز، حتى إن روبين ظن أن رامي لن يستريح إلا بعد أن تعلن ليتي خيانتها لوطنها!

مع ذلك، لم تفرق المشاحنات بينهم، بل بالأحرى قربتهم، وشحذت مهاراتهم، وحددت الكيفية التي يكملون بها بعضهم بعضاً. كان يقضون وقتهم كله معاً. وفي عطلات نهاية الأسبوع، كانوا يجلسون على طاولة ركنية خارج مقهى فولتس أند جاردن وهم يستجوبون ليتي عن غرائب اللغة الإنجليزية، والتي كانت المتحدثة الأصلية لها. (كان روبين ليسأل: «ما معنى كورند؟ وما اللحم الكورند؟ وماذا تفعلون جميعاً بلحومكم؟»). وكانت فيكتور لتسأل وهي تبحث عن آخر سلسلة من الروايات الرخيصة: «ما معنى

* لم يتدخل الشبان في هذا الأمر. ففي قرارة نفسه، كان رامي يرى أن لليتي وجهة نظر تُحترم، فباستمرارها فتاة، فهي غير مؤهلة للثرت أي شيء من تركة برايس. أما روبين، فرأى أنها أكثر غنى من أن تدعو نفسها «مُعذمة»، إذ كانوا جميعاً يحصلون على منح دراسية متكافئة مع تناولهم العشاء خارج البيت وقتما شاءوا.



ولشر؟». * كما كانت تقول: «أرجوك يا ليتيتا، ما معنى جيجر-دابِر بحق السماء؟» (**).

وحين كان رامى يشكو من شدة سوء الطعام في الردهة ومن فقدانه الوزن (كان هذا حقيقياً، فحين لم تكن مطابخ الجامعة تقدم مناوبة اللحم المسلوق صعب المضغ، والخضر المشوية غير المملحة، وأطباق الحساء المتطابقة، وكانت تقدم أطباقاً غير معروفة وغير قابلة للأكل مثل «المخلل الهندي»، و«السلاحف المتبلّة بطريقة الهند الغربية»، وشيء يُدعى «العث الصيني» والذي كان القليل منه مقبولاً)، كانوا يتسللون إلى المطبخ ويملؤون صحناً بالبازلاء، والبطاطس، وتشكيلة من التوابل التي جمعها رامى من أسواق أكسفورد، ليحصلوا في النهاية على يخني أراجواني غليظ القوام ومملوء بالتوابل على نحو كان يلهب الأنوف.

رفض رامى قبول الهزيمة، بل راح يجادل بأن هذا يمثل مزيداً من الأدلة على وجود مشكلة متجذرة لدى البريطانيين، ذلك أنهم لو حصلوا على بذور الكركم والخردل الأصلية لصارت أطباقهم أفضل طعمًا.

فاحتجت ليتي قائلة: «هناك مطاعم هندية في لندن. يمكنك تناول الأرز بالكاري في بيكاديللي...».

فرد رامى بسخرية: «لو أردت طعاماً مهروساً، فتناولي البازلاء».

فراحت ليتي تتنهد ببؤس ورفضت أن تأخذ ملعقة أخرى. أما روبين وفيكتوار، فراحا يملآن أفواههما بملاعق كبيرة منها بصبر. قال لهما رامى

* شعر روبين، وفيكتوار، ورامى جميعاً بخيبة الأمل حين علموا أن اللحم المدخن لم يكن له علاقة بالذرة، بل بالأحرى بحجم بلورات الملح الصخري المستخدمة في حفظه.

** في كلمة عامية أطلقها اللصوص على السجان (إذ تعني جيجر الباب، أما دابِر فتعني مُغلق).



إن أطفال كالكوستا كانوا ليتناولوا الفلفل شديد الحرارة دون أن يهتز لهم جفن، لكنه نفسه لم يستطع إنهاء الكم الكبير من الطعام الحريف في طبقه.

لم يدرك روبين ما كان لديه، وما كان يبحث عنه وما حصل عليه في النهاية، حتى جاء يوم في منتصف الفصل الدراسي كانوا جميعًا فيه في غرفة فيكتور. كانت غرفتها هي الأكبر في جميع المقرات، إذ لم ترغب أي من زميلاتها مشاركتها، وكان هذا يعني أنها لم تستحوذ على الغرفة فحسب، بل على الحمام والصالون الكبير الذي اعتادوا التجمع فيه لإنهاء واجباتهم بعد إغلاق مكتبة بودلي الساعة التاسعة. في تلك الليلة، كانوا يلعبون الورق ولا يذكرون؛ لأن الأستاذة كرافت كانت قد سافرت إلى لندن لحضور مؤتمر، ومن ثم كانوا ليقضوا أمسية بلا عمل. لكن سرعان ما نسوا الورق، إذ امتلأت الحجرة برائحة الإجاص الناضج النفاذة، ولم يدرك أي منهم ما كان هذا، إذ لم يكونوا قد أكلوا الإجاص أبدًا ولأن فيكتور قد أقسمت أنها لم تخبئ أي شيء في غرفتها.

ثم راحت فيكتور تضحك وتصيح لأن ليتي راحت تصرخ: «ما هو الإجاص؟ أين هو يا فيكتور؟ أين الإجاص؟». وراح رامي يمزح حول محاكم التفتيش الإسبانية، وبحيلة، أجبرت ليتي فيكتور أن تقلب جميع جيوب معاطفها لتثبت أن أيًا منها لم يكن به شيء مخفي. فأطاعت فيكتور، لكن اتضح عدم وجود أي شيء، ما جعل الجميع يدخلون في نوبة ضحك هيسستيري. وكان روبين جالسًا عند الطاولة يراقبهم ويبتسم منتظرًا مواصلة لعب الورق حتى أدرك أن هذا لن يحدث لأنهم كانوا مغرقين في الضحك، علاوة على كون جميع أوراق رامي مكشوفة، ومن ثم، صار استكمال اللعبة غير مُجد. ثم نظر بدهشة، إذ تبين للتو معنى تلك اللحظة العادية وغير العادية في ذات الوقت، ففي ظرف عدة أسابيع، صار الجميع مختلفين عما وجده في هامبستيد، وهو ما ظن أنه لن يحصل عليه بعد كانتون: إنها دائرة من الناس الذين يحبهم بشدة وعلى نحو يجعله يشعر بألم في صدره متى فكر فيهم.

لقد صاروا أشبه بأسرة مترابطة.



وهنا غمره الشعور بالذنب؛ لأنه أحبه وأحب أكسفورد بهذا القدر.

كان يحب هذا المكان حبًا حقيقيًا، فرغم ما كان يعانيه من إهانات يومية، كان التجول في الحرم الجامعي يسعده. لم يستطع البقاء على موقف شبيه بموقف جريفيين من الشك والتمرد الدائم، بل إنه لم يستطع اكتساب كراهية جريفيين للمكان.

مع ذلك، هل كان له الحق في السعادة؟ لم يكن قد شعر بمثل هذا الدفء الذي يملأ قلبه مثلما شعر وقتئذٍ، ولم يكن قد تطلع للاستيقاظ في الصباح مثلما صار يتطلع الآن. لقد فتحت بابل، وأصدقؤه، وأكسفورد جزءًا منه ليصبح بداخله مكانًا مملوءًا بالنور والانتماء للذين لم يظن أنه سيشعر بهما مجددًا. صار العالم أقل إظلامًا.

كان طفلًا محرومًا من الحنان، والآن صارت لديه وفرة منه، فهل كان التشبث بما لديه خطأ جسيمًا؟

لم يكن مستعدًا للولاء التام لهرمس، ولكنه كان مستعدًا لقتل أي شخص من أجل زملائه.

ولاحقًا، كان روبين ليندهش أنه لم يخطر له ببال أن يخبر أيًا منهم عن جمعية هرمس، فعلى أية حال، كانت نهاية فصل ميكلماس الدراسي وشيكة. كان ليأتهمهم على حياته، ولم تساوره أي شكوك أنه لو سقط في نهر متجمد، لغطس واحد منهم لإنقاذه. أما جريفيين وجمعية هرمس فكانوا ينتمون لعالم الأشباح والأحلام المزعجة، وكان زملاؤه يمثلون بالنسبة له الشمس، والدفء، والضحك، ولم يكن يفكر في الجمع بين هذين العالمين.

ولم يجرؤ سوى مرة واحدة على أن يقول شيئًا. فذات يوم، أثناء تناول الغداء، كان رامي وليتي يتجادلان - مرة أخرى - حول الوجود البريطاني في الهند. كان رامي يعتبر احتلال البنغال كارثة مستمرة، وكانت ليتي ترى أن النصر البريطاني في معركة بلاسي كان انتقامًا شديد العدالة لما اعتبرته



المعاملة المريعة للرهائن من قبل سراج الدولة، وأنه كان على البريطانيين التدخل لو لم يكن المغول حكامًا بشعيين.

فقلت ليتي: «ليس الأمر كما لو كنت واجهت صعوبات شديدة، فهناك العديد من الهنود في الإدارة المدنية، ما داموا مؤهلين...».

رد رامي: «نعم، ذلك أن كلمة «مؤهلين» تعني طبقة النخب التي تتحدث الإنجليزية وتتصرف كأذنان البريطانيين. لسنا محكومين، بل يساء حكمنا. فأقل ما يقال عما يحدث في بلادي إنه سطو، ليست تجارة مفتوحة، بل استنزاف مالي، إنه سلب ونهب. لم نحتج لمساعدتهم أبدًا، ولم يعملوا أي شيء سوى اختلاق قصة بسبب شعورهم بتفوق في غير محله».

فقلت ليتي بتحدّ: «لو كان هذا هو تفكيرك، فماذا تفعل في إنجلترا؟».

نظر رامي إليها وكأنها مجنونة وأجاب: «أتعلم يا امرأة».

فقلت بتهكم: «آه! تريد الحصول على الأسلحة كي تسقط الإمبراطورية؟ تريد أن تأخذ بعض قوالب الفضة إلى وطنك وتشعل ثورة، أليس كذلك؟ هل تعمل مسيرة في بابل ونعلن عن نواياك؟».

ولأول مرة، لم يرد رامي بسرعة، إذ قال بعد برهة: «ليس الأمر بهذه البساطة».

«أوه! حقًا؟». وهنا وجدت ليتي وترًا حساسًا تلعب عليه كما يجد الكلب عظمة، ولم تكن لتستسلم، فأردفت: «إذ يبدو لي الأمر وكأنك أتيت لتلقي تعليم بريطاني، وهو ما يجعل الإنجليز أرفع شأنًا، ما لم يوجد معهد لغات أفضل في كالكوتا».

رد رامي بسرعة: «هناك العديد من المدارس المتميزة في الهند، فالبنادق هي ما يرفع شأن الإنجليز. إنها البنادق والرغبة في استخدامها ضد الأبرياء».



«إِذَا، فقد جئت لشحن الفضة لأولئك الجنود الهنود المتمردين، أليس كذلك؟».

كاد روبين يقول: لعله يجب ذلك، لعل ذلك هو ما يحتاج إليه العالم بالتحديد.

لكنه أوقف نفسه قبل أن يفتح فاه، لا خوفاً من خيانة ثقة جريفيين، بل بالأحرى لأنه لم يكن ليتحمل مغبة اعترافه الذي كان ليحطم الحياة التي بنوها لأنفسهم، ولأنه هو نفسه لم يستطع حل التناقض بين رغبته في النجاح في بابل، حتى بعد أن راح يتضح له يوماً تلو الآخر مدى الظلم الذي كانت تقوم عليه ثرواتها. كانت الطريقة الوحيدة التي يبرر بها سعادته هنا، أي التعرّيج بين الفرقتين، ممثلة في مواصلة انتظار رسائل جريفيين ليلاً، وهي الثورة الصامتة الخفية التي كان غرضها الوحيد هو تخفيف شعوره بالذنب حيال وجود ثمن لهذه السعادة وذاك الترف.



الفصل الثامن



«في الماضي، لم نعتبره أمرًا غير لائق أن تجتمع زُمرة من الشباب، الذين جُلدوا قبل ثلاثة أشهر ولم يُسمح لهم بتناول الشراب في وطنهم، في غرف بعضهم؛ لتناول الأناناس والمثلجات.»

وليم ميكبيس ثاكيري

كتاب المتعجبين

في الأسابيع الأخيرة من نوفمبر، ساعد روبين جمعية هرمس في ثلاث سرقات سارت كلها وفقًا للروتين الدقيق والفعال للسرقة الأولى. كان الروتين يبدأ بترك رسالة على حافة النافذة، ولية ممطرة، وموعِد في منتصف الليل، وأدنى تواصل مع شركائه في الجريمة باستثناء نظرة عابرة وإيماءة. لم يتلقَ أبدًا نظرة عن قرب من باقي العملاء، كما لم يعرف ما إذا كانوا الأشخاص أنفسهم في كل مرة، ولم يكتشف ما كانوا يسرقونه، بل كل ما كان يعرفه هو أن جريفيين قال إن مشاركته تساعد في حرب غامضة ضد الإمبراطورية، وكان كل ما يجب عليه عمله هو الثقة في كلام جريفيين.

ظل يعيش على رجاء استدعاء جريفيين له لدرشة جديدة خارج ذا تويستد روت، لكن بدا أن أخاه غير الشقيق كان مشغولًا بإدارة منظمة عالمية لم يمثل روبين سوى جزء ضئيل منها.

كاد روبين يُقبَض عليه أثناء السرقة الرابعة، إذ أسرعت كاثيري أونيل - إحدى طالبات الفرقة الثالثة - بالدخول من الباب الأمامي أثناء وقوفه في الردهة. ولسوء الحظ، كانت كاثيري طالبة ثرثرة من صف دراسي أعلى، وكانت متخصصة في اللغة الاسكتلندية. ربما بسبب وحدثها فحسب لكونها



واحدة من اثنين فقط في مجال دراستها الفرعي، كانت تبذل قصارى جهدها في عقد صداقة مع الجميع في الكلية.

قالت ووجهها تنيره الابتسامة: «يا روبين! ماذا تفعل هنا في ساعة متأخرة كهذه؟».

فأجاب كاذبًا: «نسيت قراءات درايدن». وهنا يتحسس جيبه وكأنه وضع الكتاب فيه، ثم أردف: «يبدو أنني نسيت في الردهة».

ردت قائلة: «أوه! درايدن، يا للبؤس! أتذكر أن بلاي فير جعلنا نناقشه لمدة أسابيع. كان دقيقًا، لكنه كان مملاً».

«بل ممل للغاية». كان يرجو بشدة أن تنهي حديثها، إذ كانت الساعة الثانية عشرة وخمس دقائق.

فسألته كاثي: «هل يجعلكم تقارنون الترجمات في قاعة الدرس؟ ذات مرة، راح يستجوبني لمدة نصف ساعة حول اختياري كلمة أحمر بدلًا من يشبه التفاح، حتى إنني كدت أتصبب عرقًا».

مضت ست دقائق، التفت بعدها روبين إلى الدرج ثم إلى كاثي، ثم إلى الدرج حتى أدرك أن كاثي كانت تنظر إليه بترقب.

فرمش وقال: «أوه! بمناسبة درايدن، يجب أن أمضي».

فقالت: «أوه! آسفة، السنة الأولى في غاية الصعوبة وقد عطلتك».

«سررت بلقائك على أية حال».

فقالت ببشاشة: «أخبرني لو احتجت لمساعدتي. الأمور صعبة في البداية، ثم لا تلبث المصطلحات تصير أسهل، ثق بي».

«سأفعل بالطبع، إلى اللقاء». شعر بالذنب لفظاظته. كانت في غاية اللطف، وكانت عروضها غاية في الكرم، لا سيما لورودها من طالبة في صف دراسي أعلى. لكن كل ما كان يفكر فيه هو الأعوان في الطابق العلوي وما قد يحدث لو نزلوا في الوقت نفسه الذي سعدت فيه كاثي.



«حظاً سعيداً». وهنا لوحث كاثي له وانطلقت إلى الردهة. عاد روبين إلى البهو وتمنى ألا تستدير.

وبعد مرور وقت شبيه بالأبدية، أسرع شخصان متشحان بالسواد بهبوط الدرج.

أحدهما: «ماذا قالت؟». بدا صوته مألوفاً لروبين. غير أن الأخير كان في غاية الارتباك، فلم يستطع تحديد صاحب الصوت.

فدفع روبين الباب الأمامي وأجاب: «إنها ودودة فحسب». ثم انطلق الثلاثة إلى الخارج حيث برد الليل. «هل أنتما بخير؟».

لم يحر أي شخص جواباً، إذ كانا قد انطلقا تاركين إياه وحده في الظلمة والمطر.

كان شخص أكثر حذراً ليترك هرمس وقتها، ولم يكن ليخطر بمستقبله كله من أجل تلك الاحتمالات الضعيفة. لكن روبين فعلها مجدداً. لقد ساعد في سرقة خامسة ثم سادسة. انتهى فصل ميكلماس، ومرت أيام الشتاء بسرعة، وبدأ فصل هيلاري الدراسي. لم يعد خفقان قلبه يرن في أذنيه حين كان يقترب من البرج في منتصف الليل. ولم يعد يشعر بأن الدقائق بين الدخول والخروج جحيم. صار كل شيء سهلاً، وصار فتح الباب مرتين أمراً بسيطاً، بل شديد البساطة حتى إنه عند السرقة السابعة، كان قد أقنع نفسه بأنه لم يكن يفعل شيئاً خطراً على الإطلاق.

قال جريفين: «أنت كفء جداً، ويحبون العمل معك، إذ تسير وفقاً للتعليمات ولا تضيف أي شيء».

بعد مرور أسبوع على بدء فصل هيلاري الدراسي، اجتراً جريفين على مقابلة روبين شخصياً مرة أخرى. راح الاثنان يسييران بخطى سريعة حول أكسفورد، متبعين نهر التايمز هذه المرة، ثم سارا جنوباً نحو كنيبنجتون. بدا اللقاء كأنه تقرير حول التقدم في منتصف الفصل الدراسي مع مشرف فظ



وقليل الظهور، ووجد روبين نفسه يستمتع بالإطراء محاولاً ألا يبدو كأخ صغير شديد الحماس، لكنه أخفق.

«هل أقوم بعملي إذا؟».

«بل تقوم به بشكل جيد جداً، وأنا في غاية السرور».

فقال روبين: «هل ستخبرني بالمزيد عن هرمس الآن، أو على الأقل عن المكان الذي تذهب إليه القوالب؟ ماذا تفعلون بها؟».

ضحك جريفين وقال: «اصبر».

سار الاثنان في صمت رديحاً من الزمن. كانت هناك عاصفة ذاك الصباح، وتدفقت مياه النهر بسرعة وصوت مرتفع تحت السماء المظلمة الملبدة بالغيوم. كانت أمسية بدا العالم فيها كأنه مجرد من ألوانه، أو لوحة فنية قيد العمل، أو مسودة مظلمة ومرسومة باللون الرمادي فحسب.

فقال روبين: «لدي سؤال آخر، وأعلم أنك لن تخبرني بالكثير عن هرمس الآن، لكن على الأقل أخبرني إلام يؤول كل هذا؟».

«ماذا تعني؟».

«أعني وضعي. يبدو الوضع الحالي جيداً، لطالما لم يُقبض علي، أقصد.. لكنه يبدو، لا أدري، غير قابل للاستمرار».

رد جريفين: «إنه بالطبع غير قابل للاستمرار، فسوف تجتهد في الدراسة وتتخرج، ثم سيطلبون منك كل أنواع الأشياء غير المقبولة من أجل الإمبراطورية. أو سوف يقبضون عليك كما قلت. يصل كل شيء لذروته في النهاية كما حدث معنا».

«هل يترك جميع أعضاء هرمس بابل؟».

«أعرف قليلين ممن بقوا».



لم يكن روبين متأكدًا من شعوره تجاه هذا، إذ كان يسرح دائمًا بخياله في حياة ما بعد بابل؛ مثل منحة دراسية ميسرة لو أراد، أو ضمان لسنوات من الدراسة كاملة التمويل في تلك المكتبات الرائعة، وهو يعيش في سكن الكلية المريح ويعلم الطلاب الأغنياء باللاتينية لو أراد مزيدًا من المال، أو مستقبل مهني مبهر يقضيه في السفر عبر البحار مع مشترى الكتب والمترجمين الفوريين. في نصوص زونزاي التي ترجمها مع الأستاذ شاكرافارتي، كانت عبارة تانتتو* تعني «طريقًا مستويًا» وكانت صورة بلاغية للحياة الهادئة. كان هذا ما يريده، طريقًا مهدهًا، بل ممرًا يصل به إلى المستقبل بلا مفاجآت. كان ضميره هو العائق الوحيد بالطبع.

قال جريفين: «ستبقى في بابل ما دام ذلك باستطاعتك. أعني، يجب ذلك إلى ما شاء الله، فنحن بحاجة لأناس بالداخل. لكن الأمر يزداد صعوبة كما ترى. ستجد نفسك عاجزًا عن مصالحة حسك الأخلاقي مع ما يطلبونه منك. ماذا يحدث لو وجهوك إلى البحث العسكري أو أرسلوك إلى حدود نيوزيلندا أو مستعمرة كيب؟».

«ألا يمكن تجنب مثل هذه التكاليفات؟».

ضحك جريفين قائلاً: «تمثل التعاقدات العسكرية أكثر من نصف أوامر العمل، وهي جزء لا غنى عنه في طلب التعيين. كما يدفعون بسخاء، وقد صار معظم مدرسين القدامى أغنياء من محاربة نابليون. كيف تظن أن والدنا العزيز تمكن من حيازة ثلاثة منازل؟ إن السعي الجاد يحول الخيال إلى حقيقة».

فسأل روبين: «فماذا بعد؟ كيف أتركهم؟».

«الأمر بسيط، تظاهر بالموت، ثم اختفِ عن الأنظار».



«أهذا ما فعلته؟».

«نعم، قبل نحو خمس سنوات. وستفعل ذلك في النهاية، ثم تصبح شبكاً في الحرم الجامعي الذي كنت تسيطر عليه ذات يوم، وترجو في قرارة نفسك أن يسمح ضمير بعض طلاب السنة الأولى لهم بمنحك فرصة للوصول إلى مكتبك القديمة». ثم حدجه جريفين بنظرة جانبية وهو يقول: «لم تعجبك هذه الإجابة، ليس كذلك؟».

تردد روبين، إذ لم يعرف كيف يعبر عن عدم ارتياحه. صحيح أن كان لترك حياة أكسفورد في سبيل هرمس جاذبية معينة، إذ كان يريد عمل ما يعمله جريفين، وكان يريد الوصول إلى عمليات هرمس الداخلية، والمكان الذي تذهب إليه قوالب الفضة، وما كانوا يصنعونه بها. كان يريد رؤية العالم الخفي. لكنه لو ذهب، فلن يعود أبداً.

قال روبين: «يبدو من الصعب أن يفصل المرء نفسه عن كل شيء».

رد جريفين: «أتعرف كيف سمّن الرومان الزغب؟».

فتنهذ روبين وقال: «جريفين».

«ألم يجعلك معلوك تقرأ لفارو؟ يصف "مزرعة السناجب" في كتاب ريس روتبسيك*. إنها آلية أنيقة. تصنع جرة مثقوبة كي تتنفس الزغب، وتُصقل الأسطح تمامًا، ما يجعل الهروب مستحيلًا. ثم تضع الطعام في الأماكن الفارغة وتحرص على وجود بعض الحواف والممرات كي لا تشعر الزغب بالملل. الأهم هو جعل المكان مظلمًا كي تظن الزغب دائمًا أنه وقت البيات الشتوي، ومن ثم، يصبح كل ما تفعله هو تناول الطعام وكسب الوزن».

فقال روبين بغضب: «حسنًا، حسنًا، لقد وضحت الصورة».

* وترجمته «عن الزراعة».



قال جريفيين: «أعلم أن الأمر صعب، إذ من الصعب أن تترك وضعك بما فيه من زخرف؛ فما زلت تحب معاشك الشهري، وزيك الطلابي، وحفلات الشراب، أنا واثق...».

فقال روبين بإصرار: «ليست حفلات شراب. لست... أعني لا أذهب لحفلات شراب. كما لا يتعلق الأمر بالمعاش الشهري ولا الأردية الغبية، بل لا أعرف، فهي... قفزة كبيرة فحسب».

كيف عساه يوضح الأمر؟ إن بابل يمثل أكثر من مجرد مظاهر راحة مادية، بل كان بالأحرى السبب الذي يجعله ينتمي لإنجلترا ولا يتسول في شوارع كانتون. كان بابل هو المكان الوحيد الذي تصبح فيه مواهبه ذات قيمة. كان بابل أماناً. لعل كل هذا كان منقوصاً من الناحية الأخلاقية. صحيح، لكن ماذا كان يعيب رغبة المرء في العيش؟

قال جريفيين: «لا تنزعج. لا يطالبك أحد بترك أكسفورد، فمن الناحية الاستراتيجية، ليس هذا من الحكمة. أعلم أنني حر وسعيد بالخارج، لكنني لا أستطيع دخول البرج. نحن محاصرون في علاقة تكافلية مع أدوات السلطة. نحن بحاجة للفضة ولأدواتهم، ورغم أن هذا مكروه، فإننا نعتزف بأننا نستفيد من أبحاثهم».

ثم دفع روبين. كان يقصد بهذا عمل حركة ودية، لكن لم يكن أي منهما يجيد مثل هذه الأمور، فبدت أشبه بتهديد بعيداً عما قصده جريفيين.

«أكمل قراءتك وابق بالداخل، ولا تقلق بشأن التناقض، فقد رُفع عنك الشعور بالذنب مؤقتاً. استمتع بمزرعة السناجب أيها الزغب الصغير».

تركه جريفيين على ناصية وودستوك، وراح روبين يراقب جسده النحيل يختفي في الشوارع ومعطفه يرفرف حوله كأجنحة طائر كبير، وتساءل كيف يعجب بشخص ويسخط عليه في ذات الوقت.



في الصينية القديمة، كانت الحروف 心 — تشير إلى نوايا الغدر والخيانة، وكانت تُترجم حرفيًا إلى كلمة «قلبين». وجد روبين نفسه في وضع حرج للغاية، إذ كان يحب الشيء الذي خانته مرتين.

كان يعيش أكسفورد وحياته فيها. كان من الجميل أن يكون في مصاف البابليين الذين كانوا أكثر مجموعة مميزة من الطلاب بعدة طرق. فإذا ما أظهروا ما يثبت انتماءهم لبابل، كانوا يؤذنون بالدخول إلى أي مكتبة في الكلية، بما في ذلك مكتبة كوردينجتون الرائعة التي لم تكن تحوي أي مراجع من التي كانوا يحتاجون إليها؛ لكنهم كانوا يترددون عليها بسبب جدرانها العالية وأرضياتها الرخامية التي كانت تشعرهم بالفخامة البالغة. كانت جميع نفقات العيش مُعتنى بها؛ فبعكس باقي الخدم، لم يكن يجب عليهم تقديم الطعام في الردهة أو تنظيف غرف المعلمين. كان مكان إقامتهم، وبعثتهم، وتعليمهم مدفوعة من بابل رأسًا، ومن ثم، لم يروا الفواتير على الإطلاق، بل والأهم، كانوا يحصلون على معاش قدره عشرون شلنًا كل شهر، علاوة على وصولهم للصندوق التقديري الذي كان باستطاعتهم استخدامه لشراء أي مواد تتعلق بمقرراتهم متى شاءوا. بل لو تمكنوا حتى من تقديم حجة واهية بأن قلمًا جافًا ذا غطاء ذهبي سيساعدهم في دراستهم، لدفعت بابل ثمنه!

لم تخطر أهمية هذا لروبين ببال حتى قابل بيل جاميسون مصادفة ذات ليلة في الغرفة العامة وهو يخمّش أرقامًا على قطعة من الورق ونظرة تعاسة على وجهه.

فقال لروبين موضحًا: «إنها معارك الشهر. لقد أسرفت في إنفاق ما أرسلته لي أسرتي من مال. لا أنفك أعاني عجزًا».

اندش روبين من الأرقام المكتوبة على الورقة، فلم يكن يتخيل أن نفقات التعليم في أكسفورد كانت بهذا الارتفاع.

فسأله: «ماذا ستفعل؟».



أجاب قائلاً: «لديّ بضعة أشياء أرهنها كي أعوض الفارق حتى الشهر المقبل، أو لعلّي أفوت بضع وجبات حتى وقتها». ثم نظر جاميسون لأعلى وقد بدا عليه عدم ارتياح بالغ، ثم أردف: «أقول، ولو أنني أكره أن أطلب، لكن أنظن...».

قال روبين بسرعة: «بالطبع. كم تريد؟».

«لم أكن لأطلب، لكن مصاريف هذا الفصل الدراسي - إنهم يكلفوننا بتشريح جنث، وأنا حقاً...»

فقال روبين: «لا عليك». ثم وضع يده في جيبه وجذب حافظته وبدأ يعد العملات. شعر أنه في غاية العجرفة وهو يفعل ذلك، فقد أخذ معاشه من الصراف هذا الصباح، وكان يرجو ألا يظن جاميسون أنه سيسير دائماً بحافظة ممتلئة كهذه. «هل سيغطي هذا نفقات الوجبات على الأقل؟».

«أنت طيب للغاية يا سويقت. سأعيد لك أموالك أول شيء الشهر القادم». ثم تنهد جاميسون وهز رأسه وقال: «يعتنون بك في بابل، أليس كذلك؟».

كانوا يعتنون به بالفعل، لا لأن بابل كانت ثرية فحسب، بل لأنها كانت محترمة كذلك. وكانت كليتهم هي الأرفع شأنًا في أكسفورد. كانت بابل هي من يتحدث عنها الطلاب بتفاخر حين كانوا يتجولون مع أقاربهم في الحرم الجامعي أثناء الزيارات. وكان أحد طلاب بابل، بلا منازع، هو من يفوز بجائزة تشانسلور تُمنح لأفضل القوائد المنظومة باللغة اللاتينية وكذا منحة كينيكوت العبرية. وكان طلاب بابل هم من يُدعون لحضور حفلات الاستقبال الخاصة* مع الساسة، والأرستقراطيين، والأثرياء ثراء فاحشًا

* كانت حفلات الاستقبال ممتعة في البداية، لكن سرعان ما أصبحت متعبة حين اتضح أن باحثي بابل كانوا ضيقًا أقل تميزًا وأفضل من الحيوانات المعروضة في الحديقة إذ كان يُطلب منهم الرقص وعمل الاستعراضات أمام المتبرعين الأثرياء. وكان روبين، وفيكتور، ورامي يُعاملون دائمًا كمثلين للبلاد التي أتوا منها. وكان روبين يضطر لتحمل خطبة قصيرة مزعجة عن الحدائق النباتية الصينية والأواني المطلية بالورنيش، أما رامي فكان يُنتظر منه شرح الآليات الداخلية للـ «العرق الهندوسي»، أيًا كان معنى هذا، وفيكتور كانت تُطالب على نحو غريب بالتعريف بمهارات التنبؤ في كيب.



والذين كانوا من زبائن المؤسسات الضاغطة. وذات مرة، أُشيع أن الأميرة فيكتوريا ستحضر بنفسها الحفل السنوي للكلية المقام في الحديقة، لكن اتضح أن الأمر غير صحيح، لكنها أهدتهم نافورة جديدة من الرخام وضعت في المرج بعدها بأسبوع، وهي التي سحرها الأستاذ بلاي فير بما كانت تطلقه من أقواس عالية متألئة من الماء طوال ساعات النهار.

وبانتصاف فصل هيلاري الدراسي، ومثل جميع دفعات بابل السابقة، تشرب روبين، ورامي، وفيكتور، وليتي ذاك الشعور المتعجرف الذي يشعر به الباحثون الذين يعلمون أنهم يسيطرون على الجامعة. كانوا يُسرون حين كان العلماء الزوار، الذين كانوا إما يتعالون عليهم وإما يتجاهلونهم في الأروقة، يبدؤون في تملقهم ومصافحتهم حين كانوا يصرحون أنهم يدرسون الترجمة.

لقد ذكروا بشكل عرضي كيف تمكنوا من الدخول لغرفة كبار الطلاب والتي كانت غاية في الجمال وغير مصرح بدخول غير الخريجين إليها في الوقت ذاته، رغم أنهم كانوا يقضون وقتًا قصيرًا هناك، إذ كان من الصعب عقد دردشة عادية مع أحد السادة القدامى المجعدين الجالس في الركن في حالة نوم عميق!

وبدأت فيكتور وليتي اللتان فهمتا أن وجود النسوة في أكسفورد كان سرًا مكشوفًا أكثر من كونه موضوعًا محظورًا في تنمية شعورهما، بل إن ليتي ظهرت ذات يوم في الردهة وقت العشاء مرتدية جُونة، لا سروالًا. وراح الصبية في الجامعة يتهايمسون ويشيرون، لكن أعضاء هيئة التدريس لم يقولوا أي شيء، وقُدمت لها أطباقها الثلاثة ومشروبها دون أي مشكلة.

لكن كانت هناك مظاهر أخرى لعدم انتمائهم للمكان. لم يكن أي شخص ليعمل رامي في أي من حاناتهم المفضلة لو كان ليدخل أولاً. ولم تكن ليتي وفيكتور لتأخذوا الكتب دون وجود طالب يضمنهما. وكان أصحاب المتاجر يفترضون أن فيكتور خادمة ليتي أو روبين. وكان البوابون يطلبون من



الأربعة عدم المشي فوق الحشائش لأنه كان ممنوعاً، في حين راح باقي الأولاد يدوسون على العشب الرقيق حولهم.

الأكثر من ذلك أن الأمر استغرق عدة أشهر ليتعلموا التحدث بطريقة طلبية أكسفورد. كانت لغة أكسفورد الإنجليزية مختلفة عن لغة لندن، ويُعزى تطورهما بشكل كبير إلى نزوح الطلاب غير الخريجين لتحريف واختصار كل شيء تقريباً. كانت "ماجلين" تُنطق "مُودلين"، وبنفس الطريقة، أصبحت "سانت ألديتس" تُنطق "سانت أولدس". وصارت "الماجنا فاكاتشيو" تُنطق "ذا لونج فاكيشن" ثم "ذا لونج". استغرق الأمر شهوراً قبل أن يعتاد روبين على نطق كلمة "يونيف" حين كان يقصد "يونيفرستي كوليدج". وكانت كلمة "سبريد" تعني حفلاً به عدد كبير من الضيوف، أما "بيدج"، فكانت اختصار لـ "بيد جونهل" والتي كانت تعني بدورها أحد الصناديق الخشبية التي يُفرز فيها بريدهم.

كما شملت الطلاقة اتباع مجموع كاملة من القواعد الاجتماعية والتقاليد غير المنطوقة التي كان روبين يخشى عدم تمكنه من فهمها بالكامل. فلم يفهم، مثلاً، أي منهم القواعد الخاصة باستخدام بطاقات الزيارة، أو كيف يندمج الشخص في النظام البيئي الاجتماعي للكلية في المقام الأول، أو كيف كانت مختلف الطبقات المترابطة للنظام المذكور تعمل*. ولطالما سمعوا شائعات عن حفلات يسودها الطيش، وليال مجنونة تُقضى في الحانة، ولقاءات للجماعات السرية، وحفلات الشاي التي كان فلان يسلك فيها بوقاحة نحو معلمه أو حيث أهان علان شقيقة أحدهم، لكنهم لم يحضروا أي من تلك الفعاليات بشكل شخصي.

* صار روبين واعياً بمختلف «مجموعات» الناس الذين يعمل الشخص معهم من خلال كولن ثورنهيل والأخوين شارب، والتي تضمنت «المسرعين» و«المبطنين» و«المبطنين» و«القارئين» و«السادة المهذبن» و«الأوباش» و«الخطاة» و«المبتسمين» و«القديسين»، فظن أنه يمكن تصنيفه كـ «قارئ» وكان يرجو ألا يكون من «الأوباش».



فسأل رامي: «كيف حدث أننا لم نُدع لحضور حفلات الشرب؟ فنحن مجموعة مبهجة».

فأوضحت فيكتوار: «نحن لا نشرب».

«حسنًا، أود تقييم الجو العام...».

قالت ليتي: «لأن أنت نفسك لا تقيم حفلات شراب. إنه اقتصاد قائم على المشاركة المتكافئة. هل وصل أحدهما بطاقة زيارة؟».

أجاب روبين: «لا أظنني رأيت بطاقة زيارة. أهنأك فن لكتابتها؟».

قال رامي: «بل طريقة في غاية السهولة. إلى السيد بندنيس المحترم، الوحش الجهنمي، سأقدم لك مشروبات مسمومة الليلة. تَبَّ لك. عدوك ميرزا. أليس كذلك؟».

فقالت ليتي بسخرية: «يا للأدب! ليس غريبًا أنك لست من نخب الجامعة».

من المؤكد أنهم لم يكونوا من نخب الجامعة، بل وحتى البابليون ذوو البشرة البيضاء في الفرق الدراسية الأعلى لم يكونوا من النخب، إذ جعلت بابل الجميع في غاية الانشغال بالمقررات، فلم يستمتعوا بأي حياة اجتماعية. واقتصرت هذه السمة على وصف طالب في الفرقة الثانية بالجامعة يُدعى إلتون بندنيس وأصدقائه. كانوا جميعًا من النبلاء غير المنتمين للأسرة المالكة، وهو ما يعني أنهم دفعوا مصاريف أكبر لتجنب دخول اختبارات القبول وللاستمتاع بامتيازات زملاء الكلية.

كانوا يجلسون على طاولة مرتفعة في الردهة، ويسكنون شققًا أجمل من الأجنحة الطلابية في ماجباي لين، وكانوا يلعبون السنوكر في الغرفة العامة للطلاب متى شاءوا. كانوا يستمتعون بالصيد، والتنس، والبيلياردو في عطلات نهاية الأسبوع ويذهبون إلى لندن بالحافلة كل شهر لحضور حفلات العشاء والحفلات الراقصة. لم يتسوقوا من هاي ستريت على الإطلاق، إذ كانت أحدث الصيحات،



والسيجار، والإكسسوارات تُحضر رأسًا من لندن إلى مقراتهم بواسطة الباعة الذين لم يهتموا حتى بذكر السعر.

كانت ليتي، التي تربّت مع أولاد مثل بندنيس، تستهدفه وأصدقائه بسيل جاراف من السب والقبح. «يتعلم الأولاد الأغنياء على حساب والدهم. أراهن أنهم لم يفتحوا كتابًا في حياتهم. لا أعرف لماذا يظن إلتون أنه شديد الوسامة، إذ تشبه شفتاه شفتي الفتيات. يجب ألا يعبس. هكذا تبدو تلك السترات مزدوجة الصدر سخيفة ولا أدري لماذا لا ينفك يخبر الجميع بأنه متفاهم مع كلارا ليلي، أعرف كلارا وهي تقريباً مخطوبة للابن الأكبر لآل وولكوت...».

مع ذلك، لم يستطع روبين منع نفسه من أن يحسداهم، أولئك الذين ولدوا في العالم وتحذثوا لغته الأصلية. فحين كان يرى إلتون بندنيس ومجموعته يتمشون ويتصاحكون في المرح، لم يكن منه إلا أن يتخيل، ولو للحظة، ما سيكون عليه وضعه لو صار عضوًا في تلك المجموعة. كان يريد أن يعيش حياة بندنيس، لا من أجل متعها المادية بشكل أساسي - المثلة في السيجار، والملابس، وموائد العشاء - بل من أجل ما تمثله من ثقة واطمئنان يرحب بهما أي شخص في إنجلترا. فلو حقق طلاقاً بندنيس أو حتى قلدها، لاندمج في نسيج تلك الحياة الجامعية المثالية، وما كان ليُعد أجنبيًا يشكك الجميع في نطقه كل مرة، بل من أهل البلاد الذين لا يُنقض انتماءهم أو يصبح مجالاً للشك.

وذاً ليلة، صُدم روبين حين وجد بطاقة مصنوعة من ورق مكتبي منقوش موضوعاً في رفّه البريدي، وكان فحواها:

روبين سوفيت...

يسرنا الالتقاء بك لتناول بعض المشروبات يوم الجمعة المقبل الساعة السابعة لو أردت الحضور من البداية أو أي وقت معقول بعدها، فلسنا صارمين.



كانت البطاقة موقعة بخط شديد الأنافة استغرق من روبين لحظة لفك شفرته: إلتون بندنيس.

حين أبرز روبين البطاقة لرامي، قال الأخير: «أظنك تعطي هذا الأمر أكثر من حقه، لا تقل إنك ستذهب فعلاً».

فأجاب روبين بضعف: «لا أريد أن أكون وقحاً».

«من يبالي ما إذا كان بندنيس يراك وقحاً؟ لم يدعك بسبب أخلاقك الحميدة، بل لأنه يريد عقد صداقة مع شخص في بابل».

«شكراً يا رامي».

تجاهل رامي هذه الإجابة وتابع: «السؤال هو لماذا دعاك أنت؟ فأنا أكثر جاذبية منك».

قالت فيكتوار: «لست مهذباً كفاية، لكن روبين مهذب».

رد رامي: «لا أفهم ما يعنيه الجميع بكلمة "مهذب"، يستخدمها الناس بشكل عفوي ليشيروا للطبقة العليا والمرموقة. لكن ماذا تعني بالفعل؟ هل تعني أن المرء فاحش الثراء؟».

قالت فيكتوار: «بل أعنيها في السياق الأخلاقي».

قال رامي: «هذا مضحك جداً، لكن المسألة لا تتعلق بالأخلاق، بل يتمثل الأمر في كون روبين يعد أبيض، بينما لسنا كذلك».

لم يصدق روبين كيف كانوا يتعاملون مع الأمر بتلك الوقاحة. «هل يستحيل أن يريدوا صحبتي فحسب؟».

«ليس مستحيلاً، لكنه غير وارد فحسب. فأنت عدو من تجهل».

«لست كذلك».



«أنت كذلك، إذ تصمت وتنزوي في ركن وكأن أحدهم سيطلق عليك النار».

وهنا طوى رامي ذراعيه وأمال رأسه. «لماذا تريد أن تتناول العشاء معهم؟».

«لا أدري، فليس سوى حفل شراب».

فسأل رامي بالحاح: «ماذا سيحدث بعد حفل الشراب؟ أظنهم سيضمونك إلى مجموعتهم؟ هل تطمح لأن يأخذوك إلى نادي بولنجدون؟».

كان النادي في بولنجدون جرين منشأة تقتصر على تناول الطعام وممارسة الرياضة حيث كان الشباب يقضون فترة بعد الظهر في الصيد أو لعب الكريكت. كانت العضوية تُمنح لأسباب غامضة بدت شديدة الارتباط بالثراء والنفوذ. ورغم تمتع بابل بمكانة عالية، لم يطمح أي من طلابها، ممن كان روبين يعرفهم، لتلقي دعوة للذهاب إلى هناك.

قال روبين من باب المعارضة فحسب: «ربما سيكون إلقاء نظرة على المكان أمرًا لطيفًا».

فقال رامي بنبرة اتهام: «أنت متحمس وترجو أن يحبوك».

«من الأفضل أن تعترف بغيرتك».

«لا ترجع باكيًا لو سكبوا المشروبات على قميصك وأهانوك».

فرد روبين باسمًا: «ألن تدافع عن شرفي؟».

فضربه رامي في كتفه ضربة خفيفة وقال: «اسرق طفاية سجائر من أجلي، سأرهنها لتسديد ديون جاميسون».

لسبب ما، كانت ليتي هي من يعترض بشدة على قبول روبين دعوة بندنيس. فحين تركوا المقهى وتوجهوا إلى المكتبة، بعد أن حادت المحادثة عن مسارها بوقت طويل، جذبته من مرفقه حتى ابتعدا مسافة كبيرة عن رامي وفيكتور.



قالت ليتي: «ليس أولئك الشبان جيدين، فهم مدمنون، وكسالى، وذوو تأثير سيئ».

ضحك روبين وقال: «إنه مجرد حفل لتناول الشراب يا ليتي». فقالت بإصرار: «فلماذا تريد الذهاب إذا؟ لست مغرمًا بتناول الشراب». لم يفهم لماذا كانت تبالغ في تقدير هذا الأمر، فقال: «لدي فضول فحسب. لن يكون شديد السوء».

فردت بإصرار: «فلا تذهب إذا، وتخلص من هذه البطاقة». «حسنًا، لا، هذه وقاحة، ولن أكون مشغولًا بشيء في تلك الليلة...». ردت ليتي: «يمكنك قضاؤها معنا. يريد رامي أن يطهو شيئًا». «لا ينفك رامي يطهو، ومذاق كل ما يطهوه سيئ».

فقالت باستغراب: «أوه! لعلك ترجو أن يرفعوا من شأنك؟ سوفيت وبندنيس صديقان مقربان. أليس هذا ما تريده؟». شعر ببعض الانزعاج وقال: «أيزعجك أن يكون لي أصدقاء آخرون؟ بقي بي يا ليتيتيا، لا شيء يضاهي صحبتكم».

فردت قائلة: «فهمت». لكنه صدم لأن صوتها تهدج، كما لاحظ أن عينيها قد احمرتا. هل كانت موشكة على البكاء؟ ماذا كان خطبها؟ ثم أردفت: «فهذا هو الأمر إذا».

قال بإحباط: «إنه حفل شراب فحسب. ما الأمر يا ليتي؟». أجابت قائلة: «لا عليك. تناول الشراب مع من يعجبك». ثم أسرعت الخطى.

فرد بسرعة: «سأفعل». لكنها كانت قد ابتعدت عنه.



وفي تمام السابعة إلا عشر دقائق يوم الجمعة، ارتدى روبين سترته الجميلة الوحيدة، وأخرج من تحت سريره زجاجة عصير كان قد اشتراها في تايلورز، ثم سار نحو شقق ميرتون ستريت. لم يجد صعوبة في العثور على مقر إقامة بندنيس. فحتى قبل أن يشق طريقه، سمع جلبة وصوت بيانو غير منتظم الإيقاع ينبعث من النوافذ.

كان عليه أن يطرق عدة مرات كي يسمعه أحد، ثم انفتح الباب كاشفاً عن صبي أشقر الشعر بصعوبة تذكر روبين أن اسمه سان كلاود.

فقال وهو يتفحص روبين بعينين شبه مغلفتين: «أوه! لقد أتيت». بدا ثملاً. قال روبين: «أليس هذا من باب الأدب باعتباري مدعوًا؟». شعر بالضيق لاتخاذ صوته نبرة السائل.

فأوماً سان كلاود، ثم استدار وأشار له بشكل غير محدد بالدخول قائلاً: «فلتدخل».

كان هناك ثلاثة فتية آخرين جالسين على كراسي استرخاء في غرفة الصالون التي كانت معبأة بدخان السيجار، ما جعل روبين يسعل بمجرد دخوله.

كان جميع الأولاد محتشدين حول إلتون بندنيس كالأوراق حول البرعم. وحين اقترب روبين منه، رآه وسيماً، ومن ثم، لم يكن في الحديث عن وسامته أي مبالغة. كان أحد أكثر الرجال الذين قابلهم روبين وسامة، بل كان تجسيداً لأحد أبطال شعر اللورد بايرون. كانت عيناه المغطاة بالقبعة محاطة برموش سميقة داكنة، وكانت شفاته الممتلئتان تبدوان كشفتي فتاة، كما سخرت منه ليتي، لولا وجود فك قوي مربع.

كان يقول: «ليست الصحبة، بل الملل، إذ تظل لندن مبهجة لفصل واحد، ثم لا تلبث أن ترى الوجوه نفسها عامًا تلو الآخر، ولا تزداد الفتيات جمالاً، بل يكبرن سناً فحسب. فلو ذهبت لحفل، فكأنك ذهبت لجميع الحفلات. أتعرفون أن أحد أصدقاء والدي وعد أحد معارفه المقربين أن يضفي الحيوية



على مجالسهم؟ لقد أعد حفل عشاء فخماً ثم أمر خدمه أن يخرجوا ويدعوا من يقابلهم من الشحاذين والمشردين. وحين وصل أصدقاؤه، رأوا أولئك المشردين العشوائيين في حالة ثمالة يرقصون على الطاولات. كان الأمر مضحكاً للغاية. وددت لو دعاني».

وهنا انتهت النكتة، فضحك الجمهور في الوقت المناسب. وبعد أن أكمل بندنيس مناجاته، نظر إلى أعلى وقال: «أوه! مرحباً، ألسنت روبين سويفت؟».

وفي تلك اللحظة كان تفاؤل روبين المؤقت بأنه سيقضي وقتاً طيباً قد تبدد، وصار يشعر بالإرهاك. أجاب روبين: «بلى».

فقال بندنيس: «أنا إلتون بندنيس. نحن سعداء بحضورك». ثم مد يده مصافحاً روبين.

بعدها أشار حول الغرفة بسيجاره ناشراً الدخان وهو يقدم الناس. «أقدم لك فينيسي وولكومب». وهنا حيا صبي ذو شعر أحمر جالس بجوار بندنيس روبين ملوحاً بطريقة ودودة. «وهذا ميلتون سان كلاود الذي كان يقدم العرض الموسيقي». فأوماً سان كلاود ذو الشعر الأشقر والبشرة المنمشة بكسل وهو جالس على المقعد المقابل للبيانو، ثم استأنف عزف مقطوعة معدومة الإيقاع. «وهذا كولين ثورنهيل. تعرفه...».

قال كولين بحماس: «نحن جيران في ماجباي لين. يقيم روبين في الغرفة رقم سبعة، وأنا في رقم ثلاثة...».

فرد بندنيس: «قلت هذا عدة مرات».

تراجع كولين. كان روبين يود أن يكون رامي موجوداً ليرى هذا، إذ لم يقابل شخصاً يستطيع إهانة كولين بنظرة واحدة.

فسأله بندنيس: «هل تشعر بالعطش؟». كانت جميع أنواع الشراب مرصوصة على الطاولة على نحو جعل روبين يشعر بالدوار لمجرد النظر إليها! «تفضل باختيار ما تريد، فلا يمكننا الاتفاق على نفس الشراب. تُصب



أنواع مختلفة من الشراب هناك. أوه! أرى أنك أحضرت شيئاً. ضعه على الطاولة فحسب». لم يكثرث بندنيس حتى بالنظر إلى الزجاجاة، بل تابع: «هذا هو العَبْسِين، وذلك الشراب... ويتبقى بعض عصير العنب هناك. يمكنك إنهاء الزجاجاة، فليس جيداً جداً. لقد طلبنا حلوى من سادلرز، ففضل بتناول بعضها وإلا ستفسد لو تُركت هكذا».

فقال روبين: «سأخذ بعض عصير العنب لو أمكن».

قلما كان زملاؤه يشربون احتراماً لرامي. لم يكن قد اكتسب معرفة مفصلة عن أنواع الشراب وما تشي به عن شخصية المرء. لكن الأستاذ لوفيل كان يشرب عصير العنب دائماً، فبدأ عصير العنب آمناً.

«بالطبع. هناك كلاريه أو بورت، وهناك ماديرالو أردت شيئاً أقوى. أتريد سيجاراً؟».

«أوه! كلا، هذه جيد. أشكرك». ثم انسحب روبين إلى مقعد خالي، حاملاً قدحاً ممتلئاً.

قال بندنيس وهو متكئ على كرسيه: «أنت بابلي إذًا».

راح روبين يرتشف شرابه محاولاً تقليد خمول بندنيس. كيف يجعل المرء هذه الوضعية الكسولة بهذه الأناقة؟ أجاب روبين: «هكذا يسموننا».

«ماذا تدرس؟ لعلها اللغة الصينية؟».

قال روبين: «تخصصت في لغة الماندرين. مع ذلك، أدرس مقارنات مع اليابانية، وكذا السنسكريتية...».

فسأل بندنيس بإلحاح: «أنت صيني إذًا؟ لم نكن متأكدين. أظنك تبدو إنجليزيًا، لكن كولين أقسم أنك شرقي».

قال روبين بهدوء: «ولدت في كانتون. مع ذلك، أعتبر نفسي من أصول إنجليزية كذلك...».

فقاطعهما وولكومب: «أعرف الصين. قوبلاي خان».



تلا ذلك لحظة صمت قصيرة.

قال روبين: «نعم». كان يتساءل ما إذا كانت الكلمة تعني أي شيء.

فقال وولكومب موضحًا: «إنها قصيدة لكونلريدج. إنه عمل أدبي ذو طابع شرقي خالص. مع ذلك، تعد قصيدة رومانسية بعض الشيء».

قال روبين محاولاً بجد أن يبدو مهذبًا: «هذا مثير للاهتمام. يجب أن أقرأه».

ثم عم الصمت مجددًا، فشعر روبين ببعض الضغط لاستكمال المحادثة، فشرع في تحويل السؤال حول: «أتساءل: ماذا ستفعلون جميعًا؟ أعني ماذا ستفعلون بدرجاتكم العلمية؟».

فضحكوا، ووضع بندنيس ذقنه على يده وقال متمطياً في الكلام: «نفعل؟ تنتمي هذه الكلمة للطبقة العمالية. أفضل حياة الفكر وإعمال العقل».

فقال وولكومب: «لا تُصغ إليه، فسوف يعيش على إيراد ضيعته ويُخضع جميع ضيوفه لملاحظاته الفلسفية حتى يموت. أما أنا فسأصبح رجل دين وسيصبح كولين محامياً، أما ملتون فسيصبح طبيباً، هذا إن وجد في نفسه رغبة في حضور المحاضرات».

فوجه روبين سؤاله إلى بندنيس: «ألا تتدرب على أي مهنة هنا؟».

أجاب بندنيس بعدم اكتراث متعمد: «بل أكتب. إنني أقرض الشعر. لم أنتج الكثير مؤخراً...». كان يتحدث كالمغرور الذي يُلقى للناس فتاتاً من المعلومات علّهم ينبهرون بها!

هتف كولين في الوقت المناسب: «أره، أره. إنه شعر عميق جداً. مهلاً حتى تسمعه يا روبين...».

«حسناً». فمال بندنيس إلى الأمام متظاهراً بالتردد وأمسك بكومة من الأوراق التي أدرك روبين أنها كانت مفروشة للعرض فوق منضدة القهوة



طوال الوقت، ثم قال: «هذه القصيدة رد على قصيدة أوزيماندياس* لشيلي والتي تُعد - كما تعلم - قصيدة غنائية عن زحف الزمن بلا هوادة ضد جميع وتراثها. لقد احتجبت فحسب على أن تراث العصر الحديث يمكن أن يُبنى ليبقى وأن هناك رجالاً عظماء من هذه الشاكلة في أكسفورد يستطيعون القيام بهذا العمل العظيم». ثم تتحنن وأردف: «لقد فتحت بالبيت نفسه الذي كتبه شيلي: قابلت مسافراً من أرض قديمة...».

اتكأ روبين وتجرع باقي الشراب. ومضت عدة ثوانٍ أدرك بعدها أن القصيدة انتهت، وأن تقييمه مطلوب.

وإذ لم يكن لديه شيء أفضل يقوله، رد بملل: «هناك مترجمون يعملون على شعر شيلي في بابل».

فقال بندنيس: «ليس هذا العمل نفسه طبعاً، فترجمة الشعر وظيفة من يفتقرون لمكة الإبداع، ولا يستطيعون سوى السعي وراء بقايا الشهرة المسروقة من أعمال الآخرين».

فقال روبين بسخرية: «لا أعتقد أن هذا صحيح».

رد بندنيس: «لا تعرف شيئاً، فلست شاعراً».

قال روبين: «في الواقع...» ثم راح يُحرك ساق الكأس بعصبية للحظة، ثم قرر مواصلة الحديث: «أعتقد أن الترجمة قد تكون أكثر صعوبة من العمل الأصلي في نواح عديدة. فالشاعر حر، يستطيع أن يقول ما يريد كما تعلم، بل يستطيع اختيار أي عدد من الحيل اللغوية في اللغة التي يستخدمها في الكتابة. فاختيار الكلمات، وترتيبها، وأصواتها كلها مهمة، ومن دونها ينهار كل شيء. لهذا كتب شيلي أن ترجمة الشعر تشبه في دقتها إلقاء زهرة بنفسج

* كان الكثير من طلاب الجامعة يتخيلون أنفسهم خلفاء لبيرسی بيش شيلي الذي قلما كان يحضر المحاضرات وطُرد لرفضه الاعتراف بتأليف منشور بعنوان «ضرورة الإلحاد». ثم تزوج فتاة لطيفة تدعى ماري، وغرق لاحقاً جراء عاصفة شديدة قبالة خليج لاريتشي.



في بوتقة*. ومن ثم، على المترجم أن يصبح مترجمًا، وناقداً أدبيًا، وشاعرًا في ذات الوقت. عليه أن يقرأ العمل الأصلي بطريقة دقيقة كي يفهم كل الأدوات المستخدمة ويعبر عن معناه بالدقة الممكنة، ثم يُعيد ترتيب المعنى المُترجم في اللغة المستهدفة على هيئة تراكيب جميلة وممتعة كي يتسنى له، وفقًا لرأيه، مضاهاة الأصل. يركض الشاعر بحرية في المروج، بينما يرقص المترجم وهو مُقيّد بأغلال».

وحين انتهى من خطبته، وجد بندنيس وأصدقاءه ينظرون إليه بهشة فاغرين أفواههم في حيرة وكأنهم لا يعلمون كيف يفسرون سلوكه.

قال وولكومب بعد برهة: «يرقص مُقيّدًا بأغلال، هذا تعبير جميل».

رد روبين لكن على نحو أكثر حدة مما انتوى: «لكني لست شاعرًا، فما الذي أعرفه إذا؟».

كان توتره قد تبدد تمامًا، ولم يعد مهتمًا بمظهره، ولا سواءً كانت سترته مقفولة جيدًا أو ما إذا كانت هناك فتات خبز في فمه. لم يعد راغبًا في نيل استحسان بندنيس، بل لم يعد يعبأ باستحسان هؤلاء الفتية على الإطلاق. لقد صُدم من حقيقة هذا اللقاء على نحو جعله يكاد يضحك بصوت مرتفع. لم يكونوا يقيمونه كي يصبح من أعضاء مجموعتهم، بل كانوا يحاولون إبهاره، وإذ ذلك، كانوا يبرزون تفوقهم ويثبتون أن كون المرء طالبًا في بابل لا يعني أنه يصلح صديقًا لالتون بندنيس.

لكن روبين لم ينبهر. أكان هؤلاء نخبة مجتمع أكسفورد؟ هؤلاء؟ شعر بشفقة كبيرة عليهم - هؤلاء الأولاد الذين كانوا يعتبرون أنفسهم رياضيين ويطنون أن حياتهم راقية بالقدر الذي يمكن أن تكونه الحياة المدرسية. لكنهم

* رغم عدم تفضيل روبين شعر شبلي بوجه عام، فإنه قرأ رأيه في الترجمة وكان يحترمه على مضض. «ومن هنا ينبع عبث الترجمة، فهي تماثل في دقتها إلقاء زهرة بنفسج في بوتقة كي يتسنى للمرء اكتشاف مفهوم اللون والرائحة، وهو ما يشبع السعي لنقل إبداعات الشاعر من لغة إلى أخرى. يجب أن تنمو النبتة من بذرتها وإلا لن تثمر، وهذه هي اللعنة التي تحملها بابل».



لن يحفروا كلمة على قالب فضة ويشعروا بأهمية معنى أن يهتز بين أصابعهم. لن يُغيروا شكل العالم بمجرد أن يتمكنوا ذلك.

وهنا بدا على وولكومب بعض الانبهار، فسأله: «أهذا ما تتعلمونه في بابل؟». وبدا الأمر كأن لا أحد يجرؤ على معارضة إلتون بندنيس.

قال روبين: «يُعلموننا هذا بل وأكثر». كان روبين يشعر بالنشوة كلما تحدث. كان هؤلاء الفنية تافهين، وكان بإمكانه تدميرهم بكلمة واحدة لو شاء، بل كان يستطيع القفز فوق أريكة ورش بعض من شرابه على الستائر دون عقاب، إذ لم يعد يعبأ. كانت تلك النفحة من الثقة الغامرة جديدة عليه تمامًا، لكنها كانت تعطيه إحساسًا جيدًا، فأردف: «بالطبع، تستهدف بابل بالفعل أعمال الفضة، لكن كل ما يتعلق بالشعر مجرد نظرية أساسية».

كان يتحدث في تلك اللحظة دون تفكير، إذ لم يكن لديه سوى فكرة مُشوشة عن النظرية الأساسية، لكن ما قاله بدا جيدًا ومُمنقًا.

فألح سان كلاود بالسؤال: «هل سبق لك العمل على الفضة؟»، فحدجته بندنيس بنظرة توتر، لكن سان كلاود تابع: «أهو صعب؟».

أجاب روبين: «ما زلت أتعلم الأساسيات. لدينا عامان من الدراسة، ثم عام من التدريب على أحد الطوابق، يلي ذلك أن أبدأ حفر القوالب بنفسي».

فقال بندنيس: «هلا شرحت لنا؟ هل يمكنني عمل هذا؟».

«لن تتجع معك».

فعاود بندنيس السؤال: «لَمْ لا؟ أجيذ اللاتينية واليونانية».

فقال روبين: «لا تجيدهما على النحو الكافي. يجب أن تعيش اللغة وتنفسها، لا التخط في النص بين الحين والآخر. أتحلم بلغات عدا الإنجليزية؟».

فرد بندنيس بسرعة: «هل تفعل أنت؟».

أجاب روبين: «حسنًا، بالطبع، فأنا صيني على أي حال».



عم الغرفة صمت مُريب مجدداً، فقرر روبين تخليصهم من معاناتهم، فقال وهو يهم بالوقوف: «شكراً لدعوتكم، لكن يجب عليّ أن أتجه إلى المكتبة».

قال بندنيس: «بالطبع، أنا متأكد أنهم يبقونك منهمكاً بالعمل».

لم ينطق أحد بكلمة أثناء أخذ روبين معطفه، وراح بندنيس يراقبه باسترخاء وعينين مغلقتين وهو يرشف الشراب ببطء. كان كولين يومئ بسرعة كبيرة، بل وفتح فاه مرتين لكن دون أن ينبس ببنت شفة، فيما أشار ملتون بتردد للنهوض لمرافقته إلى الباب، لكن روبين لوح له بأن يبقى جالساً.

فسأل بندنيس: «هل يمكنك الاهتداء إلى طريقك إلى الخارج؟».

فأجاب روبين أثناء خروجه: «أعرف طريقي جيداً، فليس المكان كبيراً».

وفي صباح اليوم التالي، قص روبين كل شيء على زملائه الذين انفجروا ضاحكين.

فتوسلت إليه فيكتور: «أرجوك اتلّ عليّ القصيدة مجدداً».

قال روبين: «لا أتذكرها مُطلقاً. لكن دعيني أفكر. مهلاً، نعم، هالكِ سطرًا آخر: جرت دماء الأمة على وجنتيه النبيلتين...».

«كلا، أوه! رباه!...».

«... وروح ووترلوفي ذقنه المحدبة...».

قال رامي: «لا أعلم عما تتحدثون جميعاً، فالرجل شاعر عبقرى».

كانت ليتي فحسب هي من لم تضحك، بل قالت ببرود: «يؤسفني أنك لم تستمتع بوقتك».

قال روبين محاولاً أن يبدو كريماً: «أنتِ محقة، فجميعهم حمقى، أليس كذلك؟ لم يكن يجب أن أخالف نصيحتكِ أيتها الفتاة الواعية اللطيفة ليتي. فأنتِ محقة بشأن كل شيء».



لم تُجب ليّتي، بل أخذت كتبها ونفضت سروالها، وأسرت بالخروج من المقصف. وقفت فيكتوار نصف وقفة وكأنها على استعداد لملاحظتها، ثم تنهدت، وهزت رأسها، وجلست.

قال رامي: «دعيها تذهب. دعونا لا نُفسد ظهيرة جيدة».

فسأل روبين: «هل هي كذلك دائماً؟ لا أفهم كيف تتحملين العيش معها».

فقالت فيكتوار: «بل تستفزاها».

«لا تدافعي عنها...».

ردت فيكتوار: «بل تفعل، كلاكما تستفزاها، ولا تتظاهرا بغير ذلك. تحبان أن تجعلاهما تفقد أعصابها».

فقال رامي بسخرية: «فقط لأنها تسلك وكأنها أفضل من الجميع. هل هي إنسانة مختلفة كل الاختلاف معك أم هل تراكِ تكيفت معها فحسب؟».

فراحت فيكتوار تنتقل نظرها بينهما، إذ بدت كأنها تحاول أن تقول شيئاً، ثم سألت: «هل تعرفان أن كان لها أخ؟».

فسأل رامي: «ماذا؟ أهو أحد أثرياء كالكوتا؟».

قالت فيكتوار: «لقد مات. مات قبل عام».

فاوماً رامي قائلاً: «أوه! هذا مثير للشفقة».

«كان يُدعى لينكون. لينكون وليّتي برايس. كانا قريبين جداً من بعضهما في طفولتهما، ما جعل جميع أصدقاء أسرتهما يدعوهما توأماً. لقد وصل إلى أكسفورد قبلها، لكنه لم يتمتع بمثل ذكائها الأكاديمي، وفي كل إجازة، كان يتساجر مع والدهما لأنه كان يُهدر تعليمه. كان أشبه ببنديس من أي منا، علماً تفهمان ما أعني. وذات ليلة، خرج لتناول الشراب. وحضرت الشرطة لمنزل ليّتي في صباح اليوم التالي وأخبروهم بأنهم وجدوا جثة لينكون تحت عربة. لقد نام في الطريق، ولم يلحظه السائق تحت العجلات إلا بعد مرور ساعات، لا بد أنه مات قبل الفجر بساعات».



صمت رامي وروبين. لم يستطع أي منهما التفكير في أي شيء يُقال، بل شعرا بأنهما تلميذان يعاقبان، وأن فيكتوار مربية صارمة.

تابعت فيكتوار: «حضرت إلى أكسفورد بعدها ببضعة أشهر. هل تعرفان أن بابل تعقد امتحان قبول للمتقدمين دون توصية؟ لقد اجتازته بنجاح. كانت الكلية الوحيدة في أكسفورد التي تقبل النساء. كانت تريد دائماً الالتحاق ببابل - بل ذكرت من أجل هذا طوال عمرها - لكن والدها ظل رافضاً ذهابها إلى المدرسة، ولم يسمح لها بالحضور إلا بعد وفاة أخيها لتأخذ مكانه. من السيئ أن يكون لك ابنة في أكسفورد، لكن الأسوأ هو ألا يكون لك أولاد في أكسفورد على الإطلاق. أليس هذا فظيئاً؟».

قال روبين بخزي: «لم أعرف».

فردت فيكتوار: «لا أظنكما تفهمان جيداً مدى صعوبة وجود أي امرأة هنا. إنهم متحررون شكلاً، لكنهم يحتقروننا موضوعاً. تتطفل صاحبة المنزل على أغراضنا أثناء غيابنا وكأنها تبحث عن أدلة على انخراطنا في علاقات غرامية. فكل ضعف نبديه ينهض دليلاً على أسوأ الفرضيات عنا والممثلة في كوننا كيانات هشة وهستيرية وضعيفة العقل على نحو لا يؤهلنا لنوع العمل الذي نتدرب عليه».

فتمتم رامي: «يُفترض أن هذا يعني أن نعذرنا دائماً على عصبيتها المستمرة».

حدجته فيكتوار بنظرة ساخرة وقالت: «صحيح أنها تصوير مُزعجة أحياناً، لكنها ليست قاسية، فهي تخشى ألا تكون مستحقة الوجود هنا، وتخشى أن تُطرد لو تجاوزت الحدود ولو بشكل طفيف. الأهم أنها تخشى أن يتبع أي منكما خطى لينكون. كونا لطيفين معها يا رفاق، فأنتما لا تعرفان كيف يتحكم الخوف في سلوكها».

قال رامي: «بل يتحكم فيها الهوس بالذات».



بدا الضيق على وجه فيكتوار وقالت: «مهما يكن، يجب أن أتعاش معهما، فالتمساً لي العذر لو حاولت الحفاظ على العلاقات الجيدة». بدت متضايقاً من كليهما.

لم يستمر عبوس ليتي لفترة طويلة، فسرعان ما عبرت عن مغفرتها الضمنية. فعندما دخلوا مكتب الأستاذ بلاي فير في اليوم التالي، ردت على ابتسامة روبين المترددة بابتسامة من جانبها. أومأت فيكتوار حين نظرت إليها، وبدا الجميع على وفاق. نمت إلى علم ليتي أن روبين ورامي علماً بأمرها وعلمت أنهما آسفان، بل كانت هي نفسها تشعر بأسف شديد وإحراج عميق لانفعالها بشكل مبالغ فيه. لم يكن هناك شيء يُقال.

في تلك الأثناء، كانت هناك موضوعات أكثر أهمية يجب التطرق إليها. ففي مادة الأستاذ بلاي فير في ذلك الفصل الدراسي، انشغلوا بمفهوم أمانة الترجمة.

قال الأستاذ بلاي فير بصوت مرتفع: «يُتهم المترجمون بالخيانة. فما نتيجة هذا الأمر، أي الخيانة؟ إلى من نُخلص؟ للنص، أم للمتلقى، أم للمؤلف؟ هل ننأى بأمانة الترجمة عن الأسلوب، أم عن الجمال؟ لنبدأ بما كتبه درايدن عن الإنياد: «لقد سميت لأجعل فيرجيل يتحدث الإنجليزية كما لو كان ليتحدثها لو كان قد ولد في إنجلترا في العصر الحديث». ثم راح ينظر حول قاعة الدرس وسأل: هل يرى أحد أي أمانة هنا؟».

قال رامي: «أقبل التحدي. لا، لا أعتقد أن هذا يمكن أن يكون صحيحاً. كان فيرجيل ينتمي لمكان وزمان معين. أليس من ضروب الخيانة أن نُجرده من ذلك كله ونجعله يتحدث كأى رجل إنجليزي تقابله في الشارع مصادفة؟».

هز الأستاذ بلاي فير كتفيه وأجاب: «أليس من ضروب الخيانة أن نجعل فيرجيل يتحدث كأى أجنبي متعجرف، لا رجل لا تمل التحدث معه؟ أم لعلك تُقدم شيشرون كأحد أعضاء البرلمان كما فعل جورثري؟ لكنني أعترف أن



هذه الأساليب موضع تساؤل. تُبالغون في الأمور فتنتهون لشيء مثل ما فعله بوب في ترجمة الإلياذة».

قالت ليتي: «ظننت بوب أحد أعظم شعراء عصره».

رد الأستاذ بلاي فير: «لعله كان كذلك في أعماله الأصلية. لكنه يحشر كمًّا كبيرًا من التعبيرات البريطانية في النص جاعلاً هوميروس أشبه برجل من الطبقة الإنجليزية الأرستقراطية في القرن الثامن عشر! وهو ما لا يتفق مع تصورنا للحرب بين اليونان وطروادة».

قال رامي: «يبدو هذا غرورًا إنجليزيًا نموذجيًا».

الأستاذ بلاي فير: «ليس الإنجليز من يفعلون هذا فحسب. أتتذكر كيف هاجم هيردير النيوكلاسيكيين الفرنسيين لتصويرهم هوميروس كأسير يرتدي ملابس فرنسية ويتبع العادات الفرنسية وذلك مراعاة للمشاعر! وقد فضل المترجمون الفارسيون المعروفون "روح" الترجمة على دقتها، إذ ارتأى لهم أن استبدال الأسماء الأوروبية بأخرى فارسية لائق واستبدال الأقوال المأثورة في اللغة المستهدفة بالأشعار والأمثال الفارسية. هل ترون أن هذا كان خطأ وضرباً من الخيانة؟».

لم يجد رامي ردًا.

فتابع الأستاذ بلاي فير قائلاً: «لا توجد إجابة صحيحة بكل تأكيد. ولم يحل أصحاب النظريات هذه المعضلة كذلك، فهذا هو السجال المستمر في مجالنا. ويرى شلايرماخر أن الترجمات يجب أن تكون مُصطنعة على نحو كافٍ تظهر كأعمال أجنبية. وزعم أن هناك خيارين، فإما أن يدع المترجم المؤلف وشأنه ويجذب القارئ نحوه وإما أن يدع القارئ وشأنه ويجذب المؤلف نحوه. انحاز شلايرماخر للخيار الأول، مع ذلك نجد التيار السائد في إنجلترا حاليًا هو الثاني، أي جعل الترجمات تبدو طبيعية للقارئ الإنجليزي، فلا يبدو النص مُترجمًا على الإطلاق».



أيهما أصح بالنسبة لكم؟ هل نبذل أقصى ما في وسعنا ك مترجمين لإخفاء أنفسنا، أم نذكر قُرّاءنا بأن ما يقرؤونه لم يُكتب بلغتهم الأصلية؟».

أجابت فيكتوار: «هذا من رابع المستحيلات. فإما أن نضع النص في مكانه وزمانه وإما أن نأخذه لزماننا ومكاننا، فنحن دائماً نتخلى عن شيء».

فسألها الأستاذ بلاي فير: «إدّا، هل تُعد الأمانة في الترجمة مستحيلة؟ ألا يمكن التواصل بنزاهة عبر الزمان والمكان على الإطلاق؟»

أجابت فيكتوار بتردد: «لا أظن».

فسأل الأستاذ بلاي فير: «فما عكس الأمانة؟». كان يقترب من إنهاء الجدل. كان الآن بحاجة لإغلاق الموضوع بضربة، فأجاب: «الخيانة. تعني الترجمة معاملة النص الأصلي بالعنف، وتعني تطويعه وتغيير ملامحه بما يتفق مع المتلقي الأجنبي غير المقصود. إلى أين يقودنا هذا إدّا؟ كيف نُنهي الأمر إلا بالاعتراف بأن عمل الترجمة لهو دائماً من ضروب الخيانة؟».

لقد أنهى عبارته العميقة كعادته ناقلاً نظره بينهم. وحين التفت عينا روبين بعيني الأستاذ بلاي فير، شعر بوخزة ذنب عميقة وحادة بداخله.



الفصل التاسع



ينتمي المترجمون لذات العرق الخائن الذي يُخفي مشاعره، فلا يظهر ما يجلبونه من ذرات ذهب، مخفية بين أكوام من الرمل الأصفر والكبريت، إلا للعين المدققة.

توماس كارلايل، «حالة الأدب الألماني»

لم يمر طلاب بابل باختبارات تأهيلية حتى نهاية السنة الدراسية الثالثة، ومن ثم، انتهى فصل ترينيتي الدراسي بضغط لا يزيد ولا يقل عن الفصلين السابقين. وفي خضم هذا الكم الكبير من الأوراق البحثية، والمطالعات، ومحاولات رامي الليلية الفاشلة لعمل بطاطس بالكاراي بشكل مثالي، انتهى العام الدراسي الأول.

اعتاد الطلاب الصاعدون للسنة الثانية أن يسافروا إلى الخارج في إجازة الصيف بهدف الانغماس في اللغات. قضى رامي شهري يونيو ويوليو في مدريد لتعلم الإسبانية ودراسة تاريخ الدولة الأموية، وذهبت ليتي إلى فرانكفورت حيث لم تقرأ سوى الفلسفة الألمانية غير المفهومة، واتجهت فيكتوار إلى سترازبورج من حيث عادت بأراء مستقزة حول الطعام والمطاعم الراقية*. كان روبين يرجو أن تتاح له فرصة زيارة اليابان صيفاً، لكنه أرسل إلى الكلية الإنجليزية الصينية في ملقا ليحافظ على لغة الماندرين. كانت الكلية، والتي كانت تُديرها البعثات الدينية، تفرض طقوساً دينية صارمة، ومطالعات في الأدب الكلاسيكي، ومقررات في الطب، والفلسفة

* على سبيل المثال، «أتعرفون كيف يشير الفرنسيون إلى موقف محزن؟ إنه محزن كوجبة من دون جبن، وهو ما يعبر حقيقة عن حالة الجبن الإنجليزي بأنواعه كافة.



الأخلاقية، والمنطق. لم تُنح له أي فرصة للتنزه خارج المجمع السكني إلى هيرين ستريت حيث كان الصينيون يقطنون، بل كانت تلك الأسابيع تيارًا متواصلًا من الشمس، والرمال، واجتماعات مُطوّلة لدراسة الكتب الدينية مع أعضاء البعثات الدينية ذوي البشرة البيضاء.

كان مسرورًا بانتهاء الصيف. عاد الجميع إلى أكسفورد وقد لفحتهم الشمس وزاد وزنهم بسبب تناولهم طعامًا أفضل مما كانوا يتناولونه طوال الفصل الدراسي. مع ذلك، لم يكن أي منهم ليُمد إجازته حتى لو أُتيحت له الفرصة، إذ كانوا يفتقدون بعضهم بعضًا، ويفتقدون أكسفورد بأطرافها وطعامها البشع، كما كانوا يفتقدون بابل بصرامتها الأكاديمية. كانت عقولهم، التي أثريت بأصوات وكلمات جديدة، مثل العضلات اللينة تنتظر أن تُفرد. كانوا جاهزين لعمل السحر.

في هذه السنة، سُمح لهم بالدخول إلى قسم أعمال الفضة، لكن لم يُسمح لهم بعمل نقوشهم الخاصة حتى السنة الرابعة. لكن في هذا الفصل، كان ليبدووا مقررًا نظريًا تحضيريًا يُدعى أصول الكلمات، وقد أُصيب روبين بالهلع ظنًا منه أن الأستاذ لوفيل هو من يُدرّسه.

في أول أيام الفصل الدراسي، اتجهوا إلى الدور الثامن لحضور ندوة تقديمية للأستاذ بلاي فير.

«مرحبًا بكم مجددًا». كان يُحاضر، بطبيعة الحال، بسترة عادية، لكنه اليوم كان يرفل في عباءة ذات شرابيب تتدلّى بشكل لافِت حول كاحليه. «في المرة الأخيرة التي سمحت لكم بالصعود إلى هذا الطابق، رأيتُم إلى مدى يُصنع هنا، واليوم، سنُسيطر اللثام عن أسرارهِ. تفضلوا بالجلوس».

جلس كل على كرسيه في أقرب محطة عمل. زحزحت ليتي كومة الكتب على مكتبها كي ترى بشكل أفضل، لكن الأستاذ بلاي فير صاح فجأة: «لا تلمسي هذا».



فجفلت ليتي وقالت: «عذراً؟».

الأستاذ بلاي فير: «هذا مكتب إيفي. ألا ترين اللوحة؟».

كانت هناك بالفعل لوحة برونزية صغيرة مثبتة في مقدمة المكتبة، فمد الجميع رقابهم ليقرووها: هذا مكتب إيفلين بروك. ممنوع اللمس. فلملت ليتي حاجياتها، ووقفت، ثم جلست بجوار رامي وهممت بخجل: «أسفة».

جلسوا في صمت لمدة لحظة، غير عارفين ماذا يفعلون. لم يروا الأستاذ بلاي فير في مثل هذا الغضب. لكن سرعان ما عادت ملامحه لدفئها المعهود، فوقف وبدأ يُحاضر وكأن شيئاً لم يكن.

«يرتكز المبدأ الرئيسي لعمل الفضة على عدم القابلية للترجمة. فحين نقول إن كلمة أو عبارة غير قابلة للترجمة، نقصد أنها تفنقر لما يساويها على نحو دقيق في لغة أخرى. فحتى لو فهم معناها جزئياً في عدة كلمات أو جمل، يظل شيء مفقود - شيء يقع في الفجوات الدلالية التي تُعد، بالطبع، قائمة على الاختلافات الثقافية في التجربة المعيشة. لنأخذ مفهوم داو الصيني الذي نترجمه «السبيل»، أو «المسار»، أو «الطريقة التي ينبغي أن تكون عليها الأشياء». مع ذلك، لا تعبر أي منها عن معنى داو، تلك الكلمة الصغيرة التي تحتاج إلى مجلد فلسفي كامل لشرحها. هل تفهمونني حتى الآن؟».

فأومأوا، إذ لم يزد هذا عن نظرية ثبتتها الأستاذ بلاي فير في عقولهم في الفصل الدراسي الماضي مفادها أن كل الترجمة تتطوي على شيء من التطويع والتشويش. واتضح أخيراً أنهم كانوا ليفعلوا شيئاً بهذا التشويش.

«لا توجد ترجمة تحمل معنى الكلمة الأصلية على نحو كامل. لكن ما المعنى؟ هل يشير المعنى إلى شيء يتخطى الكلمات التي نستخدمها في وصف عالمنا؟ أظنه صحيحاً من الناحية البديهية، وإلا لم يكن لئيتج لنا أساس للحكم على الترجمة باعتبارها دقيقة أو غير دقيقة، لكن دون شعور غامض



بما ينقصه. على سبيل المثال، يرى هامبولت* أن الكلمات مرتبطة بمفاهيم تصفها بشيء غير مرئي وغير محسوس. إنه عالم غامض من المعنى والأفكار نابع من طاقة ذهنية صرفة لا تتخذ شكلاً إلا إذا أرجعناها إلى رمز غير معبر».

نقر الأستاذ بلاي فير المكتب أمامه حيث كان عدد من قوالب الفضة، الفارغة والمنقوشة، مرتبة في صف. «إن عالم المعنى الصرف، أيًا كان وأينما وُجد، هو جوهر حرفتنا. إن المبادئ الأساسية لعمل الفضة شديدة البساطة، ذلك أنك تنقش كلمة أو عبارة بإحدى اللغات على أحد الجوانب، وكلمة أو عبارة متوافقة بلغة مختلفة على الجانب الآخر. ولعدم وجود ترجمة مثالية، فإن الفضة تلتقط التشوهات الضرورية، المعنى المفقود أو المحرّف في الرحلة. وتبرزها، وهذا يا طلابي الأعزاء أقرب للسحر من أي شيء في مجال العلوم الطبيعية». ثم راح يُقيمهم وقال: «هل تركزون معي؟».

ازداد الطلاب حيرة.

وهنا قالت فيكتور: «لو أعطيتنا مثلاً...».

«بالطبع». التقط الأستاذ بلاي فير القالب الموضوع في أقصى اليمين وتابع: «لقد بعنا بضع نسخ من هذا القالب لصياد. لكلمة كارابوس اليونانية عدة معانٍ مختلفة مثل «قارب»، أو «كابوريا» أو «خُنفساء». من أين تعتقدون يأتي الربط؟».

فغامر رامي: «من الوظيفة؟ أكانت القوارب تُستخدم في صيد الكابوريا؟».

«محاولة جيدة، لكن لا بالطبع».

* يُعزى ما ناله كارل فيلم هامبولت من شهرة لكتابته بحثاً بعنوان «حول الفرق البنيوي بين اللغات البشرية وتأثيرها على التطور الفكري للجنس البشري» عام 1836، حيث يحتج بأن لغة إحدى الثقافات ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالقدرات والسمات العقلية لمن يتحدثونها، إضافة لأشياء أخرى، وهو ما يفسر سبب تناسب اللاتينية واليونانية مع الاستدلال الفكري الراقي أكثر من العربية مثلاً.



فقال روبين مُخمنًا: «الشكل». ثم بدأ المعنى يتضح وهو يتحدث: «لنفكر في سفينة نقل العبيد بصفوف المجاديف. كانت لتبدو مثل أرجل مُتسارعة، أليس كذلك؟ مهلاً - تسارع، متسارع...».

قال الأستاذ: «إنك تُبالغ يا سيد سويفت. لكنك تسير في الطريق الصحيح. ركزوا على كارابوس. فمن كارابوس، تُشتق كارافيل، وهي سفينة خفيفة وسريعة. تعني الكلمتان «سفينة»، لكن كارابوس فحسب هي التي تحتفظ بالرابطة مع المخلوقات البحرية في اللغة اليونانية الأصلية. هل تُتابعون؟». فأومأوا.

ثم نقر أطراف القالب حيث كانت كلمتا كارابوس وكارافيل مكتوبتين على طرفين متقابلين. «ألصقوا هذا القالب بسفينة صيد وستجدونها توفر حمولة أكبر من السمك من غيرها. كانت هذه القوالب واسعة الانتشار في القرن الماضي حتى أدى الإفراط في استخدامها إلى نقص الثروة السمكية عن ذي قبل. قد تُحدث هذه القوالب بعض التحور في الحقيقة، لكنها لا تستطيع إنتاج أسماك جديدة. تحتاجون إلى كلمة أفضل لذلك. هل بدأت الأمور تتضح؟». فأومأوا مُجددًا.

«والآن، وهذا أحد القوالب التي يشيع تقليدها. ستجدونها في حقائب الأطباء في جميع أنحاء إنجلترا». وهنا رفع القالب الثاني من جهة اليمين وقال: «ترايكل وترياكل».

اتكأ روبين مندهشًا، إذ كان القالب أو نسخة من القالب الذي استخدمه الأستاذ لوفيل في إنقاذه في كانتون. كان أول قالب فضة مسحور يلمسه.

«جرت العادة على صنع علاجات منزلية من السكر كترياق لمعظم أنواع السموم. وكان هذا اكتشافًا عبقرياً لطالبة تُدعى إيفي بروك - نعم، هي إيفي - التي لاحظت أن كلمة ترياكل سُجلت في البداية في القرن السابع عشر لارتباطها بالاستخدام الزائد للسكر لإخفاء مذاق الدواء السيئ. ثم راحت تتعقب ذلك إلى الفرنسية القديمة ترايكل والتي تعني «ترياق» أو «علاج



للدغة الحية» ثم إلى اللاتينية ثيراكا، وأخيرًا إلى اليونانية ثرياك وكانت الكلمتان تعنيان «ترياق»..».

فقلت فيكتوار: «لكن الزوج المتطابق يقتصر على الإنجليزية والفرنسية فحسب. كيف...».

أجاب الأستاذ بلاي فير: «التوصيل المتسلسل». ثم أدار القلب كي يُريهم الكلمات اللاتينية واليونانية المنقوشة على الجانبين وتابع: «إنها تقنية تستحضر أصول الكلمات القديمة كإرشادات توجه المعنى عبر المكان والزمان. قد تُشبهون الأمر بتثبيت مزيد من الأعمدة في الخيام والتي تجعل الشيء كله ثابتًا وتساعدنا على تحديد التشويه الذي نسعى لالتقاطه بدقة. لكن هذه تقنية شديدة التقدم. لا تقلقوا بشأن ذلك الآن».

ثم رفع القلب الثالث إلى اليمين وقال: «ها هو شيء اكتشفته حديثًا في بعثة لدوق ولينجتون». قال هذا بفخر واضح. «تعني كلمة إيديوتيس اليونانية غبي تمامًا مثل الكلمة الإنجليزية إيديوت. لكنها تحمل كذلك تعريفًا لشخص مُنعزل وغير مُنشغل بأمور الدنيا، فغباؤه مُشتق لا من افتقاره لمواهب طبيعية، بل من الجهل وقلة التعليم. حين نترجم إيديوتيس إلى إيديوت، سنجد أن لها تأثير إزالة المعرفة. يجعل هذا القلب المرء، إذًا، ينسى فجأة أشياء ظن أنه تعلمها. سيكون هذا جيدًا حين نحاول جعل جواسيس العدو ينسون ما رأوه».*.

وضع الأستاذ بلاي فير القلب وتابع: «ها نحن ذا. من السهل أن تستوعبوا المبدأ الأساسي. فنحن نلتقط ما فُقد في الترجمة - إذ يضيع شيء في الترجمة دائمًا - ويُعيده القلب إلى الوجود. أليس هذا بسيطًا؟».

* لم تكن التطبيقات العسكرية لهذا الزوج المتطابق مفيدة كما صورها الأستاذ بلاي فير. كان من المستحيل تحديد أي المعلومات يريد المرء مسحها، وكثيرًا ما كان الزوج المتطابق يجعل جنود الأعداء ينسون ربط أحذيتهم، أو كيف يتحدثون اللغة الإنجليزية الركيكة التي يعرفونها فحسب، لم يهر هذا دوق ولينجتون.



أجابت ليتي: «لكنه قوي على نحو غريب. يمكنك عمل أي شيء بهذه القوالب. يمكنك أن تكتسب قوة خارقة...».

«ليس هكذا يا آنسة برايس. فنحن مقيدون بالتطور الطبيعي للغات، بل إن الكلمات المتنافرة في المعنى ذات علاقة قوية بعضها ببعض. يحد هذا من شدة التغيير الذي تُفعله القوالب. فعلى سبيل المثال، لا يمكن استخدامها في إعادة الأموات إلى الحياة، إذ لم نجد زوجًا متطابقًا جيدًا في اللغة لا يكون الحياة والموت متضادين كل منهما مع الآخر. كذلك، يوجد عائق كبير في القوالب، وهو ما يمنع كل فلاح في إنجلترا من الركض مُلوحًا بها كتنامم. هل يستطيع أي منكم تخمينه؟».

رفعت فيكتوار يدها وأجابت: «تحتاج إلى شخص يتحدث بطلاقة».

قال الأستاذ بلاي فير: «صحيح تمامًا. لا يكون للكلمات معنى إلا في حضور من يفهمها. ولا يمكن أن يكون مستوى سطحيًا من الفهم، إذ لا يستطيع المرء أن يُخبر فلاحًا بمعنى ترياكل بالفرنسية ويتوقع أن القالب سيعمل، بل يجب أن يفكر المرء بلغة يعيشها ويتنفسها، لا أن يتعرف عليها باعتبارها حروفًا مُتناثرة على صفحة. ولهذا السبب أيضًا لن تتجح اللغات المُبتكرة* على الإطلاق وأن اللغات القديمة مثل الإنجليزية القديمة فقدت تأثيرها. قد تمثل الإنجليزية القديمة حلمًا لمن يعمل على الفضة، فلدينا قواميس كبيرة ويمكننا تتبع الأصول اللغوية بوضوح، ومن ثم، ستصبح القوالب بالغة الدقة. لكن لا يفكر أحد باللغة الإنجليزية القديمة، وليس هناك من يعيش أو يتنفس باللغة الإنجليزية القديمة. ويُعد هذا من الأسباب التي

* في نهاية القرن الثامن عشر، انتشر لفترة محدودة هوس بتمتع اللغات المبتكرة بإمكانية صياغة الفضة، مثل لغة إيجنوتا الغامضة التي ابتكرتها سيدة دين تُدعى هيلد جارد من بنجن، وقد احتوت تلك اللغة على قاموس من آلاف الكلمات. كما كانت هناك لغة الحقيقة لجون وبلكنز والتي تضمنت منظومة تصنيف معقدة لكل ما هو معروف في الكون، وكذا «اللغة الكونية» للسير توماس أوركوهارت من كرومارتي التي سعت لاختزال العالم في التعبير الحسابي شديد المنطقية. تراجعت هذه الأمور كلها حين واجهت عائقًا عاديًا صار لاحقًا حقيقة أساسية في بابل، ألا وهو: إن اللغات أكثر من مجرد شفرات، وأنه يجب على المرء أن يستخدمها للتعبير عن نفسه أمام الآخرين.



تجعل تعلم الآداب الكلاسيكية صارماً في أكسفورد. فما زالت الطلاقة في اللاتينية واليونانية إجبارية للعديد من الدرجات العلمية، رغم أن المُصلحين لم ينفكوا يثيرون مُطالبين إيانا بإلغاء تلك الشروط. لكن لو فعلنا هذا، لتوقفت نصف قوالب الفضة في أكسفورد عن العمل».

فقال رامي: «لهذا السبب أتينا هنا ونحن طليقو اللسان بالفعل».

فقال الأستاذ مُتفقاً: «لهذا السبب أتيتُم هنا. أنتم أولاد بسماتيك. أليس رائعاً أن تتمتعوا بمثل هذه القوة بفضل أصولكم الأجنبية؟ أجيد اللغات الجديدة بشكل معقول، لكن سيستغرق الأمر سنوات لاستحضار الأردية بالطريقة التي يمكنك بها عمل ذلك دون تردد».

سألت فيكتوار: «كيف لا تعمل القوالب إلا في وجود مُتحدث طلق؟ ألا يمكن أن تفقد تأثيرها حالما يترك المُترجم الغرفة؟».

«سؤال جيد جداً». وهنا رفع الأستاذ بلاي فير القالبين الأول والثاني ووضعهما جنباً إلى جنب، فبدا القالب الثاني أطول من الأول. ثم قال: «لقد أثرت قضية الاستمرارية. يُؤثر العديد من الأمور على استمرارية تأثير القالب. أولاً، تركيز الفضة وكميتها. تزيد نسبة الفضة في كل من هذين القالبين على تسعين بالمائة، أما الباقي، فسبيكة نحاس وهي التي تُستخدم في العملات. لكن قالب ترياكل أكبر بنسبة عشرين بالمائة، وهو ما يعني أنه سيدوم بضعة أشهر وفقاً لشدة الاستخدام وتواتره».

ثم أنزل القوالب وقال: «لا يدوم كثير من القوالب الأقل ثمناً التي ترونها في لندن مثل هذه المدة، بل وقليل منها من الفضة الخالصة. وفي أغلب الأحيان، لا يُعطى الخشب أو أي معدن رخيص إلا بطبقة رقيقة من الفضة. وتتعطل تلك القوالب في غضون أسابيع، وتحتاج بعدها لإعادة شحن».

فسأل روبيين: «لقاء ثمن؟».

فاوماً الأستاذ بلاي فير باسمًا وأجاب: «يجب أن يكون هناك مصدر لتمويل رواتبكم».



فسألت ليتي: «أهذا ما يتطلبه الحفاظ على القلب؟ هل يقتصر الأمر على وجود مترجم ينطق بالكلمات في الزوج المتطابق؟».

فأجاب الأستاذ بلاي فير: «الأمر أكثر تعقيداً من هذا، ففي بعض الأحيان يجب إعادة كتابة النقوش أو يجب إعادة تجهيز القوالب...».

فألحت ليتي: «كم تأخذون نظير هذه الخدمات؟ هل تأخذون اثني عشر شلناً كما سمعت؟ هل يستحق الأمر كل هذا المال لإجراء بعض الإصلاحات البسيطة؟».

ابتسم الأستاذ بلاي فير ابتسامة عريضة وبدأ أقرب لطفل أمسك أثناء وضع أصبعه في كعكة: «إن ما يعتبره الناس سحرًا يُدر دخلاً جيداً، أليس كذلك؟».

فقال روبين: «إدًا، فالتكاليف مُختلفة تمامًا؟».

نطق هذه العبارة على نحو أكثر حدة مما انتوى، لكنه كان يفكر وقتها في وباء الكوليرا الذي اجتاح لندن وكيف أوضحت السيدة بايبر أنه لم يمكن مساعدة الفقراء، ذلك أن أعمال الفضة كانت باهظة التكاليف.

قال الأستاذ بلاي فير وقد وجد كل هذا مُضحكاً جداً: «أوه! نعم. لدينا أسرار، ويمكننا وضع أي شروط تُعجبنا، وهذا هو الشيء الجميل في أن تكون أكثر ذكاءً من الآخرين. والآن، آخر شيء قبل أن نصل للخلاصة». وهنا التقط قالباً لامعاً من الطرف الأخير من المنضدة وقال: «يجب أن أُنذركم. ثمة زوج مُتطابق يجب ألا تُجربوه. خمنوا».

قالت ليتي: «الخير والشر».

الأستاذ بلاي فير: «تخمين جيد، لكن لا».

قال رامي: «اسم الله».

«نتق بأنك لست غيباً. لا، هذا أكثر تعقيداً».

لم يحر أي من الباقيين جواباً.



قال الأستاذ بلاي فير: «إنها الترجمة. ببساطة الكلمات التي تعني ترجمة». وفيما هو يتحدث، نقش بسرعة كلمة على أحد جوانب القلب، ثم شرح لهم ما كتب: ترانسليت.

«للفعل ترانسليت مختلف الإيحاءات في كل لغة. في الإنجليزية، والإسبانية، والفرنسية، فالكلمات ترانسليت، وترادوكير، وترادوير تأتي من اللاتينية ترانسلات التي تعني «يحمل ويُعبر»، لكننا نحصل على شيء مختلف حين نتجاوز اللغات الرومانسية». ثم بدأ يكتب مجموعة جديدة من الحروف على الجانب الآخر. «على سبيل المثال: توحى كلمة فانيي الصينية بإدارة شيء أو قلبه على جانبه الآخر، بينما يوحى الحرف الثاني بي بالتغيير والتبادل. وباللغة العربية، قد تُشير كلمة ترجمة إلى السيرة الذاتية والترجمة. وفي اللغة السنسكريتية، تعني كلمة أنوفاد ترجمة، كما تعني «تقول أو تكرر عدة مرات». يتمثل الفرق هنا في الجانب الزمني، لا في المجاز المكاني كما في اللاتينية. وفي لغة الإيجبو، تتضمن الكلمتان اللتان تعنيان ترجمة - تابيا وكوا - السرد، والتفكيك، وإعادة البناء، والتفتيت إلى قطع الذي يجعل تغيير الشكل ممكنًا، وهلم جرا. وهناك اختلافات وتبعات لا نهائية. ومن ثم، لا توجد لغة تعني فيها الترجمة الشيء نفسه بالضبط».

ثم أراهم ما قد كتبه على الجانبين. كتب بالإيطالية ترادور، ثم وضعه على المنضدة.

ثم قال: «ترجم ترادور».

وفي اللحظة التي رفعه فيها، بدأ القلب يهتز.

راحوا يُشاهدون بذهول القلب وهو يرتجف بعنف متزايد. كان مخيفًا. بدا القلب وكأنه حي، وكان روحًا قد استحوذت عليه، فراح عبثًا يحاول التحرر أو، على الأقل، أن يشق نفسه. لم يحدث أي صوت عدا خشخشة على المنضدة، لكن روبين سمع في عقله صوت صراخ مصحوب بمعاناة.

قال الأستاذ بلاي فير بهدوء: «يخلق الزوج المتطابق للترجمة تناقضًا».



وهنا بدأ القلب يهتز بشدة، بل على نحو جعله يقفز عدة بوصات أعلى المنضدة مُتَشَنِّجًا. «يُحاول خلق ترجمة أنقى، شيئاً يتوافق مع المجازات المرتبطة بكل كلمة، لكن هذا مستحيل بالطبع، ذلك أنه لا توجد ترجمة كاملة».

بدأت الشقوق تظهر في القلب على هيئة عروق رفيعة، وراحت تنتشعب، وتنقسم، وتتسع.

«ليس للتجسيد مكان إلا القلب نفسه. ولهذا، يخلق دورة مستمرة تنتهي بدماره. وهذا... يحدث».

قفز القلب إلى أعلى نحو الهواء وتهشم إلى مئات الشذرات التي تناثرت على الطاولات، والمقاعد، والأرضية. تراجع زملاء روبين جافلين. لم يهتز للأستاذ بلاي فير جفن. «لا تُجربوها، ولا حتى بدافع الفضول. فلا يمكن إعادة استخدام هذه الفضة». قال هذا وهو يركل إحدى الشذرات الساقطة. «وحتى لو أذيب وأعيد صياغته، سيكون أي قلب مصنوع ولو بأوقية معدوم الفائدة، بل أسوأ، سيكون التأثير مُعَدِيًا. يمكن تنشيط القلب حين يكون فوق كومة من الفضة، فينتشر في أي شيء مُتصل به. إنها طريقة سهلة لإهدار عشرات الجنيهات لو لم يكن المرء حذرًا». ثم أعاد قلم النقش إلى طاوله العمل وقال: «هل هذا مفهوم؟».

فأومأوا.

«جيد. لا تنسوا هذا إطلاقًا. تُعد الاستمرارية القصوى للترجمة مسألة فلسفية مُذهلة، فهي، على كل حال، في جوهر حكاية بابل. لكنه من الأفضل أن نُترك مثل هذه المسائل النظرية لقاعة الدرس، لا أن نُدرج في التجارب التي قد تهدم المبنى».

قالت فيكتوار: «كان أنطوني مُحَقًّا. لماذا يهتم أي شخص بقسم الأدب، بينما توجد أعمال فضة؟».



جلسوا حول طاولتهم المعتادة في المقصف وهم يشعرون بأن القوة تُدير رؤوسهم. فمنذ خروجهم، لم ينفكوا يُكررون ما شعروا به تجاه فصل عمل الفضة، لكن لم يكن هذا مهمًا، إذ كان جديدًا، بل غير معقول. بدا العالم شديد الاختلاف منذ خروجهم من البرج. لقد دخلوا بيت الساحر وشاهدوه وهو يمزج رُقاؤه ويُلقي تعاويذه، والآن لم يكن أي شيء ليرضيهم حتى يُجربوه بأنفسهم.

فانسل أنطوني وجلس بجانب روبين وقال: «هل نطق أحد باسمي؟». ثم راح يحدق إلى وجوههم وتعهد الابتسام وقال: «أوه! أتذكر هذه النظرة. هل قدم بلاي فير عرضه اليوم؟».

فسألته فيكتوار بحماس: «أهذا ما تفعلونه طوال اليوم؟ هل تتلاعبون بالأزواج المُتطابقة؟».

أجاب أنطوني: «بل شيء قريب من ذلك. يتخلل هذا مزيد من التقلب في قواميس الأصول اللغوية أكثر من مجرد التلاعب في حد ذاته، لكن حين نتوصلين إلى شيء قد يعمل، تُصبح الأمور ممتعة. أنا الآن بصدد العمل على زوج أظنه ينفع في المخابز. فلار وفلاور».

فسألت ليتي: «أليست الكلمتان مُختلفتين؟».

أجاب أنطوني: «قد تعتقدين هذا، لكن لو عدتِ إلى الأصل الأنجلو-فرنسي في القرن الثالث عشر، لوجدتِ أنهما كانتا الكلمة نفسها في الأصل، إذ إن كلمة فلاور تُشير لأصغر جزء من وجبة الحبوب، وبمرور الوقت، انفصلت فلاور وفلار لتمثلا أشياء مختلفة. لكن، لو عمل القالب بالشكل الصحيح، لوجب عليّ تركيبه في ماكينات الطحن لتتنقية الدقيق بمزيد من الكفاءة». ثم تنهد مردفًا: «لست متأكدًا أنها ستنجح، لكن لو حدث، ل جاء وقت تُباع فيه قريصات فولتس بالمجان!».

سألت فيكتوار: «هل تحصل على امتيازات كلما صنعوا نسخة من قوالبك؟».



«أوه، لا، بل أحصل على مبلغ بسيط، لكن جميع الأرباح تذهب للبرج. مع ذلك، يضعون اسمي على دفتر حسابات الزوج المتطابق. لدي ستة أزواج حتى الآن، ولا توجد سوى ألف ومائتي زوج نشط ومستخدم في الإمبراطورية كلها، ومن ثم، يُعد هذا أعلى ميزة أكاديمية يمكن الحصول عليها، بل أفضل من نشر ورقة بحثية في مكان آخر».

قال رامى: «مهلاً، أليس ألف ومائتان عددًا قليلاً جداً؟ أقصد عدد الأزواج المتطابقة المستخدمة منذ زمن الإمبراطورية الرومانية، فكيف إذا...».

«كيف لم نستطع تغطية البلاد بالفضة بترجمة كل زوج متطابق قدر الإمكان؟».

رد رامى: «صحيح، أو على الأقل أن ننتج أكثر من ألف ومائتين».

قال أنطوني: «حسناً، فكر في الأمر. يجب أن تكون المشكلة واضحة. تؤثر اللغات بعضها في بعض، وتُضمَّن معاني جديدة بعضها في بعض، ومثل الماء المندفِع خارج السد، كلما ازدادت الحواجز سهلة الاختراق، قَلَّت القوة. ومُعظم قوالب الفضة التي تُشغل لندن ممثلة في الترجمات من اللاتينية، والفرنسية، والألمانية. لكن هذه القوالب تفقد كفاءتها. وإذ ينتشر التدفق اللغوي عبر القارات - إذ صارت كلمات مثل سوتيه وجراتان جزءاً أساسياً من المفردات الإنجليزية - يفقد التطويع الدلالي قوته».

قال روبين متذكراً: «أخبرني الأستاذ لوفيل بشيء مشابه، فهو مقتنع بأن اللغات الرومانسية سَتُعطي عائدات أقل بمرور الوقت».

قال أنطوني: «إنه مُحق. لقد تُرجمت الكثير من اللغات الأوروبية الأخرى إلى الإنجليزية والعكس بالعكس في هذا القرن. يبدو أننا عاجزون عن التخلي عن إيماننا على الألمان وغيرهم من الفلاسفة أو الإيطاليين وشعرائهم. ومن ثم، تُعد اللغات الرومانسية أكثر أقسام الكلية تعرضاً للتهديد، رغم رغبتهم في التظاهر بأن المبنى ملك لهم. ولم تُعد الكلاسيكيات مُبشِّرة كعهدها. ستستمر اللاتينية واليونانية قليلاً، فما زالت الطلاقة في إحدهما محور



اهتمام الطبقات الراقية. لكن اللغة اللاتينية، على الأقل، صارت دارجة على نحو أكبر مما تظن. ففي مكان ما في الطابق الثامن، يوجد طالب ما بعد الدكتوراه يعمل على إحياء لغتي جزيرة مان وإقليم كورنوال، لكن لا يظن أحد أن هذا سينجح. ينطبق الشيء نفسه على اللغة الأسكتلندية، لكن لا تخبروا كاثي، لهذا يُعد ثلاثكم عظيمي القيمة». وهنا أشار أنطوني للجميع عدا ليتي، ثم تابع: «تعرفون لغات لم تُستهلك بالكامل».

فقال ليتي بغضب: «ماذا عني؟».

«حسنًا، لا بأس بوجودك هنا قليلًا، لكن فقط لأن بريطانيا طورت شعورها بالهوية القومية بعكس الفرنسيين. يصدق الفرنسيون الخرافات، أما نحن فمُفتَحون. يرتدي الفرنسيون أحذية من خشب، أما نحن فترتدي أحذية جلدية. سنقاوم الزحف الفرنسي على لغتنا، لكنها المستعمرات وأشباه المستعمرات بالفعل - روبين والصين، ورامي والهند، ما زالت بلادكم بلا خرائط أيها الصبية. أنتم من يُقاتل الجميع للحصول عليه».

قال رامي: «تتحدث وكأنها مورد».

«نعم، بالتأكيد. تُعد اللغة موردًا تمامًا مثل الذهب والفضة. لم ينفك الناس يُحاربون ويموتون في سبيل كتب النحو».

قالت ليتي: «لكن هذا عبث. ما اللغة إلا كلمات، ومجرد أفكار. لا يمكنكم تقييد استخدام لغة».

قال أنطوني: «بل يمكن. هل تعلمين أن العقوبة الرسمية في الصين لتعليم الأجانب لغة الماندرين هي الموت؟».

التفت ليتي لروبين وقالت: «هل هذا صحيح؟».

أجاب روبين: «أظنه كذلك. أخبرني الأستاذ شاكرافارتي بالشيء نفسه. إن أسرة تشنج مرعوبة. إنهم يخشون القوى الخارجية».



فسأل أنطوني: «أرأيت؟ لا تقوم اللغات على كلمات، بل تُعدُّ سُبلاً للنظر على العالم. إنها مفاتيح للحضارة، وهذه معرفة تستحق أن يُقتل الناس من أجلها».

«نَحكي الكلمات قصصاً». هكذا افتتح الأستاذ لوفيل أول محاضرة في ذاك المساء. عُقدت المحاضرة في إحدى غرف البرج الاحتياطية غير ذات النوافذ في الطابق الخامس. ثم تابع: «لا سيما أن تاريخ تلك الكلمات – كيف صارت تُستخدم، وكيف تحوَّرت معانيها لما تُشير إليه في الوقت الحالي – يحكي لنا حكاية أي شعب تمامًا كأَي قطعة أثرية، إن لم يكن أكثر المُقتنيات التاريخية. لنأخذ كلمة نيف. من أين تعتقدونها أتت؟».

«هل أنت من لعب الورق؟ فلدينا الملك والملكة...». بدأت ليتي هكذا ثم تراجعت حين أدركت أن الأستاذ سيُجيب عن سؤاله، وقالت: «أوه! لا بأس».

هز الأستاذ لوفيل رأسه وقال: «بل من الكلمة الإنجليزية القديمة نافا والتي تُشير إلى خادم شاب أو خادمة شابة. نُؤكد ذلك بشببها الألمانية كتابي، وهي المصطلح القديم لكلمة بوي. ومن ثم، كان الخدم في الأصل صبية صغارًا يخدمون الفرسان، ولكن حين انهارت منظومة الفروسية في نهاية القرن السادس عشر، وحين أدرك اللوردات أنهم يستطيعون تجنيد جيوش أفضل وأكثر احترافية بأثمان أقل، وجد مئات الخدم أنفسهم بلا عمل. ومن ثم، كانوا يعملون أي شيء يقوم به الشباب المُنتعثر، إذ تورطوا مع قطاع الطرق واللصوص وصاروا الأوغاد والرعاع الذين نُطلق عليهم هذا الاسم الآن. ولذا، لا يَصِف تاريخ الكلمة مجرد تغيير في اللغة، بل إنه تغيير في نظام اجتماعي بأكمله».

لم يكن الأستاذ لوفيل مُحاضرًا مُتحمسًا ولا مُؤدّيًا مُلقائيًا، بل بدا في حالة من عدم الارتياح أمام الجمهور. كانت حركاته مُتكلفة ومُفاجئة، وكان يتحدث بطريقة جافة، وكئيبة، ومباشرة. ومع ذلك، كانت كل كلمة تخرج من فمه جيدة التوقيت، ومدروسة، ومُذهلة.



في الأيام السابقة لمُحاضرته، كان روبين يخشى تلقي مُحاضرة من كافله. لكن اتضح أن الأمر لم يكن مُحرَجًا ولا غريبًا. كان الأستاذ لوفيل يُعامله باستعلاء وتكلف كما لو كان أمام رفاقه في هامبستيد، وكانت عيناه ترفرفان فوق وجه روبين دون أن تحط، كما لو كان مكانه غير موجود.

تابع الأستاذ لوفيل: «لقد اشتققنا كلمة إيتيمولوجي من الكلمة اليونانية إيتيمون، أما المعنى الحقيقي للكلمة فمُشتق من إيتوموس أي «الحقيقي أو الفعلي». ومن ثم، يمكنكم التفكير في أصول الكلمات كتدريب على تتبع إلى أي مدى ابتعدت الكلمة عن جذورها. تبتعد الكلمات لمسافات مُذهلة، سواء على المستوى الحرفي أو المجازي». ثم نظر إلى روبين فجأة وقال: «ما الكلمة التي تعني عاصفة هوجاء بلغة الماندرين؟».

فوجئ روبين وقال: «آه، فينجباو؟».*

«لا، بل أعطني شيئًا أكبر».

«تايفنج؟»**.

«جيد». ثم أشار الأستاذ لوفيل إلى فيكتور وقال: «وما الظواهر الجوية التي تتحرك دائمًا عبر منطقة الكاريبي؟».

أجابت قائلة: «تايفون». ثم أومأت: «تايفنج؟ تايفون؟ كيف...».

قال الأستاذ لوفيل: «سنبدأ باليونانية اللاتينية. كان التايفون وحشًا، أحد أبناء جايا وتارتاروس. كان مخلوقًا مُريعًا بمئات الرؤوس الأفعوانية. وفي وقت ما، صار مُرتبطًا بالرياح العاتية، إذ صار العرب يستخدمون كلمة طوفان لاحقًا للتعبير عن العواصف الرعدية. وقفزت الكلمة من العربية إلى البرتغالية التي جاءت إلى الصين على متن سفن المستكشفين».

* 風暴

** 颱風



فقال روبين: «لكن تايفينج كلمة مُستعارة، وتَعْنِي بالصينية - تاي أي عظيم، وفينج أي رياح».

فسأل الأستاذ لوفيل: «ألا تظن أن الصينيين أتوا بنقل حرفي ذي معنى خاص؟ يحدث هذا طوال الوقت. كثيرًا ما تكون الترجمات الصوتية بالنقل ترجمات دلالية بالنقل. الكلمات تنتشر. ويمكنكم تتبع مواضع تلاقٍ في تاريخ البشر صنعتها الكلمات ذات النطق المُتشابه بطريقة يصعب تفسيرها. وتُعد اللغات مجموعات من الرموز المُنتقلة، وهي ثابتة على نحو كافٍ لجعل الخطاب المُتبادل ممكنًا، لكنها تتمتع بقدر من السلاسة لتعكس تغيُّر الديناميات الاجتماعية. حين نستحضر الكلمات في الفضة، إنما نستحضر التاريخ المُتغيّر في أذهاننا».

وهنا رفعت ليتي أصبعها وقال: «لديّ سؤال عن هذا المنهج».

«تفضلي».

قالت ليتي: «الأبحاث التاريخية جيدة. كل ما عليكم عمله هو تأمل المُقتنيات، والوثائق، وما شابه. لكن كيف تبحثون تاريخ الكلمات؟ كيف تُحددون المسافة التي ارتحلتها؟».

بدا الأستاذ لوفيل سعيدًا جدًا بهذا السؤال، فأجاب: «بالقراءة. لا يوجد طريقة أخرى لعمل هذا. تجمعون كل ما تطوله أيديكم من مصادر، ثم تُحاولون حل الألغاز، وتُبحثون عن القوالب المُتكررة والحالات غير الاعتيادية. على سبيل المثال: نعرف أن حرف م اللاتيني لم يكن منطوقًا في الأزمنة الكلاسيكية، إذ تحمل النقوش في بومبي أخطاء في التهجئة على نحو يُهمّل حرف م. وبهذه الطريقة تُحدد التغيُّرات في الأصوات اللغوية. وحين نفعل هذا، يمكننا توقع كيف تطورت الكلمات، ولو لم تتشابه مع توقعاتنا، فربما تكون فرضيتنا حول ارتباط الأصول خاطئة. يُعد علم أصول الكلمات علمًا استقصائيًا عبر القرون، وهو عمل شاق للغاية مثل البحث عن إبرة في كومة قش. لكن الإبرة المميزة جديرة بالبحث».



في تلك السنة، وباستخدام اللغة الإنجليزية كمثال، بدؤوا مهمة دراسة كيف تطورت اللغات، وتغيرت، وتحورت، وتضاعفت، وتباعدت، وتقاربت. كما درسوا التغيرات الصوتية: لماذا تُنطق الكلمة الإنجليزية ني (knee) (أي ركبة) بحرف ك صامت في حين يُنطق في مثيلتها الألمانية، ولماذا كان للحروف الساكنة في اللاتينية، واليونانية، والسنسكريتية تماثل ثابت في اللغات الجرمانية. كانوا يقرؤون أعمال بوب، وجريم، وراسك المترجمة. كما قرؤوا الإيتيمولوجي لـ إيزيدوروس. ودرسوا كذلك التحولات الدلالية، وتغيّر الصياغة، والتباعد الجدلي، والاستعارة، علاوة على مناهج إعادة البناء التي قد تُستخدم لإعادة ترتيب العلاقات بين اللغات والتي بدت لأول وهلة غير ذات صلة بعضها ببعض. وراحوا يتبحرون في اللغات كأنها مناجم باحثين عن العروق الثمينة للتراث المشترك والمعاني المُشوهة.

لقد غيّر ذلك طريقتهم في التحدث، فصاروا يسكتون في منتصف الجمل، ولم يستطيعوا التفوه بالعبارات والأمثال الشائعة دون التوقف للتساؤل عن مصادر الكلمات. كانت تلك التساؤلات تتسرب إلى محادثاتهم، بل وصارت الطريقة المعتادة التي كانوا يفهمون بها بعضهم بعضًا وكل الأشياء*.

لم يعد بإمكانهم النظر إلى العالم دون رؤية القصص والتواريخ مُرتبة في كل مكان مثل طبقات من الرواسب تراكمت على مدى قرون.

وكان تأثيرات اللغة الإنجليزية أكثر غُمقًا وتنوعًا مما ظنوا. كانت كلمة تشيت مُشتقة من كلمة تشيتي الماراثية والتي تعني «خطاب» أو «رسالة». أما كوفي فقد شقت طريقها إلى اللغة الإنجليزية عبر كلمة كوفي الهولندية، وكلمة قهوة التركية، وكلمة قهوة العربية في الأصل. أما القطط المخططة

* كانت فيكتوار لتقول وهي تشير إلى روبين: «تأتي كلمة أوكوارد من الكلمة الإسكندنافية القديمة أوفجر والتي تعني «أديرت إلى الجانب الخطأ مثل سلحفاة ترقد على ظهرها».

وكان روبين ليرد: «إدًا لا بد أن فيكتوار مُشتقة من فيشوس، لا فيكتوريا، فلست سوى رذيلة».



(تأبي) فقد سُميت بهذا الاسم نسبةً للحرير المخطط الذي كان بدوره يحمل اسم مكان نشأته: أحد أحياء بغداد المدعو العتابية، بل إن أبسط الكلمات التي تصف الملابس أنتت من أماكن بعينها. كانت كلمة دماسك مُشتقة من قماش يُصنع في دمشق، وكلمة جنجام مُشتقة من الكلمة المالوية جنجانج والتي تعني «مخطط»؛ أما كاليكو فكانت تُشير إلى مدينة كاليكوت في ولاية كيرالا الهندية، وأخبرهم رامي بأن كلمة تافتا لها جذور فارسية في كلمة تافتي وتعني «قماش لامع». لكن لم يكن لكل الكلمات الإنجليزية جذور في مثل هذه الأصول البعيدة أو النبيلة. وتمثل الشيء الغريب في علم أصول الكلمات، والذي عرفوه بسرعة كبيرة، في أن أي شيء بإمكانه التأثير في لغة، بدءًا من العادات الاستهلاكية للأثرياء والعالميين، وصولًا للألفاظ الدارجة التي يتقو بها الفقراء والمُعْدَمون. وأسهمت اللهجات الوضيعة واللغات السرية للصوص، والمُتشردين، والأجانب بكلمات شائعة، مثل بيلك، وبوتي، وبوبل.

لم تقترض اللغة الإنجليزية كلمات مثل غيرها من اللغات فحسب، بل كانت مزيجًا غريبًا من التأثيرات الأجنبية واللغات غير المتجانسة، كانت لغة عامية مركبة بشكل مريع كوحش فرانكشتاين. وجد روبين ذلك مُذهلاً، فكيف لم تستطع هذه البلاد التي كان مواطنوها يتباهون بكونهم أفضل من باقي سكان العالم إكمال شاي بعد الظهيرة دون سلع مُستعارة.

بالإضافة إلى علم أصول الكلمات، فقد درسوا لغة جديدة في تلك السنة. لم يتمثل الهدف في تحقيق الطلاقة في هذه اللغة، بل في تعميق فهمهم للغات التي يُركزون عليها، وذلك من خلال عملية اكتسابها. بدأت ليتي ورامي يدرسان اللغة الهندية الأوروبية القديمة مع الأستاذ فريز. واقتרכת فيكتوار على المجلس الاستشاري عددًا من لغات غرب أفريقيا التي كانت ترجو أن تتعلمها، لكن الاقتراح رُفض لأن بابل كانت تمتلك موارد غير كافية لتدريس أي منها بشكل سليم، فانتهى بها الأمر لدراسة الإسبانية، إذ رأى الأستاذ



بلاي فير أن التحدث بالإسبانية ذو صلة بالحدود بين هايتي والدومينيكان، لكن لم يرق هذا الأمر لأحد.

راح روبين يدرس السنسكريتية مع الأستاذ شاكرافارتي الذي بدأ أول درس بتوبيخه لعدم معرفته باللغة وقال: «يجب أن يدرس الطلاب الصينيون اللغة السنسكريتية من البداية، إذ دخلت هذه اللغة الصين عبر النصوص البوذية، وهو ما أدى إلى توسع لغوي هائل، ذلك أن البوذية قدمت عشرات المفاهيم التي لم يستطع الصينيون إيجاد الكلمات المناسبة للتعبير عنها. صارت نان أو بهيكوني بالسنسكريتية ني*. وتحولت نرفانا إلى نايبان*. وتأتي المفاهيم الصينية الجوهرية، مثل الجحيم، والوعي، والنوايب من السنسكريتية. لا يستطيع المرء أن يفهم اللغة الصينية دون أن يفهم البوذية، وهذا يعني فهم السنسكريتية. يُشبه هذا محاولة المرء فهم عملية الضرب قبل أن يعرف كيف يرسم الأعداد».

ظن روبين أنه من ضروب الظلم أن يُتهم بتعلم لغته الأم بشكل غير صحيح، على الرغم من أنه يتحدثها منذ ولادته. لكنه قرر ألا يجادل وأن يسايره، فقال: «من أين نبدأ إذا؟».

أجاب الأستاذ شاكرافارتي بابتهاج: «من الأبجدية. سنعود للبنة الأساسية. أمسك بقلمك وتتبع هذه الحروف حتى ترسخ في ذاكرتك. أتوقع أن يستغرق هذا نصف ساعة. انطلق».

كانت اللاتينية، ونظرية الترجمة، وعلم أصول اللغة، ولغات التركيز، ولغة بحثية جديدة كلها حملاً دراسياً ثقیلاً، لا سيما حين يُكلف كل أستاذ بمقرر وكأن باقي المقررات غير موجودة! كانت الكلية معدومة التعاطف تماماً. قال الأستاذ بلاي فير بابتهاج حين احتج رامي على اضطراره



للمطالعة لمدة أربعين ساعة في الأسبوع: «قدم الألمان كلمة لطيفة وهي سايتزفلايتش، وتُترجم حرفياً «لحم على مقعد». باختصار، قد يكون كل ما تحتاج إليه في بعض الأحيان هو الجلوس وإتمام المهام».

مع ذلك، كانوا يجدون لحظات مُتعة. أصبحت أكسفورد وطنًا بكل الأشكال، فحفروا لهم مكانة فيها وأماكن يشعرون فيها بالألفة والانتماء، لا بأنهم يُتساهل معهم. كانوا قد عرفوا أي المقاهي تخدم عليهم دون جلبه، وأيها تفضل التظاهر بأن رامي لا وجود له أو تُعبر عن ضيقها من كونه أكثر قذارة من أن يجلس على مقاعدها. كما عرفوا أي الحانات يستطيعون التردد عليها بعد حلول الظلام دون أن يتعرضوا للتحرش. كانوا يجلسون وسط جمهور جمعية المناظرات المتحدة حيث كانوا يتألمون من كبح ضحكاتهم، في حين كان شباب مثل كولين ثورنهيل وإلتون بندنيس يهتفون بالعدل، والحرية، والمساواة حتى تحمر وجوههم.

تعلم روبين التجديف بمساعدة أنطوني الذي قال له: «ليس حسناً أن تظل قابلاً في المكتبة طوال الوقت. يحتاج المرء لفرد عضلاته كي يعمل مُخه بشكل جيد ويندفع الدم في عروقه. جربه، فسوف يُفيدك».

وإذ حدث ذلك، راق التجديف لروبين الذي وجد متعة كبيرة في الحركة المنتظمة لشد مجداف واحد عكس اتجاه الماء مرارًا وتكرارًا. صار ذراعاه أقوى، وبدأت ساقاه أطول إلى حد ما. وبالتدريج، اختفى الانحناء الناتج عن نحافته واكتسب مظهرًا مُمتلئًا كان يُشعره ببعض الرضا كلما نظر في المرأة كل صباح. وراح يتطلع للصباحات الباردة على النهر حين لم يكن باقي أهل المدينة قد استيقظوا بعد، وحين كان الصوت الوحيد الذي يسمعه على بعد أميال هو صوت تغريد الطيور والطقطقة اللطيفة الصادرة عن اصطدام حواف المجاديف بالماء.

باءت محاولات الفتيات للتسلل إلى نادي التجديف بالفشل، إذ لم يتمتعن بالطول الذي يسمح لهن بالتجديف، وكان التوجيه يتطلب الكثير من الصراخ، ما جعلهن يجدن صعوبة في التظاهر بأنهن رجال. ولكن، بعد



مرور أسابيع، بدأ روبين يسمع شائعات عن انضمام شخصين عنيين لفريق
المبارزة بالجامعة، رغم ادعاء ليتي وفكتور البراءة أثناء التحقيق.

وأخيرًا اعترفت فيكتور: «إن العنف هو عنصر الجاذبية، فهي مشاهدة
ممتعة للغاية. يبدأ هؤلاء الأولاد بقوة كبيرة، ثم لا يلبثون يفقدون التركيز
على الاستراتيجية العامة».

وافقت ليتي: «إذًا، فالمسألة بسيطة. حافظ على رباطة جأشك واطعنهم في
المناطق المكشوفة، فهذا ما يتطلبه الأمر».

في الشتاء، تجمد النهر فصاروا يتزلجون، وهو ما كان الجميع، باستثناء
ليتي، قد قاموا به من قبل. لقد أحكموا ربط أحذيتهم. قالت ليتي: «مزيد من
الإحكام. إياكم والحركات غير الثابتة وإلا كسرتم كاحليكم». فراحوا
ينأرجحون على الجليد ممسكين بعضهم ببعض ضامنًا للتوازن وهم يتميلون
للأمام، رغم أن ذلك كان يعني أنهم جميعًا سيسقطون لو سقط واحد. ثم لاحظ
رامي أنه لو مال إلى الأمام وثني ركبتيه، لاستطاع دفع نفسه بسرعة أكبر،
وفي اليوم الثالث راح يتزلج في دوائر حول الباقيين، بل وحتى ليتي التي
كانت تتظاهر بالانزعاج حين كان ينزلق في طريقها لم تستطع منع نفسها
من الضحك.

صارت صداقتهم وطيدة، ولم يعودوا مدهولين ولا مذعورين مثل السنوات
الأولى ولا مُتشبثين بعضهم ببعض بهدف تحقيق الاستقرار، بل صاروا
مُحاربين مُرهقين مُتحددين بفعل مُحاولاتهم، وجنودًا أشداء يمكنهم الاستناد
بعضهم إلى بعض في أي موقف. كانت ليتي الدقيقة، رغم تذمرها، تُراجع
ترجمة، مهما كان الوقت مُتأخرًا في الليل أو مُبكرًا في الصباح. وكانت
فيكتور أشبه بالعُرْفَة المغلقة. كانت لتستمع لأي كم من الشكاوى والتذمر
التافه دون أن يزلف لسانها بأي شيء مما سمعته. وكان روبين ليُطرق باب
رامي في أي وقت، سواء ليلاً أو نهارًا، لو احتاج إلى كوب من الشاي أو
شيء يُضحكه أو شخص يشاركه البكاء.



وحين ظهرت الدفعة الجديدة - أربعة أولاد بوجوه بريئة، بلا فتيات - في بابل في الخريف، لم يعيروهم أي انتباه. لقد تحولوا، عن غير عمد، لشيء شبيه بالطلاب القدامى الذين كانوا يحسدونهم. أثناء الفصل الدراسي الأول. لكن ما ظنوه عجرفة واستعلاء كان في واقع الأمر إرهاقاً. لم يكن الطلاب القدامى ينتون التتمر على الطلاب الجدد، بل ببساطة، لم يكن لديهم وقت.

لقد أصبحوا ما كانوا يتمنونه منذ السنة الأولى: متحفظين، أذكاء، وفي حالة إرهاق شديد. كانوا بؤساء. كانوا ينامون في وقت متأخر، ويأكلون قليلاً، ويكثررون المطالعة، وفقدوا الاتصال تماماً مع كل ما يجري خارج أكسفورد أو بابل. لقد تجاهلوا حياة العالم، وعاشوا حياة الفكر فحسب، وكانوا يعشقونها.

ورغم كل شيء، كان روبين يرجو ألا يأتي اليوم الذي تتحقق فيه نبوءة جريفيين، وأن يحافظ على هذا التوازن إلى الأبد، إذ لم يشعر بمثل هذه السعادة من قبل، وكان مثقلاً بالمسؤوليات على نحو يجعله لا ينتبه بتناسق الأمور.

وفي نهاية فصل ميكلماس الدراسي، جاء كيميائي فرنسي يُدعى لويس-جاك ماندنيه داجير إلى بابل حاملاً شيئاً غريباً. وقد أعلن أنها كاميرا ضوئية مظلمة بإمكانها نسخ الصور الثابتة باستخدام صفائح نحاسية مكشوفة ومركبات حساسة للضوء. مع ذلك، لم يستطع إتقان آليات التحكم. فهل كان باستطاعة البابليين إلقاء نظرة واستكشاف طرق لتحسينها بعض الشيء؟

أصبحت مشكلة كاميرا داجير مثار حديث البرج، وجعلتها الكلية مسابقة، فصار يحق لأي طالب مؤهل لأعمال الفضة يستطيع حل مشكلة داجير وضع اسمه على اختراعه، علاوة على حصوله على نسبة من المكافآت. وعلى مدى أسبوعين، راح الطابق الثامن يموج بهوس صامت، إذ راح طلاب الفرقة الرابعة والخريجون يُقبلون قواميس علم أصول الكلمات مُحاولين العثور على مجموعة من الكلمات تصلهم بالنقطة الصحيحة من المعنى والتي تتضمن الضوء، واللون، والصورة، والتقليد.



كان أنطوني ريبين هو من تمكّن من التوصل إلى تلك النقطة. ووفقًا لشروط التعاقد مع داجير، ظل الزوج المُتشابه الذي حصل على براءة الاختراع طي الكتمان. لكن أشيع أن أنطوني قد فعل شيئًا بالكلمة اللاتينية إيماجو والتي إضافة لكونها تعني «تشابه» أو «تقليد» كانت تُشير أيضًا إلى شبح أو طيف. من ناحية أخرى، أشيع أن أنطوني قد توصّل إلى طريقة لإذابة قالب الفضة لتوليد أبخرة من الزئبق الساخن. لم يستطع أنطوني التحدث عن الأمر، أيًا كان، لكنه نُفِخَ مبلغًا مُجزئيًا مُقابل جهوده.

صارت الكاميرا تعمل، وصار نسخ الشيء صورة طبق الأصل من الشيء المُصور على ورقة في أقصر وقت أمرًا ممكنًا بشكل عجيب. اكتسب جهاز داجير - أو نموذج داجير كما أطلقوا عليه - شهرة واسعة. أراد الجميع أن تُلتقط لهم صورة. نظم داجير وهيئة تدريس بابل معرضًا لمدة ثلاثة أيام في صالة البرج، ووقف الأعضاء المُتحمسون من العامة في صفوف مُلتفة حول الشارع!

كان روبين مُتوترًا لاضطراره الانتهاء من ترجمة سنسكريتية موعد تسليمها في اليوم التالي، لكن ليتي أصرّت أن يذهب الجميع لالتقاط صورة شخصية وسألته: «ألا تريد تذكّارًا لنا يُخلد هذه اللحظة؟».

هز روبين رأسه وأجاب: «ليس تحديدًا».

فقال بإصرار: «حسنًا أنا أريد. أريد أن أتذكر كيف كنا الآن، في هذه السنة، عام 1837. لا أريد أن أنسى».

فاجتمعوا أمام الكاميرا. جلست ليتي وفيكتور على المقاعد واضعتين يديهما على حجريهما، في حين وقف روبين ورامي ورأيهما غير عارفين ماذا يفعلان بأيديهما. هل يضعوها على أكتاف الفتيات أم فوق المقاعد؟

قال المُصور: «ضعوا أذر عكما على جانبيكما. قفا ثابتين قدر الإمكان. كلا - بداية، اقتربا قليلًا - ها نحن ذا».



ابتسم روبين، لكن حين أدرك أنه لن يستطيع إبقاء فمه مفروداً لفترة طويلة، فأعاد له وضعه على الفور.

في اليوم التالي، استلموا صورتهم بعد أن انتهت من أحد موظفي الصالة. قالت فيكتوار: «لو سمحت. لا تُشبهنا هذه الصورة إطلاقاً».

لكن ليتي كانت مسرورة، وأصرّت على شراء برواز وقالت: «سأعلقها فوق منضدتي، فما رأيكم؟».

أجاب رامي: «أفضل أن تتخلصي منها، فهي مُريعة».

ردت ليتي: «ليست كذلك». بدت مذهولة وهي تُشاهد الصورة، وكأنها رأت سحراً حقيقياً. «هذا نحن ثابتين في الزمن ومُصورين في لحظة لن نستعيدها طول عُمرنا. إنها رائعة».

ورأى روبين أيضاً أن الصورة تبدو غريبة. لكنه لم يُصرح بذلك. كانت تعبيرات وجوههم مُتكلفة وكأنها أُنّعت تخفي انزعاجاً طفيفاً. لقد شوّهت الكاميرا الروح التي كانت تجمعهم ودمّرتها. وبدا الدفء والزمالة اللذان يجمعانهم قُرباً قسرياً مُتكلفاً. واعتقد أن التصوير نوعاً من الترجمة كذلك، وأنهم جميعاً خرجوا منه فاقدين شيئاً من أصالتهم.

صاروا أشبه بعدة زهور بنفسج قد طُرحت في المحرقة!



الفصل العاشر



حفاظًا على مبادئ تلاميذهم، كانوا يُقيدونهم بالتفاهات الآمنة والأنبياء للتعليم الكلاسيكي. كان مُعلمو أوكسفورد الحقيقيون سيراتجفون لو سمعوا جدًّا بين تلاميذهم حول إحدى الحقائق الأخلاقية والسياسية، ويصوغون آراء ويُسقِطون أخرى، وينغمسون في النقاش السياسي الجريء، فلم يكونوا ليبروا في ذلك سوى تمرد على الله وخيانة للملوك.

سيدني سميث، التعليم الاحترافي لـ إيدجويرث.

وقبيل نهاية فصل ميكلماس الدراسي، صار جريفيين أقرب من المعتاد. كان روبين قد بدأ يتساءل أين عساه ذهب، فمنذ عودته من ملقا، قلت واجباته من مرتين في الشهر إلى لا شيء. ولكن في شهر ديسمبر، بدأ روبين يتسلم رسائل توجهه لمقابلة جريفيين خارج حانة تويستد روت كل بضعة أيام حيث بدؤوا روتينهم من المشي بذعر حول المدينة. كانت تلك مقدمات لسرقات مُخططة. لكن بين الحين والآخر، بدا جريفيين كمن لا خطة لديه، وكان يُريد الدردشة فحسب. كان روبين ينتظر تلك النزعات بشوق، إذ كانت الأوقات الوحيدة التي يرى فيه أخاه أقل غموضًا وأكثر إنسانية؛ كان يُشبهه البشر الحقيقيين. لكن جريفيين لم يُجب عن الأسئلة التي كان روبين يريد مُناقشتها، والتي كانت تدور حول ما تفعله هرمس بالمواد التي يُساعد في سرقتها، وكيف كان حال الثورة إذا ما كانت هناك واحدة. كان لُجيب: «ما زلت غير واثق بك. فأنت جديد».

فكان روبين يقول في نفسه دون أن يُصرح: ولا أنا أثق بك. وكان يسأل عن أشياء بالتلميح: «كم من الوقت مضى على نشأة هرمس؟».

وهنا حدجه جريفيين بنظرة سُخرية وقال: «أفهم ما تقصده».

«أريد أن أعرف فحسب ما إذا كانت اختراعًا حديثًا، أو...».



«لا أعلم. ليس لدي علم. غمرها عشرات الأعوام على الأقل، أو ربما أكثر، لكني لم أتوصل إطلاقاً. لماذا لا تسألني بوضوح عما تُريد معرفته؟». «لأنك لن تُخبرني».

«جربني».

«حسناً، لو كانت موجودة منذ وقت أطول، فلا أستطيع أن أفهم».

«لا تستطيع أن تفهم لماذا لم نكسب بالفعل؟ أهذا ما تُريد السؤال عنه؟».

قال روبين: «لا، بل لا أفهم ما تصنعه من فرق، فبابل هي بابل، وأنتم مجرد...».

فأكمل جريفين: «مجموعة صغيرة من الباحثين المنفيين تُحاول إضعاف الكيان الضخم؟ قل ما تقصده يا أخي دون تردد».

«بل كنت لأقول: «إنكم مثاليون مُحاصرون بأعداد كبيرة» لكن نعم. اقصِد، أرجوك يا جريفين، من الصعب أن أستمِر في التصديق حين يظل أثر ما يتم غير واضح».

أبطاً جريفين خطواته، ثم صمت لثوانٍ وهو يُفكر، ثم قال: «دعني أشرح لك. من أين تأتي الفضة؟».

«بصراحة يا جريفين...».

«أجبنني».

«لدي مُحاضرة بعد عشر دقائق».

«ليست إجابة سهلة. لن تطردك كرافت لأنك تأخرت مرة واحدة فحسب. من أين تأتي الفضة؟».

«لا أدري. هل من المناجم؟».

تنهد جريفين بنثاق: «ألا يُعلمونك أي شيء؟».



«يا جريفين...».

«اسمع فحسب. الفضة موجودة منذ عهد بعيد. كان الآثينيون يُنقبون في أتيكا، وكان الرومان، كما تعلم، يستخدمون الفضة في توسيع رقعة إمبراطوريتهم حين أدركوا منافعها. لكن الفضة لم تُصبح عملة عالمية ولم تُسهّل شبكة تجارية تجوب القارات حتى وقت لاحق، إذ لم يكن هناك ما يكفي منها. وفي القرن السادس عشر، عثرت مملكة هابسبورج - أول إمبراطورية عالمية حقيقية - على كميات كبيرة من الفضة في جبال الأنديز، وجلبها الإسبان من الجبال بفضل العمال من السكان الأصليين، ويمكنك التأكد أنهم تلقوا أجرًا زهيدًا مقابل عملهم* وسكّوها في عملة صغيرة من فئة الثمانية، ما أدى لتدفق الثروة إلى إشبيلية ومدريد. جعلتهم الفضة أغنياء، بل أغنياء على نحو كافٍ لشراء القماش القطني المطبوع من الهند، وهو ما استُخدم لدفع ثمن العبيد المُقيدين من أفريقيا والذين جعلوهم يعملون في المزارع في مستعمراتهم. ومن ثم صار الإسبان أكثر غنى، ولم يُخلّفوا سوى الموت، والعبودية، والفقر حيث كانوا يذهبون. هل فهمت الأنماط؟».

حين كان جريفين يُحاضر، كان يُشبه الأستاذ لوفيل بشكل غريب. كان الاثنان يعملان إشارات شديدة الحدة بأيديهما وكأنهما يستخدمان حركات اليد لإنهاء خطبهما الطويلة بدلًا من وضع النقاط. وكان كلاهما يتحدث بطريقة شديدة الدقة وغير مُنظمة الإيقاع، كما كانا يشتركان في ولع بالجدل السقراطي على شاكلة: «لو قفزت إلى الأمام قرنين من الزمن، فماذا ستجد؟».

تنهد روبين، لكنه استمر في اللعب: «كل الفضة، وكل القوى، وتدفقات من العالم الجديد إلى أوروبا».

* يعد هذا استخفافًا بالأمر. فبعد عقود قليلة من «اكتشاف» بوتوسي عام 1545، صارت مدينة الفضة مصيدة موت للعبيد الأفارقة والعمال الأصليين المجندين للعمل وسط أبخرة الزئبق، والماء المتسخ والنفايات السامة. صار ملك الجبال وحسد الملوك الإسباني هرمًا مبنيا على جثث قضى أصحابها بفعل الأمراض، والمشى القسري، وسوء التغذية، والسخرة، والبيئة المسمومة.



قال جريفيين: «صحيح، إذ تتراكم الفضة حيث تُستخدم بالفعل. كان الإسبان أصحاب الريادة لوقت طويل، في حين كان الهولنديون، والبريطانيون، والفرنسيون يُلاحقونهم. لو قفزت قرناً آخر، لوجدت إسبانيا وقد تحولت إلى ظل لما كانت عليه ذات يوم. كما قلصت حروب نابليون قوة فرنسا، واحتلت بريطانيا المجيدة القمة، بأضخم مخزونات الفضة في أوروبا، وأفضل معهد للترجمة في العالم حتى الآن، وأفضل قوة بحرية ترسّخت بعد معركة ترافالجار.

أعني أن هذه الجزيرة في طريقها لحكم العالم، أليس كذلك؟ لكن شيئاً مضحكاً لم ينفك يحدث طوال القرن الماضي، شيء يُسبب للبرلمان وجميع الشركات التجارية البريطانية صداغاً. هل يُمكنك تخمينه؟».

«لا تقل إن الفضة على وشك النفاد».

ابتسم جريفيين وقال: «توشك فضتهم على النفاد. هل تستطيع أن تخمن إلى أين صارت تتدفق؟».

كان روبين يعرف إجابة هذا السؤال، فقط لأنه سمع الأستاذ لوفيل وأصدقائه يشكون من ذلك لسنوات أثناء جلوسهم في صالون هامبستيد ليلاً، فقال: «الصين».

«الصين هي الدولة الوحيدة التي تُشبع نفسها بواردات من الشرق. لا يستطيعون الحصول على ما يكفيهم من البورسلين الصيني، والخزائن المطلية بالورنيش، والحرائر، وكذلك الشاي. يا إلهي! هل تعرف كمّ الشاي الذي تُصدره الصين إلى إنجلترا كل عام؟ ما يُعادل ثلاثين مليون رطل على الأقل. يُعشق الإنجليز شرب الشاي، ما جعل البرلمان يُصر على أن تُحافظ شركة الهند الشرقية على مخزون يكفي عامّاً تحسباً للنقص. ننفق الملايين والملايين على الشاي الصيني كل عام ونُدفع مُقابل هذا فضة. لكن ليس للصين رغبة مُتبادلة في الحصول على السلع البريطانية. حين حصل الإمبراطور كينلونج على عرض من المصنوعات البريطانية من اللورد ماكارنتي، هل تعرف ماذا كان رده؟ سِلَع غريبة وباهظة الثمن لا تستاهل



انتباهي. لا يحتاج الصينيون لأي شيء نبيعه، إذ يُمكنهم إنتاج كل شيء بأنفسهم، ومن ثم، لا تنفك الفضة تتدفق إلى الصين، ولا يستطيع البريطانيون عمل أي شيء حيال هذا، إذ لا يمكنهم تغيير حركة العرض والطلب. وذات يوم، لن يُصبح مقدار ما نملك من موهبة الترجمة مُهمًا؛ ذلك أن مخزون الفضة لن يكون موجودًا لاستخدام الترجمة. سوف تنهار الإمبراطورية البريطانية بسبب طمعها. وفي الوقت الحالي، ستتراكم الفضة في مراكز القوة الجديدة المُمتلئة في الأماكن التي سُرقَت واستُغلت مواردها. ستحصل على المواد الخام، وكل ما ستحتاج إليه وقتها هو صائغو الفضة، وستذهب المواهب حيث تجد عملاً، فهذا ما يحدث دائماً. يقتصر الأمر إذاً على إنهاء وجود الإمبراطورية، وستقوم عجلة التاريخ بالباقي. كل ما عليك عمله هو جعلها تُسرّع».

قال روبين: «لكن هذا...» لكنه تراجع. كان يُحاول جاهداً أن يعثر على كلمات لصياغة اعتراضه، فقال: «لكن هذا كلام بسيط ومُجرد، لا يُمكنه - أعني، بالتأكيد، لا يستطيع أحد التنبؤ بحركة التاريخ هكذا بمثل هذا التوسع...».

فدج جريفين روبين بنظرة سريعة: «لكن يمكن التنبؤ بأشياء كثيرة. لكن هذه هي مُشكلة التعليم في بابل، أليس كذلك؟ يُعلمونكم اللغات والترجمة، لا التاريخ، ولا العلوم، ولا السياسة الدولية، ولا يُحدثونكم عن الجيوش التي تدعم اللكنات».

فألح روبين: «لكن كيف سيبدو الأمر؟ أعني كيف سيتحقق ما نتحدث عنه؟ أهي حرب عالمية، أم انهيار اقتصادي بطيء حتى يُصبح العالم مُختلفاً تماماً؟».

أجاب جريفين: «لا أعرف. لا أحد يعرف تحديداً كيف سيبدو المُستقبل. وما إذا كانت موازين القوة لتميل نحو الصين أو الأمريكتين، أو أن بريطانيا تُحارب بشراسة للاحتفاظ بمكانتها، يستحيل التنبؤ بهذا».

«فكيف عرفت أن لما تفعله تأثيراً؟».



أجاب جريفيين مُوضَحًا: «لا يُمكنني التنبؤ بنتائج كل مُواجهة. لكني أعرف أن ثروة بريطانيا تعتمد على الانتزاع القمعي. وكلما نَمَت بريطانيا، يتبقى خياران: إما أن تُصبح مُمارساتها القمعية أكثر قسوة وإما أن تنهار. الخيار الأول هو الأرجح، لكنها قد تجلب الثاني».

قال روبين بعجز: «يا لها من حرب غير مُتكافئة! أنت من جانب والإمبراطورية كلها من جانب آخر».

قال جريفيين: «فقط لو ظننت أن الإمبراطورية قدر محتوم، لكن ليس الأمر هكذا. ففكر في العصر الحالي. لقد صرنا في نهاية أزمة كبيرة بعد سقوط الإمبراطوريات الملكية واحدة تلو الأخرى. خسرت بريطانيا وفرنسا في أمريكا، ثم ذهبنا لثُحارب إحداهما الأخرى، ما لم يُعَد بالنفع على أي منهما. والآن، نَشهد توحيدًا جديدًا للقوة. هذا صحيح، فقد استولت بريطانيا على البنغال، واستولت على جزيرة جاوا الهولندية ومُستعمرة كيب. ولو حصلت على ما تُريده في الصين وتمكّنت من قلب عدم التوازن التجاري، فلن يُمكن إيقافها».

«لكن، ليس هناك شيء ثابت، ولا حتى الفضة. يتوقف الكثير على تلك الظروف الطارئة، وفي هذه المواقف الحرجة، يُمكننا الشد والجذب، حين تكون القرارات الفردية، بل تصنع أصغر الجيوش المُقاومة فرقًا. خُذ بربادوس على سبيل المثال أو جامايكا، لقد أرسلنا قوالب إلى الثورات هناك...».

فقال روبين: «لقد قُمِعت ثورات العبيد هناك».

رد جريفيين: «لكن العبودية هناك أُلغيت، أليس كذلك؟ على الأقل في الأراضي البريطانية. لا أزعم أن كل شيء أُلصَح، ولا أدّعي أننا أصحاب الفضل الكامل في التشريع البريطاني، فأنا متأكد أن هذا سيُثير استياء مُناهضي العبودية. لكنني أقول إنه لو ظننت أن قانون 1833 قد سُنَّ بسبب الحساسيات الأخلاقية لدى البريطانيين، فأنت مُخطئ. لقد أصدرُوا هذا القانون لأنهم لم يستطيعوا تحمل الخسائر».



وهنا لَوْح بيده مُشيرًا إلى خارطة خفية، وقال: «يجب أن نُسيطر في مثل هذه اللحظات الحاسمة. فإذا ضغطنا في المواضع الصحيحة، لخلقنا خسائر لا تستطيع الإمبراطورية تحملها، ومن ثم، نكون قد دفعنا الأمور إلى نقطة التحول. حينئذ يُصبح المُستقبل سلس الحركة ويُصبح التغيير ممكنًا. ليس التاريخ نسيجًا سابق الصنع يجب أن نتحمله ولا عالم مُغلق بلا مخرج، بل يُمكننا تشكيله وصنعه. كل ما علينا هو أن نتخذ قرار صنعه».

قال روبين بدهشة: «أُتصدّق هذا حقًّا؟». لقد أذهلته ثقة جريفين. بالنسبة لروبين، كان مثل هذا الاستدلال المُجرد سببًا للتخلي عن العالم، والانعزال إلى الكُتب واللغات الميتة حيث الأمان. أما بالنسبة لجريفين، فكان هذا نداء للحشد.

قال جريفين: «يجب أن أفعل هذا، وإلا صرت مُحقًا، وإلا لن أُحقّق أي شيء».

وبعد انتهاء تلك المحادثة، بدا أن جريفين قد تبَيَّن أن روبين لم يكن ليخون هرمس، إذ كانت واجباته قد ازدادت عددًا. لم تكن كل مهامه تتضمن سرقة. ففي كثير من الأحيان، كان جريفين يطلب مواد مثل كُتب أصول الكلمات، وصفحات من كُتب النحو، وقوائم الأخطاء الإملائية الشائعة، وكان يسهل الحصول عليها كلها، ونسخها، وإعادتها دون لفت الأنظار. مع ذلك، كان عليه أن يتعامل مع الأمور بذكاء وكيف يسحب الكُتب، ذلك أنه كان ليُثير الشكوك لو ظل يسحب مواد لا صلة لها بمجال تركيزه خلسة. وذات مرة، طلبت إلزي اليابانية الطالبة في فرقة أعلى أن تعرف ما يفعله بكتاب نحو اللغة الألمانية القديمة، وكان عليه اختلاق قصة عن عثوره على العنوان مُصادفة أثناء مُحاولته تتبّع كلمة صينية في أصول حيثية. لم يهتم بكونه في القسم الخطأ من المكتبة، وبدأت إلزي على استعداد للتصديق أنه كان غيبًا.

كانت طلبات جريفين غير مُتعبة بشكل عام. كان الأمر أقل رومانسية مما ظن روبين أو مما كان يريّجوه أن يكون. لم تكن هناك مُغامرات مُثيرة، ولا



مُحادثات مُشفرة تُتبادل على الجسور فوق المياه الجارية. كان الأمر روتينيًا للغاية. وعرف روبين أن أهم إنجازات جمعية هرمس تمثلت في إخفائها نفسها، وكيف أخفت المعلومات تمامًا حتى عن أعضائها. فلو اختفى جريفيين ذات يوم، لأجبر روبين على إثبات وجود هرمس لأي شخص، لا مُجرد محض خيال. كان يشعر دائمًا بأنه ليس جزءًا من جمعية سرية، بل من بيروقراطية كبيرة مُملة تعمل بتنسيق مُذهل.

بل وصارت السرقات نفسها روتينية! بدا أساتذة بابل غير واعين على الإطلاق بأن أي شيء يُسرق. كانت جمعية هرمس تأخذ كميات ضئيلة من الفضة للتغطية على بعض الخدع المحاسبية، وكما أوضح جريفيين أنه بفضل كلية الدراسات الإنسانية، صار الجميع فاشلين في التعامل مع الأرقام.

قال لروبين: «كان بلاي فير ليسمح باختفاء صناديق كاملة من الفضة لو لم يراقبه أحد. هل تظن أن سجلاته المحاسبية دقيقة؟ يستطيع الرجل بمشقة جمع الأعداد المُكونة من رقمين!».»

في بعض الأيام، لم يكن جريفيين يذكر هرمس على الإطلاق، بل كان يقضي الساعة المُستغرقة في الوصول إلى بورت ميدو والعودة في السؤال عن حياة روبين في أكسفورد - عن إنجازاته في التجديف، ومتاجر بيع الكتب المُفضلة لديه، ورأيه في الطعام الذي يُقدم في الردهة والمقصف.

كان روبين يُجيب بحرص، وظل ينتظر اللحظة الحاسمة التي يُحوّل فيها جريفيين المُحادثة إلى جدل بسبب تفضيله الخاص للقريصات العادية كي يُصبح هذا دليلًا على كونه برجوازيًا. لكن جريفيين كان يسأل فحسب، وبالتدريج اتضح لروبين أنه ربما كان جريفيين يفتقد حياته الطلابية.

وذات ليلة قال جريفيين: «يروق لي الحرم الجامعي في وقت العيد، فهو الموسم الذي يزيد فيه اعتماد أكسفورد على سحرها الخاص».

كانت الشمس قد غربت، وتحول الهواء من حالة البرودة المقبولة إلى البرد القارس، لكن شموع احتفال العيد كانت تُضيء المدينة وكان الثلج يهطل في



ندفات خفيفة حولهما. كان ذلك جميلاً. أبطأ روبين خطواته، إذ أراد الاستمتاع بالمنظر، لكنه لاحظ أن جريفين كان يرتجف بشدة.

قال روبين بتردد: «لا يا جريفين...» لم يعرف كيف يسأله بأسلوب مُهذَّب. «هل هذه هي السترة الوحيدة التي تمتلكها؟».

فترجع جريفين فجأة كأنه كلب يقفز على ساقيه الخلفيتين وقال: «لماذا؟». «الأمر فحسب أنه لديّ مال، لو أردت شراء شيء أثقل...».

«لا تتعامل معي باستعلاء». ندم روبين فوراً على تطرقه لهذا الأمر. كان جريفين شديد الكبرياء. لم يكن ليُقبل الإحسان، بل ولم يتقبل التعاطف. «لا أحتاج إلى مالك».

فقال روبين بتأثر: «افعل ما شئت».

راحا يمشيان هنيهة أخرى في صمت، ثم سأله جريفين مُحاولاً مد يد الصلح: «ما برنامج العيد؟».

«سيبدؤون بتقديم العشاء في الردهة».

«إذاً، فهي صلوات طويلة، ولحم إوز صعب المضغ، وبودينج العيد رديء الطعم. أخبرني بالمهم».

فابتسم روبين ورد: «أعدت السيدة بايبر بعض الفطائر لي في جيريكو». «لحم وكلى؟».

«بل دجاج مشوي بالكُرّاث. إنه طبق المُفضل، وتارت الليمون من أجل ليبي، وحلوى الشيكولاتة بالبقان لرامي وفيكْتوار...».

فقال جريفين: «بوركت يا سيدة بايبر. كان لدى الأستاذ عجوز شمْطاء تُدعى السيدة بيترهاوس في وقتي. لم تكن تطبخ لثُحافظ على رزقها، بل كانت تتذكر دائماً شيئاً عن الأطفال مخلوطي الأنساب حين كنت في مرمى السمع. ولم يُعجبه ذلك أيضاً. أظنه طردها لهذا السبب».



ثم عرجا يسارًا إلى كورنماركت. لقد صارا شديدي القُرب من البرج، فبدأ جريفين مُرتبِّغًا، وظن روبين أنهما سيفترقان قريبًا.

«قبل أن أنسى». وهنا مد جريفين يده في جيب سترته وأخرج طردًا ملفوفًا وألقاه في وجه روبين وقال: «لديَّ شيء ما لك».

ففوجئ روبين وراح يَفك الرباط وسأل: «أهي أداة؟».

«بل هدية. عيد سعيد».

مزق روبين الورقة كاشفًا عن كتاب جميل حديث الطبع.

قال جريفين: «قلت إنك تُحب ديكنز، وقد أتموا للتو تجميع آخر سلسلة له. ربما تكون قد قرأتها، لكنني ظننت أنك قد تُحب الحصول عليها في مجلد واحد».

كان قد اشترى لروبين مجموعة أوليفر تويست المُكونة من ثلاثة أجزاء. لم يكن من روبين إلا أن يتلعثم، إذ لم يعرف أنهما يتبادلان الهدايا، ولم يكن قد أحضر شيئًا لجريفين. لكن جريفين تجاهل الأمر وقال: «لا بأس، فأنا أكبر منك، لا تُحرجني».

ولم يلحظ روبين أن هذا الاختيار كان طريقة جريفين في المزاح إلا لاحقًا بعد أن اختفى جريفين في بروود ستريت وسترته ترفرف حول كعبيه.

كاد يقول حين افترقا: غُد معي. تعال إلى الردهة. غُد وتناول العشاء. لكن هذا كان مُستحيلًا. انقسمت حياة روبين إلى قسمين، وكان جريفين موجودًا في عالم الظلال، مُختبئًا عن الأعين. لم يكن روبين ليُحضره إلى ماجباي لين على الإطلاق ولم يكن ليُقدمه إلى أصدقائه، ولم يكن ليدعوه أخاه في وضح النهار.

تتحنح جريفين وقال: «حسنًا، المرة القادمة».

«متى سيكون هذا؟».



«لا أعرف بعد. راقب نافذتك». في تلك الأثناء، كان يبتعد وقدماه تغوصان في الثلج.

في أول يوم للفصل الدراسي هيلاري، أغلق أربعة من رجال الشرطة مدخل بابل. كانوا يبدون مُتَشَغِلِينَ بشخص ما أو شيء ما بالداخل. وأيا كان، لم يستطع روبين الرؤية من حشد الطلاب المُرتَجِفين.

سأل رامي الفتيات: «ماذا حدث؟».

أجابت فيكتوار: «يقولون إن اقتحامًا قد حدث. أظن أحدهم أراد اختلاس بعض الفضة».

فسأل روبين: «وماذا إذن؟ لعل الشرطة أنت في الوقت المناسب».

قالت ليتي: «حين شرع في الدخول من الباب، أطلق جرس إنذار، وأعتقد أن الشرطة أنت بسرعة».

خرج شرطي خامس وسادس من المبنى وهما يَجْرَان الرجل الذي افترض روبين أنه اللص. كان مُتَوَسِّطُ العمر، وذا شعر داكن، ولحية، ويرتدي ملابس مُتَسَخَّة، ومن ثم، فهم روبين - ببعض الارتياح - أنه ليس من أعضاء هرمس. كان وجه اللص مُتَشَنِّجًا من الألم، وارتفع أنينه لأذان الحشد أثناء سحب الشرطة له على الدرج نحو عربة أجرة. لقد تركوا قطرات من الدم خلفهم على الحصى.

وهنا ظهر أنطوني ريبين بجوارهم وقال: «لقد أُصِيب بخمس رصاصات. من الجيد أن الفخاخ تعمل». بدا وكأنه على وشك التقيؤ.

فقال روبين رافضًا الفكرة: «هل فعلت الفخاخ هذا؟».

أجاب أنطوني: «البرج في حماية أكثر النظم الأمنية تعقيدًا في البلاد، فهم لا يُترجمون كُتُب النحو فحسب، بل هناك من الفضة ما تُعادل قيمته نصف



مليون جنيه في هذا المبنى وبعض المثقفين النُحاف للدفاع عنه! توجد بالطبع فخاخ مُثبتة على الأبواب».

راح قلب روبين يَخفق بسرعة، بل كان يسمعه داخل طبلتي أُذنيه، وقال: «بماذا تعمل؟».

«لا يقولون لنا إطلاقًا. إنها الأزواج المُتطابقة، إذ يتكتمون على الأمر. يُحدّث بلاي فير القوالب كل بضعة أشهر، وهو الموعد الذي يُقدم فيه أحدهم على سرقة. يجب أن أقول إن هذه المجموعة تروق لي. كانت آخر مجموعة تُنخّن سيقان المُتسللين جراحًا باستخدام السكاكين القديمة التي يُشاع إنها جُلبت من الإسكندرية. الأبسطه الداخلية كلها مغطاة بالدماء. لو أُلقيت نظرة فاحصة، لرأيت البقع بنية اللون. لقد قضينا أسابيع نُحاول تخمين الكلمات التي استخدمها بلاي فير، لكن لم يستطع أحد الوصول إليها».

تبعث فيكتوار العربية بعينيهما أثناء مُغادرتها ثم سألت: «ماذا تظنون سيحدث له؟».

أجاب أنطوني: «لو لم يفقد باقي دمه وهو في طريقه إلى قسم الشرطة، فمن المُحتمل أن يضعوه في أول سفينة تُبحر إلى أستراليا».

قال جريفيين: «تسلّم روتيني. مُدخلات ومُخرجات، فلن ترى أننا هناك. التوقيت خادع بعض الشيء، فكن مُستعدًا في الليل». ثم لكز كتف روبين وقال: «ما خطبك؟».

فأومأ روبين ونظر إليه وقال: «هم؟».

«تبدو مذعورًا».

«أنا فحسب...» فكّر روبين للحظة ثم قال دون تفكير: «أُتعرّف أن هناك فخاخًا؟».

«ماذا؟».



«رأينا رجلاً اقتحم هذا الصباح، لقد فعلت الفخاخ نوعاً من البنادق التي أمطرته بوابل من الرصاص...».

بدا جريفيين مذهولاً وقال: «بالطبع. لا تقل إن الأمر جديد عليك. لبابل فخاخ سخيفة. ألم يُكرروا هذا على مسامعكم أثناء الأسبوع الأول؟».

«لقد قاموا بتحديثها، فهذا ما أحاول إخبارك به. صاروا يعرفون متى يدخل اللص...».

قال جريفيين باستخفاف: «ليست القوالب بهذا التعقيد، فهي مُصممة للتمييز بين الطلاب، وضيوفهم، والغُرباء. ماذا تظنه ليحدث لو وثبت الفخاخ على مُترجم يحتاج لأخذ بعض القوالب إلى البيت ليلاً؟ وماذا لو أحضر أحدهم زوجته إلى الكلية دون أن يُرتب الأمر مع بلاي فير؟ أنت في أمان تام».

«لكن كيف عساك تعرف؟» بدا روبين أكثر عناداً مما انتوى. فتنحج وحاول التحدث بصوت عميق دون أن يُصرّح بما قصد: «لم ترَ ما رأيته، ولا تعرف طبيعة الأزواج المُتطابقة الجديدة...».

«لست في خطر. خُذ... خُذ هذا لو كنت قَلِقاً». فتش جريفيين جيبه، ثم أخرج قالباً وألقاه في وجه روبين. كان مكتوباً عليه كلمة ووكسنج التي تعني خفي. كان القالب نفسه الذي استخدمه في أول ليلة التقيا فيها.

قال جريفيين: «سيُساعدك هذا على الهروب بسرعة لو لم تُسر الأمور على ما يُرام. وقد تحتاج لاستخدامه على رفاقك بغض النظر، فمن الصعب أن تُخرج خزانة بهذا الحجم من المدينة دون أن يلحظ أحد».

وضع روبين القالب في جيبه الداخلي ثم قال: «يُمكنك أن تكون أقل عناداً في هذه الأمور».

قال جريفيين بامتعاض: «ماذا؟ هل أصابك الذعر الآن؟».

فكر روبين للحظة ثم انتقى كلماته وأجاب: «الأمر فحسب... يبدو كأنه - أقصد أنني الوحيد الذي يتعرض للخطر، بينما أنت فحسب...».



سأله جريفيين بحدة: «أنا فحسب ماذا؟».

لقد دخل في منطقة الخطر. كان يعرف من لمعة عيني جريفيين أنه قد اقترب كثيرًا من منطقة إيذاء المشاعر. فقبل شهر، وحين كانت علاقتهما أكثر توترًا، كان ليُغيّر الموضوع. لكنه لم يَعد يستطيع البقاء صامتًا، إذ شعر وقتها بالضيق والمهانة، ومن ثم، تولّد لديه رغبة ملحة في إيذاء مشاعر غيره.

فسأله: «لَمْ لا تُشارك في هذه؟ لماذا لا تستطيع استخدام القلب بنفسك؟».

أوما جريفيين ببطء، ثم أجاب بنبرة شديدة الهدوء كأنه مُضطر لذلك: «لا أستطيع. تعلم أنني لا أستطيع».

«لَمْ لا؟».

«لأنني لا أحلم باللغة الصينية». لم يتغير تعبير وجهه ولا حتى نبرة صوته، لكن الغضب والاستعلاء كانا يتسربان مع كلماته. كان من المدهش أن يراه يتحدث، كان يبدو كوالدهما. «أنا سلفك الفاشل. اخرجني والدنا العزيز من البلاد في وقت مبكر للغاية. تستشعر أذناي النبرات، لكن هذا كل ما في الأمر، وطلاقتي متكلفة بشكل كبير. ليس لدي ذكريات باللغة الصينية، ومن ثم، لا أحلم بها. لدي موهبة الحفظ والمهارات اللغوية، لكن ليس بإمكانني تشغيل القوالب، إذ تظل خاملة لنصف الوقت». ثم ارتجفت حنجرته وأردف: «أصاب والدنا فيما فعله معك، إذ تركك تختمر حتى تعلمت القراءة والكتابة، في حين أحضرني هنا قبل أن أصنع علاقات كافية، ومن ثم، ذكريات كافية. الأكثر من ذلك هو أنه كان الشخص الوحيد الذي كنت أتحدث الماندرين معه حين صرت أكثر تمكّنًا من اللغة الكانتونية. وقد ضاع هذا الآن، إذ لم أعد أفكر بها، وبالتأكيد لا أحلم بها».

راح روبين يفكر في لصوص الزقاق وفي همسات جريفيين البائسة وهو يحاول إخفاء هم. ماذا سيفعل لو فقد لغته الصينية؟ ملأته الفكرة بالذعر.



قال جريفين وهو يراقبه: «هل فهمتني؟ هل تعرف ما سيكون شعورك لو نسيت لغتك الأصلية؟ لقد اكتسبتها في الوقت المناسب، لكنني لم أفعل».

قال روبين أسف جداً، فلم أكن أعلم».

رد جريفين بحدة: «لا عليك، فأنت لم تتعمد تدمير حياتي».

صار روبين يرى أوكسفورد بعيني جريفين، كمؤسسة لم تقدره، بل كل ما فعلته هو نبذه والتقليل من شأنه. راح يتخيل جريفين يدخل بابل محاولاً محاولات يائسة لنيل استحسان الأستاذ لوفيل. يا لبشاعة أن يحاول الوصول للغة صينية هزيلة من حياة يتذكرها بصعوبة وهو مدرك تماماً أن هذا هو الشيء الوحيد الذي يعطيه قيمة في المكان!

لا عجب أن جريفين كان في شدة الغضب، ولا عجب أنه كره بابل أيما كراهية. لقد سلب جريفين كل شيء، لغته الأصلية، ووطنه، وعائلته.

فمد جريفين يده وفرك شعره وقال: «لهذا احتاج إليك يا أخي العزيز». لمس روبين بقوة، ما سبب له ألماً. «فأنت الشيء الحقيقي الذي لا غنى عنه». كان روبين يعلم أنه من الأفضل ألا يرد.

«راقب نافذتك، إذ تسير الأمور بسرعة وستكون هذه مهمة». قال جريفين هذا وهو يرمقه بنظرة قاسية.

فكبح روبين اعتراضه وأوماً قائلاً: «حسنًا».

وبعد مرور أسبوع، عاد روبين من عشاء عند الأستاذ لوفيل ليجد قصاصة الورق التي كان مرعوباً منها محشورة تحت نافذته.

كانت تقول: الليلة، الساعة الحادية عشرة.

كانت الساعة 10:45، فارتدى روبين المعطف الذي كان قد علقه للتو، وأخرج قالب الـ ووكسنج من درجه، وأسرع بالخروج في المطر.



وفيما هو خارج، راح يُراجع ظهر الرسالة علّه يجد مزيداً من التفاصيل، لكن جريئين لم يكن قد ضمن أي تعليمات أخرى. لم تكن هذه مشكلة بالضرورة، إذ افترض روبين أن هذا يعني ترك الفرصة لأي عناصر للدخول والخروج من البرج، لكن من المُدهش أن الوقت كان مُبكراً، ولاحظ في وقت متأخر أنه لم يُحضر أي شيء معه - لا كُتب ولا حقيبة، ولا حتى مظلة - ليُبرر خروجه من البرج في تلك الساعة المُتأخرة من الليل.

لكنه لم يستطع أن يتخلف على الإطلاق. حين أعلنت دقائق الساعة الحادية عشرة، هرع عبر البستان وفتح الباب بسرعة. لم يكن هذا شيئاً لم يفعله عشرات المرات من قبل - افتح يا سمسم، أغلق يا سمسم، وابتعد عن الطريق. فما دامت دماء روبين مُخزنة داخل الجدران الحجرية، كان الحراس ليظلوا صامتين.

تبعه اثنان من عناصر هرمس ثم صعدا الدرج بسرعة. ظل روبين في الصالة كالعادة مُراقباً الطلاب الليليين وهو يعد الثواني حتى حان وقت المغادرة. وفي الساعة الحادية عشرة وخمس دقائق، أسرع عضوا هرمس بالنزول. كان أحدهما يحمل أدوات نقش والآخر صندوقاً يحوي قوالب فضة. همس أحدهما: «أحسنّت. هيا بنا».

أوماً روبين وفتح الباب كي يخرجوا. وفي لحظة خروجهما من الحاجز، ندّ ضجيج مُزعج شق الهواء، إذ كان هناك صُراخ، وعويل، وصوت صرير تروس معدنية في آلة غامضة. كان تهديداً وإنذاراً، بل هجيباً من دُعر قديم وقدرة عصرية على سفك الدماء. ووراءها، تحركت ألواح في الباب كاشفة عن شق مُظلم بالداخل.

ودون أن ينبسا بأي كلمة أسرع عضوا هرمس إلى المرج.

تردد روبين وهو يُحاول اتخاذ قرار باتباعهما. كان ليتمكن من الهرب، إذ كان الفخ قوياً، لكنه بدا بطيء التأثير. ثم نظر إلى أسفل ليجد أن قدميه مُتسمرتان فوق شعار الجامعة الرسمي. هب أن الفخ نُشِط لحظة خروجه؟



كانت هناك طريقة واحدة لكشف الأمر. تنفس روبين بعمق، ثم أسرع بالنزول، فسمع صوت انفجار، ثم شعر بالألم مُبرح في ذرعه اليسرى. لم يستطع أن يُحدد من أين جاءت الضربة، إذ بدا الألم وكأنه أت من كل اتجاه، لم يكن جرحًا واحدًا، بل عذاب مُحرق يسري في ذراعه كله. كان يحترق أو ينفجر، أو لعل الذراع بأكمله يُوشك على الانفصال عن جسده! واصل الجري، انطلق الرصاص في الهواء وراءه، فمال وقفز بشكل عشوائي. لقد قرأ في موضع ما أن هذه هي طريقة تفادي طلقات الرصاص، ولكنه لم يكن مُتأكدًا من صحة الأمر. ثم سمع مزيدًا من الانفجارات.

بيد أنه لم يشعر بمزيد من الألم. اجتاز بعدها الممرج واتجه يسارًا نحو برود ستريت، خارج مرمى البصر وخارج نطاق الوصول.

ثم لحق به الخوف والألم، إذ ارتجفت ركبتاه، فخطا خطوتين أخريين وانهار بجوار الحائط وهو يُقاوم الرغبة في التقيؤ. كان رأسه يدور. لو أنت الشرطة، للحقت به، إذ كانت الدماء تتساقط من ذراعه والعنقة تُغمي بصره. التركيز. تحسس جيبه بحثًا عن القلب. كانت يده اليسرى زلقة ومُلطخة بالدماء. كانت مُجرد رؤيته له تبعث على نوبة أخرى من الدوار.

فهمس بذعر: «ووكسنج» مُحاولًا التركيز وتخيل العالم بالصينية. ثم صار عدمًا، وفقد هينته. «خفي».

لكنه لم يُفلح. لم يستطع تشغيله، إذ لم يتمكن من تغيير الوضعيات إلى الصينية، إذ لم يكن يُفكر في أي شيء سوى الألم.

«مهلاً يا هذا! توقف!».

كان الأستاذ بلاي فير. جفل روبين وهو مستعد لأسوأ الأمور، لكن وجه الأستاذ تجعد بابتسامة اهتمام دافئة وقال: «أوه! مرحبًا يا سويقت. لم ألاحظ أنه أنت. هل أنت بخير؟ هناك فوضى في المبنى».

لم يعرف روبين ما يجب أن يقوله، فقرر أن يتلعثم: «أنا يا أستاذ... لا أدري، كنت بجواره، لكن لا أعرف ما إذا...».



فسأله الأستاذ بلاي فير: «هل رأيت أي شخص؟ الفخاخ مُعدة لإطلاق الرصاص على المُتسللين كما تعلم، لكن يبدو أن التروس تعطلت بعد المرة الأخيرة. لكن ربما أن تكون أصابته. هل رأيت أي شخص يَخرج أو يبدو مُتألماً؟».

«كلا، لم أر، بل لم أكد أجتاز المرج حين انطلقت أجراس الإنذار، لكني لم أكن قد وصلت إلى الناصية». هل كان الأستاذ بلاي فير يومئ بتعاطف؟ لم يُصدق روبين حظه. «هل كان هناك لص؟».

أجاب الأستاذ بلاي فير: «ربما لا. لا تقلق». وهنا مد الأستاذ يده وربت كتفه، وهو ما أرسل موجة أخرى من الألم في الجزء العلوي من جسده، فجز روبين على أسنانه كي يكبح نفسه من الصُراخ. وهنا قال الأستاذ: «تُصبح الفخاخ غير دقيقة في بعض الأحيان. ربما حان الوقت لاستبدالها. كنت مُعجباً بهذا الإصدار للأسف. هل أنت بخير؟».

أوماً روبين وبذل قُصارى جهده للحفاظ على مستوى صوته وقال: «أظنني انزعجت فحسب. أقصد، بعد ما رأيناه الأسبوع الماضي...».

«آه! حسناً، كان بشِعاً، أليس كذلك؟ من الجيد أن أعرف أن فكرتي البسيطة نجحت. لم يسمحوا لي حتى بتجربتها على الكلاب قبلها. من حسن الحظ أنها لم تتعطل عندك». ثم أطلق الأستاذ ضحكة وقال: «وإلا كانت لنُطلق عليك الرصاص».

فقال روبين بوهن: «صحيح. أنا في... في غاية السرور».

«أنت بخير. احتس مزيجاً من الشراب والماء الدافئ، فسوف يُساعدك على تخطي الصدمة».

«نعم، أظن... أظنه اقتراح جيد». ثم استدار روبين ليذهب.

فسأله الأستاذ بلاي فير: «ألم تُقل إنك كنت في طريقك للدخول؟».



كان روبين مستعداً بكذبة جديدة: «كنت أشعر بتوتر، فارتأى لي أن أبدأ في ورقة بحثية طلبها الأستاذ لوفيل. لكني أشعر ببعض التشويش، ولا أظن أنني سأحسن أداء عملي لو بدأت الآن، ومن ثم، أرى أنه من الأفضل أن أعود لكي أنام».

رَبَّت الأستاذ كتفه مجدداً وقال: «بالطبع». شعر بمزيد من الألم هذه المرة. انتفخت عينا روبين. «كان ريتشارد ليقول إنك تتكاسل، لكني أتفهم تماماً. فما زلت في السنة الثانية، وبوسعك أن تتراخى. عُد للبيت واخلد للنوم».

أوماً له الأستاذ بلاي فير بمرح ثم سار نحو البرج حيث كانت أجراس الإنذار تدق. تنفس روبين بعمق وانصرف مُحاولاً بكل قوته ألا ينهار في الشارع.

نجح روبين في الوصول إلى ماجباي لين. لم يكن النزيف قد توقف، لكن بعد أن مسح ذراعه بمنشفة جافة، وجد أن الرصاصة لم تستقر بداخله، ما جعله يشعر بالارتياح. لقد أحدثت خدشاً عمقه ثلث بوصة في الجلد أعلى مرفقه. بدا الجرح صغيراً على نحو مُطمئن حين أزال عنه الدم. لم يعرف كيف يُضمده بشكل جيد، إذ تخيل أن الأمر يحتاج لإبرة وخيوط. لكنه كان من ضروب الحماسة أن يبحث عن مُمرض الكلية في تلك الساعة.

فكَّرَ على أسنانه من الألم مُحاولاً تذكر النصائح المفيدة التي استقاها من روايات المغامرات. كان بحاجة للكحول لتطهير الجرح، فراح ينبش في الأرفف حتى وجد زجاجة عطر نصف مُمتلئة. كانت هدية العيد من فيكتوار، فصب منها قطرات على ذراعه وهو يصفر من اللسعة، ثم شرب بعض الماء. وبعدها، بحث عن قميص نظيف ومزقه لصنع ضمادات التي ربط بها ذراعه بإحكام مُستخدمًا أسنانه. كان قد قرأ أن الضغط يكبح النزيف. لم يعرف ما يفعل بعد ذلك. هل يجب أن ينتظر ريثما يلتئم الجرح من تلقاء نفسه؟



راح رأسه يدور. لعل هذا كان بسبب النزيف.

فقال في نفسه. ابحث عن رامي. ابحث عن رامي، فسوف يُساعدك.

لكن استدعاء رامي كان لئورطه، وكان روبين يُفضل الموت على تعريض رامي للخطر.

فاتكأ على الحائط ورأسه ممدود نحو السقف، وراح يتنفس بعمق عدة مرات. كان عليه قضاء هذه الليلة فحسب. تطلب الأمر تمزيق عدة قُمصان. كان عليه الذهاب للخياط واختلاق قصة حول حدوث كارثة أثناء الغسيل - لكن النزيف توقف أخيراً. وفي النهاية، بعد أن تمكن منه الإرهاق، انهار وغلبه النوم.

في اليوم التالي، بعد ثلاث ساعات قضاها في ألم أثناء المُحاضرة، اتجه روبين إلى المكتبة الطبية وبحث في الأكوام حتى وجد دليلاً طبيّاً عن جروح الميدان، ثم ذهب إلى كورنماركت، واشترى إبرة وخيطاً، وأسرع عائداً لرتق ذراعه.

أشعل شمعة، وعَقَم الإبرة فوق اللهب، وبعد عدة مُحاولات فاشلة، نجح في لضمها. ثم جلس وأمسك الطرف المُدبب فوق لحمه المُصاب.

لم يستطع عمل هذا، إذ ظل يُقرب الإبرة من الجرح، ولكنه كان يتوقع الألم فيُبْعدها. ثم استنشَق العطر عدة مرات وانتظر ريثما يبدأ تأثير الكحول، وسرعان ما بدأ يشعر بخدر لطيف. كانت هذه هي الحالة التي يريد الوصول إليها، فهي حالة من الخدر التي تجعله لا يعبأ بالألم، وفي الوقت نفسه، يظل مُنتبهاً على نحو كاف لرتق نفسه. ثم حاول مُجدداً. كان الأمر أسهل هذه المرة. مع ذلك، كان عليه أن يتوقف ليحشر قُماساً مُكوراً في فمه لئلا يصرخ. انهمرت الدموع على وجنتيه.



وعلى نحو ما، وجد في نفسه القوة الكافية لسحب الخيط، وربط الغرز بأسنانه، وإلقاء الإبرة المُلطخة بالدماء في البالوعة. ثم انهار على سريره واستلقى على جنبه.

لم يتصل به جريفيين في تلك الليلة.

عرف روبين أنه من الحماقة أن يتوقع هذا. فلو علم جريفيين بما حدث، لاختفى ولكان السبب وحيهاً. ولم يكن روبين ليُفاجأ لو لم يتواصل جريفيين معه طوال الفصل الدراسي. مع ذلك، شعر بسخط عارم.

كان قد نبّه جريفيين لإمكانية حدوث هذا. لقد حذره وأخبره بدقة بما رآه. لم يكن هناك أي مفر من حدوث هذا.

أراد أن يلتقيه في أقرب وقت كي يصرخ في وجهه، ويقول إنه قد نبّهه للأمر، وأن يستمع جريفيين له، وأنه لو لم يكن جريفيين بهذا الغرور، لم يكن أخوه الأصغر ليتلقى سطرًا من الغرز في ذراعه. لكن الموعد لم يُحدد، ولم يترك جريفيين أي رسائل على نافذته في الليلة التالية ولا حتى في الليلة التي بعدها، وكأنه اختفى دون ترك أي أثر في أكسفورد ولا طريقة لروبين للاتصال به أو بهرمس على الإطلاق.

لم يستطع التحدث مع جريفيين، ولم يستطع وضع ثقته في فيكتور، ولا ليتي، ولا رامي، فانفرد بنفسه فحسب في تلك الليلة يبكي بأسى وذراعه تُؤلمه. ولأول مرة منذ وصوله لأكسفورد، شعر روبين بوحدة حقيقية.



الفصل الحادي عشر



لكننا عبيد، في بساتين الغير نكدح؛ نعد الكروم، لكن عصيرها للمالك يؤول.

جون درايدن، اقتباس من «الإهداء» لترجمته الإنيادة.

لم يرَ روبين جريفين حتى نهاية فصل هيلاري الدراسي، ولا حتى ترينيتي، بل لم يلاحظ هذا في واقع الأمر. لقد ازدادت مقررات السنة الدراسية الثانية صعوبة بمرور الأسابيع، فكان لا يكاد لديه وقت للتفكير في غضبه.

ثم جاء الصيف، رغم أنه لم يكن صيفاً على الإطلاق؛ بل هو بالأحرى فصل دراسي سريع. وقد صار مشغولاً بحفظ المفردات السنسكريتية بسرعة جنونية، إذ كان هناك تقييم في الأسبوع السابق لبدء فصل ميكلماس التالي. كانوا وقتها طلاب السنة الثالثة، وهي مرحلة استلزمت إرهاباً بابل كله دون أي جديد أو مُتعة.

فقدت أوكسفورد سحرها في شهر سبتمبر، إذ حُلَّت البرودة والضباب محل أشعة الغروب الذهبية والسموات الزرقاء. كانت تُمطر بغزارة، وكانت العواصف شديدة القوة مُقارنة بالعام المنصرم. لم تنفك مظلاتهم تُسرب الماء. وظلت جواربهم مُبتلة. كما ألغى التجديف في ذلك الفصل الدراسي.*

* بعد مرور أسبوعين على بداية فصل ميكلماس، كان العديد من المستجدين في باليول قد استأجروا الكثير من قوارب التجديف، وكانوا يتسببون في اختناق مروري في وسط شيرويل الذي كان يزدحم بثلاث بارجات وعوامة أثناء تجمعاتهم وهم في حالة ثَمالة. وكانت الخسائر تكلفهم مبالغ ضخمة. وعلى سبيل العقاب، علقت الجامعة السباقات كلها في العام التالي.



كان الأمر هكذا لحسن الحظ، فلم يكن لدى أي منهم وقت لممارسة الرياضة. جرت العادة بإطلاق كلمة شتاء سيبيريا على السنة الثالثة في بابل، وكان السبب واضحاً حين تسلموا قوائم المقررات. كانوا يواصلون دراسة لغاتهم العالية واللغة اللاتينية والتي أشيع أنها ازدادت صعوبة بمجيء المؤرخ تاسيتس. كما كانوا يواصلون دراسة نظرية الترجمة مع الأستاذ بلاي فير وعلم أصول الكلمات مع الأستاذ لوفيل، رغم ازدياد حجم العمل في كل مقرر، إذ كان متوقعاً أن يُقدموا ورقة بحثية من خمس صفحات في كل محاضرة أسبوعياً.

تمثل أهم شيء في أن كل واحد منهم أوكل إلى مُشرف يُساعده في إنهاء مشروع بحثي مُستقل، وهو ما اعتُبر مُخطئاً لرسالة علمية. وحال استكمالهِ بنجاح، كان بمثابة أول عمل يُحفظ على أرفف بابل باعتباره مُساهمة أكاديمية قيمة.

وسرعان ما شعر رامي وفيكتوار بالضيّق من مُشرفيهما، إذ دعا الأستاذ جوزيف هاردنج رامي للمساهمة في جولة تحريرية للنحو الفارسي، ما مثّل شرفاً عظيماً*. لكن رامي لم يكن مغرماً بمثل هذا المشروع.

قال رامي لزملائه: «لقد اقترحت مبدئياً ترجمة لمخططات ابن خلدون التي كانت بحوزة سيلفستر دي ساسي، لكن هاردنج اعترض بحُجة أن المُستشرقين الفرنسيين كانوا يعملون على هذا بالفعل، وأنه من غير المُرجح أن تُوافق باريس على إقراضها لي طول مُدة الفصل الدراسي. ومن ثم طُلب مني أن أترجم مقالات عالم الدين عُمر بن سعيد فحسب إلى الإنجليزية باعتبارها ظلت قابضة لنحو عشر سنوات في مجموعتنا، لكن هاردنج قال إن هذا كان ضرورياً لإصدار إنجلترا قانوناً بإلغاء الرق. هل تُصدقون ذلك؟

* كانت المساهمة في أي موسوعة نحوية تتطلب الكثير من الاجتهاد والتدقيق، وكانت أوكسفورد في حالة إحراج بسبب فضائح محاضر زائر سابق يُدعى جورج سالمانزار. كان رجلاً فرنسياً ادعى أن بشرته البيضاء تُعزى لكونه من أهل فورموزا الذين يعيشون تحت الأرض. وقد حاضر ونشر أبحاثاً عن لغة فورموزا، لكن تزويره انكشف لاحقاً.



كما لو كانت أمريكا لا وجود لها؟ وفي النهاية، قال هاردنج إنه لو أردت عمل شيء ذي قيمة، فيجب أن أحرر اقتباسات في النحو الفارسي، ومن ثم، كلفني بقراءة شليجل. أوبر دي سبراتش أوند فايشت دير إندير. (لغة الهنود وحكمتهم). وأزيدكم من الشعر بيتاً، حين كتب شليجل هذا، لم يكن قد زار الهند على الإطلاق. لقد كتب كل شيء أثناء وجوده في باريس. كيف يستطيع المرء كتابة نص مُحدد عن «اللغة والحكمة» الهندية أثناء وجوده في باريس؟*.

غير أن غضب رامي بدا تافهاً بالنسبة لما كانت فيكتور تتعامل معه. كانت تعمل مع الأستاذ هوجو لوبلان الذي درست معه الفرنسية لعامين دون أي مشاكل، لكنه صار مصدرًا لإحباط لا ينتهي.

قالت فيكتور: «هذا مُستحيل! أريد العمل على كريول، وهو ما لا يعترض عليه رغم اعتقاده أنها لغة مُتدهورة، لكن كل ما يريد معرفته هو ديانة الفودو».

فسألت ليتي: «تلك الديانة الوثنية؟».

فحدجتها فيكتور بنظرة حادة وقالت: «نعم، الديانة. لا ينفك يسألني عن تعاويذ وأشعار الفودو التي يستطيع تقييمها لأنها بالطبع بالكريول».

بدت ليتي مُتَحيرة: «لكن، أليس هذا مثل الفرنسية؟».

أجابت فيكتور: «بل أبعد ما يكون. صحيح أن الفرنسية هي مصدر المفردات، لكن الكريول هو لغة الفودو بقواعدها النحوية الخاصة. ليست الفرنسية والكريول مُتبادلتي الفهم. قد تدرسين الفرنسية لعشر سنوات، لكن

* لم تكن هذه سوى بداية لعدة أخطاء في عمل شليجل، فقد اعتبر الديانات الأخرى: «بلا حياة». كما افترض أن الهنود أسلاف للمصريين، ورأى أن اللغات الصينية والعبرية أقل شأنًا من الألمانية والسنسكريتية لافتقارها للانعطافات الصوتية.



يظل الشعر بلغة الكريول مُستحيل الفهم دون قاموس. لا يملك لوبلان قاموسًا، بل لا يوجد قاموس، ليس بعد. ومن ثم، أُعد البديل الأفضل».

فقال رامي: «ما المُشكلة إذًا؟ يبدو أنك مُكلفة بمشروع جيد».

بدا عدم الارتياح على فيكتورار وردت: «لأن النصوص التي طلب ترجمتها ذات طبيعة خاصة. إنها تعني شيئًا».

فسألت ليتي: «هل هي نصوص مُميزة على نحو يجعله لا يجب ترجمتها؟».

فقالت فيكتورار بإصرار: «إنها تراث، بل مُعتقدات مُقدسة...».

«ليست مُعتقداتك بالتأكيد...».

ردت فيكتورار: «ربما لا. لم يسبق لي... أقصد، لا أدري. لكن لا يجوز مُشاركتها. هل ستقتنعين بالجلوس ساعة تلو الأخرى مع رجل أبيض البشرة يسألك عن كل مجاز، وعن اسم كل رمز في الفودو كي يقتنص من مُعتقدات قومك ما يتناسب مع زوج مُتطابق قد يجعل قالب فضة يلمع؟».

بدت ليتي غير مُقتنعة وقالت: «لكنه ليس حقيقيًا، أليس كذلك؟».

«بل حقيقي بالطبع».

«أوه! كلا يا فيكتورار».

أجابت فيكتورار بانفعال مُتزايد: «إنه حقيقي على نحو لا يُدركه أحد، بل على نحو يجعل أهل هايتي فحسب هم من يستطيعون فهمه، لكن ليس بالطريقة التي يتخيلها لوبلان».

تنهدت ليتي وقالت: «لَمْ لا تُخبرينه بهذا فحسب؟».

فردت فيكتورار بسرعة: «ألا تظنين أنني حاولت؟ هل سبق لك أن حاولت إقناع أحد أساتذة بابل بعدم السعي وراء شيء؟».



قالت ليّتي بضيق ونبرة دفاعية حادة: «حسنًا، على أية حال، ماذا عسايّ تعرفين عن الفودو؟ ألم تَنشئي في فرنسا؟».

كان هذا أسوأ تعليق كانت لتتفوه به، إذ أغلقت فيكتور فمها وأشاحت بنظرها، ثم انتهى الحوار، وعم صمت غريب لم تُحاول فيكتور ولا ليّتي كسره. تبادل روبين ورامي نظرة حائرة. لقد سار شيء على نحو شديد السوء، إذ انْتَهك أحد المحظورات، لكنهم كانوا في أشدّ الخوف من البحث في الأمر بالتدقيق.

كان روبين وليّتي راضيين إلى حد ما عن مشروعيهما، رغم كونهما مُملين ومُستهلكين للوقت. كان روبين يعمل مع الأستاذ شاكرافارتي على استكمال قائمة بالكلمات السنسكريتية المُقترضة من الصينية، أما ليّتي، فكانت تعمل مع الأستاذ لوبلان على البحث في الأوراق العلمية الفرنسية عن مجازات مُفيدة وغير قابلة للترجمة في مجالي الهندسة والرياضيات. لقد تعلمّا كيف يتجنبان التحدث عن التفاصيل مع رامي وفيكتور. كانوا جميعًا يستخدمون عبارات مُستهلكة بعضهم مع بعض. كان روبين وليّتي يستخدمان دائمًا عبارة: «نُحرز تقدّمًا جيدًا»، في حين كان رامي وفيكتور يقولان إنهما «يُكافحان كالمعتاد».

وحينما كانتا تجلسان على انفراد، لم تكن ليّتي مُتسامحة، إذ تحوّل موضوع الأستاذ لوبلان إلى نقطة خلاف بينها وبين فيكتور التي غضبت واستاءت من عدم إظهار ليّتي تعاطفًا، في حين ظنت ليّتي أن فيكتور كانت تتعامل مع الأمور بحساسية مُفرطة.

فجاءت تشكو لروبين قائلة: «لقد جَلِبت هذا على نفسها. كانت لتجعل الأمور أسهل لو أنها عملت البحث فحسب، أعني أنه لم يعمل أي طالب في السنة الثالثة بحثًا في لغة كريول هايتي، بل لا يكاد يكون هناك أي نحو، وقد تكون الأولى!».



لم يكن هناك مجال للجدل مع ليتي وهي في تلك الحالة المزاجية، إذ كان من الواضح أنها تُريد مُتلقياً تبث له مشاعرهما السلبية. لكن روبين حاول على أية حال وقال: «لنفترض أن الأمر يعني بالنسبة لها أكثر مما تظنين».

«لكنه ليس كذلك. أعلم أنه ليس كذلك. ليست بهذا التدين. أعني أنها مُهذبة...».

فقال لافناً انتباهها: «لكلامك معاني عميقة يا ليتي».

فهتفت: «تعرف ما أقصده! ليست من أهل هايتي، بل فرنسية. ولا أفهم لماذا تعقد الأمور على هذا النحو».

وفي مُنتصف ميكلماس، صارت ليتي وفيكتور لا تكادان تتحدثان معاً، وكانت الواحدة تسبق الأخرى ببضع دقائق إلى قاعة الدرس، وراح روبين يتساءل ما إذا كان ترك فترة بين خروجهما يتطلب مهارة كي لا تتقابلا أثناء السير.

لم تكن الفتيات هن من يُعانين تصدعاً في العلاقات فحسب، بل كانت الأجواء مشحونة بالتوتر. بدا كأن شيئاً قد فرّق بين الجميع، بل لعل كلمة فرّق كانت تعبيراً مُبالغاً فيه، فكانوا مُتشبثين ببعضهم بقوة غير موجودة عند أي شخص. غير أن علاقتهم اتخذت منحى مُؤلماً للغاية. كانوا يقضون جل ساعات اليوم معاً، لكنهم صاروا يخشون صُحبة بعضهم بعضاً. كان كل شيء إما إهانة غير مقصودة وإما إساءة مُتعمدة، فلو اشتكى روبين من السنسكريتية، لدل هذا على عدم تقديره إصرار الأستاذ هاردينج على أن السنسكريتية كانت إحدى لغات رامي، في حين لم تكن كذلك.

ولو سُرّ رامي بأن الأستاذ هاردينج قد وافق أخيراً على خطة البحث، لصارت ملاحظة قاسية لفيكتور التي لم تُحقق أي شيء مع الأستاذ لوبلان. كانوا قد اعتادوا السلوى في تآزرهم، لكن بات كل منهم يرى في الآخر تذكرة لمآسيه.



وتمثلت أسوأ الأمور، من وجهة نظرة روبين في أن شيئاً قد تغير فجأة وعلى نحو غامض بين ليتي ورامي. كان التعامل بينهما حاداً كالعادة، إذ لم يتوقف رامي عن السخرية، ولم تتوقف ليتي عن الغضب. لكن ردود ليتي اكتسبت نبرة الضحية مؤخرًا. كانت تتفعل لأتفه الإهانات وأقلها شأنًا. وبدوره، صار رامي أكثر قسوة وسخرية على نحو يتعذر وصفه. لم يعرف روبين ما يفعله حيال ذلك، بل لم يكن لديه حتى أقل فكرة عما كان كل هذا، فيما عدا ما كان يشعر به من حسرة حين كان يشهد تلك المَحدثات.

قال رامي حين ألح عليه في الموضوع: «تتصرف ليتي على طبيعتها فحسب، إذ تُريد جذب الانتباه وتظن أن إثارة المشاكل هي طريقة تحقيق ذلك».

فسأله روبين: «هل فعلت ما يُغضبها؟».

فأجاب رامي بضجر: «لا أظنني فعلت أي شيء عدا وجودي! هَلَّا استكملنا هذه الترجمة؟ كل شيء على ما يُرام يا بيردي. أؤكد لك هذا».

بيد أن الأمور لم تكن على ما يُرام إطلاقاً، بل كانت غريبة في واقع الأمر، بدا أن رامي وليتي لم يستطع كل منهما تحمُّل الآخر، وفي الوقت عينه، كان كل منهما يميل للآخر. لم يستطيعا التحدث بشكل طبيعي دون مُعارضة بعضهما بعُنف على نحو جعلهما الطرفين الرئيسيين في المُحادثة. فلو طلب رامي قهوة، لطلبت ليتي شاي؛ ولو رأى رامي أن لوحة ما جميلة، لأتت ليتي بعشرات الأسباب التي تجعلها أسوأ مثال لتمسك الأكاديمية الملكية بالانتمائية في الفنون.

لم يتحمل روبين الأمر. وذات ليلة، أثناء فترة نوم قصيرة مُضطربة، تخيل نفسه يدفع ليتي في نهر شيرويل. وحين أفاق، بحث في نفسه عن أدنى شعور بالذنب، فلم يجد! كان تخيُّله لليتي وهي مُبتلة ومُترنحة يُعطيهِ إحساساً بالرضا الخبيث في وضح النهار!



وكان هناك بعض الإلهاء في عامهم الدراسي الثالث على الأقل، إذ كان على كل واحد منهم مساعدة أحد أعضاء هيئة التدريس في أعمال الفضة أثناء الفصل الدراسي. وقبل أن يُرسلهم الأستاذ بلاي فير مع مُشرفيهم، راح يشرح بالتفصيل: «تأتي كلمة ثيوري من اليونانية ثيوريا والتي تعني «منظر» أو «مشهد»، كما يُعطينا جذرها كلمة ثياتر. لكن، ليست مُراقبة العمليات بالأمر الكافي. يجب أن تعملوا بأيديكم. يجب أن تفهموا ألفة المعدن».

وعملياً، كان هذا يعني الكثير من العمل الشاق غير مدفوع الأجر، ومن دواعي خيبة أمل روبين أن المُتدربين كانوا يقضون وقتاً قصيراً للغاية في الطابق الثامن الذي تُجرى فيه الأبحاث الشائقة كافة. وبدلاً من هذا، كان يُرافق الأستاذ شاكرافاتي في رحلات حول أوكسفورد ثلاث مرات في الأسبوع ويُساعده في تركيب وصيانة أعمال الفضة. وقد تعلم كيف يُلَمّع الفضة حتى تبرق (كانت التأكسد والتلطيخ يقللان من تأثير الزوج المُتطابق)، وكيفية الاختيار من بين مُختلف أدوات النقش مُختلفة الأحجام وتجديد النقوش بدقة مُتناهية حتى يعود لوضوحه الأصلي، وكيفية تحريك القوالب بمهارة داخل وخارج خزائنها الملحومة خصيصاً. ورأى روبين أن ما أقدم عليه جريفين من أعمال شائنة لأمر بالغ السوء، ذلك أن تدريبه مَنَحَه إمكانية وصول غير محدودة لأدوات البرج ومواده الخام. لم يكن يجب عليه السماح للصوص بالدخول في جوف الليل. ففي وسط أدراج كاملة من أدوات النقش والأساتذة غير المُنتبهين الذين لم يكونوا ليلحظوا أي شيء، كان ليأخذ أي شيء من البرج حسب رغبته.

فسأل روبين: «كم مرة يجب أن تفعل هذا؟».

أجاب الأستاذ شاكرافاتي: «أوه! هذا لا ينتهي. فهذه هي الطريقة التي نكسب بها مالنا. تُسَعّر القوالب بأثمان كبيرة، لكن الصيانة هي الاحتيال الحقيقي. إن عبء العمل كبير عليّ وريتشارد رغم وجود بضعة مُتخصصين في اللغة الصينية».



في ذلك المساء، قاما بزيارة منزلية لعقار في وولفركوت حيث توقفت تركيبة عمل الفضة عن العمل في الحديقة الخلفية رغم وجود ضمان اثني عشر شهراً، فواجهها مشكلة في الدخول من الباب الأمامي. بدت مديرة المنزل غير مُقتنعة بأنهما باحثان من بابل، بل وشكت أنهما أتيا لسرقة المكان. لكن بعد تزويدها بمختلف إثباتات الهوية التي تضمنت إنشاد العديد من التراتيل اللاتينية، سمحت لهما بالدخول.

قال الأستاذ شاكرافارتي لروبين رغم أنه بدا مُنزعجاً: «يحدث هذا مرتين في الشهر، ستعتاد على الأمر. لا يُضايقون ريتشارد هكذا».*

قادتاهما مديرة المنزل عبر ممر العقار إلى حديقة جميلة مُورقة بنافورة أفغوانية باسقة وعدة صخور مُتناثرة عشوائياً. كانت مُصممة على الطراز الصيني الذي أصبح شائعاً في تلك الحِقة بعد عرض تصميمات المناظر الشرقية لوليم تشامبرز لأول مرة في كيو جاردنز. لم يتذكر روبين أنه رأى شيئاً كهذا في كانتون، لكنه أوماً مُعبراً عن تقديره حتى ذهبت مديرة المنزل.

وهنا أراح الأستاذ شاكرافارتي بعض الشجيرات جانباً، ليُظهر سوراً جانبياً تُبنت فيه أعمال الفضة وقال: «حسناً، من الواضح أن المُشكلة هنا، إذ كانوا يَجْرُونَ عربة إلى الأمام وإلى الخلف فوق القالب. لقد مَحَت نصف النقش تقريباً. هذا خطؤهم، ولا يقع في نطاق الضمان».

ثم سمح لروبين بإخراجه من خزانته وأدار القالب كي يُريه النقش. فعلى أحد الجوانب، نُقشت كلمة جاردن، وعلى الجانب الآخر نُقش الرمز 齋 الذي كان ليعني حديقة طبيعية، لكنه كان يستحضر بوجه عام مكاناً للعزلة والابتعاد عن العالم ويُوحي بطقوس التطهير، والتخلص من الخطايا، والإحسان، وأعمال التوبة الطاوية.

* كان كثير من عملاء بابل مستعدين للتصديق أن أعمال الفضة تقوم على اللغات الأجنبية، لكن لم تقم صيانتها على جهود طلاب أجنبية. وكان يتوجب على الأستاذ شاكرافارتي تضمين أحد طلاب السنة الرابعة ذوي البشرة البيضاء لمرافقته وروبين في تلك المشاوير كي يساعدهما على الدخول من الباب.



«يتمحور الأمر حول جعل الحقائق أجمل وأكثر هدوءًا ما يسمح به ضجيج أوكسفورد وإبعاد الأشخاص غير المرغوب فيهم. وبصراحة فالتأثير ضئيل للغاية، إذ لم نقم بتجارب كثيرة، لكن ليست هناك حدود لما يُنفق الأغنياء مالههم فيه».

وفيما هو يتحدث، كان الأستاذ شاكر افارتي ينقش القالب، ثم أردف: «همم! سنرى ما إذا كانت هذه حيلة ناجعة».

ثم جعل روبين يُعيد تركيب القالب وانحنى للتحقق من عمله. ثم استقام في رضا ومسح يديه على بنطاله وقال: «هل تُريد تشغيله؟».

«هل فقط أُررد الكلمات فحسب؟». كان روبين قد رأى الأساتذة يعملون الشيء نفسه عدة مرات، لكنه لم يظن أنه كان بتلك السهولة. ثم تذكر مجددًا أن قالب ووكسنج قد عمل من أول مُحاولَة.

«حسنًا، إنه نوع خاص من الحالات النفسية. ستردد الكلمات، لكن الأهم هو أن يكون في رأسك معنيان في ذات الوقت. يجب أن تتواجد في العالمين اللغويين في اللحظة نفسها وتتخيل أنك تعبرهما. هل يبدو هذا منطقيًا؟».

فأجاب روبين: «أظن ذلك يا سيدي». فأمعن روبين التركيز في القالب وقال: «هل هذا كل ما يتطلبه الأمر؟».

«أوه! كلا، لم أكن دقيقًا، فهناك تدريبات ذهنية جيدة ستتعلمها في السنة الرابعة، علاوة على بعض الندوات النظرية التي ستحضرها، لكن حين يتعلق الأمر بالتشغيل، فإنما يتعلق بالإحساس». بدا الأستاذ شاكر افارتي ضجرًا إلى حد ما، وشعر روبين بأنه لم يزل غاضبًا من هذا المنزل وأراد الانصراف بأقصى سرعة.

قال الأستاذ: «هَلُمَّ».

فأمسك روبين بالقالب وقال: «حسنًا، لا بأس. زاي، جاردن».



وهنا شعر بهزة خفيفة تحت أطراف أصابعه، إذ بدت الحديقة أكثر هدوءًا وسكينة، لكنه لم يتبين ما إذا كان هذا من صنعه فعلاً أم من خياله. ثم سأل: «هل انتهينا؟».

أجاب الأستاذ شاكرافارتي وهو يُعلق حقيبة أدواته على كتفه: «حسنًا، نرجو ذلك، لنذهب كي نحصل المبلغ». لم يبدُ مُهتمًا بالتحقق.

وفي طريق العودة إلى الحرم الجامعي، سألهُ روبين: «هل يجب أن نُردد الزوج المُتطابق لتشغيل القالب؟ يبدو الأمر غير قابل للاستمرار، أعني، هناك العديد من القوالب والقليل من المترجمين».

أجاب الأستاذ شاكرافارتي: «حسنًا، يعتمد هذا على عدة أشياء، بدايةً، طبيعة التأثير. تتطلب بعض القوالب تجليات مؤقتة. قد تكون بحاجة لتأثير مادي قصير وشديد. يعمل العديد من القوالب العسكرية بهذه الطريقة، إذ يجب تنشيطها كل مرة تُستخدم فيها، وقد صُممت على ألا يكون التأثير طويل الأمد. لكن هناك قوالب مُمتدة التأثير، مثل فخاخ البرج، مثلاً، أو القوالب المُثبتة في السفن والعربات».

«ماذا يجعلها تدوم فترة أطول؟».

«بدايةً، عدد القيرواطات، فالفضة الأنقى أطول بقاءً، وكلما زادت نسبة السبائك المُضافة، قل وقت التأثير. لكن هناك اختلافات بسيطة في طريقة الصهر والنقش. ستعرفها في وقت قريب». وهنا ابتسم له الأستاذ وقال: «تتوق لأن تبدأ، أليس كذلك؟».

«الأمر شائق للغاية فحسب يا سيدي».

قال الأستاذ شاكرافارتي: «سيفتر هذا الحماس. لو رحت تُتمتم بالكلمات نفسها مرارًا وتكرارًا، لشعرت بأنك ببغاء لا ساحر».



وذات مساء، وصلوا إلى متحف أشموليان لإصلاح قالب فضة لم يتمكن أي عدد من التعاويذ من تنشيطها. كانت كلمة فيربافي مكتوبة على الجانب الإنجليزي، أما الجانب الصيني فقد نُقش عليه الرمز 参 والذي يعني «تحقق». كما كان لي يعني «موازنة» أو «وضع جنبًا إلى جنب» و«مقارنة الأشياء». لم ينفك موظفو أشموليان يستخدمون هذا لمقارنة المعروضات المزيفة بالمعروضات الحقيقية. لكن عدة اختبارات فشلت مؤخرًا بعد أن أجراها الموظفون لتقييم المُقتنيات الجديدة.

فحص الاثنان القالب بحرص تحت مجهر يدوي، لكن لم تظهر الكتابة الإنجليزية ولا الصينية أي علامة على التآكل، بل وحتى بعد أن راجع الأستاذ شاكرا فارتي كل شيء بأدوات النقش الدقيقة، فشلت محاولة التنشيط. فتنهد وقال: «لَقَّها وضعها في حقييتي».

فأطاع روبين وقال: «ما خطبها؟».

«لقد توقف رابط الرنين الخاص بها عن العمل. يحدث هذا أحيانًا، وبخاصة مع الأزواج المُتطابقة الأقدم».

«وما رابط الرنين؟».

أجاب الأستاذ شاكرا فارتي وقد همَّ بالسير: «لنذهب إلى البرج حيث ستفهم قصدي».

وحين عادا إلى بابل، قاد شاكرا فارتي روبين إلى الجناح الجنوبي من الطابق الثامن مرورًا بطاولات العمل. لم يأت روبين لهذه المنطقة من قبل، بل اقتصرت جميع زيارته للبرج على الورشة والتي احتلت الحيز المرئي عبر الباب الخلفي الضخم. لكن مجموعة أخرى من الأبواب حجبت الجناح الجنوبي، وكانت مغلقة بثلاث مجموعات من الأقفال التي فتحها الأستاذ شاكرا فارتي بسلسلة مفاتيح تُصدر ضجيجًا.

فغمز الأستاذ شاكرا فارتي وقال: «لا يجوز لي أن أريك أي شيء الآن، فهذه معلومات متميزة، لكن لا توجد طريقة أخرى للشرح».



بعد أن فتح القفل الأخير، دلف الاثنان.

كان الأمر شبيهًا بدخول معرض للألعاب المضحكة أو بيانو عملاق. كانت هناك أسياخ فضية ضخمة مختلفة الأطوال تقف مُنتصبة على الأرضية، بلغ بعضها طول خصره، في حين كانت أخرى أطول منه ومُمتدة من الأرضية إلى السقف بمسافة فيما بينها تسمح بمرور الشخص بحرص دون لمس أي شيء. لقد ذكرت روبين بأرغن دار العبادة، فواته دافع غريب للإمساك بمطرقة صغيرة والدق عليها دفعة واحدة.

قال الأستاذ شاكرافارتي مُوضحًا: «يُعد الرنين طريقة لتقليص النفقات. يجب أن ندخر الفضة عالية النقاء لعمل قوالب مُمتدة المفعول، كالقوالب التي تأخذها البحرية، والتي تحمي السفن التجارية، وما شابه. ومن ثم، نستخدم الفضة ذات النسبة العالية من السبائك في القوالب التي تعمل على أرض إنجليزية، إذ نستطيع إبقاءها مُزودة بالرنين».

فنظر روبين حوله بدهشة وسأل: «لكن كيف تعمل كلها؟».

«من الأسهل أن نعتبر بابل مركزًا، وأن جميع القوالب التي تعتمد على الرنين في إنجلترا أطراف. تستمد الأطراف قوتها من المركز». وهنا راح الأستاذ شاكرافارتي يُشير حوله، فلاحظ روبين أن كل سيخ بدا وكأنه يهتز بتواتر شديد الارتفاع. ورغم أن البرج بدا زاخرًا بضجيج غير مُتناغم، كان الهواء في حالة صمت وسكون. «نُدعم هذه الأسياخ المنقوشة بأزواج مُتطابقة شائعة الاستخدام، القوالب المُترابطة في جميع أنحاء البلاد، وتتبع قوة تجليها من السيخ، وهذا يعني أن القوالب في الخارج لا تحتاج لإعادة تنشيط دائمة».

قال روبين: «مثل المراكز البريطانية في المُستعمرات التي تتصل بالوطن طلبًا للجنود والإمدادات».

«نعم، هذا مجاز مُناسب».



«فهل ترن هذه مع كل قالب في إنجلترا؟». راح روبين يتخيّل شبكة خفيّة من المعنى تمتد في جميع أنحاء البلاد مُحافِظَةً على حياة أعمال الفضة. كان الأمر مُخيِّفًا. «ظننت أن هناك المزيد منها».

«ليس كثيرًا، فهناك مراكز رنين أصغر في أنحاء البلاد. فعلى سبيل المثال، يوجد واحد في إدنبرة وواحد في كامبريدج. لا تُضعف المسافة التأثير، لكن أوكسفورد تستحوذ على نصيب الأسد، إذ تمتد من معهد الترجمة إلى مسافات بعيدة بالخارج لإبقاء عدة مراكز وتحتاج لمُترجمين مُدربين للصيانة».

انحنى روبين للتحقق من أحد الأسياخ القريبة. فبالإضافة إلى الزوج المُتطابق المكتوب بأحرف كبيرة، رأى حروفًا ورموزًا لم يستطع تفسيرها. «كيف تُصنع الرابطة إذن؟».

أجاب الأستاذ شاكرافارتي: «هذه عملية مُعقدة». ثم قاد روبين إلى سيخ رفيع بجوار النافذة الجنوبية، وجثا على رُكبتيه، وأخرج قالب الأشموليان من حقيبته ورفع بهجاء السيخ. وهنا لاحظ روبين عددًا من الذبذبات في القالب. «يجب أن تُصهر من المادة نفسها، علاوة على الكثير من العمل على العلامات المُتعلقة بالأصول اللغوية. ستتعلم كل هذا في السنة الرابعة لو تخصصت في أعمال الفضة، إذ نستخدم أبجدية مُستحدثة تقوم على مخطوط اكتشفه في الأصل أحد خيميائيي براغ في القرن السابع عشر.* ويهدف هذا لعدم تقليد أي شخص خارج بابل عمليّاتنا. يُمكنك في الوقت الراهن أن تُفكر في هذا الضبط كطريقة لتعميق رابطة التوصيل».

* يعد المخطوط المذكور - والمدعو مخطوطة باريش نسبة للخيميائي الذي لفت نظر الناس إليها - وثيقة مغلفة بجلد الغزال تحوي ما يشبه السحر، أو العلم، أو علم النبات. كُتبت هذه المخطوطة بأبجدية تجمع ما بين بعض الرموز اللاتينية ورموز أخرى غير مألوفة تمامًا. لا تستخدم أبجديته الحروف الكبيرة ولا علامات الترقيم. تبدو الكتابة أقرب إلى اللغة اللاتينية، بل وتستخدم اختصارات لاتينية بالفعل، لكن ظل هدف المخطوطة ومعناها غامضين منذ اكتشافها. استحوذت بابل على المخطوط في منتصف القرن الثامن عشر، ومنذ ذلك الحين، لم ينجح أي من باحثي بابل في ترجمتها. وتستهلك الأبجدية المستخدمة في الروابط الرنانة رموز هذه المخطوطة. بيد أنها لا تعبر عن أي تقدم في فك شفرة العمل الأصلي.



قال روبين: «لكني ظننت أن اللغات المزيفة لا تعمل على تنشيط القوالب». رد الأستاذ شاكرافارتي: «بل لا تعمل على استجلاء المعنى. لكنها تعمل كآلية ربط بشكل جيد. يُمكننا الاستعاضة بالأعداد الأساسية، لكن بلاي فير يُحب الغموض ويهوى احتكار الأشياء».

وقف روبين صامتاً لهنية ومراقباً الأستاذ شاكرافارتي وهو يضبط الذبذبات على قالب الأشموليان بأداته الدقيقة، ويفحصها بعدسة، ثم يعمل إصلاحات مُتزامنة في السيخ الرنان. استغرقت العملية كلها خمس عشرة دقيقة. وفي النهاية، ربط الأستاذ شاكرافارتي قالب الأشموليان في قطعة من القطيفة وأعادها لحقيبتة. «يجب أن يؤدي هذا الحيلة. غداً نعود إلى المتحف».

كان روبين يقرأ الأسياخ مُلاحظاً كيف بدت نسبة كبيرة منها تستخدم أزواجاً مُتطابقة صينية، ثم سأل: «هل يجب أن تقوم أنت والأستاذ لوفيل بصيانة كل هذا؟».

أجاب الأستاذ شاكرافارتي: «أوه! نعم. ما من شخص آخر يستطيع عمل هذا، وبعد تخرجك سنُصبح ثلاثة».

فقال روبين بذهول: «يحتاجون إلينا». كان مُجرد التفكير أن إدارة إمبراطورية بأكملها تعتمد على بضعة أشخاص أمراً غريباً!

فوافقه الأستاذ شاكرافارتي قائلاً: «بل هم في أمس الحاجة إلينا، ومن الجيد أن يحتاج إلينا أحد، في مثل موقفنا».

وقف الاثنان أمام النافذة. وإذ راح روبين ينظر إلى أوكسفورد، صار لديه انطباع أن المدينة كلها تُشبه صندوق موسيقى مضبوطاً بدقة يعتمد اعتماداً كلياً على تروسه الفضية كي يُواصل العمل. فلو نفدت الفضة، ولو أن هذه الأسياخ الرنانة انهارت، لتوقفت أوكسفورد كلها فجأة. كانت أجراس البرج لُثَّاب بالخرس، وعربات الأجرة لتتوقف في الطرق، وحركة أهل المدينة



لتنجمد في الشوارع، ولصارت الأرجل مرفوعة في الهواء والأفواه مفتوحة دون أن تُكمل الكلام!

لكنه لم يتخيل أنها كانت لتنفذ أبدًا. كانت لندن وبابل تزددان ثراءً يومًا بعد يوم، ذلك أن السفن نفسها المزودة بالفضة ممتدة المفعول كانت تُحضر صناديق كثيرة من الفضة في المُقابل. لم تكن هناك سوق على الأرض تستطيع مقاومة الغزو البريطاني، حتى ولا الشرق الأقصى. كان الشيء الوحيد الذي قد يُربك التدفق الداخلي للفضة هو انهيار الاقتصاد العالمي، ولأن هذا كان سُخفًا، بدت مدينة الفضة ومباهج أوكسفورد أبدية.

وفي أحد أيام مُنتصف يناير، دخلوا البرج ليجدوا جميع الطلاب الكبار والخريجين يرتدون ملابس سوداء تحت عباءاتهم.

قال الأستاذ بلاي فير مُوضّحًا حين دخلوا مجلسه: «هذا بسبب أنطوني ريبيين». كان هو نفسه يرتدي قميصًا زهريًا فاتحًا.

فسألت ليتي: «ماذا عن أنطوني؟».

تجهم الأستاذ بلاي فير وقال: «فهمت. لم يُخبروكم».

«يُخبروننا بماذا؟».

أجاب الأستاذ بلاي فير: «فُقد أنطوني أثناء بعثة بحثية إلى باربادوس في الصيف الماضي. لقد اختفى قبل عودة سفينته إلى بريستول بليلة، ولم تَرَدُّنا أخبار عنه منذ ذلك الحين. يُفترض أنه مات. يشعر زملاؤه في الطابق الثامن بانزعاج شديد. أظنهم سيظلون مُتشحين بالسواد حتى نهاية الأسبوع. لقد انضم إليهم بضعة زملاء، إن شئت المُشاركة».

قال هذا بلا مُبالاة عفوية كمن يتحدث عن الذهاب للتجديف في فترة بعد الظهيرة.



فَعَرَّ روبين فاه وقال: «لكن، ألم يكن... ألم تكن... أقصد، أليس له أسرة؟ هل أخبرتموهم؟».

كتب الأستاذ بلاي فير مُوجز مُحاضرة اليوم على السبورة وهو يُجيب: «ليس لأنطوني أسرة سوى كافله. لقد أعلم السيد فولويل بالبريد، وسمعت أنه في غاية الانزعاج».

قالت ليتي: «يا إلهي! هذا فظيع».

قالت هذا وهي تنظر إلى فيكتوار نظرة عطف، إذ كانت الأخيرة تعرف أنطوني جيداً. لكن فيكتوار بدت عادية على نحو غريب. لم تبدُ مصدومة أو مُنزعجة، بل بالأحرى تشعر بعدم ارتياح غامض. كما أنها بدت كمن يرجو تغيير الموضوع بالسرعة المُمكنة. كان الأستاذ بلاي فير سعيداً جداً بعمل هذا.

فقال: «حسنًا، لنُعد إلى العمل. انتهينا يوم الجمعة الماضي عند التحديات التي أجراها الرومانسيون الألمان...».

لم تَحزن بابل على أنطوني، فاكتفى أعضاء هيئة التدريس بعمل صلاة تذكارية. وفي المرة التالية التي ذهب روبين إلى طابق أعمال الفضة، كان خريج ذهبي الشعر قد حَلَّ محل أنطوني في محطة العمل.

قالت ليتي: «هذا مُقزز. هل تُصدقون... أعني، كان أحد خريجي بابل، وها هم يتصرفون كأنه لم يكن!».

كان انزعاجها يخفي ذعرًا أكبر، ذعرًا كان روبين يشعر به جيداً، وهو أن أنطوني كان شيئاً يسهل التضحية به، بل كان من السهل التضحية بهم جميعاً. وكان البرج - ذلك المكان الذي شعروا للمرة الأولى بالانتماء له - يُحبهم ويعتز بهم وهم أحياء ونافعون، لكنه لم يكن ليهتم بهم على الإطلاق، وأنهم كانوا في نهاية المطاف مُجرد أوعية للغات التي يتحدثونها.

كتم الجميع هذا في صدره، إذ كان الأمر أقرب لكسر التعويذة.



ودون الجميع، ظن روبين أن فيكتوار ستكون الأكثر حُزنًا. كانت وأنطوني قد اقترب كل منهما من الآخر بمرور السنوات. كانا اثنين من مجموعة صغيرة من الطلاب ذوي البشرة السوداء في البرج، وكان كلاهما مولودًا في جُزر الهند الغربية. كان يراهما يتحدثان بين الحين والآخر برأسين قريبيين، ثم كانا ليخرجا من البرج مُتجهين إلى المقصف.

لكنه لم يرها ولا مرة تبكي ذاك الشتاء. أراد مُواساتها، لكنه لم يعرف كيف يفعل، لا سيما أن التطرق إلى الموضوع بدا مُستحيلًا معها. وحين كان اسم أنطوني يُذكر، كانت تجفل وتومئ بسرعة، ثم تُحاول جاهدة تغيير الموضوع.

فسألت ليتي ذات ليلة في الردهة: «هل عرفتم أن أنطوني كان عبدًا؟». وبعكس فيكتوار، كانت ليتي تتعمد إثارة الموضوع متى أُتيحت لها الفرصة. وفي الواقع، كانت شديدة الانشغال بموت أنطوني على نحو بدا تظاهريًا غير مُريح بالبر. «أو كان ليصير هكذا. لم يرغب سيده في تحريره حين صار قانون إلغاء الرق قيد التنفيذ، ومن ثم، كان يُعيد به إلى أمريكا، وكان يبقى ضمن طلاب أوكسفورد فقط لأن بابل كانت تدفع من أجل حُريته؟ تدفع. هل تُصدقون هذا؟».

نظر روبين إلى فيكتوار، لكن تعبير وجهها لم يتغير ألبتة.

فقالَت بهدوء شديد: «أُحاول أن أتناول طعامي يا ليتي».



الفصل الثاني عشر



باختصار، كنت أكثر جُبْنًا من أن أفعل الصواب مثلما كنت أكثر جُبْنًا من أن أتجنب ارتكاب الخطأ.

تشارلز ديكنز، آمال عريضة

قبل أن يظهر جريفيين، كان الفصل الدراسي هيلاري قد بدأ. ومضت عدة أشهر لم يتحقق فيها روبين من نافذته بالحماس المعهود، وكان ليفوت الرسالة لولم يلحظ طائر العقعق وهو ينقر فيها من تحت الواجهة.

وجَّهت الرسالة روبين بالذهاب إلى تويستد روت في اليوم التالي الساعة الثانية والنصف، لكن جريفيين تأخر نحو ساعة. وحين وصل، فوجئ روبين بمظهره المُنْهَك، إذ بدا مُجرد المشي في الحانة مُرهَقًا له، فراح يلهث حين جلس كأنه ركض شارع باركس بأكمله. كان واضحًا أنه لم يُغيّر ملابسه منذ أيام، إذ فاحت منه رائحة كريهة اجتذبت نظرات غاضبة. كان يَعْرُج، وكان روبين يرى ضمادات تحت قميصه كلما كان يرفع ذراعه.

لم يعرف روبين ما يفعل حيال هذا. كان قد أعد عتابًا لهذا اللقاء، لكن الكلمات ماتت حين رأى البؤس واضحًا على أخيه، ومن ثم، جلس في صمت، في حين طلب جريفيين فطيرة لحم وكوبَي شراب.

فسأل جريفيين: «هل تسير الأمور على ما يُرام في هذا الفصل الدراسي؟».

أجاب روبين: «نعم، بخير. أنا، إمام، أعمل على مشروع مُستَقِلّ الآن».

«مع مَنْ؟».



حكّ روبين طوق قميصه وهو يشعر بحمافة تطرفه للموضوع لكنه على أية حال قال: «شاكرا فارتي».

قال جريفين: «هذا جيد». ثم وصلت المشروبات، فتجرع كوبه دفعة واحدة ثم جَفَل: «بل لطيف».

«مع ذلك، ليس باقي زملائي سعداء بمَهاَمهم».

فرد جريفين بسخرية: «بالطبع ليسوا كذلك، فلا تسمح بابل للمرء بعمل الأبحاث المُفترَض أن يُشارك بها المرء، بل الأبحاث التي تملأ الخزائن فحسب».

ساد الصمت لفترة طويلة. انتاب روبين شعور غريب بالذنب. بيد أنه لم يكن هناك سبب وجيه لذلك، لكن، كان شعور بعدم الراحة ينهش قلبه كلما مرت الثواني. ثم أحضر الطعام. كانت الأطباق ساخنة للغاية. لكن جريفين التهم طبقه كالمحروم. لعله كان هكذا فعلاً، فحين مال في مكانه برزت عظام ترقوته على نحو يُؤلم من ينظر إليها.

فصَفَى روبين حنجرته وهو لا يعرف كيف يسأل: «أخبرني... يا جريفين، هل كل شيء...».

فوضع جريفين شوكتته ورد: «عذراً، أنا فحسب... لقد عُدت إلى أوكسفورد الليلة الماضية فحسب، وأشعر بالإرهاق».

فتنهد روبين وقال: «بالطبع».

وهنا مد جريفين يده في جيبه الأمامي وأخرج قطعة ورق مُجَعَّدة وقال: «على أية حال، هذه قائمة بالنصوص التي أحتاج إليها من المكتبة. قد تواجه بعض الصعوبات في العثور على المراجع العربية. لقد نقلت العناوين لك بحروف لاتينية، وهو ما سيوجهك إلى الرف الصحيح، لكن عندئذ، يجب أن تتعرف عليها بنفسك. لكنها في مكتبة بودلي، لا في البرج، ومن ثم، لا تخشَ تسأول أي شخص عما تفعله».



فأخذ روبين الورقة وقال: «هل هذا كل شيء؟».

«هذا كل شيء».

«حقاً؟». لم يستطع روبين تمالك نفسه. كان يتوقع أن يسلك جريفين بفضافة، لا أن يتظاهر بجهل مُصطنع، فتبدد تعاطفه وصبره على حد سواء، ليحل محلهما السخط الذي ظل يتأجج على مدى عام ويصعد إلى السطح، ثم أردف: «هل أنت متأكد؟».

فحدج جريفين بنظرة قلقلة وسأله: «ما الأمر؟».

فسأله روبين: «ألن نتحدث عن المرة السابقة؟».

«المرة السابقة؟».

«حين انطلق جرس الإنذار، قفزنا فوق فخ، فانطلقت بندقية...».

«كنت بخير.».

فقال روبين بصوت مكتوم: «لقد أُصبت. ماذا حدث؟ لقد عَبَثَ أحدهم، وأعلم أنني لم أكن الفاعل؛ لأنني فعلت الشيء المطلوب مني، أقصد أنك لم تكن مُحَقّاً بشأن أجراس الإنذار...».

فهز جريفين كتفيه وقال: «هذه الأشياء واردة. من الجيد أنهم لم يُلقوا القبض على أحد...».

«لقد أُصبت في ذراعي.».

«سمعت ذلك.» ألقى جريفين نظرة خاطفة فوق المنضدة وكأنه يرى جرح روبين من كُم قميصه وأردف: «لكنك تبدو بحالة جيدة.».

«اضطرت لخيطة الجرح بنفسي.».

«أحسن. تصرفت على نحو أذكى من أن تذهب لمُمرّض الكلية. لم تفعل، أليس كذلك؟».

«ما خطبك؟».



فقال جريفيين: «اخفض صوتك».

«اخفض...».

«لا أجد سبباً للمبالغة، لقد ارتكبت خطأ، ونَجوت، ولن يتكرر هذا. سنتوقف عن إرسال أشخاص إليك، بل سوف تُسلم المُهَرَّبَات بنفسك في الخارج...».

فقال روبين بصوت مكتوم مرة أخرى: «ليست المسألة هكذا، فقد تركتني أُجَرَح، ثم تركتني في الخارج حيث البرد».

تنهد جريفيين وقال: «كُفَّ عن المبالغة. تقع الحوادث، وها أنت بخير». ثم أطرق مُفَكِّراً، ثم قال بشكل أهدأ: «اسمع، لو جعلك هذا تشعر بتحسن، فاعلم أن هناك منزلاً سرياً في سان ألديت نستخدمه حين نحتاج للاختباء لفترة قصيرة. هناك باب يؤدي لسرداب بجوار دار العبادة. يبدو صدناً مُغلَقاً، لكن كل ما عليك هو البحث عن مكان القفل وترديد الكلمات. يقودك هذا الباب إلى نفق أهمل حين عملوا التجديدات».

فhez روبين ذراعه في وجه جريفيين ثم قال: «لن يُصلِح المنزل السري هذا».

فألح جريفيين: «سنصبح أفضل المرة القادمة. كانت هفوة، وكان هذا خطئي، وها نحن نُصلحه. اهدأ قبل أن يسترق أحد السمع». ثم اعتدل في جلسته وتابع: «كنت خارج المدينة لأشهر، وأحتاج لمعرفة ما كان يحدث في البرج وأريدك أن تتحرى الدقة في هذا».

كان روبين على وشك ضربه، بل كان ليفعل لولا ما يبدو عليه جريفيين من الإنهاك والإعياء بالفعل.

كان يعرف أنه لم يكن يستفيد من أخيه. كان جريفيين يُشبه الأستاذ لوفيل في عناده، فلو وجد أي منهما شيئاً لا يُناسبه، فلم يكن ليعترف به. وكانت أي محاولة للحصول على التقدير لتؤول لمزيد من الإحباط. وهنا انتابته رغبة عابرة في الوقوف ومُغادرة المكان ولو لمجرد رؤية تعبير وجه جريفيين.



لكنه هذا لم يكن ليُعْطيه شعورًا دائمًا بالرضا. فلو استدار، لسخر جريفين منه، ولو خرج، لقطع علاقته مع هرمس، ففعل ما كان يُجِده مع أبيه وأخيه على حد سواء: لقد كُتِمَ إحباطه واستسلم للشروط التي وضعها جريفين على المُحادثة.

قال بعد تنهيدة هادئة: «لم تحدث أمور كثيرة، إذ لم يُكثر الأساتذة من السفر إلى الخارج مُؤخرًا، ولا أظن أن الفخاخ قد تغيرت منذ المرة الأخيرة. أوه! حدث شيء فظيع. أحد الزملاء الخريجين، أنطوني ريبين...».

رد جريفين: «أعرف أنطوني بالطبع». ثم تَنَحَّحَ وأردف: «عرفت. أقصد، كان زميلًا لي».

فسأل روبيين: «إدًا، فقد سمعت؟».

«سمعت ماذا؟».

«أنه مات».

«ماذا؟ لا». كان نبرة صوت جريفين هادئة على نحو غريب. «لا، قصدت فحسب أنني كنت أعرفه قبل أن أرحل. هل مات؟».

قال روبيين: «فُقد في رحلة بحرية عائدة من جزر الهند الغربية على ما يبدو».

رد جريفين ببرود: «هذا فظيع، بل بشع».

فسأل روبيين: «هل هذا كل شيء؟».

«ماذا تُريدني أن أقول؟».

«كان زميلك في الدراسة!».

«يُؤسفني أن أقول إن هذه الحوادث شائعة، فالرحلات خطيرة، ويُفقد شخص كل بضع سنوات».



«لكن الأمر فحسب... يبدو مُزعجًا، فحتى لن يُقيموا له نُصْبًا تذكاريًا، وسوف يواصلون كأن شيئًا لم يكن. إن الأمر...» وهنا توقف روبين وقد باعته رغبة في البكاء، وشعر بالحماسة لتطرقه لهذا الموضوع. لم يكن يعرف ما كان يُريد - لعله بعض التأييد أن لحياة أنطوني قيمة وأنه لا يمكن نسيانه بسهولة، لكن كان ينبغي عليه أن يعرف أن جريفيين كان أسوأ من يُطلب منه المُواساة!

صَمَت جريفيين لمدة طويلة، ثم راح يحرق من النافذة مُقَطَّبًا حاجبيه ومُرَكِّزًا كأنه يُدبِّر شيئًا. لم يبدُ كمن يستمع لروبين على الإطلاق، ثم أدار رأسه، وفتح فاه وأغلقه، ثم فتحه مُجددًا وقال: «أتعرف؟ ليس هذا بمُفاجأة. فهذه هي الطريقة التي تُعامل بها بابل طلابها، لا سيما القادمين من الخارج. أنت لا تُمثِّل قيمة بالنسبة لهم، فما أنت سوى أداة ترجمة، ولو رسبت فسُطُردَ».

«لكنه لم يرسب، بل مات».

«لا فرق». وهنا وقف جريفيين وسحب سترته وأردف: «على أيه حال، أريد هذه النصوص خلال هذا الأسبوع، وسأترك لك تعليمات حول مكان تركها».

فسأل روبين بدهشة: «هل انتهينا؟» إذ تجدد شعوره بالإحباط. لم يكن يعرف ما يُريده من جريفيين، ولا حتى ما إذا كان جريفيين يستطيع مَنحه، لكنه بات يتوقع المزيد.

قال جريفيين دون أن يستدير: «هناك أماكن يجب أن أذهب إليها» إذ كان يشق طريقه إلى الخارج، وأردف: «راقب نافذتك».

كان عامًا سيئًا بكل المقاييس.

لقد سَمَّ أحدهم أوكسفورد وامتص منها كل شيء يمنح روبين السعادة في الجامعة. صارت الليالي أكثر برودة، واشتد هطول المطر. لم يَعد البرج



نعيمًا، بل بات سجنًا. وصارت المقررات تعذيبًا. لم يستمتع هو ولا أصدقائه بالدراسة، بل لم يعودوا يشعرون إلا بالاستكشافات المثيرة للاهتمام كما في العام الأول ولا بالرضا الناشئ عن العمل على الفضة الذي كان ليوأكب وصولهم للسنة الرابعة.

كانت الدفعات الأكبر منهم تُطمئنهم أن هذا يحدث دائمًا، وأن فتور السنة الثالثة كان طبيعيًا وحتميًا. لكن تلك السنة بدت سيئة بشكل خاص في عدة مناحٍ أخرى. بداية، ارتفع عدد الهجمات على البرج على نحو مُزعج، ففيما سبق، كانت بابل لتتوقع مُحاولتي اقتحام أو ثلاث في العام، وكانت كلها محط أنظار الطلاب الذين كانوا يتوافدون حول الأبواب لرؤية التأثير القاسي الذي أحدثته فخاخ بلاي فير تلك المرة. ولكن، بحلول شهر فبراير من ذلك العام، بدأت مُحاولات السرقة تحدث كل أسبوع تقريبًا، وبدأ الطلاب يَصْجِرُونَ لرؤية رجال الشرطة يسحبون المجرمين المشوهين على الحصى.

ولم تكن بابل هدفًا للصوص فحسب، بل كانت قاعدة البرج تُلطَّخ عادة بالبول، والزجاجات المكسورة، والمشروبات المسكوبة. كما اكتشفوا مرتين نقوش جرافيتي كبيرة بين عشية وضحاها بأحرف كبيرة حمراء، إذ كتب أحدهم على الجدار الخلفي: "اللسنة الشيطان"، وكتب شخص على الجدار أسفل نافذة الدور الأول: "فضة الشيطان".

وذات صباح، وصل روبين وزملاؤه ليجدوا عشرات من أهل المدينة مُجتمعين في المرج وهم يصرخون بوحشية في وجوه الباحثين الداخليين والخارجيين من الباب الأمامي. فاقتربوا بحذر، إذ كان الحشد مُخيفًا بعض الشيء. لكنه لم يكن بالكثافة التي تعجزهم عن شق طريقهم. لعل ذلك كان ينهض دليلًا على استعدادهم لتحمل مُضايقة الجمهور أكثر من تفويت المحاضرة الأولى. لكن الأمر بدا وكأنهم يستطيعون شق طريقهم دون مُضايقات حتى وقف رجل طويل القامة أمام فيكتوار وبدأ يُوجِّه إليها تهديدات بلكنة شمالية فظة وغير مفهومة.

فشهقت فيكتوار: «لا أعرفك ولا أعرف ما...».



فانطلق رامي كمن أطلق عليه الرصاص قائلاً: «رباه!». فقفزت فيكتوار، وكاد قلب روبين يتوقف. لكنها كانت مجرد بيضة، وكانت مُوجَّهة نحو فيكتوار، وكان رامي قد انحرف فجأة لأنه اندفع إلى الأمام كي يحميها. تراجعت فيكتوار إلى الخلف، وحمّت وجهها بذراعيها. فوضع رامي ذراعه حول كتفها وقادها إلى الدرج الأمامي.

فصرخت ليتي: «ما خطبك؟».

كان الرجل الذي قذف البيضة قد صرخ بكلمات غير مفهومة في المُقابل، فجذب روبين يد ليتي بسرعة وسحبها من الباب وراء رامي وفيكتوار.

قال روبين: «هل أنت بخير؟».

كانت فيكتوار ترتجف بشدة، وأجابت بصعوبة: «بخير، أنا بخير - أوه! رامي، دَعْنِي، معي منديل...».

فخلع رامي سترته ورد: «لا عليكِ، لقد انتهى أمرها وسأشتري سِتْرَةً جديدة».

وفي الردهة، كان الطلاب والعُملاء مُحْتَشِدِينَ عند الحائط لمشاهدة الحشد من النافذة. كان أول ما خطر ببال روبين هو التساؤل ما إذا كان هذا أحد أعمال هرمس. لكن، لم يكن هذا جائزاً؛ لأن سرقات جريفيين كانت مُحْكَمَةً التدبير إذ كانوا يُخفون وراءهم آلية أكثر تعقيداً من هذا الحشد الغاضب.

فسأل روبين كاثي أونيل: «هل تعرفين ما يحدث؟».

أجابت كاثي: «إنهم عُمال الطاحونة، فقد سمعت أن بابل قد وَقَّعت للتو عقداً مع أصحاب الطاحونة الشمالية، وهو ما تسبب في فقدان جميع أولئك الناس وظائفهم».

فسأل رامي: «جميع أولئك؟ ببعض قوالب الفضة؟».

قال فيمال الذي كان قد سمعهما: «أوه! لقد أقالوا مئات العمال. يُفترض أن الأستاذ بلاي فير ابتكر زوجاً مُتطابقاً مُذهلاً، وقد رَجَحْنَا منه ما يكفي لتمويل



التجديدات في الجناح الشرقي للردهة بأكمله، وهو ما لا يُدهشني، إذ يستطيع القلب القيام بعمل جميع أولئك الرجال مُجتمعين».

فقال كاثي وهي مُستغرقة في التفكير: «لكن، أليس هذا مُحزنًا؟ ماذا سيفعلون الآن؟».

فسأل روبين: «ماذا تقصدين؟».

فأشارت كاثي للنافذة وقالت: «حسنًا، كيف سيعولون أسرهم؟».

شعر روبين بالخل لعدم أخذه هذا الأمر في الاعتبار.

وفي الدور العلوي، أثناء محاضرة الأصول اللغوية، أبدى الأستاذ لوفيل رأيًا أكثر قسوة: «لا تقلقوا بشأنهم، فهذه هي عادة الدهماء. إنهم مُدمنو شراب وساخطون من الشمال. لا يجد أولئك طريقة أفضل للتعبير عن أنفسهم من الصراخ في الشوارع. كنت أفضّل أن يكتبوا خطابًا، لكنني أشك أن نصفهم يستطيع القراءة».

فسألت فيكتوار: «هل صحيح أنهم أقيلا من وظائفهم؟».

«حسنًا، بالطبع، فلم يُعد نوع العمل الذي يُؤدونه لازمًا، ولا يوجد سبب لعدم أتمتة عمليات الغزل، والنسج، والمشط، والغزل الأولي، فهذا من أشكال تقدم البشر».

فعلق رامي: «يبدون غاضبين من الأمر».

رد الأستاذ لوفيل: «أوه! إنهم غاضبون بالطبع، ويُمكنك أن تتخيل السبب. ماذا قدمت أعمال الفضة للبلاد على مدار العقد الماضي؟ لقد ازدهرت الإنتاجية الزراعية والصناعية على نحو مدهش، كما ارتفعت كفاءة المصانع، ما يجعلها تعمل بربع عدد عُمالها. لتأخذ صناعة المنسوجات مثالًا، فقد مكّنت أعمال الفضة التقدم في مكوك كاي، وغزل الماء لأركرايت، ونول كرومبتون، وبكرة كارترائيت، وأعطت بريطانيا دفعةً تقدم على أي أمة، فأقيل آلاف العُمال من وظائفهم. وبدلاً من استخدام العقل في



تعلم مهارة نافعة، قرروا النوح على درجنا الأمامي. لعلمك، ليست الاحتجاجات بالخارج أمرًا جديدًا علينا، فهناك داء في هذه البلاد». وهنا بدأ الأستاذ لوفيل يتحدث بنبرة غاضبة: «لقد بدأت باللوديين، وهم بعض العمال الحمقى في نوتجهم الذين فضلوا تحطيم الماكينات على تبني التقدم، وقد انتشر هذا الداء في جميع أنحاء إنجلترا منذ ذلك الوقت، فهناك أناس في جميع أنحاء البلاد يفضلون رؤيتنا أمواتًا. ليست بابل فحسب هي التي يُعتدى عليها، بل لا نشهد أسوأها؛ لأن الأمن لدينا أفضل من الغالبية. في الشمال، يُحرق أولئك الناس المباني، ويرشقون أصحابها بالحجارة، ويرشون الأحماض على مُديري المصانع، ولا ينفكون يُحطّمون الأنوال في لانكشير. ليست هذه أول مرة يتلقى فيها أعضاء هيئة تدريس كليتنا تهديدات بالموت، بل المرة الأولى التي تَجَرَّؤوا فيها على التقدم جنوبًا نحو أوكسفورد».

فسألت ليتي بذر: «هل تتلقون تهديدات بالقتل؟».

«بالطبع، وأتلقى المزيد كل عام».

«ألا تُسبّب لكم إزعاجًا؟».

فقال الأستاذ لوفيل باستهزاء: «على الإطلاق، فأنا أنظر لهؤلاء الرجال وأفكر في الفرق الشاسع بيننا. أنا في مكائتي هذه؛ لأنني أؤمن بالمعرفة والتقدم العلمي، وقد استخدمتهما ليعودا عليّ بالنفع. أما هم، فيقفون في مواقعهم لأنهم رفضوا التقدم نحو المستقبل بعناد. لا يُخيفني مثل هؤلاء الرجال، بل يُضحكونني».

فسألت فيكتوار بصوت خافت: «هل سيستمر هذا الوضع طوال العام؟ أعني بالخارج في المرج؟».

أجاب الأستاذ لوفيل مُطمئنًا إياها: «ليس لفترة طويلة. سينصرفون مساءً، فليس هؤلاء الرجال مُثابرين، فسوف يُغادرون عند غروب الشمس حين يلدغهم الجوع أو حين يشرعون في البحث عن تجرّع شراب. ولو لم يفعلوا، فسنبعدهم الفخاخ والشرطة».



لكن الأستاذ كان مخطئاً، إذ لم يكن هذا عمل مجموعة مُنْعَزلة من الساخطين، كما أنهم لم يتفرقوا بين عشية وضحاها، ولم تُفَرِّق الشرطة الحشد ذلك الصباح، لكنهم عادوا في أعداد أقل عدة مرات كل أسبوع، إذ أتى عشرة رجال أو نحو ذلك لِيَتَحَرَّشُوا بالطلاب المُتجهين إلى البرج. وذات صباح، تَحَنَّن إخلاء المبنى بأسره بعد تسليم طرد يُصدر طققة إلى مكتب الأستاذ بلاي فير، وقد اتضح بعدها أنها ساعة مُتصلة بمتفجرات. ولحسن الحظ، كان ماء المطر قد غمر الطرد وسبب تاكلاً في صمام الأمان.

سأل رامي: «لكن ماذا يحدث حين لا تُمطر؟».

لم يجد أحد إجابة شافية لهذا.

عُزِّزت إجراءات الأمن بين عشية وضحاها، وصار البريد يُفَرَز ويتم تسليمه بواسطة موظفين جُدد في مركز مُعالجة في مُنتصف الطريق المؤدي لأوكسفورد. وكان فريق مُنْغِير المُناوبة من رجال الشرطة يحرس مدخل البرج في جميع الأوقات. كما تَبَيَّن الأستاذ بلاي فير مجموعة جديدة من قوالب الفضة فوق الباب الأمامي. ومع ذلك، رفض الإفصاح عن الأزواج المُتطابقة التي كتبها عليها أو ما قد تفعل حال استهدافها.

لم تكن تلك الاحتجاجات أعراضاً لضجة بسيطة، إذ حدث شيء في جميع أنحاء إنجلترا، بل مجموعة من التغييرات بدؤوا يفهمون توابعها. لم تستطع أوكسفورد، التي كانت تتخلف قرناً عن مُدن إنجلترا الكبرى، إلا أن تتظاهر بالتحصُّن من التغيير لفترة طويلة، واستحال تجاهل تقلبات العالم الخارجي. كان الأمر يتعلق بأكثر من عمال الطواحين، إذ أصبح الإصلاح، وعدم الاستقرار، وعدم المُساواة سِمات مميزة للعقد. كما بدأ التأثير الكُلِّي لما أُطلق عليه اسم الثورة الصناعية، وهو مُصطلح ابتكره بيتر جاسكيل قبلها بست سنوات، يُسْتَشْعَر في جميع أنحاء البلاد. راحت الماكينات التي تعمل بالفضة من النوعية التي أُطلق عليها وليم بليك «طواحين سوداء شيطانية» تُحُل محل العمل اليدوي بسرعة. لكن بدلاً من أن تجلب الرخاء على الجميع، خَلَقَتْ تراجعاً اقتصادياً، ما سبَّب فجوة مُتزايدة بين الأغنياء والفقراء والتي



سرعان ما أصبحت موضوعاً لروايات ديزرايلي وديكنز. وراحت الزراعة الريفية تتدهور، وانتقل الرجال، والنساء، والأطفال في مجموعات إلى المراكز الحضرية ليعملوا في المصانع حيث كانوا يعملون لساعات طويلة ويفقدون أطرافهم في حوادث مُروّعة. وكان قانون الفقراء الذي صدر عام 1834، والذي وُضِع لتقليص نفقات إغاثة الفقر أكثر من أي شيء آخر، قاسياً وعقابياً في جوهره، إذ حظر الدعم المالي إلا عمّن ينتقل إلى دار عمل، وكانت تلك الدور مُصمّمة لتكون شديدة البؤس على نحو يجعل الناس يعزفون عن السكن فيها. لم يجلب مُستقبل التقدم والتطوير الذي بَشَّر به الأستاذ لوفيل سوى الفقر والمُعانة، فلم تظهر الوظائف التي ظن أن العمال المُسرّحين سيتسلمونها. وكان المُستفيدون الحقيقيون من الثورة الصناعية الفضية هم الأغنياء وقلة مُختارة من الماكربين أو المَحْظوظين على نحو كافٍ ليصبحوا أغنياء.

كانت هذه التيارات غير مُستدامة، إذ كانت عجلة التاريخ تدور بسرعة في إنجلترا، وصار العالم أصغر وأكثر اعتماداً على الآلة وأكثر لا مُساواة، ولم يكن قد اتضح بعد أين ستصير الأمور أو ماذا سيعني هذا بالنسبة لبابل أو للإمبراطورية ككل.

مع ذلك، كان روبين وزملاؤه يعملون ما اعتاد الباحثون عمله، ألا وهو حَني الرؤوس على الكتب والتركيز على الأبحاث فحسب. وفي النهاية، تَفَرَّقت الاحتجاجات بعد إرسال القوات من لندن لَنَجْر زعماءها إلى سجن نيوجيت. وهنا توقف الباحثون عن حبس أنفاسهم كلما صعدوا دَرَج البرج. لقد تعلموا أن يتحملوا وجود الشرطة، علاوة على استغراق الكُتُب والمراسلات الجديدة ضِعف الوقت في الوصول. كما توقفوا عن قراءة الافتتاحيات في أوكسفورد كرونيكل والتي كانت تُعَدُّ نشرة جديدة مُؤَيَّدة للإصلاح والتطرف وبدأت عازمة على تشويه سُمعتهم.

مع ذلك، لم يستطيعوا تجاهل العناوين الرئيسية التي تُباع في كل زاوية شارع مُؤَدَّ إلى البرج:



هل تُهَدِّد بابل الاقتصاد القومي؟

القوالب الأجنبية ترسل العشرات إلى دار العمل

قولوا لا للفضة!

كان التجاهل لِيُؤَرِّقهم، بل إن روبين وجده من السهل أن يتعايش مع أي قدر من الاضطرابات الاجتماعية ما دام بإمكان المرء التجاهل!

وفي ليلة عاصفة، وفيما هو مُتجه لبيت الأستاذ لوفيل لتناول العشاء، لَمَحَ روبين أسرة جالسة على ناصية وستود رود وكل من أفرادها يَمُدُّ يده بكون طالبًا الإحسان. شاعت رؤية الشحاذين خارج أوكسفورد، لكن قلما كان المرء يرى أسرة بأكملها. لَوَّح له الطفلان وهو يقترب، وكانت رؤية وجهيهما الشاحبين تشعره بالذنب، ما جعله يتوقف ويُخرج بضعة بنسات من جيبه.

فهمس الأب: «شكرًا، بارك الله فيك».

ورغم طول لحية الرجل وملابسه التي صارت أكثر اهتراءً، تَعَرَّفَ روبين عليه، إذ كان - دون شك - أحد الرجال الذين سَبَّوه وهو مُتجه إلى البرج منذ عدة أسابيع. التقت نظرته بنظرة روبين، لكن لم يكن واضحًا ما إذا كان قد تَعَرَّفَ عليه بدوره. فتح فمه ليقول شيئًا، لكن روبين أسرع الخطى، ومن ثم، مهما كان ما قاله الرجل بعدها، فقد ضاع في قَبْض الريح والمطر.

لم يذكر ما فعله لتلك الأسرة للسيدة بايبر ولا للأستاذ لوفيل، إذ لم يرغب في التعمق فيما كانوا يُمَثِّلونه، فرغم ولائه المُعلن للثورة، والتزامه بالمساواة ومُساعدة المُعوزين، لم تكن لديه خبرة بالفقر الحقيقي على الإطلاق. لقد مر بأوقات عصيبة في كانتون، لكن كان يعرف دائمًا مصدر طعامه ومكان نومه، فلم يحدث أن نظر إلى عائلته وراح يتساءل كيف يُؤَقَّر لها القوت. ورغم شعوره بالتوحد مع أوليفر تويست الطفل اليتيم، وشفقته المَريرة على ذاته، ظلت الحقيقة أنه منذ وصوله إلى إنجلترا، لم يَنَمْ ليلة واحدة جائعًا.



ففي تلك الليلة، تناول عشاءه، وابتسم لإطراء السيدة بايبر، وشارك الأستاذ لوفيل الشراب، ثم اتخذ طريقاً مختلفاً وهو عائد إلى الكلية. وفي الشهر التالي، نسي اتخاذ الطريق البديل نفسه أثناء عودته، فلم يُبال. لكن وقتئذ، كانت الأسرة الصغيرة قد رحلت.

حوّل اقتراب الامتحانات السنة السيئة إلى أسوأ، إذ كان طلاب بابل يجتازون جولتين من الاختبارات - إحدهما في نهاية السنة الثالثة والأخرى أثناء السنة الرابعة. كانت تلك الامتحانات مُوزَّعة على التقويم. كان طلاب السنة الرابعة يُؤدُّون امتحاناتهم في مُنتصف الفصل الدراسي هيلاري، في حين كان طلاب السنة الثالثة يواصلون أداءها حتى الفصل الدراسي ترينيتي. وكان البدء بعد إجازات الشتاء قد غيّر المزاج العام في البرج تمامًا؛ فقد صارت المكتبات وحجرات الدراسة مُزدحمة في كل الأوقات بطلاب السنة الرابعة المُتَوَثِّرين الذين كانوا يَجفَلون متى تَنقَّس أي شخص، وبدوا مُستعدين لارتكاب جرائم قتل متى اجترأ أي شخص على الهمس.

وجرت العادة على إعلان بابل درجات السنة الرابعة في نهاية فترة الامتحانات. وفي ظهيرة الجمعة من ذلك الأسبوع، دَقَّ جرس ثلاث مرات في جميع أرجاء البرج، فوقف الجميع وأسرعوا بالنزول إلى الردهة حيث كان عملاء المساء يوجَّهون بالخروج. وقف الأستاذ بلاي فير على طولة في مُنتصف الغرفة مُرتدياً زياً مُزخرفاً بحواف قُرْمزية ورافعاً ورقة مطوية لم يَرَهَا روبين إلا في زخارف العصور الوسطى. وبعد إخلاء البرج من جميع الأشخاص غير المُنتميين للكلية، تَنَحَّح وقال بنبرة جادة: «اجتاز هؤلاء المُتَقَدِّمون اختبارات التأهيل بامتياز. ماثيو هاوندسلو...».

وهنا أطلق شخص في الخلف صيحة.

«آدم مور هيد».



كان هناك طالب جالس على الأرضية في مُنتصف الردهة واضعاً يديه على فمه.

فهمس رامي: «هذا غير إنساني».

فقال روبين مُتفقاً: «أشد قسوة وغبابة». لكنه لم يستطع إبعاد نظره عن الإجراءات. لم يكن قد استعد للامتحان بعد، لكنه بات قريباً، وراح قلبه يَخْفِق بذعر تعاطُفي. فرغم رهبة الموقف، كان مُثيراً أن يُعلن عن أثبتوا نبوغهم ومن لم يفعلوا.

كان ماثيو وادم هما من حصلا على امتياز. وأعلن الأستاذ بلاي فير عن حصول جيمس فيرفيلد على درجة النجاح وحصول لوك مكافري على درجة مقبول، ثم قال بنبرة حزينة: «رَسَب المُتَقَدِّمون التاليون في اختبارات التأهيل، ولن يُطلب منهم العودة إلى المعهد الملكي للترجمة للحصول على زمالة ما بعد التخرج، ولن يُمنحوا الدرجة. فيليب رايت».

كان رايت هو المُتخصص في الفرنسية والألمانية الذي جلس بجوار روبين في عشاء الكلية أثناء السنة الأولى. وبمرور الأعوام، صار نحيفاً منهكاً. كان من الطلاب القابعين في المكتبة، وكان يبدو كمن لم يستحم أو يحلق لأيام وهو يحدق إلى كومة الأوراق أمامه بمزيج من الذعر والدَهْشة!

قال الأستاذ بلاي فير: «لقد تعاملنا معك بكل أشكال الرأفة، كما حصلت على تسهيلات أكثر مما كنت تستحق. وها قد آن الأوان لتعترف أن وقتك قد انتهى هنا يا سيد رايت».

حاول رايت الاقتراب من الأستاذ بلاي فير، لكن اثنين من الخريجين أمسكاه من ذراعيه وسحباه إلى الخلف. فبدأ يتوسَّل ويتلَعَّم في الحديث عن سوء فهم إجابته في الامتحان وأنه يستطيع توضيح كل شيء لو مُنِح فرصة أخرى. وقف الأستاذ بلاي فير بهدوء شديد ويداه وراء ظهره مُتظاهراً بعدم الاستماع.

فسأل روبين فيمال: «ماذا حدث؟».



فهز فيمال رأسه بتأثر وأجاب: «قدم تفسيرًا شعبيًا للأصل اللغوي بدلًا من التفسير الحقيقي، وحاول ربط البط (كانار) بطيور الكناري، في حين لا يوجد ارتباط بين هذا وذاك، فالأخير من جزر الكناري التي اشتُق اسمها من كلاب...».

لم ينتبه روبين لباقي الشرح.

وهنا أخرج الأستاذ بلاي فير قارورة زجاجية من جيبه والتي افترض روبين أنها تحوي دماء رايت، ووضعها على الطاولة وداسها بقدمه بقوة لتنتثر شظايا زجاجية وبُقَع بنية على الأرض، فبدأ رايت ييكي بصوت مُرتفع. لم يكن ما حدث له من جراء تهشُم القارورة واضحًا. بدت أطرافه الأربعة سليمة بالنسبة لروبين، ولم يكن هناك دم جديد. لكن رايت سقط على الأرض مُمسِكًا ببطنه كمن طُعِن.

فقالَت ليتي بخوف: «هذا مُريع».

فردت فيكتوار مُتَفَقِّة: «ذو طابع قروسطي واضح».

لم يشهدوا رُسُوبًا من قبل، ولم يستطيعوا رفع أعينهم.

تطلَّب الأمر أحد خريجي السنة الثالثة لسحب رايت كي يقف على قدميه وإلقائه بلا مُبالاة على الدَرَج. كان الجميع يُراقبون المشهد فاغرين أفواههم. بدَّت تلك المراسم المُشوَّهة غير لائقة بمؤسسة تعليمية عصرية، لكن كان هذا لائقًا تمامًا بأوكسفورد، وبابل كامتداد لها، فهما في الأساس من المؤسسات الدينية العتيقة رغم كل الرقي العصري؛ ومن ثم، لم تَزَل الطُقُوس المُكوِّنة للحياة الجامعية قائمة على غموض القرون الوسطى. كانت أوكسفورد تجسيدًا للتَدَيُّن الشكلي، وهو ما يعني اللحم، والدم، والتراب.*

* حتى هذا الطقس الخاص بالامتحان كان أكثر هدوءًا مقارنة بما كان يحدث في نهاية القرن الثامن عشر. في تلك الأيام، كان طلاب السنة الرابعة يخضعون لما كان يُعرف باسم «اختبار الباب»، إذ كان الممتحنون يصطفون لعبور المدخل في الصباح التالي لانتهاء التصحيح كان الناجحون يمرون من الباب دون مشاكل، أما الراسبون فكانوا يعاملون كمتطفلين على البرج ويخضعون لأي عقوبة عنيفة تنزلها الفخاخ. وقد ألغيت



ثم أُغلق الباب، فخلع الأستاذ عباءته، وقفز من فوق الطاولة، ثم استدار مُواجهًا الباقين.

فقال بخُبور: «حسنًا، لقد انتهينا. اختبارات سعيدة. أهنئ الجميع».

وبعد يومين، طلب جريفين من روبين أن يقابله في أحد مطاعم إيفلي والتي كانت على بعد ساعة من الكلية. كان المكان مُعتمًا مملوءًا بالضجيج. استغرق الأمر ثمانية كي يعثر روبين على أخيه الذي كان يجلس مُتَّكِنًا في الخلف. ومهما كان ما انشغل به منذ اللقاء الأخير، كان واضحًا أنه لم يكن يأكل. كانت أمامه فطيرتان باللحم وراح يلتهمهما دون أن يخشى التهام لسانه! فسأله روبين: «ما هذا المكان؟».

أجاب جريفين: «أحيانًا أتناول العشاء هنا، صحيح أن الطعام سيئ، لكنه وَفِير، والأهم هو أن لا أحد من الجامعة يأتي هنا، فمُرتادو المكان شديديو القُرب ممن يُطلق عليهم بلاي فير اسم العوام».

بدا أسوأ مما كان عليه طوال الفصل الدراسي، إذ كان مُنهكًا، غائر الوجنتين، بل صار أقرب إلى هيكل عظمي. وكان يُعطي انطباعًا أنه شخص نجا من تَحطُّم سفينة، أو ارتحل مسافات طويلة وبمشقة عاد حَيًّا. مع ذلك، لم يكن ليُخبر روبين أين كان. وكانت سترته السوداء المُعلَّقة على المقعد كريهة الرائحة.

أشار روبين إلى ذراع جريفين اليسرى وسأله: «هل أنت بخير؟» إذ كانت مربوطة بضمادات. وكانت الجروح أسفلها مفتوحة لأن البُقعة الداكنة على ساعده قد اتسعت بوضوح منذ جلوس روبين.

فنظر جريفين إلى ذراعه وقال: «أوه! لا شيء. سيستغرق هذا الجرح دهرًا حتى يلتئم».

هذه الممارسة باعتبار التشويه لم يكن الجزاء الذي يستحقه الطالب غير الكفاء أكاديميًا. بيد أن الأستاذ بلاي فير كان يمارس الضغط كل عام ليعيدها.



«ولكنه لا يبدو جُرْحًا بسيطًا».

«هراء!».

فضحك روبين وقال: «يبدو سيئًا». لكنه تقوه بما هو أكثر مرارة مما قصد، إذ أردف: «يجب أن تُظَهِّره، سوف يُفيد الكحول».

فرفع جريفين كُمَّهُ فوق الضمادات وقال: «ها! لا، لدينا شخص. سأجعل أحدهم يعتني به لاحقًا. على أية حال، يجب أن تستعد الأسبوع المقبل، فالموقف حرج للغاية، فلا أعرف اليوم ولا الساعة بعد، لكن الأمر جَلَل: فسوف تصل شحنة ضخمة من الفضة من مانيك أند سميث، ونود أن نحصل على طرد أثناء التفرغ. يتطلب الأمر إلهاءً كبيرًا وقد أحتاج لتخزين بعض المتفجرات في غرفتك لتسهيل وصول...».

فرد روبين: «مُتفجرات؟».

فلوّح جريفين بيده وقال: «نسيت أنك ترتعد بسهولة. لا بأس، سأشرح لك كيف تُشغِّلها قبل اليوم المُحدد. ولو أحسنت التخطيط، فلن يُصاب أحد بأذى...».

قال روبين: «لا، لا، إلى هنا وقد انتهيت. هذا عبَث. لن أفعل هذا».

فسأله جريفين بدهشة: «من أين أتى كل هذا؟».

«رأيت للتو أحدهم يُطْرَد...».

فضحك جريفين وقال: «أوه، من كان هذا العام؟».

أجاب روبين: «رايت. لقد هَسَّمُوا القارورة التي تحتوي على دمه وطرده من البرج وأخرجوه خارجًا وأقصوه عن كل شيء وعن الجميع...».

«لكن هذا لن يحدث معك، فأنت شديد الذكاء، أم هل تراني أُعْطَلُّك عن المُراجعة؟».

رد روبين: «فتح الأبواب شيء وتَشْغِيل مُتفجرات شيء آخر».



«ستكون الأمور على ما يُرام، ثِق بي فحسب...».

فرد روبين دون تفكير: «لكنني لا، لا أثق بك، فقد صِرت فوضويًا». كان قلب روبين يَخْفِق بشدة وكان أوان الصمت قد فات، ما اضطره للتفوه بهذا الكلام، إذ لم يعد بإمكانه كَبْح كلامه إلى الأبد.

فقال جريفين بذهول: «فوضوي؟».

«لا تظهر لأسابيع، وحين تفعل تتأخر لنصف الوقت، كما صارت تعليماتك غير واضحة بالمرة ومُراجعة عدة مرات، ما يتطلب مهارة حقيقية لفهم المُراد بها. لقد أُمِنَ برج بابل بمقدار ثلاثة أضعاف، لكنك غير مُهتم بالتفكير في طريقة التعامل مع الأمر. وكذلك، لم تشرح لي بعد ما حدث المرة الفائتة أو الحل البديل للفخاخ. لقد أُصِبت في ذراعي ولم تُبَدِ أي اهتمام بـ...».

فقال جريفين بارهاق: «قلت إنني آسف بشأن هذا ولن يحدث مُجددًا».

«ولماذا عساي أُصَدِّقُك؟».

فمال جريفين إلى الأمام وأجاب: «لأن هذه العملية مهمة، وقد تُغَيِّر كل شيء وتَقْلِب الموازين...».

«إدًا أخبرني كيف، وأخبرني بالمزيد. لن ينفع هذا حين تُخفي عني كل شيء».

بدا جريفين مُحبطًا وأجاب: «اسمع، ألم أخبرك بشأن سان ألديت؟ تعلم أنني لا أستطيع البوح بالمزيد، فما زلت جديدًا ولا تفهم المخاطر...».

«المخاطر؟ أنا من يُخاطر، بل من يَضَع مُستقبله كله على المحك...».

قال جريفين: «هذا مُضحك. لقد ظننت أن جمعية هرمس هي مُستقبلك».

«تعلم ما أقصده».



قال جريفيين باستهزاء: «نعم، هذا واضح جدًا». وهنا بدا شديد الشبه بأبيهما. «تخاف الحرية أيما خوف يا أخي، فهي تُقَدِّدُكَ! لقد تَوَحَّدَتْ جدًا مع المُستعمر، وصرت تَظُنُّ أن أي تهديد له هو تهديد لك. متى ستُدرك أنك لن تُصبح واحدًا منهم؟».

قال روبين: «كفى تهزُّبًا. تتهزَّب دائمًا. حين أتحدث عن مُستقبلي، لا أقصد وظيفة مُريحة، بل بالأحرى أعني البقاء على قيد الحياة. فأخبرني بسبب أهمية هذه المهمة. لماذا الآن؟ لماذا هذه؟».

«يا روبين...».

رد روبين بغضب: «تطلب مني أن أخطر بحياتي من أجل شيء خفي، وأنا أطلب منك أن تُقدِّم لي سببًا فحسب».

صَمَت جريفيين للحظة ثم تَلَقَّت حوله وهو يَدُق الطاولة بأصابعه، ثم قال بصوت خافت: «أفغانستان».

«ماذا يحدث في أفغانستان؟».

«ألا تقرأ الأخبار؟ سيضم البريطانيون أفغانستان إلى دائرة نفوذهم. لكن تُوضَع خطط لضمان عدم حدوث هذا، وهو ما لا يُمكنني أن أُطْلِعَكَ عليه يا أخي...».

لكن روبين راح يضحك ويقول: «أفغانستان؟ حقًا؟».

فسأله جريفيين: «هل هذا مُضحك؟».

قال روبين بدهشة: «أنت كثير الكلام وقليل العمل». كان شيء في عقله قد تحطم، هو إعجابه بجريفيين وأهمية هرمس. «بِجَعْلِكَ هذا تشعر بأهميتك، أليس كذلك؟ تتصرف كمن له سُلطة على العالم؟ رأيت رجالًا يَجْذِبُون روافع بحق، وهم لا يُشبهونك. ليسوا مُضطرين للتهافت على السلطة، ولا يُنظَّمون اجتماعات سخيفة في مُنتصف الليل ولا يضعون إخوتهم الصغار في خطر مُحاولين الحصول عليها بجنون، فهي لديهم بالفعل».



سأل جريفيين بتركيز: «ما معنى هذا؟».

فسأل روبين: «ماذا تفعلون؟ حقًا يا جريفيين، ماذا فعلتم حتى الآن؟ ما زالت الإمبراطورية قائمة، وما زالت بابل موجودة، والشمس تُشرق، وبريطانيا تُنشئ مخابئها في جميع أنحاء العالم، وما زالت الفضة تتدفق إليها دون توقف. لا شيء من هذا يهَمُّ».

«أخبرني بأنك لا تُفكر هكذا حقًا».

وهنا شعر روبين بذنب شديد: «لا، أنا فحسب...» لعله تحدث بقسوة شديدة، لكنه رأى أنه كان مُحَقًّا، فأردف: «لا أرى فحسب ما تُحَقِّقه أي من تلك المهام. وها أنت تطلب مني التنازل عن الكثير في المُقابل. أريد أن أساعدك يا جريفيين، لكنني أريد البقاء على قيد الحياة أيضًا».

ظل جريفيين صامئًا لفترة، وراح روبين يراقبه بقلق مُتزايد وهو يُجهز على آخر قطعة من فطيرة اللحم. ثم وضع شوكتة ومسح فمه بِمَنَشَفَةٍ بدقة.

قال جريفيين بصوت ناعم: «هل تعرف ما الشيء المُضحك حول أفغانستان؟ لن يَغْزوها البريطانيون بقوات إنجليزية، بل بقوات من البنغال وبومباي، وسيجعلون الجنود الهنود يُحاربون الأفغان تمامًا كما جعلوهم يُحاربون ويموتون من أجلهم في إيراوادي؛ لأن القوات الهندية تُفكر بمنطقك نفسه المُثمل في تفضيل خدمة الإمبراطورية والقمع على المُقاومة. وهكذا يَفُوزون يا أخي. يجعلوننا نُحارب بعضنا بعضًا ويُفَرِّقون بيننا».

قال روبين بسرعة: «لن أبتعد إلى الأبد، بل حتى ينتهي هذا العام أو تهدأ الأمور فحسب...».

«عزيزي القارئ، إن كنت تقرأ هذه النسخة على شكل كتاب مطبوع، أو من أحد برامج المكتبات على الهاتف فتأكد من أنك تقرأ نسخة مسروقة وليس لمن طبعها/نشرها الحق في البيع والشراء.. وهذه النسخة بالأصل هي نسخة إلكترونية تم تجهيزها من فيلق مكتبة ضَاد⁽¹⁾

(1) للانضمام إلى القناة الرسمية أدخل اليوزر التالي في محرِّك بحث تيليجرام: @twinkling4



الإلكترونية على تطبيق تيليجرام! فتأكد من أنك تحمّل هذه الرواية وتقرأها من قناتنا الرسمية. نعتذر على المقاطعة، قراءة ممتعة..

رد جريفين: «لا تسيّر الأمور هكذا، فإما أن تكون معنا وإما لا، فلن تنتظر أفغانستان».

فتنهّد روبين بقلق وقال: «سوف أخرج إدا».

فوضع جريفين مَنْشَقَتَه ووقف قائلاً: «حسناً، لا تَنْسُ بأَي كلمة، وإلا سأضطر للحضور لإنهاء الأمور العالقة ولا أريد أن أصبح فوضوياً».

«لن أخبر مخلوقاً أعدك...».

قال جريفين: «لا يهمني وعدك، لكنني أعرف غرفة نومك».

لم يعرف روبين كيف يَرُد على هذا. كان يعلم أن جريفين لم يكن يتحايل. كذلك، لو لم يكن جريفين واثقاً فيه، ما رَجَعَ إلى الكلية حياً. راح كل منهما يَرُقُب الآخر لوقت طويل دون أن يَنْطَقَا بكلمة.

وأخيراً، هز جريفين رأسه وقال: «أنت ضائع يا أخي كالسفينة المُنجرفة بحثاً عن ميناء تَأَلَّفُه. أتفهم ما تُريده فقد سعت إليه أيضاً. لكن، ليس هناك وطن، فقد ضاع». ثم توقف بجوار روبين وهو في طريقه إلى الباب واستقرت أصابعه على كتفه وضغط بقوة أَلَمَت روبين وتابع: «اعلم يا أخي أنك لا ترفع راية أحد، وأنت حرٌّ في اختيار مينائك، ويُمكنك أن تعمل ما هو أكثر من البقاء في مكانك».



الكتاب "الثالث"



الفصل الثالث عشر



تَمَحَّضُ الْجَبَلُ فَوَلَدَ فَأَرَا.

هوراس، فن الشعر، ترجمة إي. سي. ويكام.

أوفى جريفيين بوعده، فلم يترك أي رسالة لروبين. في البداية كان روبين واثقاً بأن جريفيين سيغيب وقتاً ثم يغضب ويتذمر قبل أن يعهد إليه بمهام صغيرة وروتينية. لكن الأسبوع صار شهراً ولم يلبث أن امتد لفصل دراسي. كان متوقعاً أن يشعر جريفيين بالسخط والمرارة - ويترك خطاب وداع يلومه فيه على الأقل. وعلى مدى الأيام الأولى التي تلت انهيار علاقتهما، كان يجفّل كلما نظر إليه غريب في الشارع، إذ كان مقتنعاً بأن جمعية هرمس قد قررت إنهاء الأمور العالقة.

لكن جريفيين قد أقصاه تماماً.

حاول روبين أن يمنع ضميره من أن يؤخزه. فلم تكن هرمس لتصل إلى أي شيء. كانت هناك دائماً معارك يخوضونها، وكانوا لينتظروا ريثما يستعد روبين للانضمام إليهم. كان متأكداً من ذلك. لو لم يظل متحسناً داخل محيط بابل، لم يكن ليعمل أي شيء لهرمس. وقد قال جريفيين نفسه هذا. كانوا بحاجة لأناس داخل بابل. ألم يكن هذا سبباً وجيهاً لبقائه في مكانه؟

في الوقت عينه، كان بصدد اجتياز اختبارات السنة الثالثة. وكانت اختبارات نهاية العام حدثاً رسمياً في أوكسفورد. فحتى الأعوام الأخيرة من القرن المنصرم كانوا يعقدون اختبارات شفوية التي كانت صنوفاً من العذاب المتمثل في المناقشات العلنية المقامة على رؤوس الأشهاد. كان ذلك هو العرف. بيد أنه في بداية ثلاثينيات القرن التاسع عشر، تطلب الحصول على



درجة البكالوريوس اجتياز خمسة اختبارات مكتوبة واختبار شفوي واحد باعتبار أن الإجابات الشفوية كانت صعبة التقييم بشكل موضوعي، علاوة على قسوتها غير المطلوبة. وبحلول عام 1836، لم يعد يُسمح للمشاهدين بحضور الاختبارات الشفوية، ومن ثم، فقد أهل المدينة مصدرًا رائعًا للترفيه بشكل سنوي.

وبدلاً من ذلك، طُلِبَ من زملاء روبيين اجتياز اختبار يستغرق ثلاث ساعات يكتبون فيه مقالًا باللغات التي تخصصوا فيها. كان اختبارًا لمدة ثلاث ساعات في الأصول اللغوية، واختبارًا شفويًا في نظرية الترجمة، واختبارًا في أعمال الفضة. وحال رسوبهم في أي من اختبار اللغة أو النظرية، لم يكونوا ليبَقُوا في بابل، ولو رسبوا في اختبار أعمال الفضة، لم يكونوا ليعملوا في الطابق الثامن مُستقبلاً*.

كان الاختبار الشفوي ليُعقد أمام لجنة مُكونة من ثلاثة أساتذة يترأسها الأستاذ بلاي فير الذي اشتهر بشدته كممتحن وأُشيع أنه كان يجعل طالبين على الأقل يجهشان بالبكاء كل عام. كان ليقول بسخرية: «بابلرداش هي لفظة تشير إلى شراب مُعَيَّب للعقل يُصنع من بقايا المشروبات المُختلفة في آخر الليل. كانوا يخلطون اللبن والسِّدر بأنواع من المُسكرات على أمل ألا يُمانع زبائنهم في احتسائه لتغيب عقولهم فحسب. لكن هذه هي جامعة أوكسفورد، وليست حانة تيرف بعد مُنتصف الليل، ونحن في حاجة لشيء أكثر رَصانة وأقل سطحية من التسكع. هل تُريدون تجربته مُجددًا؟».

كان روبيين يشعر بأن الوقت الذي كان شبيهًا بالأبدية أثناء السنتين الأولى والثانية صار يجري بسرعة فائقة، فلم يعد بإمكانهم ترك المُطالعة بهدف

* رغم سعادة العديد من خريجي بابل بالعمل في مجال الأدب أو المجال القانوني، كان اختبار أعمال الفضة ذا أهمية أكبر للباحثين ذوي الأصول الأجنبية والذين تعذر عليهم العثور على وظائف مرموقة في الأقسام خارج الدور الثامن حيث كانت طلائعهم في اللغات غير الأوروبية أعظم قيمة. وحين رسب جريفيين في اختبار أعمال الفضة، عُرض عليه أن يكمل في المسار القانوني؛ لكن الأستاذ لوفيل كان مقتنعًا بأن الفضة أهم من أي شيء وأن باقي الأقسام كانت مخصصة للحمقى ضيقي الأفق وغير الموهوبين، واضطر جريفيين المسكين الذي نشأ تحت ظل ذلك المتعجرف غير المتسامح للإذعان.



النزهة على النهر مفترضين أن لديهم وقتًا للحاق بها. كانت الاختبارات تُجرى خلال خمسة أسابيع، ثم أربعة، ثم ثلاثة. وحين اقترب الفصل الدراسي تريتني من الانتهاء، كان آخر يوم من المحاضرات لينتهي بظهيرة مُبهجة يتناولون فيها الحلوى والمشروبات ويُمارسون التجديف في شيرويل. لكن حين دق جرس الساعة الرابعة، جَمَعُوا كُتُبَهُمْ وانطلقوا من قاعة دَرَس الأستاذة كرافت إلى إحدى قاعات الدرس في الطابق الخامس حيث كانوا يَعْتَكِفُونَ يومياً على مدى الأيام الثلاثة عشر التالية، وَيَنْكَبُونَ على القواميس وَيُترجمون فقرات وقوائم مفردات حتى يَنتابَهُم الصُّدَاع!

وبدافع الكرم، أو لعلها السادية، وَقَرَّ أعضاء هيئة التدريس في بابل مجموعة قوالب فضة للمُمتَحِنِينَ كي يستخدموها لثُعِينَهُمْ على المُذاكَرة. كانت تلك القوالب منقوشة بأزواج مُتطابقة تقوم على الكلمة الإنجليزية متيكيولوس وسابقتها اللاتينية ميتوس والتي تعني «دُعر أو رُعب». وقد نَسَأَ الاستخدام العصري لكلمة متيكيولوس قبل بضعة عُقُود في فرنسا، وَتَمَثَّلَ تأثير القوالب في إثارة القلق والتوتر كلما ارتكب المُستَخدم خطأ في عمله.

كان رامي مُحجماً عن استخدامها، وراح يَشكو قائلاً: «لا تُخبرك بخطئك، بل تجعلك تُريد أن تتقيأ بلا سبب واضح».

قالت ليتي بتذمر وهي تُعيد له مقاله المُصَحَّح: «حسناً، يمكنك عملها بحذر. لقد ارتكبت اثني عشر خطأ على الأقل في هذه الصفحة، وجُمَلَك شديدة الطول...».

«ليست طويلة، بل بليغة ورَصينة كجُمَل شيشرون».

«لا يجوز أن تُبَرِّر كتابتك الرديئة على أساس أنها شبيهة بكتابات شيشرون».

هز رامي يده باستسلام وقال: «لا بأس يا ليتي. لقد أعددت هذا المقال في عشر دقائق فحسب».

«لا يتعلق الأمر بالسرعة، بل بالدقة...».



قال رامى: «كلما أكملت عدة مقالات، اتَّسع مجال الموضوعات المُحتمل ورودها في الأسئلة. وهذا ما يجب أن نستعد له. لا أريد أن أُصاب بحالة دُهول حين أجد الورق أمامي».

كان هذا القلق مشروعاً، إذ كان للتوتر قدرة فريدة على مَحو ما في عقول الطلبة من معلومات درسوها على مدى سنوات. وأثناء اختبارات السنة الرابعة، أُشيع أن أحد الطلاب أُصيب بجنون الشك على نحو جعله يُعلن أنه لن يُنهي اختبار اللغة الفرنسية فحسب بل إنه كَذَب بشأن طلاقته في الفرنسية من الأساس (كانت لغته الأم في واقع الأمر)! ظلوا جميعاً مُحصَّنين ضد هذا النوع من الحماقة حتى جاء يوم أجهشت فيه ليتي بالبكاء وأعلنت أنها لا تعرف أي كلمة باللغة الألمانية، ولا كلمة واحدة، وأنها كانت مُخادعة، وأن مسيرتها في بابل كانت قائمة على الزيف. ولم يفهم أي منهم هذه الفورة حتى وقت لاحق إذ كانت قد أَلقتها بالألمانية!

ولم يكن فَشل الذاكرة العَرَض الوحيد، فأبدًا لم يحدث أن جعل روبين خوفه على درجاته يمرض جِسْمانيًا على هذا النحو، إذ بدأ الأمر بإصابته بصُداع مُزعج مُستمر، ثم رغبة قوية في اللَّيء كلما وقف أو تحرك. وظل يتعرض لنوبات من التشنُّج المُفاجئ، إذ كانت يده تهتز بعُنف، ما جعله يجد صعوبة في الإمساك بقلمه. وذات مرة، أثناء عمل ورقة بحثية تدريبية، شعر بعُتامة على عينيه، ولم يستطع التفكير ولا حتى تذكر كلمة واحدة، بل لم يستطع أن يرى أي شيء! وكان الأمر ليستغرق عشر دقائق حتى يَتعافى. لم يستطع إجبار نفسه على الأكل. كما كان مُنهَكًا طوال الوقت. بيد أنه لم يستطع النوم من جراء فائض الطاقة الناجمة عن التوتر.

ومثل جميع طلاب أكسفورد الكبار، وجد نفسه يَفقد صَوابه. وبفعل عزلته المُستمرة، صار فهمه الضعيف للواقع أكثر تشظيًّا. وتداخلت ساعات المراجعة مع فهمه للعلامات والرموز وإيمانه بما كان حقيقيًّا وما لم يكن. كان مُلخَّص البحث حقيقيًّا ومُهمًّا، أما الأمور اليومية العادية، مثل العَصيدة والبيض، فصارت موضع شك، كما تحول الحوار اليومي إلى مُهمة شاقة، والدردشة إلى رُعب، وفقد سيطرته على معنى أبسط أشكال التحية. حين



كان الحَمَّال يسأله ما إذا كان قضى يومًا جيدًا، كان يقف مُسْتَمِرًّا أبكم لنصف دقيقة وهو غير قادر على فهم معنى «جيد» أو بالأحرى «يوم».

وحين تطرَّق روبين لهذا الموضوع، رد رامي بِمَرَح: «أوه! يحدث الشيء نفسه معي. إنه مُريع! لم يُعَد بإمكانني إقامة حوارات عادية مُطلقًا، بل إنني أظل أتساءل عن المعنى الحقيقي للكلمات».

قالت فيكتوار: «صرت مُسْتَنَّةَ الذهن. لا يَنفَكُّ العالم يختفي أمامي، وكل ما أَسْتَطِيع إدراكه هو قوائم المُفردات».

ردت ليتي: «إنها أوراق الشاي. تبدو لي كالرموز الغامضة وأجد نفسي أحاول تفسيرها ذات يوم، بل إنني بدأت أنقلها على الورق وكل شيء».

شعر روبين ببعض الارتياح حين عرف أنه ليس الوحيد الذي يرى أشياء، إذ كانت الرؤى هي أكثر ما يزعجه. لقد بدأ يتخيل أنه يرى أشخاصًا. وذات مرة، أثناء بحثه في أرفف الكتب في ثورنتون عن مُختارات شعرية على قائمة مُطالعة اللغة اللاتينية، لَمَح روبين ما ظَنَّهُ شخصًا مألوفًا بجوار الباب، فاقترَب. لم يكن خداع نظر، إذ رأى أنطوني ريبين يدفع لتسَلُّم طرد ملفوف وهو في كامل صحته وعافيته!

فقال روبين دون تفكير: «أنطوني...».

نظر أنطوني ورأى روبين، فاتسعت عيناه. فحدق روبين إليه وهو مُرتبك وسعيد في ذات الوقت، لكن أنطوني ألقى بضع عُملات لبائع الكُتب وخرج مُسرِّعًا. وقبل أن يَصِل روبين إلى ماجدلين ستريت، كان أنطوني قد اختفى عن الأنظار. راح روبين ينظر حوله لعدة ثوان، ثم عاد إلى متجر الكُتب مُتَسَائِلًا ما إذا كان واردًا أن يَخلُط بين أنطوني وشخص غريب. لكن لم يكن هناك العديد من الشبان ذوي البشرة السوداء في أوكسفورد، وهو ما كان يعني أ أنه قد كُذِبَ عليه بشأن موت أنطوني - وأن جميع أساتذة بابل قد تَعَمَّدُوا عمل هذا المقلب - أو لعلَّه تخيل الأمر برمته. وبالنظر لحالته الراهنة، وَجَدَ أن الأمر الأخير هو الأكثر واقعية.



كان اختبار أعمال الفضة هو الأكثر إثارة لمخاوفهم. وأثناء آخر أسبوع في الفصل الدراسي ترينيتي، أخبروا بأنهم يجب أن يبتكروا زوجًا مُتطابقًا فريدًا وَيَنْقُشُونَهُ أمام أحد المُراقبين.

وفي السنة الرابعة، وبعد انتهائهم من التدريبات، كانوا ليتعلموا التقنيات المناسبة لتصميم الأزواج المُتطابقة، ونَقَشُهَا، وتجربة شِدَّتْهَا ومُدَّة تأثيرها، علاوة على تعقيدات روابط الرنين والتجلي اللفظي. ولكن في الوقت الحالي، وبِالاستعانة بمبادئ عمل الأزواج المُتطابقة، كان عليهم الوصول إلى أي تأثير فحسب. لم يكونوا مُضطرين للوصول للشكل المثالي، إذ لم تكن المُحاولات الأولى هكذا. لكن كان عليهم عمل شيء. كان يجب أن يُثبتوا أنهم يملكون تلك المادة الغامضة، تلك الحاسة الفطرية لفهم المعنى والتي كانت تجعل المُترجم عامل فضة.

كان طلب مُساعدة الخريجين محظورًا في تلك المرحلة، لكن كاثيري أونيل اللطيفة سرَّبت خفية نشرة صفراء باهتة لروبين حول أساسيات بحث الأزواج المُتطابقة ذات ظهيرة حين وجدته مذهولًا مذعورًا في المكتبة.

فقال بتعاطف: «إنه في الأرفف المفتوحة، وقد استخدمناه جميعًا. اقرأه بالكامل وستصبح الأمور على ما يُرام».

كان المنشور قديمًا نوعًا ما، إذ كان قد كُتب عام 1798 وبه العديد من المفردات المكتوبة بطريقة قديمة، لكنه كان يحوي عددًا من الإرشادات البسيطة المُوجزة.

كان أولها الابتعاد عن الدين. كان يعرفون هذا بالفعل من عشرات من قصص الرعب. كانت علوم الدين هي أول ما جعل أوكسفورد تهتم باللغات الشرقية، بل وتُعزى دراسة العبرية، والعربية، والسريانية للرغبة في ترجمة النصوص الدينية. لكن اتضح أن الكلمات المأخوذة من النصوص الدينية كانت مُتقلبة وقاسية على الفضة. كان هناك مكتب في الطابق الثامن لم يجرؤ



أي شخص على الاقتراب منه، إذ كان يُطلق دخانًا بين الحين والآخر! وأُشيع أن أحد الخريجين قد شَرَعَ في ترجمة اسم الله على الفضة!

كان الدرس الثاني في المنشور أعظم فائدة، إذ كان يدور حول تركيز البحث على الكلمات ذات الأصل الواحد. كانت الكلمات ذات الأصل الواحد في اللغات المختلفة لها سلفٌ مشترك ومعانٍ مُشتركة كذلك* وكانت أفضل أدلةً للأزواج المُتطابقة الناجحة، إذ كانت على فروع مُتقاربة في شجرة الأصول اللغوية. لكن صعوبة الكلمات ذات الأصل الواحد تَمَثَّلَت في التقارب الشديد لمعانيها، ما قلَّلَ التشويش في الترجمة، ومن ثم، قلَّلَ تأثير القوالب. وعلى أية حال، لم يكن هناك فارق ملحوظ بين كلمتي شوكوليت في الإنجليزية والإسبانية.

يُضاف إلى هذا أنه في البحث عن الكلمات ذات الأصل الواحد، كان على الشخص توخي الحذر من الكلمات الزائفة التشابه والتي بَدَت أحادية الأصل؛ لكنها كانت ذات أصول ومعانٍ مُختلفة. فمثلاً، لم تكن كلمة هاف الإنجليزية مُشتقة من كلمة هابيري اللاتينية (أي يمسك أو يملك)، بل من اللاتينية كابيري (أي يبحث). ولم تُعَن كلمة كوجنيتو الإيطالية «كوجنيت» كما يرجو المرء، بل بالأحرى «زوج الأخت»!

كانت الكلمات الزائفة قريبة التشابه مخادعة، حيث كانت معانيها تَنَرَّابُط كذلك. كانت كلمة فارانج الفارسية، والتي كانت تُشير إلى الأوروبيين، ذات أصل واحد مع الإنجليزية فورين. لكن فارانج اشتُقَّت من الإشارة إلى الفرانكات وتحوَّرت لتدل على أهل غرب أوروبا. ومن ناحية أخرى، كانت الإنجليزية فورين مُشتقة من فوريس اللاتينية وتُعني «أبواب»، ومن ثم كان الربط بين فارانج وفورين لا يُنتِج شيئاً.**

* على سبيل المثال، كانت كلمتا نايت (الليل) بالإنجليزية ونوتشي بالإسبانية مُشتقتين من كلمة نوكتس اللاتينية.

** تعد الأصول اللغوية الشعبية فخاً مخادعاً مثل الأصدقاء المزيفين، فهي أصول لغوية خاطئة أسندتها المعتقد الشعبي لكلمات ذات أصول مختلفة، فعلى سبيل المثال، نجد أن كلمة هانديرون تعني أداة معدنية تمسك بها



وَقَدَّمَ الدرس الثالث في المنشور تقنية تُدعى التوصيل المُتسلسل، وهو ما جعلهم يستحضرون بشكل غير واضح عَرَض الأستاذ بلاي فير. فإذا كانت الكلمات في الزوج المُتطابق الثنائي قد تطورت ونأت في المعنى، ما يجعل الترجمة غير مقبولة، يستطيع المرء إضافة لغة ثانية أو ثالثة كوسيط. فإذا نُقِشت كل تلك الكلمات بالترتيب الزمني لتطورها قد تُوجّه تشويش المعنى على نحو أكثر دقة في الاتجاه المنشود. وكانت هناك تقنية أخرى ذات صلة، ألا وهي: الجذر اللغوي الثاني، أي مصدر يُحتمل تدخله في تطور المعنى. فمثلاً، كلمة فيرميه الفرنسية (ومعناها إغلاق) كان أساسها هو فيراماري اللاتينية (أي تقوية)، بيد أنها تأثرت أيضاً باللاتينية فيروم والتي تعني (حديد). ومن ثم، يمكن أن نَفترض أن فيرميه، وفيراماري، وفيروم تُعني قفلاً غير قابل للكسر.

بَدَتْ كل تلك التقنيات جيدة نظرياً، وكانت أصعب من أن تُنسخ. أما الجانب الصعب، فتمثل في ابتكار زوج مُتطابق مُناسب في المقام الأول. ولكي يستوحوا شيئاً، استخدموا نسخة من السجل الدائم الذي يُعد بمثابة قائمة شاملة للأزواج المُتطابقة المُستخدمة في جميع أنحاء الإمبراطورية في ذلك العام، وتصفحوه سريعاً لاستلهم الأفكار.

فقال ليتي مُشيرة إلى السطر الأول في الصفحة الأولى: «انظروا، لقد عرفت كيف يجعلون عربات الترام غير ذات السائق تسير».

فسأل رامي: «أي عربات ترام؟».

ردت ليتي: «ألم تروها وهي تجري في أنحاء لندن؟ إنها تتحرك من تلقاء نفسها دون أن يقودها أحد».

قال روبين: «لطالما ظننت أن هناك آلية داخلية مثل المُحرك...».

ألواح الخشب في المدفأة. وقد ينزع البعض للافتراض أن أصلها اللغوي يشمل كلمتي هاند وأيرون منفصلتين. لكن هانديرون مشتقة في الواقع من الكلمة الفرنسية أنديه والتي أصبحت أندابير بالإنجليزية.



قالت ليتي: «يَنْطَبِقُ هذا على الترجمات الأكبر حجمًا، لكن الترجمات التي تنقل البضائع ليست كبيرة. ألم تلاحظوا أنها بَدَتْ وكأنها تَجُرُّ نفسها؟». ثم دَقَّت بإصبعها الصفحة بحماس وأردفت: «هناك قوالب في القضبان، وكلمة تراك تتصل بـ تريكين من اللغة الهولندية الوسطى وتُعني جذب، لا سيما لو تَحَقَّقْنَا من الوسيط الفرنسي. وهكذا يُصبح لدينا كلمتان تُعنيان ما تُوحى به كلمة تراك، لكن واحدة منهما فحسب تَتَضَمَّنُ القوة المُحرَّكة، ومن ثم، تَجْذِبُ القضبان العربات إلى الأمام بنفسها. يا للذكاء!«.

قال رامى: «أوه! جيد. كل ما علينا هو تطوير البنية التحتية لوسائل النقل أثناء اختبار اتنا كي تستقيم الأمور».

كان ليقضوا ساعات في قراءة السجل المملوء بابتكارات ذكية ومثيرة للاهتمام، وقد اكتشف روبين أنَّ الأستاذ لوفيل قد ابتكر الكثير منها. وتمثلت أحد الأزواج العبقريّة في ترجمة الحرف الصيني (古) والذي يعني «كبير السن» أو «عجوز» والإنجليزية «أولد». كان الحرف الصيني جو يوحى بالمتانة والقوة، وكان موجودًا في الحرف جاو (固) الذي يعني الشدة أو الصلابة. وقد حمى ربط مفهومَي المتانة والقَدَم الماكينات من الصدأ بمرور الوقت، بل كلما استخدمت، صارت أكثر موثوقية.

سأل رامى وهو يقلب أحدث الإدخالات بالقرب من الخلف: «مَنْ إيفيلين بروك؟».

سأل روبين: «إيفيلين بروك؟ لماذا يبدو هذا الاسم مألوفاً؟».

أجاب رامى مشيرًا للصفحة: «أيا كانت، فهي عبقريّة. انظر، لقد ابتكرت أكثر من اثني عشر زوجًا مُتطابقًا بمفردها عام 1833، في حين لم يبتكر معظم الخريجين أكثر من خمسة».

قالت ليتي: «مهلاً، هل تقصدا إيفي؟».

فسأل رامى بتركيز: «إيفي؟».



أجابت ليتي: «المكتب. هل تتذكران؟ حين غضب مني بلاي فير لأنني جلست في المقعد الخطأ؟ قال إنه مقعد إيفي».

قالت فيكتوار: «لعلها مهووسة بترتيب أشيائها ولا تحب أن يعيب الناس بأغراضها».

ردت ليتي: «لكن أحداً لم يُحرِّك أيّاً من أغراضها منذ ذلك الصباح. لقد لاحظت، وقد مرّت أشهر لم تزل فيها تلك الكتب والأقلام في أماكنها حيث وضعتها. فإمّا أن تكون دقيقة في أغراضها بشكل مُرعب وإمّا أنها لم تُعد للمكتب على الإطلاق».

وأنشاء تقليبيهم في السجل، تكونت لديهم نظرية أخرى أكثر وضوحاً. كانت إيفي غزيرة الإنتاج بين الأعوام 1833 و 1834، ولكن بحلول عام 1835، تلاشت أبحاثها تماماً، ولم يكن لها ولا ابتكار واحد في السنوات الخمس الماضية. كما لم يُقابلوا أيّ فتاة تُدعى إيفيلين بروك في أيّ من حفلات أو عشاءات القسم، ولم تُلق أيّ محاضرة ولا أي حلقة دراسية. وأيّاً كانت إيفيلين بروك بذكائها هذا، فكان واضحاً أنها لم تُعد موجودة في بابل.

وهنا قالت فيكتوار: «مهلاً، ربما تخرجت عام 1833، ومن ثمّ، يجعلها هذا ضمن دفعة ستيرلنج جونز وأنطوني».

وجريفين. أدرك روبين هذا، لكنه لم يبح به.

قالت ليتي: «لعلها فُقدت في البحر أيضاً».

فعلّق رامي: «إنها دفعة ملعونة».

وفجأة بدت الغرفة شديدة البرودة.

فاقتربت فيكتوار: «ماذا لو أكملنا المراجعة؟». ولم يخالفها أحد.



وفي الساعات المتأخرة من الليل، حين كانوا يُحدِّقون إلى كتبهم لوقت طويل على نحو جعلهم يعجزون عن التفكير بشكل سليم، ابتكروا لعبة للتفكير في الأزواج المتطابقة غير المفهومة علَّها تساعدهم على النجاح.

وذات ليلة، فاز روبين بابتكار جيكسين. وقد قال لهم موضِّحًا: «في كانتون: تُرسل الأمهات أبناءهنَّ لاختبارات الخدمة المدنية الإمبراطورية ببطور من قلوب الدجاج» ثم راح يشرح: «لأنَّ قلوب الدجاج، جيكسين، تبدو مُشابهة لـ جيكسينج والتي تعني ذاكرة».*

فسأل رامي باستهزاء: «ما جدوى هذا؟ هل ستنتشر قطعًا من الدجاج مملوءة بالدم على ورقتك؟».

فقالت فيكتوار: «أو لعلَّكَ تجعل قلبك بحجم قلب الدجاجة. تخيلوا أن تكون قلوبكم بحجمها الطبيعي، وفجأةً تصير أصغر من قمع الخياط، ما يجعله لا يتمكن من ضخِّ الدماء التي تُبقيكم على قيد الحياة، ومن ثمَّ تنهارون...».

قال روبين: «رباه يا فيكتوار! هذا مُخيف».

قالت ليتي: «لا، هذا سهل. إنه تمثيل رمزيٍّ للتضحية، فالتجارة هي الأساس، قدماء الدجاج -لا قلوب الدجاج- هي ما يدعم الذاكرة، ومن ثم، كلٌّ ما عليكم هو ذبح الدجاج للمُمتحنين كي تنجحوا!».

وهنا راحوا يحدِّقون بعضهم إلى بعض. كان الوقت قد تأخر جدًّا، ولم يكن أحد منهم قد أخذ قسطًا من النوم. كانوا في ذلك الوقت يُعانون جنونًا غريبًا، إذ كانوا في غاية الخوف والإصرار. كان ذلك الجنون يجعل الدراسة تُشبه في خطورتها ميدان القتال.

لو كانت ليتي قد اقترحت سرقة حظيرة دجاج، ما اعترض أي منهم.



ثم جاء الأسبوع الموعود. كانوا مُستعدين قدر المستطاع. كانوا قد وُعدوا باختبار عادل ما داموا قد أدّوا مهامهم. بالطبع، كانوا مذعورين، لكنهم كانوا مُطمئنين بشكل غريب. وعلى كلّ حال، كانت تلك الاختبارات هي ما تدربوا عليه على مدى العامين ونصف العام السابقين، لا أكثر ولا أقل.

كان اختبار الأستاذ شاكرافارتي هو الأسهل، وطلب من روبين أن يترجم فقرة من خمسمائة حرف باللغة الصينية الكلاسيكية أعدّها الأستاذ شاكرافارتي. كانت قصة رمزية رائعة حول رجل تقّي فقد نعجة في حقل توت، لكنه وجد غيرها. وبعد انتهاء الاختبار، وجد روبين أنه أخطأ في ترجمة يانشي التي تعني «التاريخ الرومانسي» بكلمة أقلّ وضوحاً وهي «التاريخ المتنوّع»^{*} ما جعل الترجمة تضيع جوهر الفقرة نوعاً ما، لكنه كان يرجو أنّ اللبس بين مُفردتي «رومانسي» و «متنوّع» في الإنجليزية سيكفي لستر الأمور نوعاً ما.

وكانت الأستاذة كرافت قد صاغت اختباراً شديد الصعوبة حول الأدوار المتغيّرة للمترجمين في كتابات شيشرون. لم يكونوا مُجرد مترجمين، بل كانوا يلعبون عدة أدوار، إذ كانوا سماسرة، ووسطاء، وراشدين بين الحين والآخر. وُجّهت دفعة روبين بتوضيح استخدام اللغة في هذا السياق، وكتب روبين بحثاً من ثماني صفحات حول حيادية قيمة مُصطلح إنتربريتس بالنسبة لشيشرون مُقارنة بمُصطلح هيرمنيوس وفقاً لهيرودوت، وكان ثيميستوكليس قد قتل أحدهما لاستخدامه اليونانية نيابة عن الفرس. وقد خلّص لبعض التعليقات حول اللياقة والالتزام اللغوي. وفي واقع الأمر، لم يكن مُطمئناً لأدائه حين خرج من غرفة الاختبار، وقد استحضر ذهنه الخدعة الغريبة المُمثلة في التوقف عن فهم حُججه حالما ينتهي من الجملة الأخيرة، لكنّ السطور بدت مكتوبة بخطّ واضح، فأدرك أنه أحسن الإجابة.

^{*} خطأ مقبول، فحروف كلمة يانشي هي 艶史، وتعني شي 史 «التاريخ»، وقد تعني يان 艶 «متنوّع»، و«رومانسي» على حدّ سواء.



أما ورقة الأستاذ لوفيل، فكانت تحوي سؤالين. كان الأول تحدياً تمثل في ترجمة ثلاث صفحات من أنشودة أطفال سخيفة تقوم على الحروف الأبجدية («أ» هي ثمرة أناناس التهمت البقرة) إلى لغة من اختيارهم. قضى روبين خمس عشرة دقيقة يُحاول توفيق الحروف الصينية المرتبة وفقاً للتنقيح بحروف لاتينية قبل أن يستسلم ويلجأ للطريقة السهلة المُمثلة في عملها باللغة اللاتينية. واحتوت الصفحة الثانية على قصة رمزية تُحكى بالهيروغليفية وترجمتها الإنجليزية مع الإرشادات للتعرف على أكمل وجه، دون معرفة سابقة للغة المصدر، على الصعوبات الكامنة في توصيلها في اللغة المُستهدفة. وهنا أثبتت مهارة روبين في فهم الطبيعة التصويرية للحروف الصينية كفاءتها، فابتكر شيئاً ذا قوة في تمثيل الكلمات والأفكار بتلميحات بصرية دقيقة ونجح في كتابتها قبل انتهاء الوقت.

لم يكن الاختبار الشفويّ بالسوء المُتَوَقَّع، بيدَ أنَّ الأستاذ بلاي فير اتَّسم بالغلظة المعهودة. لكنه كان من هواة العروض الاستعراضية. وسرعان ما تبدد توتر روبين حين أدرك أنَّ جُلَّ ما أظهره بلاي فير من استعلاء وغضب كان مجرد تمثيل مسرحي. قال الأستاذ بلاي فير: «في عام 1803، كتب شليغل أنه سرعان ما يأتي الوقت الذي تتحدث فيه ألمانيا لغة العالم المُتَحَضِّر. ناقش». لحسن الحظ، كان روبين قد قرأ هذا المقال لشليغل مترجماً وعرف أنَّ شليغل كان يُشير إلى المرونة الفريدة والمعقدة للغة الألمانية، فراح روبين يقدِّم الأدلة على أن ذلك تقليل من شأن باقي اللغات الغربية مثل الإنجليزية (والتي وصمها شليغل في المقال نفسه بـ «الإيجاز الأحاديّ المقطع») والفرنسية. كما كان ذلك الموقف -كما تذكر روبين والوقت يُداهمه- هو الحجة الراسخة لألمانيّ يعرف أن الإمبراطورية الجرمانية لن تستطيع المقاومة لتزايد قوة الفرنسيين ويسعى لطلب الملاذ في الهيمنة الثقافية والفكرية. لم تكن الإجابة ذكية ولا مُبتكرة، لكنها كانت صحيحة، فما كان من الأستاذ بلاي فير إلَّا أن قدَّم ملاحظات على بعض الأمور الفنية ثم صرف روبين من الغرفة.



وكان من المقرر أن يتقدموا لاختبار أعمال الفضة في آخر يوم، وقد وُجِّهوا للصعود إلى الطابق الثامن على دفعات تفصلها ثلاثون دقيقة، بدأت بليتني عند الظهر، ثم روبين، ورامي بعده، وفيكتوار في الساعة الواحدة والنصف.

وفي الساعة الثانية عشرة والنصف، صعد روبين طوابق البرج السبعة ووقف مُنتظِرًا خارج الغرفة غير ذات النوافذ في الجهة الخلفية للجناح الجنوبي. كان يشعر بجفاف شديد في الفم. كانت ظهيرة حارة من شهر مايو. ومع ذلك، لم يستطع التحكم في ركبتيه المرتجفتين.

راح يقول لنفسه إن الأمر بسيط، فما هما إلا كلمتان. كان عليه أن يكتب كلمتين بسيطتين وينتهي الأمر، ولم يكن هناك داعٍ للذعر.

لكن الخوف كان أمرًا بديهيًا بالطبع، إذ شطح بخياله في آلاف الأشياء التي قد تسير على نحو خاطئ، كأن يسقط منه القالب على الأرض، أو تباعته انتكاسة في الذاكرة حين يدلف من الباب، أو قد ينسى ضربة فُرْشاة أو يخطئ في تهجّي الإنجليزية رغم تدريبه على هذا وذاك آلاف المرات. وقد لا ينجح الأمر ولا يفلح في أخذ مركز في الدور الثامن، أو قد ينتهي كل شيء بسرعة.

انفتح الباب وخرجت ليتي شاحبة ومُرتجفة. أراد روبين أن يسألها كيف سارت الأمور، لكنها مرّت بجواره وأسرعت بالنزول.

مدّ الأستاذ شاكر افارتي رأسه من الباب وقال: «ادخل يا روبين».

فتنفس روبين بعمق وأخذ خطوة إلى الأمام.

كانت الغرفة قد أُخْلِيت من المقاعد، والكتب، والأرفف، بل وأي شيء ذي قيمة أو قابل للكسر، ليبقى مكتب واحد في الزاوية، وكان ذلك خاليًا إلا من قالب فضة واحد وإزميل نقش.

وضع الأستاذ شاكر افارتي يديه وراء ظهره وقال: «حسنًا يا روبين، ماذا ستعرض عليّ؟».



كانت أسنان روبين تَصطَلِّكْ بَعْنَف، ما جعله يتحدث بصعوبة. لم يكن يعرف أنه سيخاف لدرجة الشلل. كانت للاختبارات المكتوبة نصيب عادل من الرَّجَفَات والغثيان، ولكن حين كان يَصِلُ للاختبار، ويلمس قلمه الرق، كان يشعر بأن الأمر روتيني. لم يكن أكثر ولا أقل من تراكم لكل ما تدرب عليه على مدى السنوات الثلاث الماضية. أما الأمر فكان مختلفًا تمامًا في هذا الاختبار. لم يكن يعرف ما يجب أن يتوقعه.

فقال الأستاذ شاكرافارتي بلطف: «لا عليك يا روبين. سوف تعمل. يجب أن تركز فحسب، فليس هذا شيئًا لن تفعله مئات المرات في مسارك المهني». تنفس روبين بعمق شَهيقًا وزفيرًا، وقال: «إنه شيء أساسي، أعني أنه فوضوي بعض الشيء من الناحية النظرية والمجازية، ولا أظن أنه سيعمل...».

«حسنًا، لَمْ لا نبدأ بالجانب النظري ثم نرى؟».

فقال روبين دون تفكير: «منجباي. كلمة ماندرين. تعني - تعني «أن تفهم»، أليس كذلك؟ لكن الحروف مُتخمة بالصور البلاغية. مينج تعني نور، ولمعان، ووضوح. باي تعني أبيض، أي اللون الأبيض. ومن ثم، لا تعني أن تفهم أو أن تُدرك، بل أن تَحْمِلَ مُكوِّنًا بصريًا يُساعد على الوضوح وتبسيط الضوء على شيء». ثم توقف كي ينتحج. لم يعد مُتَوَثِّرًا، ذلك أن الزوج المُتطابق الذي أعدّه بدا أفضل حين تحدث عنه بصوت مرتفع، بل بدا شبه مفهوم، فتابع: «إدًا، لست واثقًا تمامًا في هذا الجزء؛ لأنني لا أعرف بما يرتبط الضوء. لكن، لعلها طريقة لتوضيح الأمور أو كشفها على ما أظن».

ابتسم له الأستاذ شاكرافارتي ابتسامة تشجيع، وقال: «حسنًا، لَمْ لا نرى تأثيره؟».

أمسك روبين القالب بيدين مُرتجفتين، ووضع سن القلم على السطح الأملس الخالي. تطلب الأمر قدرًا كبيرًا من القوة لجعل القلم يَنْقَش خطأ



واضحًا. كان هذا مُريحًا نوعًا ما، وجعله يركز على الحفاظ على ثبات الضغط بدلًا من آلاف الأشياء الأخرى التي قد يُخطئ في عملها. ثم انتهى من الكتابة.

وهنا قال رافعًا القلب حتى يراه الأستاذ شاكر افارتي: 明白 «مينجباي» ثم قلبه وقال: «يفهم».

وهنا ارتجف شيء في الفضة، شيء حي وقوي وجريء كهبة ريح أو انكسار موجة، وفي جزء من الثانية، شعر روبين بمصدر القوة؛ ذلك المكان السامي الغامض الذي يُخلَق فيه المعنى؛ ذلك المكان الذي تصل إليه الكلمات دون أن تَبْلُغَه، ذلك المكان الذي لا يمكن استحضاره على نحو غير مثالي. بيد أنه يمكن استشعار وجوده. وهنا خرجت من القالب دائرة ضوء دافئة لامعة وكُبرت حتى احتوتهما. لم يحدد روبين أي نوع من الفهم يعنيه هذا الضوء، إذ لم يكن قد خطَّط لهذا. لكنه في تلك اللحظة، عرف جيدًا تمامًا، ومن تعبير وجه الأستاذ شاكر افارتي، وَجَدَ أن مُشرفه قد عرف أيضًا. ثم وضع القالب، فتوقف عن اللمعان، ورَقَدَ مُطفأ بينهما وكأنه قطعة عادية من المعدن!

«جيد جدًا. هَلَا استدعيت السيد ميرزا؟». كان هذا كل ما قاله الأستاذ شاكر افارتي.

كانت ليّتي تنتظره خارج البرج. كانت قد هدأت بشكل ملحوظ وعاد اللون الطبيعي لوجنتيها. لم تعد عيناها مُتسعيتين رُعبًا. لا بد أنها هرعت إلى المخبز في الشارع، إذ كانت تحمل كيسًا مُجْعَدًا.

وحين اقترب سألتها: «بسكويت بالليمون؟».

كانت قد لاحظت أنه يتصور جوًّا. فقال: «نعم لو سمحت. شكرًا».

فأعطته الكيس وسألتها: «كيف سارت الأمور؟».



أجاب قائلاً: «على ما يُرام. لم يكن التأثير الذي أردته بالتحديد، لكنه كان شيئاً». وهنا تردد روبين وهو مُوشِك على قضم قطعة البسكويت، إذ لم يرد الاحتفال ولا التوضيح، فلم يكن يعرف ما إذا كانت قد رسبت.

لكنها ابتسمت له وقالت: «وأنا أيضاً، أردت أن يحدث شيء فحدث، وكان غاية في الروعة يا روبين...».

رد قائلاً: «وكأننا أعدنا كتابة العالم».

«وكأنه يد قوية ترسم. إنه شيء لم أره من قبل».

راح الاثنان يبتسمان لبعضهما، بينما كان روبين يتذوق طعم البسكويت وهو يذوب في فمه، وعَرَف سبب كونه المُفضَّل لدى ليتي. كان غنياً بالزبد على نحو جعله يذوب فوراً، كما انتشرت حلاوة الليمون فوق لسانه كالعسل. لقد نجحاً. كان كل شيء على ما يرام. يستطيع العالم مواصلة الدوران، فلم يعد شيء آخر مُهمّاً، فقد نجحاً!

دق جرس الساعة الواحدة وانفتحت الأبواب مجدداً، ليخرج رامي مُبتسماً ابتسامة عريضة.

قال رامي: «لقد نجحتمَا، أليس كذلك؟»، ثم التقط قطعة من البسكويت.

فسأله روبين: «كيف عرفت؟».

فأجاب وهو يَمضغ: «لأن ليتي تَأْكُل، فلو كان أحكما قد رسب، لراحت تُكسِّر هذا البسكويت مُحوّلة إياه إلى فُتات».

استغرقت فيكتوار أطول وقت، فلم تخرج قبل مضي ساعة وهي عابسة ومُنزَّعة. فانطلق رامي ووقف بجوارها ووضع إحدى ذراعيه على كتفها وسألها: «ماذا حدث؟ هل أنت بخير؟».

أجابت فيكتوار: «أعطيتهم زوجاً مُتطابقاً من الفرنسية والكريول، ونجح، بل عمل كالسحر. لكن الأستاذ لوبلان قال إنهم لا يستطيعون وضعه في السجل؛ لأنه لا يعرف كيف يمكن لزوج متطابق كريول أن ينفع أي شخص



لا يتحدث الكريول، ثم قال إنها ستكون ذات نفع عظيم لشعب هايتي، ثم ضحك».

فربتت ليتي كتفها وقالت: «أوه! هل سمحوا لك بتجربة زوج جديد؟».

كانت قد طرحت السؤال الخطأ، إذ رأى روبين لمعة غضب في عيني فيكتور، لكنها سرعان ما تبددت، إذ تنهدت وأومأت وقالت: «نعم، لم يعمل الزوج الإنجليزي-الفرنسي على نحو جيد تمامًا، وكنتُ مُنزعجة بعض الشيء، ومن ثمَّ، أظن أن خطي كان سيئًا، لكن كان لها بعض التأثير».

صدر عن ليتي صوت مُتعاطف وقالت: «أنا متأكدة أنك ستنجحين».

فالتقطت فيكتور قطعة بسكويت وقالت: «أوه! بل نجحت».

«كيف عرفت؟».

فحدجتها فيكتور بنظرة مُتَحَيِّرة وقالت: «سألت الأستاذ لوبلان وقال إنني نجحت، بل إن كلنا قد نجحنا. ألم يعرف أي منكم؟».

وهنا حدقوا إليها بدهشة للحظة ثم انفجروا ضاحكين.

راح روبين يفكر فيما قد يحدث لو استطاع المرء أن يحفر كل ذكرياته في الفضة كي تتجلى مرارًا وتكرارًا على مر السنين، لا كنتشويه قاس للصور، بل كتصفيّة نقيّة وغير مُعتادة للمشاعر والأحاسيس، ذلك أن مُجرّد الكتابة بالحبر لم تكفِ لوصف تلك الظهيرة المُشرقة ولا دفء الصداقة البسيطة، وقد نُسيّت الخلافات وغُفرت الذنوب كلها، وراح ضوء الشمس يُذيب برودة قاعة الدرس، وطعم الليمون شديد الحلاوة يملأ أفواههم، وشعورهم بالارتياح والبهجة يملأ قلوبهم.



الفصل الرابع عشر



نحلم الليلة فحسب

بنتهّد، وتغيّر، وبسمات، وحب

فما يسكن في أعماق القلب

هي أحلام كلها عجب.

ونشروب مأكوورث بريد

«الحفل الخيالي»

صاروا بعدها أحرارًا، لكن الحرية لم تدم طويلًا، إذ كانت المآسي التي لم يلبثوا أن انتهوا من احتمالها لتتضاعف أثناء اختبارات السنة الرابعة. لكن سبتمبر بدا بعيدًا جدًّا، إذ لم ينتهِ شهر مايو بعد، ومن ثمّ، كان أمامهم الصيف كله. بدا الأمر كأنه لم يكن أمامهم وقت إلا للسعادة، لو تدكّروا هذا فحسب.

كانت جامعة أوكسفورد تقيم حفلًا تذكاريًا كل ثلاثة أعوام. وكانت تلك الحفلات تمثل تجسيدًا للحياة الاجتماعية في أوكسفورد، وكانت تمثل فرصة للكليات لاستعراض جمال أفنيّتها وغنى مخازنها بالمأكولات، إذ كانت الكليات الأكثر غنى لتتباهى بثرواتها، أما الكليات الأفقر فهي تحاول جاهدة تسلّق سلّم الفخامة. كانت الحفلات تُتيح للكليات فرصة إنفاق ثرواتها الطائلة، لكنها كانت - لسبب ما - لا تُخصّص هذا الفائض للطلاب المحتاجين في المناسبات المهمة، بل بالأحرى للخريجين الأثرياء بحجة أن الثروات تجذب الثروات. ولم تكن هناك طريقة أفضل لجمع التبرعات لتجديد الردهات من



جعل قُدامى الطلاب يَقضون وقتًا طيبًا. وأي وقت طيب كان! كانت الكليات تتنافس فيما بينها كل عام لتحطيم أرقام قياسية لمجرد التدلل والمتعة البصرية. كانت المشروبات تُقدّم ببذخ طوال الليل، ولم تتوقف الموسيقى عن العزف، وكان من يَرُقُصون حتى الساعات الأولى من النهار لَيَنتظروا أن يُقدّم لهم الفطور على أطباق من فضة عند شروق الشمس.

أَصْرَت ليّتي على أن يشتري الجميع تذاكر. «هذا ما نحتاج إليه بالتحديد، فنحن نستحق بعض التدليل بعد ذلك الكابوس. ستأتين معي إلى لندن يا فيكتوار حيث سنَقِيس أزياء...»
ردّت فيكتوار: «بالطبع لا».

«لماذا؟ نملك ما لا وسوف تبدين رائعة في ثوب من الحرير الأخضر أو الأبيض...».

أجابت فيكتوار: «لن يوافق أولئك الخيّاطون على حياكة ثوب لي، فالطريقة الوحيدة التي ستسمح لي بدخول المتاجر هي التظاهر بأنني وصيفتك».

صُدّمت ليّتي. بيد أن هذا لم يستغرق سوى لحظة، إذ رآها روبين تُسرّع بتغيير تعبير وجهها إلى ابتسامة على مضض. كان يعرف أن ليّتي تشعر بارتياح لعودة المياه لمجاريها بينها وبين فيكتوار، وأنها كانت لتفعل أي شيء لتظل الأمور هكذا. «لا بأس، يمكنك. أنتِ أطول مني قليلًا، لكن يمكنني إطالة التنورة. ولديّ مجوهرات كثيرة، ومن ثمّ، يمكنني إقراضك. سأكتب خطابًا لبرايون لأعرف ما إذا كانوا سيرسلون لي بعض أغراض أُمي القديمة. كانت لديها دبابيس جميلة، وأود أن أرى ما يمكن عمله في شعرك...».

قاطعتها فيكتوار بهدوء وحَزم في ذات الوقت: «لا أظُنّك تفهمين. لا أريد فعلًا...».



«أرجوك يا عزيزتي، لن يكون الوقت مُمتعاً من دونك. سأشتري لك تذكرة».

فقالت فيكتوار: «أوه! لو سمحت، لا أريد أن أصبح مدينة لك...».

قال رامي: «يمكنك شراء تذاكرنا».

ردت ليتي بتعجب: «أشتري تذاكر كما؟».

«لا أعرف يا ليتي. ثلاثة جنيهات؟ هذا مُكلف جداً».

قالت ليتي: «اعملا في إحدى مُناوبات الفضة، فهي لا تستغرق سوى ساعة».

ردّ رامي: «لا يُحب بيردي الأماكن المزدحمة».

قال روبين بشجاعة: «لا أحبها. أشعر بتوتر ولا أستطيع التنفس».

قالت ليتي بسخرية: «لا تكن سخيّاً. الحفلات رائعة، ولم تَرَ أي شيء كهذا من قبل. دَعاني لينكون لحضور إحدى حفلات باليول - أوه! كان المكان كله مختلفاً. شاهدت مسرحيات لم أشهدها في لندن. كذلك، فلا تُقام إلا كل ثلاث سنوات. لن نكون طلاباً المرة القادمة. أنا مُستعدة لعمل أي شيء لاسترجاع هذا الشعور مُجدّداً».

تبادل الاثنان نظرات العجز. لقد أَسَكَّت الأخ المُتوقّى المُحادثة. كانت ليتي تعرف ذلك ولم تخش استدعاه.

ومن ثَمَّ، سجّل روبين ورامي للعمل في الحفل. كانت الكلية قد ابتكرت نظام عمل مُقابل دخول للطلاب غير القادرين على دفع ثمن التذكرة، وكان طلاب بابل محظوظين بشكل خاص في هذا، فبدلاً من تقديم المشروبات أو أخذ المعاطف، كان باستطاعتهم عمل ما سُمّي بـ «مُناوبات الفضة». ولم يُكَلَّفوا بعمل أكثر من التحقق بين الحين والآخر من القوالب المُعتمَدة لتعزيز الزينة، والأضواء، والموسيقى لم تُزَل أو تُنخَلع من تركيباتها المؤقتة. لم تعرف الكليات بهذا الأمر، ولم يكن لدى بابل أسباب وجيهة لإخبارهم.



وفي يوم الحفل، حَشَرَ روبين ورامي مِعْطَفَيْهِمَا وِستَرَتَيْهِمَا في أكياس فُماشية ومَرَّا بجوار طوابير شراء التذاكر المُلْتَفَّة حول الناصية وصولاً إلى مدخل المطبخ في الجزء الخلفي للكلية.

تجاوزت الكلية الجامعية التوقعات، فقد أتعبت الأعين من فرط الإبهار، إذ كان يَصْغُب استيعاب الأشياء الموجودة مرة واحدة، إذ اعتلى المَحَار أَهْرَامَات ثَلْجية كبيرة، وافترشت طاولات ممتدة بكل أنواع الكعك المَحْلَى، والبسكويت، والفتائر الصغيرة، وأكواب المشروبات التي كانت تدور فوق أطباق محمولة بحذر، وأضواء خيالية تتلألأ بمجموعة من الألوان.

كما نُصِبَت المسارح في كل مُرْبَع من الكلية، وصعد عليها مجموعات متنوعة من لاعبي القيثارات، والعازفين، وعازفي البيانو. وأُشيع أن مطربة أوبرا قد دُعِيَتْ للحضور من إيطاليا لعمل استعراض في الردهة. وكان روبين يَظُنُّ أنه سيتمكن من الاستماع لنبرات صوتها تَخْتَرِق الضوضاء كلما ارتفعت بين الحين والآخر. وراح لاعبو الأكروبات يرقصون في المرج مُلتوين صعودًا وهبوطًا على شرائط حريرية طويلة، ولأَقِين حلقات فضية حول خَصْرهم وكُغُوب أَقدامهم. كانوا يرتدون ملابس ذات طابع أجنبي غامض. راح روبين يُدَقِّق في وجوههم مُتَسَائلاً ما عسى أن تكون مواطنهم. وكان أغرب شيء يتمثل في أن أعينهم وشفاههم كانت مرسومة بشكل شرقي مُبالَغ فيه، لكن الرسومات كانت تُخفي شيئاً وكأنهم قد جُلِبُوا من شوارع لندن.

قال رامي: «كفانا مبادئ صارمة، فهذا هو الاحتفال الحقيقي».

فسأل روبين: «أَتظن أن المحار سَيَنْفَد؟». لم يكن قد تذوقه من قبل، وعلى ما يبدو أنه كانت يُتَعَب مَعِدَة الأستاذ لوفيل، ما جعل السيدة بايير تُعْزِفُ عن شرائه. كان اللحم اللُّزج والأصداف اللامعة تبدو مُقَرَّرَة وشهية في ذات الوقت. «أود أن أعرف مذاقها فحسب».



ردّ رامي: «سأذهب وأحضر لك واحدًا. وبالمناسبة، تُوشِك هذه الأنوار على الخفوت، يجب أن تذهب».

اختفى رامي في الزحام، في حين اعتلى روبين سلّمه وتظاهر بأنه يعمل. كان مُمننًا للعمل في قرارة نفسه. كان ارتداء زيّ الخدم الأسود مُهيئًا له في حين كان زملاؤه يرقصون حوله. لكنه كان وسيلة لتهدئة روعه في ذاك الجو الليلي المَشحون بالإثارة. كان اختباؤه في الزاوية وانشغاله بشيء يُشعره بالأمان، فبهذه الطريقة لم تكن الحفلة مُزعجة. كما كان يُحبّ اكتشاف ما أمدت أزواج بابل الحفلة به.

كان الأستاذ لوفيل قد ابتكر أحدها مُنسّقًا مثلًا صينيًا ذا حروف أربعة 百卉千葩 مع ترجمته الإنجليزية «مئات النباتات وآلاف الأزهار». كان الأصل الصيني الذي يُوحى بألوان زاهية وغنية ومُدِهشة يجعل الورد أكثر حمرة، وزهور البنفسج المُفتّحة أكبر وأكثر بهاءً.

قال رامي: «لم أجد مَحَارًا، لكنني أحضرت بعض الأصناف المُعطّاة بالكُمأة. لا أعرف ما هي تحديدًا، لكنني وجدت الناس ينتزعونها من الأطباق انتزاعًا». وهنا مرّر كُمأة الشيكولاتة أعلى السلم والتهم الأخرى. «أوه! يا للقرف! لا بأس، لا تأكل هذا».

فرقع روبين الكُمأة أمام عينيه وقال: «أتساءل ما عساها تكون؟ هل من المفترض أن يكون هذا الجزء الباهت الطري جُبْنًا؟».

أجاب رامي: «أرتجف حين أفكر في أي شيء غير هذا».

قال روبين: «أُتعرّف، هناك حرف صيني يُدعى اسكيان* وقد يعني «نيء وطازج ولذيذ». بيد أنه قد يعني أيضًا «نحيف وغير كافٍ».



بَصَقَ رامي الكمأة في منديل وقال: «ماذا تقصد؟».

«أحيانًا تكون الأشياء النادرة والمُكلفة أسوأ».

وهنا نظر رامي إلى الحشد وقال: «لا تُخبر الإنجليز هذا، وإلا انهارت حاسة التذوق لديهم. أوه! انظر من حضر!».

كانت ليتي تَشُقُّ طريقها وسط الحشد نحوهما جاذبة فيكتوار وراءها.

«أنتما - رَبَاهِ!». وهنا أسرع روبين بنزول السلم وقال: «أنتما مُذهلتان».

كان يعني ما يقوله. كان من الصعب التعرف على فيكتوار وليتي. كان قد اعتاد رؤيتهما بالقمصان والسرراويل على نحو جعله ينسى أحيانًا أنهما فتاتان. أما الليلة، فقد تَذَكَّرَ أنهما مخلوقتان من نوع آخر. كانت ليتي ترتدي فستانًا مصنوعًا من قماش أزرق فاتح خفيف يُضاهي لون عينيها، بأكمام ضخمة جعلها تبدو كَمَنٍ تُخفي فَخْذَ خروف كامل داخله، لكن يبدو أنه كان مَوْضعة هذا العام، إذ امتلأت ساحات الكلية بأكمام ضخمة زاهية الألوان. فأدرك روبين أن ليتي كانت جميلة، لكنه لم يلاحظ هذا من قبل، فكان انعكاس الأضواء الخيالية الناعمة يجعل حاجبيها الْمُقَوَّسَيْنِ وَفَكَّها الحاد الزوايا يبدو راقياً وفخماً، لا قاسياً ومُتَحَفِّظاً.

فسأل رامي: «مَنْ نَسَقَ لِكَ شِعْرِكَ بهذه الطريقة؟».

كانت خصلات شعر ليتي الشقراء تَدَلَّتْ على وجهها في دوائر تَتَحَدَّى الجاذبية.

فأجابت ليتي: «عجبًا! إنها لفائف تَجْعِدُ الشعر».

قال رامي: «بل السحر. ليس هذا طبيعيًا».

فقالت ليتي باستهزاء: «تحتاج لمقابلة مزيد من النساء».

«أين؟ أفي قاعات محاضرات أو كسفورد؟».

وهنا ضحكت ليتي.



لكن فيكتوار هي من كانت قد تَغَيَّرَت بالفعل، فقد جَعَلَهَا لون فستانها الأخضر الداكن تبدو مُشرقة. وكانت أكمامه مَنفُوخة كذلك. بيد أنها كانت أكثر جمالاً عليها، بل وأشبَه بحلقة سَحَب تَحْمِيها. وكان شعرها مطوياً فوق رأسها على شكل عُقْدَة أنيقة ومربوطاً بدبوسين أحمرَي اللون، وكان هناك شريط من الخرز الأحمر نفسه يلمع كالنجوم حول عُقْطها. كانت جميلة، وكانت تعرف هذا، فَتَلَقَّت تعبير روبين بابتسامة أنارت وجهها.

فسألت ليتي وهي تتأمل فيكتوار بفخر: «ألم أَحْسِن أداء المهمة؟ وكانت مُتَرَدِّدَة في المجيء!».

قال روبين: «تُشَبِّه ضوء النجوم».

فاحمَرَّ وجه فيكتوار خجلاً.

وهنا تقدَّم كولين ثورنهيل بخطوات عريضة نحوهما وقال: «مرحباً. أرى ثمة بابليين قد اجترؤوا على الحضور». كان يبدو في حالة تَمَالَة وكانت نظرة عينيه مُشَوَّشَة ومُرْتَبِكَة.

فقال روبين بحذر: «أهلاً يا كولين».

«أليس حَفْلاً جيداً؟ كان صوت مُطْرِبَة الأوبرا حاداً بعض الشيء، لكن لعل أجهزة الصوت هي السبب، فليس المكان مُناسِباً للعروض الموسيقية، بل يجب أن تكون المساحة أكبر منعاً لضياح الصوت». ودون أن ينظر إلى فيكتوار، رفع كولين كَأْسَه في وجهها وقال: «تَخَلَّصِي من هذا وأحضري لي نوعاً آخر من الشراب».

فنزطت إليه فيكتوار بذهول وقالت: «أحْضِر لنفسك ما تريد».

«ماذا؟ أليست هذه وصيفتك؟».

فردَّ رامي بغضب: «إنها طالبة، وقد التقيتها من قبل».

«حقاً؟». كان كولين تَمَلّاً بالفعل، إذ كان يَتَرَنِّح واستحال لون وجنتيه الشاحب إلى الحُمرة. كان مُمَسِكاً بالكأس بأطراف أصابعه، وكان الكأس



يرتعش على نحو جعل روبين يَخشى أن يَنْهَشَمَ. «حسنًا، يبدو الجميع مُتَشَابِهًا بالنسبة لي».

فردت فيكتوار بهدوء: «يرتدي النُّذلُ زيًّا أسود ويَحْمِلُون صواني». اندهش روبين لِرِباطَةِ جَأَشِها، إذ كان ليخطف الكأس من يد كولين، فأردفت فيكتوار: «مع ذلك، أُشير عليك أن تَشْرَب بعض الماء».

نظر كولين لفِيكتوار بتركيز، وكأنه يحاول رؤيتها جيدًا. شعر روبين بتوتر، لكن كولين ضَحِكَ فحسب وهَمَس بشيء غير مسموع بدا وكأنه: «تَبْدو كتر ايجر». * ثم انصرف.

فتمتم رامي: «سافل!».

فسألت فيكتوار بارتباك: «هل أبدو كالخَدَم؟ وفيَم أشبه ترايجر؟».

فأجاب روبين بسرعة: «لا عليك. تجاهلي كولين فحسب، فهو أحمق».

فقالَت ليَتي مُطمِئِنَّة إياها: «وتبدين رائعة. يجب أن يهدأ الجميع». وهنا مَدَّت ذراعها لرامي وقالت: «انتهت مُناوبتك، أليس كذلك؟ ارقص معي».

ضحك وقال: «بالطبع لا».

فأمسكت يديه وجَذَبته نحو جُموع الراقصين وقالت: «هيا! ليس الفالس صعبًا، وسأعَلِّمك الخطوات...».

فسحب رامي يديه بعيدًا عنها: «لا، بل تَوَقَّفي».

عَقَدَت ليَتي ذراعيها وقالت: «ليس الجلوس هنا مُمتعًا».

«لنجلِس هنا، إذ لا يَتَحَمَّلُنا أحد بالفعل. ولأننا لا نتحرك بسرعة أو نتحدث بصوت مرتفع، يمكننا التماهي في الخلفية أو على الأقل التظاهر بأننا خَدَم».

* جابريل شير ترايجر تاجر مطبوعات وعنصري متعصب يعيش في لندن، وقد أصدر سلسلة من المطبوعات الكاريكاتورية عُرفت باسم «نكات ترايجر السوداء» في ثلاثينيات القرن التاسع عشر وكانت تهدف إلى السخرية من ذوي البشرة السوداء في المواقف الاجتماعية حيث كان ترايجر يرى أنهم غير متناسبين.



فهكذا تسير الأمور يا ليتي. يُعَدُّ ذوو البشرة السمراء أشياء مُسَلِّية ومُثيرة للفضول ما داموا يَنَافُونَ بأنفسهم ولا يحاولون مُضايقة أي شخص، لكن لو رقصت معكِ، لضربني أحدهم، أو قد يحدث ما هو أسوأ».

فهمت: «لا تُبالِغ».

«بل أتصرف بحكمة يا عزيزتي».

في تلك الأثناء، مرَّ أحد الأخوين شارب ومدَّ يده لليتي. بدت حركة وَقْحَة وفاترة، لكن ليتي أخذت يده من دون تعليق وتركتهم وهي تُحْدِج رامي بنظرة كَرِيهَة وتسير ببطء.

فتمتم رامي: «هذا خير لها، وخير أن تَرَحَّل».

فاستدار روبين ليفيكتوار وقال: «هل أنت بخير؟».

قالت وهي عصبية للغاية: «لا أدري. أشعر كأنني مكشوفة أو معروضة للجمهور. قلت لليتي إنهم سيَظُنُونَنِي من الخَدَم...».

قال روبين: «لا تُلقِ بالاً لכולين، فما هو إلا غبي».

بدت غير مُقَنَّنَة وأجابت: «أليس الجميع مثل كولين؟».

وانقض عليهم صبي ذو شعر أحمر يرتدي مِعْطَفًا أرجوانيًا وقال: «مرحبًا». كان فينسي وولكومب، وهو أقل أصدقاء بندنيس سوءًا حسبما تَذَكَّر روبين. فتح روبين فاه ليُحَيِّيَه، لكن وولكومب تجاهله تمامًا وركز على فيكتوار فحسب وقال: «ألسَتِ من طالبات كُليَّتِنَا؟».

راحت فيكتوار تنتظر حولها للحظة، ثم لاحظت أن وولكومب يُخَاطِبُهَا بالفعل وقالت: «نعم، أنا...».

فسألها: «أنتِ فيكتوار ديغراف؟».

أجابت وهي تَعْتَدِّل في وقفنتها: «نعم، كيف عرفت اسمي؟».



أجاب وولكومب: «حسنًا، توجد فتاتان في هذه الدفعة، إنهما مُترجمتان. لا بد أنك ذكية، ما جعلك تدرسين في بابل. نعرف اسمكما بالطبع».

فتحت فيكتوار فمها قليلاً، لكنها لم تُقل شيئاً، إذ بدا الأمر وكأنها لا تعرف ما إذا كان وولكومب سيُسخر منها أم لا.

فقال وولكومب بالفرنسية: «يُشاع أنك من باريس»، ثم حنى رأسه قليلاً وأردف: «الباريسيات أجمل الفتيات».

ابتسمت فيكتوار وأجابت: «تتحدث بلغة فرنسية جيدة».

راح روبين يُتابع الحوار بإعجاب. لعل وولكومب لم يكن بشيء على أية، أو لعله كان غيباً حين كان بصحبة بندنيس فحسب. كما راح يتساءل ما إذا كان وولكومب يستغل فيكتوار للتسلية، لكن لم يكن هناك أصدقاء يُظهرون في الأفق، ولا أي شخص ينظر بارتياح ويتظاهر بالضحك.

قال وولكومب: «أقضي الصيف في مارسيليا، فأُمي من أصل فرنسي وأصرت على أن أتعلم اللغة. أترين لغتي مقبولة؟».

أجابت فيكتوار بجدية: «تُبالغ في نُطق الحروف المتحركة قليلاً، لكنها ليست سيئة».

مع ذلك، لم يبدُ وولكومب مُزعجاً من هذا التصحيح، إذ قال: «أنا سعيد بذلك. أتريدان الرقص؟».

رفعت فيكتوار يدها بتردد ثم نظرت إلى روبين ورامي وكأنها تطلب رأيهما.

فقال رامي: «أذهبي واستمتعي».

فأخذت يد وولكومب الذي جذبها بعيداً.

فلم يتبق سوى روبين ورامي. كانت مُناوبتهما قد انتهت، وكان دقائق الساعة قد أعلنت الحادية عشرة منذ عدة دقائق. فارتدى كلاهما معطفه - كانا زبَّين مُتطابقين قد اشترياهما في آخر لحظة من إيد أند ريفرنزكروفت



- لكنهما واصلا التسكع في أمان بجوار الجدار الخلفي. كان روبين قد حاول الدخول في نقاش بسذاجة، لكنه تراجع في ذعر على الفور - كان كل مَنْ يعرفه يقفون في مناقشات خاصة، فكانوا إما يتجاهلونه تمامًا، وهو ما جعله يشعر بإحراج، وإما يسألونه عن العمل في بابل، إذ كان هذا ما يعرفونه عنه. لكن، حين كان يقول هذا، كانوا يَنْقُضُونَ عليه بعشرات من الأسئلة، وكانت كلها تدور حول الصين والشرق وأعمال الفضة. وحين لاذ بالهدوء بجوار الحائط، كان روبين في غاية الذعر والإرهاق على نحو جعله لا يتحمل الإجابة بعدها.

وبقي رامى بجانبه. راح الاثنان يُراقبان الأحداث في صمت لبرهة. أخذ روبين كوبًا من الشراب من نادل يَمْزُرْ وَتَجَرَّعه بسرعة أكبر من الطبيعي كي يُهدِّئ خوفه من الزحام والضجيج.

وأخيرًا سأل رامى: «ألن تطلب من أي فتاة الرقص؟».

أجاب روبين: «لا أعرف كيف أفعل». ثم دَقَّقَ النظر في الحشد، لكن كل الفتيات في القاعة بَدَوْنَ مُتَشَابِهَاتٍ بِفَسَاتِينِهِنَّ ذات الأكمام المَنْفُوخة.

قال رامى: «أتقصد الرقص أم السؤال؟».

«حسنًا، الاثنان، لكن الأخيرة بالطبع. يبدو أنك يجب أن تتعرَّف عليهن اجتماعيًا قبل أن يكون ذلك مُناسبًا».

قال رامى: «أنت وسيم، وتدرس في بابل. وأنا واثق أن إحداهن ستوافق».

كان رأس روبين يَدُور بفعل الشراب، ما جعله لا يعرف كيف يُجيب.

فقال: «لماذا لم توافق على الرقص مع ليتي؟».

«لا أريد إثارة المشاكل».

«لا، فعلاً».

تنهَّد رامى وقال: «أرجوك يا بيردي، تعرف كيف طبيعة العلاقة بيننا».



أجاب روبين: «الفتاة تُريدك». كان قد أدرك ذلك فحسب، وبعد أن قالها بصوت مرتفع، اتضح له أنه غبي لعدم إدراكه ذلك مُبكرًا. «بل بشدة، فلماذا إذًا...».

«ألا تعرف السبب؟».

تلاقت أعينهما، فشعر روبين بَوْخزة في مؤخرة رقبته. كانت الأجواء مَشحونة للغاية تمامًا كاللحظة الفاصلة بين البرق والرعد، ولم يعرف روبين ما كان يَحْدُثُ أو ما كان لِيَحْدُثُ بعدها، لكن بدا الأمر مُرْعِبًا وشديد الغرابة تمامًا كالتوازن على حافة جُرْفٍ عاصف مَهُول.

فوقف رامي فجأة وقال: «توجد مشكلة هناك».

على الجانب الآخر من المُربَّع، كانت ليتي وفيكْتوار تَقفان مُسْتَدِينَتَيْنِ على الحائط ومُحاطَتَيْنِ بِزُمرَةٍ من الأولاد المُشاكسين، ومن بينهم ولوكوم وبندنيس. كانت فيكْتوار واضِعة ذراعيها حول صدرها وليتي تقول شيئًا بسرعة شديدة لم يَسْتَطِيعا فَهْمه.

قال رامي: «من الأفضل أن نُلقي نظرة».

قال روبين «حسنًا» ثم تَبَعَ رامي بين الحشد.

كانت ليتي تقول بغضب: «ليس الأمر مُضحكًا». كان وجهها يُشعِّع بِخُمْرة الغضب، وكانت تُرفَع قبضتيها كالملاكَم، وكانتا تُرْتَجِفان وهي تتحدَّث: «لسنا راقصتين، لا يمكنكم...».

قال بندنيس بِبطء وثَمالة: «لكننا في غاية الفضول. هل هي ألوان مختلفة؟ نود أن نرى، إذ تُرْتَدِيان ثِيَابًا كاشفة تُشْعِلُ الخيال...».

مَدَّ بندنيس ذراعه نحو كتفها، فسحبت ليتي يدها للخلف وَلَكَمَتَه في وجهه.

فارتد بندنيس وَتَحَوَّلَ وجهه لتعبير غاضب مُتَوَجِّش. ثم خَطَا خطوة نحو ليتي، وبدا للحظة وكأنه سَيَرُدُّ لها اللكمة، فَجَفَلَتْ.



هَرُول روبين ووقف بينهما وقال لليتي وفيكْتوار: «ابْتَعِدَا». فهرولتا نحو رامي الذي أخذ يديهما وجذبهما نحو البوابة الخلفية.
استدار بندنيس نحو روبين.

لم يعرف روبين ماذا سيحدث بعدها، إذ كان بندنيس أطول قامة، وأضخم جسمًا، وأقوى بُنية. بيد أنه كان يَتَرَنِّجُ فاقِدًا تركيزه. لو تحوّل هذا الشجار، لصارَت مَعْرَكَة فَظَّةٍ وغير شريفة. لم يكن أي منهما لِيُصاب بجراح خطيرة، بل كان حتى ليُطرح بندنيس أرضًا ويلوذ بالفرار قبل أن يَنْتَبِه الأخير لما حدث. لكن الكلية كانت قد وضعت قواعد صارمة ضد الشجار، علاوة على وجود شُهود كَثْر، وكان روبين يَخْشى تصريحات بندنيس أمام مجلس التأديب.

هتف روبين: «يمكننا الشجار لو أردت، لكنك مُمسِك بكأس من الشراب، فهل تُريد قضاء الليلة والبُقْع الحمراء تُعْطَى قميصك؟».
حدَّق بندنيس إلى كأسه ثم عاد للتحديق إلى روبين.

فقال بصوت بَغِيض: «أيها الصيني الحقيق! المسألة وما فيها هي أنك ترتدي ثيابًا فخمة أيها الحقيق. أتعرف هذا يا سوفيت؟».

أحكم روبين قبضتيه وقال: «وهل ستسمح لصيني حقيق بإفساد الحفل؟».

استهزأ بندنيس، لكن كان من الواضح أن الخطر قد زال. فطالما كبح روبين كبرياءه ولطالما أقنع نفسه أنها مُجَرَّد كلمات ألقاها بندنيس نحوه - ولم تكن تعني شيئًا على الإطلاق - استطاع أن يستدير ويتبع رامي، وفيكْتوار، وليتي خارج الكلية دون أن يُصاب بأذى.

هذا نسيم الليل بالخارج من غضبهم المُشتعل.

سأل روبين: «ماذا حدث؟ ماذا كانوا يقولون؟».

أجابت فيكتوار وهي ترتجف بشدة: «لا شيء». فخلع روبين سُنْرتَه ولَفَّها حول كتفها.



قالت ليّتي بغضب: «ليس لا شيء، فقد بدأ ذلك الوغد ثور نهيل يتحدّث عن الأسباب المختلفة لـ ل - ل - كما تعلمون أمور بيولوجيّة لدينا، ثم قرّر بندنيس أننا يجب أن نُرِيهم...».

ردت فيكتوار: «ليس مُهمًا. دعونا نمش».

قال روبين مُتَوَعِّدًا: «سوف أقتله. سأعود وسأقتله...».

فأمسكت فيكتوار ذراعه وقالت: «لا أرجوك. لا تزد الأمور سوءًا».

فقال رامي لليتي: «هذا خطوك».

«خطئي؟ كيف...».

«لم يَشَأْ أيّ منا الحضور، وحدّرتك فيكتوار من سوء العاقبة، لكنك أجبرتنا على المجيء...»

فضحكت ليّتي بحدّة وقالت: «أجبرتم؟ بدا أنكما كنتما تقضيان وقتًا مُمتعًا وتأكلان الشيكولاتة والكمأة».

«نعم، حتى حاول بندنيس ورُمرتة الاعتداء على صديقتنا فيكتوار».

«كان لي نصيب من سخافتهم أيضًا». كان هذا منهُجًا غريبًا من الجدل، ولم يكن روبين مُتأكّدًا من سبب اتخاذ ليّتي إياه، بيد أنها كانت تتحدّث بعُنف، وارتفع صوتها عدة طبقات وهي تقول: «لم يكن الأمر لكونها فحسب...».

فصاحت فيكتوار: «كفّى!». ثم انهمرت الدموع على وجهها وأردفت: «كفّى! ليس خطأ أي شخص، فحن فحسب - بل كان يجب أن أفهم. لم يكن يجب أن نحضّر من الأساس».

فقالت ليّتي بصوت خافت: «آسف. عزيزتي فيكتوار، أنا لم...».

هزّت فيكتوار رأسها وقالت: «لا بأس. لا يوجد سبب يجعلك... لا عليك». ثم تنهدت باضطراب وقالت: «لنُخْرِج من هنا. هَلّا فعلنا لو سمحتم؟ أريد العودة للبيت».



وهنا توقف رامي عن المشي وقال: «البيت؟ ماذا تقصدين بكلمة البيت؟ إنها ليلة احتفال».

فراحت فيكتوار تلعب بتنورة ثوبها التي كانت قد تلطّخت بالطين وقالت: «هل أنت مجنون؟ سأخرج من هذا المأزق، وسأُخلص من هذه الأكمام الغريبة».

فربّت رامي كتفها برفق فُيّل الوصول إلى هاي ستريت وقال: «بل لن تفعلي. قد تَأْتَقْتِ لحضور حفل وتستحقين حفلاً، فلنُقيم حفلاً إذاً».

كشف رامي عن خطته المُتمثّلة في قضاء الليلة على سطح بابل - هم الأربعة فحسب، وسلّة من الحلوى (كان من السهل أن يسرق أي شخص يُشبه الخدم أي شيء من المطبخ)، وتلسكوب تحت سماء الليل الصافية*. ولكن، حين داروا حول ناصية المرج، رأوا أضواء وأشكالاً تتحرّك من نوافذ الدور الأول. كان ثمة شخص.

قالت ليتي: «مهلاً...». لكن رامي قفز بخفة على الدرج ودفع الباب.

انطلقت الأضواء السحرية في الردهة التي كانت مُزدحمة بطلاب وخريجين. تعرّف روبين على كاثي أونيل، وفيمال شريفينسات، وإلزي ديجيما بينهم. كان البعض يرقص، والبعض الآخر يُدرش مُمسكاً بكؤوس الشراب، وفئة ثالثة مُنحنية فوق طاولات العمل التي أُحضرت من الطابق الثامن لمراقبة أحد الخريجين وهو يحفر نقشاً على قالب فضة. اختفى شيء ما فجأة، وامتألت الغرفة برائحة الورد، وتهلّل الجميع.

* في منتصف القرن الثامن عشر، كان باحثو بابل مأخوذين بعلم التنجيم، وطلبت عدة تلسكوبات عصرية كي توضع على السطح نيابة عنهم إذ كانوا يظنون أنهم قد يتمكنوا من اشتقاق أزواج متطابقة مفيدة من أسماء الأبراج. غير أن هذه الجهود لم تأت بشيء مثير للاهتمام، ذلك أن التنجيم مزيف. مع ذلك، كان التحديق إلى النجوم ممتعاً.



وأخيراً لاحظهم أحد، فهتف فيمال: «يا طلاب السنة الثالثة» وهزّ يده مُشيراً أن «أدخلوا» وقال: «لماذا تأخرتم؟».

أجاب رامى: «كنا في الكلية ولم نعلم أن هناك حفلاً خاصاً».

فقال فتاة ألمانية داكنة الشعر ظنّ روبين أن اسمها مينا: «كان يجب أن تدعوهم». كانت ترقص في مكانها وهي تتحدث، وكان رأسها يهتز بقوة إلى اليسار، ثم أردفت: «يا للقسوة! كيف تدعهم يذهبون لحفل الرعب؟».

أجاب فيمال: «لا يُقدّر أحد الجنة حتى يعرف النار. لا أدري من قال هذه الحكمة».

قالت مينا: «ليست في كُتب الأثر».

قال فيمال بعدم اكتراث: «لا أدري».

ردّت ليتي: «كانت قسوة منك».

فهتف فيمال: «أسرعوا، وقدموا مشروباً للفتاة».

راحوا يُمرّرون الكؤوس ويملأونها بالشراب. وسرعان ما شعر روبين بالنشوة، وراح رأسه يطنّ وأطرافه تترنّج. فاستند على الأرفف وهو يلهث بعد أن رقص الفالس مع فيكتوار واستشعر مدى روعته في كل لحظة. أما فيمال، فكان بجوار الطاولة يرقص رقصة حماسية مع مينا وبجوار الطاولة المُقابلة، كان ماثيو هاوندز لو، الحائز أعلى زمالة تخرّج لهذا العام، ينفّس قالب فضة بزوج مُتطابق يجعل دوائر لامعة من اللونين الوردي والقرمزي تهتز حول الغرفة.

فقال إليزي ديجيما: «إيباشو».

التفت روبين إليها. لم تكن قد تحدثت معه من قبل، ولم يكن مُنأكدًا من كونها تُخاطبه. لكن، لم يكن هناك أي شخص آخر بجوارهما. «عذراً؟».

فكرّرت الكلمة وهي تترنّج: «إيباشو». وكانت ذراعاها تتحرّكان بخفة أمامها، إما رقصاً وإما قيادة للموسيقى. لم يتبيّن روبين أيّهما. على أية حال،



لم يستطع تحديد مكان الموسيقى على الإطلاق. «ليست لها ترجمة مُحدَّدة للإنجليزية. تعني «مكان» - مكان يَشْعُر فيه المرء بأنه وطنه ويشعُر بأنه على طبيعته».

ثم كتبت الحروف الكانجي في الهواء - 居口所 - فأدرك مثيلاتها الصينية. كان الحرف يرمز للسكن، وكانت الحروف ترمز للمكان.

وعلى مدى الأشهر التالية، ومتى كان يعود بذهنه لتلك الليلة، لم يسعه سوى تذكُّر بضع ذكريات وكأنها ضباب لطيف. كانت ذكرياته باهتة عن الرقص فوق طاولات مُتلاصقة على أنغام سلتية محمومة، ثم الانخراط في لعبة لغوية تخَلَّلها الكثير من الصُراخ والإيقاعات السريعة والضحك بقوة على نحو جعل جنبيه يؤلمانه. وكان يتذكَّر رامي وهو جالس في رُكن مع فيكتوار يقلِّد الأساتذة بشكل سخيף حتى جفَّت دموعها، ثم صارا يدمعان من الضحك. وقال رامي مُقلِّدًا صوت الأستاذة كرافت أحادي النبرة: «أحتقر النسوة، فَهُنَّ هوائيات وسريعات الارتباك، ولا يتناسبن عمومًا مع هذا النوع الشاق من الدراسة الذي تتطلَّبه الحياة الأكاديمية».

وتذكَّر عبارات إنجليزية تطفو إلى ذهنه دون استدعاء أثناء مُشاهدته الحفلات. كانت عبارات من أغنيات وأشعار لم يكن مُتأكِّدًا من معرفته معناها، لكنها كانت تبدو صحيحة - أو لعلَّ الشعر كان هكذا فحسب؟ أكان معنى تسوقه الأصوات؟ هل كانت من خلال التهجي؟ لم يتذكَّر ما إذا كان قد فكر في الأمر فحسب أو إذا كان سأل جميع من وجده بصوت مرتفع، لكنه وجد نفسه مشغولًا بالسؤال: «ما هذا الفرح العارم؟».*

كما تذكَّر الجلوس مع ليتي على الدرج في جوف الليل، إذ كانت تبكي بشدَّة وتقول مرارًا وتكرارًا وهي مُصابة بالفواق: «ليتة يراني! لم لا يراني؟».

* ملتون، 1645:

«تعال وارقص بخفة»

ولتلمس قدمك الأرض برشاقة»



ورغم أن روبين لم يستطع التفكير في أي عدد من الأسباب، إذ كان رامي شاب أسمر البشرة في إنجلترا، في حين كانت ليتي ابنة أدميرال، ولأن رامي لم يشأ أن يُطلق عليه الرصاص في الشارع، أو لعلّ رامي ببساطة لم يُبادلها الشعور بالحب، وكانت قد أخطأت إذ اعتبرت كرمه وحماسه الزائد اهتمامًا خاصًا، إذ كانت ليتي نوعًا من الفتيات الذي اعتاد، بل وكان يتوقّع دائمًا، الاهتمام الخاص - وكان يعرف أنه من الأفضل ألا يُخبرها بالحقيقة. فلم تكن ليتي بحاجة للنصح الأمين، بل بالأحرى لشخص يُواسيها، ويُحبّها، ويُعطيها، إن لم يكن الاهتمام، فليكن شيئًا شبيهًا به. فسمح لها بالبكاء على كتفه حتى أغرقت قميصه بدموعها، وراح يُربتّ كتفها ويُنمّتم دون وعي، أنه لم يفهم - أكان رامي أحمق؟ ما الذي لم يكن يُحبّه فيها؟ كانت رائعة جدًّا، بل على نحو يجعل إلهة الجمال أفروديت تشعّر بالغيرة، بل وقال مُؤكّدًا إنها يجب أن تشعّر بأنّها محظوظة أنّها لم تتحوّل إلى فراشة بعد. جعل هذا ليتي تضحك وتتوقّف عن البكاء قليلًا. كان هذا جيدًا ويعني أنه أدّى مهمّته.

كان لديه شعور غريب أنه يختفي وهو يتكلّم ويتلاشى في خلفية لوحة تحكي قصّة لا بُدّ أنّها كانت قديمة كالتاريخ. ولعلّه كان ثَمَلًا بعض الشيء، لكنه شعر بذهول إذ بدا وكأنه يبتعد عن نفسه ويُراقب من السقيفة أنّاتها تختلط بتمتمته، وتطفو، وتتحوّل إلى سُحب من بخار الماء الذي يتكثّف على زجاج النافذة البارد.

كانوا جميعًا مُنتشين قُبيل انتهاء الحفل، فيما عدا رامي الذي أفقده الإرهاق والضحك اتزانته، وكان هذا سببًا وجيهًا للتننّزه في المقابر وراء سانت جايلز، واتخاذ الطريق الطويل المؤدّي للشمال إلى حيث سكن البنات. وراح رامي يُتمتم دعاء وهم يخطون البوابة ببطء. في البداية بدت مغامرة عظيمة وهم يتعثرون بجانب بعض ويتضحكون وهم يتلمسون طريقهم حول شواهد القبور. لكن الهواء تغير بسرعة كبيرة. خفت دفء مصابيح الشارع، وصارت ظلال شواهد القبور تطول وتتحوّل وكأنّها تخفي شيئًا لا يرغب في وجودهم هناك. شعر روبين بدُعر مفاجئ.



لم يكن المشي بين المقابر غير قانوني، لكن فجأة بدا كأنه خرق مرعب لهذه الأرض وهم في تلك الحالة.

شعر رامي بالشيء نفسه وقال: «لنُسرع».

أوماً روبين، وبدؤوا يسيرون بخطى أسرع بين شواهد القبور. قال رامي: «يجب ألا نوجد هنا بعد مغيب الشمس. كان يجب أن أطيع أُمي».

قالت فيكتوار: «توقفًا. ما زالت ليتي... ليتي؟».

فاستدار الجميع ليجدوا ليتي واقفة على بُعد عدة صفوف خلفهم. كانت واقفة أمام شاهد أحد القبور.

فأشارت بذُهل وقالت: «انظروا، ها هي ذي».

سأل رامي: «هي مَنْ؟».

لكن ليتي كانت واقفة تحديق.

فأسرعوا عائدين إلى الوراء وانضمّوا إليها أمام الشاهد القديم. كان مكتوب عليه «إيفيلين بروك، الابنة والطالبة المحبوبة 1834-1813».

قال روبين: «إيفيلين، هل هذه...».

قالت ليتي: «إيفي. فتاة المكتب. الفتاة ذات الأزواج المتطابقة في السجل. لقد ماتت. مرّ كل هذا الوقت. لقد ماتت منذ خمس سنوات».

وفجأة صار هواء الليل قارس البرودة، وتبدّد دفء الشراب والضحكات، وأفاق الجميع وصاروا يشعرون ببرودة ودُعر شديدين. لفت فيكتوار وشاحها بقوة حول كتفيها وقالت: «ماذا تظنّونه حدث لها؟».

«لعلّه شيء عادي». قال رامي هذا محاولاً ذرء الكآبة، ثم أردف: «ربما مرضت أو تعرّضت لحادث أو أرهقت نفسها. ربما ذهبت للتزلج من دون وشاح أو انهمكت في الأبحاث على نحو أنساها أن تأكل».



لكن روبين كان يشكّ أن وفاة إيفي بروك كانت تُعزى لما هو أكثر من مرض عادي. لم يترك موت أنطوني أي أثر على أعضاء هيئة التدريس. بدا الأستاذ بلاي فير كمن نسي وجوده من الأساس، فلم ينطق بكلمة عن أنطوني منذ يوم إعلان وفاته، لكنه أبقى مكتب إيفي دون تغيير لخمس سنوات وكانت لتظلّ.

كانت إيفيلين بروك شخصية مُميّزة، وقد حدث لها شيء مريع.

فهمست فيكتوار بعد برهة: «ماذا لو عُدا للبيت؟».

لا بُد أن وقتاً طويلاً قد مرّ عليهم في حوش المقابر. كان لون السماء الداكن يتحوّل للون باهت، وبرودة الهواء تتكثّف مُتحوّلة إلى ندى الصباح. كان الحفل قد انتهى، وانتهت آخر ليالي الفصل الدراسي ليبدأ صيف لا نهاية له. ومن دون أن ينبسوا ببنت شفة، أمسك بعضهم أيدي بعض وساروا للبيت.



الفصل الخامس عشر



مع اكتساب الأيام ضوءًا أكثر رقةً، وتدلّي ثمار التفاح الناضجة
على أغصان الأشجار،
تحلّ أكثر الأيام زخمًا، وهدوءًا، وسعادة على الإطلاق.

والث ويطمان، «أيام هائلة».

وجد روبين درجات اختباريه في صندوق بريده الخاص في اليوم التالي (امتياز في نظرية الترجمة واللغة اللاتينية، وتفوق في علم أصول الكلمات، واللغة الصينية والسنسكريتية)، علاوة على ملاحظة مطبوعة على ورقة سميكة باهتة اللون: يَسُرُّ لجنة طلاب المعهد الملكي للترجمة أن تُحيطكم علمًا بأنكم مدعوون لمواصلة دراستكم كباحث خلال العام المقبل.

لم يشعر بأن الأمر حقيقي إلا حين أمسك الورقة بيده. لقد نجح، بل نجح الجميع، وسوف يكون لهم بيت على الأقل لمدة عام يأتي. وسيكون لهم عُرف ومنح مدفوعة الأجر، ومصروف جيب ثابت، ووصول لثروات أوكسفورد الفكرية كلها. لن يُجبروا على ترك بابل، ومن ثم، كان بإمكانهم أن يتنفسوا الصعداء مُجددًا.

في شهر يونيو، كانت أوكسفورد حارة، ولزجة، وذهبية، وجميلة. لم تكن لديهم مهام صيفية مُلحة، ومن ثم، كانوا يُجرون أبحاثًا مستقلة لو شاؤوا، رغم أنه كان مُعترفًا ضمناً أن الأسابيع التي تفصل بين نهاية فصل ترينيتي الدراسي وفصل بداية ميكلماس مُكافئة وفترة راحة قصيرة يستحقها طلاب الفرقة الرابعة القادمون.



كانت تلك هي أسعد أيام حياتهم. كانوا يتنزهون على تلال ساوث بارك ومعهم سلال مملوءة بالعنب الناضج، والفطائر الطازجة، وجُبن الكامومبير، كما كانوا يجذفون ذهابًا وإيابًا في نهر شيرويل. كان رامي وروبين يجذفان على نحو لا بأس به، لكن الفتيات لم يستطعن إتقان فنّ دفع المجداف إلى الأمام بدلاً من دفعه جانبًا نحو الضفة. كانوا يسرون سبعة أميال شمالاً إلى وودستوك للتجول في قصر بلنهام، لكنهم لم يدخلوه؛ لأن رسوم مشاهدة المعالم السياحية كانت باهظة. أدّت فرقة تمثيل زائرة بعض مقاطع من شكسبير في شليدونيان، وكان الأمر مريعًا. وكان تشويش الطلاب ذوي السلوك السيئ يزيد الأمور سوءًا، لكن الجودة لم تكن هي القضية.

فقبل نهاية يونيو، دار حديث الجميع عن تنويع الملكة فيكتوريا. وراح العديد من الطلاب والزملاء الموجودين في الحرم الجامعي يستقلون الحافلات المتجهة إلى ديديكوت ليركبوا القطار المتجه للندن قبلها بيوم، ولكن من بقوا في أوكسفورد دُعوا الحضور العرض المذهل. وأُشيع أن عشاء فخمًا يُعدُّ لفقراء ومُشرّدي أوكسفورد، لكن سلطات المدينة احتجت بأن اللحم المشوي الشهي وبودنج البرقوق سيُصيب الفقراء بحالة من الإثارة تجعلهم يفقدون القدرة على الاستمتاع بالإضاءة*؛ لذا قضى الفقراء تلك الليلة جوعًا، لكن الأضواء كانت جميلة على الأقل! راح روبين، ورامي، وفيكتوار، وليتي يتنزهون في هاي ستريت ممسكين بأكواب القرفة بالتفاح ومُحاولين استدعاء الشعور بالوطنية الذي تجلّى في جميع الناس.

وقبل نهاية الصيف، قاموا برحلة إلى لندن في عطلة نهاية الأسبوع حيث اغترفوا من حيويتها وتنوّعها ما كانت تفتقر إليه أوكسفورد التي باتت عالقة قُرونًا في الماضي، فذهبوا إلى دروري لين وشاهدوا عرضًا، لم يكن التمثيل فيه جيدًا، لكن مساحيق التجميل الصارخة وغناء الممثلة الشابة بصوت حاد أبقاهم مفتونين طوال مدة العرض التي استغرقت ثلاث ساعات. كما راحوا

* في ذلك الوقت، كانت السلطات في أوكسفورد كمثيلاتها في لندن تظن أن الفقراء أقرب للأطفال أو الحيوانات، لا بالعين أدكياء.



يجولون شوارع نيو كات وبحثوا في أكشاكها عن الفراولة الناضجة، والخُلي المفقدة، وأكياس الشاي الغريب، وألقوا العملات للقروء الراقصة وعازفي الأورج، وابتعدوا عن الداعرات الملوحات بأيديهن، وفحصوا أكشاك الشوارع مُتحققين من وجود قوالب فضة مزيفة بسعادة،* وتناولوا العشاء في مطعم «هندي حقيقي» يقدّم وجبات بالكاري أصاب رامي بخيبة الأمل لكنه أرضى الباقين. وناموا في سكن مشترك مُزدحم في داوتي ستريت. رقد رامي وروبين على الأرضية ملفوفين بسترتهما، في حين تجمّعت الفتيات في سرير ضيق، وكان الجميع يتهايمسون ويتضحكون حتى ما بعد منتصف الليل.

وفي اليوم التالي، تنزّروا في المدينة سيرًا على الأقدام وانتهوا إلى ميناء لندن حيث تجوّلوا على الأرصفة متعجّبين من السفن الضخمة، وأشرعتها البيضاء الكبيرة، وتشابك صواريخها وأشرعتها على نحو مُعقّد وجميل. حاولوا التعرف على الأعلام وشعارات شركات السفن المُرتحلة متسائلين ما إذا كانت قادمة من اليونان، أم كندا، أم السويد، أم البرتغال؟

وهنا قالت ليتي: «بعد عام من الآن، سنستقلّ إحداها. فإلى أين تظنّوننا سنُبحر؟».

كانت كل دفعة تتخرج في بابل تتطلق في رحلة عالمية فخمة مدفوعة رسومها بالكامل بعد نهاية اختبارات السنة الرابعة. وكانت تلك الرحلات مُترامنة عادة مع بعض أعمال بابل، إذ كان الخريجون يعملون مترجمين فوريين في بلاط نيكولاس الأول، ويبحثون عن الألواح المسمارية في أطلال ما بين النهرين، وذات مرة، تسببوا في شبه أزمة دبلوماسية في باريس،

* كما هي الحال في كل الأشياء الثمينة وغالية الثمن، كانت هناك سوق موازية ضخمة لقوالب الفضة المزيفة والبدائية. وفي نيو كات، كان المرء ليشتري الأحجية لطرد القوارض، وعلاج الأمراض المنتشرة، وجذب الشباب الأغنياء. كان معظمها مصنوعًا من دون دراية بمبادئ عمل الفضة، وكان يتضمن تعاويذ مؤلفة بلغات مستحدثة، تقليدًا للغات الشرقية. ولكن، كان بعضها، أحيانًا، تطبيقًا دقيقًا لعلم أصول الكلمات الشعبي. لهذا السبب، كان الأستاذ بلاي فير يُجري مسحًا سنويًا لأزواج الفضة المتطابقة المُهرّبة. بيد أن عملية المسح كانت تُجرى في سرية تامة.



لكنها كانت تُمثل في المقام الأول فرصة للخريجين لرؤية العالم، والانغماس في البيئات اللغوية الأجنبية التي كانوا منعزلين عنها أثناء سنوات دراستهم. كان يجب أن تُعاش اللغات وتُفهم، في حين كانت أوكسفورد في واقع الأمر، عكس الحياة الواقعية.

كان رامي مُوقناً أن دفعته سترسل إما إلى الصين وإما إلى الهند. «هناك الكثير من الأحداث. لقد فقدت شركة الهند الشرقية احتكارها في كانتون، وهو ما يعني أنهم سيحتاجون لمتترجمين لإعادة توجيه المشروعات بجميع أنواعها. أراهن أننا سنقوم برحلة إلى كالكوتا، ستروق لكم، وسوف نُقيم مع عائلتي لفترة. لقد كتبت لهم عنكم جميعاً، بل إنهم يعرفون أن ليتي لا تشرب الشاي وهو ساخن جداً. أو لعلنا سنذهب إلى كانتون. ألن يكون هذا رائعاً يا بيردي؟ متى كانت آخر مرة رأيت فيها وطنك؟».

لم يكن روبين متأكداً ما إذا كان يرغب في الرجوع إلى كانتون. لقد فكر في الأمر عدة مرات، لكنه لم يستطع استدعاء الشعور بالتوق، بل باغته شعور غامض بالذنب والخوف. لم يكن هناك ما ينتظره هناك، فلا أصدقاء، ولا عائلة، بل مجرد مدينة يتذكرها بصعوبة. كان بالأحرى يشعر بالخوف من كيفية تفاعله حال عودته لوطنه وعالم طفولته المنسية. ماذا لو لم يستطع الرحيل إذا عاد؟ وكان الأسوأ، ماذا لو لم يشعر بأي شيء على الإطلاق؟

قال روبين: «هناك احتمال أكبر أن تُرسل إلى موريشيوس، ولتستخدم الفتيات لغتهن الفرنسية».

فبادرت ليتي فيكتوار بسؤال: «أتظنين أن لكنة الكريول في موريشيوس تشبه لكنة الكريول في هايتي؟».

أجابت فيكتوار: «لست متأكدة من قدرة الشعبين على فهم كل منهما الآخر، فبالطبع لهما أساس فرنسي، لكن الكريول يتخذ قواعده النحوية من لغة فون، في حين أن كريول موريشيوس... لا أدري. لا توجد قواعد نحوية، ومن ثم، ليس لدي مرجع».



قالت ليتي: «لعلك ستكتبين واحداً».

فابتسمت لها فيكتور ابتسامة خفيفة وردّت: «ربما».

كان أسعد ما شهده ذاك الصيف من تقدم هو عودة المياه إلى مجاريها بين ليتي وفيكتور، بل إن كل الغرابة والتعقيد الذي شاب السنة الثالثة قد تبدّد بفعل أخبار نجاحهم في الاختبارات. لم تُعد ليتي تُزعج روبين، ولم يعد رامي يجعل ليتي تتجهم كلما تقوّه بكلمة.

والحق هو أن مشاحناتهم قد تأجّلت، ولم تُحلّ، فلم يتعرضوا للأسباب التي قد جعلتهم يتشاحنون، لكنهم كانوا يميلون لتحية اللوم على الضغوط. وكان الوقت ليأتي كي يواجهوا اختلافاتهم الحقيقية وحل الأمور بدلاً من تغيير الموضوع. لكنهم كانوا وقتئذٍ قانعين بالاستمتاع بالصيف وتذكر معنى أن يُحبّ بعضهم بعضاً.

وقد كانت تلك هي آخر الأيام السعيدة في واقع الأمر. وبدا الصيف أكثر قيمة إذ كانوا يعرفون أنه لن يدوم، وأن مثل هذه المباح كانت كذلك بسبب الليالي الطويلة المُرّهقة التي جلبتها. كانت السنة الرابعة لتبدأ قريباً، ثم اختبارات التخرج، ثم العمل. لم يكن أي منهم يعرف كيف ستسير الحياة بعد ذلك، لكن زمالتهم لم تكن لتستمر إلى الأبد. ففي النهاية، كانوا سيغادرون مدينة الأبراج الحالمة، ويتولّون مناصبهم الخاصة، ويُسيّدون ما قدّمه لهم معهد بابل. لكنهم نسوا المستقبل بكل ما يشوبه من غموض ومخاوف الآن، وبدا باهئاً مُقارنةً ببهجة الحاضر.

وفي يناير 1838، قدّم المخترع صامويل مورس عرضاً في موريتاون بنيو جيرسي مُتباهاً بجهازه الذي يستطيع نقل الرسائل عبر مسافات طويلة باستخدام الإشارات الكهربائية لتوصيل سلسلة من النقاط والشرطيات. وبسبب الشك، رفض الكونجرس الأمريكي منحه تمويلاً لتأسيس خط يربط تل الكابيتول في واشنطن بباقي المدن، ما قد يجرهم إلى عمل ذلك على مدى خمس سنوات. لكن باحثي المعهد الملكي للترجمة، فور سماعهم أن جهاز مورس يعمل، ارتحلوا للخارج وأغوا مورس بالحضور في زيارة تستغرق



شهورًا إلى أوكسفورد حيث دُهِل قسم أعمال الفضة بالجهاز الذي لا يتطلب أزواجًا متطابقة ليعمل، بل كان يعمل بالكهرباء. وقبل شهر يوليو 1839، استضافت بابل أول خط تلغراف يعمل في إنجلترا، وقد كان متصلًا بمكتب الخارجية في لندن*.

كانت شفرة مورس الأصلية تنقل الأرقام فحسب على افتراض أن المتلقي سيبحث عن الكلمات الموازية لها في دليل. كان هذا جيدًا للمحادثات التي تتضمن مفردات محدودة - مثل إشارات القطار، وتقارير الطقس، وبعض أنواع الاتصالات الخاصة بالجيش. ولكن بعد وصول مورس، استحدث الأساتذة دي فريز وبلاي فير شفرة ألفبائية رقمية تسمح بتبادل أي نوع من الرسائل**. لقد وسَّع هذا نطاق استخدام التلغراف لأغراض شخصية وتجارية، وغيرها. وسرعان ما انتشر الخبر أن لدى بابل وسيلة اتصال فورية بين لندن وأوكسفورد، وسرعان ما احتشد العملاء - لا سيما رجال الأعمال، والمسؤولين الحكوميين، بل ورجال الدين - في الردهة واصطفوا حول اللوح ممسكين بالرسائل التي كانوا يرغبون في إرسالها.

وإذ شعر الأستاذ لوفيل بالانزعاج بسبب الضوضاء، أراد توجيه الفخاخ الدفاعية نحو الحشد. لكن العقول المالية الأكثر هدوءًا تغلبت عليه. فقد أمر الأستاذ بلاي فير، الذي وجد إمكانية أكبر لتحقيق الربحية، بتحويل الجناح الشمالي الغربي من الردهة، والذي كان يُستخدم سابقًا في التخزين، إلى مكتب تلغراف.

وتمثل العائق الثاني في تعيين موظفين لتشغيل المكتب، وكان الطلاب هم المصدر الأكيد للعمالة المجانية، ومن ثم، طُلب من الطلاب والخريجين الزملاء تعلم شفرة مورس. لم يتطلب هذا سوى أيام؛ لأن شفرة مورس كانت

* بهذه الطريقة، أزعت بابل ومورس المخترعين ويليم كوك وتشارلز ويتستون إذ كان قد تُنبتت ماكينة التلغراف الخاصة بهما في جريت ويسترن ريلوي قبلها بعامين. غير أن تلغراف كوك وويتستون كان يعمل على الإبر المتحركة للإشارة إلى لوحة رموز مسبقة الإعداد، ولم تكن تلك لتدعم مدى الاتصال الذي كان يدعمه تلغراف مورس البسيط القائم على النقر.

** في إطار عمل يتسم بكرم أكاديمي مُذهل، سمحًا بالإشارة لهذا النظام المُعدّل باسم شفرة مورس.



اللغة النادرة التي ألغت العلاقة الدِّية بين رموز اللغة، شريطة أن يُلمَّ الشخص بالتواصل باللغة الإنجليزية. وحين انتهى سبتمبر وبدأ أكتوبر، ليبدأ فصل ميكلماس الدراسي في ذلك الخريف، كُلف جميع الطلاب في الحرم الجامعي بالعمل مناوبة واحدة مدتها ثلاث ساعات كل أسبوع. وهكذا كان روبين يجرجر نفسه في التاسعة من مساء كل يوم أحد إلى مكتب الردهة الصغير ويجلس بجوار ماكينة التلغراف ومعه كومة من المطالعات المقررة مُنتظراً بدء الإبرة بالأريز.

تمثلت ميزة المناوبة المتأخرة في تلقي البرج مراسلات قليلة جداً في تلك الساعات، إذ كان جميع موظفي مكتب لندن قد عادوا لمنازلهم. وكان كل ما على روبين عمله هو البقاء مُستيقظاً من التاسعة حتى منتصف الليل تحسباً لوصول أي رسالة طارئة، وفيما عدا ذلك كان حُرّاً في عمل ما يريده. وعادة كان يقضي تلك الساعات الثلاث في قراءة مقالاته أو مراجعتها لمُحاضرة اليوم التالي.

وكان بين الحين والآخر يطلّ من النافذة ويُغمض عينيه كي يريحهما من إرهاق الضوء الخافت. عادة كان المرح خالياً؛ فرغم ازدحام هاي ستريت أثناء اليوم، كان مُخيفاً في الليل بعد أن تغرب الشمس وتصبح الأضواء خافتة بفعل مصابيح الشارع أو الشموع الموقدة وراء النوافذ، إذ كانت تبدو كأوكسفورد أخرى موازية، بل بالأحرى أوكسفورد في مملكة الجان! وفي الليالي الصافية، كانت أوكسفورد تتغير وشوارعها تخلو من البشر، وأحجارها تصمت، وأسوارها وقلاعها تشي بالغاز ومغامرات وعالم مجرد قد يَصِلُ المرء فيه الطريق إلى الأبد.

وفي ليلة كتلك، رفع روبين عينيه من فوق سجلات التاريخ لشيما سيان ورأى شخصين مُتشحين بالسواد يُسرعان الخطى نحو البرج، فشعر بانقباض في معدته. ووقف حين وصلا إلى الدرج الأمامي، وسقطت أضواء البرج على وجهيهما، تبين أنهما رامي وفيكتوار.



جلس روبين مُتَجَمِّدًا من الدُّعر على مكتبه وهو غير متأكد ماذا ينبغي أن يفعل. كانا هنا في مهمة تابعة لهرمس، لا بد أن الأمر كان هكذا، فلم يكن هناك شيء آخر يُبَيِّرُ زِيَهَهما ونظراتهما الخاطفة، والرحلة إلى البرج في جوف الليل في حين كان روبين يعلم أن ليس لهما عمل هناك، إذ قد رأهما يُنْهِيَانِ بَحْثِيَهَما الخاصين بحلقة الأستاذة كرافت النقاشية على أرضية غرفة رامي قبل عدة ساعات.

هل استقطبهما جريفيْن؟ بالطبع. هكذا فكر روبين بمرارة. لقد فقد الأمل في روبين واتخذ آخرين من دفعته.

لم يكن لِيُبلِّغَ عنهما بالطبع، بل لم يكن هذا واردًا. لكن، هل كان يجب أن يُساعدَهما؟ لا، ربما لا، إذ لم يكن البرج خاليًا تمامًا، فلم يزل هناك باحثون في الطابق الثامن، ولو فاجأ رامي وفيكْتوار، لجذب انتباهًا غير مرغوب فيه. ومن ثم، تمثّل الخيار الوحيد في عدم عمل أي شيء. ولو تظاهر بعدم الملاحظة ونجحا فيما كان يريدانه، فلن يختلّ توازن حياتهما الهش في بابل ويتمكنا من الاحتفاظ على واجهة إنكار مقبولة عاشها روبين لسنوات.

وعلى أية حال، كان الواقع شديد القابلية للتطويع، إذ كانت الحقائق قابلة للنسيان والوقائع قابلة للكتمان، وبدأت الحياة التي تُرى من زاوية واحدة كمنشور خادع ما دام المرء قد قرر عدم تدقيق النظر.

انسلّ رامي وفيكْتوار من الباب وصعدا الدرج. كان روبين قد درّب عينيه على الترجمة مُحاولاً ألا يرهق أذنه في الاستماع إلى أي لمحة مما قد يكونان يفعلانه. وبعد مرور عشر دقائق، سمع أقدامًا تهبط. لقد حصل على ما أتيّا من أجله، وقريبًا سيخرجان من الباب فتمر اللحظة ويعود الهدوء ويُخْلي روبين ذهنه من هذا الأمر وكل تلك الحقائق المؤلمة التي لم يرغب في فك تشابكها.

وهنا نددت عن البرج صرخة مدوية، ثم سُمع صوت ارتطام مرتفع تبعه سِباب، فقفز وهرع إلى الردهة.



كان رامي وفيكْتوار مُحاصِرَين خارج الباب الأمامي، ومحبوسين في شبكة من الخيوط الفضية التي راحت تتضاعف وتتكاثر أمام أعينهما، وكانت مزيد من الخيوط تلتف حول معصميهما، وخصريهما، وكعوب أقدامهما، ورقبتيهما في كل ثانية. كان هناك عدد قليل من الأغراض المُبعثرة عند أقدامهما؛ ستة قوالب فضية، وكتابان قديمان، وقلم نقش، وكلها أدوات اعتاد طلاب بابل أخذها للبيت في نهاية اليوم.

ولكن يبدو أن الأستاذ بلاي فير قد نجح في تغيير الفِخاخ، بل قد حقق أكثر مما خشيهِ روبين، إذ قد غَيَّرَها على نحو يجعلها لا تكشف من يَمُرُّ وأي الأشياء فقط، بل كذلك ما إذا كانت الأغراض مشروعة أم لا.

فقال رامي لاهْتَأ: «ساعدني يا بيردي». كانت الخيوط الفضية تلتف بقوة حول عنقه وعينه تَبْرُرَان.

قال روبين وهو يجذب الخيوط: «لا تتحرك». فرغم كونها لزجة، كانت مطاطة وقابلة للكسر. كان مستحيلاً الإفلات منها دون مساعدة، فحرَّر عنق رامي وبديه أولاً، ثم جذبا فيكتوار خارج الشبكة، لكن ساقَي روبين التَفَّنا أثناء قيامه بذلك. يبدو أن الشبكة لم تكن لتتحرر إلا إذا سُجِنَتْ! لكن ضرباتها الشرسة قد توقفت، وأياً كان الزوج المتطابق المُستهدف للإنذار فقد توقف. أخرج رامي كعبيه وتراجع. لوهلة، راحوا ينظرون لبعضهم بذهول في ضوء القمر.

وأخيراً سألت فيكتوار: «وَأَنْتِ أَيْضاً؟».

قال روبين: «يبدو كذلك. هل أرسلكما جريفيْن؟».

فبدت فيكتوار مذهولة وقالت: «جريفيْن؟ بل أنطوني...».

«أنطوني ريبين؟».

فقال رامي: «بالطبع، ومن غيره؟».

«لكنه مات...».



قاطعته فيكتوار قائلة: «يمكن إرجاء هذا. اسمعاً، إنها الصافرات...».

قال رامي: «تنبأ! مل في هذا الاتجاه...».

قال روبين: «ليس هناك وقت». لم يستطع تحريك ساقيه. كانت الخيوط قد توقفت عن التكاثر - ربما لأن روبين لم يكن اللص - لكن الشبكة كانت شديدة الكثافة، وراحت تتمدد عبر المدخل الأمامي كله، ولو اقترب رامي، لحوصر الاثنان، فقال روبين: «اتركاني».

بدأ الاثنان يحتجان، فhez رأسه وقال: «يجب أن تفعلنا، فلم أتأمر ولا أعلم بما يجري...».

فسأل رامي: «أليس هذا واضحاً؟ نحن...».

فقال روبين بصوت خافت: «ليس واضحاً، فلا تخبرني». استمر أزيز الصافرة، وكان وصول الشرطة وشيگاً، فأردف روبين: «لا تقول شيئاً، وأنا لا أعرف أي شيء، وسأقول هذا حين يستجوبونني. أرجوكم أسرعاً وسأفكر في شيء ما».

فبدأت فيكتوار: «أأنت متأكد...».

فقال روبين بإصرار: «أذهباً».

فتح رامي فاه وأغلقه، ثم انحنى لجمع الأغراض المسروقة وفعلت فيكتوار الشيء نفسه ولم يترك سوى قالبين وراءهما - ورأى روبين أن هذا ذكاء، إذ كان ليدل على أن روبين كان يعمل وحده وأنه ليس له أعوان اختفوا بكل المهربات. ثم هرعاً هابطين الدرج وعبرا المرح ودخلا الزقاق.

فصاح أحدهم: «مَن هناك؟». وهنا رأى روبين المصاييح تبرز في الطرف الآخر من المربع، فتنى رأسه ونظر نحو برود ستريت مُحاولاً أن يلمح أي أثر لأصدقائه لكنه فشل. لقد أفلتوا ونجحت الخطة. كانت الشرطة لتأتي من أجل البرج فحسب، بل لتجده فحسب.

تنفس بارتباك ثم استدار مُواجهاً الضوء.



فسمع صرخات غاضبة، ووجد مصابيح تلمع أمام وجهه، وأيدي قوية تُمسِك ذراعيه. بصعوبة تبيّن روبين ما حدث في الدقائق التالية، بل لم يكن يعي سوى هذيانه غير المُترابط وصخب رجال الشرطة الذين راخوا يصرخون بمختلف الأوامر والأسئلة في أذنه. حاول اختلاق مُبرّر مُتمثّل في قصة عن رؤية لصوص وقعوا في الشبكة وكيف حبسوه حين ذهب لإيقافهم، لكن هذا بدا غير مُترابط، ولم يكن من رجال الشرطة إلا أن يضحكوا. وانتهى الأمر بأن حرروه من الشبكة وقادوه إلى البرج حيث غرفة صغيرة بلا نوافذ في الردهة، وقد خلت إلا من مقعد واحد. كان للباب قفل واحد على مستوى النظر مُغطّى بِرَفّ قابل للانزلاق، فبدت الغرفة أشبه بزنزانة منها بغرفة قراءة. راح يتساءل ما إذا لم يكن أول عميل لهرمس يُحتَجَز هنا، كما كان يتساءل ما إذا كانت البُقعة البنية الباهتة في الركن دَمًا جافًا.

قال الشرطي المسؤول وهو يُقَيّد يدي روبين وراء ظهره: «ستبقى هنا لحين وصول الأستاذ».

وبعدها، أغلق رجال الشرطة الباب ومضوا دون أن يقولوا أي أستاذ يقصدون أو متى سيعودون. وكان عدم المعرفة عذابًا. جلس روبين منتظرًا وركبته تهتزان وذراعه ترتجفان بؤسًا بسبب موجات الأدرينالين المُتلاحقة المُثيرة للغثيان.

لقد انتهى أمره، وقد كان متأكدًا أنه لا رجعة من هذا. كان من الصعب أن يُطرَد من بابل التي استثمرت كثيرًا في المواهب النادرة، ما جعلها تعفو عن طلابها السابقين لارتكابهم أي جريمة عدا القتل*. لكن السرقة والخيانة كانتا سببين للطرد بالتأكيد. وماذا بعد؟ هل ستنتهي به الحال إلى زنزانة في سجن المدينة، أو في نيوجيت؟ هل سيشنقونه، أم سيُرسَلونه في سفينة إلى حيث لم يكن لديه أصدقاء، ولا أسرة، ولا مستقبل؟

* كانت هناك لائحة من الجرائم التي نجا طلاب بابل من عقوباتها تتضمن السُكْر، والشجار، وإضافة ألفاظ بذيئة للأدعية التي تُنْثَل باللاتينية قبل العشاء).



وهنا برزت صورة في ذهنه. كانت صورة قد كبجها لما يقرب من عشر سنوات، صورة غرفة مكتومة تقوح منها رائحة المرضى، وأمه ترقد مُتَيْبِسة بجواره ووجنتاهما النحيفتان تتحولان أمام عينيه للون الأزرق. أما السنوات العشر الأخيرة - التي قضاها في هامبستيد، وأوكسفورد، وبابل - كانت سحرًا إعجازيًا، لكنه خرق القواعد - بل كسر التعويذة - وقريبًا سينطفئ البريق ويعود لمصاف الفقراء، والمرضى، والمُحتَضرين، والأموات.

ثم انفتح الباب.

«يا روبين».

كان هذا صوت الأستاذ لوفيل. بحث روبين في عينيه عن شيء - من الرقّة، أو خيبة الأمل، أو الغضب - أو أي شيء يُنبئ بما يجب أن يتوقع. لكن تعبير وجه والده كان يشبه القناع الجامد الذي لا يكشف أي شيء. «صباح الخير».

* * *

«اجلس». كان أول شيء فعله الأستاذ لوفيل هو فك وثاق روبين، ثم قاده أعلى الدرج إلى مكتبه في الطابق السابع، ثم جلسا مواجهين بعضهما بشكل عفوي وكأنهما اجتماعا لدرس أسبوعي.

«أنت محظوظ؛ لأن الشرطة بدأت بالاتصال بي. تخيّل لو وجدوا جيروم؟ كنت لتفقد ساقيك الآن». ثم مال الأستاذ لوفيل إلى الأمام عاقفًا يديه فوق مكتبه، وأردف: «منذ متى وأنت تُسرّب الموارد لجمعية هرمس؟».

شحب وجه روبين، إذ لم يتوقع أن يكون الأستاذ لوفيل مباشرًا هكذا. كان السؤال شديد الخطورة. كان من الواضح أن الأستاذ لوفيل على علم بهرمس. لكن ماذا كان قدر معرفته؟ إلى أي مدى يستطيع روبين الكذب؟ لعله كان



يُدَّلس، وربما كان روبين يستطيع تَلْمُس طريقه للخروج من هذا لو صاغ كلماته بالطريقة الصحيحة.

قال الأستاذ لوفيل بصوت قاسٍ ومُحَايِد: «قل الحقيقة، فهذا هو الشيء الوحيد الذي سينقذك».

تنهد روبين وقال: «ثلاثة أشهر». كانت ثلاثة أشهر أقل ضررًا من ثلاث سنوات، لكنها كانت فترة طويلة على نحو كافٍ لتبدو قابلة للتصديق. «منذ الصيف فحسب».

قال الأستاذ دون غضب: «فهمت». كان الهدوء يجعله مخيفًا وغير مُحْتَمَل. كان روبين يُفَضِّل أن يصرخ.

«أنا يا سيدي...».

صاح الأستاذ لوفيل: «صمتًا».

أغلق روبين فمه، فلم يكن الأمر مهمًا. لم يكن يعلم ما كان ليقوله. لم يكن باستطاعته توضيح موقفه وسط هذه الفوضى، ولا سبيل لإبراء ساحته، بل كان كل ما يمكنه عمله هو مُواجهة الأدلة الواضحة على أنه قد غُدر به وانتظار العواقب. ولكن، ليته يستطيع النأي برامي وفيكثوار من الأمر ويُقنَع الأستاذ لوفيل بأنه كان يعمل وحده، كان هذا ليكفي.

فقال الأستاذ لوفيل بعد برهة طويلة: «مجرّد التفكير في أن جحودك قد ظهر على هذا النحو الكريه».

ثم مال إلى الخلف وهز رأسه وأردف: «لقد فعلت من أجلك أكثر مما تتخيل. كنت عامل رصيف في كانتون، وكانت أمك منبوذة. حتى لو كان أبوك صينيًا» وهنا اهتز صوت الأستاذ لوفيل وكأنه يعترف بشيء، «كان مركزك ليظل كما هو. كنت لتعيش على الكفاف طوال عمرك. لم تكن لتعانين شواطئ إنجلترا. لم تكن لتقرأ هوراس، ولا هوميروس، ولا ثوكيديد، بل وحتى لم تكن لتفتح كتابًا على أية حال. كنت لتعيش وتموت في جهل وقذارة،



دون أن تتخيل عالم الفرص الذي وقَّرتَه لك. لقد رفعتك من الفقر المدقع وأهديتك العالم».

«لم أفعل يا سيدي...».

«كيف تجرؤ؟ كيف تجرؤ على دهس كل ما مُنحت بقدميك؟».

«سيدي...».

قال الأستاذ لوفيل دون أن تتغير نبرة صوته: «أتعرف إلى مدى أنت مميز بهذه الجامعة؟». كان كل مقطع يتفوه به يطول، ثم يُمدّ ويُنطق كأن الكلمات تُبَثَّر في بدايتها. «هل تعرف كم تدفع كل أسرة لترسل أبناءها إلى أوكسفورد؟ تستمتع بالترف والإقامة بلا مقابل، وتُمنَح مصروفًا شهريًا، وتدخل أكبر مخازن المعرفة في العالم. هل ظننت أن موقفك عادي؟».

ضجَّ رأس روبين بالعديد من الاحتجاجات، إذ لم يطلب من أوكسفورد هذه المميزات، ولم يختر الخروج من كانتون على الإطلاق، وأن كرم الجامعة يجب ألا يُطالب بولائه الدائم والثابت للتاج ومشاريعه الاستعمارية، ولو فعل، لصار هذا شكلاً غريباً من أشكال العبودية التي لم يكن ليوافق عليها، وأنه لم يعرف ما الحياة التي كان ليختارها. أهي هذه أم حياة ينشأ فيها في كانتون بين أناس يُشبههم ويتحدث لغتهم؟

لكن ما الجدوى؟ قال الأستاذ بسخرية: «هل استمتعت بهذا؟ لعلك شعرت فعلاً. أتخيل أنك اعتبرت نفسك بطلاً مثل الذين قرأت قصصهم - ديك توربين قاطع الطريق، أليس كذلك؟ كنت دائم الولع بروايات الرعب الرخيصة. ألم تكن طالباً مُجتهداً نهاراً ولصاً ساحراً ليلاً؟ هل كان الأمر رومانسياً يا روبين سوفيت؟».

«لا». وهنا فرد روبين كتنفيه مُحاولاً ألا يبدو مذعوراً على نحو مثير للشفقة على الأقل. فلو كان ليعاقب، كان لِيَتَمَسَّك بمبادئه. «لا، بل كنت أفعل الصواب».

«أوه! هل هذا هو الصواب؟».



«أعلم أنك لا تُبالي، لكني فعلت ولست أسفًا. ويمكنك عمل ما تريد».

مال الأستاذ لوفيل للخلف وشبك أصابعه ببعضها بعضًا وأطرق قائلاً: «لا يا روبين. أخبرني ما كنت تُناضل من أجله». وكان هذا امتحان، وكأنه كان يستمع بالفعل. «هيا، أفتعني، بل حاول تجنّدي وافعل ما بوسعك».

قال روبين: «ليست طريقة بابل في جمع المواد عادلة».

«أوه! ليست عادلة!».

فتابع روبين بغضب: «ليست صحيحة، بل أنانية. تذهب كل فضتنا إلى الرفاهية، والجيش، وصناعة القماش المُزخرف، والأسلحة، في حين يموت الناس بسبب أشياء تافهة تستطيع القوالب علاجها. ليس صحيحًا أن تنتدبوا طلابًا من الدول الأخرى لتشغيل مركز الترجمة دون أن تحصل أوطانهم على شيء في المُقابل».

كان يعرف هذه الحُجج جيدًا، بل كان يُردد ما قاله له جريفين، تلك الحقائق التي قد استوعبها. مع ذلك، وإزاء صمت الأستاذ لوفيل المُطيق، بدا كل شيء سخيًا. بدا صوته ضعيفًا مُتردّدًا أجوف!

فتابع الأستاذ لوفيل: «ولو كنت تشعر بالاشمزاز من الأساليب التي تُثري بابل نفسها بها، فكيف عساك كنت تبدو مسرورًا بأخذ المال منها؟».

جفل روبين وأجاب: «لم... لم أطلب...». تراجع ووجنتاه مُحمرّتان من الخجل.

«تتناول المشروبات يا روبين، وتحصل على مصروف، وتعيش في غرفة مفروشة في ماجباي لين، وتتنزّه في الشوارع بزِيك وملابسك المُحاكاة، والكلية هي التي تدفع كل هذا، ومع ذلك تقول إن كل هذا المال يأتي من الدم. ألا يزعجك هذا؟».

كان هذا هو بيت القصيد، أليس كذلك؟ فمن الناحية النظرية، كان روبين مُستعدًا للتخلي عن بعض الأشياء فحسب لصالح ثورة كان شبه متأكد منها.



كانت المقاومة تروق له ما دامت لا تؤذيه. وكان التناقض جيدًا ما دام لا يبذل جهدًا للتفكير أو يدقق النظر فيه. لكن حين نُطق بالأمر بهذه الصراحة وذلك الأسلوب القاتم، بدا أنه، بعيدًا عن كون روبين ثوريًا، لم يكن لديه قناعات على الإطلاق.

فارتسم الاستهجان على وجه الأستاذ لوفيل مجددًا وقال: «ألا تزعجك الإمبراطورية الآن؟».

فكر روبين: «ليس عدلاً. ليس إنصافًا...».

فقال الأستاذ لوفيل مُقلِّدًا: «عدلاً. هَبْ أنك اخترعت العجلة. فهل ستجد نفسك فجأة مُجبرًا على مشاركة أرباحك مع كل من يُديرها بيده؟».

«لكن ليس الأمران مُتشابهين...».

«فهل نحن مُجبرون على توزيع قوالب الفضة على العالم أجمع للدول المُتخلفة التي كانت لديها كل الفرص لإنشاء مراكز الترجمة الخاصة بها؟ لا يتطلب الأمر استثمارًا كبيرًا لدراسة اللغات الأجنبية. لماذا يجب أن تتحمل بريطانيا المسؤولية لو فشلت باقي الأمم في استغلال ما لديها؟».

فتح روبين فمه للرد، لكنه لم يستطع التفكير في شيء يقوله. لماذا تعذر العثور على كلمات؟ كانت حُجته تفتقر إلى شيء، لكنه لم يستطع معرفة ما التجارة الحرة، والحدود المفتوحة، وتكافؤ الوصول للمعرفة نفسها. كان هذا كله جيدًا من الناحية النظرية. ولكن لو كان الملعب مُتساويًا، فلم تراكمت كل الأرباح في بريطانيا؟ هل كان البريطانيون أكثر ذكاءً واجتهادًا؟ هل لعبوا بعدل ومساواة وفازوا؟

فسأل الأستاذ لوفيل: «من جندك؟ لا بد أنهم لم يُتقنوا العمل».

لم يجر روبين جوابًا.

«هل كان جريفيين هارلي؟».

جفل روبين، وهو ما كان اعترافًا كافيًا.



«بالطبع كان جريفيين». نطق الأستاذ الاسم كمن ينطق لعنة. ثم راقب روبين للحظة طويلة، مُدَقِّقًا في وجهه وكأنه سيجد شبح ابنه الأكبر في ابنه الأصغر، ثم سأله بنبرة رقيقة غير مُعتادة: «هل تعرف ما حدث لإيفيلين بروك؟».

أجاب روبين: «كلا»، رغم أنه يفكر في أن يقول نعم. لم يكن على علم بتفاصيل القصة، بل بفكرة عامة فحسب. كان على وشك ربط الخطوط معًا، ومع ذلك أحجم عن استكمال اللغز لأنه لم يرغب في معرفته ولم يشأ أن يكون صحيحًا.

قال الأستاذ لوفيل: «كانت ذكية، بل أفضل طالبة لدينا. كانت فخر الجامعة وبهجتها. هل تعرف أن جريفيين هو من قتلها؟».

تراجع روبين وقال: «لا، ليس هذ...».

«ألم يخبرك؟ في الواقع، لست مُندهشًا. كنت أتوقع أن يَشْتَمَ». كانت عينا الأستاذ شديدتَي الاحمرار، فأردف: «دعني أوضح لك إذا. قبل خمس سنوات، كانت إيفي - إيفي المسكينة البريئة - تعمل في الطابق الثامن بعد انتصاف الليل. كان مصباحها موقدًا، لكنها لم تلحظ أن باقي الأضواء مُطفأة. هكذا كانت إيفي، فحين كانت تُركز في عملها، كانت تفقد الإحساس بما يُحيط بها. لم يكن لديها شيء سوى البحث.

دخل جريفيين هارلي البرج نحو الساعة الثانية صباحًا. لم يرَ إيفي، إذ كانت تعمل في الركن الخلفي ووراء وحدات العمل، وظن أنه وحده. فتقدم جريفيين لعمل ما يبرع فيه - وهو السرقة، والنهب، والتنقيب في المخطوطات الثمينة كي يُهرَّبها إلى مكان لا يعلمه إلا الله. كان قد اقترب من الباب حين رآته إيفي».

وهنا سكت الأستاذ لوفيل، وهو ما أربك روبين حتى رأى شيئًا أذهله، إذ كانت عينا الأستاذ مُحمرَّتَيْن ومُبتَلَّتَيْن. كان الأستاذ لوفيل الذي لم يُبَدِّ ولو قليلاً من المشاعر على مدى كل تلك السنوات التي عرفه فيها روبين يبيكي.



قال بصوت مُتهدِّج: «لم تفعل أي شيء. لم تدق جرس الإنذار ولم تصرخ. لم يكن عندها فرصة من الأساس. كانت إيفلين بروك في المكان الخطأ والتوقيت الخطأ فحسب. وقد عثرت عليها في صباح اليوم التالي».

وهنا مد يده ونقر قالب الفضة على طرف مكتبه. كان روبين قد رآه عدة مرات من قبل، لكن الأستاذ لوفيل كان مُحفِظاً به مقلوباً وشبه مُخبأ وراء إطار الصورة، ولم يجرؤ روبين على السؤال، ثم قلبه الأستاذ لوفيل وقال: «هل تعرف ما يصنعه هذا الزوج المُتطابق؟».

نظر روبين لأسفل ليجد الجانب الأمامي مكتوباً عليه 爆 فتقلصت معدته. كان يشعر بخوف شديد من أن ينظر للخلف.

قال الأستاذ لوفيل: «باو، أي جذر النار، وبجانبه جذر العنف، والقسوة، والاضطراب. ويعني الجذر الوحشية نفسها والقسوة غير المروضة، ويُستخدم الجذر عينه في كلمات مثل الرعد والقسوة*». وقد ترجمها إلى انفجار، أخف كلمة إنجليزية، كانت خفيفة على نحو يجعلها غير مُترجمة على الإطلاق. ومن ثم احتُبست كل القوة والدمار في الفضة، فانفجر في صدرها ومزَّق أضلعها كأنها قفص مفتوح، ثم تركها مُلقاة بين الأرفف والكُتب بين يديها. رأيتها غارقة في بركة من الدماء، وقد لطخ دمها كل صفحة». ثم مرر القالب فوق الطاولة وقال: «أمسيكه».

فجفل روبين وقال: «سيدي؟».

قال الأستاذ لوفيل بغضب: «التقطه واستشعر ثقله».

فمد روبين يده وقبض القالب بيده. كان شديد البرودة، بل أكثر برودة من أي فضة عرفها، وشديد الثقل. كان يمكنه تصديق أن هذا القالب قتل شخصاً بالفعل، إذ بدا كأنه يَطنُّ بقوة محبوسة وشرسة، بل كأنه قُنْبلة مُشتعلة توشك على الانفجار.

* يتكون هذا الحرف من جذرين 火 و 暴.



كان يعرف أن السؤال غير مُجَدٍ، لكنه اضطر لذلك، فسأل: «كيف عرفت أن جريفين الفاعل؟».

أجاب الأستاذ لوفيل: «لم يكن لدينا دارسون آخرون للغة الصينية في السنوات العشر الماضية. هل تفترض أنني الفاعل أم الأستاذ شاكرافارتي؟».

هل كان يكذب؟ كان هذا مُحتملاً، إذ كانت القصة مُرعبة جداً، بل إن روبين لم يُصدقها، ولم يشأ أن يصدق أن جريفين يمكنه اقتراف جريمة القتل.

لكن، ألم يكن هو؟ كان جريفين هو من يتحدث عن هيئة تدريس بابل وكأنهم جيش مُعادٍ، وهو من أرسل أخاه عدة مرات إلى الفوضى دون أن يعبأ بالعواقب، وهو من كان مُقتنعاً أيما اقتناع بالعدالة الصارمة للمعركة التي كان يخوضها، ما جعله لا يرى أي شيء آخر. ألا يمكن أن يكون جريفين هو من قتل فتاة ضعيفة لو كان هذا يجعل هرمس في أمان؟

همس روبين: «آسف، لم أكن أعرف».

قال الأستاذ لوفيل: «هذا هو الشخص الذي قررت أن تُلقي بنفسك بين يديه، شخص كاذب وقاتل. هل تتخيل أنك تُناصر إحدى حركات التحرر العالمي؟ لا تكن ساذجاً، فأنت لا تدعم سوى أوهام العظيمة عند جريفين. ولأي غرض؟». وهنا مال على ذراع روبين وقال: «رصاصه في ذراعك؟».

«كيف تمكّنت...».

«لاحظ الأستاذ بلاي فير أن ربما جُرحت ذراعك أثناء التجديف. لست ممن يُخدعون بسهولة». ضمَّ الأستاذ لوفيل يديه على المكتب ومال إلى الخلف وقال: «لعل الخيار صار واضحاً، فإما بابل وإما هرمس».

فتجهم روبين وقال: «سيدي؟».

«إما بابل وإما هرمس. هذا في غاية البساطة. يمكنك الاختيار».



شعر روبين كأنه أداة مكسورة، ولم يستطع إلا التقوه بعباراة واحدة: «سيدي، أنا لا...».

«هل تعتقد أنك ستُطرَد؟».

«حسنًا- نعم، ألن...».

«يؤسفني أن أقول إن ترك بابل ليس بهذه السهولة، لقد حدث عن الطريق، لكنني أظن أن هذا كان نتيجة لمؤثرات شريرة، بل أكثر قسوة وخُبثًا مما كنت تتوقع أن تتعامل معها. صحيح أنك ساذج ومُخيب للتوقعات. لكنك لم تنتهِ. يجب ألا ينتهي أمرك بالسجن». نقر الأستاذ لوفيل المكتب بأصابعه وقال: «لكن سيكون من المفيد أن نُعطينا شيئًا نافعًا».

«شيء نافع؟».

«المعلومات يا روبين. ساعدنا في العثور عليها. ساعدنا في اقتلاعها من جذورها».

قال روبين: «لكني لا أعرف أي شيء عنهم، بل لا أعرف أي اسم سوى جريفين».

«حقًا؟».

«هذا حقيقي، فهذه هي طريقتهم في العمل - إنهم غاية في المركزية ولا يُخبرون أيًا من مُعاونيهم الجُدد بأي شيء. تحسبًا...» ابتلع روبين ريقه وأردف: «تحسبًا لحدوث شيء كهذا».

«يا لسوء الحظ! هل أنت متأكد تمامًا؟».

«نعم، فأنا حقًا لا...».

«قُل ما تقصده يا روبين ولا تتردد».

جفل روبين، إذ كانت هذه تحديدًا الكلمات نفسها التي استخدمها جريفين حسبما تذكر. وقد نطقها جريفين بالطريقة نفسها التي نطقها الأستاذ لوفيل،



ببرود ولا مُبالاة وكأنه كسب المُناظرة، وكأن أي إجابة يتقوه بها روبين كانت هراءً.

كان روبين يتخيل جريفيين وهو يبتسم باستخفاف ويعرف ما كان ليقوله تحديداً - بالطبع سوف تختار راحتك الشخصية أيها الباحث الصغير المُدلل.

لكن بأي حق كان جريفيين يَحْكُم على خياراته؟ لم يكن البقاء في بابل وأوكسفورد تدليلاً، بل كان نجاة، إذ كانت جواز مروره لهذه البلاد، بل الشيء الوحيد الذي يسمح له بالتجول في الشوارع.

وهنا شعر بجذوة الكراهية تجاه جريفيين تشتعل بداخله. لم يكن روبين قد طلب أي شيء من هذا، وها هو مستقبله - ومستقبل كل من رامي وفيكيتوار - قد صار على المحاك. وأين كان جريفيين؟ أين كان حين أطلق الرصاص على روبين؟ لقد اختفى. لقد استغلهم في تنفيذ أوامره، ثم تخلى عنهم حين ساءت الأمور. فلو كان جريفيين قد ذهب إلى السجن، لاستحق ذلك فعلاً.

قال الأستاذ لوفيل: «لو كان الولاء هو ما يبيّك صامتاً، فلا يوجد ما نستطيع عمله، لكنني ما زلت أرى أنه بإمكاننا العمل معاً. لا أظنك مُستعداً لترك بابل، أليس كذلك؟».

تنفّس روبين بعمق.

ما الذي كان يتخلى عنه؟ لقد تخلت عنه جمعية هرمس، وتجاهلت تحذيراته، ووضعت زميليه العزيزين في خطر. لم يكن مديناً لهم بأي شيء.

وعلى مدى الأيام والأسابيع التالية، كان ليُحاول إقناع نفسه بأن هذه لحظة تنازل استراتيجي، لا لحظة غدر. فلم يكن ليتخلى عن شيء ذي أهمية كبرى - ألم يقل جريفيين إن لديه عدة منازل آمنة؟ كذلك فإنه كان ليحمي رامي وفيكيتوار دون أن يُطرّد، وكانت كل خطوط الاتصال مع هرمس لتبقى لبعض التعاون المُستقبلي؛ لكنه لم يستطع أن يَخْدَع نفسه بهذه الحقيقة الكريهة، ألا وهي: إن الأمر لم يتعلق بهرمس، ولا برامي وفيكيتوار، بل بغريزة البقاء.



قال: «سأنت ألديت. مدخل الدار الخلفي. هناك باب بجوار البدروم يبدو صدناً ومُغلَقاً، لكن جريفين يمتلك مفتاحه، ويستخدمونه كغرفة سرية».

كتب الأستاذ لوفيل هذا وقال: «كم مرة يتردد على هذا المكان؟».

«لا أعرف».

«ماذا يوجد بداخله؟».

أجاب روبين مُجدداً: «لا أعرف، إذ لم أدخل بنفسِي، فلم يُخبرني سوى بالقليل، آسف».

ألقى الأستاذ لوفيل عليه نظرة طويلة وباردة، ثم بدا كأنه يتراجع.

ثم مال نحو المكتب وقال: «أعلم أنك أفضل من هذا، إذ لا تُشبه جريفين على الإطلاق. أنت متواضع، وذكي، ومجتهد، كذلك لم يُفسدك تراثك كما حدث له. لو كنت قد قابلتك للتو، لشككت أنك صيني، إذ تتمتع بموهبة كبيرة، والموهبة أهل لفرصة ثانية، لكن احترس يا فتى». وهنا أشار إلى الباب وتابع: «لن تكون هناك فرصة ثالثة».

وقف روبين ثم نظر إلى يده ليلاحظ أنه ظل مُمسكاً بالقلب الذي قتل إيفي بروك طوال الوقت. كان يشعر ببرودته وحرارته آنياً، وكان يخشى، على نحو غريب، أنه لو لمسهُ لفترة أطول، لَصَنَعَ ثَقْباً في كَفِّهِ، فمدّه وقال: «تفضل يا سيدي».

قال الأستاذ لوفيل: «احتفظ به».

«سيدي؟».

«لم أنفك أحق إلى القلب كل يوم على مدى السنوات الخمس الماضية متسائلاً كيف أخطأت في حق جريفين. لو كنت قد رببته بشكل مُختلف أو رأيته على حقيقته مُبكراً، ولو أن إيفي ما زالت... لكن لا بأس» اخشوشن صوت الأستاذ لوفيل وقال: «صار يُورَق ضميرك. احتفظ به يا روبين



سوفيت، بل احمله في جيبك الأمامي وأخرجه متى بدأت تشك ودعه يذكرك في أي جانب يوجد الأشرار».

أشار لروبين كي يترك المكتب، وراح روبين يتعثر على الدرج قابضًا بيده على الفضة ومصدومًا ومُتأكدًا أنه دفع عالمه بأسره. لكن لم يكن لديه أدنى دليل ما إذا كان قد فعل الصواب، أو ما يعنيه الصواب والخطأ من الأساس، أو كيف ستسير الأمور.



فاصل

رامي

لطالما أبدى رامي رافي ميرزا ذكاءً، حيث كان يتمتع بذاكرة استثنائية وقدرة فائقة على الكلام. كان يستوعب اللغات كما يمتص الإسفنج الماء، وكانت أذناه موسيقيتين حساستين للصوت والإيقاع، فلم يكتفِ بترديد ما يسمعه ويستوعبه من عبارات، بل كان ينطقها مُقلِّداً المُتحدِّث الأصلي بدقة بالغة، مُضيفاً على كلماته المشاعر المقصودة وكأنه يتقمَّص الشخصية في اللحظة نفسها. فلو عاش في عالم آخر، لأصبح المسرح ماله. كان يتمتع بمهارة ساحرة في جعل الكلمات البسيطة تبدو كأغنيات.

كان رامي ذكياً، وكانت لديه فرصة كافية لإظهار ذلك. لقد نجحت عائلة ميرزا في تجاوز مَحَن تلك الحقبة بنجاح كبير، فرغم كونها إحدى العائلات التي فقدت أراضي وممتلكات بعد تسوية البنغال الدائمة، وجد آل ميرزا عملاً ثابتاً، وإن لم يكن مُريحاً، في منزل السيد هوراس هايمان ولسن، أمين الجمعية الآسيوية للبنغال في كالكوتا. كان السير هوراس مُهتماً أيما اهتمام بلغات الهند وآدابها، بل وكان يجد مُتعة كبيرة في تجاذب أطراف الحديث مع والد رامي الذي كان مُتقناً للعربية، والفارسية، والأردية.

ومن ثم، نشأ رامي بين الأسر الإنجليزية الراقية في مدينة كالكوتا البيضاء بين المنازل ذات الأروقة والأعمدة المُشيَّدة على الطراز الأوروبي والمتاجر التي تخدم العملاء الأوروبيين حَصْرِيًّا. اهتم ولسن بتعليم رامي مُبكراً، وفي حين كان أقرانه يلعبون في الشوارع، كان رامي يحضُر الدروس في المدرسة الدينية بكالكوتا حيث تعلَّم الحساب، وعلوم الدين، والفلسفة،



والعربية، والفارسية، والأردية مع أبيه. وتعلّم اللاتينية واليونانية من مُعلّمين عنّينهم ولسن، واستوعب الإنجليزية من العالم المُحيط به.

وفي منزل ولسن، كانوا يُطلقون عليه اسم «الأستاذ الصغير»، و«رامي المبارك»، و«رامي المُذهّل». لم يكن رامي يدري ما الغرض من أي شيء يدرسه عدا كون الكبار يسعدون بإتقانه إياه. وكثيراً ما كان يؤدي خُدعاً أمام ضيوف السير هوراس في حُجرة الصالون. كانوا ليعرضوا أمامه سلسلة من أوراق اللعب وكان ليكرّر بدقة مُتناهية نوع ورقة اللعب ورقمها حسب ترتيب ظهورها. وكانوا ليقروّوا أبياتاً كاملة من الشعر الإسباني أو الإيطالي وكان ليعيد تلاوتها بلحنها وكل شيء حتى دون أن يفهم أي كلمة!

كان يتباهى بهذا في وقت ما، وكان يطيب له سماع صيحات الدهشة التي تصدر عن الضيوف، ويحب أسلوبهم في مُداعبة شعره ووضع الحلوى في كَفِّه قبل أن يأمره بالذهاب إلى المطبخ. لم يكن يفهم شيئاً عن الطبقات ولا الأعراق وقتها، بل كان بالأحرى يظنّها لعبة! لم يكن يَر والده وهو يُراقبه من الركن وحاجباه مُقْطبان قلَقاً، ولم يعرف أن إثارة إعجاب الرجل الأبيض قد تُماثل في خطورتها استفزازه.

وذات ظهيرة، حين كان في الثانية عشرة من عمره، استدعاه ضيوف ولسن أثناء نقاش مُحتمم.

«تعال يا رامي». كان الرجل الذي استدعاه هو السيد تريفيليان وهو زائر دائم ذو شوارب جانبية كبيرة وابتسامة مكرة جعلته شبيهاً بالذئب.

فقال السير هوراس: «دعه وشأنه».

«أريد إثبات شيء»، وهنا أشار السيد تريفيليان بإحدى يديه قائلاً: «تعال يا رامي لو سمحت».

لم يقل السير هوراس لرامي ألا يفعل. فأسرع رامي ووقف بجوار السيد تريفيليان واضعاً يديه وراء ظهره كجندي صغير. كان يعرف أن الضيوف الإنجليز يعشقون هذا الأسلوب ويجدونه مُتميزاً، فقال: «نعم يا سيدي».



قال السيد تريفيليان: «عد إلى عشرة باللغة الإنجليزية».

فأطاع رامي. كان السيد تريفيليان يعلم أنه سيفعل ذلك، لكن الأداء كان مُستهدفًا باقي السادة الحاضرين.

فقال السيد تريفيليان: «عُد الآن باللاتينية». وحين أتمَّ رامي العد، قال: «والآن باليونانية».

فأطاع رامي. فارتفعت ضحكات الرضا في أرجاء الغرفة. وهنا قرر رامي أن يُجرب حظه، فقال بلغة إنجليزية مثالية: «الأعداد الصغيرة للأطفال الصغار. لو أردت التحدث عن الجبر، فاختر لغة وسنفعل هذا أيضًا».

فضجت الغرفة بضحكات الانبهار، فابتسم رامي وراح يتأرجح على قدميه مُنتظرًا وضع قطعة حلوى أو عُملة في كَفِّه.

فاستدار السيد تريفيليان نحو باقي الضيوف وقال: «خُذُوا هذا الفتى وأباه في الاعتبار، إذ يتمتع كلاهما بالقدرة نفسها، وكذلك الخلفية والتعليم. وقد نَمَى إلى علمي أن أباه ذو ميزة أكبر، ذلك أنه كان ينتمي إلى طبقة تجار ثرية. لكن الدنيا لا تثبت على حال، فيوم لك ويوم عليك. ورغم مواهبه الفطرية، لن يستطيع السيد ميرزا الوصول إلى شيء أفضل من كونه خادمًا في منزل. ألا تتفق معي يا سيد ميرزا؟».

لحظتها رأى رامي أغرب تعبير على وجه أبيه، وبدا كأنه يُخفي شيئًا أو كأنه ابتلع شيئًا مرًّا ولم يستطع بصقه.

وفجأة بدت اللعبة غير مُسلية، بل شعر بالضيق لتباهيه لكنه لم يتبين السبب.

فقال السيد تريفيليان: «هَلَمْ يا سيد ميرزا. لا تستطيع الادعاء أنك كنت تريد أن تُصبح خادمًا شخصيًا».



فضحك السيد ميرزا بتوتر ورد: «إنه لشرف كبير أن أخدم السير هوراس ولسن».

«كفى! لست مضطراً لأن تكون مؤدباً، فنحن على أتم علم بعاداته السيئة».

حدّق رامى إلى والده؛ ذاك الرجل الذي ظنه راسخاً كالجبل والذي علّمه كيف يقرأ كل نصوصه: الرومانية، والعربية، الرجل الذي علّمه تأدية العبادات الدينية ومعنى الاحترام، وكان حافظه.

أوماً السيد ميرزا وابتسم وقال: «نعم، هذا صحيح يا سيد تريفيليان. أفضل بالطبع أن أكون في مركزك».

فرد السيد تريفيليان: «حسناً، لك هذا. هؤلاء الناس طموحون يا هوراس، إذ يتمتعون بالذكاء ويمتلكون الرغبة في تقرير المصير كما ينبغي أن تكون*. إن سياستكم التعليمية هي التي تُحبطهم. لا تمتلك الهند لغة فن الحكم. فرغم كون أشعاركم وملاحكم مُثيرة للاهتمام، فإنكم في أمور الإدارة...»

وهنا ضجت الغرفة بنقاش مُحترق، ونُسي رامى. فنظر إلى ولسن انتظاراً للمكافأة، لكن أباه حدّجه بنظرة حادة وهز رأسه.

كان رامى صبيّاً ذكيّاً، وعَرَف كيف يختفي عن الأنظار.

وبعد مرور عامين، وفي عام ١٨٣٣، غادر السير هوراس ولسن كالكوستا لتقلّد منصب أول رئيس للغة السنسكريتية بجامعة أوكسفورد**. كان السيد

* رغم عدم علمه، كان رامى محور النقاش بينهم باعتبارهم متخصصين في اللغات الشرقية، بمن فيهم السير هوراس الذي كان يُفضّل تدريس الطلاب الهنود السنسكريتية والعربية، وكان المتخصصون في اللغة الإنجليزية بمن فيهم السيد تريفيليان يرون أن الطلاب الهنود الواعدين يجب أن يتعلموا الإنجليزية. وكان النقاش ليصب في صالح متخصصي اللغة الإنجليزية الذين كان يمثلهم بقوة المقال الشهير للورد توماس مكولاي في فبراير 1835 بعنوان «دقيقة عن التعليم» حيث كتب: «في الوقت الحالي، يجب علينا أن نبذل قصارى جهدنا لإعداد طبقة من المترجمين بيننا وبين الملايين الذين تُحكّمهم، وهي طبقة من الأشخاص الهنود من حيث الدم واللون، لكنهم إنجليز من حيث الذوق، والآراء، والأخلاق، والفكر».

** أثار اختيار ولسن لهذا المنصب شيئاً من الجدل، إذ خاض منافسة شديدة مع رجل الدين دلبيو إتش ميل للانتخاب، ونشر مُناصرو رجل الدين ميل شائعة أن ولسن لم يكن مؤهلاً للوظيفة من حيث شخصيته، إذ كان له ثمانية أطفال غير شرعيين. أما مُناصرو ولسن، فقد دافعوا عنه قائلين إنه ليس لديه سوى طفلين اثنين!

والسيدة ميرزا يعرفان أنه لا يجب الاعتراض على اقتراح ولسن بإرسال رامي إلى إنجلترا، ولم يَلَمْ رامي والديه لعدم المُقاومة لاستبقائه بجانبهما. (كان قد عرف وقتها أن تحدي الرجل ذي البشرة البيضاء أمر خطر).

أوضح ولسن: «سوف يُرَبِّيهِ موظفِي في يوركشاير وسأزوره متى سنحت الفرصة بأخذ إجازة من الجامعة. وحين يكبر، سوف أُلحِقُهُ بإحدى كليات الجامعة. قد يكون تشارلز تريفيليان مُحَقًّا، وقد تكون اللغة الإنجليزية هي الطريق الذي يُحَقِّق من خلاله أبناء البلاد التقدم. بيد أن للغات الهندية قيمة حين يتعلق الأمر بالباحثين. تفيد الإنجليزية العاملين في الإدارة المدنية، لكننا نحتاج لأن يدرس عباقرتنا الفارسية والعربية، أليس كذلك؟ يجب أن يُبقي أحدهم التقاليد العتيقة على قيد الحياة».

ودعت الأسرة رامي عند المرفأ. لم يكن قد حزم الكثير من الأغراض، إذ كان يعلم أن مقاساته ستزيد خلال نصف عام.

أمسكت أمه بوجنتيه وقبّلته في جبينه وقالت: «أحرص على مُراسلتنا مرة كل شهر، بل مرة كل أسبوع، وأحرص على أداء العبادات».

«حاضر يا أمي».

وتعلقت أخواته بسترته وسألنّه: «هل سترسل بعض الهدايا؟ هل ستقابل الملك؟».

أجاب قائلاً: «نعم، بل لا، أنا لا أبالي بالأمر».

وقف أبوه في الخلف مُراقباً زوجته وأبناءه وهو يرمش بقوة وكأنه يستودع كل شيء ذاكرته. وأخيراً، حين انطلق نداء ركوب السفينة، احتضن ابنه وهمس: «الله حافظ* . اكتب لوالدتك».

«حاضر يا أبي».

* إلى اللقاء: في رعاية الله.



«ولا تنسَ أصلك يا راميز».

«بالتأكيد يا أبي».

كان رامى في الرابعة عشرة من عمره وقتها، وكان على قدر من النضج يسمح له بفهم معنى الكرامة. أراد رامى أن يفعل أكثر من مجرد التذكر، إذ فهم سبب ابتسام أبيه يومئذٍ في حجرة الصالون، فلم يكن ضعفاً ولا خضوعاً، ولا حتى خوفاً من الانتقام، بل كان بالأحرى يلعب دوراً وكيف يُوضّح لرامى كيف يمكن عمل ذلك.

كان الدرس هو، بل أهم درس تعلمه في حياته: الكذب يا راميز. أخفِ نيتك يا راميز. أظهر للعالم ما يريده، وحوّل نفسك إلى الصورة التي يريدون رؤيتها لأن التحكم في مقاليد القصة هو الطريقة التي تتحكم بها فيهم. أخفِ إيمانك، وأخفِ صلواتك، لأن الله يعلم ما في قلبك.

يا لروعة أداء رامى! لم يجد صعوبة في التنقل بين أوساط المجتمع الإنجليزي الراقي، إذ كان هناك عدد لا بأس به من المقاهي، والموسيقى، والمسارح الإنجليزية في كالكوستا، ومن ثم لم يكن ما رآه في يوركشاير سوى امتداد للعالم الراقي المُصغّر الذي نشأ فيه. فكان يضبط لحنه، يُغلّظها أو يُخفّفها، حسب جمهوره. لقد عرف كل الأفكار الغربية التي يحملها الإنجليز عن قومه، وكان يُوضّحها ككاتب مسرحي مُتمرّس، ويرد بقوة موازية. كان يعرف متى يلعب دور البحار الهندي، والخادم، والأمير. كما تعلّم متى يُجامل ومتى يُغالي في التواضع. كان بإمكانه كتابة أطروحة عن كبرياء ذوي البشرة البيضاء وفضولهم، كما كان يعرف كيف يجعل نفسه موضع إعجاب ويُحَيّد نفسه كعنصر تهديد في ذات الوقت. وقد صَقَل أعظم الجيل المُتمثلة في خداع الإنجليز كي ينظروا إليه باحترام.

صار شديد الإتيقان لذلك، ما جعله يكاد يتماهى في الخداع. كان تصديق الممثل روايته واغتراره بالتصفيق من أخطر الفخاخ التي يقع فيها الممثل. كان يتخيل نفسه زميلاً في الدراسات العليا مُغرقاً بالأوسمة والشهادات،



ومُبحراً ذهاباً وإياباً بين إنجلترا وكالكتا، ومُحضّراً لأسرته ثروات وهدايا كلما عاد.

كان أحياناً يخاف من سهولة التحرك في أوساط أوكسفورد ومن سهولة تحقيق المستقبل الذي كان يتخيله. كان مُذهلاً من الخارج، وكان يشعر في قرارة نفسه أنه خائن مُزيف، بل كان مُوشكاً على اليأس والتساؤل ما إذا كان كل ما سيُحقّقه هو أن يُصبح أحد أتباع الإمبراطورية كما كان ولسن يُخطّط، إذ كانت طرق مقاومة الاستعمار تبدو قليلة للغاية بل وميؤوساً منها.

وحتى السنة الثالثة، حين عاد أنطوني ريبين مما ادّعى أنه موت وسأله: «هلاً انضممت إلينا؟».

ومن دون أي تردد، نظر رامي إليه بثقة وأجاب: «نعم، بالتأكيد».



الفصل السادس عشر



يبدو أنَّ الصينيين - كشعب محقق للربح ومُحبّ للمال - مُدمنون على التجارة وتوافقون كأي أمة على الأرض لاستمالة الغرباء لعقد تبادل تجاري.

جون كروفورد، «الإمبراطورية الصينية والتجارة»

أتى الصباح، واستيقظ روبين واغتسل، وارتنى ملابسه استعدادًا للمُحاضرة.

قابل رامي خارج السَّكن، فلم يَنبَسْ أي منهما ببنت شفة، بل سارا في صمت نحو باب البرج الذي انفتح وأدخلهما على الرغم من الخوف الذي باغت روبين. كانا قد تأخرا وكانت الأستاذة كرافت قد بدأت المُحاضرة حين جلسا. حدثهُمَا ليتي بنظرة غضب، في حين أومأت فيكتوار لروبين ووجهها خالٍ من التعبير. واصلت الأستاذة كرافت الشرح وكأنها لم ترهما. كانت هذه هي طريقتهما في التعامل مع التأخير. فأخرجتا قلميَّهما وشرعا يُدَوِّنان الملاحظات عن تاسيتوس وصعوبة جُمْلِهِ الإضافية المطلقة.

بدت قاعة الدرس عادية وغاية في الجمال في آنٍ واحد، إذ كان ضوء الصباح يتدفق من زجاج النوافذ المُعشَّق مُولِّدًا أشكالاً مُلَوَّنة على المكاتب الخشبية المطلية، علاوة على احتكاك الطباشير بالسبورة وجمال رائحة الكُتب العتيقة. كان هذا خُلْمًا، بل هو خُلْم مُستحيل، هذا العالم الجميل الرقيق الذي سُمح له بالبقاء فيه مُقابل التخلّي عن قناعاته.

بعد ظهر ذلك اليوم، تلقوا رسائل في صناديق بريدهم ليستعدُّوا للرحيل إلى كانتون عبر لندن قبيل الحادي عشر من أكتوبر. كان سيقضون ثلاثة



أسابيع في الصين؛ أسبوعان منها في كانتون، وأسبوع في ماكاو، ثم يتوقفون في موريشيوس لعشرة أيام في طريق العودة.

«إن الجو مُعتدل في وجهاتكم، بيد أن الرحلة البحرية قد تكون باردة. أحضروا معاطف ثقيلة». هذا ما ورد في الرسائل.

سألت ليتي: «أليس الوقت مُبكراً إلى حد ما؟ ظننت أننا لن نذهب إلا بعد الاختبارات».

أشار رامي إلى نهاية الصفحة وأجاب: «هذا مُوضَّح هنا. هناك ظروف خاصة في كانتون، فهم بحاجة لمتترجمين للغة الصينية ويريدون أن يَسُدَّ طلاب بابل هذه الفجوة. ومن ثم، تم تقديم موعد رحلتنا».

قالت ليتي بسعادة: «حسناً، هذا مُشوّق! ستكون أول فرصة للخروج إلى العالم وعمل شيء».

تبادل روبين ورامي وفيكتوار النظرات بعضهم مع بعض، إذ كانوا يُشاركون الشكوك نفسها، فقد ارتبط موعد تلك الرحلة بليلة الجمعة، لكنهم لم يستطيعوا أن يعرفوا ما يعنيه ذلك لبراءة رامي وفيكتوار المُفترضة أو ما كانت تُخبئه الرحلة لهم.

كان اليوم السابق لمُغادرتهم جَحيماً، وكانت ليتي هي الوحيدة التي تشعر بالإثارة، وهي التي أخذت على عاتقها دخول غَرْفهم ليلاً والتأكد من أن حقائبهم مُعدة على النحو المُناسب. فقالت وهي تطوي أَقْمِصَة رامي وتضعها على السرير في كُومة مُرتَّبة: «لا تعرف كم يشدّ البرد في البحر وقت الصباح. سوف تحتاج لأكثر من قميص من الكتان يا رامي، بل ستحتاج لطبقتين على الأقل».

أبعد رامي يدها قبل أن تصل إلى جواربه وقال: «أرجوك يا ليتيتيا. لقد سافرنا بحرّاً من قبل».

ردّت مُتجاهلة إياه: «حسناً، كنت أسافر بانتظام، ومن ثم، أعرف. ويجب أن نحتفظ بصندوق صغير من الأدوية - بعض الأعشاب المُنومة والزنجبيل



- لست مُتأكدة من توافر وقت للذهاب إلى متجر. قد نستطيع عمل هذا في لندن».

رد رامي بغضب: «سنقضي وقتاً طويلاً على سفينة صغيرة. ليست حملة حربية».

استدارت ليتي بجدية لترتيب حقيبة روبين. فألقت فيكتوار نظرة عَجَز على رامي وروبين. لم يستطيعوا التحدث بحرية في وجود ليتي، ومن ثم، جلسوا يَحْتَرِفُونَ توتراً. كانت الأسئلة نفسها غير المُجاب عنها تُعْكَرُ صفوفهم. ماذا كان يجري؟ هل سامحهم أم هل كانوا لِيُلاقوا مصيراً مُظْلمًا؟ هل سيستقلون السفينة المُتجهة إلى كانتون بسداجة ثم يُتركون على الجانب الآخر؟

وكان أهم شيء هو كيف جُبِدُوا في جمعية هرمس فُرَادَى دون أن يعرف الباقون؟ كان لرامي وفيكتوار عُذر على الأقل، إذ كانا مُستجِدِّين في هرمس. لَعَلَّهُما كانا مذعورين من طلب الجمعية الصمت وعدم البوح بأي شيء لروبين، لكن روبين كان يعرف هرمس منذ ثلاث سنوات، ولم يتحدث عنها ولو مرة واحدة، ولا حتى لرامي. لقد أدى عملاً رائعاً بإخفاء سِرِّهِ الأعظم عن الأصدقاء الذين، حسب ما أعلنه، كانوا الأقرب إلى قلبه.

وقد ظن روبين أن هذا قد أصاب رامي بالذعر. فبعد أن اصطحبا الفتاتين شمالاً إلى مقرّ إقامتهما في تلك الليلة، حاول روبين أن يتطرق للموضوع، لكن رامي هز رأسه وقال: «ليس الآن يا بيردي».

شعر روبين بألم في قلبه وقال: «لكني أردت أن أوضح فحسب...».

فقال رامي باقتضاب: «لَعَلَّهُ يجب أن ننتظر فيكتوار، أليس كذلك؟».

توجَّهوا إلى لندن بعد ظهر اليوم التالي برفقة الأستاذ لوفيل الذي كان يُشرف عليهم طوال الرحلة التي استغرقت، لحسن الحظ، وقتاً أقصر من عربة البريد التي قد أوصلت روبين إلى أوكسفورد قبل ثلاث سنوات.

كان خط السكة الحديدية بين أوكسفورد ومحطة بادينجتون قد استُكْمِل أخيراً خلال الصيف المُنصرم، وتم إحياء افتتاحه بتنشيت قوالب فضة تحت



رصيف محطة أوكسفورد حديثة التأسيس*، ومن ثم، لم تستغرق الرحلة سوى ساعة ونصف الساعة. في تلك الأثناء نجح روبين في عدم النظر في عيني الأستاذ لوفيل ولو لمرة واحدة.

لم تُغادر سفينتهم حتى اليوم التالي، فأقاموا الليلة في فندق صغير في شارع نيو بوند. أصرَّت ليّتي على الخروج لاستكشاف لندن لوقت قصير، فأنتهى بهم الأمر بالذهاب لمشاهدة عرض في غرفة الجلوس لامرأة تدعو نفسها الأميرة كارابو. كانت الأميرة كارابو مشهورة بين طلاب بابل. كانت ذات يوم ابنة إسكافي فقير، لكنها أقنعت العديد من الناس أنها كانت ابنة ملك أحد البلاد النائية من جزيرة جافاسو. لكن سرَّ الأميرة كارابو انكشف قبل عقد، وعُرف أنها ماري ويلكوكس من شمال ديفون وأن استعراضها، الذي يتضمن رقصة غريبة مُتقطّعة، وعدة تعبيرات قوية بلغة مُختلفة لإله كانت تدعوه اللا-تلا (ما أثار اشمئزاز رامي)، بدا أكثر إثارة للشفقة منها للضحك. ترك الاستعراض انطباعاً سيئاً عندهم، فعادوا للفندق في حالة تعب وكسل.

وفي صباح اليوم التالي، صعدوا على متن سفينة سريعة مُتجهة إلى كانتون رأساً تُدعى ميروب. كانت هذه السفن مُهيأة للسرعة، إذ كانت تنقل بضائع قابلة للتلف ذهاباً وإياباً بالسرعة الممكنة، ومن ثم، كانت مُزوَّدة بقوالب فضة عصرية كي تُسرّع الرحلة. تذكر روبين رحلته الأولى من كانتون إلى لندن بشكل غير واضح، إذ كانت منذ عشر سنوات واستغرقت ما يقرب من أربعة أشهر. أما السفن السريعة، فكان بإمكانها إنهاء الرحلة فيما لا يزيد على ستة أسابيع.

* انتشرت خطوط السكة الحديدية في بريطانيا بسرعة شديدة بعد اختراع المحرك البخاري الذي يعمل بالفضة. وكان الخط الرابط بين ليفربول ومانشستر البالغ طوله خمسة وثلاثين ميلاً قد أُبْس عام 1830، وكان أول خط يُوسَّس للاستخدام العام، ومنذ ذلك الحين، مُدَّ ما يقرب من سبعة آلاف ميل من السكك الحديدية في جميع أنحاء إنجلترا. وكان الخط المُمتد بين أوكسفورد ولندن يُهمدُّ على نحو أسرع لو لم يُعطَّله أساتذة أوكسفورد لنحو أربع سنوات بحجة أن سهولة الوصول إلى العاصمة وما تحويه من إغراءات قد تؤدي لفساد الشباب السُدج، والمتروكين تحت رعايتهم، أخلاقياً، وبسبب الضوضاء أيضاً.



وفيما كانت ميروب تَمْخُرُ عُباب مياه التايمز خروجًا من ميناء لندن إلى البحر المفتوح، سألتهم ليتي: «أنتشعرون بالإثارة؟».

لم يكن روبين مُتأكدًا، وانتابه شعور غريب وهم يصعدون. مع ذلك لم يستطع أن يَصِفَ شعوره بعدم الارتياح. بدا رجوعه ضربًا من الخيال. فقبل عشر سنوات، كان يشعر بالإثارة وهو يُبحر نحو لندن ورأسه يَمْوَج بأحلام عن عالم الجانب الآخر من المحيط. أما هذه المرة، فظن أنه يعرف ما يجب أن يتوقعه. وكان هذا يرعبه. راح يتخيل عودته للوطن برعب شديد، كان رُعب من يجهل وطنه الأم. هل كان ليتعرّف على ما سيراه؟ هل كان ليتذكره؟ وفي الوقت عينه، كان توقّع رؤية كانتون مُجددًا يبدو مُفاجئًا وغير قابل للتصديق. لقد صارت لديه قناعة غريبة أنه حين يصلون إلى كانتون، سيجدونها قد اختفت من على وجه الأرض.

وكان الشيء الأكثر إثارة للربح هو إجباره على البقاء هناك، وأن لوفيل قد كذب عليه، وأن هذه الرحلة برُمّتها كانت مُخطّطة كي يخرج من إنجلترا ويُنفَى من أوكسفورد ويُقصَى عن كل ما يعرفه إلى الأبد!

في الوقت نفسه، كان يقضي ستة أسابيع من المُعاناة في البحر، بدت جحيماً منذ البداية. كان رامي وفيكتوار أشبه بالموتى وهما يسيران مُتوترين بوجهين شاحبين، وَيَجْفَلان من أقل ضجّة، ولا يستطيعان الانخراط في أقل دَرْدَشَة دون أن تظهر على وجهيهما أمارات الذعر الشديد. لم تُعاقب الجامعة أيًا منهما. ولم يُسَدَّع أي منهما للاستجواب. لكن روبين ظن أن الأستاذ لوفيل كان يشك في ضلوعهما على الأقل، إذ كُتِبَ ذنبهما على وجهيهما. إذًا، فما مقدار معرفة بابل؟ وما مقدار معرفة هرمس؟ وماذا حدث لغرفة جريفين السرية؟

لم يشأ روبين أكثر من مُناقشة الأمور مع رامي وفيكتوار، لكن الفرصة أبدًا لم تُتَحْ لهم. كانت ليتي دائمة الوجود. وحتى في الليل، حين كانوا يعودون إلى حُجراتهم المُستقلّة، لم تُسَنَحْ الفرصة لفيكتوار كي تتسلل وتنضم للصبيين دون أن تُثير شكوك ليتي. لم يكن أمامهم خيار سوى التظاهر بأن كل شيء



كان طبيعياً، لكنهم كانوا مرعوبين من هذا. كانوا جميعاً مُتَعَرِّقِينَ، ومُتَوَثِّرِينَ، ومُتَهَيِّجِينَ، لم يستطع أي منهم أن يستنفر حماس الباقين لما كان ليبدو أكثر فصول مسارهم المهني تشويقاً. كذلك، فلم يستطيعوا التحدث في أي شيء آخر، فلم تحضرهم أي من نكاتهم القديمة ولا حواراتهم التافهة بسهولة، وحين كان هذا يحدث، كانوا يَبْذُون مُنْكَفِّين وغير تلقائيين.

كانت ليتي تُزَعِّج الجميع بإلحاحها، وثرثرتها، ولا مُبالاتها، ورغم محاولتهم إخفاء توترهم، إذ لم تكن مُخطئة، لم يستطيعوا منع أنفسهم من الرد عليها بغضب متى سألتهم عن رأيهم في أطعمة كانتون للمرة العاشرة!

وأخيراً أدركت أن شيئاً كان يحدث. وبعد ثلاث ليالٍ، وبعد أن غادر الأستاذ لوفيل المطعم، وضعت شوكتها بعصبية على طاولة العشاء وسألت: «ما خطبكم جميعاً؟».

حدجها رامي بنظرة باردة وأجاب: «لا أعرف ما تقصدين».

ردّت ليتي بغضب: «لا تتظاهر. إنكم تتصرفون جميعاً بغرابة، ولا تلمسون الطعام، وثهملون دروسكم، بل إنني لا أَظُنُّكَ لمست مُعْجَم العبارات يا رامي، وهو أمر مُضحك، فلم تنفكْ تقول على مدى شهور أنك تراهن على تقليد اللكنة الصينية أفضل من روبين...».

فقال فيكتور بلا تفكير: «نعاني دُوار البحر. هل تفهمين؟ لم يَنْشَأْ كُلُّنا على التَّنَقُّل بين بُلدان البحر المُتوسط مثلك».

فسألت ليتي بخُبث: «لعلكم كنتم تعانون دُوار البحر في لندن كذلك؟».

أجاب رامي بحدّة: «بل تَعَبْنَا من سماع صوتك».

تراجعت ليتي وهي مصدومة.

أزاح روبين مقعده للخلف ووقف وقال: «أريد بعض الهواء».

فنادته فيكتور، لكنه تظاهر بعدم سماعها. شعر بالذنب لتركه رامي وفيكتور لليتي والهروب من العواقب الكارثية، لكنه لم يتحمّل البقاء على



الطاوله للحظة أخرى، كان يشعر بالحرارة والانفعال، وكأن ألف نملة تزحف تحت ملابسه. ولو لم يُلذَّ بالفرار، ويَتَمَشَّى، ويَتَحَرَّك، لانفجر.

وفي الخارج، كان الجو باردًا والظلام مُوشِگًا، وخلا سطح السفينة إلا من الأستاذ لوفيل الذي كان يُدَجِّن عند مُقَدِّمة السفينة. كاد روبين يستدير عائدًا حين رآه، فلم يحدثا بعضهما بعضًا بكلمة فيما عدا المُجاملات منذ الصباح التالي لضبطه. لكن الأستاذ لوفيل كان قد رآه بالفعل. فخفض غليونه وأشار إلى روبين لينضم إليه. اقترب روبين منه وقلبه يَخْفِق.

أوماً الأستاذ لوفيل رأسه نحو الأمواج المُظلمة المُتلاطمة وقال: «أتذكر أن آخر مرة قمت فيها بهذه الرحلة كنت صغيرًا جدًّا».

لم يعرف روبين كيف يُجيب، فاكتفى بالتحديق إلى الرجل مُنتظرًا أن يُتَابِع. وهنا فوجئ أن الأستاذ لوفيل مد يده ووضعها على كَتِفِه، لكن لَمَسْتِه كانت غريبة وغير تلقائية، وذات زوايا غير مُتناسبة وضغط كبير. وقف الاثنان في حيرة وتوتر وكأنهما مُمْتَلِان أمام كاميرا داجير حافظين موقعهما ريثما يَلْمَع الضوء.

قال الأستاذ لوفيل: «أؤمن بالبدايات الجديدة». بدا كمن تدرَّب على هذه الكلمات، إذ خرجت مُنْقَطِعَةً ومُتَكَفِّة كَلَمَسْتِه، ثم أردف: «أعني أنك موهوب جدًّا يا روبين. كنا لنأسف على ضياعك».

لم يجد روبين ما يقوله سوى: «أشكرك» إذ لم يكن يعرف إلى أين يَتَّجِه الحديث.

تَنَحَّح الأستاذ لوفيل وحَرَكَ غليونه قبل أن يتحدث وكأنه يُجبر الكلمات على الخروج من صدره وقال: «على أية حال، ما أريد أن أقوله هو - لعلَّه كان يجب أن أقوله من قبل - أنفهم أنك تشعر... بأنني خيَّبت توقعاتك».

قال روبين بتعجُّب: «سيدى؟».



نظر الأستاذ لوفيل إلى المُحيط ثم قال: «كان يجب أن أكون أكثر تعاطفًا مع موفقك». كان يبدو مُرتبًا من النظر في عيني روبين والتحدث في الوقت نفسه. «كانت نشأتك خارج بلادك، وتركك كل ما تعرفه وراءك، والتأقلم على بيئة جديدة حيث أنا مُتأكد من تليفك - أقل قدر مما تحتاج إليه من رعاية وحب... كانت كلها هي ما أثرت في جريفيين كذلك، ولا يسعني أن أقول إنني تَوَلَّيت الأمور على نحو أفضل للمرة الثانية. لست مسؤولاً عن قراراتك الخاطئة، لكنني أعتزف بأنني ألوم نفسي جزئيًا على هذا».

تتنح مُجددًا وتابع: «أود أن نبدأ من جديد. صفحة جديدة لك والتزام مُتجدد من جانبي كوصي أفضل. سنعتبر أن الأيام السابقة لم تأتِ أبدًا، وسنضع جمعية هرمس وجريفيين وراء ظهرنا، وسنُفكر في المُستقبل وجميع الأشياء الرائعة والمجيدة التي سنُحققها في بابل. هل يرضيك هذا؟».

لوهلة لم يستطع روبين الرد. وللأمانة، لم يكن هذا تنازلاً كبيرًا، فقد اعتذر الأستاذ لوفيل عن برود مشاعره، لكنه لم يعتذر عن رفضه الاعتراف ببُنية روبين. لم يكن قد اعتذر عن تركه أمه تموت.

مع ذلك، كان قد قَدَّر مشاعر روبين أكثر من أي وقت، بل ولأول مرة منذ صعدوا ميروب، شعر روبين بأنه يَستطيع التنفّس.

فتمتم روبين: «نعم يا سيدي». فلم يكن لديه شيء آخر يقوله.

فربت الأستاذ لوفيل كتفه وقال: «إدًا، حسنًا». كانت حركة شديدة الغرابة، ما جعل روبين يَنفَر وَيَنطَلِق مُبتعدًا عنه وَيَصعد الدرج وهو يقول: «طابت ليلتك».

استدار روبين ونظر للأمواج، ثم تنهد مُجددًا وأغلق عينيه مُحاولًا أن يَتَخَيَّل كيف كان ليشعر لو استطاع مَحو الأسبوع الماضي.

ألم يكن ليشعر بنشوة وسعادة بالغة؟ كان ليتطلّع إلى الأفق، ويُسابق الزمن نحو المُستقبل الذي درّب نفسه له؟ وياله من مُستقبل رائع! رحلة ناجحة إلى كانتون، وعام دراسي رابع مُرهق يَلِيهِ التخرج وتَقَلُّد مَنْصِب في وزارة



الخارجية أو زمالة في البرج، ورحلات مُتكرّرة إلى كانتون، وماكاو، وبكين، ومُستقبل مهني طويل زاهر يعمل خلاله مُترجمًا لصالح التاج البريطاني. كان هناك بضعة مُتخصصين في اللغة الصينية في إنجلترا. كان بإمكانه تحقيق السبق في عدة أمور. وكان بإمكانه استكشاف العديد من المجالات. أيجب ألا يرغب في ذلك؟ أيجب ألا يُثير هذا حماسه؟

كان بإمكانه الحصول على ما يريد. كان هذا ما يُحاول الأستاذ لوفيل أن يُخبره به، إذ يمكن تطويع التاريخ، وأن كل ما يهم هو القرارات الحالية. كان بالإمكان دُفن جريفيين وجمعية هرمس في خفايا الماضي البعيد، فلم يكن مُضطّرًا للغدر بهم، بل ببساطة يمكنه تجاهلهم تمامًا كما اتفق مع أخيه، وأن يُطرح كل ما سبق في بحر النسيان.

فتح روبين عينيه وَحدَقَ إلى الأمواج المُتلاحقة حتى فقد التركيز ووجد نفسه ينظر في العدم، وحاول إقناع نفسه بأنه لو لم يكن سعيدًا، فعليه أن يكون قَانِعًا.

مرَّ أسبوع على الرحلة دون أن يحظى روبين ورامي وفيكتور بلحظة خصوصية يتحدثون فيها معًا. وأثناء نُزهة النهار، عادت ليتي إلى سطح المَرَكب مُدَّعية ارتباك معدتها، فعرضت عليها فيكتور على استحياء أن تعود معها، لكن ليتي صرفتها، إذ كانت مُتضايقَة من الجميع وكانت تُريد الانفراد بنفسها.

«لا بأس». وبعد أن انصرفت ليتي، اقتربت فيكتور من روبين ورامي وسدَّت فجوة غيابها ليقف ثلاثتهم مُلاصِقين لبعض وكأنهم بناية منيعة تُصدُّ الرياح.

«ماذا بالله عليك...».

بدأ الجميع يتحدثون في نَفَس واحد.

«لمماذا لم...».

«أُتظن أن لوفيل...».



«متى كانت أول مرة لك...».

ثم لازم الجميع بالصمت، فحاولت فيكتوار مُجددًا وسألت روبين: «من جَنَدُكَ إِيَّاهُ؟ لم يكن أنطوني، إذ كان لِيُخبرنا».

«لكن أليس أنطوني...».

قال رامي: «لا، بل هو حي يُرَزَق، إذ ادعى الموت في الخارج. لكن أجب عن السؤال يا بيردي».

قال روبين وهو مصدوم من هذا الإعلان: «إنه جريفيين. أخبرتك بأنه جريفيين لوفيل».

فسألت فيكتوار: «مَن هذا؟» وفي الوقت نفسه، قال رامي: «لوفيل؟».

«إنه طالب سابق في بابل. أظنُّه أيضًا... أقصد أنه قال إنه أخي غير الشقيق. يُسبِّهني، ونعتقد أن لوفيل - أقصد أبانا -». كان روبين يتلَعَّم في الكلام. كان الحرف الصيني 布 يعني «قماش» و«يَحكي» و«يُخبر». كانت الحقيقة مُطرَّزة على نسيج قماشي ممدود لإظهار تفاصيله. لكن روبين، بعد أن صرح أصدقائه بالحقيقة، لم يكن يعرف أين يَبْدَأ، إذ كانت الصورة المعروضة مُشوَّشة وغير واضحة ومُحرَّفة مهما شرح ما بها من تفاصيل مُعقَّدة. «لقد ترك بابل قبل عدة سنوات، ثم اختفى بعد حادث إيفي بروك - أقصد... أظنُّه قتل إيفي بروك».

قالت فيكتوار: «يا إلهي! حقًا؟ لماذا؟».

أجاب روبين: «لأنه ضابطته يُؤدي مهمة لصالح هرمس، ولم أكن أعلم حتى أخبرني الأستاذ لوفيل».

فسأل رامي: «وهل صدَّفته؟».

قال روبين: «نعم، نعم، أرى أن جريفيين ليفعل. إن جريفيين نوع من البشر...». ثم هز رأسه وأردف: «اسمعا، المُهم هو أن لوفيل يظن أنني كنت أعمل بمفردي. هل تحدث مع أي منكما؟».



أجابت فيكتوار: «لم يتحدث معي».

قال رامي: «ولا أنا. لم يسألنا أحد على الإطلاق».

فهتف روبين: «هذا جيد، أليس كذلك؟».

ساد صمت مُريب. لم يَبْذُ رامي وفيكتوار مُستريحَيْن بالقدر الذي توقَّعه روبين.

فقال رامي: «أهذا جيد؟ هل هذا ما تَوَدُّ قوله؟».

فسأله روبين: «ماذا تقصد؟».

فألَحَّ رامي: «ماذا تَظُنُّني أقصد؟ لا تَتَهَرَّب من الموضوع. كم من الوقت عملت مع هرمس؟».

كان الصدق هو طُوق النجاة الوحيد هنا، فأجاب روبين: «منذ بدأت الدراسة، بل منذ الأسبوع الأول».

«هل تمزح؟».

لمست فيكتوار ذراعه وقالت: «لا يا رامي...».

فقال رامي بغضب: «لا تقولي إن هذا لا يُغضبك. إنها ثلاث سنوات. لم يُخبرنا بما يفعل لمدة ثلاث سنوات».

قال روبين: «مَهْلًا، هل أنت غاضب مني؟».

«من الجيد أنك فهمت هذا يا بيردي».

«بل لم أفهم يا رامي، ما الخطأ الذي ارتكبته؟».

تتهدت فيكتوار ونظرت إلى مياه البحر، في حين حدجه رامي بنظرة حادَّة، ثم صاح: «لماذا لم تُخبرنا؟».

فوجئ روبين بمرارته وقال: «هل أنت جاد؟».



قال رامي: «لقد عرفت جريفيين لسنوات. إنها سنوات، ولم تُفكر في إخبارنا بالأمر. ألم يخطر ببالك أننا سنرغب في الانضمام كذلك؟».

لم يصدق روبين أنه كان ظالمًا، فقال: «لكنك أبدًا لم تُخبرني...».

ردَّ رامي: «أردت ذلك».

قالت فيكتوار: «كنا سوف نفعل. لقد توَّسَّلنا لأنطوني، بل كدنا نُفشي السر عدة مرات وظل يمتنعنا، لكننا قررنا أن نُخبرك بأنفسنا وكنا سنفعل هذا يوم الأحد...».

فألحَّ رامي: «لكنك لم تطلب من جريفيين، أليس كذلك؟ ثلاث سنوات، بالله عليك يا بيردي!».

قال روبين بعجز: «كنت أحاول حمايتكم».

ردَّ رامي بسخرية: «مِمَّ تَحْمِينا؟ من الجمعية التي أردنا الانضمام إليها؟ لماذا لم تدعني أقرِّر هذا بنفسِي؟».

أجاب روبين: «لأنني كنت أعرف أنك ستوافق وستنضم إليهم فورًا وتتنازل عن كل شيء في بابل، كل شيء عملت من أجله».

فهتف رامي: «كل ما عملت من أجله هو هذا. ماذا؟ أتظنني أتيت لبابل لأنني أريد أن أصبح مُترجمًا للملكة؟ أكره هذه البلاد يا بيردي، وأكره نظرتهم إليّ، وأكره الطريقة التي يَمُرُّون بها الشراب حولي في الحفلات وكأنني حيوان معروض في قفصه، وأكره أن أعرف أن مُجرد وجودي في أوكسفورد لهو خيانة لشعبي وأفكاري، إذ إنني أوشك أن أصبح شخصًا من الطبقة الذي أراد مأكولي صنعه. لطالما انتظرت فرصة مثل هرمس منذ وصولي هنا...».

فقال روبين: «لكن الأمر هكذا فحسب، لهذا السبب كان شديد الخطورة عليك».

«أليس خطرًا عليك؟».



قال روبين بغضب: «نعم، لم يكن خطراً».

لم يكن مُضطراً للبوح بالسبب. كان روبين ابناً لأحد أعضاء هيئة التدريس، وكان يتمتع بميزة تمنحه حماية لم يتمتع بها رامي ولا فيكتور. فلو واجه رامي أو فيكتور الشرطة في تلك الليلة، لم يكونا ليصعدا هذه السفينة، بل لكانا خلف القضبان، أو أسوأ.

قال رامي بغضب شديد: «تَبَّأ لك يا روبين!».

قالت فيكتور مُحاولَة تهدئة الأمور: «أنا مُتأكدة أن الأمر لم يكن سهلاً، فهم شديدو السرية، تَنذِر...».

ردَّ رامي وهو يَحْذِر روبين بنظرة غضب: «نعم، لكننا كنا نعرف بعضنا بعضاً، أو على الأقل كنا نزن ذلك».

قال روبين بإصرار: «هرمس كيان فوضوي، وقد تجاهلوا تحذيراتي، كما أنهم يتخلون عن أعضائهم. ولم يكن الأمر ليفيدك لو عشت حياة سرية منذ عامك الأول...».

ردَّ رامي بسخرية: «كنت لَأَتَوَخَّى الحَذَر، فلست مثلك، فأنا لا أخاف من خيالي».

فقال روبين بإحباط: «لكنك لست حَذِراً». راحا يتبادلان الإهانات، بل كانا سريعين. «لقد فُيَضَ عليك، أليس كذلك؟ أنت مُتهوّر، ولا تُفَكِّر... فحين يُهين أحدهم كرامتك، تَنفَجِر...».

«وماذا عن فيكتور، إذا؟».

أجاب روبين بتردّد: «إن فيكتور...» لم يكن لديه دفاع. لم يُخبر فيكتور بأمر هرمس لأنه افترض أنها ستخسر الكثير، لكن لم يكن البوح بهذا لِيُجدي نفعاً أو يُبرّر منطقه.

كانت تعرف ما يقصده، ولم تكن لتواجه نظراته المُتوسِّلة.

كان كل ما استطاعت قوله: «حمداً لله على سلامة أنطوني».



باغته رامي بسؤال: «لدي سؤال واحد فحسب». وأدرك روبين مدى غضبه، فلم تكن هذه أحد الانفعالات العاطفية التي تُميّز رامي، بل شيء لا يمكن التراجع عنه. «ماذا قُلْتَ لتهدئ الأمور؟ عمّ تنازلت؟».

لم يستطع روبين الكذب على رامي. لقد أراد ذلك، وكان شديد الخوف من الحقيقة ومن الطريقة التي سينظر بها رامي له بعد أن يسمعها، لكنه لم يستطع إخفاء هذا. كان ليمزقه. «لقد طلب معلومات».

«ومن ثم؟».

«أعطيته إياها».

فوضعت فيكتوار يدها على فمها وقالت: «كل شيء؟».

أجاب روبين: «ما أعرفه فحسب. لم يكن هذا كثيرًا، وقد حرص جريفين على هذا. لم أعرف أبدًا ما يفعله بالكتب التي كنت أوصلها له. كل ما أخبرت لوفيل به هو بشأن الغرفة السرية في سان ألديت».

لم يُجد هذا نفعًا، فلم تَنفَكْ تنظر إليه نظرات استنكار.

فسأله رامي: «هل جُئِنت؟».

أجاب روبين بإصرار: «لم يكن الأمر مُهمًا، إذ لا يذهب جريفين إلى هناك على الإطلاق، وقد أخبرني هو بهذا بنفسه. وأُراهن أنهم لم يقبضوا عليه، فهو مُصاب بعُقدة اضطهاد مريعة. أُراهن أنه خرج من البلاد».

هز رامي رأسه بذهول وقال: «لكنك غدرت بهم».

رأى روبين أن هذا ظلم مُبين. فقد أنقذهما - لقد فعل الشيء الوحيد الذي رأى أنه يُقَلِّلُ الخسائر - وهو ما كان أكثر مما فعلته له هرمس على الإطلاق. لماذا وُضِعَ تحت الحِصار؟ «كنت أحاول إنقاذكما فحسب».

قال رامي دون أن تهتز له شعرة: «بل أنقذت نفسك».



ردَّ روبين بغضب: «اسمع. ليس لي عائلة، بل لي عقد، وكافل، وبيت في كانتون مملوء بالأقارب الموتى، وكل ما أعرفه عنهم أنهم قد يكونون متروكين يتَّعَفُّون في فراشهم، ولهذا أبحر للوطن. أما أنت، فلديك كالكوئا. ومن دون بابل، لن يكون لي شيء».

ضمَّ رامي ذراعيه وأغلق فمه.

نظرت فيكتوار لروبين نظرة شفقة، لكنها لم تَقُل شيئاً لِنُدَافِع عنه.

قال روبين مُتوسِّلاً: «لست خائناً، بل أسعى للبقاء على قيد الحياة فحسب».

قال رامي بعينين تَنسَعَان بالغضب: «ليس البقاء بهذه الصعوبة يا بيردي، لكن يجب أن تُحافظ على بعض من كرامة وأنت على قيد الحياة».

قضى باقي الرحلة تَحَسَّاً. يبدو أن رامي قال كل ما أراد قوله. كان يقضي كل ساعاته مع رامي في غُرَفَتَهما المُشتركة في صمت خائق. لم تكن أوقات تناول الوجبات أفضل. كانت فيكتوار مُهذبة، لكنها كانت باردة. لم تَبْقَ بصحبة ليتي إلا قليلاً، ولم تبذل جهداً للبحث عن روبين. وكانت ليتي في حالة غضب من الجميع، وهو ما جعل الدَّرَدشة البسيطة شبه مُستحيلة.

كانت الأمور لتتحسَّن لو كان هناك شخص آخر معهم، لكنهم كانوا الرُّكَّاب الوحيديين على سفينة تجارية، حيث بدا البحَّارة مُهتَمِّين بأي شيء عدا عقد الصداقات مع طلاب أوكسفورد الذين اعتبروهم عِبْأً غير مرغوب فيه وسيئ التوقيت. كان روبين يقضي مُعظم الأيام إما وحده فوق السطح وإما وحده في قُمرته. وفي حالة أخرى، كانت الرحلة لَتُنتِج فُرصة مُذهلة لاستكشاف اللُّغويات الفريدة للبيئات البحرية والتي كانت تَجَمَّع بين التعداد اللُّغوي الذي تجلبه الطواقم الأجنبية والوجهات الأجنبية وبين مُفردات العمل البحري العالية التخصص. فما هو يوم البانيان أو يوم الراحة؟ وما يوم الرِّبط؟ وما يوم التثبيت في المرساة؟

كان لَيْسَ عَد بالتوصل إلى هذا، لكنه كان مشغولاً بالأفكار الحزينة، ولم يَزَل مُرتَبِكاً وساخطاً لفقدانه أصدقائه وهو يُحاول إنقاذهم.



وكانت المسكينة ليتي هي الأكثر تحيُّراً على الإطلاق، فعلى الأقل فهم الباقون سبب العداء. أما ليتي، فلم تكن لديها فكرة عما يحدث. كانت البرينة الوحيدة التي وقعت ضحية لظلم الظروف الخارجية عن إرادتها. كان كل ما تعرفه أن الأمور سيئة ومريرة، وكانت تقضي وقتاً عصيباً في محاولة فهم الأسباب. لعل شخصاً غيرها كان لينسحب ويغضب من إقصاء أصدقائه المُقربين له، لكن ليتي كانت عنيدة، وأصرّت على حلّ المشكلات بقوة غاشمة. وحين لم يُعطها أي منهم إجابة شافية على سؤالها: «ماذا حدث؟»، كانت تُقرّر أن تُحاول غزوهم واحداً تلو الآخر، أو استخراج أسرارهم باللفظ الزائد.

لكن كان لهذا تأثير عكسي. بدأ رامي يترك المكان كلما دخلته؛ وفيكتوار، باعتبارها زميلتها في الغرفة، لم تستطع الهروب منها. بيد أنها بدأت تحضّر الفطور بمظهر مُرهق ومُكتئب. وحين كانت ليتي تطلب منها الملح، كانت فيكتوار تَرُدُّ عليها بقسوة كي تأخذه بنفسها، ما كان يجعل ليتي تتراجع في ألم.

ودون تَرُدُّ، بدأت تطرح عليهم أسئلة شخصية كلما انفردت بأي منهم، تماماً كما يفعل طبيب الأسنان الذي يفحص الأسنان ليعرف مَوْضِع الألم الشديد ويحد ما يحتاج للعلاج.

قالت لروبين ذات يوم: «لا يمكن أن تكون الأمور بينك وبينه بسيطة».

فتجمّد روبين، إذ ظنّ في البداية أنها تتحدث عنه ورامي، فقال: «لا أدري - ماذا تقصدين؟».

أجابت: «الأمر غاية في الوضوح. أعني أنك تُشبهه كثيراً. ويرى الجميع هذا. لا يبدو أن أحداً يَشْكُ في شيء عدا ذلك».

وهنا أدرك روبين أنها تقصد الأستاذ لوفيل، وليس رامي، فشعر بارتياح بالغ لانخراطه في المُحادثة، فقال مُعترفاً: «إنه ترتيب غريب. لكنني اعتدت



الأمر فحسب على نحو جعلني أتوقف عن التساؤل عن سبب عدم كونه غير ذلك».

فسألته: «لم لا يعترف بك علانية؟ هل تظنّه بسبب عائلته؟ أهي الزوجة؟».

أجاب روبين: «ربما. لكن الأمر لا يُضايقني، فبصراحة، لا أعرف ما أفعله لو أعلن أبوّته لي. ولست مُتأكدًا أنني أريد الانتماء إلى آل لوفيل».

«لكن، ألا يؤلمك هذا؟».

«ولماذا؟».

فبدأت: «حسنًا، كان أبي...» ثم توقفت وسعلت بِتَحْفُظٍ وأردفت: «أقصد، تعرفون جميعًا. لا يُريد أبي التحدث معي، بل ولم ينظر في عينيّ بعد لينكون، وكذلك... أردت أن أقول إنني أعرف بعض الشيء كيف يشعر المرء تجاه هذا. هذا كل ما في الأمر».

فقال وهو يربتّ يدها: «أسف يا ليتي». بيد أنه شعر بالذنب فورًا لعمل هذا، إذ بدا شديد الزئيف.

لكنها أخذت الحركة على محمل الجدّ. لعلها أيضًا كانت تتوق للفاعل ولشيء يذلّ على أن أصدقاءها ما زالوا يُحبونها. فأمسكت بيده وقالت: «أردت أن أقول فحسب إنني أسألك. أرجو ألا يكون هذا فجأ، لكني لاحظت أنه لا يُعاملك كسابق عهده. لا ينظر في عينيك ولا يتحدث معك بشكل مُباشر. ولا أدري ما حدث، لكنه ليس جيدًا. كما أنه لم يتحرّر العدالة في مُعاملتك. وأريد أن تعلم يا بيردي أنني على استعداد للاستماع إليك».

لم يسبق أن نادته بيردي، فهذه كلمة رامي. كاد روبين يقول هذا لولا أنه أدرك أنه سيكون أسوأ ما يُقال. فحاول أن يُذكر نفسه بِتَحَرِّي الرّفق. كانت، على كل حال، تُحاول أن تُواسيه بطريقتها. كانت ليتي عنيّدة ومُتسلّطة، لكنها كانت تهتم.



«أشكرك وأقِدِّر هذا». ثم ضغط على أصابعها على أمل أن عدم شرحه الأمر قد يُجبرها على إنهاء المُحادثة.

كان هناك عمل يُلهي على الأقل. كانت مُمارسة بابل إرسال مجموعات بأكملها مُكوّنة من مُتخصصين في لغات مختلفة في رحلات التخرج نفسها دليلاً على مدى ترابط الشركات التجارية البريطانية. كانت التجارة الاستعمارية قد نَشِبت مَخالبها في عشرات البلاد في جميع أنحاء العالم، وكان عُمالها، ومُستهلكوها، ومُنْتَجوها يتحدّثون العديد من اللغات. وأثناء الرحلة، كان يُطلب من رامي الترجمة بين البَحَّارة المُتحدّثين بالأردية والبنغالية بغض النظر عن كون لغته البنغالية بدائية في أحسن أحوالها. وكُفِّت ليتي وفيكْتوار بمُراجعة بيانات الشحنات المُتَّجهة إلى موريشيوس وترجمة المراسلات المسروقة من الإرساليات الفرنسية والشركات التجارية الفرنسية في الصين، إذ كانت الحروب النابليونية قد انتهت، لكن المُنافسة على الإمبراطورية لم تكن قد انتهت بعد.

وفي فترة بعد الظهر، كان الأستاذ لوفيل يُدرِّس رامي، وليتي، وفيكْتوار لغة الماندارين من الثانية إلى الخامسة. لم يتوقَّع أي شخص أنهم سيُصبحون طالقين قبل الرسو في كانتون، لكن الهدف تمثّل في إجبارهم على حفظ ما يكفي من مُفردات حتى يتمكنوا من فهم التحية الأساسية، والاتجاهات، والأسماء العامة. كما أوضح الأستاذ لوفيل أن هناك فائدة تربوية عظيمة في تعلُّم لغة جديدة تمامًا في وقت قصير، إذ كانت تُجبر المخ على التمدد وإقامة روابط سريعة لمُقارنة بُنى لغة غير مألوفة بما يعرفه المرء بالفعل.

قالت فيكْتوار مُشتكية لروبين ذات ليلة بعد المُحاضرة: «اللغة الصينية شديدة الصعوبة، لا توجد تصرّيفات، ولا أزمنة، ولا إعراب. كيف عساك تعرف معنى أي جملة؟ ناهيك بالنبرات. لا يمكنني سماعها. لعل أذني ليست مُوسيقية، لكني لا أستطيع تحديد الفرق. بدأت أراها خُدْعاً».

فقال روبين مُطمئنًا إياها: «لا يهم». كان في شدة السرور لأنها تتحدّث إليه. بعد مرور ثلاثة أسابيع، وافق رامي على تبادل التحيات الأساسية، لكن



فيكتوار - رغم أنها لم تَزَلْ تُبعده عنها - فقد سامحته على النحو الذي يسمح بالتحدث إليه كصديق. «لا يتحدثون الماندرين في كانتون على أية حال. ستحتاجين للغة الكانتونية للتنقل من مكان لآخر».

«ألا يتحدثها لوفيل؟».

أجاب روبين: «نعم، ولهذا فإنه يحتاج إلي».

وكان الأستاذ لوفيل يُعِدُّهم لمهمتهم في كانتون كل مساء. كانوا ليساعدوه في التفاوض بالنيابة عن العديد من الشركات التجارية أبرزها جاردين، وماتيسون أند كومباني. كان هذا أكثر صعوبة مما بدا عليه، إذ كانت العلاقات التجارية مع بلاط تشينج تَنَسِّم بسوء الفهم والشك المُتبادلين منذ نهاية القرن الماضي. وكان الصينيون، لِرَبِّيتهم من التأثير الأجنبي، يُفَضِّلون إبقاء البريطانيين مَحْصُورين مع باقي التجار الأجانب في كانتون وماكاو. لكن البريطانيين أرادوا التجارة الحُرَّة المُمَثَّلَة في الموانئ المفتوحة، والوصول إلى أسواق عبر الجُزر، ورفع القيود على واردات مُعَيَّنَة مثل الأفيون.

وقد باءت المُحاولات الثلاث السابقة للبريطانيين للتفاوض على حقوق تجارية أكبر بفشل ذريع. وفي عام ١٧٩٣، صارت بعثة مكارتنى أضْحُوكَة عالمية حين رفض اللورد جورج مكارتنى الركوع أمام الإمبراطور تشيان لونج وعاد صِفْر اليدين. أما بعثة أمهيرست في عام ١٨١٦، فقد حدث معها الشيء نفسه حين رفض اللورد وليم أمهيرست الركوع أمام الإمبراطور جيا تشينج، ومن ثم، مُنِع من الدخول إلى بكين من الأساس، كما كانت هناك مسألة نابيير الكارثية التي بلغت ذروتها بتبادل نيران المدفعية مَعْدُومَة الفائدة ووفاة اللورد وليم نابيير المَذَلَّة بِالْحُمَى في ماكاو.

وكان وفدهم هو الرابع، فقال الأستاذ لوفيل مُوَكِّدًا: «سيكون الأمر مُخْتَلَفًا هذه المرة، إذ دَعَا مُترجمي بابل لِقِيادة المُباحثات. لن يَحْدُث مزيد من الفوضى بسبب سوء الفهم الثقافي».



فسألت ليتي: «ألم يستشيروك من قبل؟ هذا مُذهل».

«سيدُهنسِك كم يرى التجار أنهم لا يحتاجون لمُساعدتنا، إذ يميلون للافتراض أن الجميع يجب أن يتعلّموا التحدث والسلوك مثل الإنجليز. وقد نجحوا في استنفار العداء المحلي بذلك السلوك، ما لم تكن وثائق كانتون تُبالغ. توقّعوا رؤية أهل البلاد غير ودودين».

كان لدى الجميع فكرة جيدة عن نوع التوتر الذي سيشهدونه في الصين، وقرؤوا المزيد من التغطية حول كانتون في صُحف لندن الحديثة والتي كانت تُروي أنواعًا من المَهانات التي يَتعرّض لها التجار البريطانيون على يد البرابرة المحليين الوحشيين. ووفقًا لصحيفة ذا تايمز، فإن القوات الصينية كانت تستفز التجار مُحاولَة طردهم من بيوتهم ومصانعهم وناشرة أشياء مُهينة عنهم في صُحفهم الخاصة.

أصرَّ الأستاذ لوفيل على أنه رغم دبلوماسية التجار، فإن التوتر المُتصاعد كان خطأ الصينيين.

قال الأستاذ: «تتمثّل المُشكلة في أن الصينيين أقنعوا أنفسهم بأنهم أرقى أمة في العالم. كما يُصرّون على استخدام كلمة يي في وصف الأوروبيين في مُذكراتهم الرسمية، رغم أننا طلبنا منهم مرارًا وتكرارًا استخدام شيء أكثر احترامًا، إذ تُشير يي إلى غير المُتحضّرين. ويعتمدون هذا السلوك في جميع المُفاوضات التجارية والقانونية، فلا يعترفون بأي قوانين عدا قوانينهم ولا يعتبرون التجارة الخارجية فُرصة، بل غزو مُزعج يجب التعامل معه».

سألت ليتي: «هل تُفضّل العنف؟».

أجاب الأستاذ لوفيل بمرارة مُفاجئة: «قد يكون الأفضل بالنسبة لهم، إذ قد يُلقّنهم درسًا. فالصين أمة من شعب شبه بربري تحت سيطرة حُكّام منشوريين مُتخلفين، وسيكون أفضل لهم أن يُجبروا على الانفتاح على المؤسسات التجارية والتقدم. بل إنني لا أعترض على بعض الاضطراب، ففي بعض الأحيان، يجب ضرب الطفل البكاء».



وهنا نظر رامي إلى روبين الذي أشاح بعينه، فلم يُوجد ما هو أكثر ليقال. وأخيراً، انتهت الأسابيع الستة، وأخبرهم الأستاذ لوفيل ذات ليلة على العشاء بأنهم سيرسّون عند كانتون قبيل ظهيرة اليوم التالي. وقبل النزول من السفينة، طُلب من فيكتوار وليني شدّ الصدر وقصّ الشعر، الذي قد صار أطول أثناء سنوات دراستهما العليا، أعلى من الأذن.

قال الأستاذ لوفيل مُوضّحاً: «إن الصينيين مُتشدّدون حول حظر الأجنيّات في كانتون، ولا يُحبّون أن يحضّر التجار عائلاتهم، إذ يجعل الأمر يبدو وكأنهم أتوا ليليقوا».

فاحتجّت ليني: «بالطبع لا يمكنهم قرّض هذا. ماذا عن الزوجات والخدامات؟».

«يُعيّن المُقيمون الأجانب خدماً محليين، ويتركون زوجاتهم في ماكاو، فهم شديدو الصرامة في إنفاذ هذه القوانين. آخر مرة حاول فيها رجل بريطاني إحضار زوجته إلى كانتون - أظن اسمه كان وليم باينز - هدّته السلطات المحلية بإرسال جنود لإبعادها*. هذا لمصلحتكما على كل حال. يُعامل الصينيون النساء بطريقة سيئة للغاية، وليس لديهم فكرة عن الشّهامة. يَحْتَقِرُونَ نساءهم، وفي بعض الأحوال، لا يَسمحون لهن بالخروج من المنزل. من الأفضل أن يَعتقدوا أنكما شابان. ستعرفان أن المجتمع الصيني بات مُتأخراً وغير عادل».

قالت فيكتوار بحدّة وهي تأخذ القُبعة: «أتساءل ما هذا».

قضوا الصباح التالي ساعة الشروق فوق السطح، وراحوا يتجوّلون حول مُقَمِّمة السفينة، ويتكؤون بين الحين والآخر فوق الدرابزين وكأن فرق تلك البوصات ليساعدهم على رؤية ما زعم الملاحون أنهم يقتربون منه بسرعة. كان ضباب الفجر الكثيف قد ترحّح مُفسِحاً المجال لِرُقّة السماء في حين

* انتهى الأمر ببائز إلى وضع مدفع أمام المصنع الإنجليزي لمنع الصينيين من القبض على زوجته، وظلت الأمور في حالة من التوتر الشديد لمدة أسبوعين حتى أقنعت السيدة بالمُغادرة في سلام.



كشف الأفق عن شريط رفيع من اللونين الأخضر والرَّمادي. وببطء، راحت تفاصيل كل هذا تتَّضح، وكأنه حُلْم يتجسَّد، وصارت الألوان الباهتة ساحلاً، وشكلاً لمبان وراء عدد كبير من السُّفن الراسية عند النقطة الضئيلة التي تلتقي فيها المملكة الوُسطى مع العالم.

ولأول مرة منذ عقد من الزمن، وجد روبين نفسه يُحدِّق إلى شواطئ وطنه الممتدة.

وهنا سأله رامي بهدوء: «فيم تُفكِّر؟».

كانت هذه أول مرة يتحدَّثان فيها معاً بشكل مُباشر بعد مرور أسابيع. لم تكن هُدنة، إذ أبى رامي أن ينظر في عينيه، لكنه كانت بداية واعتراقاً رغم كل شيء، بأن رامي ما زال مُهتماً، وكان روبين مُمتناً لهذا.

فقال بصدق: «أفكِّر في الحرف الصيني الذي يُعبِّر عن الفجر». لم يستطع السماح لنفسه بالتفكير في قوّته على الإطلاق، إذ كانت أفكاره تتدُّر بالشرود إلى مناطق خشي أن يفقد السيطرة عليها ما لم يُرجعها إلى الإلهاء المألوف باللغة.

أجاب روبين: «دان. يُشبه هذا». ثم رسم حرفاً في الهواء: 旦 وقال:

«تُشير القِمة إلى جَذر يعني الشمس - ري». ثم رسم 旦 وأردف: «وتحتّه يُوجد حَظّ. أفكِّر فحسب في مدى جماله لأنه شديد البساطة، بل إنه يُعدُّ أكثر استخدامات الكتابة الصورية وضوحاً، فما الفجر إلا شمس تصعد الأفق».



الفصل السابع عشر



أي شواطئ لم تُلطَّخَ بدمائنا؟

الأناسيد - هوراس

قبل عام، وبعد سماع كولين والإخوة شارب خُلُسة وهما يُناقشان الأمر بصوت مُرتفع في استراحة الطلاب، ذهب روبين إلى لندن بمُفرده في عطلة نهاية أسبوع لرؤية أفونج موي الشهيرة. كانت أفونج موي التي أُعلن عنها أنها «السيدة الصينية» قد خرجت بمُساعدة تاجرين أمريكيين كانا يروجان استخدام سيدة من الشرق في عرض البضائع التي حصلوا عليها من الخارج، لكن سرعان ما أدركا أنهما يَستطيعان تكوين ثروة من عرضها شخصيًا في الساحل الشرقي. كانت هذه هي أولى جولاتها في إنجلترا.

وكان روبين قد قرأ في موضع ما أنها كانت من كانتون كذلك، ولم يكن مُتأكدًا ما إذا كان يطمح لما يفوق إلقاء نظرة، أو ربما لحظة تواصل مع أحد مُواطنيه. ومنحته تذكّره المُرور إلى صالة مُبتذلة تُدعى «الصالون الصيني» مُزيّنة بزخارف عشوائية، ومملوءة بنُسخ مُقلّدة رديئة من لوحات صينية، ومُغرقة في ثراء باذخ من الذهب والحريّر الأحمر، ومُضاءة بمصابيح ورقية رخيصة. وكانت السيدة الصينية نفسها جالسة على مقعد في الغرفة الأمامية مُرتدية قميصًا حريريًا أزرق مَقْفُولًا وقدمائها ملفوفتان بعناية بالكتان وموضوعتان على وسادة صغيرة أمامها. بدت شديدة الضالة. وكان المنشور الذي تَسَلَّمَه في كُشك التذاكر يدّعي أنها في العشرينيات من عمرها. بيد أنها كانت تبدو في الثانية عشرة.



كانت الغرفة صاخبة ومُزدحمة بال جماهير التي كان مُعظمهما من الرجال. لكنهم لاذوا بالصمت حين مدّت يدها لتفكّ ربطة قدميها.

كانت قصة قدميها مشروحة في المنشور؛ فمثل أي امرأة صينية، كانت قدّما أفونج موي قد كُسرَتا ورُبطَتا في صغرها لمنع نموّها وتركهما مثنيتين على هيئة قوس غير طبيعي، ما جعل مشيتها مُتعبّة وغير طبيعية. وحين مَشَت فوق المَسرح، اندفع الرجال المُحيطون بروبين إلى الأمام مُحاولين إلقاء نظرة أدقّ. لكن روبين لم يفهم سبب الجاذبية، فلم يكن منظر قدميها مُثيرًا ولا مُدهشًا، بل الأخرى كان انتهاكًا صارخًا للخصوصية. وإذ وقف يُشاهدها شعر روبين بإحراج وكأنه أقدم على اغتصابها.

ثم عادت أفونج ماي إلى مقعدها وركّزت عينيها فجأة على روبين، يبدو أنها كانت قد ألقت نظرة سريعة على الحجرة ووجدت ألفة في وجهه. فأشاح بنظره خجلًا. وحين بدأت الغناء - لحن خفيف ساحر لم يتذكّره ولم يفهمه - اجتاز الحشد وترك الغرفة.

لم يرَ روبين أي شخص صيني عدا جريفين.

وفيما كانوا يُبحرون نحو الداخل، لاحظ أن ليتي ظلت تُحدّق إلى وجهه، ثم في وجوه عمّال المرفأ وكأنها تُقارن بينهم. لعلّها كانت تُحاول أن تُعرف بالتحديد إلى أي مدى يبدو صينيًا أو ترى ما إذا كان يَمُرُّ بتطهُر عاطفي كبير! لكن شيئًا لم يتحرّك في صدره. كان كل ما يَشعر به روبين وهو واقف على السطح وقبل أن تَطأ قدماه موطنه هو الخواء!

ألقي البَحّارة المِرْساة ونزلوا في وامبوا؛ حيث استقلوا قوارب صغيرة لاستكمال الرحلة إلى ضفاف نهر كانتون. وهنا، حيث تحوّلت المدينة إلى موجة من الضجيج المُستمر، وأصوات الأجراس والصواريخ النارية وصياح البَحّارة الذين كانوا يَنقلون قواربهم نحو أعالي النهر وأسفله، كان الصوت مُرتفعًا على نحو لا يُحتمل. لم يتذكّر روبين تلك الضجّة منذ طفولته؛ فإما أن كانتون قد صارت أكثر ازدحامًا وإما أن أدّنيه قد فقدتا اعتيادهما على الأصوات.



نزلوا إلى اليابسة عند نقطة جاكاس حيث قابلهم السيد بايليس المُنْصِق مع جاردين وماتيسون وشركاءه. كان السيد بايليس رجلاً أنيقاً قصير القامة بعينين داكنتين ذكيتين، وكان يتحدث بحماس مُدهش. قال وهو يُصافح الأستاذ لوفيل، ثم روبين، فرامي مُتجاهلاً الفتيات: «لقد وصلتم في أفضل وقت، فالوضع هنا كارثي. صار الصينيون أكثر جرأة. كما فكّوا شبكات التوزيع وفجّروا أحد القوارب السريعة قبل يومين في الميناء. حمداً لله أن الميناء كان خالياً، ولو استمرت الحال كذا، لاستحالت التجارة».

فسأله الأستاذ لوفيل وهم يمشون: «ماذا عن قوارب التهريب الأوروبية؟».

«كان هذا حلاً مؤقتاً لم يدم سوى لفترة قصيرة، ثم بدأ نائب الملك يُرسل معوثيه مُباشرة لتفتيش المنازل. تعيش المدينة كلها حالة دُعر. قد تُخيف رجلاً مُجرد ذكر اسم المُخدّر، وهذا خطأ المبعوث الإمبراطوري الجديد الذي أرسله الإمبراطور. اسمه لين زيشو. سوف تُقابلونه قريباً، فهو الشخص الذي سنتعامل معه». كان السيد بايليس يتحدث بسرعة كبيرة، ما جعل روبين يندهش لأنه لم يكن يلهث. «يأتي الرجل ويطلب تسلم الأفيون المجلوب للصين على الفور. كان هذا في مارس الماضي. لقد رفضنا بالطبع، ما جعله يعلق التجارة ويمنعنا من ترك المصانع حتى تُنفذ القوانين. هل تتخيّل هذا؟ إنه يُحاصرنا».

فكرّر الأستاذ لوفيل الكلمة وقد بدا عليه بعض القلق: «جِصار؟».

«أوه! حسناً، لم يكن الأمر بهذا السوء. عاد الموظفون الصينيون إلى منازلهم، وقد كانت تجربة - اضطررت لغسل أغراضي بنفسي، وقد كانت كارثة- لكن فيما عدا ذلك احتفظنا بروح معنوية مُرتفعة، واقتصرت الأضرار على زيادة الطعام وقلة المِران». وهنا ضحك السيد بايليس ضحكة قصيرة كريهة وأردف: «لحسن الحظ، لقد انتهى الأمر، وصار بإمكاننا التَّنَزُّه بالخارج كما نشاء دون أذى. لكن يجب توقيع بعض العقوبات يا ريتشارد. يجب أن يعرفوا أنهم لن يفلتوا بهذا. آه، ها نحن ذا أيها السيدات والسادة، ها هو وطنكم البعيد عن الوطن».



وبعد أن تجاوزا الضواحي الجنوبية الغربية، وجدا صفاً من ثلاثة عشر مبنى أوروبي الطراز مُزَيَّنة بشرفات مُجَوَّفة، وزخارف كلاسيكية جديدة، وأعلام أوروبية. لكنها كانت شديدة التنافر مع كانتون التي بدت كأن عملاقاً قد اقتلع شريطاً من إنجلترا وفرنسا وألقاه بالكامل على حافة المدينة. فأوضح السيد بايليس أن هذه هي المصانع، وأنها لا تحمِل هذا الاسم لكونها مراكز صناعية، بل بالأحرى لكونها مساكن لوكلاء التجارة. كان التجار، والبعثات الدينية، والمسؤولون الحكوميون، والجنود يُقيمون هناك أثناء موسم التجارة. قال السيد بايليس: «أليست جميلة؟ تُشبه مجموعة من الماسات فوق كومة من القمامة!».

كان ليقموا في نيو إنجلش فاكتوري. فقادهم السيد بايليس عبر مخزن الدور الأرضي بسرعة، عابراً الاستراحة والصالون وصولاً إلى حُجرات الرُّؤَا في الأدوار العليا. كما أشار لوجود مكتبة ثرية، وعدة شرفات على الأسطح، بل وحتى حديقة أمام ضِفَّة النهر.

ثم قال السيد بايليس مُحذِراً: «إنهم شديدا الصرامة حيال بقاء الأجانب داخل الجيب الأجنبي. ابقوا بداخل المصانع ولا تخرجوا وحدكم لاستكشاف المكان. وهناك رُكن في إمبيريال فاكتوري - وهو رقم ثلاثة - حيث يبيع مافريك أند لين جميع أنواع السلع الأوروبية التي تحتاجون إليها. مع ذلك، لا يوجد لديهم أي كُتُب عدا الخرائط البحرية. هذه القوارب المُزَيَّنة بالزهور مَمْنوعة تماماً. هل فهمتُم؟ يستطيع أصدقائنا التجار ترتيب زيارة في أوقات المساء لبعض النِّسوة العاقلات لو احتجتمُ لرفقة، ألا تُريدون؟».

احمرَّ رامي خَجَلاً وقال: «سنكون على ما يُرام يا سيدي».

ضحك السيد بايليس وقال: «كما تشاء. ستبقى في هذه الرِّدهة فحسب».

كانت غرفة روبين ورامي شديدة الكآبة. كانت جدرانها شبه سوداء، بعد أن كانت مطلية في الأصل باللون الأخضر. وكانت غرفة الفتيات مُساوية لها في القمامة وأكثر صغراً بشكل ملحوظ، وبصعوبة كانت هناك مساحة



للمشي بين السرير والحائط. كما كانت بلا نوافذ. لم يستوعب روبين كيف كانت حياتهم لتسير على مدى أسبوعين.

قال السيد بايليس مُحاولاً أن يُبدي بعض الأسف: «هذه وحدة تخزين من الناحية الفَنِّيَّة، لكن لا يمكن أن نضعكما في غرفة قريبة من الرجال. هل تفهمان؟».

أجابت ليتي وهي تدفع صندوقها نحو الغرفة: «بالطبع. شكراً على الاستضافة».

وبعد أن وضعوا أغراضهم، اجتمعوا في غرفة العشاء التي كانت مُؤنَّثة بطاولة كبيرة تسع خمسة وعشرين شخصاً على الأقل. وكانت هناك مروحة ضخمة مصنوعة من قُماش القلوع المفرد على إطار خشبي في مُنتصفها، وكانت في حالة دوران مُستمر بواسطة أحد الحَمَّالين الذي كان يشُدُّها ويُرخيها دون توقُّف أثناء العشاء، ما أزعج روبين أيَّما إزعاج. وكان يَنتابه شعور غريب بالذنب كلما صادفت عيناه عيني الخادم، لكن باقي سَكَّان المَصْنَع تعاملوا مع الأمر وكأن الخادم غير موجود.

وكان العشاء في تلك الليلة من أكثر الأمور المُزعجة وغير المريحة التي تَحَمَّلها روبين على الإطلاق. كان ضمن الجالسين على الطاولة موظفون من جاردين أند ماديسون وعدد من مُمَثِّلي شركات الشحن الأخرى - مثل مانياك وشركاه، وسكونت وشركاه، وغيرها، وهو ما نَسِيه روبين على الفور. كان الجميع رجالاً ذَوِي بشرة بيضاء بدَّوا من نوعية السيد بايليس نفسها؛ رجالاً جذَّابين وسطحيين وثرثارين. ورغم ملابسهم الأنيقة، كانوا مُحاطين بهالة غير محسوسة من القذارة.

وبالإضافة لرجال الأعمال، كان هناك رجل الدين كارل جوتسلاف من الإرسالية الألمانية الذي كان يقوم بترجمة فوروية لصالح شركات الشحن أكثر من التحدث مع الصينيين في أمور الدين. وقد أخبرهم جوتسلاف بفخر



أنه كان عضوًا بجمعية نشر المعرفة المفيدة في الصين*، وكان بصدد كتابة سلسلة من المقالات لمجلة باللغة الصينية كي يُعَلِّم الصينيين المفهوم الغربي المُعَدَّ للتجارة الحرة.

قال السيد بايليس مخاطبًا روبين أثناء تقديم أول طبق - حساء باهت بنكهة الزنجبيل -: «يسرُّنا أن تعمل معنا، فمن الصعب أن نجد مُترجمين صينيين جيدين يستطيعون صياغة جُملة إنجليزية تامة، فالمُدَرَّبون على أيدٍ غربية أفضل بكثير. ستقوم بالترجمة الفورية لي أثناء لقائي بالمبعوث يوم الخميس».

فقال روبين بدهشة: «أنا؟ لماذا أنا؟». ظنَّ أن سؤاله منطقي، فلم يُقِم بأعمال ترجمة فورية مُحترفة من قبل، وبدا غريبًا أن يقع عليه الاختيار لمُقابلة أعلى سُلطة في كانتون. لماذا لم يقع الاختيار على رجل الدين جوتسلاف أو الأستاذ لوفيل؟».

أجاب الأستاذ لوفيل بسخرية: «لأننا قوقازيون، ومن ثم، هَمَجِيُون».

وأضاف السيد بايليس: «ولن يتحدثوا مع همَجِيَّين بالطبع».

قال الأستاذ لوفيل: «يُشبه كارل الصينيين على نحو ما. أما زالوا مُقتنعين بأنك شبه شرقي؟».

أجاب رجل الدين جوتسلاف: «فقط حين أُقَدِّم نفسي باسم أي هان زي†. لكني أظن أن القلب لن يَرُوق للمبعوث لين».

* تأسست هذه الجمعية في نوفمبر 1834 بهدف حثَّ إمبراطورية تشينج على أن تكون أكثر انفتاحًا على التجار والبعثات الدينية الغربية من خلال استخدام «المدفعية الفكرية». كانت مُستلَمة من جمعية لندن التي كانت تقوم برفع مُستوى الفقراء وإثباتهم عن التطرُّف السياسي من خلال هيئة التعليم.

† اعتاد رجل الدين جوتسلاف أن يُطلق على نفسه اسم أي هان زي والذي تفسره «الرجل المُحب للصينيين». لم يكن اللقب ساخراً، إذ كان جوتسلاف يرى نفسه داعماً للصينيين الذين كان يُشير إليهم في مُراسلاته كأناس طيِّبين، وودودين، ومُنقذين، وشُغُوفين ثقافياً. لكنهم، لسوء الحظ، وقعوا تحت «عبودية الشيطان». مع ذلك ظل توفيقه بين هذا الموقف ودعمه تجارة الأفيون تُناقِضًا مُثيرًا للاهتمام.



ضحك جميع موظفي الشركة، لكن روبين لم يفهم ما كان مُضحكًا. غشي المُحادثة شيء من الغطرسية والمُشاركة في مزحة قديمة لم يفهمها الباقون، ما ذكّره بتجمُّعات الأستاذ لوفيل في هامبستيد، إذ لم يكن ليفهم مَعزى المزحة وقتنئذٍ أو ما كان يُضحك أولئك الرجال.

لم يكن هناك من يتناول الحساء، فرفع الخدم الأواني واستبدلوا بها كُلاً من الطبق الرئيسي والحلوى في ذات الوقت. كان الطبق الرئيسي مُكوَّنًا من البطاطس مع قطعة لحم - غير معروف النوع - مُغطّاة بحساء رمادي اللون. وكانت الحلوى أكثر غُموضًا، إذ كانت شيئًا لونه بُرْتُقالي فاقع بدا أشبه بقطعة الإسفنج.

فسأل رامي وهو يفحص الحلوى: «ما هذا؟».

فقطعت فيكتوار قطعة بشوكتها وفحصتها وأجابت: «لعلّها بودنج مُحلّى!».

قال روبين: «بل بُرْتُقال».

لَعِقَتْ ليني إبهامها وقالت: «إنها محروقة ومصنوعة من الجزر على ما أظن».

راح باقي الضيوف يضحكون مُجددًا.

فقال السيد بايليس مُوضِّحًا: «جميع العاملين في المطبخ صينيون، لم يذهبوا أبدًا إلى إنجلترا. لا ننفقُ نصف لهم ما نُحب من أطعمة، وبالطبع، لا يعرفون طعمها أو طريقة طهوها، ولكن من المُضحك أن تراهم يُحاولون. شاي المساء أفضل، إذ يُدركون أهمية الحلويات، ولدينا أبقارنا الإنجليزية التي تَمُدُّنا باللبن».

قال روبين: «لا أفهم لماذا لا تجعلونهم يطهون أصنافًا كانتونية».

أجاب رجل الدين جوتسلاف: «لأن المطبخ الإنجليزي يُذكّر المرء بوطنه، إذ يُقدّر وسائل الراحة في الرحلات البعيدة».



قال رامي: «لكن طعمه رديء».

قال رجل الدين جوتسلاف وهو يقطع اللحم بقوة: «لا يوجد نموذج للثقافة الإنجليزية كهذا».

قال السيد بايليس: «على أية حال، سيكون التعامل مع المفوض أمرًا شديد الصعوبة. يُشاع أنه في غاية الصرامة والتحفظ، إذ يعتقد أن كانتون بوتقة للفساد، وأن جميع التجار الغربيين أشرار أفّاكون عازمون على خداع حكومته».

قال رجل الدين جوتسلاف: «يا لذكائك!». فانطلق المزيد من الضحكات.

فوافقه السيد بايليس: «أفضل أن يُقلّوا من شأننا. والآن، يا روبين سويقت، يتعلّق الموضوع المُثار بسند الأفيون، وهو ما يجعل جميع السفُن الأجنبية مَسْؤولة أمام القانون الصيني عن أي أفيون يُهرَّب إلى هنا. كان الحظر على الورق فحسب. كنا نُرسي سفُننا في - بما أسميه؟ - المراسي الخارجية مثل لينتين وكاميسينجمون وما شابه حيث نُورِّع البضائع لإعادة البيع مع الشركاء المحليين، لكن المفوض لين غيّر الأمور كافة، ذلك أن وصوله، كما أخبرتك، كان مُزعجًا للغاية، وقد قام الكابتن إليوت - ذاك الرجل الصالح - بتهدئة الموقف، لكنه يجبُن في الأمور المُهمّة، إذ سمح لهم بمُصادرة كل الأفيون الذي كان في حوزتنا». وهنا أمسك السيد بايليس صدره وكأنه يشعر بألم وتابع: «نحو عشرين ألف صندوق. أتعرف ما قيمة هذا؟ نحو مليون ونصف مليون جنيه. هذه حيازة غير عادلة للممتلكات البريطانية. ويُعدُّ هذا ذريعة للحرب. يعتقد الكابتن إليوت أنه أنقذنا من الجوع والغنف، لكنه بيّن للصينيين أنهم يستطيعون دهسنا فحسب». ثم أشار السيد بايليس لروبين بشوكتة وأردف: «وهذا ما سنحتاج إليك فيه. ألم يُطلعك ريتشارد على ما نُريده في هذه الجولة؟».

قال روبين: «لقد قرأت مُسوّدات المُقترح، لكني غير مُتأكّد من الأولويات...».



«نعم؟».

قال روبين: «حسنًا... يبدو أن الإنذار النهائي بشأن الأفيون مُتطرف بعض الشيء. لا أفهم لماذا لم تستطع تقسيمه إلى صفقات أصغر. أقصد أنك تستطيع التفاوض على جميع الصادرات الأخرى...».

قال السيد بايليس: «لا توجد صادرات أخرى، أي لا توجد صادرات مهمة».

ردَّ روبين بإحباط: «يبدو أنه لدى الصينيين منطق جيد، بالنظر لكونه مخدِّرًا ضارًا».

فابتسم السيد بايليس ابتسامة عريضة مُصطنعة وقال: «لا تكن سَخيفًا، يُعدُّ تدخين الأفيون هو أكثر المضاربات أمانًا وتَحضُّرًا في نظري».

كانت هذه كذبة واضحة، فنظر روبين إليه بذُهول وقال: «يُشار إليه في المذكَرات الصينية على أنه إحدى أكبر الرذائل التي أَلَمَّتْ بالبلاد».

ردَّ رجل الدين جوتسلاف: «أوه! ليس الأفيون بهذا الضَّرر، فهو موصوف كمحلول مُهدِّئ في بريطانيا، وتستخدمه السيدات المُسنَّات بانتظام كمُنوم. ليس رذيلة أكثر من التبغ أو المشروبات المُحرَّمة، بل أوصي المتردِّدين على دار العبادة بأخذه».

فقاطع رامي: «لكن، أليس تدخين الأفيون في الغليون أشد؟ لا يبدو أن الأدوية المُنومة تُمثِّل مشكلة هنا».

أجاب السيد بايليس بشيء من الغضب: «لا يُلامس هذا صُلب الموضوع، إن الموضوع يتمحور حول التجارة الحُرَّة بين الأمم. ألسنا جميعًا مُتحرِّرين؟ يجب ألا نُوضع قيود بين بائعي البضائع ومَن يُريدون شِراءها، فليس هذا عدلاً».

قال رامي: «هذا دفاع غريب، فهو حقُّ يُقصد به باطل».



قال السيد بايليس بسُخرية: «أوه! لا يعبأ إمبراطور تشينج بالردائل. فهو شديد الحرص على فضّته، هذا ما في الأمر. لكن التجارة لا تعمل إلا بالأخذ والعطاء، ومع ذلك، نُعاني عجزاً في الوقت الحالي. ليس لدينا شيء يُريده الصينيون، ما عدا الأفيون، فهم لا يشبعون منه، بل إنهم على استعداد لدفع أي شيء للحصول عليه. ولو كان الأمر أمري، لأصار كل رجل وامرأة، وطفل في هذه البلاد مُدجّناً للأفيون حتى يعجزوا عن التفكير بشكل سليم». ختم كلامه بصفع الطاولة بيده ليصدر عنها صوت أعلى من المقصود، إذ فرقعت كطلقة رصاص، فجفلت ليتي وفيكتوار وبدا رامي شديد الذهول، فلم يُعلّق.

قال روبين: «لكن هذه قسوة، بل قسوة شديدة».

ردّ السيد بايليس: «لكنه اختيارهم، أليس كذلك؟ لا يُمكنك تحية اللوم على العمل. فالصينيون قذرون، وكُسالى، وسهلو الإدمان. لا يُمكنك ببساطة أن تلوم الإنجليز على عُيوب جنس مُتدنٍ، لا حيث يمكن كسب المال».

وهنا شعر روبين بوخز غريب ومُلِحّ في أصابعه، إذ لم يكن يعرف هل يفرّ أم يضرب الرجل، فقال: «يا سيد بايليس، أنا شاب صيني».

وفجأة، لاذ السيد بايليس بالصمت، وراح يُحدّق إلى وجه روبين وكأنه يُحاول التحقق من صحة كلامه في ملامحه، ثم فوجئ روبين بأنه انفجر في الضحك. ثم اتّكأ وضمّ يديه فوق صدره وهو يضحك بصوت عالٍ ويقول: «كلا، لست صينيّاً. رباه! هذا مُضحك. لا، لست صينيّاً».

أما الأستاذ لوفيل، فقد لاذ بالصمت.

بدأت أعمال الترجمة في اليوم التالي على الفور. كان الطلب عالياً على اللّغويين الجيدين في كانتون دائماً، وكانوا يُجذبون في مُختلف الاتجاهات حيث يَحُلّون. لم يَزُق للتجار الغربيين استخدام اللّغويين الصينيين المُرخّصين من الحكومة؛ لأن مهاراتهم اللّغوية كانت دون المُستوى.



فقال السيد بايليس للأستاذ لوفيل: «انسَ الإنجليز، فنصفهم لا يُجيدون التحدث بلغة الماندرين بطلاقة، ولا أثق بهم في تمثيل مصالحنا كذلك. يُمكنك أن تؤكِّد أنهم لا يقولون الحقيقة، فذات مرة كذب أحدهم عليّ بشأن الرسوم الجمركية رغم وضوح الأرقام العربية».

كانت الشركات التجارية توظِّف الغربيين الطلِّقين في اللغة الصينية، لكن كان العثور عليهم صعباً. وكان تدريس الصينية بشكل رسمي لأجنبيٍّ جريمة عقوبتها الإعدام. وبعد أن صارت حدود الصين أكثر انفتاحاً، استحال إنفاذ هذا القانون. بيد أنه كان يعني أن المترجمين المَهرة كانوا من الإرساليات مثل رجل الدِّين جونسلاف بوقت فراغ محدود. وتمثلت النتيجة في أن أمثال روبين والأستاذ لوفيل كانوا يساؤون وزنهم ذهباً. أما رامي، وليتي، وفيكتوار المساكين كانوا ليتنقلوا من مصنع إلى آخر طوال اليوم لعمل صيانة الفضة، لكن جداول أعمال روبين والأستاذ لوفيل كانت مزدحمة بالمقابلات بدءاً من الساعة الثامنة صباحاً.

وبعد تناول الفطور مباشرة، رافق روبين السيد بايليس إلى الميناء لمراجعة مستندات الشحن مع مسؤولي الجمارك الصينيين. كان مكتب الجمارك قد وُقِّر مترجمه الخاص. كان رجلاً نحيلاً يرتدي نظارة ويُدعى منج، وكان ينطق كل كلمة إنجليزية ببطء، وتردُّد، وخَجَل، وكأنه يخشى أن يخطئ نطق أي شيء.

قال لروبين: «سنراجع المخزون الآن». كانت لهجته المتواضعة التصاعدية تجعله أشبه بمن يطرح سؤالاً. لم يستطع روبين أن يتبيَّن ما إذا كان يطلب منه الإذن. ثم تتحنح وقال: «إمم - نعم». وبعدها نطق بوضوح بلغته الأم، الماندرين، «هَلُمَّ».

بدأ منج يقرأ قائمة المخزون وهو ينظر لأعلى بعد كل بند كي يؤكِّد السيد بايليس في أي صناديق خُرنت تلك الأغراض. «مائة وخمسة وعشرون رطلاً من النحاس، وثمانية وسبعون رطلاً من الجنسج الخام، وأربعة وعشرون صندوقاً... قر...»



فقال السيد بايليس مصححًا: «قرطوم».

«قرطوم؟».

رد السيد بايليس: «أو الفوفل ، للمضغ» ثم أشار لِفِغِه وَقَلَدَ الحركة وأردف:
«أليس كذلك؟».

نظر منج لروبين بارتباك علّ الأخير يساعده. فترجم روبين إلى الصينية بسرعة، فأوماً منج وقال: «قرطوم».

قال السيد بايليس بحدّة: «لنكتفِ بهذا. دَع روبين يؤدِّ المهمة. ألا تستطيع ترجمة القائمة بأكملها يا روبين؟ سيوفر هذا علينا وقتًا كبيرًا. لا يُجدي هؤلاء كلهم نفعًا كما قلت لك، بل البلاد بأكملها لا تساوي مُتَحِدِّتًا كُفَّنًا للغة الإنجليزية».

بدا منج كمن فهم هذا جيدًا، فحجج روبين بنظرة قاسية وأمال روبين رأسه فوق السجل لتجنب عينيه.

سار الأمر بهذه الطريقة طوال الصباح، إذ قابل السيد بايليس مجموعة من الوكلاء الصينيين الذين عاملهم كافة، بوقاحة، ثم نظر إلى روبين، وكأنه يتوقع منه ترجمة لا كلماته فحسب، بل احتقاره التام للمتحدثين.

وقُبِيل التوقف لتناول الغداء، كان روبين يشعر بصداغ شديد. لم يكن ليتحمل ولا لحظة أخرى مع السيد بايليس، بل وحتى العشاء الذي قُدِّم في المصنع الإنجليزي لم يكن مريحًا، إذ قضى السيد بايليس الوقت بأكمله في سرد الادعاءات السخيفة التي أطلقها موظفو الجمارك، وظل يروي قصصه بطريقة جعلت روبين يشعر بأنه كان يَصْفَع الصينيين لفظيًا في كل منعطف. بدا رامي، وليتي، وفيكثوار غاية في الحيرة. قلَّمَا تحدث روبين، بل كان يأكل بسرعة - كان الطعام مقبولاً هذه المرة، رغم أنه كان طبق أرز باللحم مَعْدوم النكهة - ثم أعلن أنه سيخرج.

فسأله السيد بايليس: «إلى أين تذهب؟».



أجاب روبين وقد جعله الغضب أكثر جراً: «أريد رؤية المدينة. ألم ننتهِ من أعمال هذا اليوم؟».

رد السيد بايليس: «غير مسموح للأجانب بالظهور في المدينة».

«لست أجنبيًا، فقد وُلدت هنا».

لم يستطع السيد بايليس الرد، فاعتبر روبين صمته أمارة للموافقة. فجذب سترته واتجه مُسرِعًا إلى الباب.

فأسرع رامي وراءه وقال: «أيمكنني المجيء معك؟».

كاد روبين يقول أرجوك، لكنه تردد وقال: «لست متأكدًا من ذلك».

رأى روبين أن ليتي وفيكثوار تنظران نحوه، كانت ليتي على وشك النهوض، لكن فيكثوار وضعت ذراعها على كتفها.

قال رامي وهو يسحب سترته: «ستكون الأمور على ما يرام. سأتي معك».

خرج الاثنان من الباب الأمامي واجتازا المصانع الثلاث عشرة. وحين عبرا المنطقة الأجنبية إلى ضواحي كانتون، لم يوقفهما أحد، ولم يجذبهما أحد من ذراعيهما ويصر على عودتهما إلى مقرّهما. ولم يَسْتَنْفِر وجه رامي أي تعليق غريب. إذ شاعت رؤية البحارة الهنود في كانتون وكانوا أقل جذبًا للانتباه من الأجانب البيض، وهو ما كان عكس وضعهم تمامًا في إنجلترا.

قاد روبين زميله في شوارع وسط مدينة كانتون على نحو عشوائي. لم يعرف ما كان يبحث عنه. هل كانت أشباح طفولته، أم علامات مألوفة؟ لم يكن يفكر في وجهة، إذ لم يرَ أن أي مكان سيُطَهَّر ذكرياته، كان كل ما يشعر به هو الشعور بالإلحاح، واحتياج للسير في أماكن كثيرة قَدُر استطاعته قبل مغيب الشمس.

سأله رامي بشيء من الحياء وكأنه يسير على قشر بيض بأصابع قدميه: «هل تشعر بأنه وطنك؟».



أجاب روبين: «إطلاقاً. لست واثقاً من هذا». كان يشعر بارتباك شديد.

كانت كانتون قد اختلفت كثيراً عن المدينة التي تركها. كان البناء فوق المرافئ، والذي كان يحدث منذ عهد بعيد، قد تحول إلى مجمعات مكونة من أبنية جديدة: مخازن، ومقرات شركات، وفنادق، ومطاعم، ومقاهي. لكن، ماذا عساه كان يتوقع؟ كانت كانتون مدينة دائمة النشاط والتغير، وكأنها تمتص ما يلقي به البحر وتهضمه مُحَوِّلة إياه لشيء يحمل طابعها الهجين الغريب. فكيف كان ليفترض أنها ستظل متجذرة في الماضي؟

مع ذلك، بدا هذا التحول كالغدر، وبدا كأن المدينة قد قطعت طريق الرجعة إلى الوطن.

فسأله رامي: «أين كنت تعيش؟». صدر السؤال عن رامي بلطف وحنان، وكأن روبين قد تحول لقارورة مشاعر تكاد تنسكب.

فنظر روبين حوله وأجاب: «في أحد الأحياء العشوائية. لا أظنه بعيداً عن هنا».

«هل تريد أن تذهب؟».

راح روبين يفكر في ذلك المنزل الجاف المزدحم، ورائحة المخلفات البشرية والجثث المتحللة الكريهة. كان آخر مكان في العالم أراد زيارته مجدداً، لكن عدم إلقاء نظرة بدا أسوأ، فقال: «لست متأكداً أنني سأجده، لكن يمكننا أن نُجرب».

وفي النهاية، وجد روبين طريق العودة إلى بيته القديم، لا باتباع الشوارع التي صارت غير مألوفة للمرة، بل بالأحرى بالمشي حتى صارت المسافة بين المرافئ، والنهر، والشمس الموشكة على المغيب مألوفة. نعم، لعل هذا كان موضع بيته، إذ تذكر انحناء ضفة النهر وكذلك ساحة عربات الريكشا على الضفة المقابلة.

فسأله رامي: «هل هذا هو؟ إنها متاجر فحسب».



لم يكن الشارع شبيهاً بأي شيء يتذكره. كان منزل عائلته قد اختفى من على ظهر كوكب الأرض. لم يستطع حتى أن يتبين مكان أساساته. لعلها صارت أسفل متجر الشاي أمامهما، أو مقر الشركة على يساره، أو المتجر الشديد الزخرف بجوار نهاية الشارع بلافتته المكتوب عليها بالإنجليزية هوايان جوان والتي تُترجم متجر زهور ودخان كان وكراً للأفيون! أسرع روبين نحوه.

فأسرع رامي وراءه وقال: «إلى أين تذهب؟ ما هذا؟».

«إنه المكان الذي يذهب إليه الأفيون كله، إذ يأتون هناك لتدخينه». شعر روبين فجأة بفضول عارم، ثم ألقى نظرة على واجهة المتجر مُحاولاً حفظ كل تفصيلة فيها - المصابيح الورقية الكبيرة والواجهة المطلية بالورنيش. كانت الفتحات ذات الوشوم الزخرفية على وجوههن والتنانير الطويلة يُثيرن من واجهة المتجر. كُنَّ يبتسمن له ويمدُنْ أذرعهن كالراقصات أثناء اقترابه. رُحْنُ ينادين عليه بدلال باللغة الكانتونية: «مرحباً يا سيدي. أَلن تدخل لتستمتع بوقتك قليلاً؟».

قال رامي: «رباه! ابتعد عن هذا المكان».

«لحظة واحدة». كان روبين يشعر بأن رغبة جامحة مُنحرفة في المعرفة تُجبره على الذهاب. كان الدافع السيئ نفسه الذي يَحُثُّ المرء على ثقب قُرحة لمجرد معرفة مدى إيلام الأمر «أريد أن ألقى نظرة فحسب».

وفي الداخل، صدمته الرائحة وكأنها جدار؛ كانت عَطْنَة، وكريهة، ولزجة، بل كانت مُنقّرة ومُثيرة في آنٍ واحد!

قالت المضيفة التي ظهرت بجوار روبين: «مرحباً يا سيدي». ثم ابتسمت ابتسامة عريضة حين فهمت تعبير وجهه وأردفت: «هل هذه هي أوّل مرة لك؟».



«لست...». لكن التعبير خان روبين، كان يفهم الكانتونية، لكنه لم يستطع التحدث بها.

فمدت له المضيفة غليونًا وقالت: «هل تريد أن تُجرب؟». كان الغليون مُشتعلًا بالفعل، وكان الإناء يلمع بشعلة أفيون خفيفة وخيط ضئيل من الدخان يتصاعد من قمته. «أول مرة على حساب المكان يا سيدي».

سأل رامي: «ماذا تقول؟ لا تلمس هذا يا بيردي».

قالت المضيفة وهي تشير إلى غرفة الجلوس: «انظر كم يستمتعون! ألن تذوق؟».

كان الوكر مملوءًا بالرجال. لم يكن روبين قد لاحظهم قبلها. كان المكان مُعتمًا للغاية، لكنه صار يرى على الأقل عشرة من مُدخني الأفيون المُمددين فوق أرائك مُخفضة في مختلف حالات العُري. كان بعضهم يُلاعِبون فتيات، والبعض الآخر نائمون دون انتباه، والبعض يرقُد في حالة وحدة ودُھول بغم نصف مفتوح وأعين نصف مُغلقة مُحدِّقًا إلى الفراغ.

لم يستطع خالك الابتعاد عن تلك الأوكار. استدعى المنظر كلمات لم يتذكرها على مدى عُقد، كلمات بصوت أمه، كلمات لم تتفك تنطق بها بِنَنهُد طوال طفولته. «كنا أغنياء يا حبيبي، لكن انظر لحالنا الآن».

راح يفكر في أمه وهي تتذكر بمرارة الحقائق التي كانت تعتني بها والفساتين التي كانت ترتديها قبل أن يُبَدَّ خالُه ثروة العائلة في وكر من أوكار الأفيون، وتخيل أمه وهي صغيرة، بائسة، ومتحمسة لعمل أي شيء من أجل الرجل الأجنبي الذي وعدّها بالمال، والذي كان يستغلها ويُسِيء معاملتها، ثم تركها مع خادمة إنجليزية ومجموعة غريبة من التعليمات لتربية طفلها بلغة لم تستطع هي نفسها التحدث بها.

لقد تحكّمت خيارات أنتجها الفقر في ميلاد روبين، ذاك الفقر الناتج عن الأفيون.

«هل تريد جُرعة يا سيدي؟».



وقبل أن يتبيّن ما كان يفعل، كان الغليون قد وُضِعَ في فمه، وكان يستنشِق الدخان، وكانت المضيفة تقول شيئاً لم يفهمه، وكان كل شيء حُلُوءاً، ومُثَوِّشاً، وجميلاً، وكرِيهًا في ذات الوقت. راح يسعل ثم استنشق بقوة مُجدِّداً. كان يجب أن يعرف إلى أي مدى كان هذا مُسبِّباً للإدمان، وما إذا كان يجعل المرء يُضحى بكل شيء آخر.

فجذبه رامى من ذراعه وقال: «حسنًا، يكفي هذا. لنذهب».

راحا يسيران بسرعة في المدينة، وكان رامى يقوده هذه المرة. لم يَنبَسِ روبين ببنت شفة، كما لم يستطع أن يعرف إلى أي مدى كانت تلك الجرعات القليلة من الأفيون قد أثرت فيه، وما إذا كان يتخيل الأعراض أم لا. فذات مرة قلب في نسخة من كتاب اعترافات مُدخِّن أفيون إنجليزي لـدي كوينسي والذي وصف تأثير الأفيون أنه يمنح «السكينة والتوازن» لجميع المَلَكات، ويُحَقِّز بقوة ضبط النفس، ويُوَسِّع «الصدر». لكنه لم يشعر بأي من تلك. كانت الكلمات التي كان ليستخدمها لوصف نفسه. «هي لست على ما يرام». كان يشعر بعثيان غريب، وكان رأسه يدور، وقلبه يخفق بسرعة، وجسده يتحرك ببطء شديد.

سأله رامى بعد فترة: «هل أنت بخير؟».

فتمتم روبين: «إني أغرق».

قال رامى: «لا، لست كذلك، أنت في حالة هيسْتيرية فحسب. سنعود إلى المصانع وستشرب كوبًا كبيرًا من الماء».

قال روبين: «يانجهيو*». هذا هو الاسم الذي أُطْلِقَ على الأفيون. تعني يانج أجنبي، وتعني هيو بضائع. تعني كلمة يانجهيو بضائع أجنبية. هكذا يُشيرون إلى كل شيء هنا. أناس يانج، وحِرَف يانج، تعني يانجهيور هوس بالبضائع الأجنبية بالأفيون. وهذا أنا. أنا أساس هذا، فأنا يانج».



توقف الاثنان فوق جسر كان الصيادون والقوارب الصغيرة تروح وتغدو أسفله. كان عليه التركيز لفهم الصخب والضوضاء اللغوية التي قضى وقتاً طويلاً بعيداً عنها، ما جعل روبين يضغط بيديه على أذنيه لحجب الأصوات التي كان من المفترض أن تعبر عن الوطن، لكنها لم تعد كذلك.

وهنا قال: «أسف لأنني لم أخبرك بشأن هرمس».

تنهد رامي وقال: «ليس الآن يا بيردي».

فقال روبين بإصرار: «بل كان يجب أن أخبرك. كان يجب، ولم أفعل، إذ لم أكن قد ربطت الأمور في رأسي، ولم أربط الأمرين ببعضهما بعضاً لأنني لم أفهم فحسب... أنا فحسب - لا أعرف كيف لم أفهم».

راح رامي ينظر إليه في صمت لئُرْهَ طويلة، ثم اقترب منه حتى صارا بجانب بعضهما بعضاً يُحَدِّقَانِ إلى الماء.

قال رامي: «ذات مرة اصطحبني كافي السير هوراس ولسن إلى أحد حقول الأفيون التي يستثمر فيها في غرب البنغال. لا أظنني أخبرتك هذا، فهناك يُزْرَع معظم هذا النبات - في البنغال، وبيهار، وباتنا. كان السير هوراس يمتلك أسهماً في إحدى المزارع، وكان شديد الفخر، إذ ظن أن هذا هو مستقبل التجارة الاستعمارية. جعلني أصفّح المزارعين وقال لهم إن ذات يوم قد أصبح مُلاحظاً عليهم. وقال إن هذا النبات غَيَّر كل شيء وأنه أسهم في سد العجز التجاري».

لا أعتقد أنني سأنسى ما رأيته». وهنا أراح مرفقيه على الجسر وتنهد ثم أردف: «صفوف متعددة من الزهور، وكأنه بحر كبير من زهور حمراء قانية على نحو يجعل أرض الحقل وكأنها تنتزف. يُزرع كل ذلك في الريف، ثم يُعَبَّأ ويُقَل إلى كالكوتا حيث يُسَلَّم إلى ثُجَّار سِرِّيَّين يجلبونه مباشرة إلى هنا. تُدعى أكثر صنفَي أفيون شعبية هنا باتنا ومالوا نسبة إلى منطقتين في الهند. من موطني إلى موطنك مباشرة يا بيردي، أليس هذا مُضحكاً؟». وهنا



نظر رامي إليه وتابع: «يُحوّل البريطانيون وطني إلى دولة ذات مخدرات وجيش لضخ المخدرات في موطنك، وهكذا تربط الإمبراطورية بيننا».

من تلك اللحظة، رأى روبين شبكة عنكبوت ضخمة في عقله. يذهب القطن من الهند إلى بريطانيا، والأفيون من الهند إلى الصين، وتتحول الفضة إلى شاي وبورسلين في الصين، ثم يتدفق كل شيء عائدًا إلى بريطانيا. بدا الأمر بالغ التجريد - مُجرّد فئات للاستخدام، والتبادل، والقيمة - حتى تتبدل الحال، ثم تُدرك الشبكة التي تعيش فيها والاستغلال الذي يقتضيه أسلوب حياتك، وترى شَبَحَ العمل والألم الاستعماري يَحُوم فوق كل شيء!

فهمس: «هذا مُزعج، بل مُزعج للغاية...».

قال رامي: «لكن ما هي إلا تجارة، ينتفع الجميع، بل ويربحون حتى ولو كانت دولة واحدة هي التي تستأثر بأكبر الأرباح. مكاسب مستمرة. هذا منطقي، أليس كذلك؟ فلماذا نحاول الانفصال؟ أظن أن المُهمّ يا بيردي هو أنك لم تفهم. بصعوبة يفهم أحد».

لم ينفك البريطانيون يرون أنها التجارة الحرة-التجارة الحرة، والمنافسة الحرة، ومجال مُتساوٍ أمام الجميع. لكنها لم تنتهِ بتلك الطريقة، أليس كذلك؟ إذ كانت «التجارة الحرة» تعني بالنسبة للبريطانيين الهيمنة الإمبريالية. فكيف تكون التجارة حرة لطالما اعتمدت على بنية ضخمة من القوة البحرية لتأمين الوصول البحري؟ فمنذ متى كان باستطاعة شركات التجارة شن الحروب، وتقييم الضرائب، وتسيير شؤون العدالة المدنية والجنائية؟

راح روبين يفكر في أن جريفيين كان مُحقًا في غضبه، لكنه أخطأ في ظنه أنه يستطيع عمل أي شيء حيال ذلك. كانت تلك الشبكات التجارية واقفة على أرض صلبة، ولم يكن هناك ما يُبعد هذه الخطة عن مسارها، إذ كانت هناك الكثير من المصالح الخاصة، والكثير من الأموال على المحك. كان بإمكانهم معرفة وجهتها، لكن من يملكون السلطة لعمل أي شيء حيال هذا كانوا موضوعيين في مراكز تمكّنهم من الرّبح، وكان من يعانون لا يملكون أي سلطة.



قال روبين: «كان من السهل أن أنسى الأوراق التي قامت عليها، أقصد، حين يكون المرء في أوكسفورد، وفي البرج، لا تتعدى كونها كلمات، أو مُجَرَّد أفكار. لكن العالم أكبر بكثير مما تخيلت...».

قال رامي: «بل هو بالكبر الذي ظنناه، لكننا نسينا أن باقيه مُهمّ فحسب، لقد صرنا بارعين في رفض رؤية ما هو أمامنا مباشرة».

رد روبين: «لكنني رأيته الآن، أو على الأقل فهمته على نحو أفضل قليلاً، وهو يَمَرِّقني يا رامي دون أن أفهم السبب. ليس كأنه... كأنه...»

كأنه ماذا؟ وكأنه رأى شيئاً مريعاً؟ وكأنه رأى المزارع التي يعمل فيها العبيد في جُزر الهند الغربية في قمة بشاعتها، أو الأجساد الجائعة في الهند لضحايا المجاعات الممكن تجنُّبها، أو السكان الأصليين المذبوحين في العالم الجديد؟ لم يرَ سوى وكر للأفيون-بيد أن هذا كان كافياً ليعتبر كناية عن البقية الكريهة التي لا يمكن إنكارها.

اتكأ على جانب الجسر متسائلاً كيف سيبدو الأمر لو سقط من على الحافة. فسأله رامي: «هل ستقفز يا بيردي؟».

تنفس روبين بعمق: «لا يبدو أن... لا يبدو أننا نَسْتَحِق الحياة».

قال رامي بهدوء شديد: «هل تعني ما تقول؟».

فأغمض روبين عينيه وأجاب: «لا، بل أنا فحسب لا...» كانت أفكاره مُشَوَّشة للغاية، ولم يعرف كيف يُوصِّل المعنى المراد، وكان كل ما يستطيع التَّشَبُّث به هو الذكريات والإشارات العابرة. «هل سبق لك قراءة رحلات جاليفر؟ لم أنفك أقرأها حين كنت أقطن هنا. قرأتها كثيراً، ما جعلني أحفظها. وهناك ذاك الفصل الذي يرسو فيه جاليفر على أرض تحكمها الخيل والتي تُطَلَّق على نفسها جميعاً أهل الحكمة، وحيث يُعَدُّ البشر هَمَجًا وعبداً أغبياء مثل الوُحُوش. لقد تبدلت الأدوار. لقد اعتاد جاليفر العيش مع سيده الحصان العاقل واقتنع تماماً بأنه أرفع مقاماً، ما جعل البشر يُصَيِّبونهم بالرُّعب حين عاد إلى موطنه. ظن أنهم مَعْنُوهون ولم يتحمل الوجود بينهم. وهكذا كان



هذا... ذلك...». راح روبين يتأرجح فوق الجسر. كان يشعر بأنه رغم مُحاولته التَّنَفُّس، لن يستطيع الحصول على ما يكفيه من الهواء، ثم قال: «هل تعرف ما أقصد؟».

قال رامي بلطف: «نعم، أعرف. لكن لن يُجدي انغماسنا في الأمور العاطفية نفعًا، انزل يا بيردي ولنعد ونشرب بعض الماء».

في صباح اليوم التالي، رافق روبين السيد بايليس إلى المكتب الحكومي في وسط المدينة لمقابلة المفوض السامي الإمبراطوري لين زيكسو.

قال السيد بايليس وهما يمشيان: «هذا المدعو لين أكثر ذكاءً من الباقيين وهو فاسدٌ تقريبًا. في الجنوب الشرقي يطلقون عليه اسم لين شينجتيان*، أي الصافي كالسما، ومن ثم، فهو شديد المقاومة للرشوة».

لم يُجر روبين جوابًا، إذ قرر أداء باقي واجباته في كانتون بعمل أقل ما يُطلب منه، ولم يتضمن هذا تشجيع خُطْب السيد بايليس الهجائية. لم يبدُ أن السيد بايليس قد لاحظ. «والآن، امشِ الهويني، فالصينيون جنسٌ مكرر وغادر بطبعه، إذ يقولون شيئًا ويقصدون عكسه. احذر ولا تدعهم يخدعونك».

قال روبين باقتضاب: «سأتوخى الحذر».

بالنظر لرواية السيد بايليس، كان المرء ليظن أن المفوض لين كان قصير القامة، وذا عيين تقحان شرًّا وقرني شيطان. لكن حين قابله شخصيًا، وجدته رجلًا لطيفًا، هادئًا، ومتوسط الطول والبنية. كان مظهره الخارجي عاديًا تمامًا، باستثناء عينيهِ اللامعتين اللتين ونظرتِه الناقبة. كان معه مترجم خاص، وهو شاب صيني قدم نفسه باسم وليم بوتيلو. وقد فوجئ روبين بأنه درس الإنجليزية في الولايات المتحدة.

* شينجتيان، شينج تعني «صافي» و«تيان» تعني السماء 晴天



قال المفوض لين: «مرحبًا يا سيد بايليس» وراح ولیم يترجم إلى الإنجليزية بسرعة، ثم تابع: «علمت أن لديك بعض الأفكار التي تودُ مشاركتي إياها».

رد السيد بايليس: «تعلّم أن الموضوع يتعلق بتجارة الأفيون. يرى السيد جاردين والسيد ماثيسون أنه سيكون مفيدًا لشعبكم وشعبنا لو استطاع الوكلاء بيع الأفيون بطريقة قانونية في ساحل كانتون دون تدخل، كما يفضلان تلقي اعتذار رسمي على المعاملة غير الودودة لوكلائهم التجاريين في وقت مبكر من هذا العام، ومن الأفضل أن تُعاد إلينا الصناديق العشرين ألفًا التي تحتوي على الأفيون والتي قد صُوِّدَت منذ بضعة أشهر، أو على الأقل التعويض المالي المساوي لقيمتها السوقية».

وعلى مدى اللحظات القليلة الأولى، كان المفوض لين يُنصِت فحسب وهو ينظر لروبين وهو يسرد قائمة مطالب السيد بايليس. حاول روبين ألا ينقل نبرة السيد بايليس والتي كانت عالية ومُتعلّية، وتوصيل المعلومة بطريقة محايدة وخالية من العاطفة قدر استطاعته. لكن الإحراج بدا عليه جليًا، وكان الأمر أقرب للمُحاضرة منه للحوار، بل كدرس يُلقّن لطفل بطيء الفهم.

لم يبدُ على السيد بايليس الذهول لعدم رد المفوض لين. وحين قُوبِل كلامه بالصمت، تابع: «يود السادة جاردين وماثيسون أن يقولوا أيضًا إنه يجب على الإمبراطور تشيخ أن يدرك أن السياسات التجارية الحصرية لحكومته لن تنفع الصينيين، بل سيُسَخِّط شعبكم على ما تضعونه من قيود على التجارة، إذ سيرى أنها لا تمثل مصالحه، وسيفضل التعامل الحر مع الأجانب، إذ يَمَنحهم فرصة للثراء. وصدقتي أن التجارة الحرة هي سرُّ الرخاء القومي، وقد يستفيد شعبكم من قراءة آدم سميث».

وأخيرًا، تحدث المفوض لين قائلاً: «نعلّم هذا». وترجم ولیم بوتيلو فورًا. كانت مُحادثة غريبة بين أربعة أشخاص لم يتحدث أي منهم مباشرة للشخص الذي يستمع إليه. «هناك شروط واضحة في عدة خطابات أرسلها السادة جاردين وماثيسون، أليس كذلك؟ هل لديك أي رد؟».



نظر روبين للسيد بايليس مُنتظراً رده، في حين تردد الأخير قليلاً، ثم قال: «حسناً، لكن من المفيد تكراره وجهًا لوجه».

فضم المفوض لين يديه وراء ظهره ثم سأل: «يا سيد بايليس، أليس صحيحاً أن هناك حظراً شديداً وصارماً على الأفيون في بلادك؟». ثم انتظر ريثما يترجم وليم.

أجاب السيد بايليس: «حسناً، نعم، لكن المسألة تتعلق بالتجارة، لا بالمحظورات المحلية في بريطانيا».

تابع المفوض لين: «وكذلك، ألا تُثبت مُعاقبة من يستخدم الأفيون من مواطنيك أنكم تعرفون مدى ضرره على البشر؟ نود أن نسأل: هل سبق للصين إرسال مادة ضارة من تربتها؟ ألم نبع لكم أشياء مفيدة كانت بلادكم في أمس الحاجة إليها؟ هل تتمثل حُجتك في أن تجارة الأفيون مفيدة لنا؟».

أجاب السيد بايليس مؤكداً: «تتعلق مُناقشتنا بالاقتصاد. ذات مرة أوقف أدميرال سفينتي وبحث فيها عن الأفيون. وحين أوضحت له أنني لا أملك أي شيء باعتباري أنفذ قوانين الإمبراطور تشنج، بدت عليه خيبة الأمل. كان يود أن يشتري حُمولة بالجملة ويُعيد توزيعها بنفسه، وهو ما يُثبت أن الصينيين يُحققون الكثير من الربح من هذه التجارة كذلك».

قال المفوض لين: «ما زلت تتهرب من مسألة من يدخلون الأفيون».

تنهد السيد بايليس بإحباط وقال: «أخبره يا روبين».

قال المفوض لين: «سأكرر على مسامعك ما كتبناه للملكة فيكتوريا. على من يرغب في مُمارسة التجارة مع إمبراطوريتنا السامية أن يخضع للقوانين التي سنّها الإمبراطور. ويُصنّ القانون الجديد الذي يُوشك على أن يدخل حيز التنفيذ على أن يُعَدَم أجنبي يجلب الأفيون إلى الصين بنية بيعه وتُصادَر جميع الممتلكات على سفينته».

قال السيد بايليس بغضب: «لكن، لا يجوز أن تفعلوا ذلك، فأنت تتحدث عن مواطنين بريطانيين. وهذه مُمتلكات بريطانية».



«ليس حين يُقررون أن يُصبحوا مُجرمين». هنا ترجم وليم الكلام مُضاهياً نبرة الاحتقار الباردة في حديث المفوض لين بدقة مُتناهية، بل إنه ترجم أقل تَقْطِيبَةً لحاجبيه، ما أثار إعجاب روبين.

قال السيد بايليس: «اسمع أيها المفوض، ليس البريطانيون تحت ولايتكم القضائية، وليس لكم أي سُلطة حقيقية».

رد المفوض لين: «أعني أنكم تعتقدون أن مصالحكم فوق قوانيننا. لكننا داخل أرض صينية، ومن ثم، دَعني أَذْكَرُكَ وَأَذْكَرُكَ سادتك بأننا سوف نُنفِذُ قوانيننا متى رأينا ذلك مُناسباً».

«إذا، تعلمون أننا سندافع عن مواطنينا متى رأينا ذلك مُناسباً».

تعجب روبين من تَقَوُّه السيد بايليس بهذه الكلمات بصوت مرتفع، ما أنساه أن يترجمها! ثم تلا صمت يَشُوبُهُ الحرج. وفي النهاية، تمت وليم بوتيلو معنى كلمات السيد بايليس بالصينية للمفوض لين.

لم يُحِرِّك المفوض لين ساكناً وقال: «هل هذا تهديد يا سيد بايليس؟».

فتح السيد بايلس فاه، ثم بدا كأنه يُمَعِن التفكير، ثم أغلقه. فرغم غضبه، أدرك أنه رغم حُبِّهِ لتوبيخ الصينيين لفظياً، لم يستطع إعلان حرب دون دعم من حكومته.

راح الأطراف الأربعة ينظرون بعضهم إلى بعض في صمت.

وفجأة أوما المفوض لين إلى روبين وقال: «أريد أن أتحدث إلى مُساعدك على انفراد».

«إليه؟ ليس لديه أي إذن من الشركة، إنه مترجم فوري فحسب». كان روبين يترجم ما يقوله السيد بايليس بشكل تلقائي.

قال المفوض لين: «أعني مُحادثة غير رسمية فحسب».

«أنا... لكن غير مسموح له بالتحدث نيابة عني».



قال المفوض لين: «لا أريده أن يفعل هذا، بل أرى أن كلاً منا قد قال للآخر ما يُريده، أليس كذلك؟».

سمح روبين لنفسه بالاستمتاع بمُشاهدة صدمة السيد بايليس تتحول إلى حَسْرَة وفُكْر في ترجمة احتجاجاته التي قالها وهو يتلثم، لكنه قرر الصمت حين اتضح له أنها مجرد كلمات غير مترابطة. وفي النهاية، سمح السيد بايليس لنفسه بأن يُرافق خارج الغرفة، إذ لم يكن هناك خيار أفضل.

قال المفوض لين لويلم بوتيلو: «وأنت أيضاً» فأطاع الأخير دون تعليق. ثم انفرد كل منهما بالآخر، فَحَقَّقَ المفوض لين في روبين للحظة صمت طويلة.

أغْمَضَ روبين عينيه للحظة، إذ لم يستطع استبقاء التواصل البصري، كما كان متأكداً أنه مُراقَب، ومن ثم، شعر بعدم الكفاءة وعدم الارتياح.

سأله المفوض لين بهدوء: «ما اسمك؟».

أجاب روبين: «اسمي روبين سوفيت»، ثم أغْمَضَ عينيه بارتباك. بدا الاسم الإنجليزي غير مُتوافق مع مُحادثة تُجرى باللغة الصينية. لم يكن اسمه الأصلي، أي اسمه الأول، قد استُخِمْ منذ فترة طويلة، ما جعله لا يَخْطُر بباله.

«أقصد...» لكنه كان أكثر إحراجاً من أن يتابع.

كانت نظرة المفوض لين ثابتة وغريبة: «أين موطنك؟».

قال روبين مُمتناً لسؤال استطاع أن يجيب عنه بسهولة: «هنا في واقع الأمر. مع ذلك، فقد غادرت في سن مبكرة، ولم أَعُدْ لمدة طويلة».

«هذا مُثير للاهتمام. لماذا غادرت؟».

«ماتت أُمي بالكوليرا، وصار أحد أساتذة أو كسفورد وصياً عليّ».

«تنتمي إذاً لمدرستهم المدعوة معهد الترجمة؟».



«نعم، وهذا هو سبب سفري إلى إنجلترا. درست طوال حياتي كي أصبح مُترجماً».

قال المفوض لين: «إنها وظيفة مُحترمة للغاية. يَحْتَقِر كثير من مواطني تعلم لغات همجية، لكنني قمت بتكليف القليل من مشاريع الترجمة منذ تولي السلطة. يجب أن تعرف الهمَج حتى تتمكن من السيطرة عليهم، أليس كذلك؟».

كان هناك شيء بخصوص الرجل أجبر روبين على التحدث بصراحة، فقال: «هذا موقفهم نفسه منك».

فضحك المفوض، ما جعله يشعر بالارتياح، بل ومنحه الجرأة ليسأل: «هل يمكنني أن أقول شيئاً؟».

«تفضل».

«لماذا تدعوهم بي؟ لا بد أن تعرف أنهم يكرهونه».

فقال المفوض لين: «لكن هذه الكلمة تعني «أجنبي»، وهم من أصروا على إحياءات الكلمة. لقد خلقوا الإهانات لأنفسهم».

«ألن يكون أسهل أن يُطْلَق عليهم اسم يانج؟».

«هل تسمح لشخص بأن يَدْخُل ويُمْلِي عليك مَعَانِي لكلمات بلغتك؟ لدينا كلمات نستخدمها في الإهانة. يجب أن يشعروا بأنهم محظوظين لعدم شيوع كلمة جوي*».

ضحك روبين وقال: «هذا مَعْقُول».

قال المفوض لين: «أود أن أكون صريحاً معك. هل هناك أي هدف من التفاوض على هذا الأمر؟ لو تجاهلنا كرامتنا ورضخنا، فهل سيؤدي هذا لتهدئة الأمور على الإطلاق؟».

* جوي (鬼) قد تعني «شبح» أو «شيطان»، في هذا السياق، شاعت ترجمتها إلى «شيطان أجنبي».



أراد روبين أن يقول نعم، بالطبع، يوجد مجال للتفاوض - فيما أن أناسًا عقلاء مُستبشرين هم من يقودون بريطانيا والصين، فسوف تُجدان أرضية مُشتركة دون اللجوء إلى العداوات. لكنه كان يعلم أن هذا ليس حقيقيًا. كان يعرف أن بايليس، وجاردين، وماتيسون ليس لديهم نية للوصول إلى حل وسط مع الصينيين. ولطالما تطلبت الحلول الوسط اعترافًا أن الطرف الآخر يستحقون المُعاملة نفسها القائمة على أساس الاحترام والأخذ بعين الاعتبار. لكنه عرف أن البريطانيين يعتبرون الصينيين حيوانات.

فقال: «لا، سيأخذون ما يريدون، ولن يقنعوا بما هو أقل، فهم لا يحترمونك ولا يحترمون حكومتك. ما أنتم إلا مُعوقات يجب تخطيها بشكل أو بآخر».

«بالنظر لكل كلامهم عن الحقوق والكرامة، يُعدُّ هذا مُخيِّبًا للتوقعات».

«أعتقد أن هذه المبادئ لا تنطبق إلا على من يعتبرونهم بشرًا».

أوماً المفوض لين، وبدا أنه اتخذ قرارًا ما، كانت ملامحه تنطق بالإصرار إذ قال: «لا حاجة لنا، إذًا، إلى إهدار الكلمات، أليس كذلك؟».

ولم يُدرك روبين أنه يُصرّف إلا عندما أدار المفوض له ظهره.

وإذ لم يكن يعرف ما ينبغي أن يفعل، انحنى بسرعة وخجل وغادر الغرفة. كان السيد بايليس مُنتظرًا في الممرّ وقد بدا عليه الاستياء.

فسأل والخدم يرافقونه للخروج من الردهة: «هل يوجد أي شيء؟».

أجاب روبين: «لا شيء». كان يشعر ببعض الدوار، فقد انتهت المقابلة على نحو مُفاجئ، ما جعله لا يفهم ما الهدف منها. كان شديد التركيز على آليات الترجمة، وعلى توصيل المعاني التي قصدها السيد بايليس بدقة، كلمة بكلمة، ما جعله لا يفهم التحول في مسار المُحادثة. شعر بأن شيئًا شديد الأهمية قد حدث للتو، لكنه لم يكن متأكدًا منه ولا من دوره فيه، بل ظل يفكر في المفاوضات مُتسائلًا ما إذا كان قد ارتكب خطأ كارثيًا. لكن كل شيء قد سار على نحو مُهدَّب، فكل ما فعلوه هو تأكيد ما دُوّن على الورق من مواقف، أليس كذلك؟ «يبدو أنه قد فُكّر في الأمر».



حين عادوا، أسرع السيد بايليس بالصعود للمكاتب تاركًا روبين وحده في الصلاة. لم يكن يعرف ما سيفعل بنفسه. كان من المفترض أنه قد يقضي فترة بعد الظهر في الترجمة الفورية، لكن السيد بايليس غادر فجأة دون أن يترك له أي تعليمات. انتظر بضع دقائق في الصلاة، ثم شق طريقه نحو الصلاة مُفترضًا أنه من الأفضل أن يبقى في مكان عام تحسبًا لاحتياج السيد بايليس له. كان رامي، وليتي، وفيكتوار جُلوسًا إلى طاولة يلعبون الورق.

جلس روبين على مقعد خالٍ بجوار رامي وسأل: «ألا توجد أي فضاة تُلَمِّعونها؟».

فرمى رامي له ورقة وأجاب: «لقد انتهينا مُبكرًا. يُصيبنا الملل لعدم تحدثنا اللغة. نفكر في عمل رحلة بالقارب لرؤية حدائق نهر فاتي لاحقًا حين يُسمح لنا. كيف سارت المقابلة مع المفوض؟».

أجاب روبين: «كانت غريبة. لم نتوصل لأي شيء. مع ذلك، بدا شديد الاهتمام بي».

«هل يُعزى هذا لعدم معرفته سبب تعاون مُترجم فوري صيني مع العدو؟».

أجاب روبين: «أظن ذلك». لم يستطع التخلص من شعوره بالقلق، كمن يتوقع هُبوب عاصفة أو ينتظر أن يَشُقَّ البرق السماء. بدا المزاج العام في الصالون مرحًا وهادئًا، فسأل روبين: «كيف حالكم جميعًا؟ أتعقدون أنهم سيعطونكم شيئًا أكثر إثارة للاهتمام تفعلونه؟».

أجابت فيكتوار وهي تتشاءب: «ليس هذا مُتوقعًا، فنحن أطفال مُهملون، أمي وأبي مشغولان عنا بالأمر الاقتصادي المُعقَّدة!».

«رباه!». وهنا وقفت ليتي بغتة وعيناها مُتسعَتان ومُتَبَنَّتَان على النافذة حيث كانت تُشير وتقول: «انظروا، ماذا بحق السماء...».

كان هناك حريق ضخم على الضفة المقابلة، لكن، حين هَرَعوا إلى النافذة، وجدوا أن الحريق تحت السيطرة، وقد بدا كارثيًا بسبب الدخان واللهب



المُتصاعد. وحين دَقَّق روبين النظر، وجد أن اللهب محصور في مصدره المُمَثَّل في كومة من الصناديق المُحمَّلة على قوارب عميقة البطن كانت قد دُفِعت إلى المياه الضحلة. وبعد ثوانٍ معدودة، اِشْتَمَّ رائحة مُحْتَوَاهَا التي كانت رائحة حلوة مُثيرة باعثة على الغثيان قد حملتها الرياح عبر الساحل لتَنفُذ من نافذة المصنع الإنجليزي.

كان أفيونًا. كان المفوض لين يحرق الأفيون.

دخل الأستاذ لوفيل الغرفة فجأة متبوعًا بالسيد بايليس وقال: «روبين!». بدا كلاهما غاضبًا، وكان على وجه الأستاذ لوفيل غضب شديد لم يره روبين على الإطلاق، وقال: «ماذا فعلت؟».

راح روبين ينقل بصره بين الأستاذ لوفيل والنافذة بذهول وقال: «أنا... ماذا؟ أنا لا أفهم...»

فكر الأستاذ لوفيل سؤاله وهو يَهْرُ روبين من ياقته: «ماذا قلت؟ ماذا أخبرته؟».

كانت هذه أول مرة يلمسه فيها الأستاذ لوفيل منذ يوم المكتبة. لم يعرف روبين ماذا كان الأستاذ لوفيل ليفعل الآن، إذ كانت نظرة عينيه قاسية وغامضة. راح روبين يفكر بذعر. «أرجوك. أرجوك انذني، اضر بني، فحينئذ سنعرف، ولن تكون هناك شكوك». لكن سرعان ما تبدد الانفعال كما جاء، إذ ترك الأستاذ لوفيل روبين وهو يُحْمَلِق وكأنه عاد إلى رشده، ثم تراجع خطوة للخلف ونَفَضَ الغبار عن مقدمة سترته.

كان رامي وفيكتور يقفان حولهما بانزعاج، وكان كلاهما جاثمًا، وكانهما على وشك القفز بينهما.

تتنح الأستاذ وقال: «عذرًا، أنا فحسب... هاتوا أغراضكم وقابلوني بالخارج جميعًا. القارب ذا هيلاس ينتظر عند الشاطئ».

فسألت ليتي: «أليست ماكاو وجهتنا التالية؟ تُفيد الإشعارات...».



قال الأستاذ لوفيل باقتضاب: «لقد تغير الموقف. لقد حجزنا رحلة عودة مبكرة إلى إنجلترا. هلمُّوا».



الفصل الثامن عشر



من المبالغة أن نتوقع أنهم لن يحتاجوا إلى استعراض قوة آخر واسع النطاق كي يتوبوا إلى رُشدِهم.

جيمس ماثيسون، خطاب إلى جون بورفيس.

غادرت ذا هيلاس خليج بيرل بسرعة كبيرة. وفي غضون خمس عشرة دقيقة من صعودهم، قُطعت الأحبال، وسُحبت المراسي، ورُفعت الأشرعة، فانطلقوا من الميناء مُجَلَّلِينَ بالدخان الذي بدا كأنه ابتلع المدينة بأسرها.

شعر طاقم البحارة بالضيق والغضب إذ لم يُبلغوا بأنهم سوف يكونون مسؤولين عن إقامة وإطعام خمسة ركاب جُدُد. لم تكن هيلاس سفينة ركاب، وكانت مقصوراتها مُكْتَظَّة بالفعل. طُلب من رامي وروبين الإقامة مع البحارة، في حين خُصِّصَت مقصورة للفتاتين شاركتها مع المرأة الوحيدة على متن السفينة والتي كانت تُدعى جيميما سميث من أعضاء البعثات الدينية الأمريكية التي حاولت التسلل إلى البلاد، لكن قُبِضَ عليها أثناء محاولتها عبور النهر سيرًا على الأقدام إلى ضواحي كانتون.

وفيما ثلاثُهن جالسات مُنحنيات في غرفة الطعام، راحت تسأل: «هل تعرفان فيم كل هذه الجلبة؟ هل كان حادثًا أم تعمَّد الصينيون فعلها؟ هل تعتقدان أن حربًا مفتوحة ستندلع؟». لم تنفك تُكرِّر السؤال الأخير بتوتر بين الحين والآخر رغم كل تأكيداتهما البائسة بأنهما لا تعلمان. وفي النهاية، غيَّرت الموضوع وسألت ماذا كانتا تفعلان في كانتون وكيف كانتا تقضيان وقتهما في المصنع الإنجليزي. قالت: «ألا يوجد عدد كبير من رجال الدين



هناك؟ ماذا كنتم تفعلان بعد الصلوات في دار العبادة؟». ثم وجّهت حديثها إلى رامي قائلة: «هل تحضر الصلوات في دار العبادة؟».

راح رامي يقول دون توقف: «بالطبع، فأنا أذهب لأنني مُجبّر».

قالت ليتي قبل أن تحاول السيدة المذعورة إقناعه باعتناق ديانة جديدة: «إنه يمزح، فهو يحضر الصلوات بالتأكيد، إذ تحتم علينا الالتزام بالموثيق التسعة والثلاثين عند التسجيل في جامعة أوكسفورد*».

قالت الأنسة سميث بصدق «أنا في غاية السعادة من أجلكما. هل ستدعون للدين حين تعودون لأوطانكما؟».

قال رامي وهو يُحدّق ببراءة: «إن أوكسفورد هي وطننا». فقال روبين في نفسه: ليساعدنا الله، إذ فقد أعصابه. «هل تعنين أن أوكسفورد مملوءة بغير المؤمنين؟ يا إلهي! هل أخبرهم أحد؟».

وأخيراً، أصاب الأنسة سميث التعب من النقاش معهم، فراحت تتجول فوق السطح تالية أدعيتها أو أي شيء تفعله البعثات الدينية. فتجمع روبين، وليتي، ورامي، وفيكتوار حول الطاولة وراحوا يتحركون ذهاباً وإياباً كالتلاميذ المشاغبيين الذين ينتظرون العقاب، في حين اختفى الأستاذ لوفيل عن الأنظار. فعندما صعدوا للسفينة، ذهب إلى القبطان ليتحدث معه. لم يكن أحد قد أخبرهم بماذا كان يجري أو بما سيحدث بعدها.

فسألته فيكتوار بهدوء: «ماذا قلت للمفوض؟».

أجاب روبين: «الحقيقة. لم أخبره سوى بالحقيقة».

«لكن، بالتأكيد هناك شيء قد أغضبه...».

* كان هذا حقيقةً. لكن رامي فعل ذلك، إذ لم يكن يُسمح له بالتسجيل إلا في هذه الحالة. بات الدين نقطة خلافية بين الزملاء الأربعة. ورغم إلزام الكلية لهم بحضور صلوات يوم الأحد، كانت ليتي وفيكتوار هما من تفعلان ذلك برغبتيهما. كان رامي يُبدي استياءه في كل دقيقة، أما روبين فقد نشأ على الإلحاد على يد الأستاذ لوفيل الذي كان يعتقد أن الدين يبعث على «جلد الذات، وتظاهر بالقوى، والتمزام بتقاليد بالية». وكان يقول له: «احضر الصلوات إذا شئت، لكن اعتبرها فرصة للتدريب على المطالعة في صمت».



وهنا ظهر الأستاذ لوفيل، فلادوا بالصمت.

قال الأستاذ: «أقبل يا روبين، أريد التحدث معك».

لم ينتظر رد روبين، بل استدار واتجه نحو الممر، فوقف روبين على مضض.

لمس رامي كتفه وقال: «هل أنت بخير؟».

أجاب روبين: «أنا بخير». كان يرجو ألا يشعر أحد بشدة خفقان قلبه ولا بهدير الدماء في أذنيه. لم يكن يرغب في اتباع الأستاذ لوفيل، بل أراد أن يختبئ ويُماطل، وأن يجلس في إحدى زوايا غرفة الطعام مُخَبِّئاً رأسه بين يديه. لكنها مُواجهة قد طال انتظارها، ولم تكن الهدنة الهشة التي عُقدت صباح القبض عليه لتدوم، إذ كانا يكذبان على نفسيهما لفترة أطول من اللازم، هو وأبوه. لم تكن الأمور لتظل مدفونة ومُتعمَّدة التجاهل إلى الأبد، بل كانت لتصل لذروتها عاجلاً أو آجلاً.

قبيل دخول روبين المقصورة، قال الأستاذ لوفيل وهو جالس إلى مكتبه ومُقبِّلاً صفحات قاموس: «أشعر بفضول. هل تعرف قيمة الصناديق التي احترقت في الميناء؟».

فدخل روبين ثم أغلق الباب وراءه. كانت ركبته ترتعشان. لعله كان نكوصاً للطفولة، لعله أُمسِك وهو يقرأ قصة لم يكن يجب عليه قراءتها، لعله كان يتراجع خوفاً من ضربة وشيكة. لكن لم يُعِد طفلاً، فحاول جاهداً أن يمنع صوته من الارتجاف، فقال: «سيدي، لا أدري ماذا حدث مع المفوض، لكن ليس...».

قال الأستاذ لوفيل: «أكثر من مليوني رطل. لقد سمعت السيد بايليس، مُعظمها يقع على عاتق وليم جاردين وجيمس ماثيسون بشكل شخصي».

قال روبين: «كان قد اتخذ قراره. لقد اتخذه حتى قبل أن يلتقي بنا، لم يكن هناك شيء يمكنني قوله...».



«لم تكن مهمتك صعبة. لم تكن إلا ناطقًا باسم هارولد بايليس ووجهًا مُحِبًّا للصينيين. كنت لتهدئ الأمور. ألم تكن واضحين حيال أولوياتك؟ ماذا قلت للمفوض لين؟».

قال روبين بإحباط: «لا أعرف ما تَظُنُّني قد فعلته، لكن ما حدث في رصيف الميناء لم يكن بسببي».

«هل اقترحت عليه تدمير الأفيون؟».

«بالطبع لا».

«هل ألمحت له بأي شيء آخر عن جاردين وماتيسون؟ هل تعديت على حق هارولد بشكل ما؟ هل أنت متأكد من عدم صدور أي تصرُّف غير لائق منك؟».

قال روبين بإصرار: «لقد فعلت ما أُمِرت به فرغم عدم إعجابي بشخص السيد بايليس، فأنا أعلم أنني أمثل الشركة...».

قال الأستاذ لوفيل: «حاول أن تقول ما تعنيه فعلاً يا روبين ولو لمرة واحدة. كُن صادقًا. فما تفعله الآن مُحرَج».

عقد روبين ذراعيه وأجاب: «أنا... حسنًا». لم يكن لديه ما يعتذر عنه، إذ لم يعد هناك ما يُخفيه. كان رامي وفيكتوار في أمان، ولم يكن لديه ما يخسره، فلا انحناء ولا صمت بعد الآن. «حسنًا، لتحرَّر الصدق كلُّ منا مع الآخر. لا يعجبني ما تفعله شركة جاردين وماتيسون في كانتون، هذا خطأ، بل ويثير اشمزازي....».

هزَّ الأستاذ لوفيل رأسه وقال: «هذه سوق بحق السماء. لا تتصرف بشكل طفولي».

«إنها دولة ذات سيادة».



«بل دولة غارقة في مُستنقَع الخُرافات والتقاليد القديمة، وتفتقر لِحكم القانون، ومُتخلفة عن الغرب في كل شيء. إنها دولة يسكنها الحمقى أشباه الهمجيين المُتخلفون».

فرد روبين بغضب: «بل هي دولة يسكنها شعب؛ شعب تُسمّونه وتُدَمِّرون حياته. ولو كانت المسألة تتعلق بما إذا كنت سأواصل تسهيل المشروع، فالإجابة لا، لن أعود إلى كانتون مُجددًا، لا من أجل التجار ولا من أجل أي شيء يتصل بالأفيون ولو من بعيد. سأجري أبحاثًا في بابل، وسأقوم بترجمات، لكني لن أفعل هذا، ولن تُجبرني».

راح يلهث حين انتهى ولكن تعبير وجه الأستاذ لوفيل لم يتغير. راح يُراقب روبين طويلًا وجفناه شبه مُقفولين وأصابه تدقُّ المكتب وكأنه بيانو. وهنا قال بصوت خافت: «أتعرف ما يُذهلني؟ إنه جُودك الشديد».

لقد ساق هذه الحُجة مُجددًا. كاد روبين أن يركل شيئًا. كانت هذه الحُجة قائمة دائمًا؛ حُجة الاستبعاد، وكأن ولاءه مُقيّد بامتيازات لم يطلبها أو اختر الحصول عليها. هل كان مدينًا لأوكسفورد بحياته لمجرد احتسائه بعض الشراب في أروقتها؟ هل كان مدينًا بالولاء لبابل لمجرد تصديقه أكاذيبها؟

قال: «لم يكن هذا من أجلي، ولم أطلبه، بل كان من أجلك فحسب، إذ كنت تريد تلميذًا صينيًا وكنت تريد شخصًا طليقًا في...».

رد الأستاذ لوفيل بسخرية: «هل تنذمر عليّ؛ لأنني منحتك حياة وأعطيتك فُرصًا لم تكن لتحلم بها؟ نعم يا روبين. لقد أخذتك من وطنك، من المرض والقذارة والجوع. ماذا تريد؟ أتريد اعتذارًا؟».

رأى روبين أن ما يريده هو أن يعترف الأستاذ لوفيل بما فعله، وأن الأمر برمته كان غير طبيعي، وأن الأطفال ليسوا حيوانات تجارب، ويُحكم عليهم وفقًا لأصولهم، ويُختطفون من أوطانهم لخدمة التاج البريطاني، وأن روبين كان أكثر من مجرد ناموس ناطق، وأن وطنه أكثر من مجرد دجاجة تضع بيضًا ذهبيًا، لكنه كان يعلم أن الأستاذ لوفيل لم يكن ليُدلي بمثل هذه



الاعترافات. ولم تُدْفَن الحقيقة فيما بينها لأنها كانت مُؤلمة، بل بالأحرى لأنها كانت غير مُريحة، ولأن الأستاذ لوفيل كان يرفض التطرق إليها.

كان من الواضح أنه لم يكن ولن يكون إنساناً في نظر والده، بل إن الإنسانية كانت تتطلب نقاء الدماء الذي يتمتع به الرجل الأوروبي والمكانة العرقية التي تُؤَهِّله للمساواة مع الأستاذ لوفيل. كان ديك وفيليبا بشراً، أما روبين سويفت فكان من الممتلكات، وعلى الممتلكات أن تظل دائمة الامتتان لمعاملتها بشكل جيد!

لم يكن هناك حلٌّ لهذه المُعضلة، لكن كان روبين ليعرف حقيقة أي شيء على الأقل.

فسأل: «ماذا كانت تُمثل أُمي بالنسبة لك؟».

أربك هذا الأستاذ بعض الشيء ولو لبرهة، فأجاب: «لسنا بصدد التحدث عن أمك».

«لقد قتلتها ولم تهتم حتى بدفنها».

«لا تكن سخيّاً، لقد ماتت بسبب الكوليرا الآسيوية».

«أخبرتني السيدة بايبر بأنك كنت في ماكاو قبل موتها بأسبوعين، وعرفت أن الوباء مُنتشر. تعرف أنه كان بإمكانك إنقاذها».

«لم تكن سوى صينية يا روبين».

«لكنني مُجرّد صيني يا أستاذ، وأنا ابنها كذلك». وهنا شعر روبين برغبة شديدة في البكاء، لكنه كَبَحَهَا، فلم يكن الألم ليستدرّ عطف أبيه، لكن لعل الغضب يُثير خوفه. «هل ظننت أنك طهرتني من تلك الوصمة؟».

صار روبين يُجيد حمل حقيقتين مُتناقضتين في ذهنه؛ أنه كان إنجليزياً ولم يكن كذلك في ذات الوقت، وأن الأستاذ لوفيل كان أباه ولم يكن في ذات الوقت، وأن الصينيين كانوا شعباً غريباً مُتخلفاً وأنه كان واحداً منهم، وأنه كان يكره بابل. بيد أنه كان يريد العيش بين أحضانها إلى الأبد. لقد ظل



ينأرجح بين هذه الحقائق المؤلمة لسنوات، مُعتبرًا هذا وسيلته للبقاء والتأقلم وغير قادر على قبول أي من الطرفين بالكامل، إذ كان تقصّي الحقائق يُخيفه على نحو يجعل التناقضات تُهدد بتدميره.

لكنه لم يستطع الاستمرار هكذا، ولم يستطع العيش كرجل مُنقسم إلى نصفين ذي شخصية لا تنفكُ تمحو الحقيقة. كان يشعر بضغط ذهني شديد، بل كان يشعر بأنه سيفجر ما لم يتوقف عن الازدواجية، ما لم يُقرّر هذا.

سأل روبين: «هل ظننت أن قضاء وقت كافٍ في إنجلترا سيجعلني مثلك؟».

مدّ الأستاذ لوفيل رأسه وأجاب: «ذات يوم ظننت أن إنجاب طفل يعدُّ في حدّ ذاته نوعًا من أنواع الترجمة، لا سيما إذا كان الوالدان منحدرين من أعراق شديدة الاختلاف، فالمرء شغوف برؤية نتائج الأمور». وأثناء تحدّثه تغيّر تعبير وجهه على نحو غريب، إذ كَبُرَت عيناه حتى جحظتا بشكل مُخيف، وصارت ابتسامته الساخرة أكثر وضوحًا، وتراجعت شفاته للخلف مُظهرتين أسنانه. لعله قصد أن يحدّج روبين باشمنراز مُبالغ فيه، لكن الأمر بدا لروبين وكأنّ قناع التهذيب قد سقط عن وجهه. كان ذلك هو أقبح تعبير رآه على وجه أبيه. «كنت أرجو أن أريك على نحو يُجَبِّك إخفاقات أخيك، وكنت أرجو أن أغرس فيك قيمًا أخلاقية أكثر رُقيًا. ما يُزرع في العقل في الصغر يظل مع الإنسان طوال حياته*، كنت أرجو أن أجعل منك شخصًا أكثر رُقيًا، ولكن رغم كل تعليمك، لن ترتقي عن أصلك الوضع، أليس كذلك؟».

قال روبين بذهول: «أنت وحش».

* هوراس حول تعليم الشباب كيفية درء الفساد، «يظل الإناء محتفظًا بطعم ما امتلأ بها أول مرة».



أغلق الأستاذ لوفيل القاموس وقال: «ليس لدي وقت لهذا. من الواضح أن إحضارك إلى كانتون كان فكرة خاطئة. كنت أرجو أن يُدِّرك هذا بمدى حُسن حظك، لكنه أربكك فحسب».

«لست مُرتبكا...».

«سُعيد تقييم موقفك في بابل بعد أن نعود». قال الأستاذ لوفيل هذا وأشار نحو الباب، ثم أردف: «أما الآن، فاستغل وقتك في التفكير وتخيل أنك تقضي بقية حياتك في نيوجيت يا روبين. يمكنك التئديد بجميع مساوئ التجارة كيما شئت، هذا لو كنت في زنزانة. فهل تُفضِّل هذا؟».

ضمَّ روبين قبضتيه وقال: «انطق باسمها».

ارتجف حاجب الأستاذ لوفيل وأشار إلى الباب مُجدداً وقال: «انتهينا».

«انطق باسمها أيها الجبان».

«روبين!».

كان هذا إنذاراً، إذ قطع عليه أبوه خطَّ الرَّجعة، فقد كان ما فعله روبين حتى تلك اللحظة ليُعتذر لو كان قد تراجع، ولو كان قد اعتذر، ولو كان قد رضخ للسلطة وعاد لرفاهية السذاجة والجهل.

لكن روبين كان قد رضخ لوقت طويل. ولم يزل القفص الذهبي محبساً.

فتقدم إلى الأمام وقال: «انطق باسمها يا أبي».

فدفع الأستاذ لوفيل مقعده إلى الخلف وهمَّ بالوقوف.

كان أصل كلمة غضب مرتبطاً بالألم الجسدي، إذ كان الغضب في البداية إحدى «البلايا» كما في كلمة أنجر باللغة الأيسلندية القديمة، ثم حالة «مؤلمة، وقاسية، وضاعطة» وفقاً لكلمة إنجر بالإنجليزية القديمة والتي اشتقت بدورها من اللاتينية أنجور التي تعني «اختناق، وحزن، وكدر». كان الغضب قبضة خانقة. لم يكن الغضب من بواعث القوَّة، بل كان ليجثم على صدر المرء، ويعتصر أضلعه حتى يشعر بأنه مُحاصر، ومخنوق، وبلا



خيارات. كان الغضب ليتصاعد ثم ينفجر. كان الغضب قيداً، ومن ثم، كان الهياج الناجم عنه محاولة يائسة للتنفس. وبالطبع، كان ريدج (الهياج) مشتقاً من الجنون*.

راح روبين بعدها يتساءل ما إذا كان الأستاذ لوفيل قد رأى شيئاً في عينيه، لعلها نار لم يعرف أنها بداخل ابنه، وما إذا كان هذا قد حثَّ روبين على التصرف، لعله ذُهل حين أدرك أن خبرته اللغوية قد نمت بداخله إرادة خاصة به. كان ليحاول تبرير ما فعله باعتباره دفاعاً عن النفس، لكن مثل هذا التبرير كان ليعتمد على تفاصيل كان يكاد لا يتذكرها. كانت تفاصيل لم يكن متأكداً من كونه قد اختلقها لإقناع نفسه أنه قد قتل أباه بدم بارد.

كان ليسأل نفسه مراراً وتكراراً من تحرك أولاً، وكان هذا ليُعذِّبه طوال عمره، إذ لم يكن يعرف بالفعل.

وقف الأستاذ بغتة، ووضع يده في جيبه. وفعل روبين الشيء نفسه إما لتقليده وإما لاستفرازه: فوضع يده في جيبه الأمامي حيث كان يحتفظ بالقالب الذي قُبلت به إيفيلين بروك. لم يكن ما يفعله القالب ليخطر له ببال. كان واثقاً من هذا. لكنه نطق بالزوج المُتطابق، لأنه مثل الكلمات الوحيدة التي خطرت بباله لوصف قسوة تلك اللحظة. راح يفكر في الأستاذ لوفيل وهو يكسر أضلعه وهو مُلقى على أرضية المكتبة مذهولاً ومُرتبكاً على نحو منعه من البكاء. كما فُكر في جريفين، المسكين الذي نُفي إلى إنجلترا في عُمر أصغر من عمره، ثم مُرّق وألقي به بعيداً لعدم تذكره لغته الأم بشكل جيد. كما فُكر في الرجال الكسالى في وكر الأفيون، كما فُكر في أمه.

لم يكن يفكر في أن القالب سيشقُّ صدر أبيه. لا بدُّ أن جزءاً منه كان على علم بأن الكلمات تنشّط القوالب لو نطقها المرء وهو يعنيها. فلو نطق الشخص المقاطع فحسب، ما أحدثت أثراً. وحين استوعب الحرف بذهنه،

* مشتقة من اللاتينية رابير أي «التصرف بشكل غير عقلائي».



ورأى الثقوب المحفورة في الفضة اللامعة، ونطق الكلمة وترجمتها بصوت شديد الارتفاع، فلا بُدَّ أنه كان على علم بما سيحدث.

باو، أي ينفجر بقوة لا يمكن كبحها.

ولم يُدرك روبين ما فعله حتى سقط الأستاذ لوفيل على الأرض وانتشرت رائحة الدم المالحة في الهواء.

فخرَّ روبين على ركبتيه وقال: «سيدي؟».

لم يتحرك الأستاذ لوفيل.

فأمسك بكثف الأستاذ لوفيل وقال: «أبي؟». وهنا انسكبت دماء حارة على أصابعه، وراحت تنهمر دون توقف، بل وملأت المكان كنبتع فائض من صدر مُتهالك. «داي؟».

لم يعرف ما جعله ينطق بهذه الكلمة، إذ كانت تعني أب. لعله ظنَّ أنها ستُبهِّر الأستاذ لوفيل، وأن الصدمة فحسب كانت كفيلة بإعادته للحياة، وأنه كان ليعيد روح أبيه إلى جسده بذكر الشيء الوحيد الذي لم يذكره على الإطلاق. لكن الأستاذ لوفيل كان فاقداً للوعي، بل قد رحل، ورغم كل ما بذله روبين من جهد في هزه، أثبت الدماء أن تتوقف عن التدفق.

فقال مُجدداً: «داي». ثم ندت عنه ضحكة غير مقصودة؛ ضحكة هستيرية عاجزة، إذ كان من ضروب التناقض والتوافق في ذات الوقت أن يكون تدوين كلمة أب بالحروف اللاتينية هو ذاته حروف كلمة موت بالإنجليزية! وكان من الواضح، بل بلا شك، أن الأستاذ لوفيل قد مات. ولم يكن هناك من الموت رجوع، ولم يكن هناك مجال لمزيد من التظاهر.

«روبين؟».

طرق أحدهم الباب بقوة، ودون تفكير، قام روبين وفتحته وهو في حالة من الدهول، دخل رامي، وليتي، وفيكتور واحدًا تلو الآخر، وقالوا في صخب:



«أوه يا روبين! هل أنت...» و«ماذا يحدث...» و«لقد سمعنا صُراخًا وطننا...».

ثم رَؤوا الجُثَّةَ والدماءَ، فأطلقت ليتي صرخة مكتومة، بينما وضعت فيكتور يديها على فمها بسرعة، وراح رامي يفتح عينيه ويُغمضها عدة مرات ثم قال بصوت خافت: «أوه!».

فسألت ليتي بصوت ضعيف: «هل هو...؟».

فهمس روبين: «نعم».

ثم عمَّ الصمت المقصورة. كانت أدنا روبين تَطَنَّان، فوضع يديه على رأسه ثم أنزلهما إذ كانتا مُلَطَّخَتَيْنِ بالدماء. فبادرته فيكتور: «ماذا حدث؟».

«لقد تشاحنا». بصعوبة خرجت الكلمات من فم روبين، إذ كان يتنفس بصعوبة، وخيَّمت عتمة على بصره، وشعر بَوَهْنٍ في ركبتيه، وصار في أمس الحاجة للجلوس. لكن الأرضية كانت غارقة في بركة من الدماء. «لقد تشاحنا و...».

فقال رامي: «لا تَنْظُرُوا».

لم يُطِعه أحد، بل تجمَّد الجميع في أماكنهم وثَبَّتُوا أنظارهم على جُثَّةِ الأستاذ لوفيل الهامدة، ثم جثا رامي بجواره ووضع أُصبعيه على رقبته، ومَرَّت لحظة طويلة تلا فيها رامي صلاة ترحُّم على الأموات ثم مرَّ يديه فوق جفني الأستاذ لوفيل وأغلقهما.

ثم زفر ببطء شديد وضغط بيديه على ركبتيه وهَمَّ بالوقوف قائلاً: «ماذا الآن؟».



الكتاب "الرابع"



الفصل التاسع عشر



قلت: «بدايةً، تتعلق أعظم كذبة بالأمور الأكثر أهمية، ولم تكن الأمور المذكورة من وحي خيال الراوي عن أفعال أورانوس بكرونوس والتي قصّها هسيود، وكيف انتقم كرونوس منه لاحقاً. ثم إن كرونوس قد اجتاز معاناةً على يد ابنه. فحتى لو كانت تلك القصص حقيقية، أرى أنه يجب ألا نُقصّ على مسامع الشباب الطائش بكل بساطة».

أفلاطون، الجمهورية. ترجمة بول شوري.

قالت فيكتوار بهدوء مُذهل رغم أن ما تفوّت به من كلمات كان مجنوناً: «لا نُخرجه من المقصورة، فسوف تُلقّهُ في تلك الملاءات وتُبعده عن الأنظار حتى نصل إلى إنجلترا».

فصرخت ليّتي بصوت حاد: «لا نستطيع إخفاء جثة لستة أسابيع».

«لَمْ لَا؟».

«سوف تتعفن».

قال رامي: «هذا صحيح، فرائحة البحارة كريهة، لكن ليس بهذا القدر».

اندهش روبين من كون أول رد فعل لهم تمثّل في مناقشة كيفية إخفاء الجثة. ولم يُغيّر هذا كونه قد قتل أباه، أو أنه قد ورّط الجميع في الجريمة، أو أن الدماء كانت تلتخ الأرضية، والجدران، ويديه. لكنهم كانوا يتحدثون وكأنها مجرد مشكلة يمكن حلّها، بل مجرد ترجمة عويصة يمكن التعامل معها لو وجدوا الصّيّاعة المناسبة فحسب.

فضغطت فيكتوار بأصابعها على صُدغِها وقالت: «حسنًا، اسمعوا، هاكم ما سنفعله». ثم تنفّست بعمق وهي تقول: «سننتخلص من الجثة بشكل ما. لا أعرف كيف، لكننا سنجد طريقة. وبعد أن نرسو...».



فاستفهمت ليتي: «كيف نُخبر الطاقم بأن يتركوه بمفرده لمدة ستة أسابيع؟».

قالت فيكتوار: «بل تسعة أسابيع».

«ماذا؟».

أجابت فيكتوار: «إنها ليست إحدى السفن السريعة، وستستغرق الرحلة تسعة أسابيع».

فوضعت ليتي كَفَّيْها على عينيها: «ربَّاه!».

فسألت فيكتوار: «كيف سنفعل ذلك؟ سنُخبرهم بأنه يُعاني مرضًا مُعديًا، لعله مرض مخيف. ابتكر شيئًا غريبًا ومُفَرِّزًا يا روبين بحيث يُخيفهم. قل إنها عدوى أصابته في الأحياء العشوائية، ما يجعلهم يخافون الدخول».

صمت الجميع لوهلة، إذ كان يجب عليهم أن يعترفوا بأن هذا منطق مقبول، أو أنه على الأقل، لم يكن عبثًا في الوقت الحالي.

قال رامي وهو يروح ويغدو على الأرضية الخشبية التي لم تكن قد تَلَطَّخت بالدماء: «حسنًا، وليغفر الله لنا». ثم فرك عينيهِ وتابع: «نعم، حسنًا. هذا حل عملي. هَبْ أننا أخفينا هذا السرّ ريثما نعود إلى لندن، فماذا سيحدث بعدها؟».

أجابت فيكتوار: «هذا سهل. سنقول إنه مات أثناء الرحلة، ربما أثناء نومه. كل ما علينا عمله هو منع طبيب السفينة من تشريح الجثة حتى لا ينتشر التلوث. سنطلب تابوتًا وسنضع فيه بعض الكتب الملفوفة في قماش، ثم نحمله كي نتخلص منه».

قالت ليتي: «هذا جنون، بل جنون مُطبق».

فسألت فيكتوار: «هل لديك فكرة أفضل؟».

صمتت ليتي للحظة، وكان روبين واثقًا تمامًا بأنها ستُصِرُّ على تسليمهم أنفسهم، لكنها رفعت يديها قائلَةً: «يمكننا دفعه في البحر في وضح النهار، ثم نقول إنه غرق فجأة، وسيرى الجميع أنه مات ولن يشكُّوا فينا».



سأل رامي: «أوه، أليس هذا مُثيرًا للشكوك؟ هل نُجِرُ هذه الجثة الناضحة بالدماء فوق سطح السفينة متظاهرين أنها تسير وحدها، ثم نطرحها في البحر حيث يرى الجميع ثقبًا في صدره؟ هل سنثبت براءتنا بهذه الطريقة؟ كوني مُبدعة بعض الشيء يا ليتي، يجب أن نُتقن لعبتنا».

وأخيرًا، استطاع روبين التحدث، فقال: «لا، لا، هذا جنون. لن أسمح لكم...» ثم راح يتلعثم في الكلام، وتتفس بعمق وأمسك لسانه: «لقد فعلتها وسأخبر القبطان وسأسلم نفسي، وهذا ما في الأمر».

فقال رامي بسخرية: «حسنًا، هذا مُستبعد».

قال روبين: «لا تكن غبيًا، سوف تتورطون لو...».

قالت فيكتوار: «لقد تورطنا جميعًا بغض النظر، فجميعنا أجنب عائدون من مكان أجنبي على سفينة ومعنا رجل ميت». استثنت هذه الجملة ليتي، لكن أحدًا لم يُصححها، فتابعت: «لن تذهب إلى السجن بينما يظل بقيتنا أحرارًا، فهمت، أليس كذلك؟ فإما أن نحملك وإما أن نُهلك أنفسنا».

فقال رامي بحسم: «هذا صحيح، ولن ندعك تدخل السجن يا بيردي. سنلوذ بالصمت، اتفقنا؟»

لم تتفوه ليتي بكلمة، فلكرتها فيكتوار وقالت: «ليتني؟».

كان وجه ليتي قد صار شاحبًا حتى إنه صار شبيهًا بوجه الجثة الملقاة على الأرضية، فقالت: «أنا... نعم. حسنًا».

قال روبين: «يمكنك الذهاب يا ليتي. لست مضطرة لسماع...».

ردت ليتي: «لا، بل أريد البقاء ومعرفة ماذا سيحدث. لا يمكنني أن أترككم جميعًا... لا». وهنا أغلقت عينيها بقوة وهزت رأسها ثم فتحتهما مُجددًا وقالت ببطء شديد وكأنها توصلت إلى قرار: «سأشترك في هذا. أنا معكم جميعًا».

قال رامي بسرعة: «جيد». ثم مسح يديه في سرواله وواصل المشي ذهابًا وإيابًا وأردف: «هاكم فكرتي. ليس من المفترض أن نكون على هذه السفينة،



بل كنا لَنَعُودَ يومَ أربعة، هل تتذكرون؟ لن يتوَقَّع أحدُ عودتنا قبل هذا التاريخ، وهو ما يعني أن أحداً لن يبحث عنه حتى ننزل».

أومأت فيكتوار وقالت: «نعم» إذ فهمت طريقة تفكيره. كانت مُراقبتَهما أمرًا مخيفًا، إذ كانا يزدادان ثَقَةً أثناء الحديث، وكأنَّهما يتعاونان في ترجمة جماعية مُستفيدين من عبقرية بعضهما. «سينكشف أمرنا لو رأى أحدهم الجثة. إذًا، تتمثَّل أولى أولوياتنا في التخلص منها في أقرب وقت ممكن، حالما يحل الظلام. وبالنسبة لبقيّة الرحلة، سنُخبر الجميع بأنه مريض، فلا يوجد من يخشى الأمراض الغريبة مثل البحارة، أليس كذلك؟ وحالما نُلَمِّح بأنه يُعاني مرضًا مُعديًا، فإني أضمن لكم أن أحداً لن يقترب من بابهِ لمدة أسابيع، وهذا يعني أن كل ما علينا الاهتمام به هو الإلقاء به في الماء».

قال رامي: «نعم، وتنظيف كل هذه الدماء».

رأى روبين أن هذا كله جنون، ولم يفهم لماذا لم يضحك أحد ولماذا بدا الجميع وكأنهم يُفكرون بجديّة في جَرِّ جثة الأستاذ، والصعود بها دورين، ثم طرحها في البحر. لقد تجاوز الجميع مرحلة الذهول، وزالت عنهم الصدمة، وصار الأمر الغريب واقعًا ملموسًا، لم يتحدثوا عمّا يتعلّق بالأخلاق، بل عن الأمور العملية، ما جعل روبين يشعر كأنهم قد دخلوا عالمًا مقلوبًا رأسًا على عَقَب، خلا فيه كل شيء من المنطق ولم يكن أحد يُعاني المُشكلات سواه.

فسأل رامي: «روبين؟».

نظر روبين ليري أن الجميع يحدقون إليه بقلق، ففهم أنها ليست المرة الأولى التي يُوجّه إليه فيها الكلام، فقال: «عذرًا... ماذا؟».

قالت فيكتوار برقّة: «ما رأيك؟ سوف نطرحه في البحر، اتفقنا؟».

فهزّ رأسه قائلاً: «أنا - حسنًا، أظن أن هذا سينجح. أنا فحسب...» كان هناك طنين عالٍ في أذنيه جعل جميع أفكاره صعبًا، فأردف: «آسف، أنا فحسب... ألن يسألني أحدكم عن سبب قتلي له؟».

فراح الجميع يحدقون إليه بنظرات خالية من المعنى.



«الأمر فحسب - لقد تضامنتم جميعاً لمُساعدتي في إخفاء جريمة؟» لم يستطع روبين منع نفسه من تحويل جملة المُثبِّتة كلها إلى أسئلة، وكان العالم كله وقتئذ يبدو كسؤال كبير بلا إجابة. «ألن تسألوني حتى كيف أو لماذا؟».

تبادل رامي وفيكتور النظر إلى بعضهما، لكن ليتي هي من بدأت بالرد إذ قالت: «أظننا جميعاً نفهم السبب». كان حلقها يَنْبِض، ولم يستطع فهم تعبير وجهها، إذ كان شيئاً لم يره من قبل، مزيج غريب من الشفقة والحزم. تابعت ليتي: «وأقول لك بالصدق يا روبين إنني أرى من الأفضل أن نُقَلَّ من التطرق للأمر».

سار تنظيف المقصورة على نحو أسرع ممَّا خشيهِ روبين، إذ جلبت ليتي مكنسة ودلّوا من الطاقم مدّعيةً أنها تقيّأت بسبب دوار البحر، وأسهم الباقرن بعدة قطع قماش لامتصاص الماء المُلَوَّث بالدم.

ثم جاء وقت التخلص من الجثة، فقرروا جرّ الأستاذ لوفيل في صندوق، إذ كانت هذه أفضل طريقة للصعود به إلى السطح دون إثارة الشكوك. كان الصعود لعبة حبس أنفاس وتقدّم ببطء. كانت فيكتور لتندفع إلى الأمام كل بضع ثوان لتتأكّد من عدم وجود أي شخص على مرمى البصر، ثم تُشير لروبين ورامي بذعر ليَجْزَا الصندوق بضع خطوات أخرى. أما ليتي، فقد كانت تحرس السطح العلوي مُتظاهرةً بأنها تنتزّه كي تستنشق بعض الهواء المُنعش.

وبشكل ما، نقلوا الصندوق إلى حافة السور دون إثارة الشكوك.

فتح روبين غطاء الصندوق وقال: «حسنًا». كانوا قد فكروا في التخلص من الصندوق بما فيه، لكن فيكتور أوضحت بذكاء أن الخشب سيطفو. كان روبين خائفًا من إلقاء نظرة، وأراد أن يفعل هذا دون النظر لوجه أبيه لو أمكن، فقال: «بسرعة قبل أن يرانا أحد...».

قال رامي: «مهلاً، يجب أن نُثقله وإلا طفا على السطح».



فجأة، تخيل روبين جثة الأستاذ لوفيل وهي تطفو في أعقاب السفينة جاذبة شداً من البحارة وطيور النورس، فقاوم شعوراً مُباغئاً بالغبثان وقال: «لماذا لم تقل هذا من قبل؟».

«كنت مذعوراً بعض الشيء، فهمت؟».

«لكنك كنت تبدو في غاية الهدوء».

«أحسن التصرف في أوقات الطوارئ يا بيردي».

راح روبين يحدق حوله على سطح السفينة باحثاً عن شيء يصلح لأن يكون دعامة، كمجاذيف، أو دلاء، أو ألواح خشب مُستَكرّاً جعل كل شيء في السفن مُصمّماً للطفو!

وانتهى به المطاف إلى العثور على كومة من الأحبال المعقودة في شيء شبيه بالأتقال، فتمنى ألا تكون مُخصّصة لشيء ضروري وربط بها الصندوق. كان ربط الأستاذ لوفيل بحبل يُمثّل كابوساً، إذ كانت أطرافه المُتبيّسة الثقيلة صعبة التحريك، وبدت الجثة كأنها تقاومهم بقوة، وتعتّر الحبل على أضلاعه البارزة الحادة بشكل مُرعب. أما روبين، فظلت يداه المُتعرقتان بفعل الخوف تنزلقان، واستغرق لف الحبل بإحكام حول أذرع الأستاذ وأرجله عدة دقائق مُزعجة. أراد روبين ربط عقدة سريعة والانتهاء من الأمر، لكن رامي أصرّ على أن يأخذوا وقتهم، إذ لم يُرد أن تُفكّ الأحبال حال سقوط الجثة في الماء.

وأخيراً، همس رامي وهو يجذب الحبل: «حسناً. سيؤدي هذا الغرض».

فأمسك كل منهما أحد أطراف الجثة: أمسك روبين بالأكتاف، في حين أمسك رامي بالقدمين، ورفعها من الصندوق.

همس رامي: «واحد، اثنان...».

وفي اللفة الثالثة، رفعاً جثة الأستاذ لوفيل فوق السور وألقيا بها. بدا فرق الوقت كالدهر قبل أن يسمعا صوت رشقة الجثة في الماء.



مال رامي فوق السور وراح يحدق إلى الأمواج المظلمة.

وفي النهاية قال: «لقد غاص ولن يُعاود الظهور».

لم يستطع روبين أن يتفوّه بكلمة، بل وراح يتعثّر للوراء وتقيّاً فوق السطح. فنصحته رامي بأن يعود الجميع إلى أسرّتهم ويتصرفوا بطريقة طبيعية حتى نهاية الرحلة. كان هذا سهلاً من الناحية النظرية، لكن من بين جميع الأماكن التي يمكن ارتكاب جريمة فيها، بدت سفينة في عرض البحر أسوأها. كان أي قاتل في الشارع ليتمكّن من التخلص من سلاحه والهروب من المدينة. لكنهم ظلوا عالقين في مسرح الجريمة لمدة شهرين اضطروا خلالها للحفاظ على خدعة أنهم لم يُفجّروا صدر رجل ولم يُلقُوا بجثته في المحيط!

حاول الجميع الحفاظ على مظاهرهم، فكانوا ينتزّهون يومياً على السطح، ويستضيفون الأنسة سميث ويستمعون لأسئلتها المزعجة، ويحضرون الصلوات والوجبات ثلاث مرات يومياً وهم يحاولون جاهدين فتح شهيتهم. وحين سأل أحد الطُهاة رامي عن سبب عدم رؤيته للأستاذ لوفيل لعدة أيام، أجابه الأخير قائلاً: «إنه يشعر ببعض الإعياء فحسب. يقول إنه ليس جائعاً - لعله نوع من أمراض المعدة - لكننا سنُحضّره لتناول الطعام لاحقاً».

فسأل الطاهي الذي كان رجلاً اجتماعياً بشوشاً: «ألم يقل ما الأمر تحديداً؟».

لم يستطع روبين أن يتبيّن ما إذا كان مُتطعلاً أم ودوداً.

فكذب رامي بتلقائية: «أوه! ما هي إلا أعراض بسيطة. لم يَنفَكْ يشكو صداعاً وبعض الاحتقان، لكنه في الغالب غثيان، إذ يُصاب بالدوار لو وقف لفترة طويلة، ومن ثم يقضي معظم اليوم في الفراش، بل ينام كثيراً. قد يكون هذا دوار البحر رغم أنه لم يُعان منه في طريق الذهاب».



حكَّ الطاهي لحيته للحظة وقال: «هذا مُثير للاهتمام»، ثم دار على عَقْبِيهِ وقال: «انتظر هنا».

فخرج من غرفة الطعام بِخُطَى سريعة، فحدقوا إلى الباب بذهول. هل شكَّ في أمرهم؟ هل كان سيُنَبِّه القبطان؟ هل كان سيتحقَّق من مقصورة الأستاذ لوفيل للتأكد من قصتهم؟

فهمهم رامي: «هل نهرب الآن أم...؟».

فهمست فيكتوار: «إلى أين؟ فنحن في وسط المُحيط».

«لعلنا نستطيع أن نسبِّقه إلى مقصورة لوفيل».

«لكن، ليس بها شيء، ولا يوجد شيء نفعله».

أومأت ليتي فوق كتفها وقالت: «صَه!». كان الطاهي يُسرِع عائدًا إلى المقصورة حاملاً كيسًا بني اللون بيده.

قدَّم الكيس لروبين وقال: «زنجبيل مسكر. إنه جيد لاضطراب المعدة. أنتم معشر العلماء تنسون إحضاره معكم».

أخذ روبين الكيس وقال وقلبه يخفق بشدة: «أشكرك. أنا متأكد أنه سيكون مُمتنًا»، قال هذا مُحاولًا الاحتفاظ بنبرة صوته.

لحسن الحظ، لم يُحاول أي من باقي الطاقم السؤال عن مكان الأستاذ لوفيل، فلم يكن البحارة مهتمين بالتعاملات اليومية للعلماء الذين تقاضوا أجرًا زهيدًا لنقلهم، بل كانوا في غاية السعادة باعتبارهم غير موجودين من الأساس. كانت الأنسة سميث مسألة أخرى، إذ كان المَلل يدفعها للإصرار على جعل نفسها نافعة. كانت تسأل عن الحمى التي داهمت الأستاذ لوفيل، وصوت سُعاله، ولون بُرازه ومكوناته دون توقف. قالت سميث: «لقد أصابني الكثير من الأمراض الاستوائية. فأياً كان ما أصابه، فقد التقطه من السكان المحليين. دعوني كي أُلقي نظرة عليه فحسب وسأعالجه على الفور».



فأقنعوها بشكل ما أن الأستاذ لوفيل كان يُعاني مرضًا شديد العدوى علاوة على خجله الشديد (بل إن ليتي أقسمت بجذّية أنه: «لن يسمح لنفسه بالوجود وحده مع امرأة غير مُتزوجة، وسوف يغضب لو أدخلناكِ عنده»). لكن الأنسة سميث أصرّت على انضمامهم إليها في تلاوة أدعية يومية من أجل صحته، والتي كان روبين يبذل قصارى جهده ألا يتقيأ بسبب الشعور بالذنب أثناءها.

كانت الأيام طويلة للغاية، وبدا الوقت كأنه يزحف، وكانت كل ثانية تحوي احتمالية مريضة، وكان السؤال هو: هل سننجو؟ كان روبين مريضًا دائمًا، وكان يُعاني غثيانًا يختلف عن الغثيان الشديد الناجم عن دوار البحر، إذ كان حملًا ثقيلًا من الشعور بالذنب ينهش أحشاءه ويخنقه، حمل مريع جعل التنفس صعبًا. ولم تُجد مُحاولاته الاسترخاء أو إلهاء نفسه نفعًا، وحين تهاون وفقد حذره، اشتدّ مرضه. وصار طنين أذنيه أعلى وتسَلَّلت العتمة إلى بصره مُختزلةً العالم في بُقعة ضبابية.

يتطلّب التصرف كشخص طبيعي تركيزًا عاليًا. في بعض الأحيان، كان أقصى ما يستطيع عمله هو أن يتذكر كيف يتنفس بقوة وبإيقاع مُنتظم. كان عليه أن يُردّد في ذهنه شعارًا بصوت مُرتفع - لا بأس، لا بأس، أنت بخير، لا أحد يعرف، يعرفون أنك طالب، ويظنون أنك مريض - لكن حتى هذا الشعار كان مُهددًا بالخروج عن السيطرة.

فلو فقد تركيزه للحظة واحدة، لتحوّر إلى الحقيقة - لقد قتلته، لقد فجّرت صدره وسال دمه على الكتب، وعلى يديك، زلّاقًا، رطبًا، دافئًا...

كان خائفًا من عقله الباطن ومن شُروده، فلم يستطع التفكير في شيء. وكانت كل فكرة تدور في ذهنه تتحوّل إلى دوامة فوضوية من الذنب والخوف، بل وكانت تتبلور دائمًا على هيئة لحن رهيب:

قتلت أبي.

قتلت أبي.



قتلت أبي.

راح يُعَذِّب نفسه مُتَخَيِّلًا ما قد يحدث لهم لو فُضِّض عليهم. كان يُعيد تمثيل المشاهد بوضوح شديد: المُحاكمة القصيرة القاسية، ونظرات الاحتقار من هيئة المُحلفين، والقيود حول معصمَيْه، ولو لم ينتهِ به الأمر إلى المشنقة، لآل إلى رحلة العقاب الطويلة البائسة إلى مُستعمرة في أستراليا.

وما لم يستطع تبيُّنه هو مدى قصر لحظة ارتكاب الجريمة، إذ استغرقت أقل من ثانية من الكراهية الطائشة، فقد تسبَّبت عبارة واحدة ورمية واحدة في هذا. يتحدث كونفوشيوس في كتاب المُحاورات عن سيبوجيتشييه إن «الكلمات التي تخرج لا تعود، وأن أربعة خيول لا تستطيع كبح اللسان»^{*}، لكن يبدو أنها خدعة لعبها الزمن. لم يكن من العدل أن مثل هذه الفعلة التافهة قد تستدعي كل تلك التدايعات. كان الشيء الذي حطَّم لا عالمه فحسب، بل عالم رامي، وليتي، وفيكثوار ليستغرق على الأقل دقائق، وكان ليتطلَّب جهدًا مُتكرِّرًا، وكانت حقيقة الجريمة لثُمَّل أمرًا منطقيًا لو وقف عند جثة أبيه بفأس غليظة وانهاش بها فوق رأسه وصدره مرارًا وتكرارًا حتى يُغرق الدم وجهيهما، ولو كان شيء وحشي، ومُستدِيم - بل وإظهار حقيقي لنية الغدر - قد حدث.

لكن هذا لم يصف ما حدث على الإطلاق، فلم يكن الأمر وحشيًا، ولم يتطلَّب جهدًا، بل انتهى بسرعة شديدة، ولم يستدع وقتًا للتفكير، لم يتذكر أنه تصرف على الإطلاق! فهل يُبيِّت المرء نية القتل لو لم يتذكر أنه أراد ارتكاب تلك الجريمة؟

لكن أي سؤال كان هذا؟ ما جدوى التفكير في كونه أراد أم لم يُردِّ موت أبيه، في حين أن جثة الأخير كانت تغرق في قاع المحيط بلا رجعة؟

كان الليل أسوأ بكثير من النهار، إذ كان النهار يُعطي إلهاءً مؤقتًا بهوائه الطلق وضبابه المُتناثر، ومياه المحيط المُتلاطِمة. وفي الليل، كان يعتكِف

* 駟不及舌



في سريريه، ولم يكن هناك سوى الظلمة بقسوتها. كان الليل يعني أغطية غارقة في العرق، وبرودة، ورجفة، ولم يكن ليمنحه خصوصية الأنين والصراخ بصوت مُرتفع. نام روبين في وضع جنيني خامد، أنفاسه سريعة بكئيّه، وحين كان يَنجح في النوم بشكل مُتقطّع، كان يرى أحلامًا مُتَشَطِّية وواضحة بشكل مُخيف، إذ كان يُعيد تمثيل كل لحظة من تلك المُحادثة الأخيرة حتى النهاية المأساوية. بيد أن التفاصيل لم تنفك تتغير. ما كانت آخر كلمات الأستاذ لوفيل؟ كيف نظر إلى روبين؟ هل اقترب منه بالفعل؟ من تحرّك أولاً؟ هل كان هذا دفاعًا عن النفس أم ضربة استباقية؟ هل كان هناك فَرْق؟ راح يعصر ذاكرته. ففي صحوه ونومه، كان يتحقّق من اللحظة نفسها من آلاف الزوايا حتى إنه لم يُعد يتذكّر ما حدث تحديدًا!

أراد أن تتوقف جميع أفكاره، بل أراد أن يختفي هو نفسه. وفي الليل، بدت الأمواج السوداء اللانهائية مكانًا مثاليًا، فحدّثه رغبة أن يُلقي بنفسه كي يبتلعه المحيط ويبتلع ذنبه في أعماقه السحيقة. بيد أن هذا لم يكن ليؤدّي إلا لإدانة الآخرين. فكيف عسى هذا أن يبدو حين يغرق زميله ويقتل أستاذهم؟ لم تكن أي مُبرّرات، مهما كانت مُبتكرة أو حقيقية، لتُنقّهم من هذا.

ولكن، إن لم يكن الموت خيارًا، لكانت العقوبة هي الخيار. وفي ليلة جافاه فيها النوم، أسرّ لرامي: «يجب أن أعترف، فهذا هو السبيل الوحيد، يجب أن نضع حدًا لهذا...».

قال رامي: «لا تكن أحمق».

فانتفض خارجًا من سريريه وقال: «أعني ما أقول، سأذهب إلى القبطان».

فقفز رامي وأبعده عن الممر وقال: «عُد يا بيردي».

حاول روبين دفع رامي جانبًا كي يصل إلى الدرج، فباغته رامي بصفعة على وجهه. كان هذا كفيلاً بتهديته بعض الشيء - وإن كان بفعل الصدمة فحسب - فقد مَحَا الألم الشديد كل شيء من رأسه لبضع ثوانٍ كانت كافية لتهديته خفقان قلبه.



قال رامي بحدّة: «كلنا مُتورّطون. لقد نظّفنا الغرفة وخبّأنا الجثة من أجلك كي نحميك. لقد كذبنا عشرات المرات. لقد شاركناك الجريمة، ولو آل مصيرك للإعدام، فسندّمّرنا جميعاً، فهمت؟».

فأوماً وأخفض رأسه خجلاً.

قال رامي: «حسنًا، عُدْ إلى سريرك».

تمثّل الجانب المُشرق لهذه المسألة المريعة في أنه تصالح مع رامي. كانت جريمة القتل قد رتّقت الفجوة بينهما ودحضت اتهامات رامي له بالجبن والتواطؤ. لم يكن مُهمّاً ما إذا كان هذا حادثاً أو أن روبين كان ليترجع عنه لو استطاع، فلم يُعدْ لدى رامي أي حُجّة أيديولوجية للسُّخط عليه، إذ إن أحدهما قد قتل مُحتملاً، ومن ثمّ، صاراً شريكين في التآمر، وهو ما قرّبهما من بعضهما أكثر من ذي قبل.

اضطلع رامي بدور الموسيقي، والناصح، والشاهد على اعترافاته. لم يعرف روبين السبب الذي جعله يظن أن التعبير عن أفكاره قد يُصلح الأمور، إذ كان البوح بأي منها ليجعله أكثر ارتباكاً. بيد أنه شعر بامتنان لأن رامي كان يستمع إليه.

فسأله: «هل تراني شريراً؟».

«لا تكن سخيّاً».

«لم تنفكّ تقول هذا».

«وأنت غاية في السخافة، لكنك لست شريراً».

فقال روبين: «لكنني قاتل». ثم كرّر الكلمة، إذ كانت الكلمات عبثيّة على نحو جعل تكوين الحروف المتحركة غريباً. «لقد أنهيت حياة شخص عمداً وبنية خالصة. كنت أعلم ما سيفعله القلب وألقيته، ورأيتُه يُحطّم جسده، وقبل أن تحلّ لحظة الندم كنت راضياً عن فعلتي. لم يكن حادثاً. لا يهّم كم أتمنّى لو أنني تراجع، فقد أردتُ موته ثم قتلته». ثم قال بصوت مُتهدّج وأنفاس



مُرْتَعِشَةً: «هل أنا - أي نوع البشر يستطيع عمل هذا؟ أهو الشرير أم البائس ذو القلب القاسي؟ كيف يحدث ذلك يا رامي؟ لا يوجد وسط، ولا يوجد قانون تُعْغَفَر به هذه الفعلة، أليس كذلك؟».

تَنَهَّد رامي وقال: «قاتل واحد كقاتل الجميع».

فهمهم روبين: «شكرًا. لقد خَفَّفَ هذا عني».

«لكن باب الرحمة مفتوح أمام جميع الناس». ثم صمت رامي للحظة وقال: «وَأَظُن... حسنًا، كان الأستاذ لوفيل رجلًا سيئًا للغاية، أليس كذلك؟ ألم تكن تدافع عن نفسك؟ وما فعله بك، وبأخيك، وبأهاتكما... لعله كان يستحق الموت فعلاً. لعل قتلك له قد منع شُرُورًا غير معروفة من الوقوع بآخرين. لكن ليس هذا قرارك، بل قرار الله».

فسأله روبين ببؤس: «فماذا يمكنني أن أفعل؟ ماذا أفعل؟».

أجاب رامي: «لا يوجد ما تفعله. لقد مات. لقد قتلتَه ولا يمكنك عمل أي شيء سوى أن تطلب من الله الغفران». ثم توقف ونقر ركبته بإصبعه وتابع: «لكن كيف نحمي ليتي وفيكتوار؟ لن يُجدي تسليمك نفسك نفعًا يا بيردي، ولن يُفيد تأنيبك لنفسك. لقد مات لوفيل وأنت حي، وربما أراد الله ذلك. وهذا ما أستطيع مواساتك به».

مرَّ كل منهم بمرحلة فُقدان الرُّشد. كان لهذه اللعبة قاعدة غير مُعلَّنة، إذ كان واحدًا ينهار، لا كلهم في اللحظة نفسها، وكان على الأكثر تعقُّلاً تهدئة رَوْع المُتَوَتِّر. تَمَثَّلَت طريقة رامي في الهلع في التعبير عن كل ما يزعجه بتفاصيل شديدة الدقَّة ومُبالغ فيها. قال رامي: «سيذهب أحدهم إلى مقصورته كي يطرح عليه سؤالًا سخيفًا، أو عن شيء يتعلَّق بتاريخ الوصول، أو نفقات الرحلة. لكنه لن يكون هناك، وسوف يسألوننا عن الأمر، وفي النهاية سيُسألُ الشك أحدهم وسيُفْتَنُّ الشك السفينة بأسرها، وسوف نتظاهر بعدم معرفة مكانه ولن يُصَدِّقونا، ثم يكتشفون أمر بُعْع الدم».

قالت فيكتوار: «أرجوك توقف بالله عليك».



لكن رامي تابع مُتحدثًا بعظمة وكأنه يروي قصيدة ملحمية: «ثم يُرسلوننا إلى نيوحيث وسيقرع جرس سان سيلكر اثنتي عشرة مرة، ويحتشد جمع غفير بالخارج، وسُشْنَق واحدًا تلو الآخر».

تمثَّلت الطريقة الوحيدة لإيقاف رامي في تركه ينتهي من قَصِّ روايته الخيالية المريضة، وهو ما ذأب على عمله، بمزيد من الوصف السخيف لإعدامهم كل مرة. كانت تُريح روبين بعض الشيء، بل كان من المُريح أن يتخيل حدوث الأسوأ كل مرة، إذ كان يُزيل عنه الخوف من المجهول. لكنه كان يُزعج فيكتوار. فمتى سمعت تلك المُحادثات، لم تستطع النوم، ثم كان دورها في فقدان صوابها ليأتي، وكانت لتوقظهم في الرابعة صباحًا هامسة أنها كانت تشعر بالألم لجعل ليتي تسهر، وكانوا ليضطروا للسهر معها فوق السطح وهي تهمس بكل ما يخطر ببالها من قصص مجنونة مُتمثلة في صوت الطيور، وبيتهوفن، وثرثرة القسم حتى مطلع الفجر.

أما نوبات الهلع التي كانت ليتي تُصاب بها، فكانت الأسوأ على الإطلاق، إذ لم تكن، دون الباقيين، قد فهمت سبب دفاع رامي وفيكتوار عن روبين بحماس، وافترضت أنهما يحميان روبين بسبب الصداقة. كان الدافع الوحيد الذي فهمته هو أن الأستاذ لوفيل أمسك بياقة روبين في كانتون، وكان الآباء القساة شيئًا مُشترَكًا بينهما وبين روبين.

لكن إذ رأت أن موت الأستاذ لوفيل حادث مُنعزل، لا مُجرَّد غطاء لأمر أعظم، لم تنفك تُحاول إصلاح الموقف، بل ظَلَّت تقول: «يجب أن تكون هناك طُرُق لإبراء ساحتنا. يمكننا أن نقول إن الأستاذ لوفيل كان يؤذي روبين وأن هذا كان دفاعًا عن النفس، وأنه فقد رُشده بسبب التوتر، وأنه كان البادئ بكل شيء، وأن روبين كان يُحاول الابتعاد فحسب. سنشهد جميعًا وسوف يُطلقون سراحه. ما رأيك يا روبين؟».

أجاب روبين: «لكن ليس هذا ما حدث».

«لكن يمكنك أن تقول إن هذا ما حدث....».



فأَلَحَ رامِي: «لن يُجدي هذا نفعًا، فالأمر غاية في الخطورة، بل ويُعدُّ مخاطرةً لِسنا مُضطرين لخوضها».

كيف كانوا ليتبينوا أنها كانت مُصابة بالوَهْم؟ هل كان من ضُرُوب الجنون أن يتخيل المرء أن المنظومة القانونية البريطانية مُحايِدة بالفعل، وأنهم سيُحاكمون مُحكمة عادلة، وأن أمثال روبين، ورامي، وفيكتوار قد يقتلون أحد أساتذة أو كسفورد ذوي البشرة البيضاء ويُلقون بجثته في المُحيط، ويكذبون بشأن الواقعة لأسابيع ثم يُفلتُون بفعلتهم؟ وهل كان ما تؤمن به فعلاً دليلاً على اختلاف ما يعيشون فيه من عوالم؟

لكن، إذ لم يستطيعوا إخبارها الحقيقة، صممت ليتي وقالت مُعلنةً إنهم رفضوا اقتراحها للدفاع عن النفس: «لديّ فكرة جديدة. كما تعلمون، فإن أبي رجل مُهم...».

قال رامِي: «لا».

«دعني أكمل. كان أبي مؤثِّراً في زمنه».

«أبوكِ أدميرال مُتقاعد مُهمّش».

فقالت ليتي بإصرار: «لكنه ما زال يعرف أناسًا، ويمكنه طلب بعض الخدمات».

فسأل رامِي: «أي نوع من الخدمات؟ مرحبًا أيها القاضي بلاذرز، ها هي القصة: ابنتي وأصدقاؤها الأجانب القذرون قتلوا أستاذهم - وهو رجل مُهم بالنسبة للإمبراطورية من الناحية المالية والدبلوماسية - ومن ثمّ، حين يُقدِّمون للمُحاكمة سأحتاج إلى أن تتقدّم وتُعلن براءتهم...».

فردت ليتي بغضب: «ليس من الضروري أن تكون الأمور هكذا، فما أقوله هو أنه لو أخبرناه الأمر وأوضحنا أنه كان حادثًا...».



فكرّر رامي: «حادث؟ هل سبق لك إخفاء حادث من قبل؟ هل تختلف الأمور حين تقتل الفتيات ذوات البشرة البيضاء من الثريّات الناس؟ هل تسير الأمور هكذا يا ليتي؟ كذلك، أليست علاقتك بأبيك مُتوترة؟».

التقطت ليتي أنفاسها بصعوبة وردّت: «أحاول المساعدة فحسب».

قال روبين بسرعة مُحاولاً تخفيف حِدّة التوتر: «نَعلم ذلك، وأنا مُمتنٌّ فعلاً. لكن رامي مُحقّق. أظن، من الأفضل أن نكتم السر».

فسكتت ليتي وراحت تنتظر بغضب نحو الحائط.

مضى شهران وعادوا إلى إنجلترا ليفيقوا ذات صباح ولندن تلوح في الأفق مُلتحفةً بسماؤها الرمادية القاتمة.

اتضح أن التظاهر بمرض الأستاذ لوفيل طوال الرحلة مهمّة أسهل ممّا كانت فيكتوار تتوقّع، فعلى ما يبدو كان من السهل إقناع سفينة بأسرها أن أستاذًا بأوكسفورد مريض. ورغم ما بذلته جيميما سميث من جهود، فقد أصابها الملل من صمت رفاقها ولم تبذل أي جهد لإطالة وداعهم. ومن جانبهم، لم يُقلّ البحارة كلمة وداع واحدة حين نزلوا من السفينة، ولم يُعر أحد أربعة طلاب مُتعبين من السفر انتباهًا وهم يشقّون طريقهم عبر ليجال كيز، خاصة حين جاء وقت تفريغ الأمتعة وتحصيل الرسوم.

قالت ليتي للقبطان حين مرّوا به على المرفأ: «لقد سبقنا الأستاذ لزيارة الطبيب، وقد كلّفنا بشكرك على الرحلة الهادئة».

تعجّب القبطان بعض الشيء من كلماتها، لكنه هرّ كفيه وصرفهم.

فهمهم رامي: «رحلة هادئة؟ رحلة هادئة؟».

«لم يخطر ببالي شيء آخر أقوله!».

فقالت فيكتوار بصوت حاد: «أسكتا وامشيا».

كان روبين متأكدًا أن كل ما يفعلونه وهم يجزّون أمتعتهم الثقيلة على الألواح الخشبية يصرخ قَتلة! وراح يُفكّر بتخبّط أن بعد خطوة واحدة



سَيُقَابِلُونَ بِنَظَرَةٍ شَكٍّ، وَسَتَهْرَعُ أَقْدَامُ وَرَاءَهُمْ، وَسَيَسْمَعُونَ صَوْتًا يَهْتَفُ: «مَهْلًا، تَوَقَّفُوا!». فَبِالطَّبَعِ، لَنْ يَسْمَحَ لَهُمْ أَحَدٌ بِالْهَرُوبِ مِنْ هِيَلَسٍ بِسَهُولَةٍ.

وَعَلَى الشَّاطِئِ الَّذِي يَبْعُدُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ قَدَمًا كَانَتْ إِنْجَلْتَرَا هِيَ الْمَلَاذُ وَالْحَرِيَّةُ. فَلَوْ وَصَلُوا إِلَى الشَّاطِئِ، وَلَوْ اخْتَفَوْا فِي الزَّحَامِ، لَصَارُوا أَحْرَارًا. لَكِنْ هَذَا كَانَ مِنَ الْمُسْتَحِيلَاتِ الْمُؤَكَّدَةِ، إِذْ لَمْ تَكُنِ الرُّوَاطُ الَّتِي تَصْلُهُمْ بِتِلْكَ الْغُرْفَةِ الدَّامِيَةِ لَتُقَطَعَ بِسَهُولَةٍ.

قَادَهُمُ الْمَمَرُ الْخَشْبِيُّ لِلْأَرْضِ الصَّلْبَةِ، فَنَظَرَ رُوبِيْنٌ وَرَاءَ كَتْفِهِ، فَلَمْ يَرَ أَحَدًا يَتْبَعُهُمْ، بَلْ وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ.

ثُمَّ اسْتَقْلُوا عَرَبِيَّةً نَقَلَ مُتَّجِهَةً إِلَى شِمَالِ لَنْدُنْ وَمِنْهَا اسْتَأْجَرُوا عَرَبِيَّةً أَجْرَةً إِلَى هَامْبِسْتِيد. لَقَدْ اتَّفَقُوا دُونَ جَدَلٍ كَثِيرٍ أَنَّهُمْ سَيَقْضُونَ اللَّيْلَةَ الْأُولَى لَوْصُولِهِمْ فِي مَسْكَنِ الْأَسْتَاذِ لُوفِيلِ فِي هَامْبِسْتِيد، إِذْ كَانُوا قَدْ تَأَخَّرُوا عَلَى الْقَطَارِ الْمُتَّجِهَةِ إِلَى أَوْكْسْفُورْدَ، وَكَانَ رُوبِيْنٌ يَعْلَمُ أَنَّ السَّيِّدَةَ بَايِيرَ سَتَكُونُ مَوْجُودَةً فِي جِيرِيكُو وَأَنَّ الْمِفْتَاحَ الْإِحْتِيَاطِيَّ كَانَ مُخْبَأً تَحْتَ أُنْيَةِ زَهْوَرِ الْمَنْجِ فِي الْحَدِيقَةِ. وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِيِ، كَانُوا سَيَسْتَقْلُونَ قَطَارًا إِلَى بَادِينْجَتُونِ ثُمَّ يَعُودُونَ إِلَى الْمَدْرَسَةِ حَسَبِ الْخُطَّةِ الْمَوْضُوعَةِ.

وَأَثْنَاءَ الرَّحْلَةِ، جَالَ بِخَاطِرِ الْجَمِيعِ أَنَّ خِيَارًا وَاحِدًا يَتَبَقَّى، أَلَا وَهُوَ الْإِسْرَاعُ بِتَرْكِ كُلِّ شَيْءٍ وَالْهَرُوبُ مِنَ الْقَارَةِ، وَرُكُوبُ سَفِينَةٍ بِضَائِعٍ مُتَّجِهَةٍ إِلَى أَمْرِيكََا أَوْ أَسْتْرَالِيَا أَوْ الْعُودَةُ إِلَى الدُّوَلِ الَّتِي أُخِذُوا مِنْهَا.

فَاقْتَرَحَ رَامِي: «سَوْفَ نَهْرَبُ إِلَى الْعَالَمِ الْجَدِيدِ وَنَذْهَبُ إِلَى كَنْدَا».

رَدَّتْ لَيْتِي قَائِلَةً: «أَنْتَ حَتَّى لَا تَتَحَدَّثَ الْفَرَنْسِيَّةَ».

قَالَ رَامِي مُسْتَهْزَأً: «إِنَّمَا الْفَرَنْسِيَّةُ يَا لَيْتِي، إِنَّهَا أَسْهَلُ اللُّغَاتِ الْمُشْتَقَّةِ مِنَ اللَّاتِينِيَّةِ. فَمَا مَدَى صَعُوبَتِهَا؟».

فَأَوْضَحَتْ فَيَكْتَوَارُ: «يَجِبُ أَنْ نَعْتِشَ عَلَى عَمَلٍ، فَلَنْ نَحْصَلَ عَلَى مَصْرُوفٍ بَعْدَ الْآنِ. كَيْفَ سَنَعِيشُ؟».



كانت فكرة جيدة وكانوا قد تجاهلوا بشكل ما. أنستهم السنوات التي كانوا يحصلون فيها على مصروف كافٍ أنهم كانوا يملكون ما يكفيهم للعيش عدة أشهر. فخارج أوكسفورد حيث لا يتوافر لهم مسكن ولا طعام، لم يكن هناك شيء يمتلكونه.

فسأل رامي: «حسنًا، كيف يجد الآخرون وظائف؟ لعل المرء لا يذهب إلى متجر مُستجيبًا لإعلان!«.

قالت ليتي: «يجب أن تكون مُتدرِّبًا، فهناك فترة تدريب على ما أظن. لكن هذا يُكَلِّف مالا».

«فكيف إذا يجد المرء أحد أصحاب الجِرَف ليوظِّفه؟».

قالت ليتي بإحباط: «لا أدري. وكيف أعرف؟ ليس عندي علم».

لا، لم تكن هناك احتمالية لتركهم الجامعة. فرغم كل شيء، ورغم الخطر الحقيقي المُمتلئ في إمكانية القبض عليهم والتحقيق معهم وسجنهم بل وحتى شنقهم لو عادوا إلى أوكسفورد، لم يستطيعوا التفكير في حياة غير مُرتبطة بالجامعة، إذ لم يكن لديهم أي شيء آخر. لم يتمتّعوا بالمهارات، ولا القوة، ولا الطبيعة المُتماشية مع العمل اليدوي، علاوة على عدم تمتّعهم بالعلاقات اللازمة للعثور على وظيفة. الأهم هو أنهم لم يعرفوا كيف يعيشون. لم يكن لدى أي منهم أدنى فكرة عن تكلفة استئجار غرفة، أو شراء بقالة الأسبوع، أو الإقامة في مقر عدا المدينة الجامعية. فحتى هذه اللحظة، كان آخرون يتولّون تلك الشؤون نيابة عنهم، كالسيّدة بايير في هامبستيد. أما عن أوكسفورد، فكان فيها كَشَافَة وخدم يُرَتَّبون الأسرة، بل إن روبين كان يجد صعوبة في شرح كيفية غسل الملابس!

وحين جاءت لحظة الحقيقة، لم يستطيعوا التفكير في كونهم أي شيء عدا أنهم طلاب، ولم يتخيّلوا عالمًا ينتمون إليه عدا بابل. كانت بابل كل ما يعرفونه. كان بابل هو الوطن. ورغم أنه كان يعرف أن هذا سخيف، ظن روبين أنه لم يكن الوحيد الذي يؤمن في قرارة نفسه بأنه رغم كل شيء،



سيكون هناك عالم تنتهي فيه هذه المتاعب، وتُتخذ الترتيبات اللازمة، ويتم التسرُّ على كل شيء. وإذ ذاك، قد يعود إلى غرفته في ماجباي لين ويستيقظ على أناشيد الطيور ونور الشمس الدافئ الذي يسطع عبر النافذة الصغيرة، ويقضي أيامه مُجددًا في التدقيق في اللغات الميتة فحسب.



الفصل العشرون



بفضل مساعدتكم والمعلومات التي تفضلتم والسيد جاردين بتزويدنا بها،
والتي تمكنا بواسطتها من تقديم تعليمات مفصلة إلى المسؤولين عن شؤوننا
البحرية، والعسكرية، والدبلوماسية في الصين، تحققت نتائج مُرضية.

بالمستون، وزير الخارجية

خطاب إلى جون إيبيل سميث

كانت الأمطار تنهمر بغزارة حين ترجّلوا عن السيارة الأجرة في
هامبستيد، ووجدوا منزل الأستاذ لوفيل مصادفة، لا أكثر. ظن روبيين أنه
سينتذكر الطريق بسهولة، لكن ابتعاده لثلاث سنوات أثر في ذاكرته أكثر مما
كان يظن، وقد جعلت زخات المطر كل البيوت متشابهة، إذ كانت مُبتلة،
كُتْلِيَّة الشكل، ومحاطة بأوراق شجر زلقة متساقطة. وقبيل عثورهم على
المنزل المبني من الطوب والجبس الأبيض، كانوا مبتلين يرتجفون.

فجذبت فيكتوار رامي من ظهره وهو يُقدِّم على طرق الباب وقالت:
«تمهّل. ألا يجب أن ندخل من الخلف تحسباً لأن يرانا أحد؟».

«فليرونا. ليس الوجود في هامبستيد جريمة...».

«هذا لو كان واضحاً أنك لا تعيش هنا».

«مرحباً!..».

وهنا استدار الجميع بغتة كقطط مذعورة. كانت امرأة واقفة أمام عتبة باب
المنزل المقابل تلوّح لهم؛ وهتفت مجدداً: «مرحباً، هل تبحثون عن
الأستاذ؟».



ففظروا بعضهم لبعض في رعب. لم يكونوا قد تداولوا مسألة الرد على هذا السؤال. كانوا يريدون تجنّب أي تفاعل مع أي شخص قد يجذب الانتباه، لكن، كيف عساهم يبرّرون وجودهم في هامبستيد؟

فقال روبين بسرعة قبل أن يُثير صمتهم الشك: «نحن تلامذته، لقد عُدا للتو من الخارج، وقد أخبرنا بأن نقابله هنا عند عودتنا. بيد أن الوقت قد تأخر ولا يوجد من يفتح الباب».

بدت المرأة ودودة. «من الجائز أن يكون في الجامعة». غير أنها بدت عدائية لأنها كانت تصرخ كي يغطّي صوتها على صوت المطر. تابعت المرأة: «لا يقضي هنا سوى أسابيع قليلة. ابقوا في أماكنكم».

فاستدارت وأسرعت بالدخول إلى المنزل وأغلقت الباب.

فهمهم رامي: «تبّاً! ماذا تفعل؟».

«ظننته من الأفضل أن نكون أقرب للحقيقة».

«بل أقرب كثيرًا للحقيقة. ألا ترى ذلك؟ ماذا يحدث لو سألتها أحد؟».

«ماذا تريد أن تفعل الآن؟ هل نهرب؟».

لكن المرأة كانت بالفعل قد خرجت مجددًا، وأسرعت بعبور الشارع نحوهم حامية نفسها من المطر بمرفقها، ثم مدّت كفّها لروبين.

وفتحت يدها كاشفة عن مفتاح وقالت لروبين: «خذ. هذا هو مفتاحهم الاحتياطي، فهو مُشَنَّت الذهن. لقد طلبوا مني الاحتفاظ بواحد تحسبًا لإضاعته مفتاحه. يا لكم من مساكين!».

قال روبين متعجبًا من حسن حظهم: «شكرًا». ثم باعته ذكرى وخمّن تخمينًا عشوائيًا وقال: «ألسَتِ السيدة كليمينز؟».

فأجابت باسمه: «بلى، بالطبع».



«صحيح، هذا صحيح. قال أن أطلب منك المفتاح لو لم نجده. كل ما في الأمر أننا لم نكن نعرف منزلك».

«إدًا، فمن الجيد أنني كنت أشاهد المطر». كانت ذات ابتسامة عريضة ودودة، بل وقد تلاشت جميع أمارات الشك عن وجهها. «أفضل أن أعزف البيانو ناظرة إلى العالم الخارجي، فهو يُلهمني موسيقيًا».

فقال وهو أشد تخبطًا من أن يواصل حديثه، إذ كان يشعر بارتياح: «صحيح. حسنًا. شكرًا جزيلاً».

«أوه! عفوًا. نادني لو احتجت لأي شيء». أوامت لروبين أولاً ثم إلى ليتي- لكنها بدت كأنها لم ترَ رامي ولا فيكتور؛ وكان روبين يرى أنه يجب أن يشعر كلاهما بالامتنان لهذا - ثم اتجهت عابرة الشارع. فتمتتم فيكتور: «كيف عرفت؟».

أجاب روبين وهو يسحب صندوقه عبر الحديقة الأمامية: «كتبت السيدة باير عنها قائلة إن أسرة جديدة قد انتقلت للعيش هنا، وأن الزوجة من النوعية الوحيدة غريبة الأطوار. أظنها تأتي هنا معظم فترات بعد الظهيرة لتناول الشاي حين يكون الأستاذ موجودًا».

قالت ليتي: «حسنًا، من الجيد أنك تتبادل الخطابات مع مديرة منزلك».

قال روبين: «فعلًا»، ثم فتح الباب.

لم يُعد روبين إلى منزل هامبستيد منذ غادر إلى أوكسفورد، وقد بدا كأنه تَغَيَّر بشكل كبير إبَّان غيابه، إذ كان أصغر بكثير ممَّا كان عليه، أو لعل روبين هو من قد ازداد طولاً. لم يعد الدرج حلزونياً لا نهائياً، ولم تعد الأسقف تعطي ذاك الانطباع بالوحدة الشديدة. كان المكان شديد العتمة من الداخل، وكانت الستائر مُسدلة، والأثاث مغطى بالملاءات منعاً لوصول الأتربة. راحوا يتحسسون طريقهم في الظلام لبعض الوقت. كانت السيدة باير تضئ المصابيح والشموع دائماً، ولم يكن روبين يعلم أين تحتفظ



بالكبريت. وأخيرًا، وجدت فيكتوار بعض الصَّوان والمشاعل في غرفة الاستقبال، ومن ثم أشعلوا المدفأة.

قال رامى: «ما كل هذه... الأغراض يا بيردي؟».

كان يقصد الخزارف الصينيّة. التفت روبين حوله ليجد الغرفة مملوءة بجميع المراوح الملونة، والرّقائق المعلقة، وأواني البورسلين، والمنحوتات، وأباريق الشاي. كان يُعطي انطباعًا بأنه تقليد رخيص لمقهى صيني في كانتون جنبًا إلى جنب مع أثاث إنجليزي. هل كانت كل هذه الأشياء دائمة الوجود؟ لم يعرف روبين كيف لم يلاحظ هذا في طفولته. لعله حين جاء من كانتون، لم يجد الفرق بين العالمين واضحًا.

وعلى الأرجح فقد صار لديه حسّ أوضح بما هو أجنبي وغريب بسبب انغماسه التام في جامعة ذات طابع إنجليزي عميق.

قال روبين: «أظنه كان من هواة الجمع. أوه، كما أتذكر أنه كان يهوى التحدث لصيوفه عن مقتنياته، ومصادرها، وتواريخها الخاصة. كان شديد الفخر».

رد رامى: «أي غرابة! كيف يُحب المرء أغراض ولغة بلد وهو يكرهها؟».

قالت فيكتوار: «ليس الأمر بهذه الغرابة، فالبشر شيء، والأغراض شيء آخر».

وإذ فتشوا المطبخ، لم يجدوا شيئًا يأكلونه. لم تكن السيدة بايير لتخزّن المؤن أثناء وجودها في منزل أوكسفورد. وكانت الفرن تمثل مشكلة دائمة في منزل هامبستيد. وتذكر روبين أن الأستاذ لوفيل كان يَمُقُّ القطط، وكانت السيدة بايير تكره ترك المواد السريعة التلف تحت رحمتها. عثر روبين على علبة بن مطحون وقارورة ملح، لكنه لم يجد سكرًا. فأعدّوا القهوة وشربوا، لكنها لم تزد هم إلا جوعًا. بيد أنها أبقتهم يقظين.



ثم غسلوا أكوأبهم ونشّفوها. لم يعرف روبين لماذا كانوا ينظفون في حين لم يَغْدُ صاحب الدار إليها. غير أنه كان من الخطأ ترك الأمور في حالة من الفوضى.

ثم فوجئوا بطرق حاد على الباب، فقفزوا. انتظر الطارق، ثم عاود الطَّرْق بحزم ثلاث مرات متتالية.

فقفز رامي وأمسك سيخ تقليب النار.

فقالت ليتي بصوت حاد: «ماذا تفعل؟».

«حسنًا، لو افترضنا أن أحدهم سيدخل.».

«لا تفتح الباب فحسب، وسنتظاهر أن لا أحد ها هنا».

«لكن جميع الأنوار مضاءة أيتها الغبية.».

«انظر من النافذة أولاً.».

«كلا، سوف يروننا...».

قال الطارق: «مرحبًا؟ هل تسمعي؟».

تنفّس الجميع الصعداء، إذ كانت السيدة كليمنز فحسب.

قال روبين وهو يقف: «سأفتح لها». ثم حدج رامي بنظرة غضب وقال: «ضع هذا مكانه».

كانت جارتهم الطيبة واقفة مُبتَلَّة على عتبة الباب وهي تحمل مظلة رقيقة غير نافعة بإحدى يديها وسلّة مُغطاة في اليد الأخرى. «لاحظت أنكم لم تحضروا مُؤنًا. حين يغادر، يترك المخزون فارغًا بسبب مشكلة الفئران».

«أنا... هذا واضح». كانت السيدة كليمنز ثرثارة، وكان روبين يرجو ألا تطلب الدخول.

حين لم يقل أي شيء آخر، قدّمت له السلّة وقالت: «طلبت من فاني خادمتي أن تُعَدَّ ما توافر لدينا. يوجد بعض الشراب، وجبن صلب وطري، وخبز



مُقرمش من الصباح للأسف، علاوة على بعض الزيتون والسرددين. لو أردت خبزًا طازجًا، يجب أن تُحاول مجددًا في الصباح. لو لم تنشأ الحضور، فأخبرني كي أطلب من فاني بعض الزبد الطازج، إذ يكاد خزيننا ينفد».

قال روبين وهو مندهش لهذا الكرم: «شكرًا، فهذا لطف كبير منك».

ردّت السيدة كليمنز: «عفوًا. هلا أخبرتني متى يعود الأستاذ؟ يجب أن أتحدّث معه حول سياجه الشائك».

فوجئ روبين بكلامها وقال: «أنا... لا أعرف».

«ألم تقل إنك سبقته؟».

لم يكن روبين متأكدًا مما سيقوله، وشعر بأنه كلما قلّ الكلام، كان هذا أفضل. كان قد أخبر القبطان بأن الأستاذ قد سبقهم، وأنهم مزمعون إخبار هيئة تدريس بابل أن الأستاذ لوفيل ما زال في هامبستيد، ومن ثم، سيكون إخبار السيدة كليمنز بقصة مُختلفة أمرًا شديد الخطورة. لكن من عساه يشك في الأطراف الثلاثة؟ لو كانت الشرطة قد توصّلت إلى شيء، ألن يكونوا قد احتُجزوا بالفعل؟

جاءت ليتي لتتقّده وقالت وهي تلکزه في جنبه: «لعله يأتي يوم الاثنين. لكننا سمعنا في الميناء أن سفينته قد تتأخر - فالطقس سيئ في الأطلنطي كما تعلمين - لذا، فقد يتأخر لأسابيع».

قالت السيدة كليمنز: «أمر مزعج للغاية. إذًا، هل ستمكثون كل هذه المدة؟».

«أوه! كلا، سنعود للكلية غدًا، وسنترك له رسالة فوق طاولة غرفة الطعام قبل أن نغادر».

ردت السيدة كليمنز ببشاشة: «قرار حكيم. حسنًا، طابت ليلتكم». ثم غادرت المكان.



التهموا الجبن والزيتون في ثواب. كان الخبز مُتصلِّبًا وتطلَّب بعض المضغ، وهو ما جعلهم يبطنون الأكل، لكنهم التهموا الخبز في دقائق أيضًا. ثم راحوا يتطلعون لزجاجة الشراب بتوق بالغ وهم بين نارين: نار معرفتهم بضرورة الحذر ونار الرغبة الشديدة في فقدان الوعي حتى أخذ رامي على عاتقه مسؤولية إخفائها في مخزن المؤن.

كانت الساعة الحادية عشرة والنصف. في أوكسفورد، كانوا ليقبوا مُتبقِّطين فترة أطول ومنكبين على مهامهم، أو كانوا ليتصاحكوا في غرف بعضهم. لكنهم كانوا في حالة إعياء وذعر شديد، ما جعلهم لا يفترقون. لذلك، بحثوا في المنزل عن بطاطين ووسائد وكؤموها في حجرة الصالون.

قرَّروا تناوب النوم، بحيث يكون شخص واحد مستيقظًا للحراسة. لم يعتقد أي منهم أن الشرطة ستقتحم المنزل - ولم يكن مهمًا ما كانوا ليفعلوه لو حدث هذا - لكن كان من الجيد أن يتوخَّوا الحذر.

تطوَّع روبين بأخذ أول مناوبة حراسة. لم يستطع أي منهم الاسترخاء، إذ كانوا في حالة توتر بسبب القهوة والأعصاب المتعبة، لكن سرعان ما تملك منهم الإنهاك، وفي ظرف دقائق، تبدَّد توترهم وصاروا يتنفسون على نحو هادئ. ارتمت ليتي وفيكتوار على الأريكة وقد أراحت فيكتوار رأسها على ذراع ليتي. أما رامي، فقد نام على الأرضية بجانب روبين وجسده مُتكوَّر حول الأريكة مثل القوس.

تألَّم روبين من منظرهم.

انتظر نصف ساعة مراقبًا أنفاسهم، ثم همَّ بالوقوف، إذ رأى أنه يستطيع ترك موقعه بلا خوف. فلو حدث أي شيء، لسمعه. كان المطر قد تضاءل إلى رذاذ خفيف وصار المنزل في حالة صمت مُطبق. فحبس أنفاسه وخرج بهدوء شديد من الغرفة ثم صعد الدرج إلى مكتب الأستاذ لوفيل.

كان ضيقًا وفوضويًا كعهده به. ففي أوكسفورد، كان الأستاذ لوفيل يُحافظ على شيء من النظام في مكتبه، لكن، في منزله، كان يسمح لأغراضه باتخاذ



شكل فوضى مُنظمة! كانت الأوراق مبعثرة على الأرضية، والكتب مرصوصة في أكوام على الأرفف: بعضها مفتوح، والبعض الآخر مُقفل على أقلام محشورة بالداخل لتحديد الصفحات.

سار روبين بحذر في الغرفة متجهاً إلى مكتب الأستاذ لوفيل. لم يسبق له الوقوف وراءه، بل كان يجلس على الجانب الآخر له ويده مضمومة في حجره بذعر. بدا المكتب مختلفاً تماماً من الجانب الآخر. كانت هناك لوحة مؤطرة مُستندة بشكل مستقيم على الجانب الأيمن. لا، لم تكن لوحة، بل صورة فوتوغرافية قديمة. حاول روبين ألا يدقق النظر، لكنه لم يستطع منع نفسه من إلقاء نظرة خاطفة، فرأى صورة امرأة ذات شعر داكن وطفلين، فقلب الإطار.

ثم راح يقلّب في الأوراق المُبعثرة على المكتب. لم يكن بها شيء مهم، بل كانت ملاحظات على قصائد شعرية لأسرة تانج ونقوش عِرافة على عظام. كان كلاهما مشروعاً بحثياً يعمل عليه الأستاذ لوفيل في أوكسفورد. حاول فتح الدرج الأيمن متوقعاً أن يجده مغلقاً، لكنه انفتح بسهولة، ووجد بداخله أكواماً مُكدّسة من الخطابات. فأخرجها ورفعها في ضوء المصباح واحداً تلو الآخر وهو غير متأكد مما يبحث عنه أو حتى ما يتوقع رؤيته.

كان يُريد صورة رجل فحسب. كان يريد أن يعرف مَنْ والده.

كانت مُعظم مراسلات الأستاذ لوفيل مع أساتذة بابل وممثلي مختلف الشركات التجارية - القليل مع شركة الهند الشرقية، والأكثر مع ممثل مانياك وشركاه، لكن الغالبية كانت موجهة إلى جاردين آند ماثيسون. كانت تلك الأخيرة مُثيرة للاهتمام. راح يقرأ بسرعة شديدة ماراً على الكومة متخطياً المقدمات البروتوكولية وباحثاً عن العبارات المهمة المخفية في الفقرات الوسطى:

... قد ينجح حصار جوتسلاف... لن يتطلب سوى ثلاث عشرة سفينة حربية، لكن ماذا عن الوقت والتكلفة؟... ما هذا إلا إظهار للقوة... يريد ليندزي إحراجهم بانسحاب دبلوماسي، لكن هذا يعرّض عملاء الجمارك



الوحيددين المتبقين للخطر... مارس عليهم ضغطاً وسوف يتراجعون... ليس من الصعب تدمير أسطول يقوده بحارة لا يعرفون حتى ما هي السفن التي تعمل بالبخار.

زَفَر روبين ببطء وأثَّكَأ على المقعد.

كان هناك شيئان واضحا. أولاً، لم تكن تلك المُستندات غامضة. كان خطاب من رجل الدين جوتسلاف منذ أربعة أشهر يحتوي على رسم مفصل لمرافئ كانتون المهمة. من ناحية أخرى، كانت هناك قائمة بجميع السفن المعروفة في البحرية الصينية. لم تكن تلك فرضيات حول سياسة بريطانيا نحو الصين، بل بالأحرى خطط حربية. كانت تلك الخطابات تحوي تقارير وافية عن الدفاعات الساحلية التي وضعتها حكومة تشينج، وتقارير مفصلة عن عدد السفن الشراعية التي تحمي المحطات البحرية، وعدد التَّحصينات الموضوعة على السفن المحيطة، بل وحتى عدد القوات المتمركزة في كل منها بشكل محدد.

ثانياً، برز صوت الأستاذ لوفيل كأحد أكثر الأصوات حماسية بين مُحَدِّثيه. في البداية، كان لدى روبين اعتقاد ساذج أن الحرب لم تكن فكرة الأستاذ لوفيل، وأنه ربما كان يَحْتُمُّ على التوقف. لكن الأستاذ لوفيل كان شديد الحماس، لا حيال تعدد منافع مثل هذه الحرب فحسب (بما في ذلك المصادر اللغوية الوفيرة التي ستصبح وقتها في متناول يده) بل حيال السهولة التي سوف «يُهْزَم بها الجيش الصيني الكسول الخامل والذي لا يتحلى بأدنى درجات الشجاعة أو الانضباط».

لم يكن أبوه مجرد باحث مهتم بمشكلات التجارة، بل قد ساعد في إحداثها. وكان هناك خطاب لم يُرسل بخط الأستاذ لوفيل الصغير الدقيق موجهاً للورد بالمرستون يفيد بـ:

يحتوي الأسطول الصيني على سفن شراعية قديمة ذات مدافع أصغر من أن تُصَوَّب بكفاءة. ولا يمتلك الصينيون سوى سفينة واحدة تستأهل أن



يحاربها أسطولنا الحربي وهي سفينة تجارية تُدعى كامبريدج اشتروها من الأمريكيين، لكن ليس لديهم بحارة يقودونها. وأفاد عملاؤنا أنها تقع في الميناء بلا عمل. سنقضي عليها سريعاً باستخدام السفينة نيميسيس.

كان قلب روبين يخفق بسرعة شديدة. شعر بأن رغبة مُباغثة في استكشاف ما يستطيع معرفته قد اجتاحتها، وأراد معرفة حجم المؤامرة بالكامل. راح يقرأ الكومة وهو مذعور. وحين نفذت الخطابات، أخرج كومة أخرى من المراسلات من الدرج الأيسر والتي كشفت له نفس الأمور نفسها. لم يكن الإقدام على الحرب موضع تساؤل، بل بالأحرى مسألة توقيت وكذا صعوبة إقناع البرلمان بالتصرف. لكن تاريخ بعض تلك الخطابات كان يعود إلى عام 1837. فكيف عرف جاردين ومائيسون، ولوفيل أن المفاوضات في كانتون ستتحول إلى عدااء قبل أكثر من عامين؟

لكن الأمر كان واضحاً: كانوا يعرفون، إذ كانت هذه نيتهم طيلة الوقت.

كانوا يريدون العدااء لأنهم يريدون الفضة، ودون بعض التغيّر الجذري في تفكير إمبراطور تشنج، تمثلت الطريقة الوحيدة للحصول على ذلك في شنّ الحرب على الصين. كانوا قد خططوا للحرب حتى قبل أن يُبحروا. لم يقصدوا التفاوض مع المفوض لين بنّيّة خالصة، ولم تكن تلك المباحثات إلا ذريعة للعداء. لقد دعم أولئك الرّجال رحلة الأستاذ لوفيل إلى كانتون كبعثة أخيرة قبل أن يقدموا المذكرة للبرلمان. وكانوا يعتمدون على الأستاذ لوفيل لمساعدتهم في شنّ حرب قصيرة ووحشية وفعّالة.

فماذا عساه يحدث لو عرفوا أن الأستاذ لوفيل لن يعود على الإطلاق؟

«ما هذا؟».

نظر روبين لأعلى ليجد رامي واقفاً في الممر ينتئاب.

قال روبين: «تتبقى ساعة على دورك».



«لم أستطع النوم، وما هذه المناوبات إلا تُرَّهات. على أية حال، لن يحاول أحد القبض علينا الليلة». ثم انضم رامي إلى روبين وراء مكتب الأستاذ لوفيل وسأله: «هل ننشئ عن شيء؟».

فقر روبين الخطابات وقال: «انظر. اقرأ هذه».

التقط رامي خطاباً من فوق الكومة وقرأه بسرعة، ثم جلس قبالة روبين ليُلقي نظرة فاحصة على باقي الخطابات وقال: «رباه!».

قال روبين: «إنها خطط حربية. الجميع أطراف فيها، كل من قابلناه في كانتون. انظر، ها خطابات رجلي الدين موريسون وجوتسلاف- كانا يُخفيان نفسيهما وراء ستار الإرساليات ليتجسسا على جيش تشنج. لم يَنفَكْ جوتسلاف يرشو المخبرين ليعرفوه أدق أسرار نَشْر القوات الصينية، والتجار الصينيين المؤثرين المُناوئين للبريطانيين، بل وحتى متاجر الرهن التي تعد أماكن مناسبة للنَّهْب».

فقال رامي باستهزاء: «جوتسلاف؟ حقاً؟ لم أكن أعلم أن ذلك الألماني يستطيع عمل ذلك».

«توجد كذلك منشورات لإثارة الدعم الشعبي للحرب. انظر، يقول مائيسون في هذا إن الصينيين: «شعب يتسم بدرجة كبيرة من البَلْه، والجشع، والغرور والتَّعَنُّت». وهنا يقول شخص يُدعى جودار إن نشر السفن الحربية سيكون «مجرد زيارة هادئة حكيمة». تخيّل. زيارة هادئة حكيمة. يا لها من طريقة لوصف غزو عنيف!».

جال رامي بعينيه صعوداً وهبوطاً في الوثائق وقال: «غير معقول». وراح يقَلِّب بسرعة متزايدة وتابع: «يجعل هذا المرء يتساءل ما سبب إرسالهم لنا في المقام الأول».

أجاب روبين: «لأنهم ما زالوا بحاجة إلى ذريعة». بدأ الأمر يتضح، بل كان شديد الوضوح وبسيطاً لحد السخف، ما جعله يرغب في ركل نفسه لعدم فهمه له من قبل. «لأنهم ما زالوا بحاجة لشيء يقدّمونه للبرلمان كي يُثبتوا



أن الطريقة الوحيدة للحصول على ما يريدون تتمثل في القوة فحسب. أرادوا أن يوجّه بايليس الإهانات للين، لا أن يتوصّل لاتفاق معه، بل وأرادوا أن يُوقعوا لين في شرك البدء بمجاهرة العداء».

فقال رامي باستهزاء: «فقط لم يتوقعوا أن يفجّر لين الميناء بكل ما فيه من أفيون».

رد روبين: «كلا، لكني أظنهم حصلوا على الذريعة التي يريدونها على أية حال».

قالت فيكتوار: «ها أنتما ذا».

انتفض الاثنان بِفَرَع.

سأل روبين: «من يراقب الباب؟».

«ستكون الأمور بخير، فلن يقتحم أحد المكان الساعة الثالثة صباحًا، وليتي مُستَغْرِقة في النوم». عبرت فيكتوار الغرفة ونظرت لأسفل نحو كومة الخطابات وقالت: «ما هذه؟».

فأشار رامي لها بالجلوس وأجاب: «سوف ترين».

ومثل رامي، بدأت فيكتوار تقرأ بسرعة كبيرة، إذ أدركت ما كانت تنتظر إليه وقالت: «رباه!». ثم وضعت أصابعها على شفتيها وأردفت: «تعتقد إذا... إذا، فلم يكونوا حتى...».

قاطعها روبين: «صحيح. كانت كلها مظاهر. لم يكن من المُزْمَع أن نعقد مفاوضات سلام على الإطلاق».

ناولته الأوراق برَجْفَة عَجَز وردت: «فماذا سنفعل بهذا إذا؟».

سأل روبين: «ماذا تقصدين؟».

فحدجته بنظرة دهشة وقالت: «هذه خطط حربية».

فأجاب: «ونحن طلاب. ماذا يمكننا أن نفعل؟».



ساد الصمت لفترة طويلة.

تنهّد رامي وقال: «أوه يا بيردي! بل ماذا نفعل هنا؟ إلّا ما نتوقع العودة؟».

كانت الإجابة: أوكسفورد. كانت أوكسفورد هي ما أجمعوا عليه، فحين كانوا محاصرين في السفينة هيلاس، وكان جثة أستاذهم تغوص في أعماق المحيط من ورائهم، كان وعد العودة إلى حياتهم العادية المألوفة هو ما يهدئ رُوعهم، وكانوا يتوهمون الاستقرار، وهو ما وقّاهم شرّ الجنون. كانت كل خططهم تُؤوّل إلى عودتهم سالمين إلى إنجلترا. بيد أنهم لم يستطيعوا التهرب من الأمر ولا أن يحتفظوا بيقينهم السخيف الأعمى بأنهم لو عادوا إلى أوكسفورد، سيصبح كل شيء على ما يرام.

لم تكن هناك عودة، كانوا جميعاً يعلمون ذلك. لم يعد هناك مجال للتظاهر، ولا اختباء في الركن الآمن للعالم في وقت تُمارس فيه وحشية واستغلال غير معقولين في ركن آخر. لم يكن هناك سوى شبكة الإمبراطورية الاستعمارية المُرعبة المترامية الأطراف ومطالب العدالة بمقاومتها.

فسأل روبين: «فماذا بعد؟ إلى أين نذهب؟».

أجابت فيكتوار: «حسنًا، إلى جمعية هرمس».

بدت الإجابة شديدة الوضوح، فوحدها جمعية هرمس هي التي قد تعرف ما تفعل حيال هذا. كانت جمعية هرمس التي خانها روبين والتي قد لا ترغب في قبُولهم هي الكيان الوحيد الذي قابلوه ووجدوه يدّعي الاهتمام بمشكلة الاستعمار. كان هذا مَفَرًا وفرصة ثانية نادرة وغير مُستحَقّة لتصحيح الخيارات الخاطئة، هذا إن وجدوا هرمس قبل أن تعثر عليهم الشرطة.

فراحت فيكتوار تنقل نظرها بينهم وسألت: «هل اتفقنا؟ أوكسفورد، ثم هرمس، ثم ما تحتاجه هرمس منا، اتفقنا؟».

قال رامي بحزم: «نعم».



وقال روبين: «لا، فهذا جنون. يجب أن أُسَلِّم نفسي، ويجب أن أذهب إلى الشرطة بالسرعة الممكنة».

قال رامي بسخرية: «لقد تطرّقنا إلى هذا مرارًا وتكرارًا. وماذا بعد تسليمك نفسك؟ هل ستنتسى أن جاردين وماتيسون يحاولان إشعال حرب؟ صار الأمر أكبر منا يا بيردي وأكبر منك. لديك التزامات».

فقال روبين بإصرار: «لكن هذا هو الأمر. لو سلّمت نفسي لبُعِدت عنكم المشاكل، ولانفصلت حرب الأفيون عن جريمة القتل، ألا تفهم؟ سيُحرّركم من...».

قالت فيكتوار: «كفى! لن نسمح لك».

رد رامي: «بالطبع لن نفعل. كذلك، فهذه أنانية - لن يُسمح لك باتخاذ الطريق السهل».

«كيف يكون هذا سهلاً؟...».

قال رامي بثقة: «تريد أن تفعل الصواب. تفعل هذا دائماً، لكنك تظن أن الصواب هو الاستشهاد، وتظن أنك لو عانيت مُقابل ما ارتكبته من خطايا، سيُغفر لك».

«لست...»

«لهذا تحمّلت المسؤولية نيابة عنا في تلك الليلة، وكلما واجهت أي صعوبة، حاولت التخلص منها معتقداً أن الحل يكمن في تعذيب الذات. أنت مهووس بالعقاب، لكن الأمور لا تسير هكذا يا بيردي. فلن يُصلح دخولك السجن ولا شفقك أي شيء. فما زال العالم مُتصدِّعاً وما زالت الحرب وشيكة، الطريقة الوحيدة للتكفير عن الخطأ هي التوقف عن عمله، وهو ما لا تريد عمله، لأن الأمر يتعلق بخوفك».

ظن روبين أن هذا غاية في الظلم وقال: «كنت أحاول إنقاذكم في تلك الليلة فحسب».



قال رامي بلطف: «كنت تحاول تبرئة نفسك، لكن كل ما تصنعه من تضحية يُشعرك بتحسّن، لكنه لن ينفع باقينا، بل يُعدُّ حركة معدومة القيمة. لو كنت قد انتهيت من محاولتك العظيمة للاستشهاد، فعلينا أن نناقش...».

تراجع روبين. تبع رامي وفيكتوار نظرتة إلى الباب حيث كانت ليتي واقفة ويدها مضمومتان إلى صدرها. لم يعرف منذ متى أنت. كان وجهها شديد الشحوب، فيما عدا بُقعَتَيْنِ على وجنتيها.

قال رامي: «أوه! ظننا أنك نائمة».

كان حَلَقُ ليتي ينبض، وبدت كأنها ستجهش بالبكاء، فسألت بصوت هامس يرتجف: «ما جمعية هرمس؟».

«لكني لا أفهم».

وراحت ليتي تكرر هذه العبارات على مدى عشر دقائق على فترات منتظمة. ومهما شرحوا لها - أهمية جمعية هرمس وتعدد الأسباب التي دعت مثل هذا التنظيم للبقاء في الخفاء - كانت تهز رأسها وعيناها فارغتان وغير فاهمتين. لم يَبْدُ عليها الغضب ولا الانزعاج، بل بالأحرى الارتباك، وكأنهم يحاولون أن يقنعوها بحقيقة راسخة. «لا أفهم. ألم تكونوا سعداء في بابل؟».

فكرر رامي: «سعداء؟ ألم يسبق أن سَخِرَ أحدهم من لون بشرتك؟».

فسألت بدّهشة: «أوه يا رامي! أهذا حقيقي؟ لكنني لم أسمع أبداً - لكن لون بشرتك رائع...».

فتابع رامي: «وهل منعك أحدهم من دخول متجر دون سبب واضح، أم دار حول رصيف تمشين عليه ليتجنبك وكأنك تحملين براغيث؟».

أجابت ليتي: «لكن هذه مجرد سخافة وضحالة يَنَسِمُ بها أساتذة وطلاب أو كسفورد. بيد أن الأمر لا يعني...».



رد رامي: «أعلم أنك لا تفهمين الأمر، ولا أتوقع أن تفعلي، فليس هذا نصيبك في الحياة. لكن الأمر لا يتعلق بسعادتنا في بابل، بل بالأحرى بما نُملِّيه علينا ضمائرنا».

قالت ليّتي: «لكن معهد بابل منحكم كل شيء». بدت وكأنها لا تريد أن تتزحزح عن موقفها. «كنتم تحصلون على كل ما تريدونه، وتحصلون على تلك الامتيازات....».

«لم تكن تكفي لنُسيبنا أصلنا».

«لكن المنح الدراسية - أعني، لو لم تحصلوا على المنح الدراسية، لم تكونوا - لا أفهم...».

رد رامي بجِدّة: «لقد أوضحت هذا بإسهاب. ألسنت أميرة صغيرة؟ لديك ضيعة كبيرة في برايتون، وتقضين الصيف في تولوز، وتمتلكين أواني من البورسلين الصيني على أرففك وتحسّنين الشاي باليانسون، فكيف يمكنك أن تفهمي؟ يجني قومك ثمار الإمبراطورية، في حين لا يَحْصُلُ قومنا على أي شيء. فاخرسي يا ليّتي وَأَنْصُتي لما نحاول أن نقوله لك. ليس ما يفعلونه ببلادنا صوابًا». وهنا ازداد صوته حُشُونَةً وارتفاعًا. «وليس من الصواب أن أُدرَّب على استخدام لغتي في ترجمة قوانين ونصوص لتسهيل حُكْمهم، في حين تُعاني شعوب في الهند، والصين، وهائتي، وفي جميع أنحاء الإمبراطورية الجوع لأن البريطانيين يفضلون تزيين قبعاتهم وقيثاراتهم بالفضة على وضعها في أي مكان تكون فيه ذات فائدة».

فهمت ليّتي هذا على نحو أفضل مما ظن روبين، فصَمَّتَت للحظة وعيناها مُتْسَعَتَان، ثم تَجَهَّمَت وسألت: «لكن... لكن لو تمثّلت الأزمة في عدم المساواة، فهل كنتم لتتمكنوا من الذهاب إلى الجامعة؟ فهناك العديد من أنواع برامج المَعُونات والإرساليات. هناك الأعمال الخيرية. لماذا لا نذهب إلى الحكومات الاستعمارية و...».



أجابت فيكتوار: «هذا صعب بعض الشيء، لا سيما أن المؤسسة بأسرها تحافظ على الإمبراطورية. لا تفعل بابل أي شيء لا يفيدها».

ردت ليتي: «ليس هذا حقيقياً، إذ يُسهمون في الأعمال الخيرية طوال الوقت. أعلم أن الأستاذ لوبلان كان يُجري بحثاً حول شبكات المياه في لندن حتى لا تُصاب منازل العمال بالمرض، وهناك جمعيات إنسانية في جميع أنحاء العالم...».*

فقاطعت فيكتوار: «هل عرفت أن بابل يبيع القوالب للتجار؟».

فسألت ليتي بدهشة: «ماذا؟»

أجابت فيكتوار: «كابيتال. اشتُقت الكلمة اللاتينية كابيتال من كابو، ثم أصبحت الكلمة الفرنسية شاتيل والتي صار شاتيل بالإنجليزية. تتحول الماشية والممتلكات إلى ثروة. يكتبون ذلك على القوالب ويربطونها بكلمة كاتل، ثم يُنبتونها على سلاسل حديدية كي لا يتمكن العبيد من الهرب. أتعرفين كيف؟ تجعلهم خاضعين كالحيوانات».

فراحت ليتي تَرْمُش بسرعة كَمَنْ يحاول طرد ذرة غبار من عينه بالقوة وقالت: «لكن هذا... لكن، لقد تم محو تجارة الرقيق عام 1807 يا عزيزتي فيكتوار.»[†]

* كانت ليتي تُشير إلى إنشاء الجمعيات الإنسانية المستهدفة حماية الشعوب الأصلية في المستعمرات البريطانية، مثل تقرير المؤلفين الإنجليزي عام 1837 بعنوان: «تقرير اللجنة البرلمانية المعنية بشؤون القبائل الأصلية»، والذي، رغم اعترافه بأن الوجود البريطاني يمثل مصدرًا للعديد من المصائب للأمم غير المتحضرة، فقد أوصى بالتوسع المستمر للاستيطان الأبيض ونشر الإرساليات البريطانية في أستراليا ونيوزلندا باسم «بعثة التمدن المقدسة». واستندوا في تقريرهم إلى أن السكان الأصليين لن يتحملوا مثل هذه المعاناة لو أنهم تعلموا ارتداء الملابس، والتحدث، والسلوك كناس مُتَحَضَّرِينَ. ويتمثل التناقض الكبير، بطبيعة الحال، في عدم وجود ما يُسمى بالاستعمار الإنساني. وفي الوقت عينه، كانت مساهمة بابل في تلك المهمة ممثلة في توفير المواد التعليمية الإنجليزية لمدارس الإرساليات وترجمة قوانين الملكية الإنجليزية لِمَنْ نُزَحُوا بسبب الاستيطان الاستعماري.

[†] هذه كذبة كبيرة يصدها البريطانيون ذوو البشرة البيضاء. لكن حُجَّة فيكتوار التالية تتمثل في استمرار الرق في الهند تحت إمرة شركة الهند الشرقية لفترة طويلة بعد ذلك. وكانت العبودية في الهند مُعَفَّاة بشكل خاص بموجب قانون 1833 لإلغاء العبودية. ورغم اعتقاد دعاة مَحُو العبودية الأولين أن الهند كانت دولة



فقلت فيكتوار بصوت بين الضحك والنشيج: «وهل تظننها توقفت؟ ألا تظنين أننا نبيع القوالب إلى أمريكا؟ هل تظنين أن المصنّعين البريطانيين لا يترَبّحون من القيود والسلاسل؟ ألا تظنين أن هناك أناسًا ما زالوا يحتفظون بعبيد في إنجلترا ويُجيدون إخفاء الأمر؟».

«لكن علماء بابل لن...».

قالت فيكتوار بقسوة: «بل هذا ما يفعله علماء بابل بالتحديد. من الطبيعي أن أعرف. فهذا هو ما كان مُشرفنا يعمل عليه. وفي كل مرة كنت أقابل لوبلان، كان يُغيّر الموضوع إلى قوالب ممتلكاته الثمينة. كان يقول إنه يرى أنني قد أملك رؤية مميزة، بل وقد طلب مني ذات مرة أن أرتديها، وقال إنه أراد التأكد من أنه يعمل على الزواج».

«لماذا لم تخبريني؟».

تهدّج صوت فيكتوار وأجابت: «حاولت يا ليتي». كانت عيناها تكشفان عن ألم رهيب ما جعل روبين يشعر بخجل كبير، إذ أدرك النمط القاسي لصدّاقتهما. كان رامي بجانب روبين دائمًا، لكنهما كانا يفترقان عند نهاية اليوم. وكانت ليتي صديقة فيكتوار الوحيدة وقد ادّعت الأولى أنها تحبها حبًا جمًّا، لكنها لم تكن تفهم ما تقوله ما لم يتوافق مع رؤيتها للعالم.

وماذا عن موقفه ورامي من هذا؟ كان تجاهلاً، أو عدم إدراك، أو تَمَنّي خَفِيّ أن تتوقف الفتاتان عن الشجار وتنتقلا إلى موضوع آخر. وبين الحين والآخر، كان رامي يسخر من ليتي، لكن بهدف إرضاء نفسه. لم يتوقف أي منهم ليفكّر كم كانت فيكتوار وحيدة طوال هذا الوقت.

عمالة حرة في ظل شركة الهند الشرقية، كانت الأخيرة مُتواطئة في ومُترَبّحة بشكل مباشر من عدة أنواع من الرق بما في ذلك السُّخرة في أعمال الزراعة، والأعمال المنزلية، والعبودية بسبب الديون، بل وكانت تشجعها في بعض الأحيان. وكان رفض تسمية مثل هذه الممارسات عبودية لأنها لم تُماثل نَمَط العبودية في المزارع عبر الأطلنطي خطأ لغويًا فادحًا.

وعلى كل حال، كان البريطانيون يُجيدون بشكل مُذهّل وضع التناقضات في أذهانهم. كان السير وليم جونز من مناصري إلغاء العبودية. وفي الوقت عينه، تحدث عن منزله مُعترفًا: «أمتلك عبيدًا أنقذتهم من الموت والشقاء، لكنني أعتبرهم خدمًا».



تابعت فيكتوار: «لم تهتمي، بل لا تهتمين حتى أن صاحبة البيت لا تسمح لي باستخدام الحمام الداخلي».

«ماذا؟ هذا سخيف، كنت لألاحظ».

قالت فيكتوار: «كلا. لم تفعلي. ولم تفعلي إطلاقاً، وهذه هي المسألة. وها نحن نطلب منك أن تسمعي ما نحاول أن نخبرك إياه. صدّقينا أرجوك».

ظن روبين أن ليتي على وشك الانهيار، فقد نفدت حُجُجها وبدأت أشبه بمن حُوصِر في زاوية، لكن عينيها راحتا تتحركان في الاتجاهات كافة محاولة البحث عن مَهْرَب. كانت لتجد أي عُذْر واهٍ، وتقبل أي منطق مُعَقَّد بديل قبل أن تتخلّى عن أوهامها.

كان يعرف، إذ قد فعل الشيء نفسه منذ وقت قصير.

وبعد وقفة: «هناك حرب إذا؟ أنتم واثقون أن الحرب ستندلع».

تنهّد روبين وأجاب: «نعم يا ليتي».

«وهذا ما دبّرت به بابل تحديداً».

«يمكنك قراءة الخطابات بنفسك».

«وماذا ستفعل جمعية هرمس حيال ذلك؟».

أجاب روبين: «لا ندري، لكنهم الوحيدون الذين يمكنهم عمل شيء حيال الأمر. سوف نُعطيهم هذه الوثائق وسنخبرهم كل ما نعرفه».

فألحّت ليتي بالسؤال: «لكن لماذا؟ لماذا نُدخلهم؟ يجب أن نفعل هذا بأنفسنا. يجب أن نعمل منشورات، ونذهب للبرلمان - هناك آلاف الخيارات المتاحة بدلاً من اللجوء إلى... عصابة لصوص سرية. فمثل هذا المستوى من التواطؤ والفساد، لو عِلِمَ به الرأي العام، فلن يُناصره. أنا متأكدة. لكن العمل السري والسرقة من الجامعة لن تؤذي إلا قضيتكم، أليس كذلك؟ لِمَ لا نتّجه إلى العامة ببساطة؟».



ساد الصمت للحظة، إذ كان الجميع يتساءلون من سيُخبر ليتي أولاً.
فاضطلعت فيكتوار بالمهمة وقالت ببطء شديد: «أتساءل لو كنت قد قرأت
أدبيات مَحَو العبودية قبل أن يُجَرَّم البرلمان العبودية».
فتجهمت ليتي وأجابت: «لا أفهم كيف...».

قالت فيكتوار: «قَدِّمت جمعية الأصدقاء الدينية أول التماس مُناوئٍ
للعبودية للبرلمان عام 1783 ونشر إكوايانو مذكراته عام 1789. يُضاف
إلى هذا قصص العبيد التي لا تُحصى والتي لم ينفكَّ دعاة محو العبودية
يُقْصُونها على الجماهير البريطانية. إنها قصص أشنع العذابات وأكثرها
قسوة مما يُنزله الإنسان على أخيه الإنسان، ذلك أن حرمان ذوي البشرة
السوداء من حريتهم لم يكن كافياً. كانوا بحاجة لفهم مدى قسوتها. ورغم هذا،
استغرق الأمر عقوداً لتجريم التجارة. وهذه هي العبودية. ومقارنة بهذا، لن
تبدو حرب تُشنّ في كانتون على حقوق التجارة مهمة. ليس الأمر خيالياً،
ولا يوجد روائيون يُسَطِّرون ملاحم عن آثار إدمان الأفيون على الأسر
الصينية. لو صوّت البرلمان على إجبار موانئ كانتون على الفتح، سيبدو
الأمر كأنه تجارة حرة تعمل وفقاً لمقتضياتها. لا تقولي إذاً إنه لو عرف
الجمهور البريطاني، فسيفعل أي شيء».

قالت ليتي: «لكنها حرب. هذا مختلف بالتأكيد، وبالتأكيد سيثير غضباً...».
قال رامي: «ما لا تفهمينه هو كيف سيبرّر أمثالك لو كان هذا يعني أنهم
سيتناولون الشاي والقهوة على موائد الفطور. لن يهتموا يا ليتي، لن يهتموا
فحسب».

ظلت ليتي صامئة وقتاً طويلاً. بدت بائسة، ومصدومة، وضعيفة وكأن
أحدهم أخبرها بموت أحد أفراد أسرتها. ثم أطلقت تنهيدة طويلة مُرتجفة
ونظرت لكل منهم واحداً تلو الآخر وقالت: «فهمت لماذا لم تخبروني».

ردت فيكتوار بتردّد: «أوه يا ليتي». ثم مدّت يدها ووضعتها على كتف
ليتي وقالت: «لم يكن الأمر هكذا».



لكنها توقفت. كان من الواضح أن فيكتوار لم تجد ما تقوله لتطمئن ليتي. لم يكن هناك ما يُقال سوى الحقيقة والممثلة بالطبع في عدم تصديقهم لها، فرغم كل تاريخهم، وكل ما أعلنوا عنه من صداقة أبدية، لم يكونوا ليعلموا إلى أي جانب ستتحاز.

قالت فيكتوار بلطف وحزم في ذات الوقت: «لقد اتخذنا قرارنا. سنأخذ هذا إلى هرمس حالما نصل إلى أوكسفورد. ولست مضطرة للذهاب معنا. لا يمكننا إجبارك على تلك المخاطرة. نعلم أنك عانيت الكثير بالفعل. لكن، إن لم تكوني معنا، نطلب منك أن تحفظي سرنا على الأقل».

فصاحت ليتي: «ماذا تقصدين؟ أنا معكم بالطبع. أنتم أصدقائي، وسأكون معكم حتى النهاية».

ثم احتضنت فيكتوار وأجهشت بالبكاء، فتصلبت فيكتوار وهي مُتَحِيرَّة، ولكن سرعان ما رفعت ذراعيها بحرص واحتضنت ليتي بدورها.

قالت ليتي وهي تشهق: «آسفة، بل في غاية الأسف...».

راح رامي وروبين يرفُبان الموقف دون أن يفهما أي شيء. كان شخص آخر ليظن أن هذا تمثيلاً، بل شيئاً مثيراً للغثيان، لكنهم كانوا يعرفون أن ليتي لم تكن تتظاهر، ولم تكن لتُجبر على البكاء ولا تزييف الانفعالات الأساسية. كانت شديدة الصلابة والشفافية في ذات الوقت. كانوا يعرفون أنها لا تستطيع التصرف بطريقة عكس ما تشعر به.

لهذا بدا الأمر تطهيرياً، إذ رأوها تنهار بهذه الطريقة بعد أن عرفوا أنها فهمت مشاعرهم أخيراً. كان من المريح أن يجدوا لهم حليفاً.

مع ذلك، بدا أن هناك خطباً ما ولم يتبين روبين من وجهي فيكتوار ورامي أن هذا رأيهما أيضاً. استغرق الأمر لحظة ليدرك ما أثار استياءه، وحين فعل، كان ليظّل منزعاً. كان الأمر ليبدو شديد التناقض؛ ذلك أنه رغم كل ما أخبروا ليتي إياه، وكل ما شاركوه من ألم، كانت هي من يحتاج للمواساة.



الفصل الواحد والعشرون



يا أعمدة أوكسفورد الشاهقة، وقبابها وأبراجها، وحدائقها وغاباتها! إن حضورك يَغْلِبُ على رَجَاةِ العقل!

وليم ووردزورث

أوكسفورد، 30 مايو، 1820

سرعان ما تحولت عودتهم إلى أوكسفورد في صباح اليوم التالي إلى كوميديا من الأخطاء كان يمكن تجنب معظمها لو لم يكونوا بهذا الإرهاق، أو الجوع، أو التوتر بعضهم إزاء بعض كي يتواصلوا. كانت أموالهم مُوشِكة على النفاد، ومن ثم، أمضوا ساعة يتشاحنون حول ما إذا كان من الحكمة أن يقتضوا عربة السيدة كليمنز ليذهب إلى محطة بادينجتون حتى استسلموا واضطروا كارهين لدفع أجرة سيارة التاكسي. بيد أنه كان من الصعب العثور على سيارة أجرة في هامبستيد صباح أيام الأحاد، وهو ما كان يعني أنهم لم يصلوا إلى المحطة إلا بعد أن غادر القطار إلى أوكسفورد بعشر دقائق. وكان القطار التالي محجورًا بالكامل، والقطار الذي تلاه قد تأخر بسبب بقرة كانت تجول على القضبان. وكان هذا يعني أنهم لن يصلوا إلى أوكسفورد إلا بعد منتصف الليل.

لقد ضاع منهم يوم بأكمله.

أمضوا عدة ساعات في لندن منتقلين من مقهى إلى آخر كي لا يثيروا الشكوك، وقد صاروا أكثر توترًا وانزعاجًا بسبب الكميات المهولة من القهوة والحلوى التي راحوا يشترونها كي يبقوا على طاولاتهم أطول وقت ممكن.



وبين الحين والآخر، كان أحدهم يذكر الأستاذ لوفيل أو هرمس، فيُسكِته الباقون بعنف، إذ لم يعرفوا من عساه يستمع، وبدا الأمر كما لو كانت لندن بأسرها مملوءة بالمتنصّتين! كان من السيئ أن يُسكِت واحدٌ الآخر، لكن أحدًا منهم لم يكن لديه استعداد للرددشة، ومن ثم، لم يتجاذبوا أطراف الحديث أثناء جَرِّهم أمتعتهم إلى القطار المزدهم لاحقًا.

قضوا الرحلة في صمت مشوب بالاستياء. وقبل وصولهم إلى محطة أوكسفورد بعشر دقائق، جلست ليتي فجأة وراحت تتنفس بسرعة.

همست ليتي: «يا إلهي! يا إلهي! يا إلهي! يا إلهي!».

كانت تَجْذب الأنظار، ثم تشبّثت بكتف رامي تلمسًا للمواساة، لكن رامي أبعد ذراعه عن قبضتها وقال: «اخرسي يا ليتي».

كانت تلك قسوة، لكن روبين أبدى تعاطفًا. كانت ليتي تُثقل عليه أيضًا، وقضت معظم اليوم في ثُوبات هستيرية، ما جعله يضيق ذَرْعًا. ففكّر بِغَيْظ أن على ليتي أن تتحمّل، إذ كان الجميع مُنهَكين عصبياً. ومن فرط الذهول، صمتت ليتي.

وأخيرًا، وصل القطار إلى محطة أوكسفورد. فراحوا يجُرُّون حقائبهم بصعوبة فوق الرصيف المتعرّج وهم يتثاءبون ويرتجفون لمدة عشرين دقيقة هي زمن رحلة العودة إلى الكلية. وكانوا قد قرروا أن تسبقهم الفتاتان إلى كشك الحارس لاستدعاء سيارة أجرة. كان الظلام أشد كثافة من أن يقطعوا كل تلك المسافة إلى الشمال وحدهم. وفي النهاية، لآخت أمامهم واجهة كلية أوكسفورد الحجرية الصارمة من الظلام. وكان لرؤية ذلك المكان السحري المُدَنّس، والذي بدا رغم كل شيء كالوطن، أن ملأت روبين بحنين جارف.

فصاح بيلنجز، رئيس الحرس، وهو يُحرّك مصباحًا أمامه قائلاً: «مهلاً يا هذا!». ثم راح ينظر إليهم من أعلى إلى أسفل. ثم ما إن تعرّف عليهم حتى ابتسم لهم ابتسامة عريضة وقال: «وأخيرًا عُدْتم من الشرق!».



كان روبيين يتساءل كيف كانوا يَبْدُون في ضوء المصباح، كانوا مذعورين وفي ثياب رثة مُتعرِّقة. لا بد أن الإرهاق كان يبدو عليهم بجلاء، إذ كان تعبير وجه بيلنجز قد تحوّل إلى الشفقة وقال: «أيها المساكين». ثم استدار وأشار لهم بأن يتبعوه قائلًا: «تعالوا معي».

وبعد مرور خمس عشرة دقيقة، كانوا يجلسون حول طاولة في الردهة مُتكورين فوق فناجين شاي أسود قوي، وكان بيلنجز يتنقّل في المطبخ بعصبية. كانوا قد أعربوا عن احتجاجهم بأنهم لم يرغبوا في أن يُتعبوه، لكنه أصرّ على إعداد وجبة إفطار إنجليزية كاملة لهم. وسرعان ما برز حاملاً أطباقًا تحتوي على بيض، ونقانق، وبطاطس، وخبز ساخن.

ثم وضع أمامهم أربعة أكواب وقال: «وها هو شيء يرفع من روحكم المعنوية: بعض الماء والشراب القوي فحسب. لستم أول طلاب بابل الذين أراهم عائدين من الخارج. وكان هذا يَفي بالغرض دائمًا».

ذكّرتهم رائحة الطعام بجوعهم الشديد، فانقضّوا على الطعام كالذئاب، وراحوا يُمضغُونه بصمت محموم، في حين راح بيلنجز يراقبهم بسُرور.

ثم قال: «قُصّوا عليّ رحلتكم المُثيرة إذا، ألم تكن كانتون وموريشيوس؟ هل قدّموا لكم أي أطعمة غريبة؟ هل شاهدتم أي احتفالات محلية؟».

فنظروا بعضهم إلى بعض وهم لا يدرون بِمَ يُجيبون. بدأت ليتي تبكي.

فقرب بيلنجز منها كوب الشراب وقال: «أوه اهدئي. لا يمكن أنها كانت بهذا السوء».

هزّت ليتي رأسها وحاولت كَبْح انفعالها، لكن صوت نحيب صدر عنها. لم تكن مجرد شهقة، بل بكاء قوي صاخب. ضمّت ليتي يديها فوق وجهها وانخرطت في بكاء مُرّ وكفّاهها ترتجّان وكلمات غير مُترابطة تتسرّب من بين شفّتيها.

قالت فيكتوار ببطء: «كانت تشعر بحنين للوطن، آه، كانت تشعر بحنين جارف للوطن».



مدّ بيلنجز يده وراح يربت كتفها وقال: «لا بأس يا بُنيتي. ها قد عُدتِ إلى الوطن سالمة».

وهنا، خرج لإيقاظ السائق. وبعد مرور عشر دقائق، وصلت عربة أجرة إلى الردهة، وأفتتبت الفتاتان إلى مسكنهما. أما روبين ورامي، فَجَرَا حقائبهما إلى ماجباي لين وودّعا بعضهما. شعر روبين بقلق لحظي حين غادره رامي إلى غرفته، فقد اعتاد صُحبة رامي طوال ليالي الرحلة، وكان يشعر بخوف من الوحدة لأول مرة منذ أسابيع، إذ لم يكن بصُحبة صوت يخفف من ثقل ظلمة الليل.

لكن، حين أغلق عينيه وبابه، فوجئ بأنه شعر بأن كل شيء طبيعي. كان مكتبه، وسريره، وأرفف الكتب كما قد تركها. لم يتغيّر أي شيء. كانت ترجمة شانهايجانج التي كان يعمل عليها مع الأستاذ شاكرافارتي على مكتبه شبه مكتملة في منتصف إحدى الجُمَل. لا بد أن الكشف كانوا قد دخلوا مؤخرًا، إذ لم تكن أي ذرّة تُراب في الغرفة. وإذ جلس على فراشه غير المستوي وتنفس الهواء المألوف واستنشق رائحة الكتب القديمة والعَفْن، شعر روبين بأنه لو رقد وأغلق عينيه، قد ينهض في الصباح ويتجه إلى قاعة الدرس كأن شيئًا لم يكن.

ثم استيقظ ليرى رامي واقفًا بجواره، فانتنفض واقفًا وقال: «رباه، لا تفعل هذا».

فناولته رامي كوبًا وقال: «يجب أن تُغلق غرفتك، بعد أن صرنا - كما تعلم - أتريد الشاي؟».

فأمسك الكوب بيديه وراح يرتشف قائلًا: «شكرًا». كان مزيجهما المُفضَّل من شاي أسام الداكن الغني القوي. وللحظة واحدة هانئة، تدفق شعاع الشمس من النافذة وراحت الطيور تُغرّد بصوت رقيق بالخارج، وأضحى كل ما حدث بكانتون حُلْمًا مخيفًا وغاصت ذكراه الباردة المزعجة. فتنهّد روبين وسأل: «ماذا يحدث؟».



أجاب رامي: «أنت الفتاتان، وحن وقت الاستيقاظ».

«هنا؟».

«بل في صالوني. هَلُمَّ».

غسل روبين وجهه وارتنى ملابسه. كانت ليتي وفكتور تجلسان مُتَكَوِّرَتَيْن في الجانب الآخر من الردهة على أريكة رامي. وكان رامي يُقَدِّم الشاي، وفطائر في كيس من القماش الخشن، وحليب مُكَنَّف في إناء صغير.

«هذا فطوركم، فقد ظننت أن أحداً لن يرغب في الذهاب إلى القاعة».

قالت فيكتور بدهشة: «هذه جيدة جداً، من أين...».

«من فولنس، قبل أن يفتح. يبيع هذا المتجر فطائر الأمس بسعر أقل».

لم يكن رامي يملك سكيناً، فغمس فطيرته في الحليب مباشرة وقال: «أليست طيبة؟».

جلس روبين قُبالة الفتيات وقال: «هل نمتما جيداً؟».

أجابت ليتي: «كل شيء على ما يرام كما هو مُتَوَقَّع. انتابني شعور غريب حين عُدت».

قالت فيكتور مؤيِّدة: «هذا مُريح للغاية. يبدو أن العالم يجب أن يختلف، لكنه... لم يحدث».

كان هذا هو شعور روبين أيضاً. كان من الخطأ أن يعود لوسائل راحته ويجلس على أريكة رامي ليتناولوا فطائرهم المفضلة التي اشتروها من مقهاهم المفضل. لم يكن يشعر بأن وضعهم مُتماشٍ مع المخاطر، بل بدت المخاطر كأنها تتطلب عالماً على صفيح ساخن!

فاتخذ رامي مقعداً بجوار روبين وقال: «اسمعوا إذاً. يجب ألا ننتظر. كل ثانية تمرّ هي ثانية حُرّية، ومن ثم، يجب استغلالها. يجب أن نَعْتُر على هرمس يا بيردي. كيف تتواصل مع جريفين؟».



قال روبين: «لا أستطيع. كان جريفيْن مُتَعَيَّنًا في هذا الشأن. كان يعرف كيف يَعْتَر عليّ، لكنني لم أملك أي طريقة للوصول إليه. كانت الأمور تسير هكذا دائماً».

ردت فيكتوار: «كان أنطوني يتعامل بالأسلوب نفسه، فرغم... لقد أرانا عدة نقاط تسليم وأماكن نترك له فيها الأشياء. هَبْ أننا نذهب ونترك رسائل هناك...».

فاستقهمت ليتي: «لكن، كيف عساه يتحقّق منها؟ هل سيتحقّق ما لم يكن يتوقع أي شيء؟».

أجابت فيكتوار بإحباط: «لا أدري. لكنه خيارنا الوحيد».

قال روبين: «أعتقد أنهم سيبحثون عنا. فبعد ليلة القبض علينا - أقصد، ثمّة كثير من الأمور الغامضة، وأظنهم سيرغبون في التواصل معنا بعد أن عُذْنَا».

تبَيَّن له من تعبيرات وجوههم أن هذا لم يكن أمراً مُطمئناً. كانت هرمس مُتَقَلِّبة ولا يمكن التنبؤ بها. قد تأتي هرمس وتطرُق بابك بعد ساعة أو قد تُلَوِّذ بالصمت لمدة ستة أشهر.

فسأل رامي بعد بُرْهة: «كم تبقى لنا من الوقت على أية حال؟ أعني كم يتبقى لنا حتى يلاحظوا غياب ريتشارد؟».

لم يكن أحد ليعرف بالتأكيد، فلم يكن الفصل الدراسي ليبدأ بعد أسبوع وهو وقت سيثير فيه عدم عودة الأستاذ لوفيل للتدريس الشكوك. لكن، ماذا لو كان باقي الأساتذة ينتظرون عودتهم كلهم في وقت مُبكر؟

فسألت ليتي: «حسناً، من يتواصل معه بشكل منتظم؟ يجب أن نحكي لأعضاء هيئة التدريس قصة معينة...».

فرد روبين: «وكذلك السيدة بايير مديرة منزله في جبريكو، فسوف تتساءل أين هو. يجب أن أُمّر عليها أيضاً».



قالت فيكتور: «هاكم فكرة. يمكننا الذهاب إلى مكتبه والبحث في مراسلاته والتأكد ما إذا كان لديه أي مواعيد أو حتى اختراع بعض الردود التي تساعدنا على كَسْب بعض الوقت».

ردت ليتي: «توضيحًا للأمور، أعتقدين أنه يجب علينا اقتحام مكتب شخص أخفينا مقتلته والنَّبش في أغراضه ونحن نرجو ألا يقبض أحد علينا؟». فأوضحت فيكتور: «سنفعل هذا الآن بينما يجهل الجميع أننا فعلناها».

فرفعت ليتي نبرة صوتها وقالت: «كيف تعرفين أنهم لا يعرفون بالفعل؟ كيف لا تعرفين أننا لن يُقبَض علينا لحظة دخولنا البرج؟».

فهمهم روبين: «رباه!». فجأة بدا انخراطهم في هذا النقاش، بل وجودهم في أوكسفورد من الأساس، أمرًا عبيثًا. ثم أردف: «لماذا عُذنا؟».

فقال رامي فجأة: «يجب أن نذهب إلى كالكوتا. هيا لنهرب إلى ليفربول، ومن هناك نحجز رحلة...».

فسألت ليتي بامتعاض: «لماذا كالكوتا؟».

«المكان هناك آمن، وسوف يحميننا والداي، وتوجد مساحة في العليّة....».

«لن أقضي بقية حياتي مختبئة في عليّة والديك!».

«قد يكون وضعًا مؤقتًا فحسب...».

قاطعت فيكتور بصوت قلما كان يرتفع: «ليهدأ الجميع». فلاذ الجميع بالصمت، ثم تابعت: «يُشبه الأمر مهمة، هل تفهمين؟ نحتاج لخطّة فحسب. يجب أن نقسم الأمر إلى أجزاء صغيرة وننتهي منها، وسيكون كل شيء على ما يرام». ثم رفعت أصبعيها وقالت: «كما هو واضح، فإن هناك مهمتين يجب أن نُؤدِّيَهما. أولاً، يجب أن نتواصل مع جمعية هرمس. ثانيًا، يجب أن نجمع ما نستطيع من معلومات، حتى إذا وصلنا إلى هرمس، يتمكنون من عمل شيء إزاء هذا الوضع».

قالت ليتي: «نسيت المهمة الثالثة. يجب ألا يُلقى القبض علينا».



«حسنًا، هذا غنيّ عن البيان».

استفهم رامي: «إلى أي مدى نحن مكشوفون؟ أعني، لو فكّرتم في الأمر، لوجدتم أننا أكثر أمانًا هنا من السفينة، فالجُثث لا تتحدث، ولن تطفو على سطح الماء في أي مكان. يبدو لي أنه لو أُلذنا بالصمت لصِرنا على ما يرام، أليس كذلك؟».

أجابت ليتي: «لكنهم سيبدوون في طرح الأسئلة. أعني، في لحظة ما، سيلحظ أحدهم عدم رد الأستاذ لوفيل على أي خطابات».

قالت فيكتوار: «إذًا، سنستمر في قول الشيء نفسه. إنه قابع في منزله في حالة مرضيّة شديدة، ومن ثم، لا يَرُدّ على أي خطابات ولا يستقبل أي زائرين، وقد طلب منا العودة من دُونه. هذه هي المسألة برمتها. بسّطوا الأمور ولا تخوضوا في التفاصيل الدقيقة. فلو قصصنا الرواية نفسها، فلن يشكّ أحد. ولو بدا علينا الانزعاج، لفهم الناس أننا قَلِقون على أستاذنا العزيز، أليس كذلك؟».

لم يحتجّ أحد على ما قالته، بل كان الجميع مُعلّقين على كل كلمة تتفوّه بها. وهنا توقف العالم عن الدوران خارج نطاق سيطرتهم، وكان كل ما يهمهم هو كلمات فيكتوار التالية.

تابعت فيكتوار: «أعتقد أنه كلما جلسنا مَكثوفي الأيدي وتوحّينا الحذر، أثرنا مزيدًا من الشك. يجب أن نختبئ بعيدًا عن الأنظار، فنحن طلاب في بابل، ونحن مشغولون، بل نحن طلاب في السنة الرابعة ونكاد نفقد صوابنا من كثرة المهام الموكلة إلينا. يجب ألا نتظاهر بعدم التوتر، فالطلاب دائمو التوتر، لكن ما يجب أن نتظاهر به هو أننا مُتوتّرون لأسباب وجيهة».

كان هذا منطقيًا للغاية.

فأشارت فيكتوار إلى روبين وقالت: «تعامل مع مديرة المنزل، ثم اذهب واجلب مراسلات الأستاذ لوفيل، وسأذهب مع رامي إلى نقاط الالتقاء بأنطوني ونترك أكبر عدد ممكن من الرسائل المُشفّرة. أما عنك يا ليتي،



فسوف تلتزمين بروتينك اليومي وتُعطين انطباعاً بأن كل شيء على خير ما يرام. ولو سألكِ الناس عن كانتون، ابدئي في سرد قصة مرض الأستاذ. سنعود الليلة ونتقابل هنا طالبين من الله ألا يحدث أي خَطْب». ثم تنفست بعمق وتلقّنت حولها وهي تُوميء وكأنها تُحاول إقناع نفسها. «سوف نجتاز هذا بنجاح، أليس كذلك؟ لن نفقد صوابنا».

لكن، فيما يتعلق بالمسألة الأخيرة، رأى روبين أنها مسألة محسومة. تفرّقوا تاركين ماجباي لين واحداً تلو الآخر. كان روبين يرجو ألا تكون السيدة بايبر بالمنزل في جيريكو وأن تكون قد غادرت تاركة رسالة في صندوق البريد، لكن ما إن طرق الباب حتى فتحته بابتسامة عريضة وهي تقول: «عزيزي روبين!».

ثم احتضنته بقوة. كانت رائحتها تنضح بالخبز الساخن، ما أثار أعصاب روبين وكادت عيناه تدمعان، فابتعد ودعك أنفه محاولاً التظاهر بأنه يعطس. فرَبَّتت وجنتيه وقالت: «تبدو نَحِيلاً. ألم يُطعموكم في كانتون، أم لعلك فقدت الشهية في الطعام الصيني؟».

أجابها بوهن: «كانت كانتون جيدة، لكن الطعام في الرحلة كان قليلاً». «يا للعار! ما زلت صغاراً». ثم تراجعت وتلقّنت حولها وسألته: «هل عاد الأستاذ كذلك؟».

فقال روبين بصوت مُرتعش: «سيتأخر قليلاً». ثم تتحنح وحاول مُجدّداً. لم يسبق له الكذب على السيدة بايبر، وكان الأمر أسوأ مما توقع. «حسناً. لقد انتابه مَرَض شديد في رحلة العودة».

«يا إلهي! حقاً؟».

«ولم يشعر بأنه يستطيع تحمّل رحلة العودة إلى أوكسفورد، وكان قَلِلاً بشأن نشر العدوى، ومن ثم، فقد عَزَل نفسه في هامبستيد».



فأجابت السيدة بايير بقلق: «هل هو وحده تمامًا؟ يا لحماقته! كان يجب أن يكتئب لي. يجب أن أتجه إليه فورًا. يعلم الله أن الرجل لا يستطيع ولا حتى إعداد الشاي لنفسه».

فقال روبين دون تفكير: «لا أرجوك. أعني إن مرضه مُعَدٍ وينتشر في ذرات الهواء حين يَعْطُس أو يَسْغُل. لم نستطع حتى البقاء معه في المقصورة نفسها بالسفينة. يُحاول الإقلال من المقابلات. لكنه في أيِّ أمينة. لقد أحضرنا طبيبًا ليفحصه».

«أي طبيب؟ سميث أم هاستنجز؟».

حاول أن يتذكر اسم الطبيب الذي أتى لعلاجِه حين أُصيب بالإنفلونزا وهو طفل وقال: «إممم - هاستنجز».

قالت السيدة بايير: «جيد. لطالما اعتقدت أن سميث دَجَّال. أُصِبت بِحُمَّى مريعة منذ عدة سنوات، وشَخَّص المرض بأنه نوبة هستيرية. نوبة هستيرية! كنت أتقيأ كل ما أكله، وظن أنني أظاهر بكل شيء».

التقط روبين نَفْسًا عميقًا وقال: «أنا متأكد أن هاستنجز سيعتني به جيدًا». فابتسمت السيدة بايير ابتسامة عريضة حين قال روبين: «أوه! سيأتي مُطالبًا ببطائره في نهاية الأسبوع». كان الأمر برُمته زَيِّفًا مُبِينًا، لكنها لم تلاحظ أي شيء.

لكنها بدت مُصرَّة على رفع معنوياته، فقالت: «حسنًا، أستطيع الاعتناء بك على الأقل. هَلَّا أعددت لك الغداء؟».

فقال بسرعة: «أوه! كلا، لا يمكنني البقاء هنا. يجب أن أُسرِع وأُخبر باقي الأساتذة، فلا يعرفون بعد».

«ألن تبقى ولو حتى لتناول الشاي؟».

كان يريد ذلك، بل كان يريد بشدة أن يجلس إليها ويستمع إلى حكايتها المُتَشَعِّبة ويشعر، ولو للحظة قصيرة، بهدوء، ودفع، وأمان طفولته. لكنه



كان يعلم أنه لن يَصُدَّ لخمس دقائق، ناهيك بالوقت الذي سيستغرقه صَبُّ، ونقع، ورشف فنجان شاي دارجيلينج. فلو بقي، ولو دَلَفَ إلى ذلك المنزل، لانهار تمامًا.

فراحت السيدة بايبر تُدَقِّق النظر في وجهه بَقْلَق وقالت: «روبين؟ تبدو في غاية الانزعاج يا عزيزي».

وهنا اغرورقت عيناه بالدموع والتي لم يستطع كَبْحها وقال: «الأمر فحسب...» ثم قال بصوت مُتَهَدِّج: «أنا في غاية الخوف».

فاحتضنته وقالت: «يا للهول!». احتضنها روبين بدوره وكَتَفَاه ترتعشان بسبب كتمه بكاءه، فقد لاحظ لأول مرة أنه قد لا يراها بعد الآن، بل لم يُخَصِّصْ ولو ثانية واحدة ليفكِّر فيما قد يحدث لها حين يُعرف أن الأستاذ لوفيل قد مات.

ثم ابتعد خطوة للخلف وقال: «كنت أتساءل يا سيدة بايبر...» كان يشعر بالذنب. «هل أنت... هل لك عائلة أو أي مكان آخر تذهبين إليه؟».

بدا عليها الارتباك وقالت: «ماذا تقصد؟».

أجاب روبين: «لو لم يعيش الأستاذ لوفيل. كنت أتساءل... لو لم ينجُ، فلعلَّك...»

«أوه! يا ولدي العزيز!» ابتَلَّت عيناه بالدموع. «لا تقلق بشأنني. لدي أخ وابنة أخ في أدنبرة، ليست العلاقة طَيِّبة بينهما، لكن عليهما إيوائي لو طرقت بابهما. لكن الأمور لن تَصِلَ إلى هذا. لقد أُصِيب ريتشارد بالعديد من الأمراض الغريبة من قبل وسيعود لتناول العشاء معك كل شهر في القريب العاجل، وسأصنع لكما إوزة مشويّة حين يعود». ثم ضغطت على كتفيه وقالت: «رَكِّزْ على دراستك فحسب، اتفقنا؟ فَمْ بعمل جيد ولا تقلق بشأن الأمور الباقية».

لم يكن ليراها بعد تلك المرة. كان هذا هو الأمر المؤكَّد مهما حدث. ثَبَّتْ روبين عينيه على ابتسامتها الرقيقة مُحاولاً حِفْظ هذه اللحظة في ذاكرته



وقال: «سأبذل فُصارى جهدي يا سيدة بابير. إلى اللقاء». كان عليه تهدئة نفسه للحظة في الشارع قبل أن يستجمع شجاعته وينطلق قاصداً البرج.

كانت مكاتب أعضاء هيئة التدريس في الدور السابع. انتظر روبين في درج السلم ريثما تأكد من خلو الممر ثم انطلق ووضع مفتاح الأستاذ لوفيل في القفل. لم تكن المراسلات في المكتب تختلف عما وجدوه في هامبستيد. كان هناك خطابات موجّهة إلى جاردين، وماتيسون، وجوتسلاف، وغيرهم حول خُطط الحرب والغزو المرتقب، راح يقلب في كومة وحشرها في سترته. لم يكن لديه أدنى فكرة عما قد تفعله همرس بها، لكنه اعتقد أن بعض الأدلة خير من عدمها.

وما إن أغلق الباب وراءه حتى سمع أصواتاً تصدر عن مكتب الأستاذ بلاي فير. كان الأول لامرأة تسأل بصوت مرتفع: «لقد فوّت ثلاث دفعات متتالية وفقدت الاتصال به قبل أشهر...».

قال الأستاذ بلاي فير: «ريتشارد مشغول جداً، وما زال بالخارج في الرحلة السنوية لطلاب السنة الرابعة وأنا واثق أنه أخبرك...».

ردت المرأة: «لا، لم يفعل، فهو كَثُوم جداً في هذه الأمور، ولا نعرف إلى أين يذهب، إذ لا يرسل خطابات ولا حتى برقيات، ولا يرسل شيئاً للأطفال. لقد بدأوا ينسون أن لهم أباً».

تسلل روبين إلى الركن الآخر من الممر وقلبه يخفق بشدة. بيد أنه ظل في مرمى السمع. كان الدرج على بعد بضع أقدام. فلو انفتح الباب، لاستطاع الهرب للدور السادس قبل أن يراه أحد.

قال الأستاذ بلاي فير بحرج: «آه! لا بد أن هذا في غاية الصعوبة. لكن، يجب أن أقول لك إنه موضوع لا أكثر التحدث فيه مع ريتشارد. ومن الأفضل أن تتكلمي معه بشكل مباشر فيه».

«متى تتوقع عودته؟».



«الأسبوع المقبل، رغم أنني سمعت بحدوث بعض المشكلات في كانتون، ومن ثم، قد يكون قبلها ببضعة أيام. لكنني لا أعرف يا سيدة لوفيل. سأرسل لك خطابًا لو سمعنا أي شيء، لكننا لا نعلم أكثر مما تعلمينه الآن».

انفتح الباب، فتأهب روبين للهروب، لكن ثمة فضولًا بالغًا أبقاها مُتسمِّرًا في مكانه. فاختلس النظر من الركن، إذ أراد بالتأكيد أن يرى ويعرف.

كانت امرأة طويلة نحيلة ذات شعر خطَّه الشيب تتقدم نحو الممر ومعها طفلان صغيران. كانت الكبرى فتاة في نحو العاشرة من عمرها، وبدا بوضوح أنها كانت تبكي. بيد أنها كانت تكبح شهقاتها بإحدى قبضات يديها وتمسك بيد أمها بالأخرى. أما الطفل الأصغر، كان في الخامسة أو السادسة من عمره، وراح يتعثّر أثناء خروجه إلى الممر أثناء توديع السيدة لوفيل الأستاذ بلاي فير.

انحشرت أنفاس روبين في حلقه، ووجد نفسه يميل أكثر نحو الممر غير قادر على إبعاد نظره. كان الولد شديد الشبه به وبجريفين. فلَوْن عينيه بُني فاتح وشعره باللون الداكن نفسه، لكنه كان أكثر تجعدًا من شعر أخويه.

نظر الطفل في عيني روبين ثم نطق بصوت عالٍ واضح: «أبي» وهو ما أصاب روبين بالهلع.

فاستدار روبين وهرب.

واصلت السيدة لوفيل المشي نحو الدرج وقالت: «ماذا حدث؟ ماذا قلت يا ديك؟».

أجاب ابن الأستاذ لوفيل قائلاً شيئًا ما بصوت مُتلعثم، لكن روبين كان قد انطلق هابطًا الدرج بسرعة شديدة، فلم يسمع.

قال رامي: «تَبًّا! لم أكن أعلم أن الأستاذ لوفيل له أسرة».

«أخبرتكَ بأن له أملاكًا في يوركشير».



رد رامي: «ظننتك تختلق تلك القصة. لم أره يأخذ إجازة ولا مرة. ليس رب أسرة، فكيف عساه بقي فترة تسمح له بإنجاب أطفال؟».

قال روبين: «تتمثل المشكلة في وجودهم وقلقهم. ويبدو أنه فوّت مدفوعات لأملاكه، وقد صار بلاي فير على علم بحدوث خُطب ما».

فسألت فيكتوار: «هب أننا سدناها؟ ماذا لو زوّرنا توقيعه وأرسلنا المال بأنفسنا؟ كم يتطلب الإنفاق على منزل لمدة شهر؟».

فكرت ليتي للحظة، ثم قالت: «لو اقتصر الأمر على ثلاثتهم، لكان المبلغ عشرة جنيهات فحسب».

تغير لون وجه فيكتوار، وتنهد رامي وراح يذلك صُدغيه، ومد روبين يده ليصب لنفسه كأسًا من الشراب.

في تلك الليلة، كان المزاج العام كئيبيًا، فلم يأتِ اليوم بجديد عدا كومة الخطابات التي وجدها روبين في مكتب الأستاذ لوفيل. ظلت جمعية هرمس صامتة ونافذة روبين خالية. كان رامي وفيكتوار قد ذهبا إلى نقاط مراسلات أنطوني القديمة المُمثلة في قالب طوب مَخْلُوع وراء دار العبادة، ومقعد خفي في حديقة بوتانيك، وقارب ذي مجداف مقلوب على ضفة نهر تشيرويل، لكن لم تظهر أمارات زيارة حديثة على أي منها، بل إنهما سارا ذهابًا وإيابًا أمام مقهى تويستد روت لأكثر من ساعة على أمل أن يَلْمَحهم جريفين، لكنهم لم يفلحوا سوى في جذب انتباه أصحاب المقهى.

لم يقع أي أمر كارثي على الأقل، فلا انهيارات ولا لقاءات خطيرة مع شرطة أوكسفورد. كانت ليتي قد بدأت تتنفس بسرعة مجددًا في المقصف أثناء الغداء، أو لعل هذا ما سمع روبين عنه. لكن فيكتوار ضربتها على ظهرها وتظاهرت أن ثمرة عنب قد وقفت في حلقها. (راح روبين يفكر بشكل خالٍ من الكياسة أن ليتي لم تكن تدعم القضايا النسوية بأن النسوة ليست كائنات متوترة ضئيلة العقل).



لعلهم كانوا آمنين، على الأقل في تلك الفترة. بيد أنهم لم يستطيعوا منع أنفسهم من الشعور بأنهم أهداف سهلة. كان الوقت يداهمهم، وكان الشك يساور الكثيرين، ولم يكن الحظ ليظل حليفاً لهم للأبد. لكن، إلى أين كانوا ليذهبوا؟ لو هربوا، ما وجدتهم جمعية هرمس. لقد كانوا مُحاصرين بالالتزام. قال رامي: «تبّاً!». كان يقلب كومة مراسلات أخذها من صناديق بريدهم، وراح يفرز المنشورات غير ذات القيمة عن الأشياء المهمة وتابع: «لقد نسيت».

ثم لَوَّح لهم بدعوة سميكة بلون الكريم وقال: «حفل هيئة التدريس. سيقام الحفل للعين يوم الجمعة».

رد روبين: «سنذهب بالتأكيد».

قال رامي: «لا يمكننا الذهاب، إنه حفل هيئة التدريس».

في كل عام قبيل الفصل الدراسي هيلاري، كان المعهد الملكي للترجمة يقيم حفلاً في حديقة الكلية لهيئة التدريس، والطلاب، والخريجين من زملاء المعهد.

كانوا قد حضروا ثلاثة حفلات. كانت فعاليات طويلة وغير مهمة تماماً كباقي فعاليات أو كسفورد. كان الطعام مقبولاً إلى حد ما والخطب طويلة. ولم يستوعب روبين سبب مبالغة رامي في وصف الأمر.

قالت فيكتوار: «وماذا بعد؟».

أجاب رامي: «يجب أن يذهب الجميع، فهذا إجباري. يعلم الجميع أننا قد عدنا. لقد قابلنا الأستاذة كرافت مصادفة خارج راد كام هذا الصباح ورأى أناس كثيرون ليتي في المقصف هذا الصباح. يجب أن نحافظ على المظاهر».

لم يستطع روبين أن يتخيل أي شيء أكثر رعباً من تناول فاتح الشهية بصحبة أعضاء هيئة تدريس بابل.



فسألته فيكتوار: «هل جُننت؟ هذه الأشياء لا نهاية لها. لن ننجح في ذلك».

قال رامي: «ليس هذا سوى حفل».

«ثلاث وجبات، وشراب، وخطب؟ لا تكاد ليّتي تحتفظ برباطة جأشها في الأحوال العادية، فهل تريد أن تضعها بجوار كرافت وبلاي فير متوقعًا منها أن تتحدث عن الوقت الرائع الذي قضيناه في كانتون لأكثر من ثلاث ساعات؟».

قالت ليّتي بصوت واهن لا يقنع أي شخص: «سأكون بخير».

«سوف يطرحون أسئلة لو لم يجدونا هناك».

«ألن يطرحوا أسئلة حين تتقيأ ليّتي في جميع أركان الغرفة الرئيسية؟».

أجاب رامي: «يمكنها التظاهر بأنها مصابة بتسمم غذائي، بل يمكننا جميعًا التظاهر بأنها كانت مريضة منذ الصباح، وهو ما يفسر شحوب وجهها وتعرقها وإصابتها بإغماء في المقصف. لكن هل يمكنك الاحتجاج بأن هذا أكثر إثارة للشك من غيابنا نحن الأربعة؟».

نظر روبين إلى فيكتوار راجيًا أن يكون لديها حجة مضادة، لكنها كانت تنظر إليه متوقعة الشيء نفسه.

قال رامي بحزم: «سيوفر لنا الحفل وقتًا. لو نجحنا في ألا نبذو كمجانين، سوف نعطي أنفسنا مزيدًا من الوقت. هذا ما في الأمر. إنه مزيد من الوقت، فهذا هو العامل الوحيد المهم».

كان جو يوم الجمعة حارًا بالنسبة لذاك الوقت من السنة. بدأ اليوم بصباح بارد يليق بشهر يناير، لكن قبيل منتصف فترة بعد الظهر، صارت الشمس تلمع بقوة وارتفعت درجة الحرارة. كان الجميع قد بلغوا في تقدير برودة الجو حين شرعوا في ارتداء ملابسهم، لكن حين بلغوا الفناء، لم يستطيعوا خلع قمصانهم الصوفية الداخلية، ما كان يعني أنه لم يكن أمامهم سوى التعرق.



كان حفل الحديقة في تلك السنة هو الأكثر بهرجة في تاريخ بابل. كانت الكلية تسبح في بحر من النقود بعد زيارة رئيس المجمع الديني الروسي ألكسندر للجامعة في مايو الماضي. كان رئيس المجمع الديني الذي بلغ به الإعجاب بذكاء ومهارة مترجميه الفوريين أثناء استقباله قد أهدى بابل ألف جنيه منحة تمويل مرن. وقد استخدم الأساتذة المبلغ في الإنفاق ببذخ، إن لم يكن استخدامًا غير رشيد. كانت آلة رباعية الأوتار تعزف لحناً صاخباً في وسط الساحة، لكن الجميع ابتعدوا لأن الصخب جعل المحادثة مستحيلة. وكان هناك نحو ستة طواويس جُلبت من حديقة حيوان لندن تُصُول وتُجول حول المرج مضايقة كل من يرتدي ألواناً زاهية. واحتلت ثلاث طاولات مُخَيمة عليها طعام وشراب وسط المرج، تضمنت الأطعمة المقدمة شطائر وفطائر صغيرة، وتشكيلة غريبة من الشكولاتة وسبع نكهات مختلفة من الآيس كريم.

راح باحثو بابل يجولون حاملين أكواباً من الشراب التي سرعان ما ارتفعت حرارتها، مُخرطين في أحاديث تافهة يشوبها الفتور. ومثل جميع كليات أوكسفورد، كان معهد الترجمة مملوءاً بمنافسات داخلية وأحقاد حول التمويل والتعيينات والتي تعد مشكلات فاقمها اعتقاد كل اختصاصي إقليمي أن لغته أغنى، وأكثر شعرية، وأكثر أدبية وخصوبة في أعمال الفضة من غيرها. كانت تحيزات أقسام بابل اعتباطية ومربكة. وكان الرومانسيون يحتلون مكانة أدبية مرموقة* رغم أن اللغة العربية والصينية كانتا مُثَمَّنَتَيْن بشكل كبير بحكم الاختلاف وشدة الغرابة، في حين لم تحظ اللغات الأقرب للغة الأم، مثل الغيلية والويلزية بالتقدير نفسه. جعل هذا أقل المحادثات شديدة الخطورة، إذ كان من السهل أن يضايق المرء أحدهم لو أبدى الكثير أو القليل

* لطالما خسر علماء اللغة الألمانية أمام الرومانسيين في المناظرات اللفظية، إذ كان عليهم التعامل مع سماع انتقادات مليكم عاهل بروسيا فريدريك الثاني لهم. كان فريدريك شديد الخوف من الهيمنة الأدبية الفرنسية، ما جعله يكتب مقالاً عام 1870 ينتقد فيه لغة أبناء بلاده الألمان التي اعتبرها أقرب للهمجية، وعدم التهذيب، والافتقار للوقع المريح على الأذن. ثم اقترح تحسين صوتيات اللغة الألمانية بإضافة الحرف المتحرك ð للمقطع النهائي لعدة أفعال كي يتشابه نطقها أكثر مع الإيطالية.



من الحماس لبحثه. في تلك الأثناء كان مدير الكلية الدكتور فريدريك تشارلز بلامتر يتجول، وكان من المفترض أنه سيتعين على كل منهم مصافحته في لحظة ما، والتظاهر بأنه يتذكرهم، في حين لم يكن لديه أدنى فكرة عن أسمائهم، وتَحْمُلُ محادثة شديدة السخافة حول مواطنهم وتخصصهم الدراسي قبل أن يدعهم وشأنهم.

استمرت تلك المراسم لمدة ثلاث ساعات لا تُطاق، إذ لم يكن مسموحًا بالمغادرة قبل انتهاء المأدبة. كانت خرائط الجلوس قد رُسمت، ومن ثم، كان غيابهم ليلاحظ. كان عليهم البقاء حتى غروب الشمس بعد أن يشربوا جميع الأنخاب وينتهي جميع الباحثين الموجودين من التظاهر بأنهم قد استمتعوا بالتفاعل الاجتماعي طوال الوقت.

تلقت روبين حوله وراح يقول في نفسه: «هذه كارثة». كان من الأفضل ألا يأتوا، فلم يكن أي منهم في حالة نفسية جيدة. راح يراقب أحد الخريجين وهو يطرح على فيكتوار سؤالاً ثلاث مرات دون أن تتبين وجوده. أما ليتي، فكانت تقف في ركن وهي تشرب كوبًا تلو الآخر من الماء البارد والعرق يتصبب من جبينها. كان رامي أحسن حالًا، إذ احتشدت حوله مجموعة من طلاب السنة الأولى وراحوا يُمطرونه بأسئلة عن رحلته. وأثناء مرور روبين بجواره، سمع رامي ينفجر في نوبة ضحك هستيري متواصل جعلته يجفل من شدة الذعر.

شعر روبين بالدوار وهو يرقب المرح المزدهم. كان يرى أنه من ضرور الجنون أن يقف بين أعضاء هيئة التدريس ممسكًا بكأس شراب مخفيًا حقيقة كونه قتل واحدًا منهم. راح يسير ببطء نحو طاولات الطعام، وملاً طبقًا صغيرًا بالمشهيات كي يجد شيئًا بسيطًا يفعله، لكن فكرة وضع أي من الفطائر السريعة في فمه كانت تشعره بالغثيان.

«هل أنت بخير؟»



قفز واستدار ليجد الأستاذين دي فريز وبلاي فير. كانا واقفين على جانبيه كحارسي السجن. راح روبين يرمش بسرعة محاولاً تهيئة ملامحه لشيء شبيه بابتسامة محايدة وقال: «سادتي الأستاذة».

قال الأستاذ بلاي فير وهو يدقّ النظر في وجهه بقلق: «تتصبّب عرقاً، وهناك هالات كبيرة تحت عينيك يا سويفت. هل نمت جيداً؟».

فقال روبين دون تفكير: «فروق التوقيت. لم نكن - إمم، لم نستطع ضبط توقيتات نومنا في رحلة العودة على نحو جيد، علاوة على شعورنا بالإرهاق لانهماكنا في مطالعات ما قبل الفصل الدراسي».

وهنا فوجئ بإيماءة تعاطف من الأستاذ بلاي فير الذي قال: «آه، حسناً. يقال إن كلمة ستودنت مشتقة من ستودير، أي «الممارسة بتعب وتفرغ». لو لم تشعر بأنك مسمار تدقّه مطرقة باستمرار، فاعلم أنك لا تُبلي بلاءً حسناً». قال روبين: «بالفعل». وأخيراً وجد أن أسلوبه قد يُصيبهما بالملل، فيفقد الاهتمام ويتركانه.

لكن الأستاذ دي فريز سأله: «هل كانت رحلتكم موفقة؟».

تَنَحَّح روبين وأجاب: «نعم، كانت - بل أكثر مما راهاًنا عليه. يشعر جميعنا بالسعادة للعودة».

«هذا غني عن البيان، فالشؤون المتعلقة بالخارج مُرهقة». ثم نظر الأستاذ بلاي فير إلى الطبق في يد روبين وقال: «آه! أرى أنك وجدت ابتكاراتي. هيا، دُقّها».

شعر روبين بأنه مُجَبَّر، فأخذ قَضْمَةً من الفطيرة.

سأله الأستاذ بلاي فير مراقباً إياه وهو يَمَضغ: «أليست طيبة؟ إنها مدعومة بالفضة. لقد توصلت إلى زوج متطابق عَجِيب، أثناء قضائي إجازة في روما، إذ تعد كلمة بومودورو وصفاً غريباً للطماطم، وتُترجم حرفياً إلى



«التفاح الذهبي»، وإذا أضفنا التعبير الفرنسي بوم دامور، ستجد ثراءً ليس في اللغة الإنجليزية».

راح روبين يمضغ محاولاً إبداء تقديره، لكن كل ما تبيّنه هو مدى لزوجتها وكيف جعلته العصائر المالحة التي راحت تتفجر في فمه يفكر في الدماء والجثث.

المح الأستاذ دي فريز: «لديك بريتوجييز».

«عذراً؟».

فأشار الأستاذ دي فريز إلى وجهه وقال: «بريتوجييز، أي عيون لعبوبة. إنها كلمة هولندية نستخدمها في وصف الأطفال المشاغبيين».

لم يعرف روبين كيف يرد على هذا، فقال: «أنا... يا له من أمر مثير للاهتمام!».

قال الأستاذ دي فريز وكأن روبين لم يُحر جواباً: «أرى أنني يجب أن أذهب لتحية المدير. عود حميد يا سويفت. استمتع بالحفل».

فقدم الأستاذ بلاي فير كأساً من الشراب لروبين وقال: «إذاً، هل لديك أي فكرة عن وقت عودة الأستاذ لوفيل إلى لندن؟».

فأخذ روبين رشفة محاولاً لملمة نفسه قدر استطاعته ثم أجاب: «لا أدري. لعلك سمعت أنه تعطلّ في كانتون بسبب التقاطه عدوى ما، وبدأ في حالة متردية حين غادرنا. لست متأكدًا من أنه حتى سيعود للحاق بالفصل الدراسي».

قال الأستاذ بلاي فير: «أمر مثير للاهتمام. من حسن الحظ أن العدوى لم تنتقل لأي منكم».

«أوه، حسنًا، لقد أخذنا التدابير اللازمة حين بدأ يشعر بالتعب، مثل العزل، والوجه، والأقمشة، وكل شيء كما تعلم».



«ليس هذا منطقيًا يا سيد سوفيت». قال الأستاذ بلاي فير هذا بصوت خشن وأردف: «أعلم أنه ليس مريضًا، فقد أرسلت ثلاثة مبعوثين إلى لندن منذ وصولكم وقد أبلغوني بأن منزل هامبستيد خالٍ في الوقت الراهن».

وهنا بدأت أذنا روبين تطنان وقال: «حقًا؟». ماذا كان يجب أن يفعل الآن؟ هل كان التمادي في الكذب ليجدي نفعًا؟ هل كان عليه الصمت والفرار؟ «أي أمر غريب هذا! لا أدري لماذا يفعل...».

اقترب الأستاذ بلاي فير على نحو مباغت وأمال رأسه نحو أذني روبين كمتأمر وهمس: «تعلم أن أصدقاءنا في هرمس يريدون أن يعرفوا مكانه».

كاد روبين يبصق شرابه، لكنه أسرع بابتلاعه في القناة الخاطئة قبل حدوث فوضى، وقف الأستاذ بلاي فير في هدوء وهو يشهق ويختنق، ثم انسكب طبقه وكأسه في تلك الأثناء.

«هل أنت بخير يا سوفيت؟».

أدمعت عينا روبين وقال: «ماذا...».

همهم الأستاذ بلاي فير بلطف وعيناه مُتَبَتِّتان على الآلة الوترية وقال: «أنا مع هرمس. يمكنك أن تخبرني بما تخفيه دون خوف».

لم يعرف روبين ما يفهمه من هذا. لم يكن يشعر بارتياح بالتأكيد. كان جريفيين قد حفر درسًا في أعماقه، ألا وهو: لا تثق بأحد. كان من الممكن أن يكون الأستاذ بلاي فير يكذب بكل بساطة - ولعل تلك هي أسهل خدعة يُستدرج بها روبين للبوح بكل ما يعرفه - أو لعله الأستاذ هو الحليف والمُنْقِذ الذي كانوا ينتظرونه. وهنا انتاب روبين شعور طفيف بالإحباط. ليت جريفيين أخبره بالمزيد، وليته لم يتركه دون معلومات، بعيدًا عن الآخرين وعاجزًا تمامًا.

لم تتوافر لديه معلومات مفيدة يتصرف وفقًا لها، بل مجرد شعور بأن ثمة خطبًا قد حدث. فقال مُقَلِّدًا ثَمْتَمَةً الأستاذ بلاي فير: «حمدًا لله. لعلك تعرف عن مؤامرة كانتون التي دبرها جريفيين».



رد الأستاذ بلاي فير ببعض الحماس: «بالطبع. هل نجحت؟».

انتظر روبين، إذ كان عليه أن يتقن لعب الجزء التالي. كان عليه كشف ما لديه من معلومات بشكل تدريجي كي يُبقي الأستاذ بلاي فير مهتمًا ومُتَشَوِّقًا، لكن بدرجة لا تجعله يهجم أو ينفُضَ على الفور. كذلك، كان بحاجة للوقت، أو على الأقل الوقت الكافي لجمع الآخرين والفرار.

وضع الأستاذ بلاي فير ذراعه حول كتفي روبين وقربه منه وقال: «لَمْ لا نتحدث على انفراد؟».

فحرك روبين عينيه بتوتر حول المكان وقال: «ليس ها هنا». كانت ليتي وفيكتوار تتلَقَّتان حولهما، فراح يرمش بقوة ويحذق إلى باب الخروج الأمامي ثم يعاود النظر إليهما. «ليس أمام أعضاء هيئة التدريس، فلا نعلم من يستمع».

رد الأستاذ بلاي فير: «بالطبع».

وقبل أن يقترح الأستاذ أن يغادرا المكان فورًا، قال روبين: «الأنفاق. سأقابل جريفيين والباقيين الليلة في أنفاق تايلور في منتصف الليل، فِلَمْ لا تأتي؟ لدي... لدي كل ما كانوا ينتظرونه من وثائق».

نجحت الخطة وترك الأستاذ بلاي فير كتفي روبين وابتعد.

قال بعينين تَلَمَّعان بالسعادة: «جيد جدًا». كان أقرب لتدليك يديه مثل الشرير على المسرح.. «أحسنْتَ يا سويفت».

أوماً روبين وبصعوبة نجح في الاحتفاظ بتعبير وجه محايد حتى ابتعد الأستاذ بلاي فير للردشة مع الأستاذ شاكرافارتي في الجانب الآخر من الحديقة.

ثم بذل روبين قصارى جهده كي يمنع نفسه من الركض. راح يتحقق من المكان بحثًا عن رامي الذي كان مُحاصِرًا في محادثة مع الدكتور بلامتر.



راح روبين يرمش له بذعر، فأسرع رامي بسكب كأسه على قميصه، وصرخ باستياء، واعتذر، وهروا في الحديقة متجهًا نحو روبين.

قال له روبين: «بلاي فير يعرف».

تلقت رامي حوله ورد: «ماذا؟ هل أنت متأكد؟».

«يجب أن نغادر» استراح روبين لرؤيته فيكتور وليتي تتجهان بالفعل نحو البوابة الأمامية وأراد أن يتبعهما، لكن كان الكثير من أعضاء هيئة التدريس يقفون في الطريق، فاضطر ورامي للخروج من الخلف عبر المطابخ. «هيا بنا».

«كيف...».

«في وقت لاحق». ثم غامر روبين بالتلصق حوله قبيل تركهما الحديقة. كانت معدته تتلوى، إذ كان بلاي فير يقول شيئًا لـ دي فريز ورأساهما مضمومتان. نظر دي فريز إلى أعلى وحق إلى عيني روبين، فأشاح روبين بنظره. «هيا بنا فحسب».

هرعت فيكتور وليتي نحوهما لحظة خروجهما.

قالت ليأتي لاهثة: «ماذا حدث؟ لماذا...».

أجاب روبين: «ليس هنا. امشي».

راحوا يمشون بخطى سريعة مُجتازين شارع كيبالد، ثم انحرفوا يمينًا إلى ماجباي لين.

قال روبين: «لقد كشف بلاي فير سرنا، لقد انتهى أمرنا».

فسألت ليأتي: «كيف عرفت؟ ماذا قال؟ هل أخبرته؟».

أجاب روبين: «بالطبع لا. لكنه ادعى أنه مع هرمس وحاول جعلي أعترف بكل شيء».

«وكيف تعرف أنه ليس كذلك؟».



قال روبين: «لأنني كذبت وصدّقتي. ليس لديه علم عما تفعله هرمس، بل كان يبحث عن معلومات».

فباغتته فيكتورار بسؤال: «فماذا سنفعل إذا؟ رباه! إلى أين نذهب؟».

ثم أدرك روبين أنهم يسيرون بلا هدف، إذ كانوا متجهين نحو هاي ستريت، لكن ماذا عساهم يفعلون هناك؟ لو استدعى الأستاذ بلاي فير الشرطة، لرأوهم في ثوان. لم يستطيعوا العودة إلى رقم 4، وصاروا في حصار. لكنهم لم يكونوا يملكون مالا ولا حتى طريقة لدفع أجرة السفر إلى مكان آخر.

«ها أنتم ذا».

جفل الجميع للوراء في ذعر.

تقدم أنطوني ريبين إلى الطريق الرئيسي وراح ينظر إليهم ويعدّهم بأصبعه كالبط الصغير. «جميعكم هنا؟ رائع. تعالوا معي».



الفصل الثاني والعشرون



هذه المجموعة متميزة. لكنها اختفت عن الأنظار.

فيكتور هوجو، البؤساء.

ترجمة فريدريك شارل لاسيل فراكسال

أصيب الجميع بصدمة خاطفة؛ فانطلق أنطوني يركض ثم تبعوه دون أن يسألوه. لكن، بدلاً من العودة على الطريق نفسه المتجه إلى ماجباي لين وصولاً إلى شارع ميرتون حيث يستطيعون الفرار نحو مرج دار العبادة، أعادهم إلى كيبالد نحو الكلية.

قال رامي لاهثاً: «ماذا تفعل؟ هنا حيث يختبئ جميع...».

قاطعه أنطوني بصوت حاد: «أسرعوا فحسب».

فأطاعوه على الفور، إذ كان وجود شخص يخبرهم بما يفعلونه أمراً رائعاً. قادهم أنطوني عبر الأبواب الخلفية للمطبخ، وعبر مكتبة أولد، ثم إلى الردهة رأساً. وعلى الجانب الآخر من الجدار، كان الحفل الكبير قائماً بأقصى نشاطه. كان باستطاعتهم سماع الآلات الوترية والأصوات عبر الحجر. فأشار لهم أنطوني بالدخول إلى دار العبادة وقال: «هنا».

فأسرعوا بالدخول وأغلقوا الأبواب الحجرية الثقيلة وراءهم. بدت دار العبادة غريبة في غير ساعات تلاوة الأدعية؛ كانت صامتة ومخيفة. كان الهواء بالدخل خائفاً. وبالإضافة للهاث، كانت الحركة الوحيدة هي لذرات الغبار الطافية والمتدفقة عبر النوافذ.



توقف أنطوني أمام النصب التذكاري للسير وليم جونز.

بدأت ليتي: «ماذا أنت...».

«صَة!». ثم تقدم أنطوني نحو النقش الذي كان نصه يُعتبر ملخصاً لبعض القوانين الهندية والدينية. ثم لمس حروفاً متتالية بالترتيب كانت محفورة في الحجر وهي: ج، و، ر...

أطلق رامي ضحكة مكتومة. لمس أنطوني حرفاً أخيراً في النقش اللاتيني الأطول فوق النصب والذي كان احتفاءً مُسهباً بحياة وليم جونز وإسهاماته. ب. جورا صاحب*.

وهنا سمعوا صريراً، ثم نَفَخَ من الهواء البارد، وخرج الإفريز عدة بوصات من الحائط. أدخل أنطوني أصابعه في الشق في الحافة الداخلية وأزاح اللوح إلى أعلى كاشفاً عن ثقب أسود في الجدار وقال: «ادخلوا».

ساعدوا بعضهم بعضاً على الدخول واحداً تلو الآخر. وهنا اتضح أن النفق أوسع مما كان عليه بالخارج. كل ما كان عليهم هو الزحف على أيديهم وركبهم لعدة ثوانٍ قبل أن ينفث الممر الضيق على ممر أوسع. شعر روبين بالأرض الرطبة تلمس قمّة رأسه حين وقف، لكن رامي صاح حين ارتطم رأسه بالسقف.

فرَمَجَر أنطوني مجدداً: «صَة!» ثم جذب الباب وراءهم وقال: «ليست الجدران سميكة».

عاد الإفريز إلى مكانه ثانية بينما اختفى الضوء في الممر، فراخوا يتحسّسون طريقهم إلى الأمام وَيَسْتَبُون حين كانوا يتعثرون بعضهم في بعض.

* جورا أي «أبيض شاحب» هي إشارة للون البشرة، وصاحب هي تحية احترام. وبالجمع بين الكلمتين بنبرة السخرية والمرارة نفسها، نَسْخُلُص شيئاً آخر بالكلية، ويجب ألا ننسى أنه رغم ادعاء جونز الحب والإعجاب الكبير باللغات الهندية طوال مسيرته المهنية، فقد حوّل اهتماماته البحثية إلى اللغة السنسكريتية؛ لأنه كان يشك في أمانة وموثوقية المترجمين من أهل البلاد الأصليين.



فأشعل أنطوني عود ثقاب ليُظهر لهبًا في كَفِّه وقال: «آه، عذرًا». ومن ثم، رأوا أن بعد عدة خطوات نحو الداخل، كان الممر الضيق يزداد اتساعًا مُفضِيًا إلى شيء شبيه بالصالة. «من هنا. واصلوا السير، فهناك مسافة طويلة إلى الأمام».

بدأت ليتي: «أين...». لكن أنطوني هز رأسه ورفع أصبعًا إلى شفثيه وأشار إلى الجدران.

ازداد النفق اتساعًا وهم يسيرون. وكان الممر المؤدِّي إلى دار العبادة الجامعية إضافة جديدة، إذ صاروا يسيرون في ممر أوسع وأقدم. أفضى الطين الجاف إلى جدران من الطوب، وفي عدة تقاطعات، كان روبين يرى شمعدانات مُنَبَّة في الزوايا العلوية، كانوا ليشعروا بالاختناق من الظلمة، لكنهم شعروا أنها مطمئنة. كانوا في جوف الأرض بعيدًا عن الأنظار لأول مرة منذ رحلة العودة، ومن ثم، استطاعوا التنفّس أخيرًا.

وبعد دقائق من الصمت، سأل رامي: «منذ متى وهذا هنا؟».

أجاب أنطوني: «قبل بضعة عقود. الأنفاق موجودة منذ زمن بعيد. ليست مشروغًا خاصًا بهرمس، بل استغليناها، لكن المدخل جديد. أوكلت الليدي جونز أحدهم بتثبيت النصب منذ سنوات قليلة، لكننا أسرنا بالدخول قبل انتهاء أعمال البناء. لا تقلق، فلا أحد يعلم. هل الجميع بخير؟».

قال روبين: «نحن بخير، لكن يا أنطوني، هناك شيء يجب عليك أن...»

رد أنطوني: «أظن أن عليك أن تخبرني الكثير. لمْ لا نبدأ بما فعلته بالأستاذ لوفيل؟ هل مات؟ يبدو أن هذا ما يراه أعضاء هيئة التدريس».

قال رامي بسرور: «لقد قتله روبين».

فألقي أنطوني نظرة خاطفة على روبين وقال: «أوه، حقًا؟».



رد روبين بإصرار: «كان حادثًا. كنا نتشاجر وكان... لا أدري، فجأة... أقصد، استخدمت هذا الزوج المُتطابق، لم أعلم ما كنت أفعله حتى انتهى كل شيء».

قالت فيكتوار: «الأهم هو شنّ الحرب على الصين. كنا نسعى للعثور عليك كي نخبرك. يخططون للغزو...».

رد أنطوني: «نعلم ذلك».

سأل روبين: «هل تعلمون؟».

«بات جريفيين يخشى هذا، فراقبنا جاردين وماتيسون، وتتبعنا التطورات في المصانع، رغم أن الأمور لم تتخذ هذا الشكل السيئ من قبل. ما هذا إلا ضجيج حتى الآن. لكن، هل ترى أنهم سوف يشنون الحرب؟».

«لديّ أوراق..»، ثم مد روبين يده في جيبه وكأنها ما زالت محفوظة داخل سترته، ثم سبّ. «تبّاً! كلها في الغرفة...».

«ماذا تحوي الأوراق؟».

«إنها خطابات، مراسلات بين لوفيل وكل من جاردين وماتيسون، وكذلك بالمرستون وجوتسلاف، كلهم - أوه، لكني تركتها في ماجباي لين».

«ماذا تحوي؟»

قال روبين بارتباك: «إنها خطط حربية، خطط استغرق وضعها سنوات...».

فألح أنطوني: «هل تعد أدلة على التواطؤ؟».

«نعم، إذ تشير إلى أن المفاوضات لم تكن تُعقد بنية سليمة وأن الجولة الأخيرة كانت مجرد ذريعة...».

قال أنطوني: «جيد، بل جيد جدًا. يمكننا العمل مُستعينين بهذا. سوف نُرسل شخصًا لاستعادة الأوراق. ألسنت في غرفة جريفيين القديمة؟ رقم سبعة؟».



«أنا - بلى».

«جيد جداً. سأتولّى هذا الأمر. وفي الوقت الحالي، أشير عليكم أن تهدؤوا». ثم سكت، والتفت حوله، وابتسم لهم ابتسامة مُطمِئنة. فبعد الأسبوع الذي مرّوا به، جعلت رؤيتهم وجه أنطوني في ضوء الشموع الباهت روبين يرغب في البكاء ارتياحاً. «أنتم في أيّد أمينة. أتفق معكم أن الموقف شديد الصعوبة، لكننا لا نستطيع حل أي شيء في هذا النفق. لقد أبلّيتم بلاءً حسناً، ويُخَيِّل إليّ أنكم كنتم في غاية الذعر، لكن يمكنكم الاسترخاء الآن، فالكبار هنا».

اتضح أن الممر أسفل الأرض طويل للغاية. نسي روبين المسافة التي مشوها، لا بد أنها كانت ميلاً، وراح يتساءل عن مدى ضخامة الشبكة، إذ كانوا قد اجتازوا مُفترّق طرق في النفق أو باباً مُثَبَّتاً داخل الحائط، ما كان يشير لمزيد من المداخل الخفية في جميع جنبات الجامعة. لكن أنطوني قادهم دون أن ينطق بكلمة، ما جعل روبين يظن أن هذا ضمن أسرار هرمس الكثيرة.

وأخيراً، ضاق الممر مجدداً حتى صارت هناك مساحة يسبّرون فيها صفّاً واحداً. كان أنطوني يقودهم رافعاً الشمعة فوق رأسه مثل المِشعل. كانت ليتي تتبعه بشكل مباشر.

فسألت روبين بهدوء: «لماذا أنت؟». لم يستطع روبين أن يتبين ما إذا كانت تقصد توخي الحذر، لكن النفق كان شديد الضيق، وكان صوتها يصل إلى نهاية الصف.

فتمتم أنطوني: «ماذا تقصدين؟».

أجابت ليتي: «كنت تحب بابل. أتذكر أنك قُذِّنتا في الجولة التعريفية. كنت تعشق المكان، وكانوا يعشقونك».

قال أنطوني: «هذا صحيح. كان كل من في بابل يعاملونني بشكل أفضل من أي شخص».



«لماذا إذًا...».

تدخل رامي وقال: «تظن أن الأمر يتعلق بالسعادة الشخصية؛ لكننا أخبرناك يا ليتي أنه مهما كان المرء سعيدًا على المستوى الشخصي، فالأمر يتعلق بالعدالة بمفهومها الواسع...».

«ليس هذا ما كنت أقصده يا رامي - فأنا فحسب...».

قال أنطوني بلطف: «دعوني أشرح الأمر. في ليلة إلغاء العبودية في جميع المستعمرات، قرّر سيدي أن يحزم أمتعته ويعود إلى أمريكا. ولم أكن لأسترد حريتي هناك. كان باستطاعته استبقائي في منزله وجعلي مُلْكَاً له، لكن الرجل كان يصف نفسه بأنه أحد دعاة إلغاء الرق، إذ كان يُنْزِد بالتجارة لعدة سنوات، وبدا كأنه يعتبر علاقتنا مميزة. لكن، حين تحولت المقترحات التي كان يُجاهر بدعمها إلى قوانين، قرر أنه لن يتحمل التضحية بي، ومن ثم، قرّرت ولجأت إلى أوكسفورد، فأوتنتي الكلية وأخففتني حتى صرت حرًا بشكل قانوني، لا لاهتمامهم بإلغاء العبودية، بل لأن الأساتذة في بابل عرفوا قيمتي وعرفوا أنهم لو أعادوني إلى أمريكا، لخسروني وأخذتني جامعة هارفارد أو برينستون».

لم يستطع روبين رؤية وجه ليتي في الظلام، لكنه سمعها تتنفس تنفسًا مُتَقَطَّعًا، وكان يتساءل ما إذا كانت ستَجْهَش بالبكاء مجددًا.

تابع أنطوني: «لا يوجد سادة طيبون يا ليتي. ومهما كانوا كرماء أو متسامحين، ومهما استثمروا في تعليمك، فالسادة لا يتغيرون».

همست ليتي: «لكنك لا ترى هذا في بابل، أليس كذلك؟ إنه مكان مختلف - لم يكونوا يستعبدونك - أعني، كنت تحمل زمالة...».

فسأل أنطوني برقة: «هل تعلمين ما قال سيد إيكواينو له حين أُعْتِق؟ أخبره بأنه بعد فترة قصيرة، سيكون لديه عبيد هو الآخر».



وأخيراً، انتهى النفق إلى عدة سلاسل مغطاة بلوح خشبي، وكان ضوء الشمس يتدفق عبر الفراغات. وضع أنطوني أذنيه على الألواح، وانتظر لحظة، ثم فتح اللوح ودفعه وقال: «هيا اصعدوا».

خرج الجميع في فناء مُشمس مقابل بناية قديمة حجرية مُكوّنة من طابق واحد شبه مُخبّأة وراء كتلة من الشجيرات الكثيفة. لم يكونوا قد ابتعدوا عن وسط المدينة - إذ كانوا على بعد ميلين اثنين على الأكثر - لكن روبين لم ير هذا المبنى من قبل. بدت أبوابه مُغلقة بسبب الصدا، وكانت جدرانها مُلتحفة بالبلابل وكأن أحدهم قد شَيّد المكان ولكنه هجره منذ عشرات السنين.

ثم ساعدهم أنطوني في الخروج من النفق وقال: «مرحباً بكم في مكتبة أولد؛ شَيّدت كلية دورهام هذا المكان في القرن الرابع عشر كغرفة إضافية للكتب القديمة ثم نسيتهما حين حصلت على تمويل لبناء مكتبة جديدة أقرب لوسط المدينة».

فسألت فيكتوار: «مكتبة أولد فحسب؟ ألا يوجد اسم آخر؟».

«لا يوجد اسم نستخدمه، فسوف يُبرز الاسم أهميتها، في حين نريد أن تظل منسيّة وغير ملحوظة، شيء يمر المرء عليه مرور الكرام حين يراه في السجلات أو بالأحرى يُخلط بسهولة بشيء آخر». ثم فرد أنطوني كفه على الباب الصدئ ودفعه، فافتح الباب مُصدراً صريراً، وقال: «ادخلوا».

كانت مكتبة أولد مثل بابل تماماً، إذ كانت أكبر في الداخل مما يوحي خارجها، فمن الخارج، بدت كأنها تحوي قاعة محاضرات واحدة على الأكثر. أما من الداخل، فقد كانت لتمثل الدور الأرضي لمكتبة رادكليف. كانت الأرفف الخشبية تبرز من الوسط، وكان هناك المزيد من الأرفف المُصطَفّة على الجدران والتي بدت دائرية بشكل سحري ومُتناقض. كانت جميع الأرفف تحمل وُسوماً دقيقة ومخطوطة رقيقة طويلة تصف المنظومة التصنيفية مُعلّقة على الجدار المقابل. وبالقرب من الجهة الأمامية، كان هناك رف يحوي الكتب حديثة الوصول والتي لاحظ منها روبين بضعة عناوين



اختلسها من جريفيين على مدى السنوات القليلة الأخيرة. كانت كلها تحمل أرقام بابل المسلسلة المخدوشة.

قال أنطوني مُوضِّحًا: «لا تروق لنا هذه المنظومة التصنيفية، فهي منطقية بالحروف الرومانية، لكن ليست كل لغة سهلة التحويل إلى حروف لاتينية، أليس كذلك؟». ثم أشار إلى بساط بجوار الباب وقال: «نظفوا أحذيتكم، لا نريد ترك آثار بين الأرفف، ويوجد حامل هناك تعلّقون عليه معاطفكم».

كان هناك إبريق حديدي صدئ مُعلّقًا فوق الدرجة العليا لحامل المعاطف. مد روبين يده نحوه بفضول، فقال أنطوني بحِدّة: «دع ذاك وشأنه».

«آسف. فيم يُستخدم؟».

«ليس لإعداد الشاي كما هو واضح». ثم هز أنطوني الإبريق نحوهم كاشفًا القاع الذي أظهر لَمعة فضة مألوفة، ثم أردف: «إنها منظومة أمنية تُصدر صافرة حين يقترب شخص لا نعرفه من المكتبة».

«بأي زوج مُنطابق؟».

فغمَز أنطوني وقال: «ألا تريد أن تعرف؟ نطبق إجراءات بابل الأمنية نفسها. يبتكر كل واحد فخاخه ولا نخبر الآخرين كيف نفعل. ويُعد سحر الخداع أفضل ما نفذناه، إذ يمنع الصوت من التسرب خارج المبنى، ما يعني أنه لا يمكن للمارة أن يَسترقوا السمع لمحادثاتنا».

قال رامي: «لكن المكان ضخم. أقصد أنك لست خَفِيًّا. فكيف تظل مُختبئًا؟».

أجاب أنطوني وهو يتوغل بهم في المكتبة: «إنها أقدم حيلة في العالم. نحن مُختبئون على مرأى من الجميع. حين تلاشت دورهام في منتصف القرن السادس عشر واستحوذت ترينيتي على أملاكها، تجاهلت المكتبة الإضافية في صَنك تحويل الملكية. وكانت الأشياء الوحيدة المُدَوّنة في فهرس المكتبة هي المواد التي لم تُستخدم لعشرات السنين والتي لها الكثير من النُسخ المُكرّرة سهل الوصول إليها في مكتبة بودلي. نعيش الآن على حافة



البيروقراطية، فكل من يمر بالمكان يعرف أنها مكتبة تخزين، لكن الجميع يفترضون أنها ملك لكلية أخرى فقيرة. وكما تعلم، فهذه الكليات شديدة الثراء، ما يجعلها تفقد أثر ممتلكاتها».

«آه! لقد وجدت الطلاب».

برزت وجوه من وراء الأرفف. تعرّف روبين عليهم جميعاً، إذ كانوا طلاباً سابقين أو زملاء خريجين حاليين كان قد رآهم يحومون حول البرج. افترض أن هذا لم يكن ليُفاجئه. كان هؤلاء فيمّال شرينيفاسان، وكاثي أونيل، وإلزي ديجيما التي لوحث لهم وهي تقترب.

قالت إلزي: «سمعت أنكم مررتم بأسبوع عصيب». كانت أكثر لُطفًا مما كانت في البرج. «مرحبًا بكم في هرمس. لقد وصلتكم في الوقت المناسب لتناول العشاء».

قال رامى: «لم أدرك أنكم بهذه الكثرة. من هنا ادعى أنه مات كذلك؟».

ضحك أنطوني وأجاب: «أنا الشبح الوحيد المُقيم في أوكسفورد، ولدينا بضعة آخرين بالخارج - لعلك سمعت بقايبهاف وفريدريكيه- لقد ادعى الغرق على سفينة بضائع قادمة من بومباي، ولم يَنْفَكَا يعملان من الهند منذ ذلك الحين. أما ليزيت، فقد أعلنت ببساطة أنها ستعود لموطنها كي تتزوج، وأصيب جميع أعضاء هيئة التدريس في بابل بخيبة أمل، ما جعلهم لا يتابعون قصتها، وما زال فيمّال، وكاني، وإلزي في بابل. فمن السهل عليهم جَلْب الموارد خلسة».

فسأل روبين: «لماذا غادرت إذًا؟».

«يجب أن يوجد أحدهم في مكتبة أولد بدوام كامل. وعلى كل حال، فقد تعبت من الحياة الجامعية، فادّعت الموت في باربادوس، واشترت تذكرة على سفينة عائدة إلى الوطن، وعُدت إلى أوكسفورد دون أن يراني أحد». ثم غمز أنطوني لروبين وتابع: «لعلك رأيتني يومئذ في متجر الكتب. لم أجزؤ على ترك مكتبة أولد لأسبوع. هيا، أريد أن أريكم الباقيين».



وكشفت جولة سريعة حول محطات العمل عن عدد من المشروعات السارية والتي قدمها أنطوني بفخر. تضمنت تلك تجميعًا لقواميس بلغات إقليمية («نقِّد الكثير حين نفترض أن كل شيء يجب أن يُترجم للإنجليزية أولاً»)، وأزواجًا متطابقة غير إنجليزية («المبدأ نفسه، فلن تُموَّل بابل أزواجًا متطابقة لا تُترجم للإنجليزية، ذلك أن البريطانيين يستخدمون قوالبها كلها. لكن هذا يشبه الطلاء بلون واحد أو عزف نغمة واحدة على البيانو»)، وأبحاثًا نقدية للترجمات الإنجليزية الحالية للنصوص الدينية والكلاسيكيات الأدبية («حسنًا، تعرف رأيي في الأدب بوجه عام، لكن يجب أن يظل فيمال مشغولاً بشيء»). لم تكن جمعية هرمس وكرًا للصوص كما أفتق جريفين روبين، بل كانت مركزًا بحثيًا في حد ذاتها، رغم أن مشروعاتها كانت تتم في الخفاء بمصادر مسروقة شحيحة*.

سألت فيكتوار: «ماذا ستفعلون بكل هذا؟ لا يمكنكم النشر».

أجاب فيمال: «لدينا شركاء في بضعة مراكز ترجمة أخرى. وفي بعض الأحيان، نَسَحَن لهم كتبًا للمراجعة».

سأل روبين: «هل توجد مراكز ترجمة أخرى؟».

أجاب أنطوني: «بالطبع، فلم يصل بابل إلى التفوق في اللغويات وفقه اللغة إلا منذ وقت قريب. كان الفرنسيون هم من يتبوؤون الصدارة مُعظم القرن

* تضمنت المشروعات الأخرى:

1. التحليل المقارن لعدة حواشي مُضافة إلى ترجمات النصوص الأوروبية مقابل النصوص غير الأوروبية. اكتشف جريفين أن النصوص غير الأوروبية كانت زاهرة بكم مذهل من السياقات الشارحة، ما جعل النص غير قابل للقراءة كعمل مُستقل، بل بالأحرى من خلال رؤية المترجم (الأوروبي الأبيض).

2. بحث في إمكانية دخول الكلمات الناشئة في لغات خاصة ولهجات سرية في أعمال الفضة.

3. خطط لسرقة حجر رشيد وإعادته إلى مصر.



الثامن عشر، ثم بلغ الرومانسيون الألمان أوج ازدهارهم لفترة. ويتمثل الفارق الآن في وجود فضة نستغني عنها، أما هم فلا».**.

قال فيمال: «إنهم حلفاء غير دائمين، إذ يُقَدِّمون المساعدة فيما يتعلق بكراهيتهم البريطانيين، لكنهم لا يحملون ولاءاً حقيقياً للتحرر العالمي، وبالفعل، ليست هذه الأبحاث مضمونة النتائج. لا نستطيع استخدامها بعد. ليس بمقدورنا الوصول للمصادر، ومن ثم، كل ما يمكننا عمله هو إنتاج المعارف وكتابتها على أمل أن تنشأ دولة تستطيع استخدامها على نحو مُلائم ودون أنانية».

وفي الجانب الآخر من المكتبة، بدا الجدار الخلفي أشبه بما أصابته انفجارات القذائف، إذ كان مُحترقاً ومملوءاً بالفوهات في الوسط. وكان أسفله طاولتان مُحترقتان بجوار بعضهما، وكانتا مُنتصبتين رغم أرجلهما المُتَفَجِّمة المُتهالكة.

قال أنطوني: «حسناً، هذه ورشة أعمال الفضة والذخائر».

فقال فيكتوار بجفاء: «هل حدث ذلك بمرور الوقت أم دفعة واحدة؟».

أجاب فيمال: «هذا خطأ جريفي، إذ لا يرى أن البارود لا يصلح إلا للاستخدام الخارجي».

** كان لجمعية هرمس علاقات مع مراكز ترجمة في جامعات بأمريكا. لكن هذه كانت أكثر تشدداً وخطورة من أكسفورد. تمثل أحد الأسباب في كون مؤسسيها يملكون عبداً، علاوة على اعتمادها على السخرة في البناء والصيانة، وقيام مخصصاتها على تجارة الرقيق. أما السبب الآخر، فقد تمثل في انشغال تلك الجامعات الأمريكية بمشروعات البعثات الدينية، والقضاء على السكان الأصليين ومحورهم منذ إنشائها. كانت الكلية الهندية التي تأسست عام 1655 بجامعة هارفارد تُعد الطلاب من السكان الأصليين بتدريس وسكن مجاني، وقد طُلب منهم تباعاً أن يتحدثوا اللاتينية واليونانية، واعتناق ديانة المُحتل، وإما الاندماج في مجتمع ذي البشرة البيضاء وإما العودة إلى قراهم لنشر اللغة، والثقافة، وديانة الإنجليز. وقد وصف ليون جي تايلر عميد كلية وليم أند ماري برنامجاً مُشابهاً بأنه سجن يعمل فيه أبناء السكان الأصليين «كرهائن لضمان حُسن سلوك الآخرين».

كان الجزء السليم من الحائط الخلفي مُغطى بخارطة ضخمة للعالم مُنقّطة بدبابيس مختلفة الألوان ومربوطة بخيوط في ملاحظات مكتوبة بخط صغير سميك. اقترب روبين منها بفضول.

انضمت كاثي إليه أمام الخارطة وقالت: «هذا مشروع جماعي. نستكمّله بالتدريج حين نعود من الخارج».

«هل تشير كل تلك الدبابيس إلى لغات؟».

«نعتقد ذلك. نسعى لتتبع عدد اللغات الحية في جميع أنحاء العالم وأين تنقرض. كما يوجد العديد من اللغات التي بصدد التلاشي، بدأ حَدَث انقراض ضخم منذ وَضَعَ كريستوفر كولومبس قدمه في العالم الجديد. لم تنفك الإسبانية، والبرتغالية، والفرنسية والإنجليزية تُزيح اللغات واللهجات الإقليمية، مثل الكتاكيت الصغيرة. وأرى أنه من المتوقع أن يتحدث العالم كله الإنجليزية يومًا ما». ثم تنهدت وهي تنتظر للخارطة وتابعت: «لقد ولدت بعد فوات الأوان بجيل. لو كنت قد ولدت منذ زمن ليس ببعيد، لأُجبرت على تحدّث الغيلية».

قال روبين: «لكن هذا قد يُدمّر أعمال الفضة، أليس كذلك؟ سيُزعزع هذا التوازن اللغوي، ولن نجد شيئاً نُترجمه ولا اختلافات نُحرّفها».

ردت كاثي وكأنها تُقرّ حقيقة: «لكن هذا هو التناقض الكبير للاستعمار، فقد بُني ليُدمّر أكثر ما يُثَمِّنه».

فلوّح لهما أنطوني مُشيرًا إلى ممر يؤدي إلى صالون صغير تحوّل إلى غرفة طعام وقال: «أقبلوا كي نتناول الطعام».

كانت الأصناف المُقدّمة على العشاء ذات طابع عالمي تشتمل على خضراوات بالكارى، وصينية بطاطس مسلوقة، وطبق سمك مقلي كان طعمه شديد التشابه مع ما كان روبين يأكله في كانتون ذات يوم، وخبز طري مُسطّح يصلح للأكل مع أي من باقي الأصناف. جلس الثمانية حول طاولة راقية مُزخرفة بدت مُتنافرة مع الألواح الخشبية الباهتة. لم يكن هناك مقاعد



تكفي الجميع، فأحضر أنطوني وإلزي مقاعد وطاولات من المكتبة. كما لم تكن أدوات المائدة ولا الأواني الفضية مُتناسبة. راح الذهب يلمع لمعة مُبهجة في المدفأة ويُدفئ الغرفة على نحو غير مُتساوٍ، ما جعل روبين يشعر بأن جانبه الأيسر يتصبَّب عرقاً، في حين كان جانبه الأيمن بارداً. كان المنظر برمته تجسيدا حقيقياً لروح الزمالة.

وهنا سأل روبين: «هل أنتم فحسب هنا؟».

فسأل فيمال: «ماذا تقصد؟».

فأشار روبين للمنضدة وقال: «حسناً، أنتم... جميعكم صغار جداً».

قال أنطوني: «هذا ضروري، فالعمل خَطِر».

«لكن، أليس هناك - لا أدري...».

أوما أنطوني ورد: «أتقصد أناساً كباراً؟ نعم، هناك البعض، إنهم مُنتشرون في جميع أنحاء العالم. لا أعلم هويات الجميع، ولا يعلم أي منا هوياتهم بشكل شامل، وهذا أمر مقصود، ومن المحتمل أن يوجد بعض أعوان هرمس في بابل لا أعرفهم بعد، وأرجو أن يَبْذُلُوا المزيد من الجهد».

قالت إلزي: «يُعد ذلك التسرب مشكلة. لنأخذ بورما على سبيل المثال».

قال أنطوني بصرامة: «كان ستيرلنج جونز» لكنه لم يُوضِّح.

بدا الموضوع حساساً. ولوهلة راح الجميع يحدِّقون إلى طعامهم.

فكر روبين في اللصين اللذين قابلاه في أول ليلة له بأوكسفورد؛ المرأة الشابة والرجل الأشقر، ولم يرَ أيّاً منهما مُجدِّداً. لم يُغامر بالسؤال. كان يعرف أن الإجابة هي التسرب من الجمعية.

سأل رامي: «لكن كيف تُنجزون المهام؟ أعني أنكم لا تعرفون هويات حلفائكم».



أجاب أنطوني: «حسنًا، لا يختلف هذا عن بيروقراطية أوكسفورد. لا تتفق الجامعة، والكليات، وأعضاء هيئات التدريس على من تُؤكل إليه المهام، لكنهم يُنجزون المهام، أليس كذلك؟».

أنت كاثي ووضعت إناءً ثقيلًا في وسط المنضدة وقالت: «لسان بَقْرِي بصوص ماديرا».

فأوضح فيمال: «تهوى كاثي تقديم اللسان وترى أن الأمر مُضحك».

قال أنطوني: «تُعِدُّ قاموس السنة: لسان مسلوَق، ولسان مُخلَّل، ولسان مُجَفَّف، ولسان مُدَخَّن...».

ثم جلست كاثي على الطاولة بخفة وقالت: «صَمَتًا، فاللسان هو قطعة اللحم المُفضَّلة لدي».

قالت إلزي: «بل أرخص قطعة».

قال أنطوني: «إنه مثير للاشمئزاز».

رمت كاثي بحبة بطاطس وقالت: «سُدَّ جوعك بهذه».

غرس أنطوني شوكتة في قطعة بطاطس وقال: «آه، بطاطس على الطريقة الإنجليزية. هل تعلمون لماذا يُطَلَّق الفرنسيون على البطاطس المسلوقة أنها على الطريقة الإنجليزية؟ لأنهم يعتقدون أن الأشياء المسلوقة مملة. ومثل جميع أصناف الطعام الإنجليزي، فإن كاثي مملة للغاية...».

«لا تأكلها إذًا يا أنطوني».

فألح أنطوني: «اشوِّها، أو اطهيها بالزبد، أو اخبزيها بالجبن، لكن لا تكوني إنجليزية على هذا النحو».

راح روبين يرقُبهم وهو يشعر بوخزة حادة في أنفه. كان يشعر بالشيء نفسه في ليلة الحفلة التذكارية وهو يرقص على المناضد تحت الأضواء الخافتة. كان يشعر بأن وجود مثل هذا المكان أمر ساحر، بل مُستحيل



الوجود، إذ كان خُلاصة كل ما يَعدُّ به بابل. شعر بأنه يبحث عن مكان كهذا طوال حياته وأنه كان بصدد خيانتِه. ولكنه راعه أن أجهش بالبكاء.

فرَبَّتْ كاثي كتفه وقالت: «اهدأ، اهدأ. أنت في أمان يا روبين. أنت مع أصدقائك».

رد ببؤس: «إني آسف».

فقال كاثي دون أن تسأل عما كان يعتذر عنه: «لا عليك. أنت هنا الآن، وهذا هو المهم».

وهنا سمعوا ثلاث دَقَّاتٍ عنيفة على الباب، فجفل روبين وسقطت شوكتُه، لكن أحدًا من الخربجين لم يبدُ مُزعجًا!

قال أنطوني بابتهاج: «هذا جريفين. ينسى شفرات المرور حين نُغيِّرُها، فيستعويض عن ذلك بقرعة إيقاع».

قالت كاثي بضيق: «لقد تأخر عن موعد العشاء».

«حسنًا، أَعِدِّي له طبقًا».

«أرجوك».

وهنا وقف أنطوني وقال: «لو سمحتِ يا كاثي. ليتفضل الباقون في حجرة القراءة».

راح قلب روبين يَدُقُّ بعنف وهو خارج من غرفة الطعام مع الباقين. وفجأة شعر بتوتر. لم يكن راغبًا في رؤية أخيه، إذ قد انقلب العالم رأسًا على عَقْب منذ آخر مقابلة بينهما، وكان مرعوبًا مما كان جريفين ليقول عن ذلك.

دَلَفَ جريفين من الباب بخُطى واسعة. كان يبدو نحيلًا، رثَّ الثياب، ومُرْهَقًا كأنه أت من سفر. دَقَّقَ روبين النظر في أخيه وهو يخلع معطفه الأسود الرثَّ بهزة من كتفه. بدا غريبًا تمامًا بعد أن عرف روبين ما قد فعل. كانت ملامحه كلها تحكي قصصًا جديدة. هل كانت تلك الأيدي النحيلة القوية والأعين الحادة الثاقبة النظرات سمات مُجرم؟ كيف كان شعوره حين ألقى



قالب فضة على إيفي بروك عالمًا أنه سيثُق صدرها؟ هل ضحك حين ماتت بالطريقة التي يضحك بها لرؤيته روبين الآن؟

ابتسم جريفين ابتسامة مأكرة ومدَّ يده ليُصافح روبين قائلاً: «مرحبًا يا أخي. سمعت أنك قتلت أبانا العزيز!».

أراد روبين أن يقول إنه كان حادثًا، لكن الكلمات أثبت أن تخرج من حنجرتة. لم تكن ذات وقع حقيقي من قبل، ولم يكن ليسمح لنفسه بالتفوه بها الآن.

قال جريفين: «أحسنت. لم أتصور أبدًا أنك تملك هذه الشجاعة».

لم يجر روبين جوابًا، بل شعر بصعوبة في التنفس وبرغبة شديدة الغرابة في تسديد لكمة لجريفين في وجهه.

فأشار جريفين بعدم اكتراث نحو الصالون وقال: «هلا بدأنا العمل؟».

قال أنطوني: «تتمثل المهمة التي سنضطلع بها في إقناع البرلمان وعامة البريطانيين بأن شن بريطانيا الحرب على الصين ضد مصلحتهم».

رد جريفين: «لقد أوصلت كارثة حرق الأفيون الأمور إلى نقطة حرجية. أصدر المفوض لين بيانًا بحظر التجارة الإنجليزية تمامًا من كانتون. وفي الوقت عينه، اتخذت شركة جاردين أند ماثيسون تلك العدوات ذريعة للحرب، وباتت تقول إنه على إنجلترا اتخاذ إجراء للدفاع عن كرامتها وإلا اضطرت لمواجهة الإهانة في الشرق الأقصى إلى الأبد. يا له من أسلوب لطيف لإثارة حفيظة القوميين! بدأ مجلس اللوردات يُناقش حملة عسكرية الأسبوع الماضي».

لكنهم لم يُصوّتوا بعد. كان لوردات البرلمان مُترددين وغير مُطمئنين للإلقاء بموارد البلاد في مثل هذا المسعى البعيد وغير المسبوق. لكن الموضوع المطروح يتعلق بالفضة. كانت هزيمة الصين لتُسهّل وصول الإمبراطورية البريطانية لأكبر مخزون للفضة في العالم والذي كان ليُجعل سُفنها الحربية تُبحر أسرع وبناقلها تُطلق النار لمسافات أبعد وعلى نحو



أكثر دقة. فلو اختار البرلمان الحرب، لاستحال تصور مستقبل العالم المُستعمر. فحين تستحوذ بريطانيا على ثروات الصين ستتمكن من تنفيذ أي مخططات في أفريقيا وآسيا، وأمريكا الجنوبية والتي لم تزل مجرد أحلام.

قال جريفين: «لكننا لا نستطيع عمل أي شيء حيال تلك المؤامرات ولا يمكننا التفكير على مستوى ثورة عالمية، فهذا مستحيل. ليس لدينا الأعداد الكافية. ما يجب أن نركز عليه الآن هو وقف غزو كانتون قبل أي شيء. لو انتصرت إنجلترا - وهو أمر غني عن البيان - فسوف تحصل على مخزون لا حصر له من الفضة يكفيها لسنين لا عدد لها. ولو لم تفعل، لنضب معين فضتها وانكششت قدراتها التوسعية بشكل ملحوظ. هذا هو الهدف، وكل ما عدا ذلك يُعد غير ذي قيمة».

نقر على السبورة التي قُسمت عليها أسماء مختلف اللوردات إلى عدة أعمدة وتابع: «لم يُصوّت مجلس العموم بعد، فما زال النقاش مفتوحاً. هناك فصيل قوي مُناوئ للحزب يتزعّمه السير جيمس جراهان، والفيسكونت ماهون، ووليم جلادستون. ومن الجيد أن نجذب جلادستون إلى صفنا، إذ يكره الأفيون أكثر من أي شخص، وأظن أنه لديه أخت مُدمنة على الأفيون السائل».

فأوضحت كاثي: «لكن هناك سياسات داخلية تجري، إذ تواجه وزارة ملبورن أزمة سياسية في الوطن، فبمشقة بالغة نجا حزب الأحرار من اقتراع على حجب الثقة، ما يجعلهم أشبه بمن يسير على حبل مشدود بين المحافظين والراديكاليين، وقد تفاقم الأمر بسبب ضعفهم في التجارة الخارجية مع المكسيك، والأرجنتين، والجزيرة العربية».

قال رامي: «عذراً، وماذا بعد؟».

لوحث كاثي بيدها بغضب وقالت: «الخلاصة هي أن الراديكاليين وحلفاءهم الشماليين بحاجة لتجارة خارجية قوية، ويحتاج الأحرار للاحتفاظ بدعمهم أولئك وهؤلاء لتحقيق التوازن مع المحافظين. ومن ثم، يُعد



استعراض القوة للتعامل مع أزمة الأفيون هو السبيل لتحقيق هذا. وفي كلتا الحالتين، سيكون التصويت مُتقارباً».

أطرق أنطوني عند السبورة وقال: «تتمثل مُهمتنا في كسب أصوات كافية لرفض مشروع الحرب».

قال رامي ببطء: «أريد أن أستوضح فحسب: هل تتمثل خُطتكم في أن تتحولوا إلى مجموعات ضغط؟».

أجاب أنطوني: «بالفعل. يجب أن نُقنعهم أن الحرب ضد مصلحة مُنتخبهم. من الصعب طرح هذه الحجة؛ لأنها ستؤثر على مختلف الطبقات بمختلف الطرق. سيمثل تهريب الفضة كلها من الصين غنيمة لأي شخص يملك المال بالفعل. لكن هناك توجُّهًا يشير إلى أن كثرة استخدام الفضة هي أسوأ ما قد يَحُلُّ بالعمال، إذ يُحيل النول المُحسَّن بالفضة عشرات النَّسَّاجين إلى البطالة، ولهذا لا ينفكُّون يُضربون. تُعد هذه حجة مُقنعة يُصَوِّت عليها الراديكاليون بالرفض».

فسأل روبين: «لعلكم تستهدفون مجلس اللوردات فحسب، لا العامة؟».

أجاب أنطوني: «هذا سؤال جيد، فاللوردات هم صُناع القرار، لكن قَدْرًا مُعيَّنًا من الضغط من قِبَل الصحافة والعامة قد يُؤثر عنم لم يَحسموا رأيهم بعد. تتمثل الحيلة في كيفية جعل المواطن الإنجليزي الحالي يشعر بالاستياء من حرب لم يسمع عنها أبدًا».

قالت ليتي: «خاطب طبيعتهم الإنسانية وتعاطفهم مع المظلومين».

رد رامي: «ها ها ها ها!».

فألحت ليتي: «يبدو لي أن كل هذا العدوان استباقي. أعني أنكم لم تُحاولوا حتى عرض قضيتكم على الرأي العام. هل سبق لكم التفكير في التعبير عن موقفكم بلُطف؟».



أجاب جريفين: «لطف تعني باللاتينية «غباء». لا نريد أن نكون أغبياء».*
تدخل أنطوني وقال: «لكن الرأي العام في الصين قابل للتطويع. وبدايةً، يُعارض معظم اللندنيين تجارة الأفيون، وهناك الكثير من التغطية المُتعاطفة مع المفوض لين في الصحف. يمكنك تحقيق نجاح كبير مع دعاة الأخلاق وأصحاب المبادئ الدينية في هذه البلاد. السؤال هو لأي مدى يمكن التأثير عليهم كي يُمارسوا ضغطاً على البرلمان. وقليلًا ما تلقى الحروب غير المُحبذة شداً وجذباً».

قال جريفين: «فيما يتعلق بإذكاء الاستياء العام، فلا نعرف شيئاً. فالزوج المُتشابه بوليميك واليوناني بوليميكوس والذي يعني بطبيعة الحال...».

رد رامي: «الحرب».

«صحيح».

فتجهم رامي وقال: «لديكم إذًا حرب فكرية، فماذا سيفعل الزوج المُتطابق؟».

«يجري العمل على هذا. ما زلنا نُجربُه. لو استطعنا ربط الانحراف الدلالي بالواسطة الصحيحة، لحصلنا على شيء، لكن المسألة هي أننا لا نستطيع تحقيق أي شيء حتى يفهم المزيد من الناس من أين أتينا، ومُعظم البريطانيين لا يفهمون أنه يجب الجِدال على شيء. فبالنسبة لهم، تُعد هذه الحرب شيئاً خياليًا، شيء يُفيدهم فحسب ولا يَسْتَرعي الاهتمام أو القلق. لا يعرفون ما يتضمنه الأمر من قسوة ولا ما سيُثيره من عُنف مُتواصل، ولا يعرفون ما يفعله الأفيون بالناس».

قال روبين: «لن نُحَقِّق أي شيء بهذه الحجة».

* هذا صحيح، إذ تُشتق كلمة ناييس من الكلمة الفرنسية القديمة نيس (وتعني ضعيفًا، أو كسولًا، أو سخيًا)، ومن اللاتينية نيسوس (والتي تعني جاهلاً أو غير ذي معرفة).



«لَمْ لَا؟».

أجاب روبين: «لأنهم لا يهتمون، فهي حرب قائمة على أرض أجنبية لا يستطيعون حتى أن يتخيلوها، بل وأبعد من أن يهتموا بها».

سألت كاثي: «ماذا يجعلك متأكدًا على هذا النحو؟».

أجاب روبين: «لأنني لم أهتم. لم أهتم رغم أنني أُخبرت أشياء كريهة مرارًا وتكرارًا. تطلب الأمر أن أشهد حدوثه شخصيًا كي أدرك أن كل تلك الأشياء المجردة حقيقية. وحتى وقتها، بذلت قصارى جهدي كي أشرح بنظري، فمن الصعب أن يتقبل المرء ما لا يريد رؤيته».

عمَّ الصمت لوقت قصير.

قال أنطوني بمرح مُتكأف: «حسنًا، يجب أن نحرص على الإبداع في عملية الإقناع، أليس كذلك؟».

كان هذا هو هدف الليلة، وقد تمثل في تحويل حركة التاريخ إلى مسار مختلف. لم تكن الأمور بالعجز الذي بدت عليه. كانت جمعية هرمس قد وضعت عدة خطط وهي قيد التنفيذ، وقد تضمن معظمها مختلف أشكال الرشوة والابتزاز، وتضمنت واحدة تدمير ترسانة سفن في جلاسكو!

أوضح جريفيين: «يتعلق التصويت على الحرب على اقتناع البرلمان بأن النصر سهل. وهذا صحيح من الناحية الفنية، فستجبه سفننا إلى كانتون وتقصف بحريتها. لكنها تتطلب الفضة كي تعمل، فقبل بضعة أشهر، توماس بيكوك....».

فقال رامي بسخرية: «أوه! هو».*.

«بالطبع، فهو مُولع بتكنولوجيا البخار وتقدم بطلب إلى شركة ليرد لبناء السفن بتصنيع ست سفن حديدية تعمل بالبخار. تقع شركة وليم ليرد وولده

* توماس لوف بيكوك شاعر، وباحث، وصديق للشاعر بيرسي بيش شيلي. قضى مستقبلًا مهنيًا طويلًا في الهند كمسؤول بشركة الهند الشرقية، ففي ذاك العام، عمل كبير مراجعي المراسلات الهندية.



في جلاسكو. هذه السفن مُربعة أكثر من أي شيء في المياه الآسيوية، إذ تحمل صواريخ كونجريف، وبفضل غاطسها الضخم وقوتها البخارية، فهي تعد أكثر حركة من أي قطعة بحرية في الأسطول الصيني. ولو صوّت البرلمان بالموافقة، ستتجه واحدة منها على الأقل إلى كانتون».

قال روبين: «ستذهب إلى جلاسكو إذا؟».

أجاب جريفين: «هذا أول شيء أفعله في الصباح، ستستغرق الرحلة عشر ساعات بالقطار، لكنني أتوقع وصول الخبر إلى البرلمان في يوم وصولي هناك نفسه».

لم يوضح جريفين ما سيفعله تحديداً في جلاسكو، لكن روبين لم يكن لديه شك في قدرة أخيه على تدمير ترسانة سفن بأسرها.

قال رامي بسعادة: «حسناً، يبدو هذا أكثر فعالية. لِمَ لا نَصُبَّ جهودنا على الأعمال التخريبية؟».

أجاب أنطوني: «لأننا باحثون، لا جنود. فترسانة السفن مجرد خطوة، لكننا لسنا مُزمعين القضاء على البحرية البريطانية. يجب أن نستغل نفوذنا حيث تسمح الفرصة تاركين لجريفين أمور العنف والمسرحيات المصاحبة له...».

استشاط جريفين غضباً وقال: «ليست مجرد مسرحيات...».

فعدّل أنطوني كلامه وقال متهكماً: «المغامرات العنيفة». لكن جريفين انزعج من ذلك أيضاً، فتابع أنطوني: «ولنركز على كيفية تحريك التصويت في لندن».

فعادوا إلى السبورة. لا يمكن الانتصار في حرب على مصير العالم بين عشية وضحاها. كانوا يعرفون هذا من الناحية النظرية، لكنهم لم يستطيعوا إجبار أنفسهم على التوقف والنوم. كانت كل ساعة تمر تأتي بأفكار وتكتيكات جديدة. لكن، مع توالي الساعات بعد منتصف الليل، بدأت أفكارهم تفقد شيئاً من ترابطها. هب أنهم استطاعوا الإيقاع باللورد بالمرستون في فضيحة



مشينة بإرسال ليتي وكاثي لتغوياه وهما مُتَنكرتان! وهب أنهم أقنعوا عامة الشعب البريطاني بأن الصين غير موجودة وما هي إلا خدعة ابتدعها ماركو بولو! وأنت لحظة غرقوا فيها في نوبة ضحك عاجزة، إذ راح جريفيين يشرح بالتفصيل الممل خطة لاختطاف الملكة فيكتوريا في حدائق قصر باكنجهام تحت ستار عصابة إجرامية صينية واحتجازها رهينة في ميدان ترافلجار.

كانت تلك المهمة مُروّعة ومُستحيلة، لكن روبين وجد شيئاً من اللذة المثيرة في هذا العمل. كان الإبداع في حل المشكلات وتقسيم المهام الجسام إلى عشرات المهام الصغيرة الممزوج بالخط الوفير ليقودهم إلى النصر، وقد ذكره كل هذا بما شعر به حين كان في المكتبة يعمل على ترجمة شديدة الصعوبة الساعة الرابعة صباحاً وهو يضحك بشكل هستيري، إذ كانوا في غاية التعب. بيد أنهم كانوا مُفعمين بالطاقة لأنهم كانوا يصلون لقمة الإثارة حين كان الحل يبرز من بين فوضى الملاحظات وجلسات العصف الذهني. اتضح أن تحدي الإمبراطورية أمر مُبهج.

ولسبب ما، لم ينفكوا يعودون للزوج المتطابق بوليميكوس. لعل ذلك كان يُعزى لتشابه الموقف مع حرب الأفكار أو معركة من أجل روح بريطانيا. رأت ليتي أن الاستعارات المستخدمة في الخطاب كانت تدور حول صور الحرب، وقالت: «فكروا في الأمر - ليس لموقفهم أساس. يجب أن نهجم نقاط ضعفهم وندحض أسسهم الحرجية».

ردت فيكتوار: «نقول نفس الشيء بالفرنسية أيضاً. شوفال دي باتاي».*.

ردت ليتي بابتسامة: «حصان الحرب».

قال جريفيين: «حسناً. ما دتم تتحدثون عن الحلول العسكرية، فما زلت أرى أننا يجب أن نُنفذ عملية الغضب الإلهي».

سأل رامي: «ما عملية الغضب الإلهي؟».

* أي المسار الجذلي المفضل لدى الشخص.



أجاب أنطوني: «لا عليك. إنه اسم غبي وفكرة أكثر غباءً!».

قال جريفيين بإجلال: «حين رأى الله هذا، لم يسمح لهم، بل ضربهم ببليلة الألسنة وجعلهم كما ترى»** ثم أردف: «اسمعوا، إنها فكرة جيدة. لو أننا فقط هدمنا البرج....».

فسأل أنطوني باستياء: «بماذا نهدمه يا جريفيين؟ بأي جيش؟».

أجاب جريفيين: «لسنا بحاجة لجيش. ليسوا جنودًا بل باحثون. خذ سلاحًا وادلف إلى هناك ولوّح به واصرخ قليلًا، وستحتجز جميع من في البرج رهائن، ومن ثم، ستصبح البلاد بأسرها رهينة عندك. بابل هو الجوهر يا أنطوني، بل مصدر قوة الإمبراطورية. يجب أن نستحوذ عليه فحسب».

نظر إليه روبين بانزعاج، ذلك أن عبارة هواياووي*** بالصينية تعني حرفيًا «مذاق البارود» وأدبيًا «الشراسة والميل إلى الحرب». كان رائحة البارود تفوح من أخيه، وكان ينضح عنفًا.

قالت ليتي: «مهلاً. هل تريد الهجوم على البرج؟».

هز جريفيين كتفيه وأجاب: «بل أريد احتلال البرج، ولن يكون هذا صعبًا، كما يعد حلاً جذريًا لمشكلاتنا، أليس كذلك؟ لم أنفك أحاول إقناع هؤلاء الفتية، لكنهم أشد خوفًا من التنفيذ».

سألت فيكتوار: «ماذا تحتاج للتنفيذ؟».

أجاب جريفيين بابتسامة: «هذا هو السؤال المناسب، حبل، وبندقيتان، بل وليس حتى هذا... إن الأمر لا يتطلب سوى بعض السكاكين على الأقل....».

كررت ليتي: «بنادق؟ سكاكين؟».

** ليست العبارة من كتب الأثر، إذ تروي قصة بليلة الألسنة في بابل بعبارات أقل جذّة، بل بالأحرى من سفر رؤيا باروخ الثالث المنسوب زورًا للكاتب باروخ بن نيريا. وفي نوبة تحطم الأوهام، كان جريفيين يسعى لتنفيذ مشروع يتناول روايات متعددة لسقوط بابل.



«إنها للاستقراز فحسب يا عزيزتي، لن نؤذي أحداً».

تراجعت ليني: «هل أنت فعلاً...».

حدبت كاثي جريفين بنظرة غضب وقالت: «لا تقلقي. لقد أوضحنا رأينا في هذا جيداً».

ألح جريفين: «لكن فكري فيما سيحدث. ماذا تفعل هذه البلاد دون فضاة مسحورة، ودون من يصونها؟ ستزول قوة البخار، والمصابيح الدائمة، ودعائم المباني. سوف تنزوى الطرق وستختل وظائف العربات، ناهيك بأوكسفورد، ستتهار لندن بأسرها خلال أشهر. سيخرون على رُكبهم وهم في حالة شلل».

قال أنطوني: «ويموت عشرات الأبرياء. لا نقبل بهذه الفكرة».

فاتكا جريفين وعقد ذراعيه وقال: «حسنًا. افعلها بطريقتك. لتتشكّل مجموعات ضغط».

انتهت الجلسة الساعة الثالثة صباحًا. قادهم أنطوني إلى بالوعة في الجهة الخلفية من المكتبة حيث يمكنهم الاغتسال وقال: «عذرًا، لا يوجد حوض، ومن ثم، عليكم غسل إبطكم بالصابون وأنتم واقفون». ثم جذب كومة من الأغطية والوسائد من خزانة.

قال بنبرة اعتذارية: «ليس لدينا سوى ثلاثة أسرّة. لا نقضي الليل هنا كثيرًا. لماذا لا تتبعن إلزي إلى غرفة القراءة يا أنسات؟ أما السادة فيمكنهم الرقاد بين الأروقة، ما يعطي بعض الخصوصية».

كان روبين مُرهفًا على نحو جعله يرى لوحًا من الخشب بين الأروقة شيئًا رائعًا. بدا الأمر وكأنه ظل مستيقظًا ليوم طويل منذ وصل إلى أوكسفورد، وأنه مر بما يسع حياة بأكملها. أخذ غطاءً من أنطوني وشق طريقه بين



الأروقة، ولكن قبل أن يستقر، ظهر جريفيين بجانبه وقال: «هل لديك لحظة؟».

سأل روبين: «ألن تنام؟» كان جريفيين مُرتديًا ملابسه بالكامل ومُلتحفًا بمعطف.

أجاب جريفيين: «لا، سأنتقل مُبكرًا. لا يوجد خط سكة حديدي مباشر إلى جلاسكو. سأستقل قطارًا إلى لندن، ثم آخذ أول قطار في الصباح. اخرج معي إلى الفناء».

«لماذا؟».

تحسس جريفيين السلاح المربوط في حزامه وقال: «سأشرح لك كيف تُطلق النار».

تشبَّث روبين بالغطاء وقال: «بالطبع لا».

رد جريفيين: «إدًا، سوف تشاهدني وأنا أُطلق النار. أعتقد أننا تأخرنا في التحدث معًا، أليس كذلك؟».

تنهَّد روبين، ووضع الغطاء، وتبع جريفيين خارج الباب. أثار ضوء القمر الفناء جيدًا. لابد أن جريفيين كان يستخدمه كثيرًا في إطلاق النار، إذ رأى روبين أن الأشجار في جميع أنحاء الفناء مثقوبة بالرصاص.

«ألا تخشى أن يسمعننا أحدهم؟».

أجاب جريفيين: «كل هذه المنطقة محمية بسحر الخداع. إنه عمل شديد الذكاء. لا يستطيع أحد أن يرى أو يسمع الكثير إلا من يعلم بوجودنا بالفعل. هل تعرف أي شيء عن البنادق؟».

«ولا أقل القليل».

«حسنًا. لم يُفَتَّ أو أن التعلم». وضع جريفيين البندقية في يدي روبين. ومثل قوالب الفضة، كانت أثقل مما بدت عليه وباردة الملمس. كان انحناء مقبضها الخشبي ذا أناقة لا تُضاهى. يا لسهولة تناسبه مع يده! لكن روبين شعر



بالنفور وهو مُمسِكُ بها. كان يشعر بأنها غادرة، وكأن المعدن يحاول لدغه. أراد بشدة أن يُلقِي بها على الأرض، لكنه خشي تشغيلها عن طريق الخطأ.

قال جريفيين: «هذا مسدس متعدد المواسير، وهو شائع بين المدنيين. يعمل على آلية القَدْح، ما يعني أنه ينطلق حين يبتل. لا تنظر داخل الماسورة أيها الأحمق. لا تفعل ذلك على الإطلاق. حاول تصويبه».

قال روبين: «لا أفهم الهدف. لن أطلق هذا المسدس».

«لا يهم أن تطلقه، بل يهم أن يعتقد أحدهم أنك ستفعل. ما زال زملائي مُتمسكين بهذا الإيمان غير المعقول بالخير الإنساني». عمّر جريفيين المسدس وصوّبه نحو شجرة البتولا في الجانب الآخر من الفناء وتابع: «لكنني من مُتبعي منهج الشك وأرى أن طرد المستعمرين يجب أن يقوم على العنف».

ثم جذب الزناد. كان الانفجار عالي الصوت، فارتد روبين إلى الخلف. لكن جريفيين ظل هادئاً. قال وهو يضبط المواسير: «ليس عملاً مزدوجاً. يجب أن تُعشّق المطرقة بعد كل طلقة».

كان يصوّب بشكل جيد. دقق روبين النظر ورأى شيئاً لم يسبق له رؤيته في شجرة البتولا.

«كما ترى فإن المسدس يغير كل شيء. لا يتعلق الأمر بالتأثير فحسب، بل بما يرسله من إشارات». ثم راح جريفيين يمرر أصابعه فوق الماسورة، ثم استدار وصوّب المسدس نحو روبين.

انتفض روبين للخلف وقال: «يا إلهي...».

«أليس مُرعباً؟ فكر فيما يجعله مُرعباً أكثر من أي سكين». لم يُحرك جريفيين ذراعه، بل تابع: «يقول أنا أريد قتلك وكل ما عليّ عمله هو جذب الزناد. يمكنني القتل عن بعد ودون مجهود. يزيل السلاح عناء القتل ويجعله أنيقاً، كما يقلل المسافة بين القرار والفعل. هل فهمت؟».



سأل روبين: «هل سبق لك إطلاق النار على أحد؟».

«بالطبع».

«هل أصبته؟».

لم يُحر جريفين جوابًا، بل قال: «يجب أن تفهم أين كنت. ليس هناك مكتبات ولا ساحات نقاش يا أخي. تبدو الأشياء مختلفة في ميدان القتال».

استفهم روبين: «هل بابل ميدان قتال؟ هل كانت إيفي بروك عدوًا مُقاتلاً؟».

خفض جريفين المسدس وقال: «هل هذا هو الشيء الذي يعيقنا؟».

«لقد قتلت فتاة بريئة».

«بريئة؟ هل هذا ما أخبرك والدنا؟ أنني قتلت إيفي بدم بارد؟».

أجاب روبين: «لقد رأيت القلب. إنه في جيبِي يا جريفين».

تمتم جريفين بازدياء: «لم تكن إيفي مجرد مُتفرجة بريئة، بل حاولت تجنيدها على مدى أشهر. كان الأمر خادعًا، إذ كانت مُقربة جدًا لستيرلنج جونز، لكنها كانت الطرف ذا الضمير الحي، أو لعلنا ظننا هذا. قضيت أشهرًا طويلة أحاول إقناعها في تويستد روت حتى قالت ذات ليلة إنها جاهزة وستنضم إلينا. لكن الأمر كان مؤامرة».

كانت تتحدث مع الشرطة والأساتذة طوال الوقت وقد دبروا هذه الخطة للإيقاع بي مُتلبسًا.

كانت ممثلة بارعة. كانت تنظر للمرء في عينيه وتومئ كأنها تتعاطف معك كل التعاطف. لم أعلم بالطبع أن كل هذا تمثيل، بل ظننت أنها صارت لي حليفًا. كنت أشعر بالحماس حين كانت تقتنع. وإذ فقدنا الكثيرين في بورما، كنت أشعر بوحدة شديدة. تعاملت إيفي مع هذا الأمر بذكاء شديد. لقد طرحنا أسئلة أكثر من التي طرحتها، وجعلت الأمور تبدو وكأنها تريد



المعرفة بسبب حماسها الشديد للقضية ورغبتها في معرفة كل الطرق التي يمكنها مساعدتنا بها».

«كيف اكتشفت الأمر إذًا؟».

«حسنًا، لم تكن بهذا الذكاء. لو كانت أكثر ذكاءً، ما أفشت سرها إلا بعد تأمين نفسها».

انقبضت معدة روبين وقال: «لكنها أخبرتك. أرادت أن تَسْمَت».

رد جريفيين: «لقد ابتسمت لي. حين انطلقت الصافرة، ابتسمت وقالت لي إن الأمر انتهى، ومن ثم، قتلها. لم أقصد هذا. لن تصدقني، لكنها الحقيقة. أردت إخافتها. لكنني كنت غاضبًا ومزعورًا، وكانت إيفي شرسة. لو كنت أعطيتها فرصة، لبادرت بإيذائي».

همس روبين: «هل تصدق ذلك، أم لعلها كذبة تستدعيها كي تستطيع النوم ليلاً؟».

قال جريفيين باستهزاء: «أنام بارتياح شديد، لكنك تحتاج إلى أكاذيب، أليس كذلك؟ دعني أحمّن. تقول لنفسك إنه كان حادثًا وأنك لم تقصد».

رد روبين بإصرار: «لم أقصد، لقد وقع فحسب، ولم يكن مُتعمدًا. لم أرغب أبدًا...».

قال جريفيين: «لا. لا تُخَفِ ولا تتظاهر، فهذا جبن شديد. قُل ما تشعر به. اعترف أنه كان جيدًا، بل إن مجرد القوة منحتك شعورًا جيدًا...».

أصر روبين: «لو استطعت، لتراجعت». لم يعرف سبب شعوره بأهمية تصديق جريفيين له، لكن هذا بدا وكأنه آخر خيط يتعلق به وآخر حقيقة يجب أن يحتفظ بها حيال هويته، وإلا لم يكن ليتعرف على نفسه. «ليته بقي على قيد الحياة...».

«لا يمكن أن تقصد هذا. يستحق ما حل به».

«لم يكن يستحق الموت».



قال جريفين بصوت مرتفع: «كان والدنا رجلاً قاسياً أنانياً وكان يعتقد أن غير ذوي البشرة البيضاء أو الإنجليز أقل آدمية. لقد دمّر والدنا حياة أمي وترك أمك تهلك. إن والدنا أحد مُدبّري الحرب المُزَمّع شَنّها على وطننا. لو كان قد عاد حيّاً من كانتون، ما كان البرلمان في حالة نقاش الآن، بل كان قد صوّت على الحرب. لقد منحنا فرصة لأيام أو لعلها أسابيع. فما خطورة كونك قاتلاً يا أخي؟ لقد صار العالم أفضل دون الأستاذ. كفى رَزْخاً تحت وطأة الشعور بالذنب وخذ ما تستحقه من تقدير». ثم أدار المسدس وأعطى المقبض لروبين قائلاً: «خذه».

«قلت لا».

فجذب جريفين أصابع روبين بغضب ووضعها حول المقبض رغماً عنه وقال: «ما زلت لا تفهم. لقد ابتعدنا عن مجال الأفكار يا أخي. نحن في حالة حرب».

«لكن لو كانت هذه حرباً، فقد خسرثموها». كان روبين رافضاً الإمساك بالسلاح. «ليست هذه طريقة تنتصرون بها في ميدان القتال. كم عدد قواتكم؟ أهي عشرون؟ ما أقصى عدد؟ هل ستهاجمون الجيش البريطاني بأسره؟». أجاب جريفين: «أوه! هذا هو موضع خطئك. حين يتعلّق الأمر بالعنف، فالإمبراطورية لديها الكثير لتخسره. يُعطّل العنف الاقتصاد الاستخراجي، فحين تُلحق الدمار بخط إمداد واحد، تنخفض الأسعار في الجانب الآخر من الأطلنطي، ذلك أن منظومتهم التجارية بأكملها شديدة الحساسية ومُعَرَّضة للصدمات؛ لأنهم جعلوها هكذا، فجشع الرأسمالية مُدْمِر. ولهذا السبب نتج ثورات العبيد. لا يمكنهم الاعتداء على مصدر قوتهم العاملة، إذ يشبه هذا قتل الدجاجة التي تبيض لهم ذهباً.

«لكن، لو كانت المنظومة بهذه الهشاشة، فلم نقبل الموقف الاستعماري بهذه السهولة؟ لماذا نراه حتمياً؟ لماذا لا يَسْتَلّ مان فرايدي سلاحاً ويقطع رأس روبنسون كروزو ليلاً؟ تتمثل المشكلة في أننا نعيش دائماً وكأننا فاشلون. نعيش جميعاً مثلك. نرى مسدساتهم، وأعمال الفضة، وسفنهم ونعتقد



أن أمرنا قد انتهى. لا نتوقف للتفكير في حقيقة تكافؤ الفرص، ولا نفكر فيما ستكون عليه الأمور لو حملنا السلاح». وهنا قدّم جريفين السلاح مُجددًا لروبين قائلاً: «احترس، فمقدمته ثقيلة».

قبله روبين هذه المرة، ثم صوّبه نحو الأشجار على سبيل التجربة. فانحدرت الماسورة نحو أسفل بالفعل، فأمال يده على معصمه ليحافظ على اتزانه.

قال جريفين: «يُبين العنف لهم ما يمكننا التخلي عنه، فهو اللغة الوحيدة التي يفهمونها لأن منظومتهم الاستخراجية عنيفة بطبيعتها. يصدّم العنف المنظومة ولا تستطيع المنظومة تحمّل الصدمة. لا تعلم بقدراتك، ولا يمكنك أن تتخيل كيف يتحول العالم ما لم تجذب الزناد». ثم أشار جريفين إلى شجرة البتولا الوسطى وقال: «اجذب الزناد يا فتى».

أطاع روبين. كاد الانفجار يُصمّ أذنيه. كان متأكدًا أنه لم يُحسن التصويب ولم يكن مُهيأً لقوة الدفعة الخلفية، وارتجفت ذراعه من المعصم إلى الكتف، في حين ظلت الشجرة سليمة. كانت الرصاصة قد انطلقت بلا هدف نحو الظلام.

لكنه كان مُضطّرًا للاعتراف بأن جريفين كان محقًا، ذلك أن فورة تلك اللحظة، والقوة الموجودة بين يديه، والسطوة التي يمكنه استخلاصها في طرفة عين كانت تمنحه شعورًا جيدًا.



الفصل الثالث والعشرون



يا لصغر قلوب ذوي البشرة البيضاء هؤلاء! فهي لا تسع سواهم.

ماري برينس، قصة ماري برينس.

لم يستطع روبين النوم بعد توجُّه جريفين إلى جلاسكو، فجلس في الظلام وهو يرتجف توترًا. كان يشعر بدوار وانقطاع في أنفاسه وكأنه ينظر من صخرة منحدرّة قبل أن يقفز. فعلى ما يبدو أن العالم بأسره على وشك تحول جذري مُدْمَر، ولم يكن باستطاعته سوى التثبث بما حوله والجميع يندفعون نحو نقطة اللاعودة.

وبعد ساعة، بدأت مكتبة أولد تتحرك. وفي تمام الساعة، ارتدّ صدى تغريد الطيور كالسيمفونية بين أروقة المكتبة. كان الصوت شديد الارتفاع، بل وكأنه لا يصدر من الخارج، بل بالأحرى كأن سرب الطيور بأسره كان يعيش بين الكتب دون أن يراه أحد.

سأل رامي وهو يفرك عينيه: «ما هذا؟ هل توجد حديقة حيوانات صغيرة في الخزانة الخلفية؟».

فأشار أنطوني إلى ساعة ذات صندوق طويل مزينة حوافه بنقوش لطيور مغردة وقال: «إنها هدية من أعواننا السويديين. تعني كلمة جاكوتا الاستيقاظ فجرًا للاستماع لتغريد الطيور. يوجد بداخلها تركيب ميكانيكي لصندوق موسيقي، لكن الفضة تُقلّد تغريد الطيور الحقيقي. أليس جميلًا؟».

أجاب رامي: «ألا يمكن خفض الصوت؟».

«آه، تُعدُّ ساعتنا نموذجًا. إنها تتقادم. يمكنك الحصول على تلك في متاجر لندن، فهي رائجة للغاية ويحبها الأثرياء».



اغتسل الجميع واحدًا تلو الآخر بالماء البارد عند البالوعة، ثم انضموا للفنيات في غرفة القراءة حول ملاحظات الأمس المُجمّعة ليستكملوا عملهم. بدت ليّتي وكأنها لم تنمّ للحظة، كانت هناك هالات سوداء تحت عينيها وكانت تتنّاب ضامّة ذراعيها حول صدرها ببؤس.

فسأل روبين: «هل أنت بخير؟».

فراحت تنتظر حول الغرفة بعينين زائغتين وأجابت: «أشعر كأنني أحلم، فكل شيء مقلوب رأسًا على عقب. كل شيء معكوس».

قال روبين في نفسه: «هذا معقول». رأى الجميع أن ليّتي صامدة إلى حد كبير. لم يعرف كيف يعيد صياغة ما يريد قوله بأسلوب مُهذّب، فسأل تلميخًا: «ما رأيك؟».

فسألت بإحباط: «فيمّ يا روبين؟ في الجريمة التي نُعطِيتها، أم في سقوط الإمبراطورية البريطانية، أم في كوننا هاربين لباقي عمرنا؟».

«في كل شيء».

دلّكت صدغيها وقالت: «العدالة مُرهقة. هذا رأيي».

أحضرت كاّثي إناء شاي ساخنًا، فمدوا أكوابهم للأمام بامتنان. تعرّث فيمال وهو متجه من الحمام إلى المطبخ. كان يتنّاب. وبعد بضع دقائق، امتلأ الصالون برائحة ذكية لوجبة مقلية، فهتف: «بيّض على الطريقة الهندية» وهو يصبُّ بيضًا مخفوفًا ممزوجًا بالطماطم في أطباقهم، ثم أردف: «الخبز في الطريق».

تمتت كاّثي بإعجاب: «يمكنني الزواج بك يا فيمال».

التهموا طعامهم في صمت وسرعة تلقائية. وبعد دقائق، نُظّفت المائدة، وأعيدت الأطباق المُتسخة إلى المطبخ الصغير، ثم انفتح الباب الأمامي مُصدرًا صريرًا. كانت إلزي قد عادت من وسط المدينة ومعها صحف ذلك الصباح.



سأل أنطوني: «هل توجد أي معلومة عن المناقشات؟».

أجابت: «ما زال الخلاف قائماً بينهم. ومن ثم، لدينا فُسحة من الوقت. ما زال حزب الأحرار مُتأرجحاً في أعداد المُصوّتين، ولن يعقدوا تصويماً حتى يتأكدوا. لكن، ما زلنا نريد تلك المنشورات في لندن اليوم أو غداً. يجب أن يَسْتَقِلَّ أحدُ قطار الظهيرة ويطبعها في فليت ستريت».

فسأل فيمال: «أما زلنا نعرف أي شخص في فليت ستريت؟».

«نعم، نعرف تيريزا في مطبعة ستاندرد، يذهبون للطباعة يوم الجمعة من كل أسبوع. يمكنني الدخول واستخدام تلك الأدوات بكل تأكيد لو أعددتُم لي شيئاً الليلة». ثم أخرجت صحيفة مُجعدة من حقيبتها وفردتها على المنضدة وقالت: «بالمناسبة، هذه أحدث أخبار لندن. لعلكم تريدون قراءتها».

مدّ روبين عنقه مُحاولاً قراءة النص المقلوب.

مقتل أحد أساتذة أوكسفورد في كانتون. الجناة تأمروا مع مجموعات الضغط الصينية.

رمش بعينه وقال: «حسناً، أظنني فهمت مُعظم التفاصيل بشكل صحيح».

راح رامي يُقَلِّب أوراق الصحيفة وقال: «أوه انظروا! تحوي رسومات لوجوهنا».

قالت فيكتوار: «لا تُشبهك هذه الصورة».

فرد رامي موافقاً: «لا، فلم يُحسنوا رسم أنفي، وجعلوا عيني روبين صغيرة للغاية».

قال أنطوني موجّهاً سؤاله لِإلزي: «هل طبعوا هذا في أوكسفورد أيضاً؟».

«لا، فقد لاذوا بالصمت، وهو أمر غريب».



قال أنطوني: «هذا مثير للاهتمام. ما زال السفر إلى لندن محظورًا بالنسبة لكم». احتج الجميع دفعة واحدة، لكنه رفع يده وقال: «تَعَقَّلُوا، فهذا خطر ولن نُجَازِفَ به. ستختبئون في مكتبة أولد حتى نهاية الأمر. يجب ألا يتعرّف أحد عليكم».

فرد رامي: «ولا أنت كذلك».

«يظنون أنني ميت، ويعتقدون أنك قاتل. الأمران مختلفان تمامًا. لن ينشر أحد وجهي في الجرائد».

فقال رامي بحزن: «لكنني أريد الذهاب إلى هناك، أريد عمل شيء، أريد تقديم المساعدة».

«يمكنك تقديم المساعدة بعدم إلقاء نفسك في السجن. ليست هذه حربًا مفتوحة كما يدّعي عزيزنا جريفيين. تتطلب هذه الأمور حنكة». ثم أشار أنطوني إلى السبورة وتابع: «ركّزوا على الخطة. لنكمل حيث توقفنا. أظننا أجلنا موضوع اللورد أرسينولت الليلة الماضية، أليس كذلك يا ليتي؟».

أخذت ليتي رشفة كبيرة من الشاي، وأغلقت عينيها، ثم بدت كمن تُلِمُّمُ نفسها وأجابت: «بلى. أظن أن علاقة اللورد أرسينولت بوالدي جيدة. يمكنني أن أكتب له وأحاول ترتيب مقابلة».

فسألها روبين: «ألا تظنين أن الأخبار ستصيبه بالارتباك حين يعرف أنك قاتلة؟».

فقرأت فيكتوار العمود بسرعة وقالت: «لم يذكروا اسم ليتي ضمن الجناة، بل ثلاثتنا فحسب. ليس اسمها موجودًا بالمرة».

مضت برهة قصيرة من الصمت المُقَلِّق.

قال أنطوني بسلاسة: «لا، هذا جيد جدًا بالنسبة لنا، إذ يُعطينا قدرًا من حرية الحركة. ابدي الكتابة لأبيك يا ليتي وليبدأ كل منكم العمل على مهمته».



دلف واحد تلو الآخر إلى غرفة القراءة لتنفيذ المهمة المؤكدة إليه. انطلقت إلزي إلى بابل لجلب مزيد من الأخبار حول تطور الأوضاع في لندن، وتوجهت كاثي وفيمال إلى الورشة لإجراء تعديلات على الأزواج المتطابقة باستخدام بوليميكوس. وانكبَّ رامي وفيكتوار على كتابة الخطابات للزعماء الراديكاليين مُتَحَلِّين شخصيات بيض مُتوسطي العمر داعمين للراديكالية. أما روبين، فقد جلس مع أنطوني في غرفة القراءة ليستخلص الأدلة القاطعة على التواطؤ من خطابات الأستاذ لوفيل كإشارات توضع في منشورات حماسية قصيرة. كانوا يرجون أن تكون مشينة على نحو يجعل صحف لندن تلتقطها.

قال له أنطوني: «استخدم اللغة بحرص. يجب أن تتجنب الخطاب المُناوئ للاستعمار، واحترم السيادة القومية. استخدم مصطلحات مثل فضيحة، وتواطؤ، وفساد، وافتقار للشفافية وما شابه. صُغ الأشياء بأسلوب يُشغِل المواطن اللندني المتوسط ولا تجعلها مسألة خاصة بالعرق».

قال روبين: «هل تريدني أن أترجم الأشياء لذوي البشرة البيضاء؟».

«بالضبط».

راحوا يعملون في صمت مُريح لنحو الساعة حتى شعر روبين بألم في يده، فاتكأ مُمسكاً بكوب شاي في صمت حتى رأى أن أنطوني وصل إلى نهاية فقرة، فبادره: «هل يمكنني أن أسألك عن شيء يا أنطوني؟».

فوضع أنطوني قلمه وقال: «ماذا يدور في ذهنك؟».

أشار روبين برأسه إلى كومة من مسودات المنشورات وقال: «هل تعتقد بالفعل أن هذا سينجح؟ أعني تحقيق نصر في مجال الرأي العام».

مال أنطوني للخلف وحرَّك أصابعه وأجاب: «أرى أنك قد تأثرت بأخيك».

قال روبين: «قضى جريفين الليلة الماضية يُعلمني استخدام السلاح، إذ يرى أن الثورة مستحيلة دون انتفاضة عنيفة، وهو مُقنع للغاية».



فَكَرَّ أَنْطُونِي لِبَرَهة وَأَطْرَق وَهُوَ يَدُقُّ الْمَحْبَرَةَ بِقَلَمِهِ وَقَالَ: «يَهْوَى أَخُوكَ أَنْ يَصِفَنِي بِالسَّذَاجَةِ».

«لَيْسَ هَذَا مَا...».

«أَعْرِفْ، أَعْرِفْ. كُلُّ مَا أَقْصَدُهُ هُوَ أَنَّنِي لَسْتُ بِالضَّعِيفِ الَّذِي يَظُنُّهُ جَرِيفِينَ. دَعْنِي أَذْكَرُكَ أَنَّنِي جِئْتُ إِلَى هَذِهِ الْبِلَادِ قَبْلَ أَنْ يُقَرَّرُوا أَنَّنِي حَصَلْتُ عَلَى صَكِّ الْحَرِيَةِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْقَانُونِيَّةِ. قَضَيْتُ مُعْظَمَ حَيَاتِي فِي بِلَادٍ تَتَسَاءَلُ فِي حِيرَةٍ بِالْغَاةِ مَا إِذَا كُنْتُ بَشَرًا بِمَعْنَى الْكَلِمَةِ أَمْ لَا. صَدَقْنِي أَنَّنِي لَا أَكُنُّ أَيُّ تَقَاوُلٍ بِشَأْنِ الْإِعْتِبَارَاتِ الْأَخْلَاقِيَّةِ لِبَرِيطَانِيَا الْبَيِضَاءِ».

رَدَّ رُوبِين: «لَكِنِّي أَظُنُّهُمْ اقْتَنَعُوا فِي النِّهَايَةِ بِإِلْغَاءِ الرِّقِّ».

ضَحِكَ أَنْطُونِي بِهَدْوٍ وَقَالَ: «هَلْ تَظُنُّ أَنَّ إِغْلَاءَ الرِّقِّ كَانَ مَسْأَلَةً أَخْلَاقٍ؟ لَا، فَقَدْ اكْتَسَبَ إِغْلَاءُ الرِّقِّ شَعْبِيَّتَهُ لِأَنَّ الْبَرِيطَانِيِّينَ قَرَّرُوا أَنَّ تَصَبُّحَ الْهِنْدِ دَجَاجَتُهُمُ الْجَدِيدَةُ الَّتِي تَبْيِضُ ذَهَبًا بَعْدَ ضِيَاعِ أَمْرِيكََا. إِلَّا أَنَّ الْقُطْنَ وَالسُّكَّرَ وَالنِّيلَةَ الْهِنْدِيَّةَ لَمْ تَكُنْ لَتَسُودَ السُّوقَ مَا لَمْ تُقْصَرَ فَرَنْسَا، وَلَمْ تَكُنْ فَرَنْسَا لَتُقْصَى مَا دَامَتْ تِجَارَةُ الرِّقِّ الْبَرِيطَانِيَّةُ تَجْعَلُ جُزْرَ الْهِنْدِ الْغَرْبِيَّةِ تَجْلِبُ لَهُمْ رِبْحِيَّةً كَبِيرَةً».

«لَكِنْ...»

«لَكِنْ لَا شَيْءَ. مَا حَرَكَةُ إِغْلَاءِ الرِّقِّ إِلَّا جَعَجَعَةٌ فَارِغَةٌ، بَلْ مَجْرَدُ خُطْبٍ. أَثَارُ بَيْتِ الْحَرَائِكِ، لِأَنَّهُ اسْتَوْعَبَ الْإِحْتِيَاجَ لَوَقْفِ تِجَارَةِ الرِّقِّ إِلَى فَرَنْسَا، وَاتَّفَقَ الْبَرْلَمَانُ مَعَ دُعَاةِ إِغْلَاءِ الرِّقِّ لَخَوْفِهِ الشَّدِيدِ مِنْ انْتِقَاضَةِ السُّودِ فِي جُزْرِ الْهِنْدِ الْغَرْبِيَّةِ».

«تَرَاهَا إِذَا مَخَاطِرُ وَأُمُورٌ اقْتِصَادِيَّةٌ بِحَتَّةٍ».

«حَسَنًا، لَيْسَ بِالضَّرُورَةِ. يَهْوَى أَخُوكَ الْإِحْتِيَاجَ بِأَنَّ ثَوْرَةَ الْعَبِيدِ فِي جَامَايِكََا، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ فَشْلِهَا، هِيَ مَا دَفَعَ الْبَرِيطَانِيِّينَ لَتَقْنِينَ إِغْلَاءِ الرِّقِّ. إِنَّهُ مُحَقَّقٌ، لَكِنْ لَيْسَ بِالْكَامِلِ. لَقَدْ نَالَتِ الثَّوْرَةُ تَعَاطُفَ الْبَرِيطَانِيِّينَ لِأَنَّ الزَّعَمَاءَ كَانُوا مِنْ رِجَالِ الدِّينِ، وَحِينَ فَشَلَتْ، بَدَأَ أَهْلُ جَامَايِكََا ذَوُو الْبَشَرَةِ



البيضاء المُناصرين للعبودية تدمير دور العبادة وتهديد الإرساليات. عاد أولئك الزعماء إلى إنجلترا وحشدوا التأييد على أساس ديني، لا حقوقي. ما أقصده هو أن إلغاء الرق قد تم لأن بعض ذوي البشرة البيضاء وجدوا أسبابًا للقلق، سواء أكانت اقتصادية أو دينية. كل ما عليك عمله هو جعلهم يظنون أنهم أصحاب الفكرة. لا يمكنك مخاطبة الخير الداخلي لديهم. لم أقابل أي شخص إنجليزي أثق بأنه سيفعل الصواب بدافع التعاطف على الإطلاق».

قال روبين: «حسنًا، لدينا ليتي».

قال أنطوني بعد وقفة: «نعم، أظن أن لدينا ليتي. لكنها حالة نادرة، أليس كذلك؟».

فسأل روبين: «ما المسار الذي يقودنا إلى الأمام إذًا؟ وما الهدف من كل هذا إذًا؟».

أجاب أنطوني: «الهدف هو تأسيس حلف، ويجب أن يحتوي على مُتعاطفين. يمكننا جلب ما نشاء من موارد بابل، لكن هذا لن يكفي لإزاحة قوى نفوذ مُتأصلة مثل جاردين وماتيسون. فلو كنا لنُحوّل مجرى التاريخ، فيجب أن نستعين ببعض هؤلاء الرجال - الرجال أنفسهم الذين يستحلون بيعي وأمثالي في المزاد - كحلفاء لنا. نحتاج لإقناعهم بأن التوسع البريطاني عالميًا، والقائم على تلال من الفضة، لا يخدم مصالحهم العليا، ذلك أن مصالحتهم هي المنطق الوحيد الذي يستمعون إليه، لا العدالة ولا كرامة الإنسان ولا الحريات التي يتبحجون بتقديرها، بل الربح».

«الأسهل أن تُقنعهم بالمشي في الشارع دون أحذية».

«ها! كلاً، فجزور التحالف موجودة، وقد آن أوان قيام ثورة في إنجلترا. باتت أوروبا بأسرها متحمسة للإصلاح على مدى عشرات السنين. لقد التقطوا الأمر من الفرنسيين. يجب أن نجعلها حرب طبقات، بدلاً من حرب أعراق، وتتعلق المسألة فعلاً بالطبقات. تبدو كجدل على الأفيون والصين، لكن الصينيين ليسوا الوحيدين المعرضين للخسارة، أليس كذلك؟ كل الأمور



مُتصلة. تُعدُّ الثَّورة الصناعية القائمة على الفضة من أكبر دوافع عدم المساواة، والتلوث، والبطالة في هذه البلاد. يُعدُّ مصير أسرة فقيرة في كانتون متصلاً بمصير عامل نسيج عاطل في يوركشاير على نحو مُعقّد. لا يستفيد أي منهما من توسع الإمبراطورية، بل يزداد كلاهما فقرًا في حين تزداد الشركات ثراءً. لذا، لو استطاعوا تشكيل تحالف فحسب.....»

عقد أنطوني أصابعه وتابع: «لكن هذه هي المشكلة. لا يركز أحد على مدى ارتباطنا جميعًا. نفكر فحسب في معاناتنا الفردية. لا تُدرك الطبقتان الفقيرة والمتوسطة في هذه البلاد وجود أمور مشتركة أكثر فيما بيننا منها في وستمستر».

قال روبين: «يوجد مثل صيني يعبر عن جوهر الموضوع. توسيهوباي*. يموت الأرنب، فيحزن الثعلب، فواحد ميت والآخر مُهدّد بالموت».

قال أنطوني: «بالضبط. يجب أن نُقنعهم أننا لسنا فرائس لهم فحسب، وأن هناك صيادًا في الغابة، وأن الجميع مُعرّض للخطر».

نظر روبين إلى المنشورات التي بدت غير كافية وقتها، بل مجرد كلمات، ومجرد حبر على ورق وقال: «هل تعتقد أنك تستطيع إقناعهم بهذا بالفعل؟».

حرّك أنطوني أصابعه مُجددًا وقال: «يجب ذلك». ثم التقط قلمه وواصل التقليل في خطابات الأستاذ لوفيل وقال: «لا أرى طريقة أخرى ناجعة».

حينئذٍ تعجّب روبين من قضاء أنطوني عمره في ترجمة نفسه بحذر لذوي البشرة البيضاء، وإلى أي مدى كان سلوكه الودود والاجتماعي تمثيلًا مُتقنًا يتناسب مع فكرة معينة عن الرجل الأسود في إنجلترا البيضاء ويؤمن له أقصى نفوذ في مؤسسة مثل بابل. كما كان يتساءل ما إذا سيأتي يوم يصبح فيه كل هذا غير ضروري، وينظر ذوو البشرة البيضاء إليه وأنطوني ويستمعون ببساطة، ويصبح لكلامهم قيمة لأنهم نطقوا بها فحسب، ولن



يضطروا لإخفاء أصولهم، ولن يُجبروا على خوض تحريفات لا حصر لها كي يفهموا.

وعند الظهيرة، اجتمعوا مُجددًا في غرفة القراءة لتناول الغداء. كان كاثي وفيمال مُتحمسين لما فعلاه بالزوج المتطابق بوليميكوس والذي جعل المنشورات تطير وتواصل التحليق في الهواء حول المارة لو أُلقي بها في الهواء. أضاف فيمال إلى هذا الأصل اللاتيني لكلمة ديسكاس وهي ديسكوتير والتي قد تعني «نثر» أو «بعثرة».

قال فيمال: «هب أننا نُجرب تأثير القالبين على كومة من المنشورات المطبوعة. سوف تطير في جميع أنحاء لندن، سواء أكانت هناك رياح أم لا. ماذا عن عمل ذلك لجذب انتباه الناس؟».

وبالتدريج، تبلورت الأفكار التي بدت شديدة السخف في الليلة الماضية وتلك الكتابات غير المُنظمة الناشئة عن عقول محرومة من النوم لتصبح خطة عمل جيدة. جمع أنطوني كل محاولاتهم على السبورة. وعلى مدى الأيام القليلة التالية أو الأسابيع، إذا لزم الأمر، كانت جمعية هرمس تُحاول التأثير على النقاشات بأي طريقة ممكنة. كانت صديقة إلزي في فليت ستريت لتُنشر مقالاً مهمًا حول وليم جاردين الذي أثار كل تلك الفوضى في المقام الأول، وكيف كان يقضي أيامه مُتتعمًا في منتجع صحي بمدينة تشنتلهم. وكان فيمال وكاثي ليقنعا أعضاء حزب الأحرار المُتذبذبين، مستعينين ببعض الوسطاء ذوي البشرة البيضاء الأكثر احترامًا، بأن استعادة العلاقات الجيدة مع الصين قد تستبقي أبواب تجارة البضائع المشروعة، مثل أنواع الشاي والراوند. يُضاف إلى هذا أن جريفيث كان يبذل جهودًا في جلاسكو، علاوة على المنشورات المُوشِكة على التحليق في لندن. وخلص أنطوني إلى أنه من خلال الابتزاز، ومجموعات الضغط، وضغط الرأي العام، قد يتمكنون من حشد ما يكفي من الأصوات لإيقاف حراك الحرب.

قالت إلزي ناضرة إلى السبورة وكأنها فوجئت: «قد ينجح هذا».

قال فيمال موافقًا: «قد ينجح».



فسأل رامي: «هل أنت متأكد أننا لا نستطيع المجيء معكما؟».

ربت أنطوني كتفه بتعاطف وقال: «لقد قمتم بدوركم، وأبديتم شجاعة كبيرة. لكن آن الأوان لتترك الأمور للمُحترفين».

قال روبين: «تكبرنا بخمس سنوات فحسب. كيف يجعلك هذا محترفاً؟».

أجاب أنطوني: «لا أدري. يجعلني هكذا فحسب».

فسألت ليتي: «هل من المفترض أن ننتظر دون أن نعرف أي شيء فحسب؟ لا يمكننا حتى إحضار الصحف».

قال أنطوني: «سنعود جميعاً بعد التصويت، وسوف نعود بين الحين والآخر للاطمئنان عليكم مرة كل يومين، لو كنتِ تشعرين بمثل هذا التوتر».

فألحّت ليتي: «لكن ماذا لو حدث شيء؟ ماذا لو اجتمعتم لمساعدتنا؟ ماذا لو احتجنا لمساعدتكم؟».

تبادل الزملاء الخريجون النظر بعضهم لبعض. بدا الأمر أشبه بحديث صامت فيما بينهم أو تكرار لمحادثة أجروها بينهم عدة مرات من قبل حسبما خمنَ روبين، إذ كان موقع كل شخص واضحاً. رفع أنطوني حاجبيه، وأومأت كاثي وفيمال، وضمت إليّ شفتيهما بتردد، لكنها تهتدت وهزت كتفها أخيراً.

قالت: «هلم».

قال أنطوني: «سوف يعترض جريفين».

قالت كاثي: «حسنًا، ليس جريفين موجوداً».

وقف أنطوني واختفى للحظة داخل الأروقة ثم عاد حاملاً ظرفاً مُقفلاً وقال وهو يضعه على المنضدة: «يحتوي هذا على بيانات الاتصال بأعوان هرمس في جميع أنحاء العالم».

قال روبين بدهشة: «هل أنت متأكد من جواز رؤيتنا هذا؟».



أجاب أنطوني: «لا، لا يجب هذا. لكني أرى أن دعر جريفيين قد انتقل إليكم، وليس هذا الأمر سيئاً. لكن هَبْ أنكم من تبقى منا. لا توجد أسماء ولا عناوين هنا، بل نقاط ترك رسائل وتعليمات اتصال فحسب. لو انتهى بكم الأمر للتواجد وحدكم، ستجدون على الأقل بعض الوسائل لاستبقاء هرمس على قيد الحياة».

قالت فيكتوار: «تتحدث وكأنكم قد لا تعودون».

«حسناً، هناك فرصة ضئيلة لهذا، أليس كذلك؟».

ساد الصمت المكتبة.

وفجأة شعر روبين بأنه صغير جداً، بل شديد الطفولية. كان الأمر يبدو كأعباء؛ مُسَلِّية تدبير خُطط في ساعات متأخرة مع جمعية هرمس واللعب بمسدس أخيه الأكبر. كان موقفهم شديد الغرابة وشروط النصر صعبة التصور على نحو جعل الأمر أشبه بتدريب منه بالواقع. والآن استقر في نفوسهم أن القوى التي كانوا يواجهونها مخيفة فعلاً، وأن الشركات التجارية ومجموعات الضغط السياسي التي كانوا يحاولون التلاعب بها لم تكن وحوشاً هزلية، بل منظمات قوية ذات مصالح متجذرة في التجارة الاستعمارية قد ترتكب لحمايتها جرائم قتل.

قال رامي: «لكنكم ستكونون بخير، أليس كذلك؟ لم تُلَقِ بابل القبض عليكم من قبل...».

رد أنطوني بلطف: «بل أَلَقْتُ القبض علينا عدة مرات، ومن هنا أتى الدعر».

قال فيمال وهو يضع مسدساً في حزامه: «ومن هنا التسرُّب. نعلم بالمخاطر».

فطمأنتهم كاثي: «لكنكم ستظلون بأمن هنا حتى لو تعرضنا لخطر. لن نشي بكم».



أومأت إليّ: «خير لنا أن نموت على أن نشي بكم».

وقفت ليتي فجأة ووجهها شديد الشحوب ووضعت يديها على فمها وكأنها تريد التقيؤ وقالت: «عذرًا... أنا فحسب - أحتاج لبعض الهواء النقي».

فسألته فيكتوار بقلق: «هل تريدين بعض الماء؟».

«لا، سأكون على ما يرام». مرّت ليتي بسرعة بجوار المقاعد المُكدّسة مُتجهة نحو الباب: «أحتاج للتنفس للحظة لو لم يكن هناك مشكلة».

أشار أنطوني: «الفناء من هنا».

قالت ليتي: «أظنني سأتمشى قليلاً حول الواجهة. أشعر بأن الفناء... خائق نوعاً ما».

رد أنطوني: «إدًا، فلتلزمي المنطقة المُحيطة، فيجب ألا يراك أحد».

«نعم، نعم، بالتأكيد». بدت ليتي في حالة توتر شديد، وكانت تتنفس في شهقات قصيرة ومُتلاحقة على نحو جعل روبين يخشى أن تفقد الوعي. أراح رامي مقعده للخلف كي يُفسح لها الطريق كي تخرج. توقفت ليتي عند الممر وألقت نظرة خاطفة عليهم، ثم تعلقت عيناها بروبين وبدأت مُوشِكة على النطق بشيء. لكنها ضمّت شفثيها وأسرعت بالخروج.

وقبيل مغادرة الخريجين بدقائق، راجع أنطوني شؤون العناية بالمكان مع روبين، ورامي، وفيكتوار. كان بالمطبخ مُؤن تكفي أسبوعاً، بل وقد تمتد الفترة لو اكتفوا بتناول العصيدة والسمك المملح المجفف. أما مياه الشرب، فكانت صعبة المنال، إذ كانت مكتبة أولد تحصل على إمدادها من المياه من مضخات المدينة. لكنهم لم يستطيعوا فتح الصنابير في وقت متأخر من الليل ولا لفترة طويلة في أي وقت، ذلك أن الصرف في أي مكان آخر قد يلفت الانتباه. وفيما عدا ذلك، كانت المكتبة تحوي ما يكفي من الكتب لشغلهم. لكن كان لديهم أوامر صارمة بعدم العبث بأي مشروع جارٍ في الورشة.



قال أنطوني وهو ينتهي من حزم أمتعته: «وحاولوا قدر استطاعتكم البقاء بالداخل. يمكنكم التناوب في الخروج للفناء لو شئتم، لكن اخفضوا أصواتكم إذ يسبب سحر الخداع متاعب بين الحين والآخر. لو اضطررتم لاستنشاق بعض الهواء النقي، فافعلوا بعد مغيب الشمس.

ولو شعرتم بالخوف، هناك بندقية في خزانة المكناس، ولو أنني أرجو ألا تضطروا لعمل هذا، لكن لو اضطررتم، فهل أي منكم...».

قال روبين: «سأتدبر الأمر. أظنها تعمل بطريقة المسدس نفسها، أليس كذلك؟».

ربط أنطوني حذائه وأجاب: «إنها قريبة بما يكفي. جرّبها في وقت فراغك، يوجد اختلاف بسيط في الوزن. وفيما يتعلق بوسائل راحتكم، ستجدون صابونًا وأشياء في الحمام. احرصوا على إخراج رماد المدفأة كل صباح وإلا صار الجو خانقًا. بالمناسبة، كان لدينا حوض غسيل، لكن جريفين دمّره وهو يعبث بالقبائل الأنبوبية. يمكنكم قضاء بعض الأيام دون تغيير ملابسكم، أليس كذلك؟».

أجاب رامي بسخرية: «يوجّه هذا السؤال لليتي».

ساد صمت، ثم سأل أنطوني: «أين ليتي؟».

نظر روبين للساعة، إذ لم يكن قد لاحظ مرور الوقت. كانت نصف ساعة قد مضت على خروج ليتي من المكان.

وقفت فيكتوار وقالت: «لعله يجب عليّ...».

انطلقت صرخة مدوية بالقرب من الباب الأمامي. كان الصوت حادًا مريعًا كأنه صرخة بشرية، فاستغرق الأمر لحظة كي يدرك روبين أنه الإبريق.

جذب أنطوني البندقية وقال: «تبّا! أسرعوا جميعًا إلى الفناء...».



لكن الأوان قد فات، إذ ازداد الصراخ ارتفاعاً حتى بدت جدران المكتبة كأنها تهتز. وبعد مرور ثوان، انفتح الباب الأمامي بقوة وراحت شرطة أو كسفورد تندفق إلى الداخل.

صاح أحدهم: «ارفعوا أيديكم!».

بدا الخريجون وكأنهم أعدوا أنفسهم لهذا. أنت كاثي وفيمال بسرعة من الورشة، وكان كلاهما يحمل قوالب فضة في يده، وألقت إلزي بنفسها على الرف الطويل الذي انهار نحو الأمام ليبدأ تفاعل مُتسلسل قطع الطريق على الشرطة. شرع رامي يركض لتقديم المساعدة، فصاح أنطوني: «لا، اختبئ في غرفة القراءة».

تراجعوا مُتعترين، فدفع أنطوني الباب الأمامي مُغلِقاً إياه وراءهم. كانوا يسمعون أصوات انفجار وتحطُّم بالخارج. وهنا صرخ أنطوني شيئاً مثل «الشعلة»، وصرخت كاثي بشيء ردّاً عليه. كان الخريجون يقاتلون لحمايتهم.

لكن، ما الفائدة؟ كانت غرفة القراءة طريقاً مسدوداً. لم تكن هناك أبواب ولا نوافذ أخرى. كان كل ما باستطاعتهم هو التَّقوقع وراء المنضدة خائفين من طلقات النار بالخارج. ثم أصدر رامي صوتاً بشأن تحصين بالباب، لكن ما إن تحركوا لدفع المقاعد إلى الأمام حتى انفتح الباب.

كانت ليّتي واقفة في الإطار مُمسكة بمسدس.

فسألت فيكتوار بذهول: «ليّتي؟ ماذا تفعلين؟».

شعر روبين بومضة ساذجة من الارتياح قبل أن يتضح لهم أن ليّتي لم تأتِ لإنقاذهم، فقد رفعت المسدس مُصوّبة على كل واحد منهم. بدت مُتمرسّة في التصويب، إذ لم ترتجف ذراعها تحت وزن السلاح. كان المنظر شديد الغرابة - كانت صديقتهم ليّتي الفتاة الإنجليزية الرقيقة تُمسك سلاحاً بدقة وهدوء مخيف - ما جعل روبين يتساءل للحظة ما إذا كان يهذي.

لكنه تذكر أن ليّتي كانت ابنة الأدميرال. بالطبع كانت تُجيد إطلاق النار.



قالت: «ضعوا أيديكم فوق رؤوسكم». كان صوتها مُرتفعًا وواضحًا كالزجاج المصقول، وبدأت غريبة كل الغرابة: «لن يؤذوا أي شخص لو أتيتم بهدوء ودون مقاومة. لقد قتلوا الباقين، لكنهم سيقبضون عليكم أحياء ودون إلحاق أذى بكم».

نظرت فيكتوار إلى الطرف الموضوع على المنضدة ثم للنيران التي تُقرقع في المدفأة.

فتبعت ليتي نظرتها وقالت: «لم أكن لأفعل هذا».

وقفت فيكتوار وليتي تحدقان إلى بعضهما بعضًا وتتفحسان بصعوبة للحظة. حدثت أشياء كثيرة في الوقت نفسه. اندفعت فيكتوار نحو الطرف، فلوّحت ليتي بالبندقية، فانطلق روبين نحوها دون تفكير. لم يكن يعرف ما ينتوي، بل كان واثقًا أن ليتي ستؤذي فيكتوار بالتأكيد. لكن ما إن اقترب منها حتى دفعه رامي إلى الجانب الآخر متعثراً في رجل المنضدة.

ثم قلبت ليتي الموازين!

ندت نفرة ثم فرقة.

سقط رامي وصرخت فيكتوار.

فسقط روبين على ركبتيه وقال: «لا». كان رامي هامداً بلا حراك، وكان يُجاهد ليقبله على ظهره. «لا يا رامي، أرجوك...». للحظة ظن روبين أن رامي يتظاهر، فكيف يحدث هذا؟ كان مُنتصبًا، وحيًا، ويتحرك منذ ثانية. لم يكن العالم لينتهي بهذا الشكل المفاجئ، لم يكن الموت ليأتي بهذه السرعة. ربّت روبين وجنة رامي، ورقبته، بل وأي شيء كي يستنفر ردة فعل، لكن الأمر لم يُجدِ نفعًا. لم تنفتح عيناه. لماذا لا تنفتحان؟ كانت مزحة بالتأكيد. لم يرَ أي دماء. لكنه رآها حينئذ: كانت هناك نقطة صغيرة حمراء فوق قلب رامي راحت تتسع حتى غمرت قميصه، ومعطفه، وكل شيء.



ابتعدت فيكتوار عن المدفأة. كانت الأوراق تُقَرِّع داخل اللهب وتتحول إلى رماد أسود. لم تتحرك ليتي لاستعادتها، بل وقفت مذهولة بعينين مُتْسَعَتَيْنِ والمسدس مُعَلَّق بارتخاء في يدها.

لم يتحرك أحد. كان الجميع يحدقون إلى رامي الذي صار جثة هامة.

لمست ليتي فمها بأصابعها وقالت: «أنا لم...» كانت قد فقدت هدوءها، وصار صوتها مُتَهَدِّجًا كأنها طفلة صغيرة. «أوه، يا إلهي...».

فقال فيكتوار بأنين خفيض: «أوه يا ليتي! ماذا فعلتِ؟».

وضع روبين رامي على الأرضية ثم وقف.

كان روبين ليسأل نفسه ذات يوم كيف استحالت صدمته إلى غضب بسهولة شديدة، ولماذا تمثلت ردة فعله الأولى في كراهية شريرة آكلة لا ذهول، وظل الجواب غامضًا ومُزَعَجًا، إذ كان يدور حول شبكة مُعَقَّدة من الحب والغيرة التي وقعوا جميعًا في شراكها دون أن يكون لها اسم ولا تفسير، وحقيقة بدأوا يلمسونها للتو، لكنهم لم يكونوا ليعترفوا بها.

لكن في تلك اللحظة، لم يَرَ سوى احمرار يطمس أطراف بصره ويُقْصِي كل شيء ما عدا ليتي. لم يكن يعرف حقيقة شعور المرء حين يريد الموت للشخص الآخر، ويرغب في تمزيقه إربًا إربًا، وسماعه يصرخ، وجعله يتألم. في تلك اللحظة عرف ما شعور المرء حين يقتل، وما الغضب، إذ كان هذا ما يشعر به. إنه اعتزام القتل كما كان يجب أن يشعر به حين قتل أباه.

فانقض عليها.

فصاحت فيكتوار: «لا تفعل، إنها...».

استدارت ليتي وهربت، فاندفع روبين وراءها في اللحظة التي تراجعت خلف مجموعة من رجال الشرطة، فقاومهم دافعًا غير عابئ بالخطر، ولا الهراوات، ولا البنادق. كان يريد الوصول إليها فحسب وقتلها خنقًا. كان يريد تمزيق العاهرة البيضاء إربًا.



لكن أذرع قوية اعتصرت ظهره، وشعر بقوة غاشمة فوق الجزء السفلي من ظهره، فتعثرَ وسمع صراخ فيكتوار، لكنه لم يرها وراء زمرة رجال الشرطة. ألقى أحدهم بكيس من قماش فوق رأسه، فراح يتخبط بعنف، ثم اصطدمت ذراعه بشيء صلب وخفَّ الضغط من على ظهره قليلاً، لكنه لم يلبث أن تلقى صفعاً من شيء صلب على عظمة وجنته وكان انفجار الألم شديداً على نحو جعله يفقد قوته، ثم ربط أحدهم يده وراء ظهره، وأمسك شخصان ذراعيه، ورفعاه، وسحبا خارج غرفة القراءة.

انتهت المعركة وصارت مكتبة أولد هادئة. هز رأسه بذعر مُحاولاً نفذ الكيس، لكن كل ما رآه كان لمحات من الأرفف المقلوبة والبساط المحترق قبل أن يُحكّم أحدهم رَبط الحقيبة فوق رأسه. لم يرَ فيمال، ولا أنطوني، ولا إلزي، ولا كاثي، كما لم يَعد يسمع صراخ فيكتوار.

فلهث بذعر قائلاً: «فيكتوار؟ فيكتوار؟».

فقال صوت عميق: «صمتاً».

فصاح: «فيكتوار! أين...».

كشف أحدهم الغطاء عن وجهه للحظة ليحشو فمه بقطعة قماش وقال: «اخرس». ثم سُحب وأُعيد إلى الظلام. لم يرَ أو يسمع أي شيء، إذ خيَّم صمت كئيب ومُفزع وهم يسحبونه من تحت رُكام مكتبة أولد ويضعونه في سيارة أجرة كانت بانتظارهم.



الفصل الرابع والعشرون



لم تولد للموت أئِها الطائر الخالد!

ولا لتطأك أجيال من الجباع.

جون كيتس، «أنشودة إلى عندليب».

حصى مرصوف متعرج وارتجاجات مؤلمة. اخرج، سِرْ. كان يُطيع دون تفكير. جذبوه من العربة وألقوا به في زنزانة وتركوه لأفكاره.

لعلّ ساعات أو أيّامًا قد مرّت. لم يتبيّن ذلك، فقد ضاع شعوره بالزمن. لم يكن داخل جسده ولا في تلك الزنزانة، بل تكوّر بيّوس فوق البلاط الحجري ونسي الألم والكدمات. كان في مكتبة أولد عاجزًا والمشهد يُعاد ويتكرر أمام عينيه؛ رامي وهو ينتفض ويهتز كمن تلقّى ركلة بين لوحيّ كتفه، ورامي مُلقى بلا حراك بين ذراعيه، ورامي الذي لم يستعد وعيه رغم كل محاولاته اليائسة.

كان رامي قد مات.

لقد خانتهم ليتي، وسقطت هرمس، ومات رامي.

لقد مات رامي.

كان الحزن خانقًا، ويُصيب بالشلل. كان الحزن كالحذاء الثقيل القاسي الذي يضغط بشدة على صدره فيُعجزه عن التنفس. لقد أخرج الحزن من جسده وجعل جروحه أمورًا نظرية. كان ينزف، لكنه لم يستطع تحديد موضع النزيف.



كان يتألم من الأربطة التي تحفر معصميه، ومن الأرضية الحجرية الصلبة التي تحتك بأطرافه، ومن الأسلوب الذي طرحته به الشرطة أرضاً وكأنها تحاول تهشيم عظامه كلها. تبين أن هذه الآلام حقيقية، لكنه لم يستطع استشعارها فعلياً، بل لم يكن يشعر بأي شيء عدا الألم الوحيد الناجم عن فقد رامي. ولم يشأ أن يشعر بأي شيء آخر، ولم يرغب في الخوض في جسده وتبيين أوجاعه؛ ذلك أن الألم الجسماني يعني أنه ما زال حياً، ولأن الحياة تعني أنه كان يجب أن يسير قُدماً، لكنه لم يستطع، ليس بعد ما حدث.

كان عالماً في الماضي وراح يسترجع تلك الذكرى آلاف المرات بالطريقة نفسها التي كان قد استرجع بها موت أبيه، لكنه في تلك المرة لم يحاول إقناع نفسه بأنه لم يكن عازماً على القتل، بل بالأحرى حاول إقناع نفسه أن رامي قد يكون حياً. هل حقاً شاهد رامي وهو يموت، أم لعله سمع صوت إطلاق النار ورأى انفجار الدماء والسقوط فحسب؟ هل كان هناك نفس مُتبقٍ في رثتي رامي وهل كانت هناك حياة متبقية في عينيه؟ بدا الظلم مبيئاً. لا! مستحيل أن يكون رامي قد ترك هذا العالم بغتة فكان حياً في لحظة ما ثم صار هامداً في اللحظة التالية! بدا إخماد الحياة في راميز رافي ميرزا برصاصة ضئيلة الحجم تحدياً لقوانين الفيزياء.

وبالطبع، لم تكن ليتي لتصوّب نحو قلبه. كان ذلك مستحيلاً أيضاً، إذ كانت تُكنّ له حُباً شبيهاً بحب روبين له. كان يتذكر أنها أخبرته بذلك، فلو كان هذا حقيقة، فكيف نظرت في عيني رامي وقتلته؟

وكان هذا يعني أن رامي ما زال على قيد الحياة. لعله نجا من كل الصعوبات، لعله جرّ نفسه بعيداً عن مكتبة أولد ووجد لنفسه مخبأ، ولعله يُشفى لو وجده أحدهم في الوقت المناسب وأوقف نزيفه في الوقت المناسب. لم يكن هذا وارداً، لكن ربما، ربما، ربما...

ربما حين يهرب روبين من هذا المكان ويتقابلان مُجدّداً، سيضحكان كثيراً على الأمر حتى يشعرا بالألم في أضلعهما.



كان يرجو، بل ظل يرجو حتى تحوّل الرجاء إلى شكل من أشكال التعذيب. يعني الرجاء في الأصل «الرغبة». وكان روبين يرجو بكل ذرة في كيانه عالمًا لم يعد موجودًا. ظل يرجو حتى ظن أنه يقترب من الجنون، بل حتى إنه صار يسمع شطايا من أفكاره وكأنها تُتطرق خارجه بصوت خفيض خشن يدويّ بها الحجر.

ليتني...

أشعر بالندم...

ثم انهال بعدها سيل من الاعترافات بأشياء لم تكن تخصّه.

ليتني أحببتها أكثر.

ليتني لم أسئل تلك السكين.

لم يكن هذا خياله. رفع رأسه المُثقل بالألم ووجنته مُلَطَّخة بالدماء والدموع، ثم نظر حوله بذهول. كانت الأحجار تتكلّم وتهمس بآلاف الشهادات التي كان التالي فيها يقيم سابقه، فلم يتبيّن أيّ شيء سوى عبارات عابرة.

قالوا لو أنّ.

قالوا هذا ليس عدلاً.

قالوا إني أستحق هذا.

لكن، في غمرة كل هذا اليأس:

أرجو...

أرجو...

أرجو المستحيل...

وقف متأوّهًا وضغط بوجهه على الحجر ثم تحسس الحائط حتى لمح بريق الفضة الذي لا يُخطئ. كان القالب منقوشًا بسلسلة متصلة من الكلمات اليونانية المُترجمة للاتينية والإنجليزية. كانت كلمة إيبينا فيوم اليونانية تعني



«خُطبة جنائزية»، وكانت تشير بالمثل إلى مرثية. كانت كلمة مرثية باللغة الإنجليزية الحديثة هي التي تشير لشيء مكتوب وصامت. أحييت الترجمة المُشوَّهة أصوات الكلمات المكتوبة، وصار مُحاطًا باعترافات الموتى. فانهار وأمسك رأسه بيديه.

يا له من تعذيب فريد ومريع! من العبقرى الذي ابتكر هذا؟ بالطبع، كان هذا يهدف لإغراقه في يأس جميع الأرواح البائسة التي سُبِق فسُجنت في ذات المكان، وغمره بحزن لا نهائي، بحيث كان لِيُسَلِّم أي شخص وأي شيء أثناء التحقيق معه كي يُنهي عذابه.

لكن هذا الهمس كان لَعْوًا، فلم تُكَدِّر أفكاره، بل كانت مُجَرَّد صدى لها. لقد مات رامى، وضاعت هرمس، ولم يكن العالم ليستمّر، وكان المستقبل ظلامًا دامسًا والشيء الوحيد الذي يُعطيه بارقة أمل كان الوعد بأن كل هذا سينجلي يومًا ما.

انفتح الباب، فانتفض روبين مُستيقظًا، إذ أفرعه صرير الأقفال، ثم دلف شاب أنيق ذو شعر أشقر معقود وراء رقبتة.

قال الشاب بصوت هادئ موسيقيّ: «مرحبًا يا روبين سوفيت. هل نتذكرني؟».

كاد روبين يقول بالطبع لا. لكن الرجل اقترب منه وماتت الكلمات على لسانه. كانت ملامحه هي نفسها التي رآها على النصب التذكاريّ في دار عبادة الكلية الجامعية؛ الأنف الأرستقراطيّ المستقيم نفسه، والعين الذكية العميقة. لم يرَ روبين هذا الوجه سوى مرة واحدة قبل أكثر من ثلاث سنوات في غرفة طعام الأستاذ لوفيل. لم ينسَ المقابلة أبدًا.

«أنت ستيرلنج». كان هذا هو ستيرلنج جونز الذكيّ الشهير، ابن أخ السير ويليم جونز أعظم مُترجمي العصر. كان ظهوره في هذا المكان غير متوقع، ما جعل روبين يحدق إليه للحظة ويقول: «لماذا...».



ضحك ستيرلنج وقال: «لماذا أتيت؟». حتى ضحكته كانت أنيقة. «لم يسعني تفويت هذا، لا سيما بعد أن أخبروني بأنهم قبضوا على أخي جريفين لوفيل الأصغر».

سحب ستيرلنج مقعدين إلى الغرفة وجلس أمام روبين عاقداً ساقيه عند الركبتين وشدّ سترته إلى الأمام ليفردها ثم مدّ رأسه إلى روبين وقال: «أؤكد أنك صرت تُشبهه، لكنك تبدو أكثر لُطفًا، في حين كان جريفين كثير السخرية والاستهزاء. كان شخصًا كريهًا». ثم وضع يديه على ركبتيه ومال إلى الأمام وقال: «لقد قتلت أباك، أليس كذلك؟ لا تبدو قاتلاً».

قال روبين: «ولا تبدو كشرطيّ مقاطعة».

ولكن، حتى وهو يقول هذا، انهارت الثنائية الزائفة التي كوّنها في عقله عن علماء الإمبراطورية وسيوفها، وتذكّر كلمات جريفين، وخطابات والده، وتُجار الرقيق والجنود. كان الجميع قَتَلَة بالفطرة.

هزّ ستيرلنج رأسه وقال: «تُشبه أخاك كثيرًا. ما التعبير الصيني؟ غريران من التلّ نفسه أم ذئب من ذات العشيرة؟ تتصفان بالوقاحة والصلف والعجرفة البغيضة نفسها التي لا تُطاق». وهنا ثنى ذراعيه على صدره ومال للخلف مُقيماً إياه وقال: «ساعدني كي أفهم. لم أستطع فهم هذا من جريفين. لماذا ببساطة؟ حصلتما على كل ما تُريدانه. لن تضطرا للعمل ولا يوم واحد في حياتكما، أي ليس العمل الشاق الذي يضطر الناس للقيام به على أية حال. لا يهم العمل حين يحصل المرء على منحة دراسيّة، سيجد نفسه سابقًا في الثروات».

ردّ روبين: «لكن أبناء وطني ليسوا كذلك».

فقال ستيرلنج مُتعبًا: «لكنك لست مثل أبناء وطنك. أنت استثناء. أنت المحظوظ والراقي، أم تُراك تجد أشياء مُشتركة بينك وبين أولئك الحمقى المساكين في كانتون أكثر من طلاب أوكسفورد؟».

أجاب روبين: «نعم. تُذكّرني بلادك كل يوم بذلك».



«هل هذه هي المشكلة إذًا؟ هل تتمثل في عدم معاملة بعض البريطانيين ذوي البشرة البيضاء إياك بشكل جيد؟».

شعر روبين بأن مزيدًا من الجدل لن يُجدي نفعًا، بل كان من ضروب الحماقة أن يُسايره من البداية. كان ستيرلنج جونز شديد الشبه بليتي لكن بلا تظاهر بالصدقة ولا تعاطف زائف. ظنّ كلاهما أن المسألة تتعلق بمقادير فردية أكثر من قمع مُمنهج، وأنه ولا واحد منهما كان يرى البشر خارج إطار جنسه ولغته.

تنهد ستيرلنج وقال: «غير معقول! لقد كوّنت فكرة غير ناضجة أن الإمبراطورية شيء سيئ، أليس كذلك؟».

رد روبين بإرهاق: «تعرف أن ما يفعلونه خطأ». لقد ضاق ذرعًا بالكلام المُنمّق. لم يستطع ولم يكن ليُصدّق أن أمثال ستيرلنج جونز، والأستاذ لوفيل، والسيد بايليس كانوا يُصدّقون أعداءهم الواهية. وكان أمثالهم فحسب هم من يستطيعون تبرير استغلال باقي الشعوب والبلاد بالكلمات المعسولة، والردود السريعة، والتفكير الفلسفي المُعقّد. فقط أناس مثلهم ظنوا أنها لم تنزل مسألة جدل. «تعرف هذا».

قال ستيرلنج غير مُعترف بأي شيء: «هَبْ أنك حصلت على ما تُريد، وهَبْ أننا لم ندخل في حرب واحتفظت كائناتون بفضتها، فماذا تُراهم سيفعلون بها؟».

أجاب روبين: «ربما يُنفقونها».

رد ستيرلنج بسخرية: «هذا العالم ملك لذوي النفوذ، ويَعلم كلانا ذلك، فهكذا وصلنا إلى بابل. في الوقت عينه، فإن بلادك تحت حُكم أرسقراطيين مُتخاذلين كسالى يرتعبون لمجرد ذكر السكة الحديدية».

«هناك شيء واحد مُشترك بيننا».

«أمر مُضحك جدًّا يا روبين سويقت. هل تظن أنه يجب مُعاقبة إنجلترا لأنها جرّوت على استخدام موارد طبيعِيّة مَنَحنا الله إياها؟ هل نترك الشرق



بين أيدي أناس فاسدين حُقراء لا يُنفقون ثرواتهم إلا على الحرير والجواري؟». ثم مال ستيرلنج إلى الأمام ولمعت عيناه الزرقاوان وقال: «أم هل نتولى القيادة؟ نتطلق بريطانيا نحو مستقبل مُشرق وواسع الآفاق، نستطيع أن نُصبح جزءًا من هذا المستقبل، فلماذا تُلقي به بعيدًا؟».

لم يجر روبين جوابًا، فلم يكن هذا ليُجدِ نفعًا. لم يكن حوارًا سليم النية ولم يُرد ستيرلنج أي شيء عدا غسل دماغه.

رفع ستيرلنج يديه في الهواء وسأله: «ما وجه كل تلك الصعوبة في الفهم يا سويقت؟ لماذا تُقاوم التيار؟ وفيم الدفعة العبتية نحو الجحود؟».

«لستُ ملكًا للجامعة».

«أعطتك الجامعة كل شيء».

قال روبين: «حرمتنا الجامعة من أوطاننا وجعلتنا نُصَدِّق أن مُستقبلنا لا يدور إلا حول خدمة التاج. تقول الجامعة إننا مُميزون، ومُختارون، ومُنتَقَوْنَ، في حين قد تم سلخنا عن أوطاننا وتربيتنا على مرمى حجر من طبقة لا ننتمي إليها. أَلَبَّتنا الجامعة على قومنا وجعلتنا نُصَدِّق في وجود خيارين لا ثالث لهما، فإما الخضوع وإما التشريد. لم يكن هذا صنيعةً يا ستيرلنج، بل قسوة. لا تطلب مني أن أحب سيدي».

حدجه ستيرلنج بنظرة غضب، وراح يتنفس بصعوبة. رأى روبين أن انفعاله الشديد كان أغرب ما في الأمر، إذ احمرّت وجنتاه وبدأت جبهته تتصبّب عَرَقًا. وراح يتساءل لماذا ينزعج ذوو البشرة البيضاء بشدة حين يُخالِفهم شخص الرأي؟

«حدّرتني الأنسة برايس صديقتك من تعصُّبك».

كان هذا طُعْمًا واضحًا، فلاذ روبين بالصمت.

فقال ستيرلنج بسخرية: «هَلَمْ، ألا تُريد السؤال عنها؟ ألا تُريد أن تعرف السبب؟».



«أعرف السبب، إذ يسهل فهم أمثالك».

قلب الغضب وجه ستيرلنج، فنهض وسحب مقعده مُقترِبًا حتى تلامست ركبتهما.

«لدينا أساليب لمعرفة الحقيقة. اشْتُقَّت كلمة سود من جذر ألماني بدائي يعني «الحقيقة». نربطها في سلسلة متصلة بكلمة ساند السويدية، فتسلبك إرادتك وتُخدِّرك وتُهدِّتك حتى تعترف بكل شيء». ثم مال ستيرلنج إلى الأمام وأردف: «لكن لطالما وجدت هذا مُملًا».

«هل تعلم من أين أتت كلمة أجوني؟» ثم راح يُقَلِّب في جيب معطفه وأخرج زوجًا من القيود الفضيّة ووضعها على ركبتيه وتابع: «من اليونانية مرورًا باللاتينية ثم الفرنسية القديمة. تعني كلمة أجونيا اليونانية مُسابقة، وفي الأصل تجمُّعًا رياضيًا بين الرياضيين، وقد اكتسبت دلالة المعاناة وقت لاحق. لكني أترجمها من الإنجليزية إلى اليونانية، ومن ثم، يستطيع القلب توليد المعاناة، لا إزالتها، أليس هذا ذكاء؟».

ثم نظر للقيد بابتسامة رضا خالية من الحقد، لكنها كانت ابتسامة انتصار مُشرقة، إذ استطاع تفكيك اللغات القديمة وإعادة صياغتها لتحقيق أغراض مُحدَّدة. «تطلب الأمر بعض التجريب قبل أن نُتقنه، لكننا وصلنا إلى ذروة إتقان هذا التأثير. سيؤول يا روبين سويفت. سيؤول ألمًا شديدًا. لقد جرَّبته من قبل بسبب الفضول فحسب. ليس ألمًا سطحيًا ولا كأن المرء طُعِن بنصل، ولا حتى كأنه احترق بالنار، بل تشعر به داخلك وكأن معصميك يتحطَّمان مرارًا وتكرارًا، وليس لهذا العذاب نهاية، إذ يكون المرء سليمًا بدنيًا. لكن كل الألم في عقله. إنه مريع. وبالطبع ستقاومه، إذ لا يستطيع الجسد منع نفسه من هذا، لا يمكنه عدم مقاومة ألم كهذا، لكن كلما قاوم، تضاعف الألم. هل تُريد رؤية هذا بنفسك؟».

قال روبين في نفسه: أشعر بالتعب، بل بتعب شديد. أفضل أن تُطلق النار على رأسي.



نهض ستيرلنج ثم جثا بجواره وقال: «خُذْ، دعني. جَرِّبْ هذا».

فأغلق القيد ليصرخ روبين. لم يستطع منع نفسه. كان يود أن يبقى صامتاً ويرفض إرضاء ستيرلنج، لكن الألم كان رهيباً، فلم يستطع السيطرة عليه، وفقد الشعور بجسده تماماً، فلم يتبقَّ سوى الألم الذي كان أسوأ مما وصفه ستيرلنج. لم يشعر بأن معصميه يتهشمان، بل كأن أحدهم يُدُقُّ أشواكاً حديديةً سميكة في عظامه، بل داخل نخاعه، وكلما تلوَّى مُحاولاً الإفلات، اشتدَّ الألم. فسمع صوتاً داخل عقله يقول: تحكّم. كان شبيهاً بصوت جريفين. تحكّم في نفسك، توقّف، سيَقِلُّ الألم.

لكن لم يكن من الألم إلا أن اشتدَّ. لم يكن ستيرلنج يكذب، فلم تكن له نهاية. وكلما ظن أنه سينتهي وأنه لو تألَّم للحظة أخرى سوف يموت، كان الألم يكبر بشكل ما. لم يكن يعلم أن الجسم البشريّ قد يشعر بمثل هذا الألم. قال جريفين مُجدداً: تحكّم.

ثم سمع صوتاً آخر مألوفاً للغاية: هذه إحدى مميزاتك. لا تَبْكُ حين تُضْرَب. المنع، القمع. ألم يمارس هذا طوال حياته؟ دع الألم ينسبّ من على جسدك كقطرات المطر دون أن تكثرث به، وبلا ردّة فعل، إذ إن التظاهر بعدم وجوده هو الطريقة الوحيدة للنجاة.

راحت جبهته تقطر عَرَقاً، فقاوم كي يجتاز مرارة الألم ويستعيد الإحساس بذراعيه ويُنْتِثِمَا. كان أصعب شيء يفعله، إذ شعر وكأنه يَطْرُقُ معصميه بمطرقة.

لكن الألم زال، وسقط روبين على وجهه لاهئاً.

قال ستيرلنج: «هذا مُثير للإعجاب. لنرَ كم من الوقت تستطيع الثبات على هذا. وفي الوقت الحالي، أريد أن أريك شيئاً آخر». وهنا أخرج قالباً من جيبه وعلّقه أمام وجه روبين. كان مكتوباً عليه عبارة *φρήν* «لا أظنّك درست اليونانية القديمة. كان جريفين ضعيفاً للغاية فيها، لكنني عرفت أنك طالب



نجيب. ستعرف معنى فرين - أي موضع المشاعر والأفكار. لكن الإغريق لم يعرفوا أو أنه موجود في العقل.

على سبيل المثال، يرى هوميروس أن الصدر هو موضع فرين». ثم وضع القلب على جيب روبين الأمامي وقال: «تخيل ما يفعله هذا».

ثم تراجع ولغم روبين في صدره.

لم يكن التعذيب الجسديّ بهذا السوء، بل أشبه بالضغط الشديد منه بالألم المبرح. لكن حين لمست مفاصل أصابع روبين صدره، أصيب روبين بصدمة شديدة، وراحت المشاعر والذكريات تتدفق إلى عقله الواعي: كل شيء خفيّ، وكل شيء يخافه ويرتعد منه، وكل الحقائق التي لم يجرؤ على الاعتراف بها. صار أحرق يهذي، ولم يعرف ما كان يقوله. راحت كلمات صينيّة وإنجليزية تنسكب من فمه بلا منطق ولا ترتيب. راح يقول: رامي، أو لعله فكر فيه. لم يدر. رامي، رامي، خطني، أبي، أبي، أمي، ثلاثة أشخاص رأيتهم يموتون ولم أستطع تحريك ساكن ولا تقديم مساعدة...

كان يعي بشكل غامض بأن ستيرلنج يحثّه ويحاول توجيه هذيانه المتدفق. فراح ستيرلنج يقول: «هرمس، حدّثني عن هرمس».

فقال لا هنأ: «اقتلني». كان يعني ذلك. لم يكن يرغب في شيء عدا هذا في العالم. ما كان للعقل أن يتحمّل هذا كله. كان الموت فحسب هو ما يُخرس ذلك الصخب. «اقتلني بالله عليك».

«أوه، كلا يا روبين سويقت. لن تُفلت بتلك السهولة. لا نريد موتك، يُعطّل هذا الهدف». أخرج ستيرلنج ساعة من جيبه وتحقّق منها، ثم مدّ يده نحو الباب وكأنه ينصت. وبعد ثوانٍ، سمع روبين فيكتور تصرخ. «لا ينطبق الشيء نفسه عليها».

جمع روبين ساقيه تحته وانقضّ على خصر ستيرلنج الذي ابتعد جانباً، فسقط روبين على الأرض وارتطمت وجنته على الحجر بشكل مؤلم. راح



معصماه يُقاومان القيود وذراعه يتفجّران مجدّدًا بألم لم يتوقف حتى تكوّر على نفسه وهو يلهث مُوجّهاً كل ذرة من تركيزه نحو تهدئة نفسه.

وهنا دحرج ستيرلنج سلسلة الساعة على عيني روبين وقال: «هكذا تعمل. أخبرني بكل ما تعرفه عن جمعية هرمس ليتوقف كل هذا. ساحل القيود وسأحرّر صديقتك وسيصبح كل شيء على ما يُرام».

حدجه روبين بنظرة غضب وهو يلهث.

فقال ستيرلنج مُجدّدًا: «أخبرني كي يتوقف هذا كله».

كانت مكتبة أولد قد انتهت أمرها، ومات رامي، ومات أنطوني، وكاثي، وفيمال، وإلزي. قالت ليتي إنهم قتلوا الباقين. فبمّ عساه يشي كذلك؟

فقال صوت: لكن جريفيين باقي. وكذا من يحويهم الظرف، ويوجد آخرون لا حصر لهم لا تعلم عنهم شيئًا. وكان ذاك هو الهدف. لم يكن يعرف من كان بالخارج أو ما يفعله، ولم يكن ليغامر بأي شيء يُعرّضهم للخطر. كان قد ارتكب هذا الخطأ من قبل، لم يكن ليخذل هرمس مُجدّدًا.

دحرج ستيرلنج ساعة الجيب فوق وجه روبين وقال: «أخبرني وإلا أطلقنا النار على الفتاة. بعد أن تنتصف الساعة، أي بعد دقيقة من الآن، سوف يُطلقون الرصاص على رأسها، ما لم أمرهم بالتوقف».

قال روبين لاهنًا: «أنت تكذب».

«لا أكذب، أمامك خمسون ثانية».

«لن تفعل».

«لا نحتاج إلا إلى واحد منكما حيًا، وهي أكثر عنادًا من أن نعمل معها».

هزّ ستيرلنج الساعة مُجدّدًا وقال: «أربعون ثانية».

كانت خُدعة، بل كان يجب أن تكون خُدعة. ليس من الممكن أن يكونوا قد ضَبَطُوا توقيت كل شيء بهذه الدقة. ومن المفترض أن يرغبوا في بقائهما على قيد الحياة. أليس مصدران للمعلومات خيرًا من واحد؟



«عشرون ثانية».

راح يفكر بذعر في كذبة مُستساعة، في أي شيء يُوقف الزمن، ثم تنهد قائلاً:

«هناك كليات أخرى. لنا علاقة مع أناس في كليات أخرى، توقّف».

وهنا وضع ستيرلنج ساعة الجيب في مكانها وقال: «آه، انتهى الوقت».

صرخت فيكتوار في الردهة، وسمع روبين صوت عيار نارٍ ثم تبدّد صوت الصرخة.

قال ستيرلنج: «حمدًا لله. يا لها من صرخة!».

فألقي روبين بنفسه على ساقَي ستيرلنج. لقد نجحت الخُدعة، فقد باغَت ستيرلنج، فسقط الاثنان على الأرض، وصار روبين فوق ستيرلنج واضعًا يديه المُقَيَّدَتين فوق رأسه، وهوى بقبضتيه على جبهة ستيرلنج، وكفّيه، وأي مكان يستطيع الوصول إليه.

فقال ستيرلنج لاهنًا: «الألم. آجونيا».

وهنا شعر روبين بألم مُضاعف في معصميه، ولم يستطع الرؤية ولا التنفس. كان ستيرلنج يُقاوم من تحته، فسقط جانبًا وهو يختنق والدموع تنهمر من عينيه.

وقف ستيرلنج بجواره للحظة وهو يتنفس بصعوبة. ثم رفع حذاءه ووجّه لروبين ركلة قوية في عظام صدره.

فشعر بوجع كالنار المُوقّدة، وجع يسلُب البصر، لم يستطع روبين إدراك شيء آخر. لم تكن لديه أنفاس تُعينه على الصراخ ولا قدرة على التحكّم في جسده ولا كرامة. كانت عيناه خاويتين، وفمه مُرتخيًا، واللّعب يسيل من فمه على الأرض.

فهندم ستيرلنج رابطة عنقه وهو يهّم بالوقوف وقال: «يا إلهي! كان ريتشارد مُحَقًّا، فأنتم جميعًا حيوانات».



ثم صار روبين وحده مُجَدِّدًا. لم يقل ستيرلنج متى سيعود أو يتحدث عما سيحدث لروبين، فلم يتبقَّ سوى زمن مُمتدّ بلا نهاية وأسى دامس ابتلعه. راح يبيكي حتى خوى قلبه ويصرخ حتى ضاقت به أنفاسه.

في بعض الأحيان، كانت موجات الألم تزول على نحو طفيف، فيظن أنه يستطيع تنظيم أفكاره، ويُقيم وضعه، ويفكر في الخطوة التالية. فماذا سيحدث؟ هل بقي للنصر مكان أم لم يبقَ سوى النجاة؟ لكن رامي وفيكٲوار كانا يطغيان على كل فكرة، وفي كل مرة كان يرى لمحة ضئيلة من المستقبل، كان يتذكر أنهما لن يكونا فيه، فتنهمر دموعه مُجَدِّدًا ويضيق صدره من الحزن الخانق.

فكر في الموت. لم يكن بتلك الصعوبة. كان كل ما عليه أن يضرب رأسه في الأحجار بقوة أو يبحث عن طريقة يشقُّ بها نفسه مُستخدماً قيوده. لم يُخفِّه الألم الذي قد ينجم عن هذا، إذ كان يشعر بخدر في جسده كله، وبدا من المستحيل أن يشعر بأي شيء بعدها سوى إحساس طاعٍ بالغرق، فظن أن ربما يكون الموت هو الوسيلة الوحيدة للنجاة من الغرق!

قد لا يكون مُضطراً لعمل ذلك بنفسه. فبعد أن عَصَرُوا عقله لِيَسْتَخْلِصُوا كل شيء، ألن يُحاكموه وَيَشْفُوْهُ؟ ذات مرة في طفولته، لمح أحدهم يُشَقُّ في نيوكاسل، ورأى حشداً مُلتقاً حول المشنقة أثناء إحدى جولاته بالمدينة، ودون أن يعلم ما يراه، ساقه الفضول للاقتراب من الحشد. كان ثلاثة رجال واقفين في صف على المنصة. وهنا استَحْضر في ذاكرته صدمة انفتاح الباب الخشبيّ، وطققة كسر رقابهم المُفاجئة، تذكر أنه سمع أحدهم يتمم بإحباط لعدم تشجُّج المحكومين.

قد يكون الموت شتقاً سريعاً، أو لعله سهل أو غير مؤلم. شعر بالذنب لمجرد التفكير في الأمر. كان رامي ليقول: هذه أنانية، ليس لك أن تهرب من المواجهة باختيار الطريق السهل.

لكن لم عساه يبقى حيّاً؟ لم يستطع روبين فهم أهمية ما سيفعله من الآن فصاعداً. كان يائساً يائساً كلياً. لقد خسروا. لقد تلقوا هزيمة ساحقة ولم يتبقَّ



شيء. فلو تشبث بالحياة للأيام أو الأسابيع المُتبقية له، فسيكون هذا من أجل رامي فحسب، إذ لم يكن يستحق أن يختار الطريق السهل.

مضى الوقت ببطء، وكان روبين يتأرجح بين اليقظة والنوم. استحالت الراحة مع الألم والأسى، لكنه كان مُتعباً، بل في غاية التعب، وراحت أفكاره تنحدر في دوامة وتتحول إلى ذكريات حيّة مُخيفة. كان على السفينة هيلاس مُجدداً ينطق بالكلمات التي حرّكت كل هذا. كان يُحدّق إلى أبيه ويرقب الدماء وهي تتدفق من صدره المُهشّم. ألم تكن تراجديا بمعنى الكلمة؟ إنها قصة قديمة، قصة قتل الأب. كان الإغريق مُولعين بفكرة قتل الأب. وكان الأستاذ تشيستِر مُولعاً بقول هذا. كانوا يُحبون هذه الفكرة لما توفره من إمكانيات سرديّة لا حصر لها، وما تستحضره من أفكار عن التراث، والكرامة، والعزة، والهيمنة. كانوا مُعجبين بالطريقة التي لمست بها المشاعر الإنسانية كافة، إذ عكست بدهاء أكثر مبادئ حياة البشر بدهاء، إذ يلد مخلوقاً آخر، ويُشكّله ويؤثّر عليه حتى يصير شبيهاً له. يولد الابن، ثم يحلّ محل أبيه، بل ويُصبح أباه. يقتل كرونوس أورانوس، ويقتل زيوس كرونوس، وفي النهاية يُصبح هو. لكن روبين لم يكن حانقاً على أبيه، ولم يطلب منه أي شيء سوى أن يعترف به، بل وكره أن يرى نفسه انعكاساً لذلك الوجه البارد الميت. لا، لم يكن ميئاً، بل أُعيد إلى الحياة بطريقة مُخيفة وغير طبيعية. كان الأستاذ لوفيل يُطلّ عليه بنظرة خبيثة، ومن ورائه كان الأفيون يحترق على سواحل كانتون مُتوهجاً وجذاب الرائحة.

قال الأستاذ لوفيل: «استيقظ. استيقظ».

فانتفض روبين واستيقظ فجأة. تحوّل وجه أبيه إلى وجه أخيه. كان جريفين واقعاً بجواره مُغطّى بالتراب. وكان باب الزنزانة مُهشّماً وراءه.

فحدّق إليه روبين وقال: «كيف...».

لوح جريفين بقالب فضة وأجاب: «الخُدعة القديمة نفسها. ووكسنج».

«ظننت أنها لن تُفلح معك».



«هذا أكثر الأشياء غرابة. انهض». جثا جريفين بجواره وبدأ يَحِلّ قيود روبين. «ما إن نطقت بها حتى استوعبتها، وكأنني أنتظر من ينطق بهذه العبارة طوال عمري. يا إلهي! من فعل بك هذا يا فتى؟».

«ستيرلنج جونز».

«بالطبع، فهو وغد». راح يُحاول في القفل للحظة. كان المعدن مغروساً في معصمي روبين الذي جفل باذلاً فُصارى جهده كي لا يتحرك.

«آه، تبّاً!». نبش جريفين حقيبتيه وأخرج مقصّ تقليم كبير ثم قال: «ابقَ ساكناً، سوف أقطعها». شعر روبين بضغط شديد مُؤلم، ثم لا شيء، إذ انحلت قيود يديه. صحيح أنهما كانتا مُكبَّلتين، لكنهما تُعدّان مُتصلتين بالبرّاعي.

زال الألم وخارت قواه وقال: «ظننتك في جلاسكو».

«وصلتني الأخبار وأنا على بعد خمسين ميلاً، ففقت، وانتظرت، ثم استقلت أول قطار يُعيدني».

«وصلتك الأخبار؟».

«لدينا طُرقنا». وهنا لاحظ روبين أن يد جريفين اليمنى تلمع ببُقع مُتداخلة بين الشحوب والحُمرة والاحتقان، بدت كأنها ندبة حرق. «لم يُوضَح أنطوني شيئاً، بل أرسل إشارة طوارئ. لكنني فهمت أن الأمور كانت سيئة. وبعدها وردت شائعات من البرج أنهم أحضروكم إلى هنا، فتجنبت مكتبة أولد - كانت محفوفة بالمخاطر - فأتيت هنا، كان قراراً صائباً. أين أنطوني؟».

أجاب روبين: «لقد مات».

«واضح». مرّ على وجه جريفين تعبير خاطف، لكنه رمش واستعادت ملامحه سُكونها، ثم أردف: «والباقون؟».

«أظنهم ماتوا جميعاً». كان روبين يشعر بالتعاسة، ولم يستطع النظر في عيني جريفين. «كاثي، وفيمال، وإلزي - جميع من كانوا في الدار. لم أرهم يسقطون، لكنني سمعت طلقات نارية ثم لم أرهم بعدها».



«ألا يوجد ناجون آخرون؟».

«توجد فيكتوار. أعلم أنهم أحضروا فيكتوار، لكن...».

«أين هي؟».

أجاب روبين ببؤس: «لا أدري». قد تكون جُثَّة هامة في زنزانته. لعلهم سحبوا جثتها إلى العراء وطرحوها في خُفرة ضحلة. لم يستطع الكلام والشرح، فقد كان هذا ليُحطِّمه.

«لنبحث إذاً». وهنا أمسك جريفين بكتفيه وهزّه بقوة وقال: «ساقاك بحالة جيِّدة، أليس كذلك؟ هيا انهض».

كان الممر خاليًا بشكل مُذهل. فتلفت روبين يمينًا ويسارًا بذهول وقال: «أين الحرس؟».

نقر روبين القالب تحت حزامه وقال: «لقد تخلصت منهم بتكرار نغمي مُتسلسل لكلمة إكسلود. تُعدّ كلمة إكسلودير اللاتينية مُصطلحًا مسرحيًا، وتُشير إلى إبعاد مُمثِّل عن خشبة المسرح بالتصفيق. ومن هنا اشتُقَّ المعنى بالإنجليزية القديمة: الرفض أو الإبعاد بإصدار صوت مُرتفع. لم نحصل على المصطلح الدقيق إلا في اللغة الإنجليزية الحديثة». بدا شديد الرضا عن نفسه وتابع: «أجيد اللاتينية أكثر من الصينية».

«ألم يُدمِّر هذا الباب؟».

«لا، بل أصدر صوتًا مريعًا جعل السامعين كلهم يبتعدون. جعلتهم يهرعون إلى الطابق الثاني ثم تسللت إلى هنا وأغلقت الأبواب ورائي».

«فماذا صنع هذه الخُفرة إذاً؟».

فساعد جريفين أخاه على الوقوف وقال: «مسحوق أسود فحسب. لا يمكنني الاعتماد على الفضة في كل شيء. أنتم معشر العلماء تنسون ذلك».

راحا يفتشان جميع الزنازين بحثًا عن فيكتوار. كان مُعظمها خاويًا، وشعر روبين بخوف مُتنامٍ كلما مرَّ بأي باب. لم يرغب في النظر ولا رؤية أروية



مُلَطَّخةً بالدماء أو أسوأ من ذلك كله أن يراها جُنَّةً هامدة حيث تركوها بعد أن اخترقت رصاصة رأسها.

فناداه جريفيين من آخر الممر: «ها هنا». ثم قرع الباب وقال: «استيقظي يا عزيزتي».

كاد روبين يفقد اتزانَه من الارتياح حين سمع رد فيكتوار الخافت: «من أنت؟».

سأل جريفيين: «هل تستطيعين المشي؟».

كان صوت فيكتوار أكثر وضوحًا هذه المرة. لا بد أنها كانت قد اقتربت من الباب. «نعم».

«هل تعرّضتِ لأذى؟».

بدت فيكتوار مُشوَّشة وقالت: «لا، أنا بخير. روبين، هل هذا...؟».

«جريفيين هنا أيضًا. لا تجزعي. سوف نُخرجك من هنا». مدّ جريفيين يده في جيبه وأخرج شيئًا شبيهًا بقنبلة يدوية الصنع عبارة عن كرة من الخزف بفتيل إشعال.

بدت لروبين صغيرة الحجم، فقال: «هل يمكن أن تنفجر في الحديد؟».

«لسنا بحاجة لذلك، فالباب مصنوع من الخشب». ثم رفع جريفيين صوته وقال: «قفي في أبعد رُكن عن الباب وضعي رأسك بين ذراعيك وركبتيك. هل أنت مُستعدة؟».

صاحت فيكتوار مُعلنة موافقتها، فوضع جريفيين القنبلة عند زاوية الباب وأشعل عودًا من الثقاب، وجرّ روبين عدة خطوات في الردهة. وبعد مرور ثوانٍ، حدث الانفجار.

راح روبين يُبعد الدخان عن وجهه وهو يسعل. لم يتحطّم الباب بفعل قوة الانفجار، وكان انفجار بهذه الشدة ليقّتل فيكتوار لا محالة. لكنه أحدث خُفرة



في القاع كافية لينفذ منها طفل صغير. ركل جريفين الباب الخشبي المحترق حتى سقطت منه عدة قطع ضخمة وهتف: «فيكتوار، هل يمكنك...؟».

فزحفت خارجًا، وهي تسعل، فأمسكها جريفين وروبين من ذراعيها وجذبها ليساعدها في عبور الثقب. وحين خرجت، نهضت على ركبتيها واحتضنت روبين قائلة: «ظننت...».

فتمتم: «وأنا أيضًا» مُحْتَضِنًا إياها بقوة. لقد أخرجتها العناية الإلهية دون أن يلحق بها أذى. كان معصماها مُلتَهَبِينَ لكن غير مُكَبَّلِينَ، ولم تكن مُلَطَّخَةً بالدماء، ولم يوجد بها جراح مفتوحة من جرّاء الرصاص. كان ستيرلنج يخدعه. فاستندت على صدره وهي ترتجف وقالت: «قالوا إنهم أطلقوا عليك الرصاص. يا روبين، لقد سمعت صوت عيار ناري».

«هل أنت...؟» لم يستطع إنهاء السؤال، بل ندم على طرحه فورًا. لم يكن يُريد أن يعرف.

فهمست: «لا. آسفة. ظننت... بما أنهم قبضوا علينا على أية حال، ظننت...» واختنق صوتها وأبعدت نظرها.

كان يعرف ما تقصده، لقد اختارت موته. لم يؤلمه هذا بالقدر المتوقع، بل بالأحرى أوضح الأمور، والمخاطر التي تُحيق بهم، ومدى ضلالة حياتهم بجانب القضية التي اختاروها. ثم بدأت تعتذر له وتُلمِّم نفسها، فرأى أن ذلك حسن، فلم يكن هناك ما تندم عليه ولم يكن بينهم سوى شخص واحد رفض أن يرضخ.

فسألت فيكتوار: «أين الباب؟».

أجاب جريفين: «على بعد أربعة طوابق لأسفل. جميع الحُرّاس مُحاصرون في بيت الدرج، لكنهم، لكنهم سينفذون قريبًا».

نظر روبين من النافذة في نهاية الردهة ليُدرك أنهم كانوا على مسافة بعيدة. كان قد ظن أنهم في سجن المدينة في جلوستر جرين، لكن ذلك المبنى كان مُكوَّنًا من طابقين اثنين فحسب، بدت الأرض شديدة البُعد عن مكان وقوفهم.



قال جريفيين وهو يُخرج حبلاً من حقيبتيه: «قلعة أوكسفورد، البرج الشمالي».

«ألا يوجد دَرَج آخر؟».

«نعم». ثم أشار جريفيين إلى النافذة برأسه وأردف: «أكسر الزجاج بمرفقك، سوف نتسلق».

هبط جريفيين أولاً، ثم فيكتور، وأخيراً روبين. كان التسلق لأسفل أصعب كثيراً مما صوّره جريفيين. انزلق روبين بسرعة كبيرة في آخر عشرة أقدام، إذ خارت ذراعه وخلف الحبل حُرُوقاً مُؤلمة على كَفّيه. أما بالخارج، فقد اتضح أن جريفيين قد أحدث أكثر من مُجرّد إلهاء بسيط، إذ كانت الواجهة الشمالية لقلعة أوكسفورد تحترق، وكان اللهب والدخان ينتشران بسرعة في جميع أنحاء المبنى.

هل فعل جريفيين هذا كله بنفسه؟ راح روبين ينظر إلى أخيه وكأنه يتطلّع إلى شخص غريب. كان يخال جريفيين شخصاً غريباً عند كل مُقابلة، وكان هذا الوجه هو الأكثر إثارة للرعب إذ كان لرجل قاسٍ حادّ الطباع يُطلق النار، ويقتل، ويحرق دون أن يهتز له جفن. كانت المرة الأولى التي يربط فيها بين أفكار أخيه والتزامه النظري بالغنف وتحويل هذه وتلك إلى واقع ملموس. كانت مُذهلة. لم يعرف روبين ما إذا كان يُرهبه أم يُعجب بقدراته.

أخرج جريفيين معطّفين أسودين عاديين من حقيبتيه وألقاهما لهما، كانا ليشبها معاطف رجال الشرطة عن بُعد. ثم قادهما على امتداد جانب القلعة نحو الشارع الرئيسي مُتمتماً: «تحركا بسرعة ولا تنظرا وراءكما، فالجميع مُشوَّشون. انظرا وتوخيا الحذر، سنخرج من هنا وسيُصبح كل شيء على ما يُرام».

وللحظة، لم يبدُ الأمر كأن الهروب قد يُصبح بهذه السهولة. بدا مُحيط القلعة كله مهجوراً، وكان جميع الجنود مشغولين باللهب وكانت جدران القلعة الحجرية العالية تُلقي ظلاً لا يمكن الاختباء بها.



كان هناك شخص واحد يقف بينهم وبين البوابة.

فانقضّ ستيرلنج جونز عليهم وهو يقول: «إكسلودير». كان شعره مُحترقًا ووجهه ذو الملامح الملكية مخدوشًا ومُلطّخًا بالدماء، فصاح: «أي ذكاء! لم أظن أن لديكم ما يكفي من معرفة باللاتينية لهدمها».

وضع جريفين يده أمام روبين وفيكْتوار وكأنه يحميهما من وحش كاسر: «مرحبًا يا ستيرلنج».

فأشار ستيرلنج بشكل غامض نحو القلعة وقال: «أرى أنك بلغت آفاقًا جديدة في التدمير». وفي ضوء المصابيح الخافت وفيما كانت الدماء تُلطّخ شعره الفاتح اللون والتراب الرمادي الفاتح يُعطّي معطفه، بدا مُشوَّشًا. «ألم تكتفِ بقتل إيفي؟».

فقال جريفين بغضب: «اختارت إيفي مصيرها».

«كلمات جريئة تصدر عن قاتل».

«هل أنا القاتل؟ بعد بورما؟».

«لم تكن تحمل سلاحًا».

«كانت تعلم ما فعلته، وأنت كذلك».

رفع ستيرلنج بندقيته وقال: «ارفعوا أيديكم جميعًا».

رأى روبين تاريخًا يُستَحْضر فيما يحدث، بل شيء يتعدى الوجود في الزمن نفسه. كان جريفين وستيرلنج يتحدثان بألفة صديقين وقعا في شبكة مُعقّدة من الحب والكراهية التي لم يكن في دائرة المُطلّعين عليها، شيء تراكم على مدى سنوات. لم يكن على علم بقصتهما، لكن من الواضح أن جريفين وستيرلنج كانا يترقّبان هذه المواجهة منذ وقت طويل.

رفع ستيرلنج بندقيته وقال: «ارفع يدك الآن».

ردّ جريفين: «ثلاثة أهداف وبندقية واحدة، عمّن تُصوّب يا ستيرلنج؟».



كان يجب أن يُدرك ستيرلنج أنهم يَقوقونه عددًا، لكنه لم يكثرث، فقال: «أوه، أظنك تعرف».

انتهى الأمر بسرعة كبيرة على نحو جعل روبين بصعوبة يتبين ما كان يحدث، إذ أخرج جريفيين مسدسه بسرعة وصَوَّب ستيرلنج بندقيته نحو صدر جريفيين. لا بد أنهما ضغطا على الزناد في اللحظة عينها، ذلك أن الصوت الذي خَرَق سكون الليل كان طلقة نارية واحدة، ثم سقط الاثنان في اللحظة نفسها.

صرخت فيكتوار وسقط روبين على ركبتيه وراح يجذب معطف جريفيين ويربّت صدره بذعر حتى وجد بُقعة دم مُبتلة تتدفق على كتفه الأيسر. أليست جراح الكتف غير خطيرة؟ حاول روبين أن يتذكر الأشياء القليلة التي تعلّمها من قصص المُغامرات - فقد ينزف الإنسان حتى الموت، لكن هذا لا يحدث لو حصل الشخص على مُساعدة في الوقت المناسب، ليس لو أوقف أحدهم النزيف لوقت كافٍ لربط الجرح، أو تضميده، أو عمل ما يعملهُ الأطباء لإخراج رصاصة من كتف...

فقال جريفيين لاهثًا: «الجيب، الجيب الأمامي».

نبش روبين جيبه الأمامي وأخرج قالب فضة صغيرًا.

«جرب هذا - لقد كتبتّه، ولا أدري ما إذا كان...»

قرأ روبين القالب ثم ضغط به على كتف أخيه وهمس: «شيو. شفاء». 修 أي يُصلح. لم تعن الكلمة شفاءً فحسب، بل إصلاح ورثق للتلف، أو إماطة أذى الجرح بتدخل ميكانيكيّ عنيف. كان التشويش ضئيلًا، لكنه كان موجودًا، وكان من الممكن أن يَنجَع، فقد شعر بشيء تحت يده: كان رَثَقًا للأنسجة المُمزقة، وكذا صوت العظام التي تنمو من جديد. لكن الدم لم يتوقف، بل انسكب على يديه مُلطّخًا القالب ومُلطّخًا الفضة.

كان هناك خَطْب ما، كانت الأنسجة تتحرك، لكنها لم تكن تلتئم، إذ كانت الرصاصة في موضع أعمق من أن يَنتشلها. فقال روبين مُتوسِّلًا: «لا، لا



أرجوك...» ليس مُجَدِّدًا، وليس ثلاث مرات. كم مرة كان مُقَدَّرًا عليه أن ينحني فوق جسد شخص يحتضر مُشاهدًا الحياة وهي تنسحب منه وعاجزًا عن استعادتها غُنة؟

كان جريفين يتلوّى تحته ووجهه مُنْقَبِض من الألم، فقال مُتوسِّلًا: «توقّف. توقّف، دعه فحسب...».

شعر روبين بالعجز وقال: «يا جريفين...».

«اذهبا». وهنا كان وجه جريفين قد اتّخذ لونًا شديد الشحوب ومائلًا للخُضرة.

فكر روبين بحماقة $\chi\lambda\omega\rho\acute{o}\varsigma$ كان هذا هو الشيء الوحيد الذي خطر بباله. كانت ذكرى جَدَل تافه حول ترجمة لون، إذ وجد نفسه يتذكر بالتفصيل كيف تساءلت الأستاذة كرافت كيف ظلوا يُترجمون «أخضر» إلى $\chi\lambda\omega\rho\acute{o}\varsigma$ في حين عمّم هوميروس استخدام المُصطلح على وصف الأغصان الغضّة، والعسل، والوجوه الشاحبة خوفًا. هل كان الشاعر الكبير أعمى وقتنّذ فحسب؟ لا. لقد اقترحت الأستاذة كرافت أنه ببساطة لون الطبيعة الغناء والحياة النضرة، لكن ليس هذا صحيحًا؛ لأن اخضرار لون جسد جريفين لم يُمَثَّل سوى بداية الموت.

«أحاول...».

انقبض جريفين ألمًا وقال: «لا، اسمع يا روبين». احتضنه روبين بقوة وهو عاجز عن عمل أي شيء آخر. «هناك أكثر مما تظن. هرمس - الغرفة الآمنة، تعرف فيكتوار مكانها وتعرف ما ينبغي أن تفعل... وفي حقيبتني، ووكسنج، يوجد...».

فتعجّلت فيكتوار قائلة: «إنهم قادمون. سيرانا رجال الشرطة يا روبين».

فدفعه جريفين بعيدًا وقال: «هيا، اهربا».



فأنزل روبين ذراعيه تحت جذع جريفين وقال: «لا». لكن جريفين كان ثقيلًا للغاية وكانت ذراعاه غاية في الضعف، فتدفق الدم على يديه. كانت رائحته مألوفة. ثم زاع بصره. حاول جذب أخيه كي ينهض، لكنهما ترنّحا.

فقال جريفين بأنين: «توقّف...».

وهنا جذبت فيكتور ذراعه وقالت: «أرجوك يا روبين، يجب أن نختبئ».

فمدّ روبين يده في الحقيبة وفتّشها حتى شعر بلسعة الفضة الباردة وهمس: «ووكسنج. خفي».

ارتعش روبين وفيكتور ثم تواريا عن الأنظار في الوقت الذي جاء رجال شرطة يركضون نحو الميدان.

فقال أحدهم: «ربّاه! إنه ستيرلنج جونز».

«هل مات؟».

«لا يتحرك».

مال أحدهم فوق جسد جريفين وقال: «ما زال هذا حيًّا». وهنا ندّ خفيف قماش وصوت سحب بنديقية، ثم ضحكة حادة مُباغتة، وقال أحدهم بتردد: «لا تفعل - إنه...».

تلا ذلك نقرة زناد.

كاد روبين يصرخ: «لا»، لكن فيكتور سدّت فمه بيدها.

انفجرت الطلقة كالمدفع، فارتعش جريفين واستلقى هامدًا. انحنى روبين وراح يصرخ بعذاب مكتوم وألم لا يُوصف. كان بلا جسد ولا صوت. ورغم مُعاناته أسّى لا يُحتمل يستوجب صراخًا، وضربًا، وتمزيقًا للعالم - ونفسه ما لم يكن العالم - لم يستطع التحرك. وإلى أن خلا الميدان، لم يكن باستطاعته إلا الانتظار والمراقبة.



وحين مضى الحُرَّاس، كانت لون جثة جريفين قد تحوّل للون أبيض مُرعب. كانت عيناه مفتوحتين وخاليتين من التعبير. ضغط روبين على رقبتة بأصبعه تحسُّسًا لنبضه رغم علمه أنه لم يكن موجودًا. كانت الطلقة النارية مُباشرة ومن مسافة قصيرة للغاية.

فوقفت فيكتوار بجواره وقالت: «هل...».

«نعم».

فقالَت وهي تُمسِك معصمه بأصابعها: «إدًا، يجب أن نذهب. لا نعلم متى سيعودون يا روبين».

فوقف وقال في نفسه: يا له منظر مريع. كانت جُثَّتَا جريفين وستيرلنج مُتجاورتين على الأرض وتحت كل منهما بركة من الدماء تتدفق تحت المطر. كانت قصة حُبٍّ من نوع ما قد انتهت في هذا الميدان - مُثُلَت مريع أضلاعه الرغبة، والسخط، والغيرة، والكراهية - بدأ بموت إيفي وانتهى بموت جريفين. كانت تفاصيله مُبهمة ولم يكن روبين ليعرفها بالكامل*. كان كل ما يعرفه بشكل مؤكد هو أنها لم تكن المرة الأولى التي يُحاول جريفين وستيرلنج قتل بعضهما، لكنها كانت أول مرة تنجح المُحاولة. بيد أن جميع الشخصيات الرئيسية قد ماتت والدائرة أُغلقت.

فحثته فيكتوار قائلة: «لنذهب، الوقت يُداهمنا يا روبين».

* على سبيل المثال، لم يكن ليعرف أن جريفين، وستيرلنج، وأنطوني، وإيفي ظنوا أنفسهم مرتبطين إلى الأبد برباط الزمالة في وقت ما، أو أن جريفين وستيرلنج كانا يتنافسان على إيفي الذكية، والجميلة، والمفعمة بالحياة، أو أن جريفين لم يكن متعمدًا قتلها. في سرده أحداث تلك الليلة، كان جريفين قد صور نفسه كفاتل بارد متعمد. لكن الحقيقة كانت أنه تصرف دون تفكير مثل روبين بدافع الغضب والخوف، لا بدافع الحق، لم يكن يظن أن هذه الطريقة ستنتج، ذلك أن الفضة كانت تستجيب لأوامره بشكل متقطع. كما لم يكن يدري بما فعله حتى رأى إيفي مستلقية على الأرض ومضرجة في دمائها. ولم يكن ليعرف أبدًا أن جريفين، على العكس منه، لم يكن له أقران يلجأ إليهم بعد فعلته ولا أحد ليساعده في امتصاص صدمة عنفه. ومن ثم، فقد ابتلعها وتكوّر حولها وجعلها جزءًا من نفسه. وفي حين بدا هذا للآخرين أولى الخطوات على طريق الجنون، صقل جريفين لوفيل قدرته على القتل جاعلاً منها سلاحًا حادًا وضروريًا.



بدا تركه هكذا خطأ كبيراً، إذ أراد روبين إزاحة جثة أخيه ووضعها في مكان هادئ ومُنْعَزَل، وإغلاق عينيه، ووضع يديه فوق صدره. لكن لم يكن الوقت يسمح سوى بالفرار ونسيان مشهد المذبحة.



الفصل الخامس والعشرون



وأنا من بين الأحياء متروكا
أسيرا لهذا اليقين الضيق الرهيب.

توماس لوفيل بيدوز، كتاب نُكتة الموت.

لم يتذكر روبين كيف هربا من قلعة أوكسفورد دون أن يراهما أحد. كان موت جريفيين قد أطار عقله، فلم يستطع اتخاذ القرارات، وبمشقة بالغة تبين مكانه. وكان أقصى ما يستطيع عمله هو أن يخطو بقدميه تابعا فيكتوار حيث قادته دون تفكير؛ في الغابات، وبين الشجيرات والعليق، ثم نزولا إلى ضفة نهر حيث انتظرا، وفي الوحل حيث تلاصقا والكلاب تهرول وتنبح بجوارهما، وطريق خلفي متعرج مؤدي إلى وسط المدينة حيث صعدا. لكنه لم يعد إلى أثرانه ويدرك وجهته إلا حين عادا إلى أماكن مألوفة على مقربة من ظلال بابل ومكتبة رادكليف.

وهنا سأل: «أليس هذا المكان قريبا بعض الشيء؟ أيجب ألا نُجرب القناة...؟».

فهمست فيكتوار: «لا يمكننا اجتياز القناة، فسوف تقودنا إلى قسم الشرطة رأسا».

«لكن لم لا نتجه إلى كوتسوولدز؟». لم يعرف ما جعل عقله مُتمسكا بتلال كوتسوولدز الواقعة شمال غرب أوكسفورد والممتلئة بالسهول والغابات الخالية والمُتعرّجة. بدت كأنها المكان الطبيعي الذي يهربان إليه، أو لعله قرأ عنها في إحدى روايات الرعب القصيرة ذات مرة وافترض أن كوتسوولدز



باتت مكانًا للفارين منذ ذلك الحين. من المؤكّد أنها بدت أفضل من وسط أوكسفورد.

أجابت فيكتوار: «سيبحثون عنّا في كوتسولدر، إذ يتوقعون هروبنا ويجعلون الكلاب تمشط الغابات. لكنّ هناك منزلًا آمنًا بالقرب من وسط المدينة».

«لا، لا يمكننا... لقد أفشيتُ سرّه. وكان لوفيل يعلم. ولا بد أن بلای فير يعلم أيضًا».

«يوجد آخر. لقد دلّني عليه أنطوني. إنه بالقرب من مكتبة رادكليف. هناك مدخل نفق في الجهة الخلفية لِفولتس. اتبعني فحسب».

سمع روبين الكلاب تنبح عن بُعد أثناء اقترابهما من مربع رادكليف. لا بد أن الشرطة كانت قد أطلقت حملة مُطاردة على مستوى المدينة، وبالطبع كان هناك رجال وكلاب تُفَتِّش جميع الشوارع. لكن فجأة انتابه شعور مُلِحّ بالهرب. كان معهما قالب ووكسنج الخاصّ بجريفيين، وكان بإمكانهما الاختفاء في أي لحظة. وكانت أوكسفورد دائمة السكون ليلاً، بل وكانت تبدو لهما مكانًا آمنًا يستحيل فيه القبض عليهما. بدت مدينة محفورة في صخور الماضي بأبراجها القديمة الشاهقة، وقِمَمها المدببة، وحصونها الشامخة، وضوء القمر الباهت المُنعكس على الأحجار القديمة والطرق المرصوفة البالية. ولم تزل أبنيتها متينة، وصلبة، وعتيقة، وباقية على نحو باعث للاطمئنان. كانت الأنوار المُنبعثَة من النوافذ المُقَوَّسة تُوحى بالدفع، والكتب القديمة، والشاي الساخن بالداخل، ولم تزل تُعطي انطباعًا بحياة الباحثين المثالية، حيث كانت الأفكار تسليات نظرية يمكن تناقلها دون عواقب.

لكن الحلم كان قد تحطّم. كان حلمًا يقوم على كذبة، إذ لم يكن لدى أيّ منهم فرصة انتماء حقيقيّ لهذا المكان، ذلك أن أوكسفورد أرادت باحثين من نوع واحد فحسب، ذاك النوع الذي يُولد وينشأ على التثقل في مراكز القوة التي خلقتها لنفسها، في حين كانت تُقصي وتدهس الباقين. كانت تلك الأبنية



الشاهقة مُشَيِّدة بما أدخلته تجارة العبيد من مال، والفضة التي تُسَيِّرهم آتية من مناجم بوتوسي المُطَطَّخة بالدماء. كانت قد انصهرت في أفران خانقة يُدفع فيها للعمال الأصليين أجر زهيد قبل أن تشقَّ طريقها على ظهر السفن عابرة الأطلسي إلى حيث يُشكِّلها مُترجمون انتزَعوا من أوطانهم وسُلبوا إلى هذه الأرض البعيدة ولم يكن ليُسمح لهم بالعودة إلى مواطنهم على الإطلاق.

لقد كان غيبًا على نحو جعله يعتقد أن بإمكانه بناء حياته في هذا المكان. بيد أنه صار يعرف أنه لا يمكنه الوقوف على الحياد ولا التراجع إلى الخلف أو السير إلى الأمام بين عالمين لا مجال فيهما لانتقاء ما يُريد رؤيته أو وضع يد على إحدى العينين كطفل يلعب لعبة، فإما أن يكون المرء جزءًا من هذه المؤسسة وأحد الأحجار الداعمة لها وإما ألا يكون.

التفت أصابع فيكتوار حول أصابعه.

فسألها: «أليس هذا طريق اللا عودة؟».

أجابت: «بلى».

صار خطوهم جليًا. كانوا قد ظنّوا أن أوكسفورد لن تخونهم، وصار اعتمادهم على بابل لا إراديًا ومُتَجَذِّرًا. وظلّوا مُعتقدين بشكل ما، أن الجامعة ووضعهم كباحثين قد يحميهم. كما افترضوا أنه رغم كل الإمارات المُوجِية بغير ذلك أن كل من يتمتعون بأغلب المكاسب من التوسع المستمر للإمبراطورية قد يعرفون كيف يعملون الصواب في قرارة أنفسهم.

المنشورات. كانوا يعتقدون أنهم سينتصرون بالمنشورات.

كاد يضحك من عبثية الأمر. لم تكُن القوة في سنّ القلم، ولم تكن السلطة لتعمل ضد مصالحها الخاصة، ولا يمكن رَدُّعها إلا بأفعال لا يُستهان بها، بقوة غاشمة لا تعرف التراجع، بل وبُعْثف.

تمتم روبين: «أعتقد أن جريفيين كان مُحَقًّا. كان يجب أن نستولي على البرج، بل يجب أن نفعل».



تَنَّت فيكتوار شفتيها وأحكمت ضمَّ أصابعها حول أصبعه وقالت: «همم! كيف تُريد أن تفعل ذلك؟».

«قال إن الأمر سيكون سهلاً، وقال إنهم باحثون، لا جنود، وقال إننا لن نحتاج إلا لبندقية أو ربما سكين».

فضحكت بمرارة وردّت: «أصَدِّق ذلك».

كانت مُجرد فكرة، بل أمنية أكثر من أي شيء. لكنها كانت بداية، وقد تجذّرت ونمت بداخلهما، واتّضحت معالمها حتى تحوّلت من وهم عبثي إلى مسألة تتعلق بالكيفية والتوقيت.

كان الطلاب قد خَلَدُوا للنوم في جميع أنحاء المدينة، وبجوارهم مُجلّدات لأفلاطون، ولوك، ومونتسكيو تنتظر القراءة، والنقاش، والإشارة بإسهاب إليها. كانت الحقوق النظرية كالحُرِّية والتحرّر لِنُناقش بين من يتمتعون بها بالفعل، وسرعان ما كانت صفحة المفاهيم القديمة تُطوى بعد حفلات تخرُّج قَرّائها. بدّت له تلك الحياة، بكل ما فيها من مشاغل، ضرباً من الجنون. لم يَعد مُصدّقاً أنه ذات يوم كانت أهم مشغوليّاته تنحصر في لون رابطة العنق التي كان سيطلبها من متجر راندال أو الشتائم التي تُوجّه للعَوّامات السكنية التي تُعيق النهر أثناء تدريبات التجديف. كانت كل تلك الأمور مُجرّد مظاهر زائفة، وثُرّهات، وإلهاءات تافهة قائمة على أساس من وحشيّة مستمرة لا يمكن تصوّرها.

راح روبين يُحدّق إلى مُنحنى بابل في ضوء القمر، وفي لَمعة الفضة الخافتة المُنبِعثَة من دعائمه، فباغتته رؤية شديدة الوضوح لحطام البرج! أراد أن يتحطّم. أراد أن يختبر، ولو لمرة واحدة، العذاب الذي أتاح له وجوده المُتَرَف. «أريده أن يتفَنّت».

اهتَزَّ حلق فيكتوار. كان يعرف أنها تفكّر في أنطوني، وطلقات النار، وحطام مكتبة أولد، فكَرّر قائلاً: «أريده أن يحترق».



الكتاب "الخامس"



فاصل

ليتي

لم تكن ليتيتيا برايس فتاة شريرة.

ربما كانت باردة، تتصرّف بصّلف، وحادة الطباع، وتحمل كل ما تتّصف به فتاة تطلب من العالم ما يطلبه الرجال. لكن، كان ذاك يُعزى لكون حدة الطباع هي الطريقة الوحيدة التي تجعل الناس يأخذونها مأخذ الجدّ، إذ كان من الأفضل أن يخشاها الناس ويكرهوها على أن يعتبروها فتاة رقيقة ولطيفة وغبية في ذات الوقت، ولأن الحياة الأكاديمية تحترم الشخص الصّلب الذي يتحمل القسوة، لكنها أبدًا لا تستطيع قبول الضعف.

كانت ليتي قد كافحت واجتهدت من أجل كل ما حصلت عليه. أوه! لعلّ من ينظر إليها لا يعرف هذا، فهذه الفتاة الإنجليزية الجميلة، ابنة الأدميرال، والتي ترعرعت في ضيعة ببرايوتون وستة من الخدم طوع بنائها ومائتا جنيه إنجليزي مهر سنوي لمن يقترن بها. كانت الفتيات القبيحات الغيورات يقلن في حفلات لندن: تمتلك ليتيتيا برايس كل شيء. لكن ليتي كانت الثانية في الترتيب بعد لينكون فُرة عين أبيه. وفي الوقت عينه، كان الأدميرال أبوها لا يطبق النظر في وجهها، فكلما كان يفعل، كان كل ما يراه هو ظلًا خافتًا للراحلة السيدة أميليا برايس التي ماتت أثناء الولادة في غرفة خائفة برائحة الدم النفاذة.

وفي وقت متأخر من إحدى الليالي، وبعد أن أفرط في الشراب، قال لها: «لا ألومكِ بالتأكيد. لكنك ستفهمين يا ليتيتيا أنه من الأفضل أن تغيبين عن عيني».

كان مُخطّطًا أن يلتحق لينكون بأوكسفورد، وتزوّج ليتي مُبكّرًا. ففي المواسم وذكريات ميلاده، كان لينكون يحصل على أقلام أنيقة، وأدوات



مكتبية فخمة، وكتب ضخمة مصقولة الأوراق. كما كان يتلقَّى الدروس على أيدي مُعلِّمين مُتناوبين كلهم من خريجي أوكسفورد الذين لم يَحصلوا على مركز ديني في أي مكان. أما عن ليتي، فكان رأي أبيها في تعليم النساء يتمحور حول أهمية القدرة على توقيع شهادة الزواج!

لكن ليتي كانت من تتمتع بموهبة في اللغات، فتعلّمت اليونانية واللاتينية بالسهولة نفسها التي تعلّمت بها الإنجليزية. لقد تعلّمت القراءة بنفسها، ومن الجلوس واضعة أذنيها على الباب أثناء تلقّي لينكون الدروس. كان عقلاها الرائع يحتفظ بالمعلومات كما لو كان مصيدة فولاذية. كانت تستوعب قواعد اللغة استيعابًا يُمائل حَمْل الأخرى الضغائن! كانت تدرس اللغة بصرامة وإصرار شديدين، كما كانت تُحلّل أصعب التراكيب اللاتينية بقوة إرادتها. كانت ليتي من تُدرب أخاها في ساعات متأخرة من الليل حين لم يستطع تذكّر قوائم المفردات اللغوية، ومَن كانت تُنهي ترجماته وتُصحّح له موضوعات الإنشاء حين كان يُصاب بالضجر ويذهب لركوب الخيل أو الصيد أو أي نشاط يقوم به الفتيّة خارج المنزل. فلو كانت أدوارهما قد عكست لاحتُفي بها لعبقريتها ولأصبحت خليفة السير وليم جونز.

لكن حظها لم يكن هكذا. فحاولت أن تكون سعيدة من أجل لينكون، وأن تُسقط عليه أحلامها وتطلعاتها تمامًا كما كانت تفعل نساء كثيرات في تلك الحقبة الزمنية. فلعلّها تُصبح سكرتيرة للينكون لو صار من أعضاء هيئة تدريس أوكسفورد. لكن عقله كان حجرًا صوّانًا. كان يكره دروسه ويحتقر مُعلِّميه ويرى أن المطالعة مُملّة. كان كل ما يُريده هو الخروج، ولم يستطع الجلوس للقراءة في سكون لأكثر من دقيقة ثم يبدأ في التملُّل، ولم تستطع أن تفهمه. لماذا يرفض شخص يتمتع بكل تلك الفرص أن يَستخدمها؟

قالت له: «لو التحقّت بأوكسفورد لقرأتُ حتى تَقَطُر عيناَي دَمًا».

ردّ لينكون: «لو التحقّت بأوكسفورد، لارتعد العالم».

كانت تُحب أخاها حُبًا جَمًّا، لكنها لم تُطِق جُوده وطريقته في ازدراء ما منحه العالم من هبات. وقد بدأ الأمر عدلًا حين لم تتناسب أوكسفورد مع



لينكون. كتب مُعلِّموه في باليول للأدميرال برايس مُشتكين من تناوله الشراب، ولعبه الميسر، وبقائه بالخارج بعد المواعيد المُحدَّدة، وكان لينكون يُرسل الخطابات مُطالبًا بالمال. كانت خطاباته لأخته قصيرة، ومُثيرة، وتُعطي لمحات عن عالم لم يكن يُقدِّره: «الدروس مملة»، «لا تتبعي نفسك في الذهاب»، «ليس أثناء موسم التجديف، على أية حال يجب أن تأتي ونُشاهدنا في سباقات الربيع المُقبل». وفي البداية، اعتبر الأدميرال برايس الأمر طبيعيًا كمشاكل النمو، فالشباب الذين يعيشون بعيدًا عن بيوتهم لأول مرة كانوا دائمًا يستغرقون وقتًا في التأقلم، ولمَ لا يدعونهم يُطلقون العنان لشبابهم؟ سيعود لينكون لكتبه في الوقت المُناسب.

لكن الأمور لم تزد إلا سوءًا، ولم تتحسن درجات لينكون على الإطلاق، وصارت خطابات مُعلِّميه أقلَّ صبرًا وأكثر تهديدًا. وحين عاد لينكون لقضاء الإجازة أثناء العام الدراسي الثالث، كان شيء ما قد تغيَّر، إذ استشرى الفساد؛ شيء دائم وقاتم. رأت ليتي وجه أخيها مُنتفخًا، وكان كلامه بطيئًا، ولاذعًا، ومُربِّرًا، وطوال فترة الإجازة، لم يُخاطب أي منهما الآخر بكلمة، وكان يَقضي فترات بعد الظهيرة وحده في غرفته مُحْتَسِيًا بانتظام زجاجة شراب. وفي المساء، إما كان يَخرج ولا يعود حتى الفجر وإما كان يَتَسَاخَن مع أبيه.

ورغم إغلاقهما باب المكتب، كانت أصواتهما الغاضبة تدوي في جنبات المنزل. قال الأدميرال برايس: «أنت عار»، وردَّ لينكون: «أكره ذلك المكان، لست سعيدًا، فهو حُلْمك وليس حُلْمي».

وأخيرًا قررت ليتي مُواجهته. وحين خرج لينكون من المكتب في تلك الليلة، كانت مُنتظرة في الردهة.

فنظر إليها بوقاحة وسأل: «إلامَ تنتظرين؟ هل أتيتِ لِتَسْمَتِي؟».

فأجابت: «تَكسير قلبه».

«لست مُهتمة بقلبه، بل تَعارين».



«أغار بالطبع، فلديك كل شيء. كل شيء يا لينكون. ولا أفهم ما يدفعك لإهداره. لو كان أصدقاؤك عشرة، فقاطِعهم. ولو كانت المناهج صعبة، فسوف أساعدك، سأتي معك وسأراجع كل ورقة بحثية تكتبها...».

لكنه كان يترنّح، وعينه زائغتان، وبصعوبة يستمع إليها، فقال: «أذهبي وأحضري لي شراباً».

«ما خَطْبُكَ يا لينكون؟».

أجاب بسخرية: «ليس من حقّك أن تَحْكُمي عليّ. كان يجب أن تكون ليتي البارة الذكية في أوكسفورد لولا أنها فتاة».

«تُثير اشمزازي».

فصرخت فيه: «لا تَعُدْ إلى البيت، فمن الأفضل أن تذهب، بل من الأفضل أن تموت».

وفي صباح اليوم التالي، قرع شرطيّ بابهم وسأل ما إذا كان هذا منزل الأدميرال برايس وما إذا يسمح بالحضور للتعرف على جُنتة. قالوا إن السائق لم يَره على الإطلاق ولم يعرف ما إذا كان تحت العربة حتى ذاك الصباح إلا بعد أن أُصيب الخيول بالذعر. كانت الدنيا ظلاماً والأمطار تنهمر، وكان لينكون يهيم في الطريق وهو ثمل. وكان يحق للأدميرال أن يُقاضيه لكنهم شكّوا في وقوف المحكمة في صفّه. كان حادثاً.

وبعدها، كانت ليتي لتخشى وتتعبّ من قوة كلمة واحدة. لم تكن بحاجة لقوالب الفضة كي تُثبت أن قول شيء ما قد يُحقّقه.

وفيما كان الأب يُعِدّ للجنائز، كتبت ليتي خطاباً لمُعَلّمي لينكون وضمّنت موضوعات إنشائية خاصة بها.

وبعد إلحاقها بالجامعة، تعرّضت لآلاف الإهانات. كان الأساتذة يُكلمونها باحتقار وكأنها غبية، وكان الموظفون ينظرون إليها بوقاحة، وكانت تقطع مسافة طويلة ومُرهِقة لحضور الدروس كل يوم ذلك أن أعضاء هيئة



التدريس كانوا يُجبرون النساء على الإقامة في مبنى يَبْعُدُ نحو ثلاثة كيلومترات شمالاً حيث لم تكن صاحبة المنزل تُفَرِّقُ بين المُسْتَأْجِرِينَ وَالْخَدَمَ وَتَصْرُخُ فِيهِمْ لَوْ رَفَضُوا الْكُنْسَ! وكان الباحثون يَتَخَطَّوْنَهَا فِي حَفَلَاتِ الْكَلِيَّةِ لِمَصَافِحَةِ رُوبِينٍ أَوْ رَامِي. وَلَوْ تَحَدَّثْتَ، كَانُوا يَتَجَاهَلُونَهَا. وَلَوْ عَدَلَ رَامِي مَا قَالَهُ أَحَدُ الْأَسَاتِذَةِ، لَقِيلَ إِنَّهُ جَرِيٌّ وَذَكِيٌّ، وَلَوْ فَعَلْتَ لَيْتِي الشَّيْءَ نَفْسَهُ لَقِيلَ إِنَّهَا مُثِيرَةٌ لِلْغَضَبِ. وَلَوْ أَرَادْتَ اسْتِعَارَةَ كِتَابٍ مِنْ مَكْتَبَةِ بُوْدَلِي، كَانَ لِحْتَاجَ لَوْجُودِ رَامِي أَوْ رُوبِينٍ لِأَخْذِ إِذْنٍ. وَلَوْ أَرَادْتَ الْخُرُوجَ فِي الظَّلَامِ، دُونَ خَوْفٍ وَلَا اسْتِعَانَةَ بِشَخْصٍ، كَانَ لِنُضْطَرِّ لَارْتِدَاءِ مَلَابِسِ الرِّجَالِ.

لَمْ يَكُنْ أَيُّ مِنْ تِلْكَ الْأُمُورِ مُفَاجِئًا، إِذْ كَانَتْ امْرَأَةٌ تَدْرُسُ فِي بِلَادِ تُشْتَقُّ فِيهَا كَلِمَةُ الْجَنُونِ مِنْ كَلِمَةِ الرَّحْمِ. كَانَ هَذَا مُثِيرًا لِلْغَضَبِ. كَانَتْ صَدِيقَاتُهَا يَتَحَدَّثْنَ بِإِسْهَابٍ عَنِ التَّفْرِقَةِ اللَّاتِي يُوجِهُنَهَا بِاعْتِبَارِ هُنَّ أَجْنِبِيَّاتٍ، لَكِنْ لِمَاذَا لَمْ يَهْتَمَّ أَيُّ شَخْصٍ بِأَنْ أَوْكُسْفُورْدُ تُعَامَلَ النِّسْوَةُ بِقِسْوَةِ مُمَائِلَةٍ؟

لَكِنْ، رَغْمَ كُلِّ هَذَا، كَانَ لِلنِّسْوَةِ وَجُودٌ، وَكَانَ نَاجِحَاتٍ وَيَتَحَدَّثْنَ الصَّعُوبَاتِ. لَقَدْ دَلَّفَنَ إِلَى الْقَلْعَةِ وَكَانَ لِهِنَّ مَكَانٌ فِيهَا يَتَخَطَّيْنَ فِيهِ أُصُولَهُنَّ. كَمَا كَانَتْ لَدِيَهُنَّ فُرْصَةٌ، لَوْ اغْتَنَمْنَهَا، لَصَرْنَ مِنَ النَّمَاذِجِ الْقَلِيلَةِ الَّتِي يُشَادُّ بِهَا. وَهَلْ يُتَوَقَّعُ مِنْهُنَّ شَيْئًا عِداَ الْإِمْتِنَانِ الدَّائِمِ؟

لَكِنْ فَجْأَةً، وَبَعْدَ رَحَلَةٍ كَانَتُونِ، صَارَ الْجَمِيعُ يَتَحَدَّثُونَ لُغَةً لَمْ تَسْتَطِعْ فَهْمَهَا، وَفَجْأَةً، أَقْصَيْتِ لَيْتِي. وَلَمْ تَتَحَمَّلْ هَذَا. وَمَهْمَا حَاوَلْتَ، لَمْ تَسْتَطِعْ فَهْمَ الْأَمْرِ، فَكُلَّ مَرَّةٍ كَانَتْ تَسْأَلُ فِيهَا، كَانَتْ الْإِجَابَةُ: «أَلَيْسَ هَذَا وَاضِحًا يَا لَيْتِي؟ أَلَا تَفْهَمِينَ؟». لَا، لَمْ تَكُنْ تَفْهَمُ. وَجَدْتَ مِبَادِنَهُمْ عِثِيَّةً، بَلْ فِي قِمَةِ الْحِمَاقَةِ. كَانَتْ تَجِدُ الْإِمْبْرَاطُورِيَّةَ قَدْرًا مَحْتَوًّا، وَالْمُسْتَقْبَلَ غَيْرَ قَابِلٍ لِلتَّغْيِيرِ، وَالْمَقَاوِمَةُ غَيْرُ مُجْدِيَّةٍ.

لَقَدْ أَرَبَكْتَهَا قَنَاعَاتُهُمْ، وَرَاحَتْ تَتَسَاءَلُ: لِمَاذَا يَصْدُمُ الْمَرْءُ رَأْسَهُ بِحَائِطِ حَجْرِي؟

وَرَغْمَ ذَلِكَ، كَانَتْ تُسَاعِدُهُمْ، وَتَحْمِيهِمْ، وَتَكْتُمُ أَسْرَارَهُمْ. كَانَتْ تُحِبُّهُمْ، بَلْ كَانَتْ لَتَقْتُلَ مَنْ أَجْلَهُمْ وَتُحَاوِلَ أَلَّا تُصَدِّقَ أَسْوَأَ الْأَشْيَاءِ عَنْهُمْ، تِلْكَ الْأَشْيَاءَ



التي كانت تُجبرها نَشأتها عليها. لم يكونوا مُتوحِّشين ولا أَقْلَ شَأْنًا، ولا ناكرين للجميل ذوي تفكير سَطحيّ، بل كانوا، بكل أسف، حائدين عن الصواب.

لكن، كم كانت تكره أن تراهم يرتكبون ما ارتكبه لينكون من أخطاء!

لماذا لم يُقدِّروا قيمة النعمة التي كانوا فيها؟ فياله من شرف أن يُسمح لهم بدخول تلك الأروقة المُبجَّلة ويَرتقوا من حَضِيضِ أصولهم البائسة إلى القمم المُبهره للمعهد الملكيِّ للترجمة! لقد بذلوا قُصارى جهدهم للحصول على مقعد في إحدى قاعات الدرس بأوكسفورد، وقد كان تُذهل بحظها كلما جلست في مكتبة بودلي تُقَلِّبُ الكُتب التي لم تكن حتى لَتَطْلُبها من بين الأروقة لو لم تُحَظْ بِمُمَيِّزاتها كُمترجمة. لقد تحدّث ليَتي القَدَرُ كي تُصِلَ هناك، بل إن هذا ما فعله الجميع.

لماذا لم يكن هذا كافياً إذا؟ لقد تغلَّبوا على النظام، فلماذا أرادوا تحطيمه كذلك؟ لماذا يُنكر المرء الجميل؟ ولماذا يَجحد النعمة؟

لكنهم قالوا لها (بتعالٍ واستعلاء وكأنها طفلة، بل وكأنها تَجْهَل كل شيء) إن نَمَّةَ أُمُورًا أكبر على المحك. إنها مسألة ظلم عالميِّ يا ليَتي وسَلْبُ لخيرات باقي العالم.

حاولت مُجدِّدًا تنحية تَحَيِّزاتها جانِبًا، وإبقاء أَفَقها واسِعًا، وتفهم ما كان يُضايقهم. وكانت تُجد أخلاقياتها موضع شكٍّ مرارًا وتكرارًا، وكانت تُكرِّر حُججها وكأنها تُثبت أنها لم تكن إنسانة شريرة. لم تدعم هذه الحرب بالتأكيد، وكانت ضد كل أنواع التَحَيِّز والاستغلال، بل وكانت تُناصر دُعاة إنهاء الرقِّ.

وكان بإمكانها تأييد جماعات الضغط من أجل التغيير شريطة أن يكون سلميًّا، ومُحترَمًا، ومُتَحَضِّرًا.

لكنهم راحوا يتحدَّثون عن الابتزاز، والاختطاف، والشغب، وتفجير ترسانة سُفن. كانت تلك أعمالًا شرسة، وعنيفة، وانتقامية، ولم تكن لِتَحْتَمِل



رؤية جريفيين لوفيل المُخيف وهو يتحدّث ولا لَمعة السعادة في عينيه، ورؤية رامي الذي كان صديقًا لها يُوافقه على طول الخط. لم تكن تُصدّق الأمر وما أصبح الأخير عليه، بل ما أصبح الجميع عليه.

ألم تكن تغطيتهم جريمة قتل أمرًا مريعًا بما يكفي؟ هل كانت مُضطرة للضلوع في مزيد من الجرائم؟

كان الأمر كصحوة مُفاجئة، بل وكَصْفعة ماء بارد. ماذا كانت تَفعل ها هنا؟ بماذا كانت تَخضع نفسها؟ لم تكن معركة نبيلة، بل وَهْم مُشترك.

لم يكن هناك مستقبل لذاك الطريق، فهذا ما صارت تراه. لقد وقعت ضحية مُؤامرة دينية واستُدرجت إلى هذه المهزلة المُثيرة للغثيان، وكانت النهاية المَحْتومة في أحد طريقتين، إما السجن وإما حبل المشنقة. كانت الوحيدة التي لم يُعَمِّها الجنون عن ذلك. ورغم قسوة الأمر، كان يجب أن تتصرّف بحسم، فلو لم تستطع إنقاذ أصدقائها، لصار حَرِيًّا بها أن تُنقذ نفسها على الأقلّ.



الفصل السادس والعشرون



ليس الاستعمار كيانًا عاقلاً ولا قوة مُفكِّرة، بل عنف مُجَرَّد.
ولا يستسلم إلا إذا وُجه بمزيد من العنف.

فرانز فانون، المُعذِّبون في الأرض.
ترجمة ريتشارد فلكوكس.

كشف باب مخفي وراء قبو تخزين فولتس آند جاردن عن نفق ثرابي وَعِر لا يتسع إلا لأن يحشرا نفسيهما فيه ويزحفا على أيديهما وأرجلهما. بدا بلا نهاية، فراحا يتقدّمان بحذر مُتلمّسين طريقيهما في الظلام. كان روبيين يتمنّى أن يجد نورًا، لكن لم يكن معهما شمعة ولا شُعلة ولا حجر إشعال، ولم يكن أمامهما إلا الوثوق بكلمات أنطوني والزحف وأنفاسهما المُتقطّعة تتردّد حولهما. وأخيرًا، بدأ سقف النفق ينحدر تدريجيًا لأعلى. وهنا اندفع هواء بارد أنعش بشرتهما المُتعرّقة، فراحا يتحسّسان الجدار الثرابي حتى وجدا بابًا ثم مقبضًا، فدفعا ذاك الأخير، ليجدا غرفة صغيرة مُنخفضة السقف يُضيئها نور القمر المُناسب عبر طاقة صغيرة بأعلى.

فدلفا إلى الداخل وراحا ينظران حولهما.

لقد دخل شخص الغرفة مُؤخّرًا، إذ كان رغيّف من الخبز فوق المكتب، وكان طازجًا على نحو جعله ناعم الملمس. كما كانت هناك شمعة شبه ذائبة



بجواره. راحت فيكتوار تنبُش الأدراج حتى وجدت غُلبة ثقاب، ثم رفعت الشمعة المُشتعلة لإضاءة الغرفة وقالت: «كان جريفيين يَحْتَبِي ها هنا إداً».

بدت الغرفة السريّة مألوفة لروبين على نحو غريب. بيد أن إدراكه السبب استغرق لحظة، إذ كان تصميم الغرفة - المكتب أسفل النافذة ذات القضبان، والسّرير المُرتب في الركن، ورُفوف الكُتب المُزدوجة على الحائط المُقابل - مُطابقاً لمهاجع ماجباي لين، فهنا أسفل أوكسفورد، حاول جريفيين - سواء شعورياً أو لا شعورياً - إعادة خَلْق أيامه الدراسية.

فسأل روبين: «هل تعتقدين أننا بمأمن هنا؟ أقصد، هل تَظَنّين...».

أجابت فيكتوار وهي جالسة بحذر على حافة السرير: «يبدو المكان ساكناً، فلو كانوا يعرفونه، لقلبوه رأساً على عقب».

فجلس بجانبها وقال: «أظنّك محقّة». لقد شعر للتوّ بالإرهاق يتسلّل عبر ساقيه نحو صدره. كان كل الأدرينالين المُصاحب لهروبهما قد انحسر، إذ صارا آمنين وهما مُختبئان في جُوف الأرض، فأراد أن يغيب عن الوعي إلى الأبد.

استندت فيكتوار إلى جانب السرير حيث كان برميلاً يحوي ما يُشبه الماء العذب موجوداً، فصبّت بعض الماء فوق قميص مُجعدّ وأعطته لروبين وقالت: «امسح».

«ماذا؟».

ف قالت بهدوء: «هناك دماء. أنت مُلطّخ بالدماء».

فنظر إليها بتركيز للمرة الأولى منذ هروبهما. «أنت مُلطّخة بالدماء».

فجلسا إلى جانب بعضهما في صمت. كان كلاهما مُغطّي بكمّ هائل من الأوساخ. نظّف كل منهما قميصاً تلو الآخر. لم يكن دم روبين يُغطّي يدي وذراعي روبين فحسب، بل وجنتيه، ووراء أذنيه، والفراغ بين رقبته وأذنيه كذلك. وكان مُكتئفاً تحت طبقات الغُبار والتراب.



تبادل الاثنان مسح وجهي بعضهما، وبدت تلك اللمسة البسيطة مُستحبة، إذ أعطتهما شيئاً يركزان عليه ويلتحيان به عن جميع الكلمات غير المنطوقة الجائئة على صدريهما. بدا عدم محاولة النطق بها جيداً، إذ لم يستطيعا النطق بها على أية حال، فلم تكن أفكاراً منطقية، بل بالأحرى سحبا سوداء خائفة. كان الاثنان يُفكران في رامي، وجريفين، وأنطوني، وكل من انتزع من هذا العالم بشكل وحشي ومُباغت، لكنهما لم يستطيعا لمس قاع حزنهما. كان إعطاؤه اسماً والتعبير عنه بالكلمات أمراً سابقاً لأوانه، وكانت أي محاولة لعمل ذلك لتسحقهما. فما كان منهما إلا أن أزالا الدماء عن جلدتهما وحاولا مواصلة التنفس.

وفي النهاية، ألقيا بالأسمال المُتسخة على الأرضية واستندا على الحائط وعلى بعضهما بعضاً. كان الهواء الرطب بارداً، ولم تكن هناك مدفأة. فالتصقا ببعضهما جاذبين البطانية الخفيفة حول أكتافهما، ولم يتكلما إلا بعد مرور وقت طويل.

فسألت فيكتور: «ماذا ثرانا نفعل الآن؟».

أي سؤال ثقيل ينطقه مثل هذا الصوت الخفيض! ماذا يُمكنهما أن يفعلا الآن؟ لقد تحدثا عن إحراق بابل، لكن كيف كان يُعقل أن يكون هذا بوسعهما؟ لقد دُمِرت مكتبة أولد ومات أصدقاؤهما، بل إن كل من كان أفضل منهما ويفوقهما جُراً قد مات. بيد أن كليهما كان موجوداً، وكان من واجبهما أن يضمنا عدم ضياع موت أصدقائهما هدرًا.

قال روبين: «قال جريفين إنك ستعرفين ما ينبغي عمله، فماذا كان يقصد؟».

همست فيكتور: «أننا سنجد خلفاء فحسب، وأن أصدقاءنا أكثر مما نظن. هذا إن تمكنا من الوصول إلى الغرفة السرية».

وهنا أشار روبين بلا هدف: «وها نحن ذا في غرفة خالية».

فوقفت فيكتور وقالت: «أوه، لا تكن هكذا».



فراحا يُفتّشان في الغرفة عن أدلة. تعهّدت فيكتوار الخزانة وتعهد روبين المكتب ليُجد في أدراجهِ أكوامًا وأكوامًا من دفاتر جريفين وخطاباته، فرفعها أمام ضوء الشمعة الضعيف المُرتجف. تألم روبين لرؤية خطّ جريفين باللغة الإنجليزية الذي اتخذ نمطًا مُجعدًا عنكبوتيًا شديد الشبه بخطّه وخطّ أبيهما.

كانت تلك الحروف، والأسطر الدقيقة، والواضحة، والمُزدحمة تدلّ على كاتب عجول ودقيق في الوقت نفسه، كما كانت تُشير إلى جانب من شخصية جريفين لم يكن روبين يعرفه.

كانت شبكة جريفين أكثر اتساعًا مما كان يظنّ، إذ رأى مراسلات مُوجّهة إلى مُستلمين من بوسطن، ونيويورك، والقاهرة، وسنغافورة. لكن الأسماء كانت مُشفرة دائمًا. ومُنخّذة شكل إشارات أدبيّة دائمًا مثل «السيد بيكويك» و«الملك آخاب» أو أسماء إنجليزية شائعة مثل «السيد براون» و«السيد بينك» على نحو يجعلها غير واقعية على الإطلاق.

رفعت فيكتوار قُصاصة ورق مُربّعة أمام عينيها وهي مُتجهّمة وقالت: «همم».

«ماذا هذا؟».

«إنه خطاب مُوجّه إليك».

«هل يُمكنني رؤيته؟».

تردّدت للحظة ثم أعطته إيّاه. كان الظرف خفيًا ومختومًا، وكان اسمه، روبين سويفت، مكتوبًا على الظهر بخطّ جريفين العريض. ولكن، متى عساه وجد الوقت لكتابته؟ لا يمكن أن يكون قد كُتب بعد أن أحضرهم أنطوني إلى هرمس، إذ لم يكن جريفين يعلم بمكانهم وقتئذ. لعله قد كُتب بعد أن قطع روبين علاقته بهرمس وأعلن عن عدم رغبته في عمل شيء معه.

سألته فيكتوار: «هل ستقرأه؟».



«لا، لا أظنني أستطيع». فأعاده إليها، إذ شعر بالخوف من محتوياته، فتسارعت أنفاسه، فلم يستطع حتى الإمساك به بيده. لم يستطع مواجهة رأي أخيه، ليس على الفور. «هلاً احتفظت لي به؟».

«ماذا لو كان شيئاً مفيداً؟».

قال روبين: «لا أظنه كذلك. لعله... شيء آخر. اقْرأيه لاحقاً يا فيكتور لو سمحت، لكني لا أستطيع النظر إليه الآن».

تردّدت فيكتور ثم طوّته ووضعت في جيبها الداخلي وقالت: «بالطبع».

وإصلاً نبش مُتعلّقات جريفيين، فبالإضافة للخطابات، كان جريفيين مُحفِظاً بكمّ لا بأس به من الأسلحة: سكاكين، وأحبال خانقة، وعدد من القوالب الفضيّة، وثلاثة مُسدّسات على الأقلّ. رفض روبين لُمسها وراحت فيكتور تفحص المجموعة وأصابعها تتحسّس الأسطوانات، ثم تَخيرت مُسدّساً ووضعت في جزامها.

سألها روبين: «هل تعرفين كيف تستخدمين هذا؟».

أجابت: «نعم، فقد علّمني أنطوني».

«يا لك من فتاة مُذهلة وكثيرة المُفاجآت».

فقال باستهزاء: «أوه لم تكن مُنتبهاً فحسب».

بيد أنه لم تكن هناك قائمة بأسماء جهات اتّصال ولا أدلّة على منازل سرّيّة أو خُلفاء مُحتملين. لقد غُفّ جريفيين كل شيء بشِفرة وابتكر شبكة شديدة الإحكام على نحو يجعل إعادة بنائها تتعذّر عند موته.

قالت فيكتور: «ما هذا؟».

فأعلى رفّ الكُتب وفي أقصى الورا كان هناك شيء مُخبأ. كان هناك مصباح. فمدّ روبين يده نحوها وكُلّه أمل. كانت تلك هي لَمعة الفضة المعهودة. كان أنطوني قد هتف: السراج. فكّر في الحرق على يد جريفيين،



وكيف كان جريفيين يعرف أن ثَمَّةَ شيئاً مُخيفاً قد حدث ولو حتى على بُعد أميال.

راح يُقلِّبه مُدَقِّقاً النظر. 燎 لياو.

لقد صنع جريفيين هذا، تعني كلمة لياو بلغة الماندرين «يحرق» أو «يُضيء»، كما تُشير إلى مصباح لإرسال الإشارات. كان هناك قالب فضة آخر مكتوب عليه كلمة بيكين. بدا لاتينيّاً، لكن روبين حاول استجماع ذكرياته، ولم يُفلح في تذكر معنى كلمة أو أصلها بالتحديد. ربما كان جِرمانيّاً؟*

مع ذلك، لم يستطع تخمين وظيفة المصباح. كانت هذه طريقة هرمس في الاتصال، إذ كانوا يُرسلون الإشارات بالنار.

فسألته فيكتور: «كيف تظنّه يعمل؟».

«لعلهم كانوا مُتّصلين بشكل ما». ثم مرّره إليها وقال: «كان جريفيين يَعرف أننا في مأزق بهذه الطريقة. لا بد أنه كان يحمل واحداً معه».

«لكن من عساه يمتلك أحد تلك المصابيح؟». قالت هذا ثم راحت تُقلِّبه بيديها وتُمرّر أصابعها على الفتيل الضعيف وأردفت: «من تظنّه على الجانب الآخر؟».

«لعلهم أصدقاء. ماذا يجب أن نُخبرهم؟».

فكرت للحظة ثم أجابت: «دعوة للتعبئة العامة».

* بعد هذا القالب الإضافي من القوالب النادرة ذات الزوج المتطابق بالإنجليزية القديمة والإنجليزية. لقد ابتكره جون فيوجيس باحث هرمس الذي شارك في مشروع في ثمانينيات القرن الثامن عشر حين كان الباحثون ينزلون في قلعة ولا يتحدثون بعضهم مع بعض إلا بالإنجليزية القديمة لمدة ثلاثة أشهر. (لم تُكرر تلك التجارب منذ ذلك الحين، لا لنقص التمويل، بل لأن بابل لم تجد ما يكفي من المتطوعين الراغبين في الخضوع لمثل هذه العزلة المتطرفة المصحوبة بعدم القدرة على التعبير عن الذات أمام الآخرين على نحو سليم). تشير كلمة بيكين بالإنجليزية القديمة إلى الإشارات المسموعة، والنذر، والعلامات، عوضاً عن المعنى الإنجليزي المطاط الذي يشير فحسب لإشارة نار كبيرة.



فنظر إليها وقال: «هل سنقوم بذلك فعلاً؟».

«ليس هناك خيار آخر».

«يقول مثل صيني: سي تو بو با كاي سوي تانج» * أي لا يضرّ الشاة سلخُها بعد ذبحها.

فابتسمت له ابتسامة صفراء وقالت: «أكمل ما بدأته».

«نحن موتى نسير على أقدام».

«لكن هذا ما يجعلنا مخيفين». قالت هذا ثم وضعت المصباح بينهما وأردفت: «لم يعد لدينا ما نخسره».

راحا ينبشان المكتب بحثاً عن قلم وورقة ثم شرعا في كتابة رسالة، انخفض مقدار الزيت في المصباح بشكل ملحوظ واحترق الفتيل حتى آخره. كان يجب أن تُكتب الرسالة بإيجاز ووضوح بحيث لا يَشْكُ أحد في معناها. حين اتفقا على ما يكتبان، رفعت فيكتوار الشمعة إلى المصباح، فظهر وميض خافت في البداية، ثم انطلق لهيب مُفاجئ بصوت هدير، فاشتعلت النيران بالسنة لهب شاهقة وراحت ترقص أمام أعينهما.

لم يكونا متأكّدين من آليات عمل الشعلة. كان روبيان قد نطق الزوج المتطابق المكتوب بلغة الماندرين بصوت مُرتفع، لكن أملهم تمثّل في كون الزوج الغامض طويل المفعول. لقد أعدّا قائمة مفصّلة بكل الوسائل الممكن تجربتها وتلوا الرسالة في ضوء اللهب، ثم صفاها بشفرة مرس، ثم كرّرا الشفرة بإلقاء عصا معدنية في اللهب، فراحت تستجيب بوميض لكل نقطة وشرطة. وأخيراً، بدأ الزيت يتناثر فوضعا الورقة في المصباح.

كان التأثير فورياً، إذ زادت قوّته بمقدار ثلاثة أضعاف، واندفعت ألسنة لهب طويلة بقوة ثم انكمشت عائدة لتلتفّ حول الورقة كأنها مخلوق شيطانيّ

* 死豬不怕開水燙



مُلْتَهَمَةً كلماتهم. لم تَحترق الورقة ولا تَتَجَدَّ، بل اختفت فحسب. وبعد لحظة نفد الزيت وَخَبَّت ألسنة اللهب وأظلمت الغرفة.

فسألت فيكتوار: «هل تَظَنَّ أنه قد أدَّى الغرض؟».

أجاب روبين: «لا أدري. لا أعلم ما إذا كان أي شخص يستمع». وضع روبين المصباح. كان يشعر بتعب لا يُحتمل وكانت أطرافه مُتَبَيِّسَةً كالرصاص. لم يكن يَعْلَم ما أطلقاه للتوّ، وكان جزء منه لا يُريد أن يعرف، بل أراد أن يَتَكَوَّر في المكان البارد المُظلم ويختفي. كان يعلم أن لديه واجباً مُمْتَلأً في إتمام المهمة، وحين يأتي اليوم التالي، كان ليستجمع كل قواه لِيُواجهه. أما الآن، فكان يُريد النوم كالأموات. «أظننا سنرى».

وعند الفجر، تسأل الاثنان وهما يجتازان المدينة إلى مكتبة أولد حيث كان عشرات من رجال الشرطة مُتمركزين حول المبنى - لعلهم كانوا مُتَرَبِّصِينَ ليروا ما إذا كان أي من الحَمَقى سيعود. زحف روبين وفيكتوار إلى الأمام بحذر من الغابة وراء الفناء. كان هذا تصرُّفاً غيبياً، لكنهما لم يستطيعا مُقاومة الرغبة في حَصْر التلفيات. كانا يرجوان أن يجدا فُرصة للزحف إلى الداخل واستعادة بعض المُؤن، لكن وجود الشرطة حال دون تنفيذهما هذا.

لذا قرّرا أن يُصبحا شهوداً، فرغم كل شيء، كان يجب على أحد أن يشهد على هذه الخيانة وكان من الضروري تسجيل الخسارة.

كانت مكتبة أولد قد دُمّرت بالكامل، فقد نُسِفَ الجانب الخلفي تارِكاً فجوة دائرة كاشفة الجانب الداخلي للمكتبة وجاعلة إياه شبه عارٍ على نحو وَحْشِيٍّ مُهين. كانت الأرفف شبه خالية، إذ كُومَت الكُتُب التي لم تَحترق أثناء الانفجارات في عربات يدوية حول المبنى تمهيداً لنقلها بعيداً. وقد ظنّ روبين أنهم فعلوا هذا كي يُحلّلها باحثو بابل، وكان يَشْكُ أن مُعظم هذا العمل سيري النور على الإطلاق.

كانت كل تلك الأبحاث الرائعة والأصيلة مُخبَّأة في فهارس الإمبراطورية خوفاً مما قد تُوحى به.



لكن، حين زحف مُقْتَرِبًا، رأى جُنُثًا مُلْقاة بين الأنقاض. رأى ذراعًا شاحبة شبه مدفونة تحت الأحجار الساقطة، كما رأى رباط حذاء مُتَّصلاً بساق مُتَفَحِّمَةً، وكذا كُتلة شَعْر سوداء مُغَطَّاة بالتراب بجوار الطرف الجانبي لمكتبة أولد، لكنه أشاح بوجهه قبل أن يلمح الوجه أسفله.

قال وهو يشعر بالدُّوار: «لم يُزِيلُوا الجُنُث بعد».

وضعت فيكتوار يدها على فمها وقالت: «رباه!».

«لم يُزِيلُوا الجُنُث بعد...».

وقف روبين. لم يعرف ما يريد عمله. هل يجزّ الجُنُث إلى الغابة واحدة تلو الأخرى، أم يحفر قبورًا بجوار المكتبة ويضع قُماشًا فوق أعينهم المفتوحة الشاحصة على الأقل؟ لم يكن يعرف. لكن كان ترك الجُنُث هناك مكشوفة ومُهدَّدة خطأ جسيمًا.

لكن فيكتوار كانت تجذبه للخلف وراء الأشجار قائلة: «لا يُمكننا. تعرف أنه لا يُمكننا...».

«إنهم ملقون هناك. أنطوني، وفيمال، ورامي...».

لم يكونوا قد نقلوا الجُنُث إلى المشرحة، ولا حتى غطَّوها، بل تركوا الأموات حيث سقطوا نازفين بين الأحجار والصِّفحات، وراحوا يدوسونهم أثناء إخلاء المكتبة. هل كان هذا انتقامهم البسيط من حياة مملوءة بالمُنْغِصَات أم لعلهم لم يكتراثوا؟

فقال في نفسه: يجب أن يتحطَّم العالم. يجب أن يتحمل أحدهم مسؤولية هذا. يجب أن يسيل دم أحدهم. لكن فيكتوار كانت قد سحبته إلى الطريق الذي سلكاه قُدُومًا، وكانت قبضتها المُحْكَمَة هي الشيء الوحيد الذي منعه من الإلقاء بنفسه في المعركة.

همست فيكتوار: «لم يَعدْ لنا شيء هنا. لقد آن الأوان يا روبين. يجب أن نمضي».



لقد اختاراً يوماً مناسباً للثورة.

كان أول أيام الفصل الدراسي ومن الأيام النادرة التي يكون فيها طقس أوكسفورد بديعاً على نحو مُضِلِّل، إذ كان الدفء يَعدّ بمزيد من أوقات سطوع الشمس والبهجة أكثر من البرد القارس والأمطار التي لا تنقطع التي تأتي مع هيلاري لا محالة. كانت السماء زرقاء صافية ونسيم الربيع مُنْعِشاً. كان الجميع لبيبوا بالداخل - أعضاء هيئة التدريس، والخريجون، والزُملاء، والطلاب - وكانت ردهة البرج لتخلو من العُملاء، إذ كان برج بابل مُغلَقاً هذا العام لأغراض إعادة ترتيب الرُفوف والتجديدات أثناء الأسبوع الأول من الفصل الدراسي، ومن ثم، لم يكن المدنيون ليقعوا في مَرَمَى النيران.

وهكذا، صار السؤال مُتعلِّقاً بكيفية الدخول إلى البرج.

كان بإمكانهما أن يسيرا إلى الباب الأمامي ويدلفا. كان وجههما يملآن الصُخْف في جميع أنحاء لندن. وحتى لو كان الأمر قد أُخفي في أوكسفورد، كان بعض الباحثين يعرفون بالتأكيد. كان ستة من رجال الشرطة يُؤمّنون الباب الأمامي، وكان الأستاذ بلاي فير قد أتلف قوارير الدم التي تُشير إلى انتمائهما.

لكن، كانا يتمتّعان بثلاث مُميزات مُمثّلة في: تشويش إكسلودير الذي ابتكره جريفيين، وقالب الإخفاء، وتصميم الفخاخ للحفاظ على المواد بالداخل، لا بالخارج. كانت الميزة الأخيرة مُجرّد نظرية. بيد أنها كانت قوية. وحسب علمهما، كانت الفخاخ لتنشط عند الخروج، لا عند الدخول. كان اللصوص ليدخلوا بسهولة لطالما ترك أحدهم الباب مفتوحاً، لكن المشكلة كانت مُمثّلة في الخروج.*

* كانت هذه الثغرة معتمدة، ففي الأيام السابقة، كان البرج ليهاجم الداخلين والهاربين بالمثل، لكن الفخاخ لم تكن دقيقة، وتزايد عدد عمليات التشويه غير القانونية حتى أصرت حكومة المدينة على ضرورة تطبيق بعض الإجراءات القانونية، وتمثل رد الأستاذ بلاي فير في القبض على اللصوص أثناء خروجهم فحسب حين تكون أدلة الإدانة في جيوبهم أو منثورة حولهم على الحصى.



ولو كانا سيئَقدان خطتهما اليوم، فلن يبرحا البرج لوقت طويل.

تنقّست فيكتوار بعَمق وقالت: «مستعد؟».

لم يكن هناك سبيل آخر. لقد شحذا عقليهما طوال الليل ولم يتوصّلا إلى شيء، ولم يكن أمامهما سوى التصرف.
فأوماً روبين.

همس روبين: «إكسلودير»، ثم رمى قالب جريفيين نحو المرج.

وهنا ارتجّ الهواء بعنف. كان روبين يعلم نظرياً أن الحاجز لا يُشكّل خطراً، لكن صوته كان رهيباً كأنه صوت مُدُن تنهار وأهرامات تنهار. انتابه شعور غريزيّ بالهرب والبحث عن ملجأ، ورغم علمه بأن الأمر مجرد أوهام تسببها الفضة، كان عليه قمع كل رغبة في الفرار في الاتجاه الآخر.

ألحّت فيكتوار: «لنذهب» وجذبتة من ذراعه.

ومثلما توقّعا، عبرت الشرطة المرج وأغلِق الباب وراء مجموعة من الباحثين.

انطلق روبين وفيكتوار نحو الرصيف، ودارا حول الختم، واندفعا وراءهم بسرعة. حبس روبين أنفاسه أثناء عبورهما العتبة، لكن الصافرات لم تنطلق ولم تُنصب أي فخاخ. لقد دخلا وصارا آمنين.

بدت الردهة أكثر ازدحاماً من المعتاد. هل قرأ أحدُ رسالتهما؟ هل أتى بعض هؤلاء الناس استجابة لدعوتهما؟ لم يكن لديه طريقة يعرف بها من كان مع هرمس ومن لم يكن. كان كل من ينظر في عينيهِ يُومئُ له بأدب وعدم اكتراث في الوقت عينه ثم يُكمل ما يفعله. بدت الأمور طبيعية على نحو غريب. ألم يعرف أي شخص أن العالم قد تحطّم؟

وفي الجانب الآخر من القاعة الدائرية، كان الأستاذ بلاي فير مُتكنّاً على شرفة الطابق الثاني يتجاذب أطراف الحديث مع الأستاذ شاكرافارتي. لا بد



أن الأستاذ شاكر افارتي قد أطلق مزحة، إذ كان الأستاذ بلاي فير يضحك، ويهزُّ رأسه، وينظر إلى الردهة. وإذ التقت عيناه بعيني روبين جحظتا.

فقفز روبين على طاولة في مُنتصف الردهة في الوقت نفسه الذي اندفع فيه الأستاذ بلاي فير إلى الدرج.

صاح: «أعيروني أسمعكم».

لم يلق البرج الصاحب له بالآ. تسلَّقت فيكتوار بجواره حاملة جرس المراسم الذي كان الأستاذ بلاي فير يُعلن به نتائج الامتحانات. رفعته فوق رأسها وهزَّته بقوة ثلاث مرات، فعَمَّ الصمت البرج.

قال روبين: «شكرًا. آه، يجب أن أقول شيئًا». تشوَّش ذهنه لرؤية ذاك العدد الكبير من الوجوه المُحدِّقة فراح يرمش في صمت مُطبق وذعر لعدة ثوانٍ حتى عادت الكلمات أخيرًا للسانه، فتنفس بعمق وقال: «سنُغلق البرج».

فاندفعت الأستاذة كرافت نحو المنطقة الأمامية من الردهة: «ماذا تفعل يا سيد سويفت بالله عليك؟».

فقال الأستاذ هاردينج: «مهلاً، ليس من المفترض أن تكون هنا. قال جيروم...».

ردَّ روبين دون تفكير: «هناك حرب دائرة». ثم جفل أثناء خروج الكلمات من فمه، إذ كانت تفتقر للباقة والقدرة على الإقناع. كان قد أعدَّ خطبة، لكنه فوجئ بتذكُّره العناوين فحسب، وقد بدت تلك سخيصة حتى حين نطقها بصوت مرتفع.

وفي الجانب الآخر من الردهة وعلى طول شرفات الطوابق العلوية، رأى تعبيرات مُتناوبة من الشكِّ، واللَّذَّة، والضيق، بل وحتى الأستاذ بلاي فير اللاهث عند قاعدة الدرج بدا مُرتبكًا أكثر من كونه مُتضايقًا، وشعر روبين بالدوار والرغبة في القيء.



كان جريفيين ليعرف كيف يُخضعهم. كان جريفيين هو القصاص والثوري الحقيقي، كان ليتِمَكَّن من رسم الصورة الضرورية للتوسُّع الإمبريالي، والتواطؤ، والذنب، والمسؤولية بمجموعة من العبارات الجوفاء. لكن جريفيين لم يكن موجودًا، وكان أفضل ما يستطيع روبين فعله هو استحضار روح أخيه الميت.

«يناقش البرلمان عملية عسكرية على كانتون». ثم أجبر صوته على الارتفاع وشغل حيز مسبوق في الغرفة. «لا يوجد مُبرِّر عدا جشع الشركات التجارية التي تُخَطِّط لفرض الأفيون على الصين تحت تهديد السلاح. وكان إشعال أزمة دبلوماسية خلال رحلتنا ذريعة لعمل ذلك».

وإذ ذاك نطق بشيء منطقي ليستحيل الغضب المحيط بالبرج إلى فضول وارتباك.

فسأل أحد الزملاء في القسم القانوني - والمدعو كولبروك أو كونواي أو ما شابه - «ما علاقة البرلمان بنا؟».

أجاب روبين: «لا تفعل الإمبراطورية البريطانية شيئاً دون مساعدتنا، إذ نكتب القوالب التي تُذخر أسلحتهم وتساعد سُفُنهم على الإبحار، ونصُفِّل أسلحة الهيمنة، ونصوغ معاهداتهم. فلو سحبنا مساعدتنا، لن يستطيع البرلمان المُضي قدماً في موضوع الصين...».

فقال كولبروك أو كونواي: «لم أفهم بعد كيف يُمَثِّل الأمر مشكلة بالنسبة لنا».

فتدخَّلت فيكتوار في الحديث: «يُمَثِّل مشكلة بالنسبة لنا؛ لأن أساتذتنا وراء» وكان صوتها يرتجف. بيد أنه كان أعلى وأكثر ثقة من صوت روبين. تابعت فيكتوار: «توشك على النفاد، بل إن البلاد بأسرها تُعاني نقصاً، وبعض أعضاء هيئة تدريسينا يظنون أن طريقة إصلاح الأمر تتمثِّل في حقن سوق أجنبية بالأفيون، بل وسيفعلون ما في وسعهم لإنجاح هذا الأمر. إنهم يقتلون كل من يُحاول تسريبه. لقد قتلوا أنطوني ريبين...».



قالت الأستاذة كرافت: «مات أنطوني ريبين في البحر».

ردّت فيكتوار: «لا، لم يفعل. لقد كان يعمل في الخفاء لإيقاف الإمبراطورية عن عمل هذا تحديدًا. لقد أطلقوا النار عليه الأسبوع الماضي، وكذلك فيمال شرينيفاسان، وإلزي ديجيما، وكاثي أونيل. اذهبوا إلى جيريكو، والمبنى القديم وراء الغابة عبر الجسر وسترون الأنقاض والجثث...».

أثار هذا مهمة. كان فيمال، وإلزي، وكاثي موضع حُب في الكلية. ثم تصاعد الهمس، إذ اتّضح أنهم لم يعودوا موجودين ولم يستطع أحد تحديد مكانهم.

فقال الأستاذ بلاي فير بحدة بعد أن استعاد هدوءه كمُمثِّل تذكر سطره: «مجانين» مُشيرًا إليهما بأصبع درامي مُتَّهم «إنهما يعملان مع عصابة من اللصوص المُشاغبين، ويجب أن يدخلوا السجن...».

لكن هذا بدا أكثر صعوبة في إقناع الحاضرين من رواية روبين، إذ تحوّل صوت الأستاذ بلاي فير، الذي كان يُضفي دائمًا حيوية على الأجواء، إلى مُجرّد ضجيج مسرحي. لم يكن لدى أيّ شخص آخر دليل عمّا يتحدث أي من ثلاثتهم عنه، فمن الخارج بدا الأمر وكأنه استعراض.

فقال الأستاذ بلاي فير مُستفهمًا: «لَمْ لا تُخبرنا ما حدث لريتشارد لوفيل؟ أين هو؟ ماذا فعلت به؟».

فصرخ روبين: «يُعدّ ريتشارد لوفيل من مُهندسي هذه الحرب، فقد ذهب إلى كانتون كي يحصل على معلومات عسكرية من جواسيس بريطانيين، وهو على اتصال مُباشر بالمرستون...».

ردّت الأستاذة كرافت: «لكن هذا سُخف. لا يمكن أن يكون حقيقيًا. هذا...»

قال روبين: «لدينا مُستندات». وهنا جال بخاطره أن تلك المُستندات قد أُتلفت أو صُوِّدَت. لكن الخطاب كان مُقنعًا من الناحية البلاغية. تابع روبين: «لدينا إشارات، وأدلة، كُلُّها موجودة. لم ينفك يُخطِّط لهذا على مدى سنوات. بلاي فير ضالع في الأمر، اسألوه...».



ردَّ الأستاذ بلای فیر: «إنه كاذب، بل يهذي يا مارجریت. لقد جُنَّ الصبي...».

فتجهَّمت الأستاذة كرافت وراحت تنقل نظرها بينهما وقالت مُشيرة إلى روبین وفیکتوار: «لكنَّ غياب الترابط المنطقي هو ما يُميِّز الجنون، والأكاذيب تخدم قائلها. أمَّا هذه الرواية، فلا تُفيد أحدًا، وبالأخص هذين الاثنين، وهذا غير مُترابط».

«أوَّكِّد لك يا مارجریت...».

خاطب روبین الأستاذة كرافت مُتوسِّلًا: «أرجوك يا أستاذة. إنه يريد الحرب، وكان يخطِّط لها منذ سنوات. اذهبي وفَتَّشي مكتبه، مكتب الأستاذ لوفيل. اقرئي أوراقه، إذ تحوي كل شيء».

فهمهمت الأستاذة كرافت: «كلا». قطَّبت حاجبيها وراحت تنقل عينيها بين روبین وفیکتوار، فقد بدت أنها تتبين شيئًا: لعله هزالهم وانحناء أكتافهم، أو الحزن المُتغلغل في أعماقهم، ثم قالت: «لا، أُصدِّقكما...» ثم استدارت وقالت: «هل كنت تعلم يا جیروم؟».

انتظر الأستاذ بلای فیر لحظة كمن كان يتفكَّر فيما إذا كان الأمر يستحق الاستمرار في التظاهر، ثم زفر بانزعاج قائلاً: «لا تدَّعي أنكِ مصدومة. تعرفين من يُدير هذا البرج، وتعرفين أن ميزان القوة كان يجب أن يتحوَّل، وكنت تعلمين أنه كان يجب أن نفعل شيئًا حيال العجز...».

«لكن إعلان الحرب على الأبرياء...».

قال: «لا تتظاهري بأننا يجب أن نضع حدًا لها هنا. كنتِ مُوافقة على كل شيء. لا تقدم الصين للعالم سوى سوق استهلاكية ضخمة. لمْ لا...» وهنا توقَّف، وبدا كأنه أدرك خطأه وكأنه أيَّد مصداقية روايته.

كان الألوان قد فاتت، وتغيَّرت الأجواء في البرج، وتبدَّدت الشكوك، وتحول الانزعاج إلى وعي راح يتنامى بأن ما يجري ليس مزحة ولا نوبة جنون، بل حقيقة.



كان البرج مُنفصلاً عن الواقع، فلم يعرف رؤّاده كيف يتصرّفون حياله.

«نستخدم لغات الدول الأخرى لإثراء هذه الدولة». قال روبين هذا وهو ينظر حول البرج. ذكّر نفسه أنه لم يكن يُحاول إقناع الأستاذ بلاي فير، بل كان يجب عليه أن يُقنع الآخرين. «نحصل على معارف لا نملكها، وأقل ما نفعله هو إيقاف حدوث ذلك، فهذا هو الحل الأخلاقي الوحيد».

فسأل ماثيو هاوندزولو: «ماذا تُخططان إذًا؟». لم يبدُ عدائيًا، لكنه كان مترددًا ومُرتبكا فحسب. «صار الأمر بين يدي البرلمان كما تقولان، فكيف إذًا...».

«سوف نقوم بإضراب».

قالها روبين بثقة، إذ كان سؤالا يعرف إجابته. رفع ذقنه وحاول أن يتحدث بكل ما في صوت جريفيين وأنطوني من سلطان. «لقد أغلقنا البرج. ومن اليوم فصاعداً، لن يدخل أي عميل الردهة، ولن يبتكر أحد قوالب الفضة، أو يبيعهها، أو يصونها. سنحرم بريطانيا من جميع خدمات الترجمة حتى تستسلم، وسوف تستسلم؛ لأنها تحتاج إلينا. تحتاج إلينا أكثر من أي شيء، وهكذا ننصر». وهنا توقّف وقد عمّ الصمت الغرفة. لم يعرف ما إذا كان قد أفتق الحاضرين، وما إذا كان ينظر إلى تعبيرات تشي بإدراك مُتدبّر أو عدم تصديق. «اسمعوا، لو أن جميعنا...»

فقال الأستاذ بلاي فير وهو يضحك ضحكة قصيرة خبيثة: «لكنكم بحاجة لتأمين البرج، بل يجب أن تُخضعونا جميعاً».

ردّت فيكتوار: «أظننا نفعل الصواب الآن».

ساد سكون وترقّب إذ اتّضح لجميع من في المبنى من باحثي أوكسفورد أن ما سيحدث سيكون مسألة صراع قوة.

فأشار الأستاذ بلاي فير إلى أقرب طالب إلى الباب وقال: «اذهب وأحضر رجال الشرطة وأدخلهم...».



لم يتحرَّك الطالب. تذكر روبين أنه طالب في السنة الثانية ويُدعى إبراهيم، وهو باحث مصري مُتخصِّص في اللغة العربية. بدا صبيًّا صغير السن ذا وجه طفولي. فهل كان طلاب السنة الثانية صغار السن هكذا؟ نظر إبراهيم إلى روبين وفيكتور، ثم إلى الأستاذ بلاي فير مُتجهِّمًا وقال: «لكن يا سيدي...».

وإذ همَّ اثنان من طلاب السنة الثالثة بالخروج، بادرتهما الأستاذة كرافت: «لا تفعلًا». دفع أحدهما إبراهيم إلى رف، فالقى روبين قالب فضة على الباب وقال: «إكسلودير، انفجر». فامتألت الردهة بصوت مريع مُرتفع تمثِّل في عواء صاخب ابتعد على إثره طلاب الفرقة الثالثة عن الباب كالأرانب المذعورة.

فأخرج روبين قالب فضة آخر من جيبه الأمامي ولوَّح به فوق رأسه. «لقد قتلت ريتشارد لوفيل بهذا». لم يُصدِّق أنه كان ينطق بهذه الكلمات، لم يكن هو من يتحدَّث، بل شبح جريفيين، الأخ الأكثر شجاعة وجنونًا آتيا من العالم السفلي ليشد أزره. «لو تقدَّم أي شخص مِنِّي، ولو حاول أحد طلب النجدة، سأدمِّره».

بدا الجميع مذعورًا، إذ رضخوا له في الحال.

أقلقه هذا. سارت الأمور بسهولة شديدة. كان متأكدًا أنه سيواجه مزيدًا من المقاومة، لكن بدا كل من في الغرفة خاضعًا، بل حتى الأساتذة لم يتحرَّكوا، واختبأ الأستاذان لوبلان ودي فريز تحت طاولة وكأنهما يحتميان من نيران المدافع! كان بإمكانه أن يطلب منهما الرقص أو تمزيق صفحات كُتبهما صفحة تلو الأخرى وكانا ليطيعاه!

كانا ليطيعاه لأنه هدَّدهما بعمل عنيف.

لم يتدنَّكَر السبب الذي جعل فكرة التصرف ثرعبه بشكل كبير من قبل. كان جريفيين مُحَقًّا. إذ لم يتمثِّل العائق في القتال، بل في عدم تخيله مُمكنًا على الإطلاق، والحاجة المُلحة للتشبُّث بالوضع الراهن الأمن الذي يضمن البقاء.



لكنَّ العالم بأسره صار مفتوحًا على مصراعيه، وكانت كل أبوابه مفتوحة. لقد تجاوزا نطاق الأفكار ودخلا نطاق الأعمال، وهو شيء لم يكن طلاب أوكسفورد مُستعِدِّين له على الإطلاق.

فقال الأستاذ بلاي فير بحدة: «فليقبض أحد عليهما بحق السماء».

فتقدَّمت مجموعة صغيرة من الخريجين إلى الأمام وقد بدا عليهم الارتياح. كانوا من ذوي البشرة البيضاء المهتمِّين بالشؤون الأوروبية. مدَّ روبين رأسه وقال: «حسنًا، تقدِّموا».

خلا كل ما تلا ذلك من الوقار، ولم يرقَ لمُستوى ملاحم البطولة والشجاعة، إذ كان باحثو أوكسفورد مُنعمِّين لم يعرفوا قسوة الحياة، وكانوا مُنظرِّين اكتفوا بالكتابة عن أهوال المعارك الدامية بأيِّدٍ لم تلمس خُشونة الحرب. كان الاستيلاء على بابل صدامًا عبثيًا بين العالم المادي والعالم المعنوي، إذ اقترب الزملاء من الطاولة مادِّين أذرُعهم بارتباك، فركلهم روبين بعيدًا فيما بدا كأنه يهشُّ أطفالًا، إذ كانوا أشدَّ خوفًا من أن يُقدِّموا على عمل وحشي، ولم يكونوا بالقدر الكافي من البؤس أو الغضب ليؤذوه، بل إنهم بدوا غير مُتأكِّدين ممَّا أرادوا عمله - هل يطرحونه أرضًا، أم يمسكونه من ساقيه، أم يكتفون بلمس كاحليه؟ وكانت ضرباته الانتقامية شكلية بالمثل. كانوا يمثِّلون معركة كهواة تُلَقَّو تعليمات مسرحية مُمثَّلة في المقاومة.

فصرخ: «يا فيكتوار!».

كان أحد الباحثين قد تسلَّق طاولة خلفها، فدارت حول نفسها. ثم تردَّد الباحث للحظة وراح ينظر إليها من أعلى إلى أسفل، ثم لكمها، لكنه ضرب وكأنه لم يعرف شيئًا سوى الجانب النظري من الأمر، وكأنه لا يعرف سوى عناصره الأساسية: تثبيت الأقدام، وسحب الذراعين للخلف، ومدَّ القبضة. لقد أساء تقدير المسافة. ومن ثَمَّ، اقتصر التأثير على لمسة خفيفة على كتف فيكتوار، فوجهت له ضربة بقدمها اليسرى، فانثنى على ساقيه وهو يئنُّ.

«توقفوا!».



توقّف العراك فجأة، إذ قد حصل الأستاذ بلاي فير بغنة على بندقية.

ثم صوب البندقية نحو روبين وقال: «أوقفوا هذا السُخف الآن وفوراً».

تنهّد روبين وقال: «هلمّ». لم يكن يعلم من أين وافته تلك الفورة الغربية من الشجاعة، لكنه لم يشعر بذرة خوف واحدة. بدت البندقية بشكل ما شيئاً معنوياً أكثر منه مادياً، ولم يكن الرصاص قادراً على المساس به فتابع: «هلمّ، فأنا أتحداك».

كان يراهن على جُبْن الأستاذ بلاي فير، وعلى كونه يستطيع حمل سلاح، لكنه لا يستطيع جذب زناد. ومثل باقي باحثي بابل، كان بلاي فير يكره تلوّث يديه. كان يصمّم فخاخاً مميتة، بيد أن هو نفسه لم يستخدم أنصلاً، ولم يكن يعرف مقدار الإرادة أو الذعر المطلوب لقتل إنسان.

لم يستدر روبين ولم ينظر ليرى ما كانت فيكتور تفعله، إذ كان يعرف، ففرد ذراعيه مركّزاً في عينيّ الأستاذ بلاي فير قائلاً: «ما الخدمة التي تريدها مني؟».

تجهّم وجه الأستاذ بلاي فير، وبدأت أصابعه تتحرّك، وشدّ روبين أعصابه. في تلك اللحظة دوت طلقة رصاصية.

ترنّح الأستاذ بلاي فير للخلف وقد انتشر لون قرمزيّ كالانفجار على منتصف جسده لتدوي صرخات في جنبات البرج. نظر روبين فوق كتفه ليجد فيكتور تخفض أحد مسدسات جريفيين وخيوط الدخان تتلوّى حول وجهها وقد اتسعت عيناها بشكل كبير في دهشة.

فقالَت وهي تتنَفّس بصعوبة: «اهدأوا. صرنا نعلم كيف يكون الشعور».

وفجأة اندفع الأستاذ دي فريز في الردهة مستهدفاً بندقية الأستاذ بلاي فير، فقفز روبين من فوق الطاولة، لكنه كان بعيداً للغاية. لكن الأستاذ شاكرافارتي ألقي بنفسه بجانب الأستاذ دي فريز، فارتطما بالأرضية محدثين صوتاً مكتوماً.



وبدأ النزال في مشهد مُخجل وغير لائق: أستاذان سمينان في منتصف العمر يتمرغان على الأرض وأرديتهما تتطاير فوق خصريهما بشكل مُضحك. راح روبين يراقبهما في دُهل، وإذا بالأستاذ شاكرا فارتي ينتزع البندقية من قبضة الأستاذ دي فريز ويضع حدًا لحركته في وضعية عشوائية. «سيدي؟»

قال الأستاذ شاكرا فارتي لاهثًا: «لقد تلقيت رسالتك. أحسنت».

وجّه الأستاذ دي فريز ضربة بمرفقه لأنف الأستاذ شاكرا فارتي، لكن الأخير ترنّح إلى الوراء وتلوى خارجًا من قبضته ليواصل النزال.

التقط روبين البندقية من فوق الأرضية ووجهها نحو الأستاذ دي فريز.

ثم قال بنبرة أمرة: «قف وضع يديك فوق رأسك».

ردّ الأستاذ دي فريز بسخرية: «لا تعرف كيف تستخدمها».

فصوّب روبين البندقية نحو الثريا وجذب الزناد، فانفجرت الثريا وتناثرت شظايا الزجاج في أرجاء الردهة. بدا الأمر وكأنه أطلق النار على الحشد، إذ ارتعد الجميع وصرخوا. استدار الأستاذ دي فريز ولاذ بالفرار، لكن كاحله انحشر في قائمة مكتب ليسقط فجأة على مؤخرته. أعاد روبين ترتيب الغرفة تمامًا كما شرح له جريفيين، ثم صوب البندقية نحو الأستاذ دي فريز مُجددًا.

فأعلن: «ليس هذا نقاشًا، بل انقلاب، فهل يودُّ أحد أن يُجرّب حظه؟». كان جسده كلّه يرتجف ويشعّ بالطاقة العنيفة نفسها التي شعر بها حين تعلّم إطلاق النار للمرة الأولى.

لم يتحرّك أحد ولم ينبس أحد ببنت شفة، بل انكمش الجميع في ذعر. كان البعض يبكون، والبعض يكتّم فمه بيديه وكأنها الطريقة الوحيدة لكبح صراخهم. لكن الجميع كانوا يراقبونه منتظرين أن يُملي عليهم الخطوة التالية.

وللحظة، اقتصر الصوت المُدوي في البرج على أنين الأستاذ بلاي فير.



نظر إلى فيكتوار من فوق كتفه ليجد علامات الذهول على وجهها وبندقيتها مُتدلية باسترخاء بجانبها. لم يتوقع أي منهما في قرارة نفسه أن يحقق كل هذا، إذ تمحورت توقعاتهم لليوم حول الفوضى، ومعركة يائسة مُدْمِرة، وشجار ينتهي بالموت. كانا قد أعدّا نفسيهما للتضحية لا للفوز.

لكنهما لم يستوليا على البرج بتلك السهولة كما كان جريفيين يتوقع. والآن، صار عليهما التصرف كْمُنْتَصِرِينَ.

أعلن روبيين: «مُحال أن يخرج شيء من بابل، فقد أغلقنا على أدوات أعمال الفضة وأوقفنا الصيانة الروتينية للمدينة. ننتظر أن تتوقف الآلات عن العمل، ونرجو أن يخضعوا قبل أن نفعل». لم يعرف من أين أتت تلك الكلمات، لكنها بدت جيدة. «لا تستطيع هذه البلاد البقاء شهرًا من دوننا. سنضرب حتى يرضخوا».

قالت الأستاذة كرافت: «سيُطلقون عليكم القوات».

ردت فيكتوار: «لكنهم لن يستطيعوا. لا يمكنهم المساس بنا، بل لا يستطيع أحد المساس بنا، فهم في أمس الحاجة إلينا».

كان ذلك الذي يُعدّ أساس نظرية العنف عند جريفيين هو سبب انتصارهم. لقد فهم الأمر، فلماذا كان جريفيين وأنطوني شديدي الثقة في كفاحهما ومقتنعين أن المستعمرات تستطيع تحدّي الإمبراطورية. كان يجب إنقاذ الإمبراطورية، وكان العنف يهزّ النظام لأن النظام لا يمكن أن يلتهم نفسه ويعيش. كانت أيدي الإمبراطورية مغلوطة إذ لم تستطع تقويض مصدر ربحها، وقد كان بابل يُعدّ من الأصول الثمينة تمامًا كحقول السكر، والأسواق، وأولئك المُجبرين على العمل. كانت بريطانيا بحاجة إلى اللغات الصينية، والعربية، والسنسكريتية، وغيرها من لغات الأراضي المُستعمَرة كي تعمل. لم يكن بإمكان بريطانيا أن تؤذي بابل دون أن تؤذي نفسها، ومن ثم، كان بإمكان بابل وحدها، كقوة مُهملة، أن تشلّ حركة الإمبراطورية.



فسأل الأستاذ دي فريز: «ماذا أنتم مزعمون عمله؟ هل ستحتجزوننا كرهائن على الدوام؟».

أجاب روبين: «أرجو أن تتضمن إلينا، فإن لم تفعل، يمكنك ترك البرج. اصرف الشرطة أولاً، وبعدها تستطيعون الانصراف واحداً تلو الآخر. لن يستعيد أحد أي شيء من البرج، بل سيخرج كل منكم بما يرتديه فحسب».*. ثم توقّف وتابع: «وأنا متأكد أنكم تعرفون أننا سنتلف قوارير دمانكم لو مضيتم».

وما إن انتهى حتى اتجهت مجموعة كبيرة من البشر نحو الباب. انزعج روبين لهذا العدد. كان العشرات يُغادرون، كلهم من دارسي اللغات الكلاسيكية، والمهتمين بالشؤون الأوروبية، ونحو كل أعضاء هيئة التدريس. حُمِل الأستاذ بلاي فير إلى الخارج وهو يئنّ محشوراً بازدراء بين الأستاذ دي فريز والأستاذ هاردينج.

لم يتبقّ سوى ستة باحثين، وهم: الأستاذ شاكرافارتي، والأستاذة كرافت، واثنان من الطلاب - إبراهيم وفتاة ضئيلة الجسم تُدعى جوليانا - واثنان من الخريجين الزملاء وهما يوسف وميجانا اللذان يعملان في الأدبيات القانونية على التوالي. كان أولئك من أصحاب البشرة المُلوّنة وأهل المستعمرات، ما عدا الأستاذة كرافت.

لكن كان هذا لينجع، إذ كان بإمكانهم التنازل عن سيطرتهم على المواهب مقابل استبقاء سيطرتهم على البرج. كانت بابل تحوي أكبر كمّ من موارد أعمال الفضة في البلاد والمُمثّلة في العلوم النحوية، وأقلام النحت، ودفاتر الأزواج المُتطابقة والمواد المرجعية، بل وأكثر من هذا، الفضة. كان الأستاذ بلاي فير وغيره ليؤسسوا مركز ترجمة ثانوياً في مكان آخر، لكن حتى لو

* كان هذا القرار مثار جدل مُحتم بين روبين وفيكوار. كان روبين يريد احتجاز جميع الباحثين رهائن. أما فيكوار، فقد احتجّت بقوة أن عشرات الباحثين كانوا أكثر قابلية للخضوع لو أُجبروا على الخروج من المبنى تحت تحديد السلاح من الاحتجاز في القبو لمدة أسابيع مُتتالية دون مكان للاستحمام، أو غسل الملابس، أو قضاء الحاجة.



تمكنوا من إعادة تأسيس كل شيء يحتاجون إليه للحفاظ على أعمال الفضة في البلاد من الذاكرة، لاستغرق الأمر أسابيع وربما أشهرًا لتأمين المواد الكافية لتكرار عمل البرج. وقبل ذلك الحين، سيكون التصويت قد تمَّ، ولو سارت الأمور وفقًا للخطة الموضوعة، ستكون البلاد قد خضعت.

فهمهمت فيكتوار: «ماذا الآن؟».

احمرَّ وجه روبين وهو ينزل من المكتب وقال: «سنُملي الأحداث على العالم».

وعند الظهر، تسلَّق روبين وفيكتوار الشرفة الشمالية في الطابق الثامن. كانت ذات طابع زخرفي عالٍ ومُصمَّمة لتتناسب مع الباحثين الذين لم يعرفوا قيمة الهواء النقي. لم تطأ قدم ذاك المكان، وكان الباب قد صدئ بسبب إغلاقه. دفعه روبين وهو مائل بقوة على إطاره. فعندما فُتح الباب فجأة، ترنَّح وكاد يسقط من على الحافة للحظة مُرعبة، ثم استعاد توازنه.

بدأت أوكسفورد شديدة الضالة أسفله، بل أشبه ببيت دمي وصورة مُزيفة عن العالم الحقيقي لأولئك الذين لن يُشاركوا فيه فعليًا. راح يتساءل ما إذا كان رجال مثل جاردين وماتيسون يرون العالم هكذا: ضئيلاً وقابلاً للاستغلال، وما إذا كان الناس والأماكن تتحرَّك حول الخطوط التي يرسمانها، والمُدن تتحطَّم حيث يطان بأقدامهما.

وبالأسفل، كانت الدرجات الحجرية في المنطقة الأمامية للبرج مُضاءة بألسنة اللهب، وكانت قوارير الدماء الخاصة بالجميع عدا الباحثين الثمانية الذين بقوا داخل البرج مُهشَّمة على الأحجار، ومغمورة بالزيت المسكوب من المصابيح غير المُستخدمة وقد أُشعلت فيها النيران. لم يكن هذا ضروريًا، إذ كل ما كان يهمُّ هو أن القوارير قد أُزيلت من البرج؛ لكن روبين وفيكتوار كانا قد أصرا على المراسم. لقد تعلَّما أهمية الاستعراض من الأستاذ بلاي فير، وكان هذا العرض المُخيف دليلًا، بل إنذارًا. لقد سقطت القلعة وطُرد الساحر.



وضعت فيكتوار كومة ورق على الحافة وقالت: «مستعد؟». لم تمتلك بابل مطبعة خاصة بها، ومن ثمّ، قضيا الفترة الصباحية في نسخ تلك المنشورات المائة باجتهاد. استُوحى الإعلان من خطاب أنطوني في تأسيس التحالفات وفلسفة العنف عند جريفيين. ضمّ روبين وفيكتوار أصواتهما. كان أحدهما مُتمثلاً في حثّ بليغ على التوحّد في النضال من أجل العدالة وتهديد لا هودة فيه للمعارضين. وقد دُمج هذا وذاك في إعلان واحد واضح ومختصر:

نحن، طلاب المعهد الملكي للترجمة، نطالب بريطانيا بالتوقف عن تدبير حرب غير مشروعة ضد الصين. وبالنظر لإصرار الحكومة على البدء في أعمال عدائية وقمعها الوحشي لمن يعملون على كشف دوافعها، ليس لدينا خيار آخر لجعل أصواتنا مسموعة سوى إيقاف جميع خدمات الترجمة وأعمال الفضة التي يقدّمها المعهد حتى تُنفذ كل طلباتنا. ومن ثمّ، نُعلن الإضراب.

قال روبين في نفسه إن كلمة إضراب* لمثيرة للاهتمام، إذ استحضرت إلى ذهنه المطارق التي تهوي على المسامير دون طائل والأجساد التي تندفع في وجه قوة صلبة لا تلين. كانت تحوي في نفسها نقيض المفهوم، وأنه من خلال عدم الفعل وعدم اللجوء إلى العنف، قد يثبت المرء العواقب الوخيمة لعدم تلبية احتياجات من يعتمد عليهم.

وبالأسفل، كان أهل أوكسفورد يقضون حياتهم بلا اكتراث، فلم ينظر أي شخص لأعلى، ولم يرَ أي شخص الطالبين المُتكنّين فوق أعلى نقطة في المدينة. اختفى المترجمون المَنفَيّون عن الأنظار، فلو كان بلاي فير قد اتصل بالشرطة، فلم تكن قد قرّرت التحرك بعد، إذ بقيت المدينة في حالة سكون وعدم دراية بقاء الأحداث.

* توحى كلمة إضراب، فيما يتعلّق بالعمالة، أصلاً بالخضوع. كانت السفن تُلقى أو تضرب بأشعتها حين تستسلم لقوات الأعداء أو تُحيي القادة. لكن حين ضرب البحارة أشرعتهم عام 1768 احتجاجاً وبهدف المطالبة بأجور أفضل، حوّلوا كلمة إضراب من أحد مظاهر الخضوع إلى عمل عنف استراتيجي. فبحجب العمالة، أثبتوا أنه لا غنى عنهم.

نُطالبك يا أوكسفورد بمؤازرتنا، فسوف يُسبّب الإضراب صعوبات كبيرة للمدينة في الأيام المقبلة. نُطالبك بتوجيه غضبك إلى الحكومة التي جعلت من الإضراب الملاذ الوحيد. نُطالبك بالوقوف بجانب العدل والإنصاف.

ومن هناك، بيّنت المنشورات بوضوح الآثار السلبية لتدفّق الفضة على الاقتصاد البريطاني، لا على الصين والمستعمرات فحسب، بل على الطبقة العاملة في إنجلترا كذلك. لم يتوقع روبين أن يقرأ أحد كل هذا، ولم يتوقع أن تدعم المدينة إضرابهم، بل على العكس، فما إن يتداعى عمل الفضة، حتى يكرهوهم.

لكن البرج كان غير قابل للاختراق، ولم تكن كراهيتهم مُهمة، بل كل ما كان في الأمر هو فهمهم لسبب عدم ارتياحهم.

سألت فيكتوار: «كم يستغرق وصولهم إلى لندن؟».

أجاب روبين: «ساعات. أظنه سيلحق بأول قطار مُنَّجه من بادينجتون».

لقد اختارا أكثر الأماكن غرابة للقيام بثورة. لم تكن أوكسفورد مركز الحراك، بل كانت ملاذاً. وكانت مُتخلفة عن باقي إنجلترا بعشرات السنين في جميع المجالات عدا المجال الأكاديمي. صُممت الجامعة لتكون معقلاً للعراقة حيث يستطيع الباحثون تصوّر أنفسهم في أي من القرون الخمسة الماضية التي ندر فيها حدوث الفضائح والاضطرابات على نحو جعلها تُذكر في النشرة الإخبارية للكلية الجامعية!

ورغم عدم كون أوكسفورد معقلاً للسلطة، فقد كان خريجوها يديرون الإمبراطورية. ولعلّ أحدهم قد هرع في اللحظة الحالية إلى محطة أوكسفورد حاملاً أخبار الاستيلاء على البرج. وقد يعترف أحدهم بأهميته ويرى أنه ليس لعبة طلاب تافهة، بل أزمة ذات أهمية قومية. وقد يُقدّم أحدهم هذا للوزارة ومجلس اللوردات، ثم يختار البرلمان ما يحدث تالياً.

أوماً روبين ليفيكتوار قائلاً: «هلمّي». كان نطقها اللغات القديمة أفضل منه. «لنراها تطير».



فهمهت: «بوليميكوس» واضعة قالب فوق الكومة. «مُناظرة. ديكستوير. نفاش».

ثم ألقت بالكومة من فوق الحافة لتبدأ المنشورات الطيران وتحملها الرياح عاليًا في جميع أرجاء المدينة: فوق البروج والأبراج، نزولًا إلى الشوارع والساحات والحدائق، وهبوطًا من المداخل، واندفاعًا عبر الشبكات، وتسلسلاً إلى النوافذ المفتوحة. كانت تزعج كل من تُصادفه، إذ كانت تلتصق بالمعاطف، وتُرفرف في الوجوه، وتلتصق بشدة بالحقائب. كانت الغالبية لتجاهلها بضيق، لكن قليلين كانوا يلتقطونها، ويقرؤون بيان المُضربين، ويتبينون ببطء ما يعنيه هذا بالنسبة لأوكسفورد، ولندن، بل والإمبراطورية. ومن ثم، لم يكن أحد ليستطيع تجاهلها، بل كان العالم بأسره يُجبر على النظر إليها.

فسأل روبين: «هل أنت بخير؟».

كانت فيكتوار قد تسمرت كالتمثال وعيناها مُثبتتان على المنشورات وكأنها لتقتل نفسها كي تتحول إلى طائر كي تحلق معها. «لم أكن بخلاف ذلك؟».

«أعني - تعرفين».

لم تلتفت لتتظر في عينيه، لكنها قالت: «أنتظر أن يحدث هذا، لكنه لا يحدث أبدًا، بل ليس كما هي الحال معك».

«بل لم يكن مُشابهاً». حاول أن يجد كلمات تواسي أو تُغيّر الأمور. «كان دفاعًا عن النفس، وقد ينجو. وقد يكون... أقصد أنه لن يكون...».

قالت بصوت حزين: «كان الأمر هكذا بالنسبة لأنطوني، وهذا آخر شيء أريد التحدث عنه».



الفصل السابع والعشرون



يجني الغَير البُذور التي تُزرع،
ويكنز الغير المال الذي يُجمع
ويرتدي الغير الثياب التي تُنسج،
ويحمل الغير السلاح الذي يُنتج.

بيرسي بيش شيلي

«أنشودة لرجال إنجلترا»

ذاك المساء، كان المزاج عصيًّا، فمثل أطفال ركلوا عشَّ نمل، راحوا
يترقبون العواقب الوحيمة. مرَّت ساعات، ومن المؤكد أن يكون الأستاذة
الفارُّون قد أبلغوا شرطة المدينة، كما من المؤكد أن يكون أهل لندن قد قرؤوا
المنشورات، فأى شكل ستتخذه ردة الفعل؟ لقد قضوا جميعًا سنوات مُتأكِّدين
من عدم قابليَّة البرج للاختراق. ولم تنفك فخاخه تحميهم من كل شيء. بيد
أنهم بدوا كمن يعدُّون الدقائق تنازليًّا نحو انتقام شرس.

قالت الأستاذة كرافت: «حتى لو لم يتمكَّنوا من الدخول، يجب أن يرسلوا
رجال الشرطة، فمن المؤكد أن تحدث مُحاولَة اعتقال. وإذا لم تكن عقابًا على
الإضراب فستكون...» وهنا نظرت إلى فيكتوار نظرة خاطفة وتراجعت.

ساد الصمت لفترة قصيرة.



قال الأستاذ شاكرا فارتي: «الإضراب عمل غير قانوني أيضاً. يحظر قانون انتلاف العمال لعام 1825 على النقابات العمالية والطوائف الحرفية القيام بالإضراب».

قال روبين: «لسنا طائفة حرفية».

رد يوسف الذي كان يدرس الجوانب القانونية: «بل نحن كذلك بالفعل، فهو في الوثائق التأسيسية، تتكوّن طائفة حرفة الترجمة من خريجي بابل وطلابها بحكم انتمائهم المؤسسي، ومن ثم، نخرق القانون بإعلاننا الإضراب، هذا لو أردتم تحرّي الدقة التقنية».

فنظروا بعضهم إلى بعض، ثم ضجّوا ضاحكين.

لكن سرعان ما تبدّد مرحهم، إذ كان الربط بين الإضراب والنقابات العمالية قد ترك مرارة في نفوسهم، ذلك أن احتجاجات العمال في ثلاثينيات القرن التاسع عشر - والتي كانت نتيجة مباشرة للثورة الصناعية للفضة - قد باءت بفشل ذريع. وقد انتهى الأمر بأعضاء الحركة المناوئة لاستخدام الماكينات (اللوبيين) إما بالموت وإما بالنفي إلى أستراليا. كما اضطرّ نساجو لانكشاير إلى العودة إلى العمل اتقاءً لشرّ الموت جوعاً في غضون عام. أما مثيرو الشغب في حركة سوينج، فقد استطاعوا تأمين تحسن مؤقت في الأجور وظروف العمل بتحطيم آلات الدرس وإضرار النار في الحظائر، لكن سرعان ما نُكِبَتْ بتلك الوعود، إذ شُنِقَ أكثر من عشرة مشاغبين وأُرْسِلَ المئات إلى مستعمرات عقابية في أستراليا.

لم يحصل المضربون في هذه البلاد على دعم عام كبير، ذلك أن الجماهير لم تكن تريد سوى مظاهر الراحة في الحياة العصرية دون الشعور بالذنب الناتج عن معرفة كيف تتوافر تلك الوسائل. ولماذا ينجح المترجمون حيث فشل غيرهم من المضربين - حتى ولو كانوا من المضربين ذوي البشارة البيضاء؟



لكن، كان هناك سبب واحد على الأقل يدعو للتفاؤل، إذ كانوا يسيرون بسرعة. لم تكن القوى الاجتماعية التي دفعت اللوديين لتحطيم الماكينات قد اختفت، بل تدهورت أوضاعها. صارت الأنوال التي تعمل بالفضة وآلات الغزل أقل ثمنًا وأكثر انتشارًا، ولم تكن لتجلب الثراء إلا لأصحاب المصانع ورجال المال الذين كانوا يُسَرِّحُونَ المزيد من العمال كل عام تاركين مزيدًا من الأسر في فقر ومُشَوَّهين وقاتلين مزيدًا من الأطفال بسبب الماكينات التي تعمل على نحو شديد السرعة. أدى استخدام الفضة لعدم المساواة، وقد زادت هذه وتلك في إنجلترا في العقد المُنصرم. كانت البلاد على حافة الهاوية، ولم يكن هذا ليُدوم إلى الأبد.

وكان روبين مقتنعًا بأن إضرابهم كان مختلفًا، وتأثيرهم أوسع نطاقًا وأصعب من أن يُخفى. لم تكن هناك بدائل لبابل ولا عمال يخونون أصحابهم. ولم يكن هناك من يستطيع عمل ما عملوه. لم تكن بريطانيا لتعمل دونهم. ولو لم يصدق البرلمان الأمر، لعرفوا على الفور.

مع ذلك، لم يظهر أي شرطي قبيل المساء. لقد أربكهم غياب الرد، لكن سرعان ما صارت المشكلات اللوجستية - الممثلة في الموارد والإقامة - أكثر إلحاحًا من الأمور المطروحة، إذ اتضح أنهم سيقضون وقتًا طويلًا في البرج، ولم يكن هناك تاريخ واضح ومحدد لانتهاة إضرابهم. كان الطعام لينفذ في لحظة ما.

كان هناك مطبخ صغير نادر الاستخدام في القبو حيث كان الخدم يعيشون قبل أن يتوقف المعهد عن إيواء عمال النظافة مجانًا. كان الباحثون ينزلون إلى الطابق السفلي بين الحين والآخر لتناول وجبة خفيفة أثناء العمل لوقت متأخر. وقد نتج عن بحث سريع في الخزائن أن وجدوا كمية من المُؤن غير القابلة للفساد - كالمكسرات، وعلب المربى، وبسكويت الشاي الصلب، والشوفان الجاف اللازم لإعداد العصيدة - لم تكن كثيرة، لكنهم لم يكونوا ليموتوا جوعًا بين عشية وضحاها. كما وجدوا العديد من زجاجات الشراب المتبقية من فعاليات أعضاء هيئة التدريس وحفلات الحداثق على مدى أعوام.



وحين اقترحت جوليانا وميجانا إحضار الزجاجات إلى الطابق العلوي، قالت الأستاذة كرافت: «بالطبع لا، أعيدها إلى أماكنها. يجب أن نظل يَظَّطِين».

ردَّت ميجانا: «نحتاج إلى شيء نُزجي فيه الوقت. فإذا كنا لنموت جوعاً، فلنمُت ونحن غائبون عن الوعي».

قال روبين: «لن يتركونا نموت جوعاً، بل لن يسمحوا لنا بالموت. هذا هو الهدف».

قال يوسف: «ومع ذلك، فقد أعلننا للتو عن عزمنا تحطيم المدينة. لا أظننا نستطيع التجول بالخارج لشراء فطور ساخن. ألا تتفق معي؟».

بل لم يكن باستطاعتهم مدّ رؤوسهم إلى الخارج وإرسال طلب للبِقَال. لم يكن لهم في المدينة أصدقاء ولا شخص يعمل وسيطاً بينهم وبين العالم الخارجي. كان للأستاذة كرافت أخ في ريدينج، لكن لم يكن هناك سبيل لتوصيل خطاب إليه، كما لم توجد طريقة آمنة لتوصيل المواد الغذائية إلى البرج. واتّضح أن علاقة الأستاذ شاكرا فارتي بهرمس كانت محدودة للغاية، فقد جُئِد بعد ترقّيته لعضو هيئة تدريس مساعد بعد أن جعلته علاقته بكبار أعضاء هيئة التدريس أخطر من أن ينخرط بعمق، ولم يكن يعرف هرمس إلا من خلال الخطابات المجهولة المُرسلة ونقاط التسليم. لم يستجب أي شخص آخر لشعلتهم. وعلى حد علمهم، كانوا الوحيدة الذين تبَقَّوا.

سأل الأستاذ شاكرا فارتي: «ألم تفكروا في هذا قبل أن تقتحما البرج وتبدأ في التلويح بالبنادق؟»

أجاب روبين بإحراج: «كنا مشوّشين بعض الشيء».

قالت فيكتوار: «كنا - في الواقع - نفكر في الأمر أثناء التنفيذ، ولم تكن لدينا فسحة من الوقت».

رد الأستاذ شاكرا فارتي بتهكم: «ليس التخطيط لثورة من مهاراتكم. سأرى ما يمكنني عمله بالشوفان».



وسرعان ما ظهر عدد آخر من المشكلات. تميّزت بابل بوجود المياه الجارية والمراحيض الداخلية، لكن لم يكن هناك مكان للاستحمام، ولم يكن لدى أحد ملابس زيادة لتبديل ثيابه، علاوة على عدم وجود مرافق للغسيل - كان الكشفاء الخفيّون يقومون بعمليات الغسيل. وباستثناء سرير واحد في الطابق الثامن والذي كان يُستخدم كاستراحة غير رسمية للزملاء الخريجين، لم تكن هناك أسيرة، ولا وسائد، ولا أغطية، ولا أي شيء قد يصنع فراشاً مريحاً في الليل عدا ستراتهم!

قال الأستاذ شاكرافارتي في محاولة شجاعة لرفع روحهم المعنوية: «فكّروا في الأمر بهذه الطريقة، من الذي لا يحلم بالعيش في مكتبة؟ ألا توجد بعض الرومانسية في موقفنا؟ من منا سيعرض عن حياة عقلية لا يشوبها كدر؟».

بدا أن لا أحد يشاركه خياله.

فسألت جوليانا: «ألا يمكننا الخروج في وقت المساء؟ نستطيع التسلل حين ينتصف الليل ونعود قبيل الصباح، ولن يلاحظ أحد».

قال روبين: «هذا عبث، ليس هذا نوعاً من الأنشطة اليومية الاختيارية».

قال يوسف: «سنصبح رائحتنا كريهة، وهذا مقزز».

«غير أنه ليس بإمكاننا الدخول والخروج».

قال إبراهيم: «مرة واحدة إذاً لإحضار المؤن».

قالت فيكتوار بحدّة: «كفى! هلاً كففتم عن هذا؟ لقد قررنا خيانة التاج، وسوف نعاني عدة مضايقات لبعض الوقت».

وفي الساعة العاشرة والنصف، جاءت ميجانا ركضاً من الردهة وقالت لاهثة إن لندن ترسل برقية، فاحتشدوا حول الماكينة وراحوا يراقبون بتوتر الأستاذ شاكرافارتي وهو يتسلم الرسالة ويُدوّنُها. نظر إليها نظرة خاطفة ثم قال: «رفضوا طلبنا بشكل قاطع ومهين».



فأمسك روبين بالبرقيّة وقال: «ماذا؟ هل من مزيد؟».

قرأ الأستاذ شاكرا فارتي: «يُرجى إعادة فتح البرج لممارسة عمله المُعتاد. قف». «هذا كل شيء».

«أليست موفّعة؟».

أجاب الأستاذ شاكرا فارتي: «كل ما افترضه هو أنها مُرسلة من وزارة الخارجية رأساً، إذ لا يتسلمون رسائل خاصة في مثل هذا الوقت المتأخر». سألت فيكتوار: «ألا يوجد خبر عن بلاي فير؟».

أجاب الأستاذ شاكرا فارتي: «لا يوجد سوى هذا السطر. هذا كل شيء».

وهكذا، رفض البرلمان مطالبهم، بل لم يأخذها مأخذ الجد على الإطلاق. لعله كان من السخف أن يأملوا أن يحقق الإضراب استجابة بتلك السرعة قبل أن يظهر تأثير قلّة الفضة، لكنهم كانوا يرجون أن يعترف البرلمان بالخطر على الأقل. هل ظن أعضاء البرلمان أن الأمر برمته سينتهي من تلقاء نفسه؟ هل كانوا يُحاولون منع الهلع العام؟ ألهذا السبب لم يُفَرِّع بابهم ولا شرطي واحد وبقي المرح خاليًا وساكناً كعهده؟

فسألت جوليانا: «ماذا الآن؟».

لم يجد أي منهم إجابة للسؤال، وغلب عليهم شعور بالغضب الطفولي كالأطفال الذين ثاروا ولم يحصلوا على ما أرادوه. هل تكبّدوا كل هذا العناء ليحصلوا على هذا الرد المقتضب؟ بدا الأمر كله مثيرًا للشفقة.

ظلّوا عالقين حول ماكينة التلغراف لبضع ثوانٍ على أمل أن تصل أخبار أفضل، بأن البرلمان كان في غاية الفلق، وأنهم عقدوا جلسة نقاش في مُنتصف الليل، وأن حشودًا من المحتجّين قد توافدت على ميدان ترافالجار للمطالبة بعدم إعلان الحرب. لكن الإبرة لم تتحرك، فعدّوا صاغرين إلى الطابق العلوي في حالة من الجوع والإحباط.



وخلال بقية الأمسية، كان روبين يخرج بين الحين والآخر إلى سطح البناية ليطل على المدينة مُتَفَحِّصًا بحثًا عن أي أماره على التغيير أو عدم الاستقرار. لكن أوكسفورد ظلت في حالة هدوء وسكون، وبقيت منشوراتهم مُلقاة على الأرض وقد وطنتها الأقدام، أو مُعلقة في شبكات الصرف، أو تتمايل بلا هدف في نسيم الليل. لم يكثر أحد حتى بإزالتها.

لم يكن لديهم شيء يقولونه بعضهم لبعض في تلك الليلة وهم ذاهبون إلى أسرّتهم بين الأروقة متكورين تحت معاطفهم وأثوابهم الإضافية، تبدد الجو الاحتفالي الذي ساد في تلك الظهيرة. كان الجميع يُعانون خوفًا خفيًا غير منطوق يزحف إلى قلوبهم أن هذا الإضراب لن يجلب لهم إلا الخراب والدمار وأن صرخاتهم لن تصل إلى مسامع أحد وتضيع في غياهب الظلام. سقط برج ماجدالين في صباح اليوم التالي.

لم يكن أي منهم قد توقع هذا، بل بالأحرى استوعبوا لاحقًا ما قد حدث بعد أن تحققوا من سجلات طلبات العمل وأدركوا ما كان يجب أن يفعلوه لمنعه. كان برج ماجدالين، ثاني أطول بناية في أوكسفورد، يعتمد منذ القرن الثامن عشر على جيل هندسية تقوم على الفضة لدعم وزنه بعد أن تسببت قرون من انجراف التربة في تآكل أساساته. كان باحثو بابل يعملون صيانة روتينية على دعاماته كل ستة أشهر، مرة في يناير والأخرى في يونيو.

وفي الساعات التالية للكارثة، كانوا ليعرفوا أن الأستاذ بلاي فير هو من يشرف على تلك التعزيزات نصف السنوية على مدى الخمسة عشر عامًا الماضية، وقد كانت ملاحظاته على تلك الإجراءات محفوظة في مكتبه ولم يستطع أي من أعضاء هيئة تدريس بابل الوصول إليها، كما أن بلاي فير لم يتذكر حتى الموعد التالي لأعمال صيانة برج ماجدالين. كانوا ليجدوا في صندوق الخطابات وإبلاً من الرسائل من أعضاء مجلس المدينة المذعورين الذين كانوا ينتظرون الأستاذ بلاي فير في المساء المُنصرم وقد اكتشفوا في اليوم التالي فحسب أنه قد أودع المشفى مُخْذَرًا بالكامل وفاقداً الوعي. كانوا ليعرفوا أن أحد أعضاء المجلس قد قضى أولى ساعات النهار يقرع باب



بابل بذعر، لكن أحدًا منهم لم يره أو يسمعه، إذ كانت الفخاخ تَعزَل عامة الناس الذين قد يز عجون الباحثين بالداخل.

في تلك الأثناء، كان الوقت المحدد لبرج ماجدالين قد انتهى. وفي تمام الساعة التاسعة، بدأت القرقرة عند قاعدته وانتشرت في جميع أنحاء المدينة. وفي بابل، بدأت فجاجين الشاي تتصادم على مائدة الفطور! فظنوا أن زلزالًا يضرب المدينة. وما إن هرعوا إلى النوافذ حتى رأوا أن مبنى واحدًا هو الذي يهتز عن بُعد.

ثم أسرعوا إلى السطح واحتشدوا حول الأستاذة كرافت التي قصّت ما رآته من المقرب وقالت: «إنه... إنه يتحطّم».

وبحلول تلك اللحظة، صارت التغيرات كبيرة على نحو جعلهم يرونها بالعين المجردة، إذ راح البلاط يتساقط من السطح كقطرات المطر واقتلعت أجزاء ضخمة من الأبراج وهوت إلى الأرض.

طرح فتكثوار سؤالًا لم يجرو غيرها على طرحة: «هل تظنين أن أحدًا بالداخل؟».

فلو كان أحدهم هناك، لتوافر لديه وقت كافٍ للخروج. وراح المبنى يهتز على مدى خمس عشرة دقيقة كاملة. كان هذا مُبرّرهم الأخلاقي، فلم يدعوا لأنفسهم مجالًا للتفكير في الخيارات الأخرى.

وفي تمام الدقيقة العشرين بعد التاسعة، بدأت أجراس البرج العشرة تدق في اللحظة نفسها دون إيقاع ولا تناغم، وراحت الأصوات ترتفع حتى وصلت لمستوى مربع وتصادعت جدّتها بإلحاح شديد جعل روبين يشعر برغبة جامحة في الصراخ.

ثم انهار البرج كما تنهار قلعة رملية بركلة بسيطة عند قاعدتها. استغرق انهيار المبنى عشر ثوانٍ، لكن استقرار الانقراض لم يستغرق إلا نحو دقيقة. ثم لم يتبق سوى نلّ من الطوب، والغبار، والحجارة حيث كان برج ماجدالين يشمخ ذات يوم.



كان الأمر فائتاً فتنّة مُقلّقة، إذ كان مروّعاً للغاية، ولأنه كسر قواعد حركة الأشياء الطبيعية. كان من المُدهش والمهيب أن يتغيّر أفق المدينة على هذا النحو الدرامي في لحظة واحدة.

راح روبين وفيكوار يراقبان الأمر وأيديهما مضمومة بقوة.
همهم روبين: «لقد فعلنا ذلك».

قالت فيكوار: «ليس هذا أسوأ ما في الأمر». لم يتبيّن روبين ما إذا كانت سعيدة أم مذعورة. «ما هي إلا بداية».

ومن ثم، كان جريفيّن محقّقاً. كان هذا ما يتطلبه الأمر: استعراض للقوة. فلو لم يقتنع الناس بالكلام، لوجب إقناعهم بالتدمير.

ظنوا أن استسلام البرلمان بات وشيكاً. ألم يكن هذا دليلاً على استحالة الاستمرار في الإضراب، وأن المدينة لم تكن لتتحمل خروج البرج عن الخدمة؟

لم يكن الأساتذة بهذا التفاؤل.

قال الأستاذ شاكر افارتي: «لن يسهم هذا في الإسراع بوتيرة الأحداث، ولو حدث شيء، لكان إبطاءً لوتيرة التدمير، إذ يعرفون أنّهم يجب أن يتحروا اليقظة».

رد إبراهيم: «لكنه نذير بما سيحدث، أليس كذلك؟ ما الشيء التالي الذي سيسقط؟ أهو مكتبة رادكليف أم شيلدونيان؟».

أجابت الأستاذة كرافت: «كان سقوط برج ماجدالين حادثاً. لكن الأستاذ شاكر افارتي مُحقّق، فسيجعل الباقيين حذرين، وسيخففون آثار ما أوقفناه، فقد صار الوقت يداهمهم. لا بد أنّهم أعادوا التجمع في مكان آخر، وفيما نحن نتحدث، سيحاولون إنشاء مركز ترجمة جديد».

سألت فيكوار: «هل يمكنهم عمل هذا؟ لقد استولينا على البرج، ولدينا جميع سجلّات الصيانة وأدواتها».



قال روبين: «وكذلك الفضة. لدينا الفضة كلها».

ردّت الأستاذة كرافت: «سيكون لهذا تأثيره المُزعج في وقته، لكنهم سينجحون في سدّ أسوأ الثغرات على المدى القريب. سوف ينتظروننا بالخارج. لدينا من العصيدة ما يكفي أسبوعًا على الأكثر يا سويفت، فماذا سيحدث بعد ذلك؟ هل سنموت جوعًا؟».

أجاب روبين: «يجب أن نُعجل بالأمور إذا».

سألت فيكتور: «ما اقترحك بشأن هذا؟».

«الرنين».

نظر الأستاذ شاكرافارتي والأستاذة كرافت كل منهما نحو الآخر.

قالت الأستاذة كرافت: «كيف عرف هذا؟».

هزّ الأستاذ شاكرافارتي كتفه بشكل يدل على الشعور بالذنب وأجاب: «لعلي شرحت له».

«يا آناند!».

«أوه، ماذا كان الضرر؟».

«حسنًا، هذا، كما هو واضح...».

فاستفهمت فيكتور: «ما الرنين؟».

أجاب روبين: «في الطابق الثامن، هيا بنا سأريكم. هكذا تُصان القوالب البعيدة غير المصممة على الصمود من المركز إلى الأطراف. لو أزلنا المركز، لبدأت في الانهيار، أليس كذلك؟».

قال الأستاذة كرافت: «حسنًا، هناك جانب أخلاقي. يُعدّ حجب الخدمات والموارد شيئًا، لكن الاعتداء المتعمّد...».

قال روبين بتهكم: «هل نهتم بتفاصيل أخلاقية ضئيلة بسبب هذا؟ هذا؟».



قال الأستاذ شاكر افارتي: «ستتوقف حركة المدينة، بل البلاد كلها. ستقوم حرب ضروس».

«لكن هذا ما نريده...».

رد الأستاذ شاكر افارتي: «كل ما تريده هو دمار يكفي لإضفاء مصداقية على تهديدك، ليس إلا».

فوقف روبين وقال: «سنزيل القليل في الوقت نفسه». كان قد اتخذ قراره، ولم يكن يرغب في مزيد من النقاش، بل ورأى أن أحدًا منهم لم يكن يرغب في الجدل كذلك، إذ كانوا في غاية التوتر والخوف. كانوا يريدون شخصًا يُخبرهم بما يفعلون فحسب. «واحد تلو الآخر حتى يفهموا الفكرة العامة. أيُّها تختارون؟».

رفض الأستاذة، وظن روبين أنهم لن يتحملوا إتلاف قضبان الرنين بأنفسهم، إذ كانوا يعرفون تمام المعرفة عواقب ما سيفعلون. كانوا بحاجة للحفاظ على وهم البراءة أو الجهل على الأقل، لكنهم لم يُبدؤا مزيدًا من المعارضة، ومن ثم، صعد روبين وفيكوار ذلك المساء إلى الطابق الثامن. فاقترحت فيكتوار: «ما رأيك؟ هل نُتلف نحو اثني عشر قضيبًا؟ هل نُتلف اثني عشر كل يوم ونرى ما إذا كنا بحاجة لزيادة العدد؟».

أجاب روبين: «لعلنا نبدأ بأربعة وعشرين». لا بد أن الغرفة كانت تحوي مئات القضبان. كان لديه رغبة جامحة في تدميرها كلها، بل باستخدام واحد في تحطيم الباقيين. «ألا نريد أن نُحدث تأثيرًا دراماتيكيًا؟».

حدجته فيكتوار بنظرة ساخرة وقالت: «هناك فارق بين الدراما والتهور». «يُنسَم هذا المسعى بأسره بالتهور».

«لكننا حتى لا نعرف ما سيفعله المرء...».

فضغط روبين بقبضته على كفه وقال: «أقصد أنه يجب علينا جذب انتباههم. أريد عرضًا مروّعًا، بل أريد مشهدًا شبيهًا بنهاية العالم. أريدهم أن



يخافوا من سقوط عشرات الأبراج على شاكلة ماجدالين كل يوم كي ينصتوا إلى أصواتنا».

تَنَّت فيكتوار ذراعيها، ولم يَرُق لروبين الطريقة التي كانت تتفحصه بها، إذ بدت وكأنها توصلت إلى حقيقة ما لم يَشَأ التصريح بها.

فقالَت موضِّحة: «ليس ما نفعله هنا انتقامًا. لعل هذا واضح».

في تلك اللحظة قرر عدم ذكر اسم الأستاذ بلاي فير، فقال: «أعلم هذا يا فيكتوار».

فأومأت باقتضاب وردت: «حسنًا، أربعة وعشرون».

«بل لنبدأ بأربعة وعشرين». مال روبين وجذب أقرب قضيب رنين من موضع تنبئته، فانزلق بسلاسة غريبة. كان مُتَوَقِّعًا أن يصادف بعض المقاومة، أو بعض الضجة، أو تحول يمثل الكسر. وهنا قال: «هل الأمر بهذه البساطة؟».

يا لهشاشة دعائم الإمبراطورية وضعفها! لو أزال المرء المركز، فماذا يتبقى؟ ليس إلا أطراف عاجزة خائرة القوة مُجَنَّبَةٌ من جذورها.

مدَّت فيكتوار يدها بشكل عشوائي وجذبت قضيبًا ثانيًا ثم ثالثًا وقالت: «أظننا سنرى».

ثم بدأت أوكسفورد تنزع زرع كبيت من ورق!

كانت سرعة تَرَدِّيها مذهلة. وفي اليوم التالي، توقفت جميع ساعات برج الأجراس عن العمل، وتجمد الوقت عند الساعة 6,37 صباحًا بالتحديد. وفي وقت متأخر من بعد الظهر هبَّت رائحة شديدة العفونة على المدينة ليتضح أن الفضة كانت تُستخدم في تسيير تدفق المجاري والتي أضحت جائمة في مكانها ككتلة من الكُلس. وفي ذاك المساء عمّ الظلام أوكسفورد، فقد بدأ الأمر بعمود إنارة يرتجف، ثم آخر، وثالث حتى انطفأت جميع أضواء هاي ستريت.



ولأول مرة منذ عقدين من الزمان حين تُبِتَّت مصابيح الغاز في شوارعها، قضت أكسفورد ليلتها مُلتحفة بالظلام.

فقال إبراهيم مُتَعَجِّبًا: «ماذا فعلتما بالطابق العلوي؟».

أجابت فيكتوار: «لقد اقتلنا أربعة وعشرين قضييًّا فحسب. فقط أربعة وعشرون، فكيف إذًا...».

قال الأستاذ شاكر افارتي: «لقد صُمِّم بابل على العمل بهذه الطريقة، وقد شَيِّدنا المدينة لتعتمد على المعهد قدر الإمكان وصممنا القضبان لتبقى لعدة أسابيع، وليس لأشهر، ذلك أن طلبات الصيانة تُدِرُّ المال. هذه هي عاقبة تضخيم الأسعار وخلق طلب زائف. يعمل كلاهما على نحو رائع حتى يتعطل».

وبحلول صباح اليوم الثالث، بدأت وسائل المواصلات تتعطل، إذ كان مُعظم العربات في إنجلترا تستخدم أزواجًا مُتطابقة متنوّعة تقوم على مفهوم السرعة. كانت كلمة سبيد في اللغة الإنجليزية الحديثة مُخصّصة لمعنى العجلة، لكن كما أثبت عدد من العبارات الشائعة مثل جود سبيد، وجود سبيد تو يو، كان معنى الجذر مُشتقًّا من الكلمة اللاتينية سبيس والتي تعني «الرجاء» وكان يرتبط بالحظ السعيد والنجاح، وبالمعنى الأشمل الذي يُشير إلى السعي إلى الوجهة وقطع المسافات الكبيرة كي يصل المرء إلى هدفه. كانت الأزواج المُتطابقة التي تُعمل بكلمة السرعة باستخدام اللغة اللاتينية والسلافية القديمة في أحيان نادرة تسمح للعربات بالسير بسرعة أكبر دون التعرض لمخاطر الحوادث.

لكن السائقين كانوا قد أفرطوا في الاعتماد على القوالب، ومن ثم، لم يحلوا مشكلاتها حين كانت تتعطل، فازداد معدل الحوادث، وصارت طرق أكسفورد مسدودة بالعربات المقلوّبة وسيارات الأجرة التي كانت تتعطف بزوايا حادة للغاية. وفي كوتسولدرز، سقطت عائلة صغيرة مُكوّنة من ثمانية أفراد في وادٍ ضيق لأن السائق كان قد اعتاد الاسترخاء وترك الخيل تتولى الأمر في المنعطفات الضيقة.



كما توقّفت منظومة البريد. فعلى مدى سنوات، لم ينفك سعاة البريد أصحاب الحمولات الثقيلة يستخدمون قوالب محفورة بالزوج المتطابق بارسيل-بارسل الفرنسية الإنجليزية. وكانت اللغتان الفرنسية والإنجليزية تستخدمان كلمة بارسل في وقت ما للإشارة لقطع من الأرض التي تتكوّن منها الضياع، لكن حين تطورت لتلمح إلى أحد بنود الأعمال في اللغتين، احتفظت بارتباطها بالتجزؤ وعدم الاكتمال في الفرنسية، في حين كانت تعني طردًا باللغة الإنجليزية. وكان تثبيت هذا القالب في عربة البريد يجعل الطرود تبدو أخف بكثير من وزنها الحقيقي. لكن، صارت هذه العربات ذات الخيل تَرزَح تحت نير ثلاثة أضعاف الحمولة التي اعتادتها، ومن ثم، كانت تنهار في مُنتصف الطريق.

وفي اليوم الرابع، سأل روبين: «هل تظنون أنهم أدركوا المشكلة؟ أقصد، كم سيستغرق إدراك الناس أن المشكلة لن تزول وحدها؟».

بيد أن إجابة السؤال استحالت من داخل البرج، إذ لم يكن لديهم طريقة لقياس الرأي العام في أوكسفورد ولا في لندن سوى في الصّحف والتي كانت، لحسن الحظ، تصل إلى الباب الأمامي كل صباح. كانت هذه الطريقة التي عرفوا بها كيف وقعت مأساة كوتسولد، وحوادث المرور، وإبطاء خدمة التوصيل في جميع أنحاء البلاد. لكن صحف لندن لم تذكر أي شيء عن الحرب على الصين أو الإضراب باستثناء إعلان مُقتَضَب عن «الاضطرابات الداخلية» في «المعهد الملكي للترجمة المؤقّر».

قالت فيكتوار بجدية: «يتعمّدون تكميم أفواهنا».

لكن إلى متى ظن البرلمان أنه سيستطيع استبقاء الصمت؟ وفي صباح اليوم الخامس، استيقظوا على ضوضاء مريعة. تطلّب الأمر بعض البحث في الدفاتر كي يتبيّنوا ما كان يحدث. كان جرس دار العبادة المعروف باسم توم العظيم، أعلى الأجراس صوتًا في أوكسفورد، يُقرَع نغمة سي بيمول بخلل بسيط، لكن الفضة التي كانت تُنظَّم صوته قد توقّفت عن العمل، ومن



ثم، صار توم العظيم يُطلق أنيناً مخيفاً. وبحلول فترة بعد الظهر، انضمت إليه أجراس دور العبادة المُجاورة لتصبح كورالاً ينشد أنات بانسة متواصلة! كانت فخاخ بابل تحجُب الصوت على نحو ما، لكن بحلول المساء، كان الجميع قد اعتادوا التعايش مع همهمة مريضة تنسلّ من الجدران، فوضعوا قطعاً في آذانهم كي يناموا.

كانت الأجراس تدقّ مرثيةً جذاد على خيال زائل، فلم يعد لمدينة الأبراج الحاملة وجود. كان تَرْدِي أوكسفورد واضحاً، وكان المرء ليراها تنهار على مدار الساعة كمنزل مصنوع من الدقيق! لقد تجلّى مقدار اعتماد أوكسفورد على الفضة وكيف انهارت فوراً من دون العمل المُستمر لفريق الترجمة وللمواهب التي جذبتها من الخارج. لقد انكشف اعتماد البريطانيين المُذهل الذين لم يستطيعوا عمل الأشياء الأساسية كالخبز أو الانتقال بأمان من مكان إلى آخر دون كلمات مسروقة من بلاد أخرى!

غير أن هذه كانت البداية فحسب. كانت سجلات الصيانة لا حصر لها، وكانت هناك مئات من قضبان الرنين التي يجب اقتلاعها.

«إلى متى سيتركون هذا؟». كان هذا هو السؤال الذي واصلوا طرحه داخل البرج، إذ كانوا جميعاً مذهولين ومذعورين بعض الشيء لأن المدينة لم تعترف بعد بالسبب الحقيقي وراء هذا الإضراب وأن البرلمان لم يتخذ أي إجراء بعد.

لم يكن روبين يريد، في قرارة نفسه، أن تنتهي هذه الأمور، ولم يكن ليعترف بهذا للآخرين. لكن في قرارة نفسه، كانت أشباح جريفيين ورامي قابعة، ولم يكن يريد حلاً سريعاً ولا تسوية شكلية لا تعالج المشكلة الحقيقية المُتمثلة في عقود من الاستغلال.

أراد أن يُراقب إلى أي مدى يمكنه قيادة ذلك، وأراد أن يرى أوكسفورد مُقوّضة حتى أساساتها، وأراد أن يتلاشى بذخها السمين، وأن تتحوّل قُرمدياتها الأنيقة إلى حُطام، وأن تتحطّم أبراجها على الحجارة المرصوفة،



وأن تنهار أرفف كتبها كقطع الدومينو. أراد أن يُهدم المبنى بالكامل وكأنه لم يُنشأ على الإطلاق. كانت كل تلك الأبنية قد جمَّعها العبيد، ودفع العبيد ثمنها. واكتظت بالمقتنيات المسروقة من الأراضي المحتلة، فلم يكن لتلك الأبنية حق الوجود، وكان استمرار وجودها يتطلب أعمال استخراج وعنف مستمرة، ومن ثم، كان يجب تدميرها ومحوها.

لكنهم جذبوا انتباه المدينة في اليوم السادس، إذ اجتمع حشد عند قاعدة البرج نحو مُنتصف الفترة الصباحية مُستصرخًا الباحثين للخروج. قالت فيكتوار بسخرية: «أوه، انظروا إنها عصابة!».

اجتمعوا حول إحدى نوافذ الطابق الرابع وأطلُّوا ناظرين إلى أسفل. كان أغلب الحشد مُكوَّنًا من طلاب أوكسفورد. كانوا شبابًا مرتدين ثيابًا سوداء يتقدمون مسيرة للدفاع عن مدينتهم. كانوا عابسين بصور مُنتفخة. تعرَّف روبين على فينسي وولكومب من شعره الأحمر الكثيف، ثم إلتون بندنيس مُلوَّحًا بشعلة فوق رأسه وصارخًا في الرجال السائرين وراءه كمن يقود القوات إلى ميدان القتال، لكن كانت هناك نسوة وأطفال كذلك، وأصحاب مقاهي ومتاجر، وفلاحين فيما كان يمثل تحالفًا نادرًا بين أهل المدينة وأهل الريف.

قال روبين: «ربما يجب أن نذهب ونحدِّث معهم، وإلا ظلوا مُحترِسين طوال اليوم».

قالت ميجانا: «ألست خائفًا؟».

أجاب روبين باستهزاء قائلاً: «هل أنتِ خائفة؟».

«عددهم كبير، ولا تدري ما سيفعلون».

قال روبين: «إنهم طلاب، ولا يعرفون ما يريدون عمله».

وبالفعل، بدا الأمر وكأن المُحرِّضين على الشغب لم يُفكِّروا مَلِيًّا كيف سيقتمون البرج فعليًا، بل إن حتى صراخهم لم يكن مُنسجمًا. وراح أغلبهم



يدور حول المرج في ارتباك ويتلقت حول نفسه كمن ينتظر شخصاً يصدر له الأوامر. لم يكن هؤلاء دهماء غاضبين ولا العمال الذين فقدوا وظائفهم وهددوا باحثي بابل على مدى العام المنصرم، بل كانوا تلاميذ وأهل المدينة. كان العنف بالنسبة لهم وسيلة غير معهودة بالمرّة للحصول على ما يريدونه. فسأل إبراهيم: «هل ستخرج إليهم فحسب؟».

أجاب روبين: «لَمْ لا؟ بل ومن الأفضل أن أرد عليهم بالصراخ». فقال الأستاذ شاكرافارتي فجأة بصوت مُخْتَنَق: «رباه، يحاولون إضرار النار في المكان».

فاستداروا نحو النافذة. في تلك الأثناء كان العامة يقتربون. رأى روبين أنهم أحضروا عربات مُحَمَّلَة بحطب الإشعال. كانوا يحملون مشاعل وزيئاً. هل كانوا ليحرقوهم أحياء؟ غباء! كان هذا غباءً. لقد فهموا بالتأكيد أن المسألة كلها تمثّلت في عدم ضياع بابل كلّها، إذ كانت بابل وما تحويه من معارف هي ما يُحاربون تحديداً لاستعادته، لكن ربما جانبهم التعقّل، وربما كان الدهماء فحسب مُتَأَجِّجين بالغضب لظنهم أن شيئاً ملُكاً لهم قد سُلِبَ منهم. بدأ بعض الطلاب يُكْوِمون حطب الإشعال عند قاعدة البرج. وهنا شعر روبين بأولى وخزات القلق. لم يكن تهديداً واهياً، بل كانوا يقصدون إحراق المكان.

ففتح النافذة وأخرج رأسه صائحاً: «ماذا تفعلون؟ لو أحرقتُمونا، فلن تعود مدينتكم للعمل».

فألقي أحدهم زجاجة على وجهه. وإذا كان يقف في مكان مُرتفع، سقطت الزجاجة قبل أن تقترب منه، لكن الأستاذ شاكرافارتي راح يَجْذِب روبين إلى الوراء ثم أغلق النافذة بقوة.

قال: «حسناً، لا جدوى من النقاش المنطقي مع المجانين».

فسأل إبراهيم: «فماذا سنفعل إذا؟ سوف يحرقوننا أحياء!».



قال يوسف باستخفاف: «البرج مبني من حجر. سنكون بخير».

«ماذا عن الدخان...».

قال الأستاذ شاكر افارتي فجأة كمن تذكر شيئاً للتو: «لدينا شيء في الطابق العلوي أسفل ملفات بورما...».

فهمت الأستاذة كرافت: «إنهم مدنيون يا آناند!».

فنظر الأستاذ شاكر افارتي مجدداً إلى الحشد وقال: «إنه دفاع عن النفس، وأظنه مُبرِّراً».

نظرت الأستاذة كرافت على الحشد وفمها مُعلق وقالت: «أوه، لا بأس».

ودون الاستفاضة في الشرح، اتجه الاثنان إلى الدرج، أما الباقر، فراحوا ينظرون بعضهم لبعض للحظة غير عارفين ما سيفعلون.

مدَّ روبين يده ليفتح النافذة، في حين راح يفتش جيبه الأمامي الداخلي بيده الأخرى، فأمسكت فيكتوار بمعصمه وقالت: «ماذا تفعل؟».

فهمهم: «إنه قالب جريفيين، ذاك الذي...».

«هل جُنتت؟».

«دعينا من المناقشات الأخلاقية، إذ يُحاولون حرقنا أحياء».

وهنا أحكمت قبضتها على نحو آلمه وقالت: «قد يشعل هذا الزيت كله، وقد يقتل نحو ستة أشخاص. هلاً هذأت؟».

أعاد روبين القالب إلى جيبه وتنفّس بعمق متعجباً من مشاعر الغلّ التي ملأته.

كان يريد حرباً، وكان يريد أن يقفز إلى أسفل ويسدد إليهم لغمات تُدمي وجوههم، وأراد أن يعرّفهم قُدْر نفسه بالتحديد، وهو ما كان شيئاً وحشياً، وعنيفاً، وغير متحضر، أي كابوسهم المُرعب.



لكن الأمر انتهى قبل أن يبدأ. كان بندنيس وأمثاله مثل الأستاذ بلاي فير، إذ لم يكونوا جنودًا، بل كانوا يحبون التهديد والتبجح، وكانوا يحبون التظاهر بأن العالم يخضع لكل أهوائهم. لكن في نهاية المطاف، لم يكونوا مُهيئين للقتال الحقيقي.

لم يكن لديهم أدنى فكرة عن مقدار الجهد المطلوب لإسقاط برج، وكان بابل أكثر الأبراج حصانة على وجه الأرض.

خفض بندنيس شعلته وأشعل الحطب، فصعدت النار على الجدران وهتقت الحشود. لكن النيران لم تنتشر. اندفعت ألسنة اللهب بقوة كحيوان شره ممتدة بأطراف برتقالية وكأنها تبحث عن موطئ قدم، لكنها تراجعت عبيًا. أسرع عدة طلاب متسلقين جدران البرج في محاولة غير مدروسة لصعودها، لكن ما إن لمسوا الحجارة حتى دفعتهم قوة خفية نحو المرح.

هَبَط الأستاذ شاكرافارتي السلالم لاهنًا وحاملًا قالب فضة مكتوب عليه सकय*، فأوضح: «إنها عبارة سنسكريتية. سوف تُفرِّقهم».

مال خارج النافذة وراقب المشادات للحظة، ثم ألقى القالب في منتصف الحشد. وفي ظرف ثوانٍ، بدأ الحشد ينفض. لم يستوعب روبين ما كان يجري، لكن بدا الأمر وكأن نقاشًا يدور، وبدأ على المحرضين التوتر والارتباك وهم يدورون حول بعضهم بعشوائية، ثم راحوا يبتعدون عن البرج واحدًا تلو الآخر عائدين إلى بيوتهم، أو أزواجهم، أو زوجاتهم وأبنائهم، أو لتناول العشاء!

لبث عدد صغير من الطلاب لفترة قصيرة. ظل إلتون بندنيس يُلقي مواظ في المرح ملوحًا بشعلته فوق رأسه وصارخًا بلعنات لم يستطيعوا سماعها بسبب الفخاخ. لكن، كان من الواضح أن النار لن تمسّ البرج، وراح الحطب يشتعل بلا جدوى ثم خمد مُحدِّثًا فَرْقعة. أصيبت حناجر المتظاهرين بالبحة

* يستخدم الفعل सकय (بيهنت) الجذر (بهادي) भद الذي يعني يكسر، أو يثقب، أو يدمر. ولكلمة सकय معانٍ متنوعة تشمل يكسر، أو يُلْهي، أو يذيب، أو يفصل.



من جراء الصراخ، ثم ضعفت صيحاتهم، وأخيرًا تلاشت تمامًا. وقبيل مغيب الشمس، تفرَّق آخر الدهماء عاندين إلى بيوتهم.

لم يتناول المترجمون عشاءهم حتى انتصاف الليل، كان مكونًا من حساء بلا توابل، ومربى خوخ، وقطعتين من بسكويت الشاي لكل منهم. وبعد الكثير من التوسُّل، رضخت الأستاذة كرافت وسمحت لهم بإحضار عدة زجاجات شراب من القبو، وقالت وهي تصب أقداحًا كبيرة بيد مُرتجفة: «حسنًا، ألم يكن ذلك مُثيرًا؟».

في صباح اليوم التالي، بدأ المترجمون في تحصين بابل.

لم يكونوا في خطر حقيقي في اليوم السابق، وحتى جوليانا التي نامت باكية في صمت، راحت تضحك على تلك الذكرى. لكن ذاك الشغب البسيط كان مُجرّد بداية، وكانت أوكسفورد تواصل التردّي في حين كانت كراهية المدينة لهم تزداد. كان عليهم الاستعداد للمرة التالية.

فانكبُّوا على العمل. وفجأة بدت حالة البرج أشبه بما كانت عليه أيام الامتحانات، إذ جلسوا في صفوف في الطابق الثامن مُنهمكين في قراءة النصوص، واقتصرت الأصوات في الغرفة على تقليب الصفحات والهتاف بتعجُّب بين الحين والآخر حين كان أحدهم يعثر على لمحة مُبشِّرة في عِلْم أصول الكلمات. بدا هذا جيدًا، إذ صار لديهم شيء يعملونه، شيء يصرفهم عن التسكُّع بعصبية أثناء انتظارهم الأخبار القادمة من الخارج.

راح روبين ينبش أكوام الملاحظات التي وجدها في مكتب الأستاذ لوفيل والتي كانت تحوي الكثير من الأزواج المُتطابقة المُحتمَل استخدامهما في الحملة على الصين، وقد أثارته إحداها للغاية. كان الحرف الصيني 𐤀 (لاي) ليشير إلى شحذ السلاح، رغم أنه كان يرتبط كذلك بالربح والمميزات. وكان رمزه الكتابي يصوّر حيوانًا تُقَطَّع بالسكين. كانت للسكاكين المُشحّذة بالزوج المتطابق 𐤀-شارب أنصال حادة للغاية، علاوة على إصابتها أهدافها بدقة شديدة.



حين أراها روبين، سألت فيكتوار: «ما فائدته؟».

أجاب روبين: «يساعد في المعارك. أليس هذا هو الهدف؟».

«هل تظن أنك ستدخل في معركة بالسكاكين مع شخص ما؟».

هز كَتَفَيْهِ بضيق وبعض الإحراج وأجاب: «قد يؤول الأمر إلى ذلك».

فسأله بتركيز: «تريد هذا، أليس كذلك؟».

«بالطبع لا، فلست حتى - بالطبع لا. لكن، لو دخلوا، ولو صار الأمر ضروريًا للغاية...».

فقال برقة: «نحاول الدفاع عن البرج، ونحاول تأمين أنفسنا فحسب، لا أن نترك دماءً مسفوكة وراءنا».

ثم، بدأوا يعيشون كمدافعين تحت حصار، وكانوا يُراجعون النصوص الكلاسيكية - تاريخ الحروب، وكُنُيَّات ميادين القتال، والدراسات الاستراتيجية - ليستقوا أفكارًا حول كيفية إدارة البرج، كما وضعوا مواعيد وكميات طعام شديدة الدقة، ولم يكن مسموحًا بنقطة البسكويت في مُنتصف الليل، إذ ضُبط إبراهيم وجوليانا يعلان ذلك. رفعوا أيضًا مقارب الفلك القديمة على السطح كي يتسنى لهم مراقبة المدينة المتداعية. ووضعوا نظامًا لنوبات مُراقبة مُتغيرة مدة كل منها ساعتان من نوافذ الطابقين السابع والثامن ليتمكنوا من رَصْد أي أعمال شغب قادمة من بعيد.

مضى يوم بهذه الطريقة، وتلاه آخر، ليترسخ في أذهانهم أنهم تخطوا مرحلة اللا عودة، وأن ما حدث لم يكن مجرد خروج مؤقت عن المألوف، وأن الحياة لم تكن لتعود لطبيعتها، وكانوا ليخرجوا من هنا إما مُنتصرين ومُبشرين ببريطانيا مُغايرة تمامًا وإما يغادرون البرج جُنُثًا هامدة.

هزت فيكتوار كَتَفَيْ روبين وقالت: «استيقظ! لقد أضربوا في لندن».

انتفض مستيقظًا. كانت الساعة تُشير إلى عشر دقائق بعد منتصف الليل، وكان قد نام للتو مُهَيَّئًا نفسه لنوبة حراسة ليلية، فقال: «ماذا؟ من؟».



أجابت فيكتوار بذهول وكأنها لا تُصدِّق نفسها: «الجميع. لا بُد أن منشورات أنطوني نَجَعَت. أقصد تلك التي تخاطب الراديكاليين والمُتعلِّقة بالعمل، ذلك أنه، انظر...» وهنا لَوَّحت له ببرقية وأردفت: «حتى مكتب التلغراف. يُقال إن حشودًا تجمَّعت حول البرلمان طوال اليوم مُطالبية بسحب مُقترح الحرب».

«ومَن هم الجميع؟».

«جميع المُضربين قبل بضع سنوات بمن فيهم الخياطون، والإسكافيون، والنساجون. لقد عادوا للإضراب مُجددًا، بل وهناك المزيد - هناك عمال المرافئ، وموظفو المصانع، ومُشعلو أفران مصانع الغاز - أقصد الجميع فعلاً».

ثم هزت البرقية وقالت: «انظر، انظر، سننشُر الصحف هذا كله غدًا».

راح روبين يحقّق إلى الرسالة في العتمة مُحاولاً استيعاب معناها.

وعلى بُعد مائة ميل، كان عمال المصانع البريطانيون ذوو البشرة البيضاء مُحتَشدين حول قاعة وستمنستر للاحتجاج على حرب في بلاد لم تطأها أقدامهم.

هل كان أنطوني على حق؟ هل كَوَّنوا أكثر التحالفات استبعادًا؟ لم تكن ثورتهم هي الأولى التي تُناوئ الفضة في ذاك العقد، بل الأكثر دراماتيكية. لقد حاولت أعمال شَعَب ريببكا في ويلز، وبول رينج في برمنجهام، واحتجاجات ذا تشارتيس في شيفيلد وبرادفورد في وقت مبكر من ذلك العام وفشلت في إيقاف الثورة الصناعية للفضة. لقد جَعَلَت منها الصحف فَوَرَات سخط مُنْعزلة، لكن اتضح أن كُلَّها كانت مُرتبطة ومُتشابكة في شبكة القَمْع والاستغلال ذاتها. فما كان يحدث مع نسَاجي لانكشاير حدث مع نسَاجي الهند أولاً. كان عمال النسيج الكادحون المُنهَكون في المصانع البريطانية القائمة على الفضة ينسجون القطن الذي يَقِطُفه العبيد في أمريكا، فقد جَلَبَت الثورة الصناعية للفضة الفقر، وعدم المساواة، والمُعاناة أينما حَلَّت، في حين كان



الوحيدون الذين يَستفيدون منها هم أصحاب النفوذ في قلب الإمبراطورية، وتمثل أعظم إنجازات المشروع التوسُّعي في اقتطاع جزء صغير من مناطق عديدة، وتقسيم المعاناة وشرذمتها حتى لا تصير أكبر من أن يتحملها المجتمع بأسره، لكنه حَدَث.

فإذا ما اتَّحد المظلومون، ولو تكاتفوا حول قضية مشتركة - كانت الآن وهنا إحدى نقاط التحول المستحيلة التي لطالما تحدث جريفيين عنها. لقد سنحت لهم الفرصة لتغيير حركة التاريخ.

حدث أول وقف لإطلاق النار بعد مرور ساعة. وصلت برقية نصها كالتالي: «متابعة خدمات بابل. عفو كامل حتى عن سويفت وديجراف. قف. وإلا سجنًا. قف».

قال يوسف: «هذه شروط سيئة للغاية».

رد الأستاذ شاكرافارتي: «بل شروط عبثية. كيف عسانا نرد؟».

أجابت فيكتوار: «لا أظنه يجب علينا. أعتقد أننا يجب أن نُتعبهم وأن نزيد في الضغط عليهم».

قالت الأستاذة كرافت: «لكن هذا خطر، فقد فتحوا مجالاً للحوار، أليس كذلك؟ لا نعرف إلى متى سيظل مفتوحًا. هَبْ أننا تجاهلناهم وأغلق...».

قاطعها روبين بحدّة: «ثَمّة شيء آخر».

راحوا يراقبون آلة التلغراف وهي تُصدِر نقراتها بخوف وتوجُّس صامت، في حين كانت فيكتوار تُسجِّل الرسالة «الجيش في الطريق. قف». ثم تابعت: «تراجعوا. قف».

قالت جوليانا: «يا إلهي!».

سأل روبين: «لكن ما الفائدة التي ستعود عليهم من ذلك. لا يمكنهم تجاوز الفخاخ».



قال الأستاذ شاكر افارتي بجديّة: «يجب أن نفترض أنهم يستطيعون، أو على الأقل أنهم سيفعلون. يجب أن نفترض أن جيروم يُساعدهم».

أطلق هذا نوبة من الغمغة المذعورة.

قالت الأستاذة كرافت: «يجب أن نتحدث معهم وإلا أضعنا فرصة التفاوض».

قال إبراهيم: «هَبْ أنهم زجُّوا بنا جميعًا في السجن رغم كل شيء».

بدأت جوليانا: «لن يفعلوا لو استسلمنا».

قالت فيكتوار بصلافة ومرارة: «لا يمكن أن نستسلم، فلن نجني شيئاً».

رفع روبين صوته مُعطياً على الجلبة: «مَهْلًا. كلا، فالتهديد بالجيش يعني أننا نجحنا. ألا تفهمون؟ يعني أنهم خائفون. في اليوم الأول كانوا يظنون أنهم يستطيعون إعطاءنا أوامر، لكنهم صاروا يشعرون بالعواقب. إنهم مذعُورون، وهذا يعني أننا لو تماسكنا قليلاً، لو استطعنا الاستمرار في هذا، لا نتصرنا».



الفصل الثامن والعشرون



ماذا ستقول عندئذ

لأزمنة ينتفض فيها نصف أهل المدينة

مفعمين بالشغف نفسه، أو التهمة، أو الغضب، أو الخوف؟

التمهيد، ولیم ووردزورث

استيقظوا في صباح اليوم التالي ليجدوا مجموعة من الثكنات قد انتشرت حول البرج جلسة بين عشية وضحاها، ووضعت حواجز ضخمة وغير ثابتة لسد جميع الشوارع الرئيسية المؤدية إلى بابل - هاي ستريت، وبرود ستريت، وكورنماركت. هل فعل الجيش هذا؟ كانوا متعجبين. لكن كل شيء بدا أكثر عشوائية وإهمالاً من أن يكون من صنع الجيش. كانت الحواجز مصنوعة من مواد عادية، مثل العربات المقلوبة، والبراميل المملوءة بالرمل، وأعمدة الإنارة الساقطة، والشبكات الحديدية المنزوعة من الأسوار المحيطة بحدائق أوكسفورد، وبعض الأنقاض الحجرية التي كانت تُجمَع عند كل ناصية شارع كدليل على تردي المدينة. وما الفائدة التي عادت على الجيش من وضع أسوار في شوارعها؟

فسألوا إبراهيم عما رآه، إذ كان مسؤولاً عن مناوبة الحراسة. لكن إبراهيم كان قد نام، فقال مُدافعاً عن نفسه: «لقد استيقظت قبيل الفجر، وعندئذ كانوا قد وضعوها بالفعل».

وهنا أتى الأستاذ شاكر افارتي مُهرولاً من الردهة ووجّه الحديث إلى روبين وفيكوار: «هناك رجل بالخارج يريد التحدث معكما».



فسألته فيكتوار: «أي رجل؟ ولم نحن؟».

أجاب الأستاذ شاكرافارتي: «غير واضح، لكنه كان مُصِرًّا على التحدث مع المسؤول. أُلستما المسؤولين عن كل تلك الأمور؟».

فنزلا معًا إلى الردهة وأطلّا من النافذة، فرأيا رجلًا ملتحيًا، وطويل القامة، وعريض المنكبين منتظرًا على الدرج. لم يبدُ مُسلحًا ولا عدائيًا، لكن وجوده أثار الحيرة.

تبيّن لروبين أنه قد رأى هذا الرجل من قبل. لم يكن يحمل شارته. بيد أنه كان واقفًا بالطريقة نفسها التي اتبعها إبان احتجاجات عمال المطحن. كانت قبضتاه مضمومتين وذقنه لأعلى، وكان يرمُق البرج بثبات وعزم كأنه يستطيع إسقاطه بقوة إرادته فحسب.

اختلست الأستاذة كرافت نظرة من النافذة وقالت: «إنه أحد أولئك المجانين. لا تخرجوا وإلا هاجمكما».

لكن روبين كان بصدد ارتداء معطفه، فردّ قائلاً: «لا، لن يفعل». كان يشك فيما كان يجري. ورغم عدم رغبته في وضع توقعات إيجابية، كان قلبه يخفق من شدة الإثارة، وأردف: «أظنه جاء لتقديم العون».

وحين فتحا الباب* تراجع الرجل بهتذيب ورفع ذراعيه ليرييهما أنه لم يكن يحمل سلاحًا.

سأل روبين الرجل: «ما اسمك؟ لقد رأيتك هنا من قبل».

قال الرجل بصوت قوي عميق: «اسمي إيبيل. إيبيل جودفيلو».

قالت فيكتوار بنبرة اتهام: «لقد رميتني ببببضة. أنت من فعلتها في شهر فبراير الماضي».

* كانت الأستاذة كرافت قد سحبت دماء من روبين وفيكتوار واستبدلت قارورتيهما في الجدار، فصار لهما الحق في الدخول والخروج بحرية من البرج كما كانت الحال من قبل.



ردّ إيبيل: «نعم، لكن كانت بيضة فحسب، ولم يكن هناك أي أمر شخصي». أشار روبين إلى المتاريس، إذ كان أقرب واحد يسد شارع هاي ستريت عرضيًا بالكامل قاطعًا مدخل البرج الرئيسي. قال روبين: «هل أنتم من فعل هذا؟».

ابتسم إيبيل، جعلت اللحية شكله غريبًا، إذ بدا لوهلة كصبي صغير مفعم بالبهجة. «هل تُعجبكما؟».

أجابت فيكتوار: «لا أفهم ما الهدف».

«ألم تسمعا أن الجيش قادم؟».

قالت فيكتوار: «لا أرى أن هذا سيوقفه، ما لم تكن تقصد أنكم أتيتم بجيش لحرس تلك الجدران».

رد إيبيل: «سيؤدي مهمة ردع الجنود على نحو أكثر فعالية مما تظنّين، إذ لا يتعلق الأمر بالجدران فحسب، رغم أنني أؤكد لك أنها ستصمد. إنها مسألة نفسية. تعطي المتاريس انطباعًا بوجود مقاومة حقيقية، في حين يظن الجيش أنه يتقدم نحو البرج دون مقاومة، كما يمنح المحتجّين جرأة ويخلق ملاذًا آمنًا ومُعتكفًا».

فسألت فيكتوار بحذر: «وعلامَ تحتجون؟».

رفع إيبيل منشورًا مُجعدًا ومُشبعًا بالماء - كان أحد منشوراتهم - وأجاب: «الثورة الصناعية للفضة بالطبع. اتضح أننا متفوقون في الرأي».

مدّت فيكتوار رأسها وسألت: «هل هذا صحيح؟».

«بالطبع، حين يتعلق الأمر بالصناعة. لم ننفكّ نحاول إقناعكم بالشيء نفسه».

تبادل روبين وفيكتوار نظرة، إذ شعرا ببعض الخجل من ازدرائهما المضربين على مدى السنوات الماضية. لقد كانا مُقتنعين بادعاءات الأستاذ لوفيل بأن المضربين كانوا أناسًا كُسالي، وضعفاء، وغير مستحقين



للاساسيات الاقتصادية للعيش الكريم. لكن، إلى أي مدى كانت قضاياهم مختلفة؟

قال إيبيل: «لم يكن الأمر يتعلق بالفضة على الإطلاق، بل بالأحرى بتقليل الأجور. ألا تُدركان هذا؟ كان يتعلق بالعمل غير المُتَقَن. كانت النساء والأطفال يُحَجِّزون طوال اليوم في غرف حارة خانقة، ولم يكن هناك من يراقب خطر الماكينات غير المُجَرَّبَة. كنا نعاني وأردنا أن نريكم هذا فحسب».

قال روبين: «أعلم، بل صرنا نعلم».

«لم نذهب إلى هناك لنؤذيكُم. لم نكن لنضعكم في خطر جسيم».

ترددت فيكتوار ثم أومأت: «سأحاول تصديق ذلك».

«على أية حال». وهنا أشار إيبيل إلى المتاريس التي وراءه. كانت حركة مُتَكَفِّة بشكل واضح، ثم تابع: «علمنا ما تستهدفونه ورأينا أن نأتي هنا ونقدم العون، أو، على الأقل، يمكننا منع أولئك المُتَهَوِّرين من حرق البرج».

كان روبين مُتَحَيِّرًا من هذا الأمر، فلم يكن باستطاعته تصديق ما يجري، فقال: «حسنًا، شكرًا لكم. هل - هل تريد الدخول والتحدث في الأمور؟».

أجاب إيبيل: «نعم، لهذا أتيت».

تراجعا إلى الورا ودعواه للدخول.

وهكذا بدأت الاستعدادات للمعركة، فبعد ظهر ذاك اليوم، بدأ أغرب تعاون شهده روبين؛ فالرجال الذين كانوا يقذفون طلاب بابل بألفاظ نابية قبل أسابيع جلسوا بينهم في الردهة يناقشون خطط حرب الشوارع ومئاته التحصينات. وقفت الأستاذة كرافت وأحد المضربين الذي كان يُدعى مورييس لونج مُنكَبِّين على إحدى خرائط أوكسفورد وهما يناقشان المواقع المُتَلَى لوضع المزيد من الحواجز لسد ثغرات دخول الجيش. قال مورييس: «تُعد الحواجز أفضل



ما استوردناه من الفرنسيين*. نريد وضع حواجز منخفضة في الطرق الواسعة – مثل الحصى، والأشجار الساقطة، وما شابه، إذ تستغرق إزالتها وقتاً وتمنعهم من جلب خيولهم أو مدافعهم الثقيلة. وإذا قطعنا منافذ الوصول الضيقة من هنا حول الساحة الرباعية، فسوف نُجبرُهم على البقاء في شارع هابي ستريت**.

وجلست فيكتوار مع إبراهيم والعديد من المضربين إلى طاولة يُدَوّنون ملاحظات بانتباه حول نوع قوالب الفضة الأكثر تناسباً مع دعم دفاعاتهم. وقد ترددت كلمة باريلز عدة مرات. وإذا كان روبين يسترق السمع، فقد تبين أنهم يخططون للإغارة على بعض أقبية الشراب للحصول على دعائم إنشائية***.

أشار إيبيل إلى الردهة وسأل: «كم ليلة ستمكثون هنا؟».

أجاب روبين: «طالما كان ذلك ضرورياً. هذا هو الأساس. يمكنهم تجربة كل ما لديهم. لكنهم يظلون عاجزين لطالما بقي البرج في أيدينا». «هل توجد لديكم أسيرة؟».

* انتشرت خطط الثورة بسرعة كبيرة، وقد تعلم عمال النسيج البريطانيون تقنيات الحواجز من ثورات عمال الحرير في كانو بليون في الفترة ما بين 1831 و1834. وقد قُمعت تلك الثورات بوحشية، لكن الأهم أنهم لم يشلّوا عصب الدولة بأكمله.

** لو بدّت هذه الجدران التنظيمية مذهشة، فيجب أن نتذكر أن كلاً من معهد بابل للغات والحكومة البريطانية قد ارتكبا خطأ جسيماً حين افترضا أن جميع الحركات المناوئة للفضة في ذلك القرن كانت أعمال شغب عشوائية ينفذها خثالة المجتمع من غير المتعلمين والساخطين. فعلى سبيل المثال، لطالما وُصِم اللوديون بالخوف من التكنولوجيا واتهموا بتحطيم الماكينات. بيد أنهم كانوا حركة ثورية بالغة الرقي مكونة من مجموعات صغيرة منظمة تستخدم التمويهات وكلمات المرور السرية، وتجمع التبرعات والأسلحة، وتُرهب أعداءها، وتنفذ هجمات مُحكمة التخطيط. (صحيح أن حركة اللوديين قد فشلت في النهاية، فإن هذا لم يحدث إلا بعد أن حشد البرلمان اثني عشر ألف جندي لإخمادها، وهو عدد يفوق ذاك الذي حارب به في شبه الجزيرة الأيبيرية.) كان إيبيل ورجاله قد أضافوا هذا المستوى من التدريب والاحترافية إلى إضراب بابل.

*** اشتُقّت كلمة باريكيد من الكلمة الإسبانية بارिका والتي تعني «برميل» والذي يُعد لُبنة أول المتاريس، وبالإضافة إلى أهميتها التاريخية، كانت البراميل تمثل مكوناً جيداً للمتاريس لعدة أسباب مثل سهولة نقلها، وملئها بالرمل أو الصخور، وتوحيهما بطرق تفتح عدة كؤات للقناصة المتمركزين وراءها.



«ليس تحديداً، فلدينا سرير صغير نتناوب على استخدامه، لكننا نتكؤر بين الأروقة في معظم الأحيان».

«لا يمكن أن يكون هذا مريحاً».

فابتسم له روبين ابتسامة ساخرة وقال: «على الإطلاق. لا نفكّ نُداس حين يتقدم أحدنا إلى الحمام».

تذمّر إيبيل بصوت منخفض ودار بعينه حول الردهة الواسعة، والأرفف المطلية المصنوعة من خشب الماهوجني، والأرضيات الرخامية اللامعة وقال: «يا لها من تضحية!».

تقدّم الجيش البريطاني إلى أوكسفورد ذاك المساء.

راح الباحثون يراقبون القوات بزيها الأحمر وهي تتقدم في صف واحد على امتداد شارع هاي ستريت. كان يجب أن يمثل وصول كتيبة مسلحة حدثاً جليلاً، لكن الشعور بالخوف كان أمراً مستبعداً، إذ بدت القوات غير متناسبة مع المنازل المتلاصقة ومتاجر وسط المدينة. وإذ خرج أهل المدينة لتحياتها، بدا وصولها أشبه بموكب منه بقوة عسكرية عقابية. كانوا يتقدمون ببطء لإفساح الطريق للمدنيين لعبور الشارع. كان الأمر برمته تقليدياً ومهذباً.

وحين وصلوا إلى المتاريس، توقفوا، وترجّل القائد - ذو الشارب الكثّ والمزدان بالأوسمة - عن جواده وسار بخطى عريضة نحو أول عربة مقلوبة. بدا مُرتبگاً لهذا. راح يتلفت حوله نحو أهل المدينة الواقفين كمن ينتظر توضيحاً.

تساءلت جوليانا: «هل تظنونه اللورد هيل؟».

أجاب الأستاذ شاكرافارتي: «اللورد هيل هو القائد العام، ولن يرسلوا القائد العام للتعامل معنا».

قال روبين: «بل يجب عليهم، إذ صرنا نمثل تهديداً للأمن القومي».



أسكتهم فيكتوار قائلة: «لا تُبالِغوا. انظروا، إنهم يتكلمون».

خرج إيبيل جودفيلو سائرًا وحده بخطى ثابتة من وراء المتراس.

قابل القائد إيبيل في وسط الشارع وتجاوزا. لم يستطع روبين سماع ما كانا يقولانه، لكن الحوار بدا ساخنًا. صحيح أنه بدأ بطريقة مهذبة، لكن الرجلين لم يلبثا أن بدأ يحركان أيديهما بطريقة عصبية. وقد خشي روبين أن يضع القائد إيبيل في أصفاد عدة مرات. وفي النهاية، توصَّلا إلى اتفاق، فعاد إيبيل إلى المنطقة الخلفية للمتراس وهو يمشي بظهره كمن يُؤمِّن نفسه من طلقة رصاص قد تصيب ظهره. أما القائد ذو الشارب الكث، فعاد إلى كتيبته، ثم بدأ الجيش يتقهقر، ما أصاب روبين بالذهول.

وعقب عودته إلى الردهة، أبلغ إيبيل الباقيين: «لقد أمهلونا ثمانى وأربعين ساعة للإخلاء وإلا أجبرونا على إزالة المتاريس بعدها».

قال روبين: «يُتبقَّى لنا يومان إذا. ليس هذا وقتًا كافيًا».

رد إيبيل: «الأكثر من هذا هو أن الأمر سيتخذ مراحل متفرقة ومتباعدة. سيرسلون إنذارًا، ثم آخر، فثالث شديد اللهجة، ثم سيماطلون قدر استطاعتهم. لو كانوا مُزْمِعِينَ اقتحام المكان، لفعلوا ذلك على الفور».

قالت فيكتوار: «لم يترددوا في إطلاق النار على مثيري الشغب في سوينج وأصحاب البطاطين».

رد إيبيل: «لم تكن أعمال شغب تستهدف الاستيلاء على الأراضي، بل بالأحرى تُعزى للسياسات. لم يكن مثيرو الشغب بحاجة للصمود في مواقعهم. وقد تفرقوا حين أُطلقت عليهم النار. لكنهم كانوا متمركزين في قلب المدينة. لقد أعلنَّا سيطرتنا على البرج، بل وعلى أوكسفورد نفسها. فلو أصاب أي من أولئك الجنود أحد المارة بطريق الخطأ، فسيخرج الأمر عن سيطرتهم. لن يستطيعوا تدمير المتاريس دون تدمير المدينة، وأعتقد أن البرلمان لن يتحمل هذا». ثم نهض ليغادر وأردف: «سنتكفل بمنعهم. أما أنتم، فواصلوا كتابة المنشورات».



وهكذا، استمر الوضع مُتأزماً بهذا الشكل بين المضربين والجيش عند متاريس هاي ستريت.

وعند الحاجة، كان البرج ليوفر حماية أفضل من تلك الحواجز العشوائية التي وضعها إيبيل جودفيلو. لكن، كان للمتاريس أكثر من مجرد قيمة رمزية، إذ كانت تغطي مساحة كافية للسماح بخطوط إمداد إلى داخل البرج وخارجه. كان هذا يعني أن الباحثين صاروا يحصلون على طعام طازج ومياه نظيفة (كان العشاء في تلك الليلة كمية كبيرة من الخبز الأبيض الطري والدجاج المشوي)، وهو ما كان يعني أنهم كانوا يمتلكون مصدر معلومات موثوقاً لما يجري بعيداً عن جدران البرج.

ورغم جميع التوقعات، ازداد داعمو إيبيل عدداً على مدى الأيام التالية، أجاد المضربون من العمال توصيل الرسالة إلى الخارج أكثر من المنشورات، إذ كانوا يتحدثون اللغة نفسها وكان البريطانيون ليتوحدوا مع إيبيل على نحو لم يتمكنوا منه مع المترجمين الأجانب. وكان شباب أوكسفورد، الذين ملأوا الانعزال عن العالم الخارجي وراحوا يبحثون عن شيء يعملونه، قد اتجهوا إلى المتاريس؛ لأن الأمر بدا مُثيراً فحسب. كما انضمت النسوة إلى الصفوف بمن فيهن الخياطات وعاملات المصانع اللاتي فقدن وظائفهن.

يا له من منظر! كان هناك مزيج من البشر يحمي البرج. كان للمتاريس تأثير غريب في بناء مجتمع، إذ صار الجميع رفاق سلاح خلف تلك الجدران، على الرغم من أصولهم، وكان التوصيل المنتظم للمواد الغذائية إلى البرج مصحوباً برسائل التشجيع. كان روبين قد توقع العنف فحسب، لا التضامن، وكان مُتَحَيِّراً في كيفية التعامل مع هذا الدعم الذي تحدى ما كان يتوقعه من العالم. كان يخشى أن يجعله ما يحدث يفرط في التفاؤل.

وذات صباح، اكتشف أن إيبيل قد ترك له هدية ممثلة في عربة متروكة عند أعتاب البرج مكومة عليها حُصُر، ووسائد، وبطاطين منزلية الصنع،



وقد بُنيت فوقها رسالة تقول: «هذا قرض. أعيذوا لنا هذه الأغراض حين تنتهي مهمتكم».

وفي الوقت عينه، تفرَّغوا وهم داخل البرج لجعل لندن تخشى عواقب إطالة فترة الإضراب.

كانت الفضة توفر للندن جميع وسائل الراحة العصرية؛ إذ تُشغل ماكينات التبريد في مطابخ أثرياء لندن، ومحركات مصانع الشراب التي تمد مشارب وملاهي لندن، والمطاحن التي تنتج دقيقها. ودون الفضة، كانت القاطرات لتتوقف عن السير، ولم تكن السكك الحديدية الجديدة لتقام، ولا تُسخت المياه، ولصار الهواء مُحَمَّلاً بالأوساخ المتراكمة. فلو توقفت جميع الماكينات التي تحرك عمليات الغزل والنسج، والتمشيط والحج، لانهارت صناعة المنسوجات البريطانية تماماً.

كانت البلاد كلها مُهَدَّدة بمجاعة مُحتملة، إذ كانت هناك فضة في إطارات المحارِث وآلات نثر البذور، والدَّرَّاسات، ومواسير الصرف في جميع أنحاء الريف البريطاني*.

لم تكن تلك الآثار لُحَسَّ على مدى أشهر، إذ كانت توجد مراكز عمل فضة إقليمية في لندن، وليفربول، وإدنبرة، وبرمنجهام حيث كان باحثو بابل الذين

* تعرض كل شيء يعمل بقوة البخار لمشكلات، واتضح أن الأستاذ لوفيل قد جمع مُعظم ثروته بتحويل قوة البخار من تقنية فوضوية ومعقدة إلى مصدر طاقة نافع يعمل عليه الأسطول البريطاني بأسره. تمثل أعظم ابتكاراته في شيء شديد البساطة. كان الحرف الصيني الذي يعني بخار 气 (كاي) يوحي كذلك بالطاقة والنشاط. فحين كان يُبْنى في المحركات التي ابتكرها ريتشارد تريفيثيك قبل بضعة عقود، كان يولد قدرًا هائلاً من الطاقة مُقابل جزء ضئيل من ثمن الفحم. (استكشف الباحثون في ثلاثينيات القرن التاسع عشر تطبيقات لهذا الزوج المتطابق في النقل الجوي، لكنهم لم يقطعوا شوطاً طويلاً، إذ لم تنفك البالونات إما تنفجر وإما تصعد إلى طبقة الستراتوسفير). واحتج البعض بأن هذا الاختراع الوحيد يبرر انتصار بريطانيا في معركة ترافالجار. وكانت إنجلترا بأسرها تعمل بالبخار. وقد حُلَّت قاطرات البخار الكثير من العربات التي تجرها الخيول واستبدلت بالمرابك الشراعية السفن التي تعمل بالمحركات البخارية. لكن لم يكن في بريطانيا سوى القليل من المترجمين الصينيين، وباستثناء روبين والأستاذ شاكرافارتي، كان باقي المترجمين كافة إما موتى وإما بالخارج، ودون الصيانة الدورية، لم تكن قوى البخار لتفشل في عملها تماماً، بل لتفقد قوتها الفريدة وفعاليتها غير المعقولة التي جعلت السفن البريطانية تنبؤاً منزلة أعلى من الأسطولين الأمريكي والإسباني.

لم يحققوا نجاحًا كبيرًا في دراستهم قد اضطروا للعمل على تطوير أو استخدام اختراعات زملائهم الأكثر تميزًا، إذ لم يحصلوا على زمالة، ومن ثم، كانوا يكسبون قوتهم بصعوبة. كانت تلك المراكز تعمل كإجراء احترازي لسد فراغ مؤقت. لكنها لم تستطع سد العجز، لا سيما أنهم لم يتمكنوا من الوصول إلى سجلات الصيانة نفسها.

فسأل روبين: «ألا تظنهم سيتذكرون؟ على الأقل الباحثون الذين خرجوا مع الأستاذ بلاي فير؟».

قالت الأستاذة كرافت: «إنهم باحثون. كل ما نعلمه هو الحياة العقلية. لا نتذكر أي شيء ما لم نكتبه في مفكراتنا ويدور عدة مرات. سيبذل جبروم قصارى جهده، هذا إن لم يكن مُخدرًا للخضوع لجراحة، لكن الكثير سيتسرب، وستتهار هذه الدولة خلال أشهر».

أضاف يوسف الذي كان الوحيد بينهم الذي يعرف معلومات عن الأسواق والأعمال البنكية: «وسوف ينهار الاقتصاد على نحو أسرع من هذا. هذه كلها تكهنات - فقد راح الناس يشترون أسهمًا في السكك الحديدية وغيرها من الصناعات القائمة على الفضة بذعر خلال العقد الماضي، إذ كانوا يعتقدون أنهم على وشك تحقيق الثراء، فماذا سيحدث حين يُدركون أن كل تلك الأسهم ستضيع هباءً؟ قد يستغرق تداعي صناعة السكك الحديدية أشهرًا، وستتهار الأسواق نفسها خلال أسابيع».

انهيار الأسواق؟ كانت الفكرة في حد ذاتها عبثية، بيد أنها كانت مُغرية. هل كان بإمكانهم الانتصار بالتهديد بانهييار سوق الأسهم والسحب الحتمي الجماعي للودائع؟

ألم يكن هذا هو الأساس؟ ولكي ينجح هذا، كان عليهم إرهاب الأثرياء والأقوياء. كانوا يعلمون أن الإضراب سيترك أثرًا مضاعفًا على العمال الفقراء الذين يعيشون في أقدر وأكثر أنحاء لندن فقرًا، والذين كان ليتعذّر عليهم حزم أمتعتهم والهروب من البلاد حين يتغيّر الهواء وتتسخ المياه. ولكن من منظور آخر مهم، كانت ندرة الفضة لتؤدي بشدة أكثر المستفيدين



من تطورها. وكانت أحدث المباني – الأندية الخاصة، وصالات الرقص، والمسارح حديثة التجديد - لنتهار أولاً. كانت مساكن لندن القديمة تُبنى بأخشاب عادية، لا على أساسات مُدعمة بالفضة تنوء بحمل أوزان أثقل بكثير ممّا تستطيع المواد الطبيعية تحمّله. ولطالما شارك المعماري أغسطس باجين بانتظام مع أعضاء هيئة تدريس بابل ويكثر من استخدام قوالب الفضة في مشاريعه الحديثة - مثل قاعة سكاريز بريك في لانكشاير، وتطوير أبراج ألتون، والأهم هو إعادة بناء قصر وستمنستر بعد حريق 1834. ووفقاً لسجلات طلبات العمل، كان جميع الأبنية لنتهار قبيل نهاية العام، أو في وقت أقرب لو اقتلعت القضبان المناسبة.

ككيف سيستجيب أثرياء لندن لو هوت الأرض من تحت أقدامهم؟

أعطى المضربون تحذيرات كافية، وروّجوا هذه المعلومات بشكل واضح، وكتبوا منشورات لا حصر لها أوصلها إيبل إلى عدّة أعوان في لندن. كتبوا فيها: سوف تنهار طرقكم، وتجف مياهكم، وستنطفئ أنواركم، ويفسد طعامكم، وتغرق سفنكم. سيحدث هذا ما لم تختاروا السلام.

فعلّقت فيكتوار: «إنها عشر ضربات».

لم يكن روبين قد قرأ أي كتب تاريخ على مدى عدة أعوام، فقال: «عشر ضربات؟».

ردّت فيكتوار: «كانت الضربات العشر عقاباً لأحد ملوك مصر حين رفض إطلاق سراح عبيده، فاستحالت مياه النهر دمًا، وأتى الجراد على المحاصيل، وانتشرت الأوبئة، ثم سادت ظلمة، ومن ثم، أدرك الملك خطاه وعاد عن أفعاله».

فسأل روبين: «وهل أطلق الملك سراحهم؟».

أجابت فيكتوار: «نعم، لكن بعد الضربة العاشرة فحسب، بعد أن مات ابنه البكر».



كانت آثار الإضراب تتخذ منحى عكسيًا في بعض الأحيان، إذ كانت الأضواء تتذبذب لمدة ليلة، أو تُفَتَّح شبكة طرق غير مُكتملة، أو تنتشر الأخبار بأن المياه النظيفة الناشئة عن أعمال الفضة متاحة وتُباع بأسعار باهظة في بعض أحياء لندن. وبين الحين والآخر، كانت سجلات الكوارث تتنبأ بأشياء لا تحدث.

لم تكن هذه مفاجأة، إذ أعاد الأستاذ دي فريز، والأستاذ هاردنج، وجميع أعضاء هيئة التدريس والزملاء الذين لم يبقوا في البرج تنظيم صفوفهم في لندن وكوّنوا جمعية دفاعية مناهضة للمضربين، صارت البلاد تتخبط في معركة خفية تدور حول الكلمات والمعاني، وصار مصيرها يتأرجح بين مركز الجامعة والأطراف المتأثرة ببؤس.

لم يلق المضربون بالألا، فلم يكن باستطاعة المنفيين أن ينتصروا، إذ كانوا يفتقرون لموارد البرج. كان كل ما باستطاعتهم هو عرقلة الأمور بشكل بسيط، لكنهم لن يستطيعوا الحيلولة دون وقوع أحداث حتمية.

وذات مساء وأثناء تناول الشاي، علّقت فيكتوار: «إن مقدار الاعتماد على أوكسفورد أمر شديد الغرابة، بل من المُفترض أنهم كانوا يدركون خطورة اعتمادهم على شيء واحد».

قال الأستاذ شاكر فارتي: «حسنًا، إن الأمر مُضحك للغاية، فمن الناحية التقنية، توجد محطّات احتياطية لتخفيف حدّة أزمة الاعتماد، فعلى سبيل المثال: لم تنفك كامبريدج تُحاول إنشاء برنامج منافس على مدى أعوام، لكن أوكسفورد لم تكن تشارك أي موارد».

سأل روبين: «هل يُعزى هذا للندرة؟».



أجابت الأستاذة كرافت: «بل بسبب الغيرة والجشع. لم تمثل الندرة مشكلة على الإطلاق*، لا نحب باحثي كامبريدج، فهم صغار وِقحون يظنون أنهم قادرون على شق طريقهم بأنفسهم».

رد الأستاذ شاكرا فارتي: «لا يذهب أحد إلى كامبريدج ما لم يخفق في العثور على وظيفة هنا. هذا مُحزن».

نظر روبين إليهما بذهول وقال: «أتقصد أن هذه البلاد ستنتهار بسبب نَزْعة السيطرة لدى الأوساط الأكاديمية؟».

رفعت الأستاذة كرافت فنجائها إلى شفيتها وقالت: «حسنًا، نعم. إنها أوكسفورد. فماذا تتوقع؟».

ولم يزل البرلمان رافضًا للتعاون، وكان مكتب وزارة الخارجية يرسل البرقية عينها كل ليلة بالصياغة نفسها وكأن الصراخ بالرسالة نفسها مرارًا وتكرارًا قد يحث على الطاعة: أوقفوا الإضراب فورًا. قف. وخلال أسبوع، توقفت العروض بما فيها عرض العفو. وبعد فترة قصيرة، أتت الرسالة وقد أرفق بها تهديد: أوقفوا الإضراب الآن وإلا استعاد الجيش البرج. قف.

وسرعان ما صارت آثار إضرابهم مُمِيتة†، إذ تمثلت إحدى نقاط نفاد الصبر في الطرق. ففي أوكسفورد، بل وفي لندن كذلك، مثلت حركة المرور مشكلة سائدة تواجه مسؤولي المدينة - كيف يُديرون تدفق العربات، والخيول، والمارة، وعربات البريد، وعربات الأجرة التي تجرها الخيول، والعربات الكبيرة دون تكديس مروري أو حوادث. وقد أسهمت أعمال الفضة

* على سبيل المثال، لم تكن أبجدية باريش المستخدمة في قُضبان الرنين ضرورية لتشغيلها، بل ابتكرها باحثو بابل كي تظل تكنولوجيا الرنين جكرًا عليهم وعصبةً على فهم الغرباء. ومن المُذهل أن الكثير من المواد التي يُعتقد أنها ناقصة في الأوساط الأكاديمية نتيجة لعوامل مُفْتعلة.

† جلب لهم إيبيل سيلاً من الأخبار السيئة، فقد وقع حادث تصادم على نهر تشيرويل بين عوامة سكنية وبارجة بسبب عطل في أنظمة الملاحة لديهما، ما أدى إلى تكديس الدخان في وسط النهر. وقد لقي ثلاثة أشخاص مصرعهم وهم عالقون في مقصورات مغمورة بالمياه. وفي جيريكو، لقي طفل في الرابعة من عمره مصرعه تحت عجلات عربة بعد أن فقد سائقها السيطرة عليها. أما في كينزنجتون، فقد دُفنت فتاة وخطيبها أحياء بعد أن انهارت أطلال برج إحدى دور العبادة فوق رأسيهما أثناء موعد غرامي في منتصف الليل!

في منع حوادث التكس وحالت دون وقوع حوادث التصادم المتعددة بتدعيم الطرق الخشبية وتنظيم الطرق التي تُحصَل عليها رسوم مرور وتقوية بوابات العبور والجسور وتأمين انعطاف العربات بسلاسة.

وإعادة ملء مضخّات المياه المخصّصة لإخماد الغبار وتهدئة الخيول. ودون ما يقوم به بابل من أعمال صيانة، بدأت كل تلك التعديلات الطفيفة تتعطلّ واحدة تلو الأخرى، وقد لقي العشرات مصرعهم جراء ذلك.

تسبّبت مشكلة النقل في سلسلة من الأزمات والصعوبات، فلم يتمكّن البقالون من تعبئة أرففهم، ولا الخبّازون من الحصول على الدقيق. لم يستطع الأطباء مناظرة مرضاهم ولا المحامون الذهاب إلى المحاكم. وقد استخدمت عشرات العربات في أحياء لندن الأكثر ثراءً زوجاً متطابقاً ابتكره الأستاذ لوفيل يعتمد على الحرف الصيني 輔 (فو) والذي يعني «يساعد» أو «يعاون». كان الحرف يشير في الأصل إلى الألواح الجانبية الواقية في العربات، وكان من المفترض أن يصل الأستاذ لوفيل إلى لندن لإجراء تعديلات طفيفة عليها في منتصف يناير. وقد انهارت القوالب، مما جعل العربات خطرة في القيادة*.

كان كل ما يُتوقّع حدوثه في إنجلترا يحدث بالفعل في أوكسفورد، فنظراً لقرب الأخيرة من بابل، كانت أكثر مدن العالم اعتماداً على الفضة. وكانت أوكسفورد تتردّي، وسكانها يوشكون على الإفلاس، ويتضورون جوعاً، وتجارهم تُعاق، وأنهارهم تُعترّض، وأسواقهم تُغلق. لقد أرسلوا إلى لندن طالبين الطعام والمؤن، لكن الطرق صارت خطرة وتعطل الخط ما بين أوكسفورد وبادنجتون.

* ذات أربعاء، اصطدمت عربتان، كانت إحداها مُحَمَّلة ببراميل تحوي شراباً عالي الجودة، وحين تسربت الرائحة النفاذة إلى الشارع، هرع حشد صغير لملء أيديهم بالشراب، وسارت الأمور على نحو مُبهج حتى أشعل رجل غليوئاً وتقدم مُتحمّماً الحشد، مما حوّل الشارع إلى ساحة حرب من الناس والخيول والبراميل المتفجّرة.



وتضاعفت الهجمات على البرج، وازدحمت الشوارع بأهل المدينة والجنود. كانوا يطلقون ألفاظاً نابية على النوافذ ويشتبكون مع الرجال عند المتاريس. لكن فارقاً لم يحدث، إذ لم يستطيعوا إيذاء المترجمين الذين كانوا الوحيدين الذين يستطيعون وضع حد لبؤسهم. لم يستطيعوا تجاوز فخاخ البرج ولا حرقه ولا تفخيخ قاعدته بالمُتفجرات، بل كل ما كان بوسعهم هو التوسُّل للباحثين كي يتوقفوا.

كتب روبين في سلسلة من المنشورات التي صارت طريقته في الرد على احتجاجات المدينة: لدينا طلبان اثنان يعرفهما البرلمان. نرفض الذهاب للحرب ونطلب العفو، فسيحدد هذان الطلبان مصيركم.

كما طالب لندن بالاستسلام قبل تحقُّق هذه الأمور، وكان يرجو، بل يعرف، أنها لن تحدث، إذ كان قد اعتنق فكر جريفيين العنيف بأن الظالم لن يوافق على التفاوض حين يرسخ في ذهنه أنه ليس لديه ما يخسره. كان يريد إراقة الدماء، فحتى الآن، كانت جميع التَّهديدات نظرية، في حين كان يجب أن تتألم لندن كي تتعلم.

لم يَرُق هذا لفيكتوار، وكلما صعدا إلى الطابق الثامن، كانا يختلفان حول أي قضبان الرنين الواجب اقتلاعها وعددها. أراد أن يبطل عمل أربعة وعشرين قضيباً، في حين أرادت اثنتين فحسب، وعادة ما كانا يتفقان على خمسة أو ستة.

هي قالت: «تتعلَّج الأمور، فلم تعطهم فرصة للرد».

رد روبين: «يمكنهم الرد متى أرادوا ذلك، فماذا يثنيهم؟ الجيش هنا حالياً».

«الجيش هنا لأنك دفعته للمجيء».

فأصدر صوتاً يَنِمُّ عن الضيق وقال: «آسف، لن أكون جباناً».

«لست جبانة، بل حذرة». وهنا ثنت فيكتوار ذراعيها وقالت: «تسير

الأمر بوتيرة غاية في السرعة يا روبين. يحدث الكثير من الأمور في وقت



واحد. يجب أن تدع النقاشات تصل إلى حلّ وتدع الرأي العام ينقلب على الحرب».

قال بإصرار: «ليس هذا كافيًا، فلن يهديهم عقلهم إلى العدالة الآن وقد أعماهم عنها سابقًا. الخوف هو الشيء الوحيد الذي يَنْجَع. ما هذه إلا خطط....».

فقلت بحدة: «ليس هذا نتيجة خطط، بل أسي».

لم يستطع أن يستدير، إذ لم يرغب أن ترى تعبير وجهه. «قلتِ بنفسكِ إنكِ تريدين أن يحترق هذا المكان».

ردّت فيكتوار وهي تضع يدها على كتفه: «لكني أريد ما هو أكثر. أريد أن ننجو».

كان من المُستحيل أن يحدّد المرء مقدار الفارق الذي تصنعه وتيرة ما كانوا يُحدِثونه من دمار. وظلّ الخيار في يد البرلمان واستمرّت المباحثات في لندن.

لم يعلم أحد ما كان يجري داخل مجلس اللوردات باستثناء أنه لا عدد أنصار حزب الأحرار ولا الراديكاليين تسمح لهم بالدعوة للتصويت. وكشفت الصحف المزيد عن نبض الشارع. وعبرت الصحف الرئيسية عن الرأي الذي توقعه روبيين والممثل في كون الحرب على الصين كانت مسألة دفاع عن الكرامة القومية وأن الغزو لم يكن سوى جزاء لما ألحقه الصينيون من إهانات بالراية البريطانية، وأن احتلال طلاب أجانب بابل كان خيانة، وأن متاريس أوكسفورد وإضرابات لندن كانت أفعالاً صادرة عن همجين وحشيين، وأن الحكومة يجب أن تتعامل بحزم مع مطالبهم. وشدّدت المقالات الافتتاحية المناصرة للحرب على سهولة إيقاع الهزيمة بالصين، وأنها ستكون حربًا صغيرة، بل لن تكون حربًا بالمعنى الصحيح. فما إن تنطلق عدة مدافع حتى يعلن الصينيون استسلامهم في غضون يوم واحد.



لم يبدُ أن الصحف حسمت الأمر بشأن المُترجمين. كانت المطبوعات المناصرة للحرب تقدم عشرات النظريات. فإما كانوا متواطئين سرًا مع حكومة الصين الفاسدة وإما كانوا متآمرين مع متمردي الهند، وإما كانوا جاحدين أشرارًا بلا خطّة عدا الرغبة في مضايقة إنجلترا وإنكار جميلها. ولم يتطلب هذا كله المزيد من التوضيح، إذ كان عامة البريطانيين على أهبة الاستعداد لتصديقه. وأكد أعضاء البرلمان بحزبيه: لن نتفاوض مع بابل، فلن تخضع بريطانيا للأجانب*.

بيد أن التحامل على بابل أو مناصرة الحرب لم يأتِ عن كل الصحف، فمُقابل كل عنوان يحث على اتّخاذ إجراء سريع في كانتون برز آخر في مطبوعة (رغم صغرها، واستهدافها شريحة معينة، وتطرفها) تدعو الحرب غَضَبًا أخلاقيًا وعقائديًا. اتّهمت ذا سبكتيتور الحزب المنحاز للحرب بالجشع والتربح، في حين وصفت ذا إجزامينر الحرب بأنها عمل إجرامي غير أهل للدفاع. وظهر عنوان رئيسي في ذا تشامبيون يقول: حرب الأفيون تجلب العار على جاردين. ولم تكن صحف أخرى تتمتع باللباقة الكافية، إذ كتبت بوليتيكال ريجستر: المدمن المستهتر يُريد التدخّل في شؤون الصين.

كان لكل فصيل اجتماعي في إنجلترا رأيه الخاص، وأصدر دعاة محو الرق بيانات داعمة للمضربين، وفعلت المطالبات بحقوق التصويت الشيء

* لطالما أشارت الصحف للمضربين بأنهم أجانب صينيون، أو هنود، أو عرب، أو أفارقة. (بغض النظر عن الأستاذة كرافت). لم يكونوا منتمين لأوكسفورد ولا حتى لإنجلترا، بل رحالة من بلاد غريبة استغلوا حسن نية أوكسفورد وجعلوا الأمة تحت رحمتهم. تساوت بابل في المعنى مع أجنبي، وكان هذا شديد الغرابة، فقبل ذلك، كان المعهد الملكي للترجمة يُعدّ كنزًا وطنيًا ومؤسسة إنجليزية بامتياز. لكن وقتئذٍ، كانت إنجلترا واللغة الإنجليزية أكثر استنادة للفقراء، ومتدنيي الأصول، والأجانب من أن تعترف بهذا. واشتُقت كلمة فيرناكولار من الكلمة اللاتينية فيرنا التي تعني «عبد المنزل» وهو ما أبرز مدى أصالة اللغة للعامة. لكن الجذر فيرنا كان يُشير أيضًا إلى الأصول المتدنية للغة التي يتحدثها أصحاب النفوذ، إذ تسرب ما ابتكره العبيد، والعمال والمتسولون، والمجرمون من مصطلحات وعبارات - الألفاظ العامة البذيئة إن صح التعبير - إلى اللغة الإنجليزية حتى صارت لائقة. وكذلك، لا توصف اللغة الإنجليزية العامة بأنها محلية، ذلك أنه لأصول الكلمات الإنجليزية جذور في جميع أنحاء العالم، فقد أتت كلمات ألماناك والجبرا من اللغة العربية، وبيجاما من السنسكريتية، وكتشاب من الصينية، وباديز من الماليزية. ولم يحاول الإنجليز الذين اعتبروا أنفسهم حقيقيين اجتثاث كل ما شكّل هويتهم إلا عندما بات نمط حياة النخبة الإنجليزية مهددًا.

نفسه لكن دون ضجة. وطُبعت المنظّمات الدينية منشورات تنتقد فيها نشر رذيلة غير قانونية بين شعب بريء، بيد أن المتدينين المتطرفين من مناصري الحرب ردوا محتجّين بأن جعل الشعب الصيني مفتوحًا على التجارة الخارجية تدبير إلهي.

وفي الوقت عينه، احتجّت الصحف الراديكالية بأن انفتاح الصين كان يتنافى مع مصالح العمال في شمال إنجلترا. أما الميثاقيون، وهم ممثلو حركة عمالية وحرفية محبطة، فقد دعموا المضربين بقوة. وكانت نشرة ذا ريد ريبابليكان الخاصة بالميثاقيين قد نشرت عنوانًا رئيسيًا يصف المترجمين بأبطال الطبقة العاملة.

أعطى ذلك روبين أملاً، إذ كان الراديكاليون - على كل حال - يمثلون الحزب الذي أراد الأحرار تهدئته، ولو أقنعت تلك العناوين الراديكاليين بأن الحرب لن تخدم مصالحهم طويلة الأجل، لتوصّلوا إلى حل لكل شيء.

وكان الحديث عن مخاطر أعمال الفضة قد حظي بقبول الرأي العام أكثر من الحديث عن الصين، إذ كانت قضية مهمة للوطن وتمسّ المواطن البريطاني العادي بطرق يفهمها. لقد دمّرت الثورة الصناعية للفضة كلاً من صناعة النسيج والزراعة. وراحت الصحف تنشر مقالاً تلو الآخر يفصح ظروف العمل المريعة داخل المصانع التي تعمل بالفضة (غير أن هذه الآراء وجهت بردود معارضة، من بينها تفنيد أندرو يور الذي رأى أن حال عمال المصانع سيتحسّن لو خففوا الشراب والتدخين). وفي عام 1833، نشر الجراح بيتر جاسكيل مخطوطاً مدعوماً ببحث شامل بعنوان صنّاع إنجلترا ركز فيه بشكل خاص على الأثر الأخلاقي، والاجتماعي، والبدني للماكينات التي تدور بالفضة على عمال بريطانيا. وفي ذلك الوقت، لم يلتفت إليه سوى الراديكاليين الذين عُرفوا بالمبالغة في كل شيء.

وها هي الصحف المناوئة للحرب تنشر مقتطفات من البحث يوميًا ناقلة بصورة مُفزعة تفاصيل حول كيف يستنشق الأطفال غبار الفحم، إذ يُجبرون على العمل في أنفاق لا يستطيع الكبار العمل فيها، وكيف يفقد البشر أصابع



أيديهم وأقدامهم بسبب الماكينات العاملة بالفضة والتي تدور بسرعة كبيرة للغاية، وكيف اختنقت فتيات بعد أن التقت شعورهن على المغازل والأنوال الدائرة.

ونشرت ذا سبيكتيتور رسماً كاريكاتورياً للأطفال الهزيلين الذين تدهسهم آلة غامضة تحت عجالاتها وكُتب تحته: «عبيد ثورة الفضة ذوي البشرة البيضاء». وفي البرج، راحوا يضحكون بشكل هستيري على هذه المُقارنة، لكن العامة أبدوا دُعرًا حقيقياً. وسأل أحدهم عضواً في مجلس اللوردات عن سبب دعمه استغلال الأطفال في المصانع، فأجاب الأخير بسخرية بالغة بأن توظيف الأطفال دون التاسعة قد جُرّم عام 1833، وهو ما أدى لاحتجاج عام على معاناة الأطفال في عمر العاشرة والحادية عشرة في البلاد.

فوجّه روبين إلى إيبيل سؤالاً: «هل المصانع بهذا السوء فعلاً؟».

أجاب إيبيل: «بل أسوأ. لا ينشرون إلا الحوادث غير المألوفة، لكنهم لا يذكرون أي شيء عن العمل يومياً في تلك الطوابق المزدحمة والاستيقاظ قبل الفجر والعمل حتى التاسعة مع أخذ بضع فترات راحة في تلك الأثناء. وهذه هي الأحوال التي نشتهيها والوظائف التي نتمنى استعادتها. يُخَيَّل إلي أنهم لا يجبرونكم على تحمّل مثل هذه المشقة في العمل في الجامعة، أليس كذلك؟».

قال روبين بإحراج: «نعم، لا يفعلون».

أثر مقال ذا سبيكتيتور في الأستاذة كرافت بشكل خاص، إذ وجدها روبين جالسة أمام طاولة الشاي تقرأه بعينين مُحمرّتين، وذلك بعد أن انتهى الجميع من تناول فطورهم. وحين لمحته يقترب، أسرعت بكفكة دموعها.

فجلس بجانبها وقال: «هل أنت بخير يا أستاذة؟».

تتحننت وأجابت: «أوه، نعم، ثم لكزت الجريدة وقالت: «إنه فحسب... لا نأخذ هذا الجانب من القصة بعين الاعتبار، أليس كذلك؟».

«أظننا جميعاً قد حققنا تقدماً فيما لا نأخذه بعين الاعتبار».



بدت كأنها لم تسمعه، وأطلت من النافذة على المرحج بأسفل حيث تحوّلت ميادين احتجاج المضربين إلى شيء شبيه بمخيم الجيش، وقالت: «كان أول زوج متطابق أحصل على براءة اختراعه يحسن كفاءة الآلات في أحد مناجم تينشابير. كان يُحكّم تثبيت العربات المحملة بالفحم على مساراتها، ولشدة إعجاب مُلّاك المنجم به، دعوني لزيارته فليبيت دعوتهم بالطبع. كنت في غاية السعادة لمساهمتي بشيء من أجل البلاد. أتذكر صدمتي لرؤية الأطفال الصغار في الحفر. وحين استفسرت، أجاب عمال المنجم بأنهم في أمان تام، وأن المساعدة في أعمال المناجم تبعدهم عن المشكلات حين يكون الآباء في العمل».

ثم تنفست باضطراب وقالت: «أخبروني بعدها بأن أعمال الفضة جعلت العربات لا تحيد عن مساراتها حتى حين كان الناس يقفون في الطريق، ووقع حادث فقد فيه ولد صغير ساقيه، فتوقفوا عن استخدام الزوج المتطابق حين لم يتمكّنوا من إيجاد حل بديل، لكنني لم أعد النظر في الأمر، ففي تلك الأثناء، كنت قد حصلت على زمالتي، وكنت أستعد لنيل درجة أستاذ وقد انتقلت لمشاريع أخرى أكبر. لم أفكر في الأمر على مدى سنوات عديدة».

وهنا أدارت له ظهرها. كانت عيناها مغرورتين وقالت: «تتراكم الأمور، ليس كذلك؟ لا تختفي فحسب. ففي وقت ما، يشرع المرء في نبش ما أخفاه ليجد مستنقعا ننتأ، وعميقا، ومخيفا، ولا يستطيع غض بصره».

قال روبين: «يا إلهي!».

فرفعت فيكتوار عينيها وقالت: «ما الأمر؟».

كان الاثنان منعزلين في مكتب بالطابق السادس ومنكبين على السجلات بحثًا عن نذر الكوارث المستقبلية. كانا قد اطلعا على مواعيد المدينة لدى أوكسفورد حتى العام التالي. كان العثور على مواعيد لندن أكثر صعوبة، إذ كان حفظ سجلات بابل شديد السوء، وبدأت منظومة التصنيف التي يتبعها موظفوها غير مرتبة وفقًا لتاريخ، وهو الأمر المنطقي، ولا حتى حسب



اللغة، وهو ما كان مقبولاً، لكنها كانت مُصنَّفة وفقاً للرمز البريدي في أحياء لندن ذات الصلة!

أغلق روبين سجله وقال: «أظننا نقرب من نقطة الانهيار».

«لماذا؟».

«يحل موعد صيانة جسر وستمنستر في غضون أسبوع. لقد تعاقدا على أعمال الفضة في توقيت بناء جسر لندن الجديد نفسه عام 1823. ومن المفترض أن تنتهي صلاحية القضبان بعد خمس عشرة سنة، أي هذه الأيام».

فسألت فيكتوار: «فماذا سيحدث؟ هل ستُغلق البوابات الدوارة؟».

«لا أظن ذلك، كان من أهم... إن «ف» شفرة لفاونديشن، أليس كذلك؟». وهنا ردد روبين، ثم صمت، وراحت عيناه تتفحصان السجل صعوداً وهبوطاً محاولة التأكد مما يراه. كان إدخالاً كبيراً جداً ممثلاً في قائمة من الأزواج المتطابقة بلُغات مختلفة امتدت على ما يقارب نصف الصفحة. كان لعدد كبير منها أرقام متكافئة في عمود تالٍ، مما يدل على استخدامهم روابط الرنين. وإذا قلب الصفحة، لمعت عيناه ذهولاً، كان العمود ممتداً للصفحتين التاليتين. فقال روبين: «أظنه يسقط في النهر مباشرة».

مالت فيكتوار للخلف وزفرت ببطء شديد وشردت.

كانت العواقب وخيمة. لم يكن جسر وستمنستر هو الوحيد الذي يقطع نهر التايمز، بل كان يشهد أكبر كثافة مرورية. كذلك، لو سقط جسر وستمنستر في النهر، فلم تكن أي بواخر، أو سفن سكنية، أو قوارب قصيرة مزدوجة، أو قوارب خفيفة لتجتاز الحطام. ولو انهار جسر وستمنستر، لتوقفت المدينة كلها عن الحركة.

وفي الأسابيع التالية، بعد أن تنتهي صلاحية القضبان التي تحافظ على نظافة نهر التايمز من مياه الصرف والتلوث الناتج عن مصانع الغاز والأعمال الكيماوية، كان الماء ليرتد إلى حالة تخمُّر مرضي كريبه الرائحة.



كانت الأسماك لتطفو على السطح ميتة ومتعفنة، وكانت المخلفات البشرية، التي تتحرك ببطء في مصارف المجاري لتتجمد.

كانت الضربات العشر لتحل بالمدينة!

ولكن، إذ راح روبين يشرح هذا، لم يعكس تعبير وجه فيكتوار أي أمانة للسعادة، بل راحت بالأحرى تنتظر إليه بتعبير غريب، إذ كانت عابسة مُتجهمة، مما جعل أحشائه تضطرب بشدة.

قال بإصرار رافعاً يديه في الهواء: «إنها حرب شاملة». كيف يشرح لها؟ «إنه أسوأ شيء قد يحدث».

أجابت: «أعلم. لكن لو حدث لن يتبقى لنا ما نفعله».

رد روبين: «لن نكون بحاجة لأي شيء آخر، فكل ما علينا هو الضغط على زر واحد كي نصل إلى النهاية».

«نهاية تعلم أنهم سيتجاهلوننا؟ لو سمحت يا روبين».

«ما البديل إذا؟ هل نُضعف أنفسنا؟».

«بل نمنحهم مهلة ونجعلهم يرون العواقب».

«ماذا سيرون أكثر من هذا؟». لم يقصد الصراخ، فتنفّس بعمق وقال: «أرجوك يا فيكتوار، أرى أننا بحاجة للتصعيد والإلا...».

فقالت بنبرة اتهام: «أظنك تريده أن ينهار. أظنك تراه ثأراً شخصياً، إذ تريد رؤيته ينهار».

«ولم لا؟».

كانا قد تشاحنا بهذا الأسلوب من قبل. كان شبعا أنطوني وجريفين يتراءيان بينهما، أحدهما مسوق بالاعتقاد أن العدو سيتصرف بعقلانية من يراعي مصلحته الخاصة على الأقل، إن لم يكن الإيثار، والآخر مسوق أقل بالاعتناع، وأقل بالغاية، وأكثر بالغضب.



قالت فيكتوار وحنجرتها تنبض: «أعلم أن الأمر مؤلم. أعلم أن المضي قدماً مستحيل، لكن لا ينفع أن يتمثل هدفك في اللحاق برامي».

ثم ساد الصمت. كان روبين يفكر في إنكار هذا، لكن لم يكن هناك جدوى في الكذب على فيكتوار أو على نفسه.

قال بصوت مُتهذِّج: «ألا تتألمين عالمة بما فعلوا ولرؤية وجوههم؟ لا أتخيل عالماً نتعايش فيه معهم. ألا يمزقك هذا من الداخل؟».

فصرخت: «بالطبع يمزقني، لكنه لا يبرر محاولة إنهاء الحياة».

«لا أحاول إنهاء حياتي».

«ماذا تظنه سيحدث لو انهار هذا الجسر؟ ماذا تظنهم سيفعلون بنا؟».

فسألها: «ماذا ستفعلن أنت؟ هل ستنتهين الإضراب أم تفتحين البرج؟».

أجابت: «هل ستوقفني لو حاولت؟».

راح الاثنان يحدِّقان إلى السجل دون أن يتحدث أي منهما إلى الآخر. لم يرغباً في خوض هذه المحادثة خوفاً مما قد تتكشف عنه. لم يكن أي منهما ليتحمَّل المزيد من الحزن.

وأخيراً، إذ لم يستطع روبين تحمُّل الأمر، فاقترح: «لنعمل تصويتاً. لا يمكننا إنهاء الإضراب هكذا، إذ ليس الأمر متروكاً لنا. يجب ألا نُقرِّر يا فيكتوار».

هبط كتفا فيكتوار، ورأى حزناً كبيراً على وجهها، ثم رفعت ذقنها، وللحظة، ظن أنها قد تطيل الجدل، لكن كان كل ما فعلته هو الإيذاء.

انتهى التصويت بفارق بسيط لصالح روبين، إذ احتجَّت فيكتوار والأساتذة. أما الطلاب فقد وافقوا، إذ اتفقوا مع روبين أنه كان يجب عليهم دفع البرلمان نحو نقطة الانهيار، لكنهم لم يكونوا متحمسين للأمر. ضمَّ إبراهيم وجوليانا أذرعهما على صدريهما أثناء التصويت كمن يشعر بانزعاج من الفكرة.



وحتى يوسف الذي كان يجد متعة كبيرة في مساعدة روبين على كتابة منشورات تهديدية تُرسل إلى لندن بدا شاردًا مُنكسرًا وهو ينظر إلى قدميه.

قال روبين: «قُضِيَ الأمرُ إذاً». لقد انتصر. بيد أنه لم يستشعر طعم النصر، ولم يستطع النظر في عيني فيكتوار.

سأل الأستاذ شاكرًا فارتني: «متى يُنْفَذُ هذا؟».

أجاب روبين: «يوم السبت، فالتوقيت رائع».

«لكن البرلمان لن يخضع قبيل السبت».

«يُفترض إذاً أن نسمع حين ينهار الجسر».

راح الأستاذ شاكرًا فارتني ينظر حوله وكأنه يحاول قياس الأجواء الأخلاقية للمكان وقال: «هل يريحك هذا؟ سيلقى عشرات البشر حتفهم، فهناك حشود بأسرها تُحاول ركوب قوارب في جميع الأوقات كل يوم، فماذا يحدث حين...».

قال روبين: «ليس هذا قرارنا، بل قرارهم. إنه تقاعُس، بل قتل عن طريق السماح بالموت، فلن نلمس قضبان الرنين وسينهار من تلقاء نفسه».

قال الأستاذ شاكرًا فارتني: «تعرف جيدًا أن هذا لا يهم. لا تقلل من شأن الأخلاق. يُعد سقوط جسر وستمنستر قرارك، لكن الأبرياء لا يستطيعون التحكم في أهواء البرلمان».

رد روبين: «لكن يجب على حكومتهم أن تحذرهم. أليس هذا واجب البرلمان؟ في الوقت الحالي، لا نملك خيار التهذيب ولا الرقي. أقر أنها وسيلة عنيفة بلا تمييز، لكن الظروف دعت لهذا. لا أسمح لك بتحميلي الذنب الأخلاقي». ثم ابتلع ريقه وأردف: «لا أسمح لك».

قال الأستاذ شاكرًا فارتني بإصرار: «أنت السبب القريب. يمكنك إيقاف هذا».



رد روبين بإصرار: «لكن هذه هي حيلة الشيطان تحديداً، فهكذا يعمل الاستعمار، إذ يقنعنا بأن عواقب المقاومة هي مسؤوليتنا وحدنا، وأن الخيار غير الأخلاقي يكمن في المقاومة، لا في الظروف التي فرضتها».

«مع ذلك، توجد حدود لا يمكنك تخطيها».

«حدود؟ لو سرنا وفقاً للقواعد، لانتصروا بالفعل».

قال الأستاذ شاكر فارتي: «تحاول الانتصار بمعاينة المدينة، المدينة بأسرها وجميع من فيها - الرجال، والنساء، والأطفال. هناك أطفال مرضى لا يستطيعون الحصول على دوائهم، وأسر بأكملها بلا دخل ولا مصدر للطعام. هذا أكثر من مجرد تكدير لهم، إنه تهديد بالموت».

رد روبين بإحباط: «أعلم. هذا هو الهدف».

حدج كل منهما الآخر بنظرة غضب، وهنا رأى روبين أنه فهم الطريقة التي كان جريفيين يراه بها في وقت ما. كان هناك نقص في الشجاعة وإحجام عن المضي بالأمر إلى أقصى مدى. كان العنف هو الشيء الوحيد الذي يجبر المستعمر على التفاوض، بل كان العنف هو الخيار الوحيد. كانت البندقية موجودة على الطاولة تنتظر من يلتقطها. لِمَ كانوا في غاية الخوف من التطلع إليها؟

وقف الأستاذ شاكر فارتي وقال: «لا أستطيع اتباعكم في هذا الطريق».

قال روبين على الفور: «إدًا، يجب أن تترك البرج، فسيساعدك هذا في إراحة ضميرك».

«أرجو أن تستمع لصوت العقل يا سيد سويفت...».

رفع روبين صوته رغم ما يشعر به من طنين في أذنه: «أفرغ جيوبك، ولا تأخذ أي شيء معك، لا فضة ولا سجلات، ولا ملاحظات دونتها بنفسك». وظل ينتظر من يقاطعه، ولفيكتوار أن تتدخل وأن تخبره بأنه كان



مخطئًا، لكن أحدًا لم يتحدث، فاعتبر الصمت موافقة ضمنية. تابع روبين: «ولو غادرت، فلن تعود مرة أخرى».

فقال الأستاذ شاكر فارتي محذرًا: «لا سبيل للنصر هنا، فسيجعلهم هذا يكرهونكم فحسب».

رد روبين بسخرية: «يكرهوننا بالفعل إلى أقصى حد».

لكن، لم يكن هذا حقيقياً. لم يكن البريطانيون يكرهونهم، إذ كانت الكراهية مرتبطة بالخوف والسخط، وكان كلاهما يتطلب رؤية الخصم باعتباره كائنًا مستقلًا أخلاقياً وأهلاً للاحترام والمنافسة. كانت نظرة البريطانيين للصينيين استعلانية متجاهلة. بيد أنها لم تكن نظرة كراهية. ليس بعد.

كان ذلك ليتغير بعد سقوط الجسر.

لكن روبين ظن أن استحضار الكراهية قد ينفع، فقد تجبر الكراهية على الاحترام، وقد تجبر الكراهية البريطانيين على النظر إليهم في أعينهم دون أن يروا شيئاً، بل شخصاً. كان جريفيين قد أخبره بأن العنف يُصيب النظام بصدمة لن ينجو منها.

فقال: «أوديرينت دوم ميتوانت.* هذا هو طريقنا للنصر».

قال الأستاذ شاكر فارتي: «هذا كاليجولا. هل تستحضر كاليجولا؟».

«حقق كاليجولا هدفه».

«لقد أُغتيل كاليجولا».

هز روبين كتفيه دون أدنى إبداء للضيق.

قال الأستاذ شاكر فارتي: «تعلم أن أكثر المبادئ السنسكريتية التي يُشاع سوء فهمها هو أهيزما أي اللا عنف».

* ما داموا خائفين، فدعهم يكرهون.



رد روبين: «لست بحاجة إلى محاضرة يا سيدي». لكن الأستاذ شاكرافارتي قاطعه: «يعتقد الكثيرون أن أهيزما تعني سلمية مطلقة وأن الهنود شعب ضعيف منقاد يخضع لأي شيء. لكن في أنشودة الرب، توجد استثناءات للحرب العادلة، تلك الحرب التي يُستخدم فيها العنف كآخر حل والتي تُشن لا من أجل مكسب أناني ولا دافع شخصي، بل بدافع الالتزام بقضية عظيمة». ثم هز رأسه وأضاف: «هكذا برّرت هذا الإضراب يا سيد سويفت، لكن ليس ما تفعلونه دفاعًا عن النفس، بل تحوّل إلى ضغينة. إن عنفك لشيء شخصي، إنه انتقامي، ولا أستطيع دعم هذا».

راح حلق روبين ينبض وقال: «فلتأخذ قارورة دمك وتغادر يا سيدي».

فحصه الأستاذ شاكرافارتي للحظة، وأوماً، ثم بدأ يفرغ محتويات جيوبه على المنضدة الوسطى. كانت عبارة عن قلم رصاص، ودقتر، وقالبي فضة خاليين.

راح الجميع يُراقبه في صمت.

شعر روبين بانزعاج مفاجئ، فقال بحدّة: «هل يريد أي شخص أن يقدم شكوى؟».

لم ينبس أحد ببنت شفة، فوقفت الأستاذة كرافت وصعدت الدرج. وبعد لحظة، انضم إبراهيم إليها، ثم جوليانا، فالباقون حتى لم يتبق سوى روبين وفيكيتوار واقفين في الردهة يُراقبان الأستاذ شاكرافارتي وهو يسير بخطى واسعة نحو الدرجات الأمامية متجهًا إلى المتاريس.



الفصل التاسع والعشرون



وكانَّ صراخ ماسحي المداخل شدَّوا،
وكانَّ كل دار عبادة مُسودة تثير رُعبًا.
يتنهد الجنود البائسون أَلَمًا،
فيريق تنهدهم على جدران القصر دَمًا.

«لندن» ولیم بلیک

عُشيت الكآبة البرج بعد رحيل الأستاذ شاكرا فارتی.

في الأيام الأولى للإضراب، كانوا أكثر انشغالا بظروفهم من أن ينتبهوا للخطر الذي كان يحيق بهم، إذ انشغلوا بكتابة المنشورات، والسجلات، والأبحاث، وتقوية المتاريس. كان كل شيء بالغ الضخامة ومؤلفًا للقلوب. كانوا سعداء بصحبة بعضهم. كانوا يتحدثون مَلِيًّا في الليل، ويتعارفون، ويتعجبون من تشابه خلفياتهم. كانوا جميعًا قد اجتثوا من أوطانهم في سن مبكرة، وألقي بهم في إنجلترا، وأمروا إما بالنجاح وإما بالترحيل. ومن ثم، كان معظمهم أيتامًا قُطعت علاقاتهم كافة ببلادهم عدا علاقة اللغة*.

ثم انتهت استعدادات البداية باضطرابها وحلَّت محلها ساعات من الكآبة والضيق. لقد تهيأت جميع الظروف وانكشفت جميع الأسرار. لم تعد لديهم

* لكن، كان هذا يمثل جزءًا من عبقرية بابل. فبعزل أولئك والتشويش عليهم بالمقررات كي لا يجدوا فرصة لإقامة روابط خارج دفعاتهم، انقطعت كل سبل الاتحاد وجعلتهم يتوهمون أنهم وحدهم ضحايا مكانهم.



أي تهديدات عدا ما صرخوا به من فوق أسطح المنازل. ولم يعد أمامهم سوى الوقت الذي صار يتناقص ويمضي نحو الانهيار الحتمي.

كانوا قد أصدروا آخر إنذاراتهم وأرسلوا منشوراتهم. كان جسر وستمنستر سيسقط في غضون سبعة أيام، إلا إذا... إلا إذا...

خلف هذا القرار مرارة في نفوسهم. لقد قالوا كل ما يقال، ولم يرغب أحد في التطرق إلى عواقب الأمور. كان التفكير مليًا محفوفًا بالمخاطر، ففي معظم الأحيان، كانوا يتفرقون في مختلف أرجاء البرج للقراءة، أو البحث، أو عمل أي شيء لإضاعة الوقت.

كان إبراهيم وجوليانا يقضيان جميع ساعات اليقظة معًا، وفي بعض الأحيان، كان الباقيون يتكهنون ما إذا كان الاثنان قد وقعا في الحب، لكنهما وجدا أنهما لن يستطيعا إيجاد أرضية مشتركة تجعلهما يفكران في المستقبل، وإلام ستؤول الأمور، ما جعلهما في حالة حزن شديد. كان يوسف يؤثر العزلة، وكانت ميجانا تتناول الشاي مع روبين وفيكتوار بين الحين والآخر، وكانوا يتبادلون القصص حول معارفهم المشتركين، فقد تخرجت مؤخرًا وكانت مقربة من كل من فيمال وأنطوني، ولكن بمرور الأيام، بدأت تنطوي هي الأخرى. وفي بعض الأحيان، كان روبين يتساءل ما إذا كانت ويوسف قد ندما على قرار البقاء.

كانت الحياة في البرج وحياة الإضراب جديدة ومثيرة تمامًا في البداية، ثم لم تلبث أن اتخذت طابعًا روتينيًا ومملًا. كانت الأمور صعبة في البداية. كانت قلة خبرتهم بكيفية ترتيب مساكنهم أمرًا مضحكًا ومُحرجًا في الوقت نفسه. لم يعرف أحد مكان المكناس، فظلت الأرضيات متسخة ومغطاة بالفتات. لم يكن أحد خبيرًا في الغسيل، فحاولوا إنتاج زوج متطابق مستخدمين كلمة بليتش وكلمات مشتقة من جذر اللغة الهندو أوروبية البدائية بهيل (أي الأبيض الناصع، أو الإضاءة، أو الاحتراق)، لكن كل ما أدى له هذا هو تحويل ملابسهم للون الأبيض وجعلها شديدة الحرارة مؤقتًا.



ظَلُّوا يجتمعون لتناول الوجبات ثلاث مرات يوميًا في الموعد المحدد، وذلك بهدف تسهيل عملية توزيع الحصص. وسرعان ما تبددت مقتنياتهم الفاخرة، فبعد انتهاء الأسبوع الأول، نفدت القهوة، وصاروا أقرب لنفاد الشاي باقتراب الأسبوع الثاني. وقد حلَّوا تلك المشكلة بتخفيف الشاي أكثر وأكثر حتى صاروا يشربون شيئاً شبيهاً بالماء العكر! كما لم يعد هناك لبن ولا سكر. احتجّت ميجانا بأنه يجب عليهم الاستمتاع بآخر بضع ملاعق شاي في كوب ذي نكهة مركزة، لكن الأستاذة كرافت احتجّت بمرارة.

قالت: «يمكنني الاستغناء عن اللبن، لا عن الشاي».

كانت فيكتوار سندًا لروبين أثناء ذاك الأسبوع.

كان يعلم أنها غاضبة منه، قضيا أول يومين في صمت مُمتعض، لكنهما كانا بحاجة لمواساة بعضهما. كانا يقضيان عدّة ساعات بجوار نافذة الطابق السادس جالسين ملتصقين معًا على الأرضية. لم يصرّ على رأيه، ولم توجه له بدورها أي اتهامات، فلم يعد هناك مجال للكلام، إذ حُدِد المسار.

وفي اليوم الثالث، صار الصمت لا يُطاق، فبدأ يتكلمان في أمور تافهة أولاً، ثم في كل ما كان يخطر ببالهما. وفي بعض الأحيان، كانا يعودان بالذاكرة إلى بابل والسّنوات الذهبية التي سبقت انقلاب كل شيء رأسًا على عقب. وفي أحيان أخرى، كانوا يتجاهلون الواقع وينسون كل ما حدث ويثرثرون عن أيام الكلية كأن أهم مسألة يتطرّقون إليها تمثلت فيما إذا كان كولين ثورنهيل والتوأم شارب سيتعاركان بالأيدي حول أخت بيل جاميسون الجميلة التي تزورهما.

واستغرق الأمر أربعة أيام قبل أن يتمكنوا من التحدث عن ليتي.

فتح روبين الموضوع. كانت ليتي جاثمة في ذاكرتهم كجرح مُتقيح لم يجروا على لمسه، كما لم يستطع مواصلة الالتفاف حوله بعدها، بل أراد أن يستأصل الفساد بسكين مُلتهبة.



فسأل: «هل تظنّين أنها كانت ستتقلب علينا؟ هل تظنّين أن ما فعلته كان صعباً عليها؟».

لم تكن فيكتوار بحاجة للسؤال عمّن كان يقصد، بل أجابت: «كان الأمر تدريباً على التفأل». ثم قالت بعد صمت قصير: «أعني حبي لها. كنت أظنّ أنها ستتجاوب. أحياناً كنت أحمق إلى عينيها وأرى فيها صديقة وفية، ثم ما إن تقول شيئاً أو تنقوه بتعليق عابر حتى تعود الأمور إلى نقطة الصفر لنبدأ حلقة مفرّغة من جديد. كان الأمر أشبه بتعبئة الماء في غُرْبال، فلم يدم شيء».

«هل تعتقدين أنه كان بإمكانك قول أي شيء يغير رأيها؟».

أجابت فيكتوار: «لا أدري. هل تظنّ؟».

راح عقله يفعل ما اعتاده، ألا وهو استحضار حرف صيني بدلاً من الفكرة التي كان يخاف منها. «حين أفكر في ليتي، يحضّرني الحرف كسي. رسمه لها في الهواء □ والتي يشاع استخدامها لتعني «شرخ أو صدع». لكنها تعني في النصوص الصينية القديمة ضغينة أو مشاحنة. ووفقاً للشائعات، كان الإمبراطور تشنج يستخدم قالباً منقوشاً بالزوج المتطابق كسي-فيود مُنبّئاً أسفل جدارية حجرية خاصة بالنسب للإمبراطوري. وحين كانت الشقوق تظهر، كانت تكشف ما إذا كان هناك شخص يتآمر ضده». ابتلع ريقه وقال: «أظنّ أن هذه الشقوق كانت دائمة الوجود. لا أظنّ هناك أي شيء يمكن عمله حيالها. وكان كل ما تمتصه هو الضغط، ما يجعل الشيء كله ينهار».

«هل تظنها كانت ناقمة علينا هكذا؟».

انتظر وراح يُدقق في قوة كلماته وتأثيرها، ثم أجاب: «أظنها قتلته عمداً».

تأملته فيكتوار للحظة طويلة ثم أجابت: «لماذا؟».

تابع بغلظة: «أظنها كانت تريد موته. كان ذلك واضحاً على وجهها، إذ لم تكن خائفة، بل كانت تعرف ما تفعله. كان من الممكن أن تُصوّب على أي منّا، لكنها كانت تريد قتل رامي».



«روبين...».

قال: «تعلمين أنها كانت تحبه». راحت الكلمات تخرج من فمه كالإعصار، فانفجرت ينباع الغضب ولم يعد هناك سبيل لإيقاف الطوفان! كان يجب أن يبوح بالأمر مهما كان مُحبطاً ومأساوياً، وكان عليه أن يُلقي حمل شكوكه الكريهة على شخص آخر. «لقد أخبرتني في ليلة الحفل التذكاري. لقد قضت ساعة تبكي لأنها أرادت الرقص معه، لكنه حتى لم ينظر إليها، لم ينظر إليها على الإطلاق، ولم...» وهنا كان عليه أن يتوقّف، إذ كادت دموعه تخنقه.

أمسكت فيكتوار معصمه بقوة وقالت: «أوه يا روبين!».

رد: «تخيلي ما يحدث حين يرفض رجل أسمر البشرة فتاة إنجليزية. لم تتحمّل ليتي هذا. لقد شعرت بالإهانة». ثم مسح عينيه بكُمّه وأردف: «فقتلته».

ظَلَّت فيكتوار صامئة لفترة طويلة، ثم راحت تتطلع إلى المدينة المُتداعية وهي تفكر. وفي النهاية أخرجت قصاصة ورق مُجعّدة من جيبها ووضعتها في يده وقالت: «يجب أن تأخذ هذه».

فرد روبين الورقة التي كانت صورة فوتوغرافية قديمة لمجموعتهم، ثم ثناها وفردها عدة مرات، ما جعل خطوطاً بيضاء رفيعة تتشابك مع الصورة. لكن وجوههم كانت مطبوعة بشكل شديد الوضوح. ظهرت ليتي في الصورة وهي تُحَقِّق بغضب، ولكن بعد مرور كل هذا الوقت، بدا وجهها مُجهّداً بعض الشيء، وكان رامي واضعاً يديه بخُنْوَ على كتفيها وكتفي فيكتوار. كما أظهرت الصورة ابتسامة فيكتوار الباهتة وذقنها المنخفض وعينيها المرفوعتين اللامعتين، وروبين بخجله المُربك، وابتسامة رامي المُشرقة.

تنهد روبين، وانقبض صدره كأن أضلعه تُطبق عليه وتعصر قلبه. لم يكن مُدرِجاً أنه قد يتألم إلى هذا الحد.

أراد أن يُمرّقها إرباً، لكنها كانت التذكار الوحيد المتبقي له من رامي.

«لم أكن أعلم أنكِ احتفظت بها».



قالت فيكتوار: «بل ليتي هي من فعلت. لقد وضعتها في إطار واحتفظت بها في غرفتها، وقد أخذتها قبل حفل الحديقة بليلة، ولا أظنها لاحظت».

«نبدو صغارًا جدًا». كان متعجبًا من تعبيرات وجوههم، إذ بدا الأمر وكأن عمراً بأكمله قد مضى منذ وقفوا لالتقاط الصورة. «نبدو كأطفال».

فنظرت فيكتوار إلى أسفل مُتحيّسة بأصابعها ملامح وجوههم الباهتة وقالت: «كنا سعداء وقتئذ. لقد فكرت في إحراقها كي أشفي غليلي. وحين كنا في قلعة أوكسفورد، لم أنفك أخرجها وأدق في ملامحها مُحولة رؤية... رؤية ذاك الشخص الذي كان ليفعل بنا هذا. لكني كلما نظرت أجد نفسي... أشعر بالحزن من أجلها. قد يكون هناك لبس في الأمر، لكن من وجهة نظرها، لا بد أنها من فقدت كل شيء. تعلم أنها كانت تعاني الوحدة، وكل ما كانت تريده هو مجموعة من الأصدقاء الذين يفهمون ما مرّت به، وقد ظنّنت أنها وجدت هذا فينا». وهنا اضطربت أنفاسها وقالت: «وأعتقد أنها شعرت بالغدر مثلنا تمامًا بعد أن انهار كل شيء».

لاحظ الجميع أن إبراهيم يقضي وقتًا طويلًا في الكتابة في دفتر جلدي. حين سأله، أجاب: «إنه تأريخ لما حدث داخل البرج، وكل ما قيل، وكل ما اتُّخذ من قرارات، وكل ما دعمناه. هل تود المساهمة؟».

سأله روبين: «باعتباري مؤلفًا مُشاركا؟».

«بل باعتباره حوارًا. أخبرني بأفكارك وسأكتبها».

«ربما غداً». كان روبين يشعر بتعب شديد، ولسبب ما، بثّ فيه منظر الصفحات المملوءة بالخربشة الرعب.

قال إبراهيم: «أريد أن أتحري الدقة فحسب. حصلت على معلومات مفصّلة من الأستاذة كرافت والخريجين. خطر ببالي فحسب- لو ساءت الأمور...»

قالت فيكتوار: «أتظننا سننهزم؟».



أجاب إبراهيم: «أعتقد أن أحدًا لا يعلم إلام سيؤول الأمر، لكني أعلم ما سيقولونه عنا لو انتهت الأمور على نحو سيئ. حين مات أولئك الطلاب عند المتاريس في باريس، دعاهم الجميع أبطالاً، لكن لو لقينا حتفنا هنا، فلن يعتبرنا أي شخص شهداء. أنا حريص على بقاء أثر لنا لا يظهرنا كأشرار». وهنا نظر إبراهيم إلى روبين وقال: «لكن هذا المشروع لا يستهويك، أليس كذلك؟».

هل كان يُحَقِّق بغضب؟ أسرع روبين بتغيير تعبير وجهه وقال: «لم أقل هذا».

«تبدو نافرًا».

«لا، آسف، أنا فقط...» لم يعرف روبين سبب عدم قدرته على التعبير عن نفسه. «لعل فكرة اعتبارنا تاريخًا لا تروق لي، إذ لم نترك بصمة على الحاضر بعد».

رد إبراهيم: «بل تركنا بصمتنا ووُضِعَت سيرنا في كتب التاريخ بالفعل سواء بالخير أو بالشر. أليست هذه فرصة لتعديل مسار الرواية؟».

فسألت فيكتوار: «ما نوع الأحداث؟ هل هي إشارات عامة أم ملاحظات شخصية؟».

أجاب إبراهيم: «كل ما تودين قراءته على شاكلة ما تناولته على الفطور، وكيف تقضين وقتك. لكني بالطبع أولي مزيدًا من الاهتمام للطريقة التي وصلنا بها إلى هنا».

قال روبين: «لعلك تريد معلومات عن هرمس».

«بل أريد كل ما تهتمون بأن تحكوه لي».

عندئذ، شعر روبين بشيء ثقيل يجثم على صدره، وأراد أن يتكلم ويبوح بكل ما كان يعرفه كي يُحَفِّظ مكتوبًا. بيد أن الكلمات ماتت على شفتيه، ولم



يعرف كيف يوضح أن المشكلة لم تتمثل في وجود الحكاية في حد ذاتها، بل في عدم كفايتها، وأنها كانت تدخلاً ضئيلاً في السجلات، ما جعله غير مُجدٍ. كانت هناك أشياء كثيرة تُحكى. لم يعرف من أين يبدأ، إذ لم يَجُلْ بخاطره من قبل حجم الفجوة التي يشغلونها في سجلات التاريخ، ولا في وطأة السرد المُهين الذي يواجهونه، وإذ فعل، بدا الأمر غير قابل للتجاوز. كان السجل باهتًا للغاية، فلم توجد لهرمس أي حكاية سوى هذه. لقد عملت هرمس بطريقة الجمعيات غير الشرعية ماحية تاريخها حتى أثناء تغييرها تاريخ بريطانيا، فلم يكن أي شخص ليحتفي بإنجازاتهم أو حتى يعرف شيئاً عن هذا الكيان.

تذكر مكتبة أولد التي دُمِرت وهُدِمت، وكل تلك الكميات من الأبحاث التي طُمِرت وحُجبت إلى الأبد، ثم فكر في ذلك الطرف الذي أكلته النيران، وفي عشرات من أعوان هرمس الذين لم يتم الاتصال بهم والذين قد لا يعرفون ما حدث على الإطلاق، كما فكر في كل تلك السنوات التي قضاها جريفيين بالخارج مُقاومًا، ومُكافحًا، ومُحتجًا على نظام كان يفوقه قوة. لم يكن روبين ليعرف كل ما فعله أخوه وبما عانى. كان الكثير من حكايات التاريخ قد مُجِيت.

قال: «يخيفني الأمر فحسب. لا أريد أن نُصوّر بهذه الطريقة».

نظر إبراهيم إلى دفتره ورد: «إدًا، فلنُدوّن شيئاً منه».

وفيما هي تجلس، قالت فيكتوار: «إنها فكرة صائبة. سأُشارك معك. اسألني عن أي شيء ولنرى ما إذا كان باستطاعتنا تغيير بعض أفكار مؤرخي المستقبل».

قال إبراهيم: «لعلهم يتذكروننا كشهداء أو كسفورد، ولعلهم يبنون لنا نصبًا تذكاريًا».

رد روبين: «لقد حُوكم شهداء أو كسفورد بتهمة التجديف وأُعدِموا حرقًا».

قال إبراهيم باهتمام: «آه، لكن، أليس توجه جامعة أو كسفورد تقدميًا؟».



وفي الأيام التالية، راح روبين يتساءل ما إذا كان شعورهم في تلك الليلة هو إحساسًا مُشترَكًا بالفناء أقرب لما يشعر به الجنود في الخنادق أثناء الحرب، إذ كانت هناك حرب مُندلعة في الشوارع. لم يكن جسر وستمنستر قد انهار بعد، لكن الحوادث توالى، وحالات العجز ازدادت سوءًا. لقد ضاقت لندن ذرعًا، وطالب العامة بالثأر واتخاذ إجراءات بشكل أو بآخر. ولأن البرلمان لم يكن ليصوت بالرفض على غزو الصين، زادوا من الضغط على الجيش.

وبدا الأمر كأن جنود الحراسة تلقوا تعليمات بترك البرج، لكن سُمح لهم بالتصويب على طلاب فرادى متى أُتيحت لهم الفرصة. توقف روبين عن الخروج بعد أن قطع وابل من الرصاص مُقابلة بينه وبين إيبيل جودفيلو. وذات مرة، تحطمت نافذة بجوار رأس فيكتوار أثناء نبشها الأرفف بحثًا عن كتاب، فانبطح الجميع أرضًا وزحفوا على أيديهم وركبهم إلى القبو حيث كانت الجدران لتحميهم من الجوانب كافة. وفي وقت لاحق، وجدوا رصاصة قد استقرت في الرف خلف المكان الذي كانت تقف فيه مباشرة.

سألت الأستاذة كرافت: «كيف حدث هذا؟ لا يمكن أن يخترق شيء هذه النوافذ أو تلك الجدران».

راح روبين يفحص الرصاصة مسوقًا بالفضول، فوجدها سميكة وشديدة البرودة، فرفعها في الضوء ليرى خيطًا رفيعًا من الفضة يُبطن قاعدة غطائها.

«أظن أن الأستاذ بلاي فير قد ابتكر شيئًا».

وهكذا ازدادت الأخطار. لم يكن بابل حَصِينًا، ولم يعد هذا إضرابًا، بل صار حصارًا. لو اخترق الجنود المتاريس، ولو وصل الجنود المشهورون اختراعات الأستاذ بلاي فير إلى الباب الأمامي، لانتهى إضرابهم. كانت الأستاذة كرافت والأستاذ شاكرافارتي قد استبدلا فخاخ الأستاذ بلاي فير في أول ليلة لهم في البرج، لكن رغم هذا، أقرّ الجميع بأنها لم تكن بكفاءة فخاخ الأستاذ بلاي فير، ولم يكونوا واثقين من متانة دفاعاتهم.



قالت فيكتوار مُقترحة: «لنبتعد عن النوافذ من الآن فصاعداً».

كانت المتاريس مُتماسكة في ذلك الوقت، لكن المناوشات باتت أكثر ضراوة بالخارج. في البداية، شن مضربو إيبيل جودفيلو حرباً دفاعية من وراء المتاريس، فدعموا أبنيتهم وأداروا خطوط الإمداد دون أن يستقرُّوا جنود الحراسة. لكن الشوارع صارت مُلطَّخة بالدماء، إذ راح الجنود يُطلقون النار بانتظام على المتاريس التي كانت تقصفهم بدورها. كانوا يصنعون أصوات حارقة بالقماش، والزيت، والزجاجات ويُلقون بها على معسكرات الجيش. وكانوا يتسلَّقون أسطح مكتبة رادكليف وبودلي، ومن هناك كانوا يُلقون بالحصى ويسكبون الماء المغلي على القوات بأسفل.

لم يكن الأمر ليتوافق على هذا النحو في حرب المدنيين ضد الجنود، فنظرياً، ما كان يجب أن يستمروا أسبوعاً، لكن الكثير من رجال إيبيل كانوا مُحاربين قدامى من أولئك الذين سُرحوا من الجيش الذي تفرَّق بعد هزيمة نابليون. كانوا يعرفون أين يجدون الأسلحة النارية وما يفعلون بها.

كان المترجمون يساعدونهم. كوَّنت فيكتوار التي كانت تقرأ أدبيات التمرد الفرنسية بحماس الزوج المُتشابه إيلان-إنرجي الذي كان آخره يُوحي بحماس ثوري فرنسي خاص والذي كان يمكن إرجاعه إلى الكلمة اللاتينية لانسيا والتي تعني «حربة». وقد كان يحمل في طياته ارتباطاً بالرمي والسرعة، كما كان هذا التشويش الكامن في الكلمة الإنجليزية إنرجي هو ما ساعد قذائف المتاريس على الطيران لمسافة أبعد، وإصابة الأهداف على نحو أدق، وإحداث تأثير أكبر من الطوب وحصى الرِّصف.

لقد ابتكروا القليل من الأفكار الجامحة، بيد أنها لم تأتِ بنتيجة. كانت كلمة سديوس مُشتقة من اللاتينية سيديوسير والتي تعني «يضل» والتي نشأ عنها تعريف نهاية القرن الخامس عشر «إقناع أحدهم بالتخلي عن ولائه». بدا ذلك مُبشِّراً، لكنهم لم يستطيعوا إيجاد وسيلة لتحقيق ذلك دون الدفع بالفتيات نحو الخطوط الأمامية، وهو أمر لم يجرؤ أي شخص على اقتراحه ولا إلياس رجال إيبيل زي النساء، وهو ما بدا غير ناجح. كما كانت هناك الكلمة الألمانية



ناختمار والتي تُستخدم نادرًا في الوقت الحالي محل كلمة «كابوس» والتي كانت تُشير كذلك إلى كيان شرير يجثم على صدر النائم. وأثبتت التجربة أن هذا الزوج المتطابق جعل الأحلام المزعجة أكثر سوءًا. بيد أنه بدا غير قادر على توليدها في المقام الأول.

وذات صباح، دخل إيبيل الردهة ومعه عدة طرود طويلة ملفوفة بالقماش وسأل: «هل يستطيع أي منكم التصويب؟».

تخيل روبين تصوير أي من تلك البنادق على شخص حي والضغط على الزناد. لم يكن مُتأكدًا ما إذا كان يستطيع عمل ذلك، فقال: «ليس جيدًا». قالت فيكتوار: «ليس بهذه البنادق».

رد إيبيل: «أدخلوا بعض رجالي إدا. لديكم أفضل نقطة مراقبة في المدينة، ومن السيئ ألا تستخدموها».

صمدت المتاريس يومًا تلو الآخر، ووجد روبين أنه من المُذهل أنها لم تتحطم تحت وطأة طلقات المدافع المُستمرة، لكن إيبيل كان واثقًا بأنها قد تصمد إلى ما لا نهاية ما داموا يواصلون جمع المواد الجديدة لتقوية الأجزاء المُتضررة.

قال مُوضِّحًا: «يُعزى هذا لأننا بنيناها على شكل رقم 7، وكانت قذائف المدافع تُصيب المناطق البارزة، وهو ما يزيد المواد تماسكًا». كان روبين مُرتابًا وقال: «لكنها لا تستطيع الصمود للأبد».

«ربما لا».

فسأل روبين: «فماذا سيحدث لو جاءوا أفواجًا؟ هل ستهربون، أو ستبقون وتقاومون؟».

صمت روبين للحظة ثم قال: «كان الثوار يتقدمون نحو الجنود فاتحين صدورهم ويصرخون فيهم أن اضربوا لو كنتم تجرؤون عند المتاريس الفرنسية».



«هل هذا صحيح؟».

«أحيانًا. كانوا أحيانًا يقتلونهم بمجرد أن يروهم، لكن في أحيان أخرى- حسنًا، فكر في الأمر. قد تنظر لأحدهم في عينيه، وهذا الشخص في عُمرِكَ أو أصغر، ومن المدينة نفسها، بل وقد يكون من الحي نفسه، ولعلك تعرفه أو ترى في وجهه شخصًا تعرفه، فهل ستضغط على الزناد؟».

قال روبين مُعترفًا: «لا أظن» رغم أن صوتًا خافتًا رنَّ همسًا في عقله: فعلتها ليتي.

قال إيبيل: «لضمير كل جندي حدود. أظنهم سيحاولون القبض علينا. لكن هل سيطلقون النار على أهل المدينة ويرتكبون مجزرة؟ لست مُتأكدًا. لكننا سنسعى لإحداث هذا الانقسام. سنرى ما يحدث».

سينتهي كل شيء قريبًا. هكذا حاولوا تطمين أنفسهم ليلاً حين تطلّعوا إلى المدينة ورأوا أضواء المشاعل ونيران المدافع مُشتعلة. كانوا بحاجة للصمود حتى السبت. لم يعد بوسع البرلمان الاستمرار في هذا الوضع أكثر من الحدّ الذي توصلوا إليه بالفعل، ولم يكن بوسعه ترك جسر وستمنستر ينهار.

كما كان هناك دائمًا هذا التصور الغريب المُتردّد عن شكل الهُدنة. هل كان يجب كتابة عقد مشروط بعفو؟ تولّى يوسف هذا الأمر، إذ راح يصيغ مسوّدّة مُعاهدة تُنقّذهم من المشنقة. وعند عودة البرج لممارسة وظيفته بشكل طبيعي، هل سيصبحون جزءًا منه؟ كيف كانت المنح الدراسية لتبدو بعد الإمبراطورية، علمًا بأن مخازن فضة بريطانيا ستنتضب تمامًا؟ لم يكونوا قد تطرقوا لتلك الأسئلة من قبل، لكن الآن، بعد أن صار مصير الإضراب على المحكّ، تمثل أملهم الوحيد في استباق الأحداث بشكل يوحى بإمكانية وقوعها.

لكن روبين لم يستطع إجبار نفسه على المُحاولة، ولم يتحمل تلك المُحادثات فكان يعتذر متى فُتحت.



فلم يكن هناك مستقبل دون رامي و جريفين، ودون أنطوني، وكاثي، وإليزي، وفيمال. وفيما يتعلق به، فقد توقف الزمن حين انطلقت رصاصة ليبي، ولم يتبقَّ أمامهم سوى مواجهة التداعيات. كان على شخص آخر أن يتحمل عواقب ما يلي، وكل ما أراده روبين هو أن ينتهي كل شيء.

وجدته فيكتوار فوق السطح جالساً وقد ضمَّ ركبتيه إلى صدره ومهتزاً بعنف مع كل طلقة رصاص. فجلست إلى جواره وقالت: «هل مللت المصطلحات القانونية؟».

أجاب: «تبدو كلعبة. إنه ضرب من السُخف وأنا أعرف أن كل هذا كان سخيّاً في المقام الأول، لكن ذلك - الحديث عن المستقبل - يبدو وهمياً».

همهمت: «يجب أن تؤمن بوجود غد أفضل، فقد آمنوا بهذا».

«كانوا أفضل منّا».

فاستندت على ذراعه وقالت: «أنت على حق، لكننا في النهاية وجدنا أنفسنا مسؤولين عن كل هذا، أليس كذلك؟».



الفصل الثلاثون



سقط جسر وستمنستر*.

* كان أهل لندن نيامًا حين انهار الجسر. كانوا غير واعين، وكما قال ووردزورث: «كان كل شيء لامعًا ومثلًا في الهواء النقي الخالي من الدخان، وكانت ترتدي وشاحًا من جمال الصباح، وكانت صامتة وذات جمال طبيعي».

وفي وقت لاحق، كان أهل أوكسفورد ليذعوا أنهم أيضًا عرفوا في لحظة انهيار جسر وستمنستر، رغم أن المسافة التي تفصل المدينتين تخطت المائة كيلومتر وعدم وجود أي مبنى شاهق يتيح رؤية لندن من تلك المسافة. وبغض النظر، ادعى عشرات الشهود - لعلّه بسبب الهلوسة أو التأثير غير المرئي لقضبان الرنين - أنهم سمعوا صوت انكساره قبل أن ينهار.

قال الأستاذ هاريسون لويس، أستاذ الفلسفة الطبيعية في مرتون كوليدج: «كان هذا الشعور الرهيب يلتهم أعصاب المرء. كان الرعب الأشد وطأة. كان المرء يعلم أن شيئًا يُوشك على الحدوث، ثم لم يلبث أن يعرف ما هو لاحقًا».

ووصف شهود العيان من لندن نفسها الحدث بأنه هدير عظيم.

قالت السيدة سارة هاريس التي تعمل في تنظيف الملابس: «وكان الحجارة تصرخ. بدت كأنها تحنُّنا على الفرار، ويعلم الله أنني سمعت صراخها».

اعلموا أن هذه المدينة اعتادت تهالك الجسور. صار جسر لندن غير قابل للاستخدام على الأقل ثلاث مرات في التاريخ - مرة بسبب الجليد وعدة مرات بسبب النار. وعلى عكس ما أشيع، لم يسقط جسر لندن بالكامل في الماء قط، بل انهارت أجزاء منه على مر العصور.

لكن جسر وستمنستر انهار.

قال السيد مونكس كريدي مُنظِّف المداخل: «كان غاية في النظافة. ففي لحظة كان معلقًا في الهواء، ثم لم يكد موجودًا».

لم يسقط دون إنذار. أفاد شهود عيان أن الأحجار راحت تُصدر أصواتًا مُجلجلة لمدة عشرين دقيقة، وهو ما منح معظم المارة فرصة للفرار إلى نهايتي الجسر. كانت باخرتان بخاريتان تعبيران أسفل قبيل بدء الهدير العظيم، وحاولت كلتاها إخلاء الجسر، واحدة بالدوران عكس الاتجاه والأخرى بالإسراع. أفضى هذا لازدحام مروري جعل الاثنتين تصطدمان بقوة، وكذا العديد من القوارب أسفل الجسر.

قال السيد مارتن جرين مُحام ووكيل قانوني: «لقد سقط كل شيء بدقة مُتناهية، كما لو كان بُوق خفي قد أطلق الأمر».

ما زال الجدل قائمًا حول عدد الضحايا، لعدم التأكد من عدد المارة على الجسر لحظة انهياره (ثلاثة



وستون على الأقل، بمن فيهم عضو البرلمان المناهض للحرب) والضحايا على البواخر بأسفل، والذين نُقُوا حتفهم في حوادث النهر اللاحقة.

قالت السيدة سو سويت ربّة منزل: «رأيت سيدة تصرّخ بجوار الضفة. كانت تستغيث بتلك الباخرة السكنية كي تأتي وتُنقذها. لكنها كانت بعيدة جداً، وما إن أقدمت على الهروب حتى سقطت الحجارة فوق رأسها».

وحين سُئِلت ما إذا كانت تظن أن المترجمين ضالعون في سقوط جسر وستمنستر، قالت السيدة سويت: «لا أظنهم فعلوا هذا، فما من إنسان ليتمكّن من هذه الفعلة. لا يمكن أن يكون هذا سوى تدبير سماوي».



الفصل الواحد والثلاثون



سَقَطَ جسر وستمنستر، واندلعت الحرب المفتوحة في أوكسفورد. وهنا احتشدوا حول آلة التلغراف منتظرين بقلق ورود أي تحديث حتى هرع أحد المسلحين من الطابق العلوي وقال وهو يلتقط أنفاسه: «لقد قتلوا فتاة».

فتبعوه إلى السطح، حيث رأى روبين بعينه المجردة هرجًا ومرجًا شمالاً في جيريكو وحشدًا يتحرك بذعر. استغرق الأمر منه بعض الوقت، إذ راح يضبط المنظار ثم انتبه أخيرًا لما كان المسلحون يوجهون أسلحتهم نحوه.

كان الجنود والعمال في متراس جيريكو قد تبادلوا إطلاق النار للتو وفقًا لرواية المسلح. لم يكن ذلك ليُفَضِّي لأي شيء، إذ كانت الطلقات التحذيرية تدوي في أنحاء المدينة في جميع الأوقات، وكانت الأطراف تتناوب إطلاق النار، ثم تتقهقر عائدة إلى المتاريس. يُفترض أن كل هذا رمزي. لكن، هذه المرة تحول الرمز إلى حقيقة مأساوية، إذ سقطت ضحية.

كشفت عدسة المنظار المكبر تفاصيل كثيرة مذهلة. كانت الضحية شابة بيضاء، وكانت شقراء جميلة. انتشرت بقعة قرمزية صارخة من الدماء المتدفقة من أحشائها على الأرض، فبدت كعلم على خلفية الحجارة الرمادية.

لم تكن ترتدي بنطالاً، إذ جرت العادة على أن النسوة اللاتي يلتحقن بالمتاريس يرتدين السراويل. أما تلك، فكانت ترتدي وشاحًا وتنورة فضفاضة. كما كانت هناك سلّة مقلوبة معلقة بذراعها اليسرى. لا بد أنها كانت في طريقها لشراء البقالة، أو لعلها كانت ذاهبة إلى بيتها لزوج، أو أبوين، أو أطفال.

نهض روبين وقال: «هل كان...»



قال المسلح الثاني: «لم نكن نحن من أطلق النار. انظر إلى الزاوية. لقد كانت بعيدة عن المتاريس. أؤكد لك أن الرصاص لم يُطلق من جانبنا».

وهنا نَدَّت صرخات من أسفل، وراحت طلقات النار تهدر فوق رؤوسهم، فهرعوا في دعر عائدين إلى الطابق السفلي حيث مخبأ البرج.

اجتمعوا في السرداب. كانوا مرتبكين وأعينهم زائغة كأطفال مذعورين تصرّفوا للتو بشكل غير لائق. كانت هذه أول ضحية مدنية تسقط عند المتاريس. كان حدثًا مصيريًا، إذ اختُرقت الخطوط الحمراء.

قالت الأستاذة كرافت: «كفى. إنها حرب مفتوحة على أرض إنجليزية. يجب أن ينتهي كل شيء».

وهنا أُثير جدل.

قال إبراهيم: «لكنه لم يكن خطأنا».

رد يوسف: «لا يهمهم ما إذا كان خطأنا، إذ نحن من بدأ...»

فسألت ميجانا: «هل نستسلم إذا؟ هل نتوقف بعد كل هذا؟».

قال روبين: «لن نتوقف». لقد فوجئ بقوة نبذة صوته، وبدا كأنه جاء من مكان بعيد عنه. بدا أكبر وأشبه بصوت غريفيين. لا بد أنه أحدث صدى، إذ صممت باقي الأصوات وشخصت جميع الأبصار نحوه في خوف، وترقب، وأمل، فأردف: «هذه هي اللحظة الحاسمة، وقد ارتكبوا حماقة». ثم طغى صوت جريان الدم على سمعه، فتابع: «ألا ترون أن المدينة كلها كانت ضدنا من قبل؟ لكن الجيش صار في حالة فوضى. لقد أطلقوا النار على أحد المدنيين، ولا رجعة في هذا. هل تظنون أن أوكسفورد ستناصر الجيش الآن؟».

أجابت الأستاذة كرافت بتردد: «لو كنت مُحققًا، فإن معنى ذلك أن الأمور ستسوء حتمًا».

قال روبين: «جيد، ما دامت المتاريس صامدة».



كانت فيكتوار تراقبه بتركيز، وكان يعلم ما تشك فيه، إذ لم يكن هذا يؤرق ضميره على الإطلاق، ولم يكن منزعاً مثل الآخرين.

حسناً، لم لا يعترف بالأمر؟ لم يكن يشعر بالخجل. كان محقاً. فأياً كانت تلك الفتاة، فقد كانت رمزاً. لقد أثبتت عدم وجود قيود على الإمبراطورية، وأن الإمبراطورية لتفعل أي شيء لتحمي نفسها. قال في نفسه: هيا. افعلها مجدداً. اقتل المزيد منهم ولطّخ الشوارع بالدماء. أرهم من تكون وأرهم أن بياض بشرتهم لن ينقذهم ها هنا. ها هنا، كان ثمة ذنب لا يُغتفر وفاعل جلي. لقد قتل الجيش هذه الفتاة، ولو أرادت أوكسفورد الانتقام، لم يكن هناك إلا طريقة واحدة للحصول عليه.

في تلك الليلة، ضجّت شوارع أوكسفورد بالعنف. بدأ القتال في أبعد أطراف المدينة، في جيريكو حيث أريقت أول دماء، ثم ما لبث أن انتشر مع ازدياد حدة الصراع في أكثر من موضع. راحت المدافع تطلق النيران دون توقف، وانتشر الصراخ والشغب في جميع أرجاء المدينة ليرى روبين في تلك الشوارع عدداً من البشر لم يتخيل أنه سيراه في أوكسفورد.

احتشد الباحثون في النوافذ مُختلسين النظرات من وراء السواتر بين رشقات نيران القناصة.

همست الأستاذة كرافت: «هذا جنون، بل جنون مُطبق».

لم تكن كلمة «إينسين» كافية للتعبير عن الأمر، ورأى روبين أن اللغة الإنجليزية عجزت عن وصف كل ما يحدث، فشرّد عقله إلى النصوص الصينية القديمة والأمثال التي كانوا يشيرون بها لسقوط الأسر وتغيرها 天翻地覆 تيان فان دي فو. سقطت السماوات، وانهارت الأرض على نفسها، وانقلب العالم رأساً على عقب. كانت بريطانيا تسفك دماء أهلها وتلتهم لحمهم، وما من شيء بعد هذا ليعود أدراجه.

وفي منتصف الليل، استدعى إيبيل روبين إلى الردهة.



قال: «لقد انتهى الأمر، إذ تقترب من نهاية الطريق».

سأل روبين: «ماذا تقصد؟ هذا جيد بالنسبة لنا، فقد استفزوا المدينة بأسرها، أليس كذلك؟».

أجاب إيبيل: «لن يدوم الأمر. إنهم غاضبون، لكنهم ليسوا جنودًا. لن يصمدوا، وقد رأيت هذا من قبل، فسوف يتقهقرون عائدين إلى بيوتهم عند الساعات الأولى من الليل، وقد وصلتني للتو رسالة من الجيش تفيد أنه بحلول الفجر، سوف يبدأون إطلاق النار على أي شخص يروونه هناك».

فسأل روبين بإحباط: «ولكن، ماذا عن المتاريس؟ ما زالت قائمة...».

قال إيبيل: «لم يتبق سوى الحاجز الأخير، ولم نعد نملك سوى هاي ستريت. وقد انتهى زمن التظاهر بالتحضر. سوف يقتحمون. لا تتعلق المسألة بهذا المبدأ، بل بتوقيته. وتظل الحقيقة أننا مدنيون ثوار، أما هم فكتيبة مدربة ومسلحة ولديها تعزيزات كافية. لو كنا لنرجع إلى التاريخ، ولو كانت هذه معركة حقيقية، فسوف نُسحق. لسنا على استعداد لتكرار بيتزلو*». وهنا تنهد إيبيل وأردف: «لم يكن لخدعة ضبط النفس أن تستمر طويلاً. أتمنى أن نكون منحناكم بعض الوقت».

قال روبين: «أظنهم لم يترددوا في إطلاق النار عليكم».

رمقه إيبيل بنظرة ملؤها الحسرة وقال: «لا بد أنه من المؤلم أن تسعى لإثبات كونك على حق».

فانتابت روبين موجة من الإحباط، لكنه تمالك نفسه وقال: «حسنًا». إذ كان من الظلم إلقاء اللوم على إيبيل بسبب هذه التصعيدات. كما لم يكن من

* تمثلت أبرز النتائج الفورية لمذبحة بيتزلو التي وقعت عام 1819 في إثارة حملة حكومية لقمع التنظيمات المتطرفة، إذ اندفع الفرسان نحو حشد كان يحتج مطالبًا بالتمثيل البرلماني، ودهسوا الرجال، والنساء، والأطفال تحت سنايك خيولهم. وقد لقي أحد عشر شخصًا حتفهم.



العدل أن يطلب منه البقاء لفترة أطول، إذ كان ليواجه موتًا محققًا أو ليلقى القبض عليه. «شكرًا. أشكرك على كل شيء».

قال إيبيل: «مهلاً، فلم أتِ كي أعلن أنني سأتحلّى عنكم».

هز روبين كتفه، إذ كان حريصًا ألا يبدو ساخطًا. «سينتهي الأمر بسرعة شديدة دون هذه المتاريس».

«أؤكد لك أنها فرصتكم للخروج، فسوف نبدأ في نقل الناس بعيدًا قبل أن يزيد إطلاق النار شراسة، وسيبقى القليل منا للدفاع عن المتاريس، وهو ما سوف يشتمهم لفترة كافية لإخراج الباقين إلى كوتسولدز على الأقل».

قال روبين: «كلا، أشكرك، لكننا لا نستطيع. سوف نبقى في البرج».

سأله إيبيل بارتياح: «هل سيبقى الجميع؟».

كان يعني: هل يمكنك اتخاذ مثل هذا القرار؟ هل أنت واثق من أن الجميع هناك يريدون الموت؟ كان محققًا في السؤال، إذ لم يكن من حق روبين التحدث نيابة عن باقي الباحثين السبعة، بل أدرك أنه لم يكن يعلم بما سيختارون عمله فيما بعد.

قال بانكسار: «سأسألهم. كم سيستغرق...»

رد إيبيل: «في غضون الساعة، بل في وقت أقرب لو استطعتم، فمن الأفضل ألا تتأخروا».

هيأ روبين نفسه للحظة قبل أن يعود إلى الطابق العلوي، فلم يعرف كيف يخبرهم أنها النهاية. كان وجهه يُنذر بكشف السر وافتضاح الصبي المذعور المختبئ وراء شبح أخيه الأكبر. لقد ورط جميع هؤلاء الأشخاص في الموقف الأخير، وصار مُخرجًا من النظر في وجوههم حين علم بنهاية الأمر.



كان الجميع في الدور الرابع مجتمعين عند النافذة الشرقية، فانضم إليهم. وكان الجنود في الخارج يسيرون على العشب وكأنهم يترددون في كل خطوة.

تساءلت الأستاذة كرافت: «ماذا يفعلون؟ هل هذا اقتحام؟».

قالت فيكتوار: «يظن المرء أنهم سيقتاحمون بعدد أكبر من هذا».

كانت محقة، إذ رابط أكثر من اثني عشر جنديًا في هاي ستريت، لكن خمسة منهم فقط واصلوا التحرك باتجاه البرج. وإذ راحوا يراقبون، وجدوا الجنود يتفرقون وشق شخص وحيد طريقه بين الصفوف حتى وصل إلى المتراس المتبقي.

تنقّست فيكتوار بصعوبة.

كان ذاك الشخص هو ليتي التي راحت تلوح براية بيضاء.



الفصل الثاني والثلاثون



جلست على ظهر الخادم
 كي ترقُب نجمة المساء!
 وفيما كان الخدم يمرون بالمخافق
 ارتفعت صيحات السقّانين: «يا لجمالكِ!».

«الحزام» - إدوارد لير

أرسلوا الباقين إلى الطابق العلوي ثم فتحوا الباب. لم تأت ليّتي للتفاوض مع الحشد، ولم يكونوا ليّرسلوا أحد الطلاب لعمل هذا. كان أمرًا شخصيًا. لقد أتت ليّتي لتصفية حسابات.

قال روبين لإيبل: «أدخلها».

«عذرًا؟»

«لقد أتت لتتحدث، فأخبرهم بأن يُدخلوها».

قال إيبل كلمة لرجله الذي هرول عابرًا الممرج لإبلاغ حراس المتاريس. تسلّق رجلان قمة المئراس وانحنيا. وبعد لحظة، حُمِلت ليّتي إلى السطح ثم أُنزِلت دون ترفق إلى الجانب الآخر.

اجتازت الممرج وكتفاها متدلّيتان والعلم يتدلى خلفها على الرصيف. لم ترفع عينيها حتى قابلتهم عند العتبة.

قالت فيكتوار: «مرحبًا يا ليّتي».

همهمت ليّتي: «مرحبًا. شكرًا على استقبالي».



بدا عليها البؤس. كان من الواضح أنها لا تنام. فملابسها كانت مُتسخة ومُجَعَّدة بينما كانت وجنتاها نحيفتين وعيناها مُحمرّتين ومتورمتين من جراء البكاء. كانت كتفها المتدليتان تجعلانها تبدو شديدة الضالة. وكان روبين يود احتضانها رغماً عنه ورغم كل شيء.

لقد فوجئ بهذا الشعور. وعند اقترابها من البرج، راودته فكرة خاطفة بقتلها، شريطة ألا يؤدي موتها إلى هلاكهم جميعاً، ولو كان بوسعه أن يضحى بحياته. لكن تعذّر عليه أن ينظر إليها دون أن يعتبرها صديقة. كيف يحبّ المرء شخصاً سبّب له كل ذاك الأذى؟ وإذا اقتربت ونظر إلى عينيها، تعذّر عليه تصديق كون ليتي صديقتهم قد فعلت ما فعلت. بدت حزينة وضعيفة كأنها بطلة تعيسة في حكاية خرافية مأساوية.

لكنه ذكّر نفسه بأن هذه هي ميزة الدور الذي تضطلع به ليتي، ففي هذه البلاد، كانت ذات وجه ولون يجلبان لها التعاطف، ومهما حدث، كانت ليتي هي الوحيدة من دون الجميع التي تستطيع الخروج سالمة.

نظر إلى رايتها وقال: «هل أتيتِ للاستسلام؟».

أجابت: «بل جنّت لأتفاوض. هذا كل ما في الأمر».

قالت فيكتوار: «ادخلي إذا».

وإذا دُعيت، دلفت ليتي من الباب الذي أُغلق من ورائها.

راح ثلاثتهم ينظرون بعضهم إلى بعض للحظة وهم واقفون في حالة من الارتباك في منتصف الردهة، كمثلث تكاد أضلعه تنكسر. كان هذا مُجانبة تامة للصواب. كانوا دائماً أربعة، وكانوا دائمي الحضور في عدد زوجي، ولم يستطع روبين إلا أن يفكر في الفراغ المؤلم الذي خلفه رامي بينهم. لم يكونوا كسابق عهدهم في غيابه، ودون ضحكاته، وبديهته الحاضرة، وتغييراته المفاجئة لموضوعات الحديث التي كانت تُشعرهم بأنهم يحاولون اللحاق به. لم يعودوا كالجسد الواحد، بل صاروا مجرد قُلُول!

سألت فيكتوار بصوت خالٍ من الانفعال: «لماذا؟».



أجابت ليّتي وهي تحاول التماسك: «كان يجب أن أفعل». قالت هذا بكبرياء وثبات. «تعرفين أن هذا كان كل ما أستطيع عمله».

قالت فيكتوار: «لا، لا أعرف».

«لم أستطع خيانة بلدي».

«لم تكوني مضطرة لخيانتنا».

قالت ليّتي: «كنتم ضالعين في تنظيم إجرامي عنيف». خرجت الكلمات بسلاسة جعلت روبين يظنها قد تدربّت عليها. تابعت ليّتي: «وما لم أظاهر بموافقتكم، وما لم أجاركم، لم أتصور كيف سأنجو بحياتي».

تساءل روبين ما إذا كانت تصدّق ما كانت تقوله. هل كانت دائماً تراهم هكذا؟ لم يصدق أن هذه الكلمات كانت تخرج من فمها، وأن هذه هي الفتاة نفسها التي كانت تسهر معهم في وقت ما وتضحك ملء شديها. كانت اللغة الصينية فحسب هي التي تحتوي على حرف يصوّر إلى أي مدى يمكن أن تصبح أبسط الكلمات جراحة 刺 ساي. كان هذا هو الحرف الذي يشير إلى الأشواك، والطعنات، والانتقاد. يا لمُرونته! ففي عبارة مثل 刺声، 刺口، كانت تعني «كلمات جراحة لاذعة كالسياط». قد تعني 刺 «يستفز»، وقد تعني كذلك «يقتل».

سأل روبين: «ما الأمر إذا؟ هل اكتفى البرلمان أخيراً؟».

نظرت ليّتي إليه بعينين مُتوسّلتين وقالت: «أوه يا روبين، يجب أن تستسلموا».

«أخشى ألا تكون هذه طريقة عمل المفاوضات يا ليّتي».

«بل أعني ما أقوله. أحاول تحذيركم، إذ لا يريدونني حتى أن أكون هنا، لكنني توسّلت إليهم وراسلت والدي واستخدمت كل ما أملك من علاقات».

فسألت فيكتوار: «ممّ تحذّرِيننا؟».



«سوف يهاجمون البرج عند الفجر وسوف يُحطِّمون مقاومتكم بالبنادق. لن ينتظروا بعد ذلك، فقد انتهى الأمر».

عقد روبين ذراعيه وقال: «حظاً سعيداً في استعادة مدينتهم».

قالت ليتي: «لكن هذا هو المطلوب فحسب. لقد أحجموا عن التحرك لأنهم ظنوا أنهم يستطيعون إخضاعكم بالتجوع، إذ لا يريدون أن يقتلوكم. صدقوا أو لا تصدقوا، فهم لا يحبون إطلاق النار على الباحثين، وأنتم ذوو فائدة عظيمة. أنتم محقون في هذا. لكن البلاد لم تعد تحتل الأمر. لقد نفد صبرهم».

قالت فيكتوار: «إذاً، فمن المنطقي أن يوافقوا على مطالبنا».

«تعلمين أن هذا غير جائز».

«هل سيُدْمرون مدينتهم؟».

فسألت ليتي بغضب: «هل تظنون البرلمان يهتم بما تُدْمرون؟ لا يعبأ أولئك الرجال بما تفعلون بأوكسفورد أو لندن. لقد ضحكوا حين انقطعت الإنارة وضحكوا حين انهار الجسر. يريد أولئك الرجال المدينة في حالة دمار، إذ يعتقدون أنها صارت كبيرة أكثر من اللازم وأصبح من الصعب السيطرة عليها، وأن أحياءها العشوائية المتدهورة تغطي على جميع أحيائها الراقية، وتعلمون أن الفقراء هم أكثر من سيعاني؛ إذ يستطيع الأثرياء الذهاب إلى الريف والبقاء في ضياعهم الصيفية حيث يستنشقون هواء نقياً ويحصلون على ماء عذب نظيف، في حين سيحصد الموت أرواح الفقراء. اسمعوا، يهتم حكام هذه البلاد بكبرياء الإمبراطورية البريطانية أكثر من المضايقات الصغيرة، وسيتركون المدينة تنهار قبل أن يرضخوا لمطالب من يرونهم مجرد حفنة من البابليين».

قالت فيكتوار: «أوضحني قصدك».

«من الأجانب».



قال روبين: «يا لها من كبرياء!».

قالت ليتي: «أعلم، فهذا ما نشأت عليه. أعرف مدى عمقه. صدّقوني في هذا. لا تعلمون مقدار استعدادهم للموت في سبيل كبريائهم. ترك هؤلاء الرجال جسر وستمنستر ينهار. فبِمَ يمكنكم جميعًا تهديدهم؟».

ثم ساد الصمت. كان جسر وستمنستر الورقة الرابعة، فما عساهما أن يقولوا؟

قالت فيكتوار في النهاية: «تريدان أن تُفنعينا بموتنا».

ردّت ليتي: «بل أقصد إنقاذكم».

نظرت نظرة خاطفة ثم اغرورقت عيناها بالدموع. لم يكن هذا تمثيلًا. كانوا يعلمون أن ليتي لا تستطيع التمثيل. كانت حزينة بالفعل. لم يشك روبين أنها كانت تحبهم، أو كانت، على الأقل، تعتقد هذا. أرادت أن يكونوا سالمين، لكنها كانت ترى أن أفضل حلّ يتمثّل في سجنهم.

قالت: «لم أكن أرغب في أي من هذا، بل أردت أن تعود الأمور أدراجها. كان لنا جميعًا مستقبل».

كتم روبين ضحكة وسألها بهدوء: «ماذا تخيلت؟ هل كنا لنواصل تناول بسكويت الليمون معًا تاركين هذه البلاد تعلن الحرب على أوطاننا؟».

أجابت ليتي: «ليست أوطانكم، لا يجوز أن تكون».

قالت فيكتوار: «بل يجب أن تكون؛ لأننا لن نصبح بريطانيين. كيف لا تفهمين؟ باتت تلك الهوية محظورة علينا. نحن أجنب لأن هذه الأمة وسَمَتنا بهذا، وما دمنّا نُعاقب يوميًا على علاقتنا بأوطاننا، فيجب أن ندافع عنها. لا نستطيع الاستمرار في هذا الوهم يا ليتي، فأنت الوحيدة التي يمكنها عمل هذا».

ظهر الضيق على وجه ليتي.



انتهت الهدنة، وعادت الخلافات، وذكروها بسبب تخليها عنهم الممثل في كونها لم تستطع أن تُصبح واحدة منهم بالفعل. ولو لم تستطع ليتي الانتماء إلى مكان، لفضّلت هدمه.

«هل تُدركون أنني لو خرجت من هنا حاملة ردمك بالرفض، لدخلوا مستعدين لقتلكم؟».

«لكنهم لن يستطيعوا عمل هذا». وهنا نظرت فيكتوار إلى روبين كمن تنتظر تأكيد ما تقوله، وتابعت: «يستهدف هذا الإضراب أن يصبحوا بحاجة إلينا. لا يمكنهم المخاطرة بنا».

قالت ليتي بصوت أكثر حدة: «افهموا أرجوكم. لقد أزعجتموهم. أحسنتم. لكن يمكن الاستغناء عنكم جميعاً في نهاية المطاف. سيكون فقدانكم نكسة صغيرة، في حين يقوم المشروع الإمبراطوري على أكثر من مجرد بضعة باحثين. وسوف يستمر أكثر من بضعة عقود. تُحاول هذه الأمة تحقيق ما لم تحققه أي حضارة أخرى في التاريخ، ولو كان التخلّص منكم ليؤدي إلى تأخير مؤقت، لفعلوها ولدرّبوا مترجمين جددًا».

قال روبين: «لن يفعلوا. لن يعمل أحد لديهم بعد الآن».

ردّت ليتي بازدراء: «بل سيفعلون بالطبع. كنّا نعلم جيّدًا ما ينوون عمله، أليس كذلك؟ أخبرونا هذا منذ أول يوم. وكنا نحب المكان. سيتمكّنون دائمًا من العثور على مُترجمين جدد وسيستردون ما فقدوه من معرفة، وسيكملون مسيرتهم، إذ لن يتمكّن الآخرون من إيقافهم». وهنا أمسكت بيد روبين. كانت حركة مُباغتة وصادمة على نحو جعله يعجز عن الابتعاد. كانت بشرتها شديدة البرودة وقبضتها شديدة القوة، ما جعله يخشى أن تكسر أصابعه. «لا يمكنك تغيير الأشياء لو مُتّ يا بيردي».

فأبعدها بعنف قائلاً: «لا تُنادني ببيردي».

تظاهرت بعدم سماعه وتابعت: «لا تُبعد عينيك عن هدفك. لو أردت إصلاح الإمبراطورية، لكان أفضل لك أن تعمل بداخلها».



فسألها روبين: «كما تفعلين وكما فعل ستيرلنج جونز؟»

«على الأقل ليس مطلوباً القبض علينا، وعلى الأقل، نتمنّع بحرية التصرف».

«هل تظنين أن الحالة ستتغير يا ليتي؟ أقصد، هل فكرت فيما سيحدث لو انتصرتم؟».

هزّت كتفها وأجابت: «سننتصر في حرب سريعة بلا ضحايا، وبعدها سنفوز بكل فضة العالم».

«ثم ماذا؟ ستصبح ماكيناتكم أسرع وستقلّ الأجور ويزيد معدّل اللامساواة والفقر. سيحدث كل ما تنبأ به أنطوني. لن تدوم الاحتفالات. فماذا بعد؟».

قالت ليتي بسخرية: «سنتدبّر الأمر في حينه، إن جاز التعبير».

قال روبين: «لن تفعلوا. لا يوجد حل. ألا ترون أنكم في قطار لا تستطيعون القفز منه؟ لن ينتهي الأمر على خير لأي طرف، فتحررنا هو تحرركم».

ردت ليتي: «وإلا سنسير على نحو أسرع وأسرع، وسنترك العِنان لقطارنا، ذلك أنه لو كان يسير بسرعة فائقة، فحريٌّ بنا أن نكون ركباً».

لم يكن هناك جدل في هذا. لكن لو كانوا صُرحاء مع أنفسهم، ما كان هناك أي جدل مع ليتي.

تابعت ليتي: «لا يستحق الأمر أن تملأ الشوارع بالجُثث، ولأي غرض؟ أهو لإثبات شيء؟ ليس هناك ما يعيب التزام المرء بأفكاره. لكنك تترك الناس يموتون يا روبين من أجل قضية تعلم أن الفشل مُقدّر عليها، بل إنك ستفشل».

ثم راحت تُكمل بلا توقف: «ليس لديك عدد كافٍ من الناس، ولا تتمنّع بدعم العامة، ولم تحصل على أصوات، وليس بإمكانك الاستمرار. لا تعرف مدى إصرار الإمبراطورية على استعادة ممتلكاتها من الفضة. هل تظن أنك مستعدّ للتضحيات؟ سيفعلون المُستحيل كي تخرج من مخبئك. يجب أن تعلم



أنهم لا يخطّطون لإزهاق أرواحكم جميعاً، فكل ما يحتاجون إليه هو قتل بعضكم وأسر الباقين، ثم سيفضّون الإضراب.

ماذا لو رأيت أصدقاءك يموتون؟ ماذا لو صوّبت بندقية إلى رأسك؟ ألن تعود إلى عملك وقتها؟ لقد ألقي القبض على شاكرا فارتني، وسيعذبونه حتّى يتعاون معهم. هيا أخبرني، حين تأتي اللحظة الحاسمة، كم شخصاً في هذا البرج سيتمسك بمبادئه؟».

أجابت فيكتوار: «للسنا جناء مثلك. أليسوا هنا؟ إنهم في صفنا».

«أسأل مجدداً: إلّا تمّ تظنون هذا سيستمر؟ لم يفقدوا ولا واحد من خاصتهم. كيف تظنهم سيشعرون عند سقوط أول الثّوار قتيلًا أو حين يُصوّب السلاح إلى رؤوسهم؟».

وهنا أشارت فيكتوار إلى الباب وقالت: «اخرجي!».

قالت ليتي بإصرار: «أحاول إنقاذكم، فأنا طوق نجاتكم الأخير، استسلموا، واخرجوا في سلام، وتعاونوا على إعادة الأمور إلى نصابها. لن تمكثوا في السجن طويلاً، إذ يحتاجون إليكم. لقد قلتموها بأنفسكم. ستعودون إلى بابل في أسرع وقت وتنتخرون في المهام التي لطالما حلمتم بها. هذا أفضل عرض تتلقونه، وهذا ما أتيت هنا لأقوله، فإما قبوله وإما الموت».

كاد روبين يقول: فلنمّت إذاً. لكنه أوقف نفسه، إذ لم يكن باستطاعته الحكم بالموت على جميع من بالطّابق العلوي، وكانت تعلم هذا.

لقد هزمتهم، ولم يكن النقاش ليحل مشكلتهم. كما ضيّقت عليهم الخناق تمامًا، إذ كانت قد وضعت أمامهم التوقعات كافة، ومن ثم، لم يعد أمامهم مجال للخداع.

سقط جسر وستمنستر، فيمّ عسا هم يهددون؟

كان ليندم على رده، إذ بدا استسلامًا وخضوعًا. قال روبين: «لا نستطيع أن نتخذ قرارات بدلاً من الجميع».



قالت ليّتي بازدرءاء: «فلتعتقدوا معهم اجتماعاً، أو استطلعوا آراء الجميع واحصلوا على إجماع بأي شكل من أشكال الديمقراطية الهزيلة التي تُطَبّقونها هنا». عندئذ وضعت الراية البيضاء على الطاولة وأردفت: «لكن أعطنا ردّاً قبيل الفجر».

ثم استدارت لتخرج.

وهنا اندفع روبين قائلاً: «انتظري يا ليّتي».

توقّفت واضعة إحدى يديها على الباب.

فسألها: «لماذا قتلتِ رامي؟».

جعلها السؤال تتجمّد في مكانها، وسقط عليها ضوء القمر، فبدت كتمثال فُذّ من رُخام أبيض. فارتأى له أنه كان يجب أن يراها بهذه الصورة دائماً. كانت باردة بلا حياة وخالية من أي شيء يجعلها كائنًا حيًا يتنَفّس، ويحب، وينألم.

قال: «لقد صوبتِ وضغطتِ على الزناد، ثم أطلقت النار ببراعة فائقة يا ليّتي. فلماذا قتلتِ رامي؟ ماذا فعل بك؟».

كان يعلم الإجابة، بل كان الاثنان يعلمان دون أي شك. لكن روبين أراد أن يُطلق على ذلك اسمًا، ويتأكد أن ليّتي تعلم ما يعلمه، ويستحضر الذكرى بينهما بوضوح وشراسة، إذ كان بمقدوره أن يرى ما تبثّه في عيني ليّتي من ألم ولأنها كانت تستحق ذلك.

حدّقت إليه ليّتي لفترة طويلة دون أن تُحرك ساكنًا باستثناء صدرها الذي راح يعلو ويهبط بسرعة. وحين تحدثت، كان صوتها عاليًا وباردًا.

قالت: «لم أفعل». وكان باستطاعة روبين أن يعرف ما سيحدث من طريقتها في التركيز، والإطالة في نطق الكلمات، ووضع حدود فاصلة بينها شبيهة بالخارج، إذ قذفت بكلماتها في وجهه. «لم أفكر في قتله على الإطلاق، بل كنت مذعورة، ثم قتلته».



رد روبين: «ليس القتل بهذه السهولة».

فحدجته بنظرة استهزاء وقالت: «بل اتّضح أنه كذلك يا بيردي. ألم نصل إلى هنا بهذه الطريقة؟».

همست فيكتور: «كنا نُحبّك، بل كنا لنموت من أجلك يا ليتي».

لم تحر ليتي جوابًا، بل دارت على عقيها، وفتحت الباب، واختفت في عتمة الليل. أغلق الباب وساد الصمت. لم يكونا مستعدين لنقل الأخبار إلى الطابق العلوي، فلم يعرفا ما يمكن أن يُقال.

سأل روبين: «هل تظنّينها تعني ما تقول؟».

أجابت فيكتور: «بالتأكيد، إذ لا يهتز لها جفن».

«فهل نجعلها تنتصر؟».

سألت فيكتور ببطء: «وكيف عسانا نجعلها تُهزَم؟».

كان هناك عبء رهيب يُثقل كاهليهما. كان روبين يعرف الإجابة، لكنه لم يعرف كيف ينطق بها. وكانت فيكتور تعرف كل ما يخفيه عدا هذا، إذ كان الشيء الوحيد الذي أخفاه عنها، فمن ناحية، لم يرغب أن يجعلها تشاركه همّه، ومن ناحية أخرى، كان يخشى ردة فعلها.

نادته بتركيز: «يا روبين».

قال: «سندمر البرج وسندمر أنفسنا».

لم يهتز لها جفن، بل بدت مُحبّطة كمن ينتظر الإثبات. لم يتقن التظاهر مثلما ظن، وقد توقّعت هذا منه، فردت قائلة: «لا يمكنك».

«هناك طريقة». تعمّد روبين سوء تأويل كلماتها راجيًا أن يقوم اعتراضها على أساس لوجستي. «تعلمين ذلك، لقد بيّنها لنا منذ البداية».

وهنا هدأت فيكتور. كان روبين يعلم ما يمر بمُخيلتها: قالب رنّان يهتز في يد الأستاذ بلاي فير، ويصرخ كما لو كان يتألم، ثم يتشظى لآلاف القطع



الحادة المتوهّجة، ثم يتضاعف الأمر مرارًا وتكرارًا بحيث لا يقتصر على قلب واحد بل يمتد ليصبح برجًا، ثم بلدًا.

همس: «إنها سلسلة من التفاعلات التي ستُنهي المهمة من تلقاء نفسها. هل تتذكرين؟ لقد شرح لنا بلاي فير كيف نعملها. لو تلامست تلك التفاعلات مع قلب آخر، لانتشر التأثير في المعدن دون توقف، إذ لا ينفكّ يعمل حتى يجعل الفضة كلها غير قابلة للاستخدام».

هل يمكن حصر الفضة التي تُبطّن جدران بابل؟ لو انتهى الأمر، لصارت تلك القوالب كافة معدومة القيمة، ولأصبح تعاون المترجمين بلا أهمية، ولانهارت جميع مرافقهم. ستتهار المكتبة، وتضيع كتب قواعد اللغة، وستصبح قضبان الرنين والفضة كلها بلا فائدة وتضيع.

سألت فيكتوار: «منذ متى وأنت تخطّط لهذا؟».

أجاب: «منذ البداية».

«أكرهك».

«إنها الطريقة الوحيدة الباقية كي ننتصر».

قالت بغضب: «بل هي خطة انتحارك، ولا تقل لي إنها شيء مُغاير لذلك. إنك تريد هذه النهاية، بل لطالما أردتها».

رأى روبين أن هذا ما كان بالفعل يريده، وإلا كيف كان ليُبرّر وطأة هذا الحمل الذي يُثقل صدره وعدم قدرته على التنفس باستمرار؟ «لعله، منذ موت رامي وجريفين، بل منذ ما حدث في كانتون وأنا...» ابتلع ريقه وتابع: «أشعر أنني لست أهلاً لذلك الأمر».

«لا تقل هذا».

«هذا حقيقي، إذ مات من هم أفضل مني...».

«لا تسير الأمور هكذا يا روبين».



«وماذا فعلت؟ لقد عشت حياة لم أكن أستحقها وامتلكت ما لم يمتلكه ملايين الناس. فبينما يُعاني الناس كل تلك المعاناة يا فيكتوار، كنت أحتسي الشراب....».

رفعت يدها وكأنها تريد صفعه وقالت: «لا تجرؤ. لا تقل إنك مجرد طالب هش لا يستطيع تحمل العالم بعد أن عرفه، فهذا سُخْفٌ مُحض، فلست ذاك التافه الأنيق الذي يُعَمَى عليه عند ذكر المعاناة. ألا تعرف من كان أولئك الرجال؟ إنهم جنباء، وخياليون، وحمقى لم يفعلوا أي شيء لتغيير العالم المزعج عدا الاختباء، إذ انتابهم شعور كبير بالذنب...»

قال مكرراً: «مذنب. أنا مذنب حقاً. ذات مرة قال لي رامي إنني لا أعبأ بعمل الصواب، وأنني أردت اتخاذ الطريق السهل».

قالت بشراسة: «كان محقاً. إنها طريقة الجنباء التي تعرفها...».

فأمسك بيديها المُرْتَعِشَتَيْن وقال: «لا، اسمعي». حاولت الإفلت، لكنه أطبق بقبضته على أصابعها. كان يحتاج إليها معه، ويحتاج لأن يشرح لها قبل أن تكرهه إلى الأبد لتركها لها دون مُكاشفتها بالحقيقة. «كان محقاً، وكذا أنت. أعلم ذلك وأحاول قوله. كان محقاً. أنا في غاية الأسف، لكني لا أعرف كيف أو اصل».

قالت بعينين دامعتين: «يوماً بيوم يا بيردي. تواصل يوماً بيوم. تماماً كما كنا نفعل. ليس الأمر شاقاً».

«لا، بل شاق يا فيكتوار. لا أستطيع». لم يرغب في البكاء، فلو انخرط في البكاء، لضاعت منه الكلمات وما استطاع قول ما يريده، فراح يُغالب دموعه. «أريد أن أؤمن بالمستقبل الذي نناضل من أجله، لكنه ليس موجوداً. ليس بموجود فحسب، ولا يمكنني المضي في الأمور يوماً بيوم حين ينتابني الهلع وأنا أفكر في الغد. أنا مُسْتَرْف، وما زلت في هذه الحالة، وأردت العثور على مخرج لكنني لم أفُحِّح ولم أجد طريقة تُشْعِرُنِي بالتهرُّب الكبير من واجباتي. لكن هذا مَخْرَجِي».



هزّت رأسها. كانت قد انخرطت في البكاء. كان كلاهما قد انخرط في البكاء.

«لا تقل لي هذا».

«يجب أن ينطق شخص بالكلمات. يجب أن يبقى شخص».

«ألن تطلب مني البقاء معك؟».

«آه يا فيكتوار».

هل كان هناك ما يُقال؟ لم يستطع أن يطلب منها هذا، وكانت تعلم أنه لن يجرؤ. لكن السؤال ظل عالقاً بينهما دون إجابة.

ثَبَّتَتْ فيكتوار عينيها على النافذة، وعلى الحشائش التي صارت سوداء بسبب الظلمة، وعلى المتاريس المضاءة بالمشاعل. راحت تبكي في هدوء وبلا انقطاع. وظَلَّت الدموع تنهمر على وجنتيها وهي لا تتفكّ تمسحها دون جدوى. لم يستطع أن يتبين ما كانت تفكر فيه. كانت هذه هي المرة الأولى التي لا يستطيع فيها قراءة أفكارها منذ بدؤوا الأمر.

أخذت نَفْسًا عميقًا ورفعت رأسها، ثم سألته دون أن تستدير نحوه: «هل سبق لك قراءة القصيدة التي يحبها دعاة إلغاء الرق؟ إنها قصيدة لبيكينيل وداي بعنوان الزنجي المحتضر».

كان روبين قد قرأها بالفعل في أحد منشورات إلغاء الرق التي قد اشتراها في لندن، وقد وجدها رائعة. كان يتذكرها بالتفصيل. كانت تدور حول قصة رجل أفريقي قتل نفسه إذ كان مهذبًا بالأسر والعودة للرق*. وجد روبين القصيدة خيالية ومؤثرة في آن واحد، لكن بعد أن رأى تعبير وجه فيكتوار، أدرك أنها تتصف بأي شيء عدا هاتين الصفتين.

* «مسلخا بأخر مواهبك الأليمة - القدرة على الموت/ هانذا أتحدى - سهامك أيها القدر القاسي». (توماس داي وجون بيكينيل 1775).



قال: «نعم، قرأتها، وكانت مأساوية».

قالت فيكتوار: «يجب أن نموت كي يشفقوا علينا، ويشعروا بأننا كرام. فما موتنا إلا تمرد عظيم وعويل بائس يكشف عن انعدام إنسانيتهم. يتحوّل موتنا إلى صرخة في معاركهم، لكنّي لا أريد الموت يا روبين». وهنا تابعت بصوت مختنق: «لا أريد الموت. لا أريد أن ألعب شخصية إيمواندا في روايتهم أوروونوكو*. لا أريد أن أصبح شخصيتهم الملحميّة المأسوية. أريد أن أعيش».

سقطت على كتفه، فاحتضنها بقوة وراح يُهددها.

فكررت: «أريد أن أعيش وأنجح، وأعيش بعدهم. أريد مستقبلاً. لا أظن أن الموت خلاص، بل أراه النهاية فحسب، إذ ينهي كل شيء، ويستبعد مستقبلاً أعيش فيه سعادة وحرية. ولا يتعلق الأمر بالشجاعة، بل بالرغبة في فرصة أخرى. فحتى لو كان كل ما أفعله هو الهروب، وحتى لو لم أُحرّك ساكناً لمساعدة أي شخص ما حييت، فساكون سعيدة على الأقل، وسيكون العالم على ما يرام ليوم واحد فحسب، وبالنسبة لي فحسب. هل هذه أنانية؟».

تهاوت كتفها، فجذبها روبين نحوه بقوة. يا لها من سنّد! كانت سنّداً لا يستحقه. كانت صخرته، ونوره، والكيان الوحيد الذي يدفعه للاستمرار. كان يتمنّى بقوة أن يكون هذا كافياً للتشبّث به.

فهمس: «كوني أنانية، كوني شجاعة».

* في رواية أوروونوكو الرومانسية من تأليف أفرا بين (المرأة الإنجليزية البيضاء) عام 1688، يقتل الأمير الأفريقي أوروونوكو حبيبته إيمواندا لإنقاذها من الاغتصاب على أيدي القوّات الإنجليزية التي ثاروا عليها، ولاحقاً، يُلقي القبض على أوروونوكو، ويقيّد في عمود، ويُقطع إلى أربعة أجزاء، ويُمرّق. اعتبرت أوروونوكو واقتباسها المسرحي لتوماس ساذيرن قصة حب رائعة.



الفصل الثالث والثلاثون



حان وقت الرحيل، وسوف نفترق. سأمضي إلى الموت، وأنت إلى الحياة.
لا يعلم أيهما أفضل سوى الله.
الا عتذار، أفلاطون. ترجمة بنجامين جويت.

سألت الأستاذة كرافت: «البرج بأسره؟».

كانت أول من يتحدّث، في حين حدّق الباقيون إلى روبين وفيكوار وهم في حالات متفاوتة من الاستنكار، بل إن الأستاذة كرافت بدت كمن يُحاول استيعاب الفكرة وهي تتحدّث عن العواقب بصوت مرتفع. «إنها عقود - بل قرون - من البحث، بل كل شيء سوف يُطمَس ويضيع، أوه من يعلم كم...» وهنا توقّفت.

قال روبين: «ستكون العواقب وخيمة بالنسبة لإنجلترا، إذ تعمل هذه البلاد بالفضة. تسري الفضة في عروقها كالدم. لا تستطيع إنجلترا العيش دون فضة».

«سيعيدون بناءها كلها...»

قال روبين: «نعم، سيحدث هذا في نهاية المطاف، لكن بعد أن يكون العالم قد استثمر الوقت لتجهيز قوّة دفاعية».

«ماذا عن الصين؟».



«لن تدخل في حرب. لن تستطيع ذلك، إذ تُشغل الفضة السفن الحربيّة، وتدعم البحرية. وعلى مدى أشهر بعد ذلك، أو ربما سنوات، لن تصبح أقوى دولة في العالم. والمُستقبل مجهول».

لن يكون المستقبل ثابتًا، بل كما توقّع جريفيّن تمامًا: سيكون قرارًا فرديًا يُتخذ في الوقت المناسب. هكذا كانوا يتحدثون القوة الدافعة ويغيّرون حركة التاريخ.

أنت الإجابة بوضوح شديد ممثلة في رفض مشاركتهم، وفي حرمانهم بشكل دائم من عملهم ومن ثمار جهودهم.

قالت جوليانا: «لا يمكن أن ينتهي الأمر هكذا». ارتفعت نبرة صوتها في نهاية الجملة كمن تطرح سؤالًا، لا كمن تعلن شيئًا. «يجب أن يكون هناك، بل لا بد أن يكون هناك طريقة أخرى».

قال روبين: «سيهاجمونا عند الفجر، وسيطلقون النار على بعضنا ليصبحوا عبرة، ثم سيضعون الباقيين تحت تهديد السلاح حتى نبدأ إصلاح ما دُمر. سوف يُقَيّدوننا ويُسخّروننا».

«لكن المتاريس...»

همست فيكتوار: «ستسقط المتاريس، فما هي إلا أسوار يا جوليانا، ويمكن تدمير الأسوار».

في البدء ساد صمت، تلاه استسلام، ثم قبول. كانوا يعيشون في المُستحيل بالفعل. فماذا بعد سقوط الشيء الذي اعتبروه رمزًا للخلود؟

قال إبراهيم: «من المفترض إذًا أن نُسرّع بالخروج، فور بدء سلسلة التفاعلات».

كاد روبين يقول: لكنكم لا تستطيعون الخروج بسرعة، لكنه أوقف نفسه. كان الرد واضحًا. لم يكن بمقدورهم الخروج بسرعة على الإطلاق. ولم تكن تعويذة واحدة لتُجدي. فإن لم يتحرّروا الدقة، قد يسقط جزء من البرج، لكن



بقاياهم ستكون قابلة للإصلاح، ومن ثم، سيسهل استخدامها مجددًا. فما كانوا ليسببوا سوى التكاليف والإحباط، وما كانت معاناتهم لتجدي نفعًا.

لكي تتجعد هذه الخطة - أي لتوجيه ضربة إلى الإمبراطورية لا تستطيع أن تتعافى منها - كان عليهم البقاء، وتكرار الكلمات، وتنشيط أكبر عدد ممكن من عناقيد الدمار.

لكن كيف عساه يخبر عددًا كبيرًا من الناس بأنهم يجب أن يموتوا؟

بدأ يتحدث قائلًا: «أنا...» لكن الكلمات التصقت بحنجرته.

لم يكن مضطرًا للشرح، إذ فهم الجميع الأمر وتوصلوا للاستنتاج نفسه واحدًا تلو الآخر، وكان تغير نظراتهم مُحزنًا.

قال روبين: «سأخوض التجربة، ولا أطلب منكم أن تأتوا معي - وحال عدم رغبتكم، سيُخرجكم إيبيل - لكن كل ما أقصده هو... أنا فحسب لا أستطيع عمل هذا بمفردي».

أشاحت فيكتوار بعينيها وذراعاها معقودتان.

تابع ببؤس: «لن نكون بحاجة للجميع». إذ كان يريد أن يقطع الصمت بالكلام. فلعلّه كلما تكلم، قلَّ الأمر سوءًا. «أظن أن تنوع اللغات سيكون جيدًا، إذ سيعظّم التأثير، وبالطبع، سنحتاج إلى أشخاص يفقون في جميع جنابات البرج لأن...» وهنا تشنّجت حنجرته، فأردف: «لكننا لا نحتاج إلى الجميع».

قالت الأستاذة كرافت: «سأبقى».

«أشكرُك.. يا أستاذة».

ابتسمت له باضطراب وقالت: «أظنني لم أكن لأحصل على الترقية في الجانب الآخر من هذا المكان على أية حال».

لاحظ أن الجميع يفكّرون بالطريقة نفسها. النهاية بالموت إزاء ما قد يواجهونه من اضطهاد، وسجن، واحتمالية إعدام خارج هذا المكان. لم تكن



النجاة من بابل تعني العيش بالضرورة. لقد لاحظ أن الجميع يسألون أنفسهم ما إذا كان تقبلهم للموت أسهل.

قالت له ميجانا متسائلة: «لست خائفًا».

رد روبين: «كلا». بيد أن هذا كان ما بإمكانه أن يقوله، إذ لم يكن هو نفسه فاهمًا تفكيره. كان يشعر بالعزم، لكنه ربما كان هذا بفعل الأدرنالين فحسب، ولعل خوفه وتردده قد أزيحا مؤقتًا وراء جدار وإِ كان ليتهشم إذا فُحص من كُتب. «لا، لست، فأنا... فحسب، أنا مستعد. لكننا لن نحتاج للجميع».

تنحنت الأستاذة كرافت وقالت: «لعلهم الطلاب الأصغر... الذين لا يعرفون شيئًا عن أعمال الفضة، فما من سبب...»

«أريد البقاء». وهنا ألقي إبراهيم نظرة قلق على جوليانا وتابع: «لست... لا أريد الهرب».

لم تحر جوليانا جوابًا، وكانت شديدة الشحوب.

فسأل يوسف روبين: «هل هناك مخرج؟».

«نعم، يستطيع رجال إيبيل نقلك إلى المدينة. لقد وعدوا بذلك. إنهم في انتظارنا. لكن، يجب أن تُغادروا بأقصى سرعة، ثم يجب أن تهربوا. لا أظنكم ستتوقفون عن الهروب».

سألت ميجانا: «ألا توجد شروط للعفو؟».

أجاب روبين: «توجد، هذا إن عملت عندهم. لو ساعدتهم على إصلاح الأشياء وإعادتها لما كانت عليه. قدّمت ليّتي هذا العرض، وأرادت أن تعرفوا. لكنكم ستظلّون تحت سيطرتهم، ولن يتركوكم تذهبون. لقد أُلححت إلى ذلك. سوف يمتلكونكم ويجعلونكم تشعرون بالامتنان لهذا».

عندئذ، مدّت جوليانا يدها وأمسكت يد إبراهيم الذي ضغط على أصابعها، فصارت قبضتيهما ببيضاوين. كان مشهدًا بالغ الحميمية، ما جعل روبين يُغمض عينيه ويشيح بنظره.



قال يوسف: «لكن ما زال بإمكاننا الهروب».

قال روبين: «ما زال بإمكانكم الهروب. لن تكونوا آمنين في هذه البلاد...»
«لكن يمكننا العودة إلى الوطن».

كان صوت فيكتوار خفيضًا على نحو جعلهم بصعوبة يسمعونها: «يمكننا العودة إلى الوطن».

أوماً يوسف، وفكر في الأمر للحظة، ثم انتقل ليقف بجانبها.

كان تحديد من يفر ومن يموت بسيطًا، كان روبين، والأستاذة كرافت، وميجانا، وجوليانا في ناحية، ويوسف وفيكتوار في الناحية الأخرى. لم يستجد أحد أو يطلب الرحمة، ولم يتراجع أحد عن قراره.

انكمش إبراهيم خوفًا وقال: «متى إذا...»

قال روبين: «في الفجر. سيأتون في الفجر».

قالت الأستاذة كرافت: «من الأفضل أن نرُصّ القضبان ونرتبها بدقة، إذا لم يكن لدينا سوى محاولة واحدة».

فسأل إيبيل جودفيلو: «هل من معلومة جديدة؟ إنهم يزحفون نحونا».

قال روبين: «أرسل رجالك إلى بيوتهم».

«ماذا؟».

«بأسرع ما يمكن. اخرجوا من المتاريس وفروا هاربين. الوقت يُداهمنا، ولم يعد الحُراس يهتمون بالخسائر».

تبين إيبيل هذا ثم أوماً وقال: «من سيأتي معنا؟».

«اثنان فحسب. يوسف وفيكتوار. إنهما يودعان الباقيين وسيكونان مستعدين قريباً». سحب روبين طردًا ملفوفًا من جيب سترته وقال: «يوجد هذا أيضًا».



لا بد أن إيبيل لاحظ شيئاً على وجهه واستشعر شيئاً من صوته، إذ أمعن التركيز وسأل: «إلام ترمي البقية؟».

«يجب ألا أخبرك».

رفع إيبيل الطرد وسأله: «هل هذه رسالة انتحار؟».

أجاب روبين: «بل سجل دُؤن فيه كل شيء حدث في هذا البرج، وما كنا ندعمه. هناك نسخة أخرى تحسباً لضياع هذه. أعلم أنك ستجد وسيلة لإيصال هذا للعالم. اطبعها في جميع أنحاء إنجلترا، وأخبرهم بما فعلناه، واجعلهم يتذكروننا». بدا إيبيل كمن يرغب في الجدل، لكن روبين هز رأسه وقال: «أرجوك، لقد اتخذت قرارى، ولم يتبق وقت كافٍ. لا يمكنني شرح الأمر، وأرى أنه من الأفضل ألا تسأل».

راقبه إيبيل للحظة، ثم بدا كمن يُمعن التفكير فيما كان يُوشك أن يقوله: «هل سأنهي الأمر؟».

«سنحاول». شعر روبين بانقباض شديد في صدره، إذ كان في غاية الإرهاق، وأراد أن يتكوّر وينام على الأرضية. أراد أن ينتهي الأمر: «لكنني لا يمكنني أن أخبركم بالمزيد الليلة. يجب أن أذهب».

مدّ إيبيل ذراعه وقال: «لعلّه وداع إذًا».

أمسك روبين كفه وصافحه وقال: «وداعًا. أوه، لقد نسيت البطاطين».

«لا تشغل بالك بها». لفّ إيبيل يده الأخرى فوق يد روبين. كان سلامًا دافئًا وقويًا. شعر روبين بغصة في حلقه. كان مُمتنًا؛ لأن إيبيل سهّل عليه الأمور ولم يُجبره على تبرير نفسه. كان عليه أن يمضي بسرعة بعزيمة ثابتة حتى النهاية.

شدّ إيبيل على يده وقال: «حظًا سعيدًا يا روبين سوفيت. وفقك الله».

قضوا ساعات قبل الفجر في ترتيب مئات القوالب الفضيّة على هيئة أهرامات في ثغرات مُحيطَة بالبرج؛ حول دعائم القاعدة، وأسفل النوافذ،



وبطول الجدران وأرشف الكتب، وفي أكوام حقيقية حول كتب قواعد اللغة. لم يستطيعوا التنبؤ بمدى الدمار وحجمه. غير أنهم كانوا ليستعدوا له ويجعلوا استعادة أي مواد من الركام أمراً شبه مستحيل.

غادر يوسف وفيكثوار قبل مُنتصف الليل بساعة. كان وداعهما مُقتضياً ومُتحفظاً. كان فراغاً مستحيلاً. كان هناك الكثير ليقال.. بيد أنه لم يكن هناك شيء، وكان هناك شعور بأن الجميع كانوا يكتُمون ما بداخلهم خشية الانهيار. فلو اختصروا الكلام، لندموا إلى الأبد، ولو أسهبوا، ما استطاعوا أن يفترقوا.

همس روبين مودعاً فيكتوار: «أتمنى لك رحلة آمنة».

كتمت ضحكة وأجابت: «نعم، أشكرك».

تشبّث كل منهما بالآخر لفترة طويلة، ما جعل الجميع يخرجون كي يمنحوهما خصوصية، فصار الاثنان وحدهما في الردهة. وفي النهاية، تراجعت وراحت تنظر حولها وعيناها تجولان إلى الأمام وإلى الخلف وكأنها لا تعرف ما إذا كان يجب عليها الكلام.

قال روبين: «لا تظنين أن هذه الخطة ستنجح».

«لم أقل هذا».

«لكنك تفكرين في الأمر».

فرفعت يديها وتركتهما يسقطان وقالت: «أخشى أن ندلي بهذا البيان الخطير، فيعتبرونها انتكاسة عابرة، وأمراً يمكن تجاوزه، فلا يفهمون ما قصدناه».

«لا أظنهم سيسمعون مهما كانت قيمته».

قالت وهي تبكي مجدداً: «لا أظنهم سيفعلون. آه يا روبين، لا أعلم ما...»

رد روبين: «أذهبي فحسب. هلاً كتبتِ إلى والدي رامي؟ أنا فحسب... يجب أن يعرف».



فأومات، وشدّت على يديه بقوة للمرة الأخيرة، ثم أسرعت بالخروج إلى الحديقة حيث كان يوسف وإيبل ينتظران. ثم لوحت لآخر مرة بوجه حزين ومضوا.

ثم لم يتبقَّ شيء سوى الانتظار حتى النهاية.

كيف يتصالح المرء مع موته؟ أفادت حكايات كريتو وفيدو (عن النفس) والاعتذار أن سقراط لاقى الموت دون جزع، بل بهدوء غير عادي جعله يرفض العديد من التوسلات للهروب، وكان في غاية الاستهتار والمرح، إذ كان مقتنعًا أن الموت هو الصواب على نحو جعله يقصف أصدقاءه بمنطقه، وبأسلوبه المتمرّمت الذي لا يُطاق حتى وأصدقائه يجهشون بالبكاء. وعند أول قراءة له للنصوص اليونانية، دُهل روبين، لا سيما باستهتار سقراط الشديد بنهايته.

ومن المؤكد أن الموت بابتهاج كان أفضل وأسهل، فلا توجد شكوك ولا مخاوف، بل بالأحرى قلب مُطمئن. كان يؤمن بهذا من الناحية النظرية، فطالما رأى أن الموت فترة راحة، ولم ينفكّ يحلم به منذ أطلقت ليتي النار على رامي. كان يتخيل السماء نعيمًا بحدائق غناء وسموات مُشرقة حيث يجلس مع رامي ويتجاذبان أطراف الحديث ويتمتعان بمشهد الغروب إلى الأبد. لكن هذه الخيالات لم تكن مصدرًا لمواساته مثلما كان الموت والعدم وتوقف كل شيء: الألم، والعذاب، والأسى الخائق. كان الموت يعني السلام، لا غير.

غير أن مواجهة لحظة الموت كانت تُرعبه.

انتهى بهم المطاف إلى الجلوس على أرضية الردهة مُستمدّين السلوى من صمتهم الجماعي ومُستمعين إلى أنفاس بعضهم. حاولت الأستاذة كرافت مواساتهم بتردد مُستحضرة من ذاكرتها كلمات عتيقة عن أكثر المآزق الإنسانية شدة. حدثتهم عن نساء طروادة لسينيكّا، وفولتايوس للوكان، واستشهاد كاتو وسقراط، كما اقتبست من شيشرون، وهوراس، وبلينيوس



الأكبر. الموت هو الخير الأعظم. الموت هو أفضل الحالات. الموت يُحرر الروح الخالدة. الموت سُمُو. الموت شجاعة وتحديّ.
وقال سينيكا الأصغر في وصف كاتو: «أونا مانو لائام ليبراتي فيام فاسييت»*.

وقال فيرجيل واصفًا ديدو: «سيك، سيك إيوفات آير سوب أومبراس†». لم يستطيعوا استيعاب أي شيء مما قيل، ولم يتأثروا، إذ لم يكن التنظير حول الموت ليساعدهم على ذلك، فلطالما اصطدمت الكلمات والأفكار بالنهايات الوشيكّة الدائمة بحدودها التي تأبى أن تتزحزح. لكن كان صوتها الرصين والثابت مصدرًا للطمأنينة، فتركوه ينساب إلى مسامعهم ويمنحهم السكينة في ساعاتهم الأخيرة.

أطلّت جوليانا من النافذة وقالت: «يتقدمون في المرح».

قال روبين: «لم يأتِ الفجر بعد».

قالت بسلاسة: «إنهم يتقدمون».

ردت الأستاذة كرافت: «حسنًا، من الأفضل أن نتعامل مع الأمر».

وهنا وقف الجميع.

لم يكونوا ليوажهوا نهاياتهم معًا، إذ كان كل رجل وامرأة ليأخذ وجهته المُمثّلة في أكوام الفضة الموزعة على مُختلف الطوابق ومختلف أجنحة المبنى الموضوعة بتلك الطريقة للحد من فرص بقاء أي جزء من البرج سليم. سيكونون وحدهم حين تنهار تلك الجدران، ولهذا السبب، بدا الفراق مستحيلًا حين اقتربت تلك اللحظة.

انهمرت الدموع على وجه إبراهيم.

* بيد واحدة سيصنع الحرية طريقًا مفتوحًا.

† ولهذا، من المفيد أن نحتمي وراء الظلال.



همس: «لا أريد أن أموت. لا بد أن يكون هناك – لا أريد أن أموت».

كان الجميع يشعرون بالشيء نفسه، وهو أمل بائس في الحصول على فرصة للفرار. لم تكن الثواني لتكفيهم في اللحظات الأخيرة. كان قرارهم أمرًا جيدًا من الناحية النظرية، فسيصبحون شهداء، وأبطالاً، وأناساً غيروا حركة التاريخ. لكن لم تكن هناك راحة في أي من تلك الأمور. ففي تلك اللحظة، كان الموت مؤلماً، ومُخيفاً، ولا رجوع منه، ولم يكن أي منهم يريد الموت.

ولكن، رغم ما اعتراهم من دُعر، لم ينهار أي منهم، فلم تكن سوى أمنية، وكان الجيش قادمًا.

قالت الأستاذة كرافت: «فلنُسرع». ثم صعدوا الدّرج متجهين إلى طوابقهم المُحددة.

ظل روبين في مُنتصف الردهة أسفل الثريا المكسورة مُحاطاً بثمانية أكوام من قوالب الفضة تشبهه في الطول أثناء وقوفه، فأخذ نَفَسًا عميقًا مُراقبًا عقرب الثواني يتحرك في الساعة المُعلّقة أعلى الباب.

كان النُكْم قد أصاب أجراس الأبراج في أوكسفورد. وحين اقتربت الدقيقة التي مثلت الدليل الوحيد المُشير إلى تزامن دقائق الساعات البنولوية الطويلة تمرکز الجميع في المكان نفسه في كل طابق. كانوا قد اختاروا الساعة السادسة تمامًا كموعّد عشوائي، لكنهم كانوا بحاجة إلى لحظة أخيرة، حقيقة راسخة يوجهون إليها إرادتهم.

السادسة إلا دقيقة.

أطلق زفرة مُرتجفة، وراحت أفكاره تُحلّق في كل مكان في محاولة يائسة للتفكير في أي شيء عدا هذا الأمر، فلم يستقر على ذكريات مترابطة، بل على تفاصيل شديدة الخصوصية مثل ملوحة هواء البحر الثقيل، وطول أهداب فيكتوار، وتردّد رامي قبل أن يُطلق ضحكة من القلب، فتشبّث بها لأطول فترة ممكنة رافضاً السماح لعقله بالتفكير في أي شيء آخر.



بقيت عشرون ثانية.

راح يفكر في الملمس الخشن لفطائر فولتس الدافئة، وأحضان السيدة بايبر الحلوة المملوءة برائحة الدقيق، وبسكويت الليمون الغني بالزبد الذي كان يذوب كالعسل على لسانه.

بقيت عشر ثوانٍ.

ثم تذكر مرارة مذاق الدواء ولدغة ضحكة جريفيين المؤلمة، وثنانة رائحة الأفيون، والعشاء في مكتبة أولد، ورائحة الكاري العطرة، والأطراف المحترقة للبطاطس ذات الملح الزائد. فضحك ضحكًا عاليًا، وبانسًا، وهستيريًا.

بقيت خمس ثوانٍ.

تذكر ابتسامة رامي ويده الممدودة.

وضع روبيين يده على أقرب كومة، وأغمض عينيه، وتنهد، ثم قال: «فانيي. ترجم».

عندئذ، دوى رنين حادّ في أرجاء الغرفة كصرير صافرة وراح يصمّ عظامه.

رنّت قرقعة الموت أعلى البرج وأسفله، إذ كان كل واحد قد أدّى واجبه دون تردد.

زفر روبيين وهو يرتجف. لم يكن هناك مجال للتردد ولا وقت للخوف. مد يده نحو القوالب في الكومة التالية وهمس مجددًا: «فانيي. ترجم»، ومرة ثانية «فانيي. ترجم». وكررها «فانيي. ترجم».

شعر بزلزال تحت قدميه، ورأى الجدران تهتز، والكتب تقع من فوق الأرفف، وشيء يئنّ فوق رأسه.

ظن أنه سيثعر بالدُعر.



ظن أن تركيزه سينصب على الألم وعلى شعوره حين تهوي فوقه ثمانية آلاف طن من الركام في لحظة واحدة. فهل كان ليموت في اللحظة عينها أم كان الموت ليأتي على هيئة دفعات صغيرة تدريجية حين تُسحق يداه وأطرافه وتُصارع رثاه للتنفس في حيز أضيق؟

لكن ما أذهله بشدة كان الجمال! كانت القوالب تُغني، وتهتز، وتُحاول - على حد تصوّره - أن تُعبّر عن حقيقة لا يُنطق بها عن نفسها تتمثل في استحالة الترجمة، وأن عالم المعنى الخالص الذي استوعبوه وعبروا عنه لم يكن ليعرف، وأن المشروع الخاص بهذا البرج كان محكوماً عليه بالفشل منذ البداية.

فكيف يكون للغة آدم وجود؟ جعلته الفكرة يضحك. لم تكن هناك لغة فطرية ومفهومة بشكل تام، ولم يكن هناك طالب يستطيع تطويع واستيعاب ما يكفي لعمل ذلك سواء أكان إنجليزيًا أو فرنسيًا. لم تكن اللغة سوى اختلاف، وآلاف الطرق لرؤية العالم والتحرك فيه، بل آلاف الطرق في طريقة واحدة. وكانت الترجمة مسعىً ضروريًا للتحرّك فيما بينها رغم عدم جدواه!

عاد بذاكرته إلى أول صباح له في أوكسفورد وهو يصعد مع رامي تلاً مُشمِسًا حاملاً سلة الرحلات وبها شراب زهور البيلسان، وخبز البريوش الدافئ، وجبن ذو نكهة قوية، وفطيرة شوكلاتة للتحلية. في ذلك اليوم، امتلأ الجو بالتفاؤل وكانت أوكسفورد كلها تتلأأ كمصباح مُنير، وكان بصدد الوقوع في الحب.

قال روبين: «يا للغرابة!». ففي ذلك الوقت، كانوا قد تخطّوا حدود الصراحة، إذ كانوا يتحدثون بعضهم إلى بعض بلا حواجز ولا خوف من العواقب. «وكأنني أعرفك منذ زمن بعيد».

رد رامي: «وأنا أيضًا».

قال روبين بثمالة، رغم أن شراب البيلسان ليس مُسكرًا: «ليس هذا منطقيًا، فلم أتعرف إليك إلا قبل يوم. غير أنه...»



قال رامى: «لعل ذلك لأنك تستمع حين أتكلم».

«لأنك مذهل».

اتكأ رامى على مِرْفَقيه وقال: «بل لأنك مترجم جيد. هذه هي الترجمة على ما أظن، وهذا هو الكلام، إنها الاستماع إلى النهاية ومحاولة تخطي تحيزاتك كي تفهم ما يُحاول قوله. إنها التعبير عن نفسك أمام العالم راجياً أن تجد من يفهمك».

بدأ السقف ينهار، بداية بتدفقات الحصى، ثم قطع كبيرة من الرخام لتتكشف الألواح وتتحاتم العوارض الخشبية. ثم انهارت الأرفف ونفذ ضوء الشمس إلى الغرفة التي لم تكن بها نوافذ من قبل، فنظر روبين إلى أعلى ورأى بابل تسقط فوقه، ثم سماء ما قبل الفجر.

أغمض عينيه.

لكنّه كان قد انتظر الموت من قبل وتذكر هذا. كان يعرف الموت. لم يحدث هذا فجأة ولا بعنف، لكن ذكرى انتظار الموت كانت حبيسة عظامه. كانت ذكريات غرفة حارة خانقة، ذكرى الشلل والحلم بالنهاية. تذكر السكون والسكينة. وإذ تحطمت النوافذ، أغمض روبين عينيه وتخيل وجه والدته.

كانت تبتسم وتناديه باسمه.



خاتمة

فيكتوار

كانت فيكتوار ديجراف بارعة في البقاء على قيد الحياة.

لقد تعلّمت أن الأساس يتمثل في رفض النظر إلى الوراء، فحتى وهي مُمتطية صهوة جواد يركض بسرعة في كوتسولدز ورأسها مُنحنٍ على الأغصان المُتطايرة، حَدّتها بعض الرغبة في البقاء في البرج مع أصدقائها، إذ شعرت بأن الجدران تنهار فوقهم. فلو كان الموت مُقدّرًا عليهم، لأرادت أن تُدفن معهم.

لكن البقاء على قيد الحياة يتطلب قطع الصلة والنظر إلى المستقبل. فمن يدري ما سيحدث الآن؟ فما حدث في أوكسفورد اليوم مستحيل وتدايعاته لا تُصدّق. لا توجد سابقة تاريخية لهذا. لقد أتت اللحظة الحاسمة وصار التاريخ مرّناً وقابلاً للتغيير.

لكن فيكتوار كانت على دراية بالأمور المستحيلة. كان تحرير وطنها مستحيلًا حتى ولو حدث، إذ لم يكن هناك في فرنسا أو إنجلترا أي شخص، ولا حتى أكثر أنصار الحرية الكونية تطرّفًا، يُصدّق أن العبيد - الذين لم يكونوا مُصنّفين ككائنات عاقلة، ومُستتيرة، وذات حقوق - سيطلقون بالتحرك. وبعد شهرين من وصول أخبار ثورة أغسطس 1791، أعلن جان ببيير بريسو نفسه والذي يعد عضوًا مؤسسًا لجمعية أصدقاء ذوي البشرة السوداء إلى الجمعية الوطنية الفرنسية أن هذه الأخبار غير صحيحة، فعلى حد علم أي شخص، لم يكن باستطاعة العبيد أن يقوموا بعصيان سريع ومُنظّم. وبعد مرور عام على الثورة، كان الكثيرون يعتقدون أن القلاقل ستُخمد عمّا قريب، وأن الأمور ستعود إلى طبيعتها، إذ كانت كلمة «طبيعي» تعني سيطرة ذوي البشرة البيضاء على ذوي البشرة السوداء.



وبالطبع، كانوا مُخطئين.

لكن من في تاريخنا المُعاصر، يفهم دوره في هذه اللوحة المنسوجة؟ على مدى جُل حياتها، لم تكن فيكتوار واعية حتى أنها تتحدر من أول جمهورية سوداء في العالم.

وقبل هرمس، لم تكن تعلم سوى هذا:

لقد وُلدت في هايتي، آيتي عام 1820 وهو العام الذي انتحر فيه الملك هنري كريستوف خشية حدوث انقلاب. أما زوجته وبناته، فقد هربن إلى بيت كافل إنجليزي في سافولك. وذهبت والدة فيكتوار معهم باعتبارها إحدى وصيفات الملكة المنفية، ولطالما أشارت لهذا الحدث باسم «الهروب الكبير»، وما إن استقرت في باريس حتى رفضت أن تعتبر هايتي وطنًا لهم بعدها.

كانت معرفة فيكتوار بتاريخ هايتي مُشوّهة وغير مُكتملة وقائمة على الأحداث المخيفة والتجارب المؤلمة! بيد أن جزءًا منه كان يبعث على الفخر والقوة كقصر منيف يُدعى بلا هموم (سون سوسي) حيث كان يسكن أول ملك أسود البشرة في العالم الجديد، وأنه يدور حول صراعات وُغف مُمثلة في رجال يحملون بنادق ومُشاحنات سياسية غامضة لم تكن تفهمها كانت خلعتها من جذورها وأرسلتها إلى الجانب الآخر من الأطلنطي حين كانت طفلة، وعرفت وطنها مَلاذًا للعنف والصراعات الوحشية على السلطة. فكذا كانوا يتحدثون عنه في فرنسا، وكان هذا ما قررت أمها المنفية أن تُصدِّقه.

همست أمها: «نحن محظوظون أن نجونا منه».

لكن أمها لم تَنجُ من فرنسا. لم تعرف فيكتوار كيف أرسلت أمها، التي وُلدت حرة، إلى سافولك للعمل في منزل باحث باريسي مُتقاعد يُدعى الأستاذ إيميل ديجاردين. ولم تكن تعرف ما الوعود التي قطعتها أصدقاء والدتها لها، وما إذا كان قد تم تبادل المال أم لا. كل ما كانت تعلمه هو أن في باريس،



وفي ضيعة ديجاردين، لم يكن مسموحاً لهم بالمغادرة، إذ لم تنزل أشكال العبودية موجودة هناك مثلما كانت موجودة في جميع أنحاء العالم. كانت حالة من الغموض، وكانت القوانين تُفهم بالتلميح لا بالتصريح. وحين مرضت والدتها، لم يستدع آل ديجاردين لها طبيباً، بل اكتفوا بإغلاق باب غرفتها وانتظروا بالخارج ريثما دخلت خادمة وتحسّست نبضها وأنفاسها، ثم أعلنت وفاتها.

ثم حبسوا فيكتور في خزانة ورفضوا إخراجها خشية انتشار عدوى المرض. بيد أن العدوى ضربت باقي سكان أهل الدار، ومرة أخرى وقف الأطباء عاجزين عن عمل أي شيء عدا تركه يأخذ مده.

نجت فيكتور، وزوجة الأستاذ ديجاردين، وبناته. أما الأستاذ نفسه، فمات ومعه الشخص الوحيد الذي يصل فيكتور بالأشخاص الذين ادّعوا الحب لأمرها، لكنهم باعوها.

تدهورت أحوال المنزل، إذ كانت السيدة ديجاردين الشقراء ذات الوجه الجامد مُبذّرة وتُسيء إدارة الحسابات، فضاقت أحوالهم المالية، فطردوا الخادمة. لماذا كانوا ليحتفظوا بواحدة في وجود فيكتور؟ وبين عشية وضحاها، صارت فيكتور مسؤولة عن عشرات المهام: الحفاظ على النار مُشتعلة، وتلميع الفضة، وتنظيف الغرف، وتقديم الشاي. بيد أن هذه لم تكن المهام التي دُرِّبت على إتقانها. لقد نشأت على القراءة، والتأليف، والتأويل، لا إدارة منزل. لهذا، كانوا يُوبّخونها ويضربونها.

لم تجد سلوى في ابنتي السيدة ديجاردين الصغيرتين اللتين كانتا تسعدان في تقديم فيكتور للضيوف كفتاة يتيمة أنقذوها من أفريقيا، «من زنجبار» بل كانتا تنطقان الكلمة في تناغم: «زا...انزيبار!».

لكن الأمر لم يكن بهذا السوء.

قالتا لها إن الأمر لم يكن بهذا السوء مقارنة بموطنها هايتي التي سادتها الجريمة والتي كانت تنساق نحو الفقر والفوضى بسبب نظام حكم غير كُفء



وغير شرعي. كانتا تقولان: أنتِ محظوظة لأنكِ معنا حيث الأمان والتحضُّر.

كانت تُصدِّق هذا، إذ لم تكن تملك سبيلاً لمعرفة أي شيء آخر.

كانت لتلوذ بالفرار ما لم يُيقها الأستاذ والسيدة ديجاردين في حمايتهما وبمعزل عن العالم الخارجي الذي لم تكن تعرف أن لها الحق أن تعيش فيه حُرَّة. نشأت فيكتوار على التناقض الكبير في فرنسا التي أصدر مواطنوها إعلاناً لحقوق الإنسان عام 1789 دون أن يمحوا الرِّق، وقد احتفظوا بالحق في الملكية.

كان التحرر سلسلة من المُصادفات، والذكاء، وسِعة الحيلة، وال حظ. قَلَّبت فيكتوار في خطابات الأستاذ ديجاردين باحثة عن وثيقة أو شيء يُثبت أنه يملكها وأمها، لكنها لم تجد. لكنها سمعت عن مكان يُدعى المعهد الملكي للترجمة، حيث حصل على تدريب في شبابه وقد كتب لهم عنها. أخبرهم عن فتاة صغيرة ذكية في المنزل، وعن ذاكرتها العبقريّة، وموهبتها في اليونانية واللاتينية. كان مُزعمًا أن يأخذها في جولة حول أوروبا. لعلهم كانوا مُهتمين بإجراء مقابلة.

ومن ثم، صنعت ظروف حريتها. حين رد أصدقاء الأستاذ ديجاردين من أوكسفورد مُعربين عن سعادتهم باستقبال الأنسة ديجراف في المعهد واستعدادهم للإنفاق عليها، شعرت بأن هذا مهر بها الوحيد.

لكن فيكتوار ديجراف لم تحصل على حريتها الحقيقية إلا حين قابلت أنطوني ريبين. ولم تتعلم أن تدعو نفسها من أهل هايتي حتى تعرفت إلى جمعية هرمس.

لقد تعلّمت أن تفتخر بلغة الكريول المُتقطّعة وشبه المنسيّة والتي لا يكاد يمكن تمييزها عن الفرنسية. (اعتادت السيدة ديجاردين أن تصفها متى تحدثت الكريول. كانت لتقول: «أخرسي. قلت لك يجب أن تتحدثي الفرنسية،



بل الفرنسية كما يتحدثها الفرنسيون». كما علمت أن ثورة هايتي لم تكن تجربة فاشلة بالنسبة لباقي العالم، بل نبراس أمل.

علمت أن الثورة أمر غير قابل للتصديق، إذ تحطّم العالم المحيط. فالمستقبل مجهول، لكنه زاهر بالفرص. لم يكن المستعمرون يدرون بما كان ليحدث، وهو ما جعلهم يرتعبون. كان الأمر يُخيفهم. جيد، يجب ذلك.

وها هي قد صارت تجهل وجهتها. كانت تحمل بعض الأظرف في جيب معطفها: نصائح أخيرة من أنطوني والأسماء المُشَقَّرة للكثير من جهات الاتصال. كان هناك أصدقاء في موريشيوس، وسيشل وباريس. ربما تعود إلى فرنسا ذات يوم، لكنها لم تكن على أهبة الاستعداد بعد. كانت تعلم أن هناك قاعدة في أيرلندا. غير أنها كانت تُفضّل الخروج من القارة في هذه اللحظة. ربما تعود إلى موطنها ذات يوم وترى بعينيها الاستحالة التاريخية لتحرير هايتي. في تلك الأثناء، كانت تركب سفينة مُتجهة إلى أمريكا حيث أمثالها لم يكونوا قد تحرّروا بعد، إذ كانت أول سفينة تمكّنت من حجز رحلة عليها، ولأنها كانت بحاجة للخروج من إنجلترا بالسرعة الممكنة.

كانت قد قرأت خطاب جريفيين الذي لم يفتحه روبين قط. وفي تلك الأثناء، كانت قد قرأته عدة مرات وحفظته. صارت تعرف ثلاثة أسماء، ألا وهي: مارتليت، وأورييل، وروك. ثم تخيلت آخر جملة مكتوبة بخط غير مُنتظم قبل التوقيعات كأنها فكرة ثانوية: «لسنا الوحيدين».

لم تكن تعرف من أولئك الثلاثة، ولا معنى هذه الجملة. كانت لتعرف وكانت الحقيقة لثُرعبها، لكن في الوقت الراهن، لم تكن سوى مقاطع لفظية جميلة تدل على احتمالات متنوعة - الأمل - وهي ما كان بإمكانها التنبُّه به.

كانت الفضة تُبَطِّن جيوبها، وكانت هناك فضة في الدَّرز الداخلي لثوبها، بل الكثير من الفضة في شخصها، ما جعلها تشعر بالتبُّس والثقل حين



تتحرك. كانت عيناها مُتورّمتين بالدموع وحلقها مُحْتَقِنًا من كتمان نَحيبها. كانت وجوه أصدقائها الذين ماتوا محفورة في ذاكرتها وراحت تتخيّل لحظاتهم الأخيرة، وخوفهم وألمهم أثناء انهيار الجدران حولهم.

لم تكن، بل لن تسمح لنفسها بالتفكير في أصدقائها كما كانوا، أي أحياء ومسورين. لم تكن لتفكر في رامي الذي قضى نحبه في ريعان شبابه، ولا روبين الذي هدم برجًا فوق رأسه لأنه لم يستطع التفكير في طريقة لمواصلة العيش، ولا حتى ليتي التي ظَلَّت على قيد الحياة والتي كانت تعرف أن فيكتوار على قيد الحياة كذلك وكانت لتطاردها حتى أقصى بقاع الأرض.

كانت تعلم أن ليتي لا تستطيع السماح لها بالتجول بحرية، بل إن مجرد التفكير في فيكتوار كان يُعد تهديدًا. كان يُهدّد صميم كيائها، وكان دليلاً على أنها مخطئة، بل مخطئة دائماً.

لم تكن لتسمح لنفسها بالأسى على تلك الصداقة رغم صدقها، وبشاعتها، وطابعها المُسيء. ثم كان وقت الأسى ليأتي، وعدة ليالٍ في الرحلة يكون فيها الحزن غاية في الشدة على نحو يُهدّد بتمزيقها إربًا، وحين تندم على قرارها بأن تعيش، وحين تلعن روبين لتحميلها هذه المسؤولية، إذ كان مُحَقًّا. لم يكن شجاعًا، ولم يختر التضحية، فالموت جذّاب، وكانت فيكتوار تقاوم ذلك.

لم يكن باستطاعتها البكاء، إذ كان عليها أن تواصل المسيرة. كان يجب أن تهرب بأسرع ما في استطاعتها ودون أن تعرف ما على الجانب الآخر.

كانت مُدركة تمامًا لما ستواجهه. كانت تعلم أنها ستواجه قسوة لا حدّ لها، وأن أكبر عائق سيتمثل في اللامبالاة القاسية وليدة الاستثمار المُتَجَذّر في نظام اقتصادي يمنح الأفضلية للبعض ويُحطّم الباقين.

بيد أنها كانت لتجد حُلفاء وسبيلًا إلى الأمام.

اعتبر أنطوني النصر أمرًا حتميًّا، وكان يؤمن بأن التناقضات المادية لثُمَرَق إنجلترا، وأن حركتهم كانت لتنتج لأن مظاهر البذخ في



الإمبراطورية كانت غير قابلة للاستمرار. وقد احتجّ بأن هذا هو سبب وجود فرصة لديهم.

كانت فيكتوار تعرف أكثر.

لم يكن النصر مضموناً، بل لعله كان في البشائر، لكن كان يجب دفعه بالغُف، والمُعانة، والشهداء، والدماء. يُصنّع النصر بالبراعة، والمثابرة، والتضحية؛ فالنصر لعبة التفاصيل الصغيرة، والظروف التاريخية العرضية حيث تسير الأمور على ما يُرام لأنهم جعلوها تسير على ما يُرام.

لم تكن لتعلم ما الشكل الذي سيتخذه الصراع، فهناك العديد من المعارك تُخاض، بل الكثير من المعارك على كثير من الجبهات - في الهند، والصين، والأمريكتين - كلها مُترابطة معاً بنفس الدافع لاستغلال كل ما هو غير أبيض وغير إنجليزي. كل ما كانت تعرفه هو أنها ستكون جزءاً من كل مُنعطف غير مُتوقع وسُناضل حتى آخر نَفَس.

ذات مرة قالت لأنطوني حين سألها عن رأيها في هرمس وما إذا كانوا لينجحوا:

«ماندي موين يون تي كو أنكو دي أو».

بذل قصارى جهده في تفسير لغة الكريول مُستنداً إلى معرفته بالفرنسية، ثم استسلم وقال: «ما معنى هذا؟».

قالت فيكتوار: «لا أعرف. نقولها على الأقل حين لا نجد إجابة أو لا نهتم بمشاركة الإجابة».

«ما معناها الحرفي؟».

وعندئذ، كانت تغمز له وتقول: «سلني في وقت لاحق، وسأجيبك».



شكر وتقدير

تدور أحداث رواية بابل حول عوالم اللغات، والثقافات، والتواريخ والتي لا أعرف عن الكثير منها. ولم يكن ليتسنى لي الكتابة عنها لولا الأصدقاء الذين شاركوني معارفهم. أود أن أوجه لهم كل الشكر والتقدير على الترتيب:

أولاً، أود أن أوجه الشكر إلى بينج شيرد، وإيهيجور شولتز، وفرحناز ريشي وسارة موغال، وناتالي جيديون لمساعدتهم لي على رسم شخصيات روبين، ورامي وفيكتوار بشغف ودقة. كما أشكر كارولين مان وأليسون ريسنيك على خبرتهم في الكلاسيكيات، وأتوجه بالشكر إلى كارولين فورسمان، وسعودية جانيو، ودي أندري فيرييرا لمساعدتهم في الترجمات، وأشكر أساتذتي الأعزاء بجامعة بيل، وخصوصاً جينج تسو، وليزا لو، ودينيس هو على تشكيل أفكاره حول الاستعمارية، وما بعد الاستعمار، وتأثير اللغة على السلطة.

وقد دعمتني فرق رائعة في هاربر فويджер على ضفتي المحيط. أشكر مُحَرَّرِي ديفيد بوميريكو وناتاشا باردون، وكذلك فلير كلارك، وسوزانا بيدين، وروبين واتس وفيكي ليتش، وجاك رينينسون، وميريا شيريبوجا، وهولي رايسباتورين ودجي دي سمايتز.

شكراً لجميع الفنانين الذين جعلوا رواية بابل تظهر بشكلها هذا، وهم نيكو ديلورت، وكيمبرلي جيد ماكدونالد، وهولي ماكدونالد.

وأتوجه كذلك بالشكر إلى هنا بومان والتي لم يكن كل هذا لُتَبَاح دونها، وإلى كل الفريق العامل في ليزا دوسون أسوشيتس، وخصوصاً هافيس دوسون، وجوان فاليرت، ولورين بانكا وليزا دوسون.

أشكر جوليوس برايت-روس، وتايلور فاندريك، وكاتي أونل، ومقهي فولتس أند جاردين الذين جعلوني أتحمل تلك الأشهر الغربية والحزينة في أوكسفورد. كما أتوجه بالشكر إلى رفقة نيو هافين، توكي أونيبوتشي،



وأكانشكا شاه، وجيمس جنسن على البيتزا والضحك. أوجه تحية كبيرة إلى
ذا جريت إج!

أشكر تيف وكريس على المساعدة على إدارة كوكوز كوكو، ذاك المقهى
الرائع والمتعدد الأبعاد، الذي يمتلكه كلب! فقد كتبت هناك معظم مخطوطة
الرواية.

أشكر بينيت الذي كان خير رفيق أتمناه أثناء ذاك العام الطويل المؤجش
الذي قضيته في تجميع بابل، فقد ساعدتني نصائحه على رسم العديد من
تفاصيل هذه القصة. كان يريد أن يعرف الجميع أنه من اقترح عنوان الرواية
وجمعية هرمس. فبينما أتمتع بحس أدبي، يتحلّى هو بفن اختيار الأشياء
الرائعة.

وأخيراً، أود أن أشكر والديّ اللذين أدين لهما بكل شيء.



تم تجهيز هذه النسخة بواسطة:

• ميساء طه •

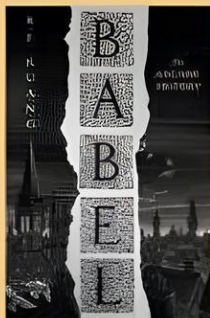
جميع الحقوق محفوظة ©



مكتبة ضاد الإلكترونية
t.me/twinkling4



أمسح الكود وانضم لأسرة ضاد
<https://t.me/twinkling4>



الترجمة مهما بلغت من الإتقان صورة من صور الخيانة!

أوكسفورد، 1836

في وسط مدينة أبراج الأحلام، مركز
المعرفة والتقدم في العالم، يقع بابل،
المعهد الملكي للترجمة؛ البرج الذي
تندفق منه قوة الإمبراطورية.

بعد أن أصبح روبن سويفت يتيماً وقد أحضره إلى إنجلترا وصي
غامض، بدا له بابل كأنه جنة نزلت من السماء!
إلى أن تحول بابل إلى سجن...

فهل يستطيع طالب الوقوف في وجه إمبراطورية؟

